رسائل جامعية (٢٠)

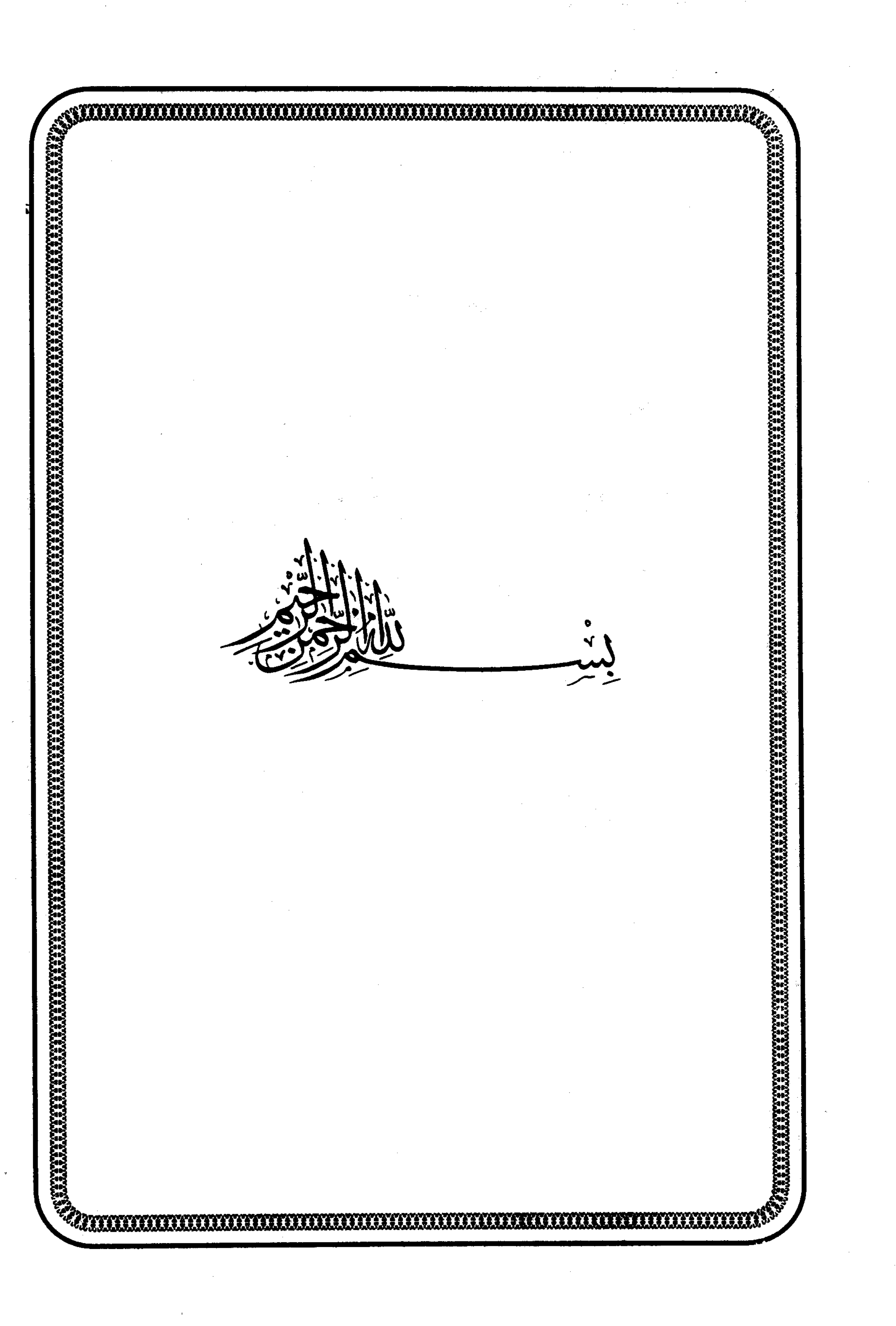
دعوة التقريب بين الأديان

دراسة نقدية في ضوء العقيدة الإسلامية

تأليف
الدكتور أحمد بن عبد الرحمن بن عثمان القاضي

المجلد الأول

دار ابن الجوزي


بسم الله الرحمن الرحيم

أصل هذا الكتاب رسالة علمية تقدم بها المؤلف لنيل درجة «الدكتوراه» في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ الرياض ـ وقد جرت مناقشتها ضحىٰ يوم الاثنين الموافق ١٧/٨/ ١٤٢١هـ، ومنح الباحث مرتبة الشرف الأولىٰ، مع التوصية بطبع الرسالة وتبادلها بين الجامعات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد:

فقد منَّ الله على المؤمنين، إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم، يتلو عليهم آياته ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، فأقام الله به الحجّة، وأوضح المحجة. أرسله الله تعالى على حين فترة من الرسل بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله، وقد كان الناس في جاهلية جهلاء، وضلالة عمياء، يستوي في ذلك كتابيّهم، ومشركهم، كما قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾﴾ [البينة]، (والناس إذ ذاك أحد رجلين: إما كتابيّ معتصم بكتاب؛ إما مبدل، وإما منسوخ، ودين دارس، بعضه مجهول، وبعضه متروك. وإما أميّ من عربي وعجمي، مقبل على عبادة ما استحسنه، وظن أنه ينفعه: من نجم، أو وثن، أو قبرٍ، أو تمثال، أو غير ذلك)(١) فحق عليهم، قوله تعالى في الحديث القدسي: «إني خلقت عبادي حنفاء كلهم،

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم. ابن تيمية، أبو العباس، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم الحراني.
تحقيق: د. ناصر عبد الكريم العقل. مكتبة الرشد. الرياض. الطبعة الرابعة (١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م). (١/ ٦٣).

وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللتُ لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً. وإن الله نظر إلى أهل الأرض، فمقتهم، عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب. وقال: إنما بعثتك لأبتليك، وأبتلي بك، وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء...»(١)، ففتح الله به قلوباً غلفاً، وأعيناً عمياً، وآذاناً صماً، ممن سبقت لهم من الله الحسنى، من أهل الكتاب والأميين. فقال من آمن من أهل الكتاب: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [القصص]، وقال من آمن من الأميين: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾ [آل عمران].

وأما الذين غلبت عليهم شقوتهم، واستنكفوا، واستكبروا، فشرقوا بدعوته ولم يرفعوا بها رأساً، ولم يقبلوا ما بعثه الله به من الهدى والعلم.

لقد كانت رسالته ﷺ رحمة للعالمين، وبركة على الخلق أجمعين. فبلَّغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وتركها على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك. وخلفه ﷺ في

---

(١) صحيح مسلم. مسلم بن الحجاج القشيري. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. نشر وتوزيع: إدارات البحوث العلمية والإفتاء. الرياض. الطبعة (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م). (٤/٢١٩٧).

أمته الخلفاء الراشدون، والأئمة المهديون، الذين يمسّكون بالكتاب، وينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين.
فأحيا الله بهذا النبي الكريم ما اندرس من ملة إبراهيم، وسنن المرسلين، من توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، ونبذ ما ابتدعه من سفه نفسه، ورغب عن ملة إبراهيم، من اليهود والنصارى والمشركين.
وأكمل الله لهذه الأمة الدين، وأتم عليها النعمة، ورضي لها الإسلام ديناً، حتى صارت خير أمةٍ أخرجت للناس، كما وصفها ربها: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران] فنسخ الله بدين الإسلام سائر الأديان، وجعل القرآن، آخر كتبه نزولاً، وأحدثها عهداً به؛ مصدقاً لما بين يديه من الكتاب، ومهيمناً عليه، وافترض على جميع الخلق الإيمان بنبيه الخاتم واتباعه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِى لَهُۥ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِىِّ الْأُمِّىِّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف]، فمن ابتغى غير الإسلام ديناً خاب وخسر: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى الْـَٔاخِرَةِ مِنَ الْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران]، ومن طلب الهدى من غير القرآن أضله الله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة]. ومن سمع بنبيه محمد ﷺ ولم يؤمن به أكبه الله في النار: «والذي نفس محمد بيده! لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار»(١). وكل هذا معلومٌ من الدين بالضرورة، لكونه من أصول الإسلام، ومعاقد الإيمان.

---

(١) صحيح مسلم (١/ ١٣٤).

ولم يدر بخَلَد أحدٍ من أمة الإسلام أن يسعى إلى توفيقٍ أو تلفيق أو توحيد أو تقريب، بين دين الإسلام وما سواه من الأديان، بل ولا يخطر بالبال، ولا يكاد، عند من فقه مراد الله، ودخل الإيمان قلبه. إن هي إلا همهمات ومؤامرات في دهاليز الباطنية المظلمة، وهذيانات وشطحات في عقول غلاة المتصوفة ما كانوا ليجهروا بها على الملأ، وما ينبغي لهم وما يستطيعون. وإلا لسحقتهم أقدام، وانبرت لهم أقلام، ورفعت لحربهم أعلام.

ولكن الزمان استدار، فعز العلم، وفشا الجهل، وانخذل أهل الإسلام، واستطال الكفار، فعصفت بأمم الأرض مذاهب شتى، ومقالات سوء، نشأت في أحضان الغرب النصراني، ترضع من لبان يهود، حتى نمت وترعرعت، وامتدت أغصانها، واسترسلت في فناء المسلمين وعقر دارهم، وليس لعرقٍ ظالم حق.

فمن هذه المقالات التي استحالت دعوات، دعوة التقريب بين الأديان، التي خرجت من حيز الكمون إلى فضاء الاستعلان، ومن طور الفكرة، إلى مرحلة التنفيذ، في العقود الأربعة الماضية. تدعو المسلمين إلى حل عرى الدين، وموادّة الكافرين وجعل المسلمين كالمجرمين، وكسر حاجز النفرة من المشركين. وقد تذرع دعاتها بألوان الحيل، وتوسَّلوا بزخرف القول، وبهرج العمل، لتسليكها بين المسلمين، وتأنيسها، وتوطينها، وأوضعوا خلالهم يبغونهم الفتنة، ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧].

فمنذ انعقاد المجمع الفاتيكاني الثاني (١٩٦٢م إلى ١٩٦٥م) الذي تواضع فيه أساقفة الكاثوليك على هجر عبارتهم العتيقة: (لا خلاص خارج الكنيسة)، وتوسيع مفهوم «الخلاص» ليشمل غير النصارى، ومؤتمرات التقريب بين الأديان بعامة، وبين الإسلام والنصرانية خاصة تجري على قدمٍ وساق، حتى بلغ عددها خلال العقود الأربعة المنصرمة

- حسب علمي - ثلاثمائة مؤتمر، بل فاق. وأنشئت لها المراكز المتخصصة، وجمعيات الصداقة، بل وشيدت لها مجامع الأديان المؤلفة من كنيسٍ وكنيسة ومعبدٍ ومسجد، وأقيمت لأجلها الصلوات المشتركة!!!

إن ظهور «دعوة التقريب بين الأديان» بثوبها الجديد، وانتشارها الواسع في جميع بقاع المعمورة، يعد «نازلة» جديدة، «وبدعة» حديثة، تتطلب مواجهةً واعية تقوم على دراسة حقيقتها، وتتبع أصولها، واستقراء واقعها، لمعرفة أهدافها وبواعثها، وكشف عوارها وخطرها على المسلمين.

ومما يؤكد ضرورة الاهتمام بهذه الدعوة، ونقدها في ضوء العقيدة الإسلامية ما يلي:

أولاً: خطر هذه الدعوة على أصول الاعتقاد عند المسلمين، من الإيمان بالله وكتبه ورسله، واستزلالهم إلى تصويب عقائد الكفار، وتصحيح أديانهم.

ثانياً: مواكبة هذه الدعوة للاتجاه العالمي السائر نحو «العولمة»، التي ترمي إلى القضاء على الخصائص العقدية والتشريعية والاجتماعية وغيرها، للمجتمع الإسلامي، وصهره في بوتقة «العالمية» مع اليهود والنصارى والذين لا يعلمون.

ثالثاً: الدعم الكبير الذي تحظى به هذه الدعوة من قبل أئمة الكفر، وترويجها بمختلف الوسائل الإعلامية، وإدانة ما يضادها، ووصفه بـ«التعصب» و«الأصولية» تمهيداً لسلخ المسلمين عن دينهم الذي ارتضاه الله لهم.

رابعاً: الانفتاح العالمي الهائل الذي حصل في العقود الأخيرة، اجتماعياً وثقافياً وإعلامياً، واختلاط الأعراق والشعوب المختلفة،

وشيوع المعتقدات والعادات المتنوعة عبر القنوات الفضائية، مما أحال العالم الفسيح إلى قرية كونية دانية الأطراف، وسوغ الدعوة إلى التقريب بين الأديان والحضارات.

خامساً: عدم التكافؤ المادي بين الأمم الإسلامية، وكثير من أمم النصارى واليهود، حيث يرزح المسلمون تحت ضغط التخلف الاقتصادي والسياسي والاجتماعي، ويسلبهم الشعور بالاستعلاء والخيرية الضروريين للأخذ بزمام المبادرة، ويجعلهم مسوقين للطرف الأقوى.

سادساً: انزلاق بعض المنتسبين إلى الإسلام، والمحسوبين عليه، إلى مزالق عقدية خطيرة في هذا المجال، حيث فاهوا بما يخالف الكتاب والسنة والإجماع، واجترحوا من الأفعال والممارسات ما ينقض عقيدة الولاء والبراء. ثم نالوا حظاً من التصدير والتفخيم ليغتر بهم العامة، ويتخذوهم أئمة.

سابعاً: عدم وجود دراسة متوسعة ـ حسب علمي ـ عنيت بفحص مناشط هذه الدعوة على المستوى العالمي، وتحليلها، ونقدها في ضوء العقيدة الإسلامية.

ثامناً: وهو الأهم، الحاجة الماسة إلى إحياء المنهج الشرعي في مخاطبة أهل الكتاب، ودعوتهم بالحكمة والموعظة الحسنة، ومجادلتهم بالتي هي أحسن، واهتبال الإمكانات الإعلامية الكبيرة، والأوضاع الديموقراطية السائدة في الغرب لتبليغ دين الله، وهداية الخلق، وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

لهذه الأسباب، وقع اختياري، وانصب اهتمامي على هذا الموضوع.

وقد أدركت منذ البداية ـ إدراكاً مجملاً ـ سعة الموضوع في

الرقعة الزمانية والمكانية، وتشعب طرقه، وصعوبة لوازمه، من حيث جمع المادة ودراستها ولكني استخرت الله تعالى، واستعنت به، واستشرت أهل الخبرة من مشايخي الأجلاء وإخواني الكرام، فألفيت انشراحاً في نفسي، وهمة في عزمي، وتشجيعاً وحفزاً من مشايخي وإخواني، وما ندم من استخار الخالق، وشاور المخلوق، وتثبت في أمره. وإني لأرجو الله أن يكون هذا البحث عملاً مبروراً، وجهداً مشكوراً، خالصاً لوجهه، نافعاً لعباده، مفتاحاً للخير، مغلاقاً للشر، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

مراحل إعداد هذه الدراسة:

أ ـ جمع المادة العلمية: قام الباحث بحضور معارض الكتب التالية، لتوفير مادة البحث:

١ ـ معرض «عمّان» الدولي للكتاب، المنعقد في الفترة: (٢٤ ـ ٢٨/ ٥/ ١٤١٧هـ).

٢ ـ معرض الكتاب اللبناني الدائم في بيروت، ومكتبات النصارى المختلفة.

٣ ـ معرض القاهرة الدولي للكتاب، المنعقد في الفترة: (١٤ ـ ٢٤/ ٩/ ١٤١٧هـ).

٤ ـ معرض الشارقة الدولي للكتاب، المنعقد في الفترة: (٤ ـ ١٥/ ٧/ ١٤١٨هـ).

بالإضافة إلى الاستفادة من الخدمات الثقافية المميزة التي يقدمها كلٌّ من:

- مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في الرياض.
- مكتبة الملك فهد الوطنية، في الرياض.

وغيرهما من المكتبات الجامعية والعامة في الداخل والخارج، ومحفوظات رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة. كما أن حيوية الموضوع والاهتمام العالمي به، وتتابع مؤتمراته ومنتدياته في العديد من المواقع في العالم، أوجب متابعة مستمرة لما تنشره وسائل الإعلام حول هذه القضية، ومراجعةً لما سبق نشره.

ب - **زيارة المراكز والمؤسسات** المعنية بقضية التقريب والحوار بين الأديان، والوقوف عن كثب على أهدافها، ومناشطها، وإنتاجها الفكري، ومشاريعها العملية. وكان منها:

١ - زيارة المعهد الملكي للدراسات الدينية في عمَّان - الأردن - يوم الأربعاء الموافق ٢٧/ ٥/ ١٤١٧هـ.

٢ - زيارة مركز الدراسات المسيحية الإسلامية، التابع لجامعة البلمند الأرثذوكسية قرب طرابلس - لبنان - يوم الاثنين الموافق ٨/ ٤/ ١٤١٨هـ.

٣ - زيارة معهد الدراسات الإسلامية والمسيحية، التابع لجامعة القديس يوسف في بيروت يوم الاثنين الموافق ٨/ ٤/ ١٤١٨هـ.

٤ - زيارة مقر المجمع البابوي للحوار بين الأديان PCID في الفاتيكان، يوم الثلاثاء الموافق ٢٧/ ٣/ ١٤١٩هـ.

٥ - زيارة مقر جمعية سانت إيجيديو، في روما - إيطاليا - يوم الثلاثاء الموافق ٢٧/ ٣/ ١٤١٩هـ.

٦ - زيارة مقر جمعية «كريسلام» CRISLAM في مدريد - إسبانيا - يوم الأربعاء الموافق ٥/ ٤/ ١٤١٩هـ.

٧ - زيارة المركز الثقافي في القلعة الحرة، في قرطبة - إسبانيا - مؤسسة روجيه جارودي يوم الجمعة الموافق ٧/ ٤/ ١٤١٩هـ.

كما قام الباحث بزيارة بعض دول جنوب شرقي آسيا (ماليزيا،

سنغفورة، أندونيسيا) والوقوف على بعض آثار هذه الدعوة في الأوساط الإسلامية، في صيف عام ١٤٢٠هـ.

ج ـ **إجراء لقاءات ومحاورات** مع المعنيين بقضية التقريب والحوار بين الأديان لاستجلاء أبعاد الموضوع وجوانبه التي لا تكشفها الكتابات والشعارات المعلنة، بل تتبدى في ماجريات النقاش. وقد تحاور الباحث مع العديد من المسلمين وغير المسلمين، النصارى خاصة، في هذا الموضوع، ومن أبرزهم:

١ ـ المونسنيور: ميشيل فيتزجيرالد، أمين المجمع البابوي للحوار بين الأديان في الكنيسة الكاثوليكية يوم الثلاثاء الموافق ٢٧/٣/١٤١٩هـ، في الفاتيكان.

٢ ـ الدكتور: ياناري، نائب رئيس جمعية سانت إيجيديو يوم الثلاثاء الموافق ٢٧/٣/١٤١٩هـ، في روما.

٣ ـ الدكتور طارق متري، أمين مجلس الكنائس العالمي للعلاقات بين الأديان، يوم الاثنين الموافق ٨/٤/١٤١٨هـ، في بيروت.

٤ ـ الدكتور رضوان السيد رئيس تحرير مجلة الاجتهاد، المشارك، يومي الجمعة والسبت الموافقين ٢٩، ٣٠/٥/١٤١٧هـ، ويوم الجمعة ٥/٤/١٤١٨هـ، في بيروت.

٥ ـ الدكتور جورج مسُّوح نائب مدير جامعة البلمند، ومدير مركز الدراسات الإسلامية والمسيحية يوم الاثنين الموافق ٨/٤/١٤١٨هـ، في البلمند، قرب طرابلس.

٦ ـ الأب الأسباني إيمليو غاليندو آغيلار، مؤسس جماعة «كريسلام»، يوم الأربعاء ٥/٤/١٤١٩هـ، في مدريد.

بالإضافة إلى عددٍ من الشخصيات العلمية والدعوية في أوربا وأندونيسيا وماليزيا، ورابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة.

د ـ **صياغة البحث**: توفر لدى الباحث مادة علمية كثيرة، متعددة الجوانب، متشعبة الأطراف، تحتل مساحة جغرافية واسعة، وتوغل في أعماق التاريخ. وتتفاعل باستمرار في الراهن، وتستشرف المستقبل. وكانت أبرز صعوبات البحث تتمثل في الجوانب التالية:

١ ـ سعة مجال البحث، فهو لا يختص بحقبة تاريخية معينة، ولا يقتصر على دراسة قضية التقريب بين الأديان في بلدٍ معين، ولا يقف عند حدٍ زمني معين.

٢ ـ تعدد اللغات التي كتبت بها بعض مراجع البحث، مما حمل الباحث على ترجمة بعض النصوص إلى العربية، بنفسه، كالإنجليزية، وبالاستعانة بالناطقين بها كالإيطالية والاسبانية والإندونيسية.

٣ ـ كثرة محاولات التقريب في السنوات الأخيرة، وتلاحقها، بما يشق معه حصرها والإحاطة بما يكتب حولها في الصحف والمجلات ودور النشر. فلا يكاد يمر أسبوع أو نحوه، حتى يقع الطرف، أو يطرق الأذن نبأ جديد ذو صلة بالموضوع.

وقد قسمت البحث إلى: تمهيد، وثلاثة أبوابٍ، وخاتمة، وبعض الملاحق التوثيقية والتوضيحية.

فجعلت **التمهيد** متضمناً جملةً من الأصول العقدية والتشريعية التي تضبط العلاقة بين دين الله الإسلام، وسائر الملل والنحل التي تسمى «أدياناً» عبر خمسة مباحث:

فعرفت بدين الإسلام، ثم أتبعته بتعريف الراغبين عنه من أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وكيف حادوا عن ملة إبراهيم، وثلثت ببيان الأحكام العقدية التي يستحقونها في باب أسماء الدين والإيمان، والأحكام العملية في باب الموالاة والمعاداة، وصفة معاملتهم. ثم

كشفت عن موقف أهل الكتاب، الذين يريد دعاة التقريب مقاربتهم، من الإسلام وكتابه ونبيه ﷺ. وأخيراً، ألممت بلمحة تاريخية عن طبيعة العلاقات بين أهل الإسلام وأهل الكتاب عبر القرون الخالية، حتى عصرنا الراهن، فيها عبرة وذكرى لمن همَّ أن يخرق النواميس الشرعية، والسنن الإلهية.

أما الباب الأول: فخصصته لاستجلاء حقيقة التقريب، وتحديد مدلولاته المختلفة، ودرجاته المتفاوتة، وبيان الخطوط العريضة لكل درجة، والتمثيل لها ببعض المحاولات القديمة والحديثة.

ثم تتبعت الأصول التاريخية لنشأة الدعوة إلى التقريب بين الأديان لدى مختلف الفرقاء، من يهودٍ ونصارى ومنتسبين إلى الإسلام في العصور السالفة.

ثم أفضت في الحديث عن حقيقة التقريب بين الأديان في العصر الحديث، من خلال ما صدر عن المجامع الدينية، والقيادات المرجعية لأهل الكتاب من مختلف طوائفهم الكبرى كالكنيسة الكاثوليكية، ومجلس الكنائس العالمي، ومجالس النصارى العرب. وما جرت به أقلام بعض المفتونين من الإسلاميين العصرانيين من دعاة التقريب. وحاولت تحليل مفهوم التقريب لدى كل طرف، واستخلاص نتائجه.

ثم ختمت الباب الأول باستنباط بواعث التقريب المختلفة والمتعددة، التي تحمل كل طائفة على السعي في هذا المضمار.

وبعد بيان الجانب النظري لحقيقة التقريب في الماضي والحاضر، ومعرفة بواعثها في الباب الأول، جعلت **الباب الثاني** في بيان المحاولات الفردية والجماعية للتقريب بين الأديان في العصر الحديث. فاخترت في الفصل الأول منه نماذج بارزة جمعت بين التنظير الفكري، والنشاط العملي لترسيخ هذه الدعوة. أما الفصل الثاني فحشدت فيه كل

ما بلغه علمي من أنواع المحاولات الجماعية الصادرة عن هيئاتٍ أو جهاتٍ دينية أو مدنية في صورة مؤتمرات ثنائية، أو ثلاثية، أو متعددة، حتى تجاوز عددها ثلاثمائة مؤتمر في شتى أصقاع المعمورة. وحاولت إلى جانب التوصيف الإحصائي تحليل بعض المحاولات ودوافعها لدى الأفراد والجهات المختلفة.

أما الباب الثالث: فأفردته للنقد والتقويم. ففي الفصل الأول منه نقدت هذه الدعوة في ضوء العقيدة الإسلامية، واستشهدت بدلالة الواقع الراهن على فسادها ثم كشفت بعض الشبهات التي يتعلل بها الراكضون خلف سراب التقريب.

وفي الفصل الثاني قدمت الأصل الشرعي - ولا أقول البديل - الذي يتعين الرجوع إليه، والعض عليه بالنواجذ، وهو الدعوة بدعاية الإسلام مضموناً وأسلوباً، مهتدياً بنصوص الكتاب والسنة والسيرة النبوية المحفوظة، مستنيراً بعمل سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين، وتابعيهم بإحسانٍ إلى عصرنا الحاضر.

ثم إني ختمت البحث **بخاتمة** تتضمن تلخيصاً مركزاً لأهم نتائجه، وجملةً من التوصيات العملية التي تعتمد سلامة المنهج، وتأخذ في حسبانها الواقع الذي آلت إليه الأمة الإسلامية، والمجتمع البشري، متحاشياً أنماط التفكير الغالية، والعبارات الخطابية العاطفية. فالأمة الإسلامية مؤهلة لأن تقوم بدورها الريادي الهادي لجميع الناس، إن هي أخذت بأسباب الخيرية، وسلكت منهج النبيين.

وقد ذيلت البحث ببعض **الملاحق** التوثيقية لفتاوى بعض علماء الأمة المعاصرين، حول هذه النازلة، من هيئات وأفراد، ونصوص من خطب تحذر من خطر هذه الدعوة من أكرم منابر الإسلام في الحرمين الشريفين، إضافةً لبعض الملاحق التوضيحية التي وردت الإحالة إليها في ثنايا البحث.

هذا، وقد التزمت ـ ما وسعني ـ بقواعد البحث العلمي المقررة، ومعاييره المعتبرة، من:

١ ـ ترقيم الآيات القرآنية، وعزوها إلى مواضعها في كتاب الله.

٢ ـ تخريج الأحاديث النبوية، والآثار، وبيان درجتها. فإن كانت في الصحيحين أو أحدهما، اكتفيت بالعزو إليهما. وإن كانت في سواهما نقلت ما وجدت من كلام الأئمة المتقدمين أو المتأخرين في الحكم عليها.

٣ ـ ترجمة الأعلام، سوى المشهورين، في أول موضع يرد ذكرهم فيه من البحث.

٤ ـ توثيق المادة العلمية من مصادرها الأصلية ـ ما أمكن ـ من كتبٍ ودوريات ونشرات معتمدة.

٥ ـ التعريف بالفرق والطوائف والمواضع والمصطلحات الغريبة.

٦ ـ التعليق والاستدراك في الحاشية على بعض المعاني والألفاظ الخاطئة التي لا يعالجها صميم البحث، وترد كثيراً في المنقولات عن اليهود والنصارى وبعض العصريين من المسلمين. فأكتفي بالتنبيه عليها في موضع، عن تكرار ذلك في سائر المواضع.

كما صنعت بعض **الجداول والفهارس** الفنية لتسهيل الرجوع والاستفادة من مادة البحث، وهي:

١ ـ جدول يتضمن مسرداً بمؤتمرات التقريب بين الأديان، حسب ترتيب وقوعها الزمني، وتاريخ انعقادها، وأماكنها، وموضوعاتها، والجهات المنظمة لها.

٢ ـ جدول يتضمن قائمة بالجمعيات والمؤسسات والمراكز المعنية بقضية التقريب ـ حسب الترتيب الهجائي ـ ومقارِّها. مع الإحالة في الجدولين على مواضع ورودها في غضون البحث.

٣ - فهرس بالأحاديث النبوية الشريفة، ومواضع ورودها في البحث.
٤ - فهرس بالآثار، ومواضع ورودها في البحث.
٥ - فهرس بالأعلام المترجم لهم في الحاشية، ومواضع ورود أسمائهم في البحث.
٦ - فهرس بالفرق والطوائف، ومواضع ورودها في البحث.
٧ - فهرس بالمراجع، من كتب عربية وأعجمية، ودوريات، ونشرات وخلافه.
٨ - فهرس عام بالموضوعات.

وإني لأرجو الله تعالى أن أكون قد وفقت إلى إماطة اللثام عن الوجه الكالح لهذه البدعة الخطيرة التي هي من آخر ما تفتقت عنه عقول أهل الكتاب والمشركين لاستزلال المسلمين عن دينهم الحق، واستدراجهم إلى سبيل المجرمين، وفتنتهم عما أنزل الله إليهم، أو بعضه.

كما أرجو أن أكون قد أوقفت الباحثين والمعنيين على حجم المحاولات الضخمة التي يبذلها دعاة التقريب بين الأديان من الغربيين والعصرانيين من بني جلدتنا، عن طريق الكتابات والمؤتمرات والمشاريع العملية، لإرساء هذه الدعوة الكفرية، وإحلالها محل الدعوة الإيمانية إلى توحيد الله تعالى وعبادته، عن طريق الجمعيات والمراكز المختلفة، التي عرَّفت بالعشرات منها في هذه الدراسة، وناقشت شبهاتهم، وكشفت عن أهدافهم ومراميهم، تحذيراً للأمة، ونصحاً لله ورسوله وكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم.

وإني لمدرك تماماً أن إيفاء الموضوع حقه، يتطلب توفر عددٍ كبير من الباحثين عليه لسعة رقعته الجغرافية، وعمقه التاريخي، وتجدد مادته، وحسبي أن أكون رسمت بعض الخطوط العامة، وشرعت السبيل لغيري لاستكمال النقص، فما كان من خيرٍ وصواب فمن الله وحده، وبفضله وتوفيقه، وما كان سوى ذلك فمن نفسي والشيطان، وأستغفر الله أولاً وآخراً.

ولا يفوتني أن أتقدم بوافر الشكر والتقدير والامتنان لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، التي أتاحت لي الفرصة، وأعانتني على جمع المادة العلمية. وأزجي بالغ الشكر والعرفان بالجميل لشيخي الفاضل، المشرف على هذه الرسالة الأستاذ الدكتور ناصر بن عبد الله القفاري، حفظه الله، الذي تابع جميع مراحل إعداد الرسالة، وأفادني بتوجيهاته وتصويباته، وغمرني بلطفه وتواضعه، وكريم خلقه، جزاه الله عني خيراً. كما أشكر فضيلة الشيخ العلامة بكر بن عبد اللّه أبو زيد الذي زودني ببعض المعلومات والملاحظات القيمة.

كما أشكر جميع الهيئات والمؤسسات العلمية والثقافية والدعوية التي قدمت لي يد العون والتشجيع، وعلى رأسها رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، وغيرها، في الداخل والخارج، وكل فاضلٍ، من عالم أو أخٍ أو أهل، أمدّني برأي ثاقب، أو لفت انتباهي إلى كتاب أو خبر، أو قضَى لي حاجةً، أو دعا لي دعوةً صالحة، أسأله تعالى أن يعظم له الأجر والمثوبة، وأن يجعل له سهماً في هذا العمل، يفرح به يوم يلقاه. كما أرجو ممن وقف على هذا الكتاب، ورأىٰ فيه خطأً أو خللاً أو نقصاً، أن ينبهني عليه كتابياً أو هاتفياً، مشكوراً مأجوراً. فإن العبد مظنة الزلل والقصور، والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً، وحتى يمكن تداركه في طبعات لاحقة إن شاء الله.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. وصلى الله وسلم وبارك على خاتم النبيين، المبعوث إلى الناس أجمعين، محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه والتابعين.

كتبه/ د. أحمد بن عبد الرحمن بن عثمان القاضي
عنيزة. المملكة العربية السعودية
ص.ب. (٢٤٦) الرمز البريدي (٨١٨٨٨)
هاتف (٠٦٣٦٤٦٩٠٦) جوال (٠٥٥١٣٢٤٦٨)
البريد الإلكتروني qadisa@yahoo.com

التمهيد

ويتضمن خمسة مباحث:

* المبحث الأول: دين الإسلام.
* المبحث الثاني: أهل الكتاب.
* المبحث الثالث: حكم الإسلام في أهل الكتاب.
* المبحث الرابع: موقف أهل الكتاب من الإسلام.
* المبحث الخامس: لمحة تاريخية عن العلاقات بين المسلمين وأهل الكتاب.

المبحث الأول

دين الإسلام

خلق الله آدم عليه السلام بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وأسكنه وزوجه جنته، وأباحها لهما يأكلان منها رغداً حيث شاءا، ومنعهما من قربان شجرة معينة، فأزلهما الشيطان بوسوسته وإغرائه وفتنته ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه].

ثم أنشأ ذريته من الأرض واستعمرهم فيها، وسخر لهم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه، وجعلهم خلائف فيها، ليبلوهم فيما آتاهم من فضله، وما خولهم من نعمه، وينظر كيف يعملون فـ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [البقرة: ٢١٣] أي على دينٍ واحد، وملة واحدة، وشريعة من الحق، فاختلفوا[١]، ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

(١) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن: الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. مكتبة مصطفى البابي الحلبي. مصر. الطبعة الثالثة (١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م). (٢/ ٣٣٤ - ٣٣٧).

فأنبياء الله هم صفوته من خلقه، والواسطة بينه وبين عباده في تبليغ أمره ونهيه، وخبره وموعظته، أنزل عليهم كتبه، وأيدهم بالآيات البينات، والمعجزات الباهرات التي على مثلها يؤمن البشر، يقيم الله بهم الحجة، ويدحض بهم الشبهة، ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء].

فمن رحمته بخلقه، وإعذاره إليهم، أنه لم يدع أمةً إلا بعث فيها رسولاً: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر].

الإسلام الذي بعث الله به جميع الرسل (الإسلام العام):

ودين الله الذي بعث به أنبياءه من أولهم إلى آخرهم واحد هو «الإسلام»، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]. ودعوة الأنبياء واحدة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء]. ومفتاح دعوتهم التي يبادئون بها أقوامهم واحد: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥]. ومنهجهم واحد: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]. فلا يجوز التفريق بين رسل الله، وقد جمعهم الله، ووحد دينهم ودعوتهم: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. وأكفر سبحانه من فرق بينه وبين رسله، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾ [النساء].

وسماهم الله المسلمين، ووصفهم بالإسلام، الذي هو الاستسلام لله بالخضوع والانقياد والإذعان؛ فقال عن نوح: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس]، وقال عن إبراهيم: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [البقرة]، وعنه وعن إسماعيل: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]، وقال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران]، ووصف بذلك أنبياء بني إسرائيل قاطبة فقال: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ [المائدة: ٤٤]، وعن يعقوب وبنيه: ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة]، وقال عن لوط وأهل بيته: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الذاريات]، وعن يوسف عليه السلام: ﴿أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف]، وعن موسى وقومه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس]، ولهذا قال سحرة فرعون لما آمنوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف]، وكذا فاه بذلك فرعون لما أدركه الغرق لعلمه من موسى أنه سبيل النجاة فقال: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس]، ولكن حيث لا ينفعه ذلك. وعن سليمان وملكة سبأ: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل]، وعن الحواريين، أصحاب عيسى عليه السلام: ﴿آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة] حتى الجن تسموا بذلك فقالوا: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾﴾ [الجن].

وبما أمر الله به الأولين من الأنبياء والمرسلين، أمر نبيه محمداً ﷺ فقال: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الزمر]، ﴿وَأُمِرْتُ

أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر]، ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ [النمل]، فامتثل أمر ربه وقال: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام].

وبذلك يتبين أن دين الله واحد هو «الإسلام»، ولا دين سواه. ولهذا أرشد الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً ﷺ أن يعتصم بهذا الأصل العظيم، ويأوي إلى هذا الركن المتين عند مجادلة أهل الكتاب وغيرهم، ويفاصلهم على أساسه فقال: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾ [آل عمران]، فمن سبقت له من الله الحسنى اغتبط بنعمة الله، وعرف دين الله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ [القصص: ٥٢ ـ ٥٤]، ومن تولى وأعرض، فقد أمر الله عباده أن يقولوا لهم: ﴿ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران]. فليس لله دينٌ يعبد به سوى الإسلام، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران].

وإنما حصل التنوع في الشرائع التي شرعها الله لكل أمة على لسان نبيها ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال ﷺ: «الأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد»[(١)]. قال شيخ الإسلام ابن تيمية[(٢)] رحمه الله تعالى: (فدينهم واحد، وهو عبادة الله

---

(١) صحيح البخاري: البخاري، محمد بن إسماعيل. المكتب الإسلامي. استانبول. طبعة ١٩٧٩م. (١٤٢/٤)، صحيح مسلم (١٨٣٧/٤).

(٢) أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحراني الدمشقي الحنبلي، أبو العباس، تقي الدين، ابن تيمية، ولد في حران ثم انتقل إلى دمشق، فنبغ واشتهر وبرع في كل فن، وأفتى ودرس وهو دون العشرين، وكان قوياً في ذات الله، =

وحده لا شريك له، وهو يعبد في كل وقتٍ بما أمر به في ذلك الوقت، وذلك هو دين الإسلام في ذلك الوقت. وتنوع الشرائع في الناسخ والمنسوخ من المشروع، كتنوع الشريعة الواحدة. فكما أن دين الإسلام الذي بعث الله به محمداً ﷺ هو دين واحد، مع أنه قد كان في وقتٍ يجب استقبال بيت المقدس في الصلاة، كما أمر المسلمون بذلك بعد الهجرة ببضعة عشر شهراً، وبعد ذلك يجب استقبال الكعبة، ويحرم استقبال الصخرة. فالدين واحد وإن تنوعت القبلة في وقتين من أوقاته. فهكذا شرع الله تعالى لبني إسرائيل السبت، ثم نسخ ذلك وشرع الجمعة، فكان الاجتماع يوم السبت واجباً إذ ذاك ثم صار الواجب هو الاجتماع يوم الجمعة وحرم الاجتماع يوم السبت. فمن خرج عن شريعة موسى قبل النسخ لم يكن مسلماً ومن لم يدخل في شريعة محمد ﷺ بعد النسخ لم يكن مسلماً)[(١)].

وهذا هو المعنى الصحيح الوحيد لوحدة الدين، وما سوى ذاك وسواس الشياطين. وقد ختم الله النبوة بمحمدٍ ﷺ: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ

= شديداً على أهل البدع، ولقي بسبب صدعه في الحق الأذى الكثير، وسجن مراراً بسبب ذلك، فصبر واحتمل حتى لقي ربه وهو معتقل في قلعة دمشق سنة (٧٢٨هـ)، فخرجت دمشق كلها في جنازته. وكان ؒ يحارب التقليد والبدع، وتعتبر مؤلفاته مرجعاً لمذهب أهل السنة والجماعة، فمن مؤلفاته «منهاج السنة النبوية» و«درء تعارض العقل والنقل» و«الإيمان» وغيرها كثير. وهي غزيرة الفوائد، مكنوزة بالعلم المستند على الكتاب والسنة، وقد جمع فتاويه الشيخ عبد الرحمن بن قاسم في سبعة وثلاثين مجلداً.

راجع الأعلام: خير الدين الزركلي. دار العلم للملايين. بيروت ـ لبنان. الطبعة السادسة ١٩٨٤م. (١/ ١٤٤)، فوات الوفيات (١/ ٣٥ ـ ٤٥)، الدرر الكامنة (١/ ١٤٤)، البداية والنهاية (١٤/ ١٣٥)، آداب اللغة (٣/ ٢٤٣)، النجوم الزاهرة (٩/ ٢٧١).

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (٢/ ٨٤٨ ـ ٨٤٩).

﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وجعل رسالته للناس كافة عربهم وعجمهم: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبا: ٢٨]. فالإسلام العام هو ما بعث الله به جميع الأنبياء والمرسلين من لدن نوح إلى محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، والإسلام الخاص هو ما جاء به محمد ﷺ من هدى وبيان، وحلالٍ وحرام ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٨٤]، فنسخ الله به جميع الرسالات والشرائع السابقة، فمن أدركه ولم يدخل في عقده كان من أهل النار، كما في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن أبي هريرة(١) مرفوعاً: (والذي نفس محمدٍ بيده، لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت وهو لم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار)(٢). فتلك هي وحدة الدين التي تنتظم الشرائع جميعاً في عقد الإسلام العام، ثم تختتمها بما أكمل الله به الدين وأتم به النعمة وهو الإسلام الخاص. فلا يعبد الله في المشرق بما لا يعبد به في المغرب، بل الدين واحد، كما أن المعبود واحد. فمن جوَّز أو سوغ «تعدد الأديان» وأنها الآن طرق تؤدي إلى الله فقد افترى على الله الكذب، وقال على الله بغير علم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأنعام].

ولهذا ذهب بعض المحققين المعاصرين، وهو الشيخ محمود

---

(١) أبو هريرة: عبد الرحمن بن صخر الدوسي، كان أكثر الصحابة حفظاً للحديث. قدم على رسول الله ﷺ، في السنة السابعة من الهجرة، وروى عنه ما يقرب من (٥٣٧٤) حديثاً، وتوفي سنة ٥٩هـ رضي الله عنه وأرضاه.
الأعلام (٣/٣٠٨)، الإصابة ت (١١٧٩)، تهذيب الأسماء واللغات (٢/٢٧٠)، حلية الأولياء (١/٣٧٦)، الجواهر المضية (٢/٤١٨).

(٢) صحيح مسلم: (١/ ١٣٤).

محمد شاكر[١] رحمه الله، إلى منع إطلاق لفظ «الدين» على ما سوى «الإسلام» فقال: (فصار بيناً بعد هذا أن الله سبحانه لا يرضى لنا أن نسمي شيئاً من الملل، من نصرانية ويهودية وغيرهما «ديناً»، سوى ملة أبينا إبراهيم عليه السلام، وملة أنبيائه جميعاً، وهي «الإسلام» «دين الله» الذي لا يقبل من عباده ديناً سواه، والذي أرسل به رسوله محمداً ﷺ ليبطل الملل كلها، ولا يكون شيءٌ منها يسمى «ديناً» سوى «الإسلام». وإذاً فقول المسلم مثلاً: «الأديان السماوية» قول مخالفٌ لعقيدة أهل الإسلام في حقيقة هذه الملل)[٢]. وما قاله رحمه الله حقٌّ لا مرية فيه بالنظر إلى المدلول الشرعي لكلمة «دين»، وهو ما بعث الله به أنبياءه ورسله، فهو واحدٌ لا يتعدد، وهو «الإسلام». ولكن بالنظر إلى المعنى اللغوي الدال على العادة والشأن ومطلق الطاعة[٣]، فإن الأمر واسع، فيتناول الدين

---

(١) ولد في الإسكندرية عام (١٣٢٧هـ ـ ١٩٠٩م). تلقىٰ تعليمه الأولي في القاهرة. وفي عام (١٩٢٦م) التحق بقسم اللغة العربية في كلية الآداب بالجامعة المصرية، واستمر بها إلى السنة الثانية، ثم نشب بينه وبين طه حسين خلاف شديد حول منهج دراسة الشعر الجاهلي أدىٰ إلى تركه الدراسة الجامعية. سافر إلى الحجاز عام (١٣٤٧م ١٩٢٨م)، وأسس مدرسة جدة السعودية الابتدائية بناءً على طلب من الملك عبد العزيز آل سعود ـ رحمه الله ـ عاد إلى القاهرة بعد عام واحد واشتغل بالتأليف والكتابة الصحفية، وتحقيق النصوص وإخراج التراث. من مؤلفاته: (المتنبي)، (أباطيل وأسمار)، وحقق ثمانية كتب من كتب التراث، وله قصائد ومقالات منوعة. نال جائزة الدولة التقديرية في الآداب عام (١٩٨١)، وعضوية مجمع اللغة العربية في القاهرة، وجائزة الملك فيصل، وتوفي في الثالث من ربيع الآخر عام (١٤١٨هـ) رحمه الله. انظر النشرة التعريفية الصادرة عن هيئة جائزة الملك فيصل.

(٢) أباطيل وأسمار: محمود محمد شاكر. مطبعة المدني. القاهرة. الطبعة الثانية. ١٣٩١هـ ـ ١٩٧٢م. (٢/ ٥٥٠ـ ٥٥١).

(٣) قال الجوهري: (والدِينُ بالكسر: العادة والشأن. قال:

تقول إذا درأت لها وضيني ... أهذا دينه أبداً وديني . . . =

الحق الذي هو الإسلام، وسائر البدع والضلالات والأحوال والتقاليد التي يسير عليها بعض الناس. ولهذا قيد الله تعالى لفظ «الدين» في مواضع من كتابه فقال: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣]، ووصفه بما يخصصه فقال: ﴿دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف: ٩]، و﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [التوبة: ٣٦، يوسف: ٤٠، الروم: ٣٠، ٤٣]. و﴿دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]، و﴿دِينًا قِيَمًا﴾ [الأنعام: ١٦١].

كما أضاف سبحانه لفظ «الدين» إلى غيره، فقال: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ [يوسف: ٧٦]، وسمى ما عليه المنحرفون من أهل الكتاب والكفار ديناً فقال: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون]، وعن فرعون وقومه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ [غافر: ٢٦]، وعن اليهود: ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران]، وذمَّ ﴿ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ [الأنعام: ١٥٩، الروم: ٣٢]، وعن أهل الكتاب: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة: ٢٩]، وإنما تديَّنوا بسواه. بل سمى سبحانه ما أحدثه المحرفون من اللعب واللهو ديناً فقال: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ [الأنعام: ٧٠]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ [الأعراف: ٥١].

فتبين بذلك جواز إطلاق لفظ «الدين» و«الأديان» على ما سوى الإسلام، باعتبار تدينهم بها، كما جاز إطلاق لفظ «الآلهة» على ما يعبد من دون الله، مع أنه «الإله» الواحد الحق، باعتبار تأليههم لها.

= والدين: الطاعة. ودان له، أي أطاعه. قال عمرو بن كلثوم:

وأيام لنا ولهم طِوال عصينا المَلْك فيها أن ندينا

ومنه الدين؛ والجمع الأديان. يقال: دان بكذا ديانةً، وتدين به، فهو دَيِّن ومتديِّن). الصحاح: الجوهري، إسماعيل بن حماد. تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار. دار العلم للملايين. بيروت. الطبعة الثانية (١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م). (٥/ ٢١١٨ ـ ٢١١٩).

وعلى هذا الإطلاق جرى المصنفون من المسلمين قديماً وحديثاً(١).

أما وصف تلك الأديان ـ سوى الإسلام ـ بـ: «السماوية» فوصفٌ باطل، لما يحمله من دلالة باطلة، من كونها نزلت من السماء، والواقع أنها تحريف لما نزل من السماء(٢). وكذلك التعبير بـ«الأديان الثلاثة» عن الإسلام واليهودية والنصرانية، فإن فيه غضاً من الإسلام، وإيحاءً بأن هذه «الثلاثة» متساوية. قال شيخنا محمد بن صالح العثيمين(٣)

---

(١) من ذلك قول الإمام مالك ﷺ في كتاب الأقضية: (ولا من يغير دينه من أهل الأديان كلها، إلا الإسلام) الموطأ (٧٣٦/٢). دار إحياء الكتب العربية. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

(٢) انظر في هذا أيضاً رسالةً بعنوان: (الدين السماوي هو الإسلام) للدكتور عبد العزيز بن عبد الله الحميدي. ط: دار المجتمع للنشر والتوزيع. الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ.

(٣) فضيلة شيخنا محمد بن صالح بن محمد بن عثيمين، من آل مقبل الوهيبي التميمي، أبو عبد اللّه. ولد في السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك سنة ١٣٤٧هـ في مدينة عنيزة، بالمملكة العربية السعودية. تتلمذ على العالم الرباني المفسر الفقيه، شيخ عنيزة عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي (١٣٠٧ـ ١٣٧٦هـ)، ﷺ، فقرأ عليه التوحيد والفقه والتفسير والأصول والنحو. ثم سافر إلى الرياض سنة ١٣٧٢هـ، للدراسة في المعهد العلمي، فتتلمذ على الشيخ الإمام عبد العزيز بن عبد اللّه بن باز (١٣٣٠ـ ١٤٢٠هـ) ﷺ، وتأثر به في علم الحديث، والشيخ المفسر الأصولي محمد الأمين الشنقيطي (١٣٢٥ـ ١٣٩٣هـ) وغيرهما من الأفاضل. وبعد وفاة شيخه السعدي سنة ١٣٧٦هـ، خلفه في الإمامة والخطابة والتدريس في الجامع الكبير في عنيزة، بالإضافة إلى تدريسه في المعهد العلمي في عنيزة منذ عام ١٣٧٤هـ. ثم انتقل من المعهد إلى التدريس في فرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في القصيم سنة ١٣٩٨هـ إلى قريب وفاته. وكان مواظباً على التدريس والإمامة، وله حضور قوي في مختلف المناسبات، ومشاركات علمية في وسائل الإعلام، والتدريس والإفتاء في المسجد الحرام في شهر رمضان. وأمتاز بحسن التقرير، وتنظيم العرض والتقسيم، وتسهيل=

حفظه الله: (قد يسمع ما بين حينٍ وآخر كلمة «الأديان الثلاثة» حتى يظن السامع أنه لا فرق بين هذه الأديان الثلاثة، كما أنه لا فرق بين المذاهب الأربعة. ولكن هذا خطأ عظيم. إنه لا يمكن أن يحاول التقارب بين اليهود والنصارى والمسلمين، إلا كمن يحاول أن يجمع بين الماء والنار) من خطبة يوم الجمعة «الأولى» الموافق ١٥/١/١٤٢٠هـ.

والإسلام بالمعنى العام الذي جاءت به جميع الرسل متضمنٌ لأصول الإيمان وآثاره، وأمهات العبادات والشرائع، وإن اختلفت كيفياتها، وأحوال المعاد والجزاء، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (إن الله سبحانه جعل الرسل وسائط بينه وبين عباده، في تعريفهم ما ينفعهم وما يضرهم، وتكميل ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم. وبعثوا جميعاً بالدعوة إلى الله، وتعريف الطريق الموصل إليه، وبيان حالهم بعد الوصول إليه.

فالأصل الأول: يتضمن إثبات الصفات والتوحيد والقدر، وذكر أيام الله في أوليائه وأعدائه، وهي القصص التي قصها على عباده، والأمثال التي ضربها لهم.

= العلم، ودقة الفتيا. فقصده الطلبة من كل مكان حتى بلغوا المئين في حلقته، وانتشرت كتبه ودروسه المسجلة وفتاواه في أصقاع الأرض. ونال جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام سنة ١٤١٤هـ، وعين عضواً في هيئة كبار العلماء سنة ١٤٠٧هـ.

كان وقته عامراً بالإفادة والاستفادة، وقضاء حوائج الناس، وكان ورعاً عابداً صواماً قواماً دؤوباً على الوظائف الدينية لا يكل ولا يمل، حازماً في أموره كلها. كما كان سهلاً يكره التكلف، بسيطاً في ملبسه ومسكنه ومركبه، قصداً في منطقه، يكره التملق والتشدق والمديح. ألف عشرات الكتب في الفقه والتوحيد والمصطلح والأصول والفرائض. توفي رحمه الله بعد مرضٍ عانى منه سبعة أشهر، ليلة الخميس ١٦/١٠/١٤٢١هـ عن أربع وسبعين سنة.

والأصل الثاني: يتضمن تفصيل الشرائع والأمر والنهي والإباحة، وبيان ما يحبه الله ويكرهه.

والأصل الثالث: يتضمن الإيمان باليوم الآخر، والجنة والنار، والثواب والعقاب. وعلى هذه الأصول الثلاثة مدار الخلق والأمر، والسعادة والفلاح وموقوفه عليها، ولا سبيل إلى معرفتها إلا من جهة الرسل)(١). قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة].

وقال واصفاً حال مؤمني أهل الكتاب: ﴿۞ لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [آل عمران]. وقال ناعياً على الذين تفرقوا منهم: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة].

ثم أكمل الله الدين وأتم النعمة ببعثة نبيه الخاتم، ورسوله إلى الناس كافة محمد بن عبد الله ﷺ، فقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وذلك هو الإسلام الخاص الذي لا يقبل الله ديناً سواه، وإليه ينصرف المراد عند الإطلاق.



(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، أبو العباس، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم الحراني. جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي، وابنه محمد. الطبعة الأولى ـ ١٣٩٨هـ (١٩/ ٩٥ ـ ٩٦).

الإسلام الذي بعث الله به محمداً ﷺ (الإسلام الخاص):

* قال تعالى مبيناً ما عليه رسوله محمد ﷺ وأتباعه من أصول الاعتقاد: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة].

* وعين لهم أركان البر الاعتقادية والعملية فقال: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة].

* وعرَّف أهل الكتاب بعلامات نبيِّه الخاتم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف].

* ولهذا عَرَفه هرقل ـ عظيم الروم ـ حين سأل أبا سفيان، لما بلغه كتاب رسول الله ﷺ يدعوه إلى الإسلام، فكان من جملة ما سأله: ماذا يأمركم؟ فقال أبو سفيان ـ وكان إذ ذاك على الشرك ـ: يقول: (اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة)(١).

* ولما أراد الله تعالى أن يبين معالم دينه، ويرتب لعباده أركانه،

---

(١) صحيح البخاري: (١/ ٥).

انتدب أفضل رسولٍ ملكي إلى أفضل رسولٍ بشري، كما في هذا الحديث العظيم الذي رواه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ، فقال: (بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يومٍ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد! أخبرني عن الإسلام. فقال رسول الله ﷺ الإسلام: أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً، قال: صدقت. قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه. قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره، قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان، قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك. قال: فأخبرني عن الساعة، قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل. قال: فأخبرني عن أمارتها، قال: أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان. قال: ثم انطلق، فلبثت ملياً، ثم قال لي: يا عمر! أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم)[١].

* وعن عبد الله بن عمر[٢] ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: (بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله،

(١) صحيح مسلم: (١/ ٣٧ ـ ٣٨). قال ابن رجب في شرحه: (وهو حديث عظيم جداً، يشتمل على شرح الدين كله) جامع العلوم والحكم: (١/ ٩٧).

(٢) عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوي، أبو عبد الرحمن، ولد بعد المبعث بيسير، واستُصغر يوم أحد، وهو ابن أربع عشرة سنة. وهو أحد المكثرين من الصحابة، والعبادلة. وكان من أشد الناس اتباعاً للأثر. مات سنة ثلاث وسبعين في آخرها أو أول التي تليها. تقريب التهذيب (١/ ٤٣٥).

وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان)(١).

* وعن عمرو بن عبسة(٢) رضي الله عنه قال: قال رجلٌ: يا رسول الله! ما الإسلام؟ قال: (أن يسلم قلبك لله عز وجل، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك. قال: فأي الإسلام أفضل؟ قال: الإيمان. قال: وما الإيمان؟ قال: تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت. قال: فأي الإيمان أفضل؟ قال: الهجرة. قال: فما الهجرة؟ قال: تهجر السوء. قال: فأي الهجرة أفضل؟ قال: الجهاد. قال: وما الجهاد؟ قال: أن تقاتل الكفار إذا لقيتهم. قال: فأي الجهاد أفضل؟ قال: من عُقر جواده، وأهريق دمه. قال رسول الله ﷺ: ثم عملان هما أفضل الأعمال إلا من عمل بمثلهما: حجة مبرورة أو عمرة)(٣).

* وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو(٤) رضي الله عنهما أن رجلاً سأل النبي ﷺ: أي الإسلام خير؟ قال: (أن تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف)(٥).

---

(١) صحيح البخاري: (١/ ٨)، صحيح مسلم: (١/ ٤٥).

(٢) عمرو بن عبسة بن عامر بن خالد السلمي، أبو نجيح، صحابي مشهور، أسلم قديماً، وهاجر بعد أحد. ثم نزل الشام. تقريب التهذيب (٢/ ٧٤).

(٣) رواه أحمد. مسند الإمام أحمد بن حنبل: ابن حنبل، أحمد بن محمد الشيباني تحقيق: أبو عاصم، حسن بن عباس بن قطب وآخرون. مؤسسة قرطبة ـ القاهرة، مكتبة الخراز ـ جدة الطبعة الأولى (١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م): (٤/ ١١٤)، (٥/ ٣). وقال الهيثمي في المجمع: رجاله ثقات (١/ ٦٤).

(٤) عبد الله بن عمرو بن العاص القرشي، صحابي جليل، من الزهاد النساك أسلم قبل أبيه، وشهد مع النبي ﷺ حروبه وغزواته، وكان من المكثرين من الحديث وله ما يقرب من (٧٠٠) حديث توفي سنة ٦٥هـ.
انظر: الأعلام (٤/ ١١١)، طبقات ابن سعد (القسم الثاني من الجزء الرابع ٨ ـ ١٣)، الإصابة رقم (٤٨٣٨)، حلية الأولياء (١/ ٢٨٣)، صفة الصفوة (١/ ٢٧٠).

(٥) صحيح البخاري: (١/ ٩) صحيح مسلم: (١/ ٦٥).

* وفيهما عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله تعالى)(١).

فتبين من هذه النصوص القرآنية والأحاديث النبوية التعريف الجلي بدين الإسلام، وأنه متضمنٌ للهدى ودين الحق: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٩﴾ [الصف]. فالهدى هو العلم النافع، ودين الحق هو العمل الصالح.

فأصول الإيمان ستة:

(١) أعظمها الإيمان بالله تعالى وتوحيده:

• في ربوبيته: فلا خالق سواه، ولا مالك سواه، ولا مدبر سواه. ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف]. فمن زعم أن للكون خالقان أو أكثر، أو أن العبد يخلق فعل نفسه، أو سمى أحداً من خلقه ـ كعيسى عليه السلام ـ رباً فقد أشرك في ربوبيته.

• في ألوهيته: فهو المستحق للعبادة وحده دون ما سواه. كما قال: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٦٣﴾ [البقرة]، فمن صرف شيئاً من أنواع العبادة القلبية من محبة أو خوفٍ أو رجاءٍ أو توكل، أو العملية من سجودٍ أو ركوعٍ أو ذبحٍ أو طواف، أو لسانية من دعاءٍ أو ذكرٍ أو تلاوة، أو مالية من زكاةٍ أو صدقة أو نذر، لغير الله فقد أشرك في ألوهيته.

• في أسمائه وصفاته: فله الأسماء الحسنى والصفات العلى، لا شبيه له ولا نِدَّ ولا سَمي ولا كفوء له سبحانه، ولا يقاس بخلقه، ولا تضرب له الأمثال. ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ

(١) صحيح البخاري: (١/ ١١ ـ ١٢)، صحيح مسلم: (١/ ٥١ ـ ٥٣).

أَسْمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف]. فمن سمى الله بما لم يسم به نفسه، كتسمية النصارى له أباً، أو وصفه بصفات النقص والعيب ومماثلة المخلوقين كقول اليهود ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨١] وقولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]، وأنه استراح بعد خلق السماوات والأرض، سبحانه وتعالى، فقد ألحد في أسمائه وصفاته.

فهذا هو التوحيد الحق، المبني على محبة الله وتعظيمه، المستلزم لإفراده بالعبادة دون ما سواه من ملكٍ مقرب، أو نبي مرسل، أو ولي صالح، أو هوىً متبع.

(٢) الإيمان بملائكته الكرام: الذين وصفهم بقوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء]، ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [فصلت]، وما صح في السنة المطهرة من أسمائهم وصفاتهم وأعمالهم، ووجوب محبتهم وموالاتهم، خلافاً لليهود الذين عادوا جبريل عليه السلام، والنصارى الذين غلوا فيه واتخذوه إلهاً في عقيدة التثليث الفاجرة.

(٣) الإيمان بكتب الله التي أنزلها على رسله من عنده، مما سماه الله لنا كالقرآن والتوراة والإنجيل والزبور، وما لم يسم لنا نؤمن به على سبيل الإجمال، وتصديق ما صح من أخبارها، والعمل بما لم ينسخ من أحكامها. وقد حفظ الله القرآن من التحريف والتبديل فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر]، ونسخ به الشرائع السابقة فقال بعد ذكر التوراة والإنجيل: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨] أي حاكماً وأميناً وشاهداً عليه(١).

---

(١) انظر: جامع البيان (٦/٢٦٦ ـ ٢٦٧)، تفسير القرآن العظيم ابن كثير، =

(٤) الإيمان برسل الله جميعاً، وعدم التفريق بينهم، واعتقاد أنهم بشرٌ تلحقهم خصائص البشرية من المرض والجوع والعطش والموت، لكن اصطفاهم الله واختارهم لتحمل وحيه، وتبليغه للناس، وأنهم أكمل الناس عبوديةً، ليس فيهم شيءٌ من صفات الألوهية البتة. ثم تصديق ما صح من أخبارهم والعمل بشريعة خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ.

(٥) الإيمان باليوم الآخر: ويشمل الإيمان بكل ما جاء في كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ الصحيحة، مما يكون بعد الموت من فتنة القبر وعذابه أو نعيمه والبعث بعد النفخ في الصور، والحساب والجزاء، والجنة والنار.

(٦) الإيمان بالقدر خيره وشره، حلوه ومره، وذلك يتضمن الاعتقاد الجازم بعلمه سبحانه بالكائنات، ذواتها وصفاتها، جملة وتفصيلاً، وكتابة ذلك في اللوح المحفوظ قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، ومشيئته النافذة، وقدرته الشاملة، لا يكون في ملكه ما لا يريد، وهو خالق كل شيء. والعباد فاعلون حقيقة، مختارون حقيقة، والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم كما قال: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير].

وتفاصيل هذه الأركان، والأصول العظام معلومة موجودة في كتب أهل الإسلام. وهي بحمد الله عقائد متينة، لا تفاوت فيها ولا خلل، ولا تناقض ولا اضطراب، موافقةٌ للفِطَر السليمة، والعقول المستقيمة. عباراتها بيّنة، ودلالتها واضحة. يقبلها العاميُّ البسيط، ولا يشبع منها العالم المحيط.

= أبو الفداء، إسماعيل بن عمر. تحقيق: سامي بن محمد السلامة. دار طيبة ـ الرياض. الطبعة الأولى (١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م) (٣/١٢٧ ـ ١٢٨).

ومباني الإسلام العملية خمسة:

(١) الشهادتان: المعبر عنهما باللسان لقصد الاستعلان. فمن أقرَّ بهما صار مسلماً حكماً، ثم لزمته بقية خصال الإسلام. ومن لم يتلفظ بهما لم يدخل في عقد الإسلام. وهما أساس صحة سائر الأعمال وشرط قبولها. فشهادة أن لا إله إلا الله تدل على الإخلاص، كما في الحديث القدسي: (أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه)[1]. وشهادة أن محمداً رسول الله تقتضي كمال المتابعة، لقوله ﷺ: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)[2]، وفي رواية: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)[3]. فلا يمكن لأحدٍ كائناً من كان أن يرفع شيئاً أو يضع شيئاً في دين الله، كما صنع اليهود والنصارى في أديانهم: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] فيحلون لهم ما حرم الله عليهم، ويحرمون عليهم ما أحل الله لهم[4]. فدين الإسلام مبني على الاتباع لا على الابتداع، كما أنه مبني على الإخلاص لا على الشرك.

(٢) إقام الصلاة: وهي خمس صلواتٍ في اليوم والليلة في أوقاتها وهيئاتها الشرعية.

(٣) إيتاء الزكاة المقدرة شرعاً في الأموال الزكوية إلى مستحقيها.

(٤) صوم رمضان من كل عامٍ بالإمساك عن المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.

(٥) حج بيت الله الحرام لمن استطاع إليه سبيلاً مرة في العمر.

---

(١) صحيح مسلم: (٤/ ٢٢٨٩).
(٢) صحيح البخاري: (٣/ ١٦٧)، صحيح مسلم: (٣/ ١٣٤٣).
(٣) صحيح مسلم: (٣/ ١٣٤٤).
(٤) انظر جامع البيان: (١٠/ ١١٣ ـ ١١٥).

فمن أتى بهذه الأركان الخمسة صار مسلماً حقاً واستحق الجنة.

ويلتحق بكل واحدٍ من هذه العبادات الواجبة تطوع من جنسها، لمن كان لديه نهمة في العبادة، ورغبة في التزود من العمل الصالح.

والعبادات في الإسلام مبنية على اليسر والتخفيف ورفع الحرج، بخلاف ما عليه اليهود من إفراطٍ وتشديد، وما عليه النصارى من تفريط وتساهل.

فالضرورات تبيح المحظورات، والمشقة تجلب التيسير. قال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦]، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

وأما الإحسان فوصفٌ يدل على إتقان العبادة، والنصح فيها، وبذل الجهد في تحسينها وإتمامها وإكمالها كما لو كان العابد يرى معبوده تُجاهه، أو يستشعر رؤيته إياه. قال ابن رجب رحمه الله: (فقوله ﷺ في تفسير الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه... إلخ» يشير إلى أن العبد يعبد الله على هذه الصفة، وهي: استحضار قربه، وأنه بين يديه كأنه يراه. وذلك يوجب الخشية والخوف والهيبة والتعظيم... ويوجب أيضاً النصح في العبادة، وبذل الجهد في تحسينها وإتمامها وإكمالها)[1]، وتفاصيل هذه العبادات وأحكامها وآدابها مبثوثة في كتب الفقه ودواوين السنة.

كما تضمنت الشريعة الإسلامية المبنية على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ تنظيماً دقيقاً لأحكام المعاملات والعقود والولايات التي تتناول جميع الجوانب الشخصية والاجتماعية والمالية والسياسية للفرد والأمة. قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل]. فليس الإسلام مقتصراً على النسك الخاص كما هو الحال في النصرانية المحرفة، بل يتناول جميع مجالات الحياة المختلفة لتحقيق العبودية التامة: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ

(١) جامع العلوم والحكم (١/١٢٦).

ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام]. فلا فصل بين الدين والدنيا، ولا بين الدنيا والآخرة، وليس ثم إلا حكم الله أو حكم الجاهلية: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة].

ومن أصول الإسلام الدعوة إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال من الصدق والعفاف والصلة والعفو وحسن الجوار والإحسان إلى ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب، وإطعام الطعام، وإفشاء السلام.

وفي سبيل تحقيق هذه المقاصد العظام شرع الله لعباده الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله، وجعل ذلك شارة مميزة لهذه الأمة الإسلامية. قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ﴾ [آل عمران: ١١٠]. فرسوله ﷺ للناس جميعاً، ورسالته للناس كافة، وأمته تعلم الناس الخير، فليس في الإسلام «شعب مختار» منكفئ على نفسه، ولا «رهبانية» مبتدعة سلبية، بل هو الأمر والنهي والدعوة والتعليم. حتى إذا حيل بين هذه الأمة وتبليغ رسالة ربها، وخُشي أن تكون فتنة، فهو الجهاد في سبيل الله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنفال].

وقد صدق الله وعده، فأظهر دينه على الدين كله بالحجة والبيان، والسيف والسنان على يد صحابة رسوله الكرام، فلم يكد ينقضي قرنهم حتى كان الإسلام قد بلغ الصين شرقاً وبلاد الغال «فرنسا» غرباً، ودخل الناس في دين الله أفواجاً.

ثم لم يزل حال أهله يعلو ويهبط، بحسب تمسكهم بحبل الله، والتزامهم بشرعه، وفقاً للناموس الرباني المطرد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ﴾ [الرعد: ١١].

المبحث الثاني

أهل الكتاب

ورد هذا المصطلح «أهل الكتاب» في القرآن الكريم إحدى وثلاثين مرة، على سبيل الخبر أو الطلب. وورد مثل هذا العدد بلفظ «الإيتاء» بتصرفاته المختلفة مثل «أوتوا الكتاب»، «آتيناهم الكتاب» ونحوها، وفي أربعة مواضع بلفظ «الميراث» مثل: «أورثوا الكتاب». فضلاً عن المواضع الكثيرة التي يعبر عنهم بأسمائهم الخاصة. ومجموع ذلك يدل على العناية التامة التي أولاها الإسلام لدعوة أهل الكتاب، كيف لا، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [النمل].

فمن هم «أهل الكتاب» الذين يتناولهم هذا اللفظ بأخباره وأحكامه؟

قال ابن جرير[1] رَحِمَهُ اللهُ: (يعني تعالى ذكره بقوله: «يا أهل الكتاب»: يا أهل التوراة والإنجيل)[2]. وقال أيضاً: (عنى بقوله: «يا

---

(١) محمد بن جرير بن يزيد الطبري، أبو جعفر، ولد سنة ٢٢٤هـ في آمل طبرستان، واستوطن بغداد، إمام في التفسير والتاريخ، قال ابن الأثير: أبو جعفر أوثق من نقل التاريخ، وفي تفسيره ما يدل على علم غزير وتحقيق. اهـ. له «جامع البيان في تفسير القرآن»، و«أخبار الرسل والملوك» وغيرها. توفي سنة ٣١٠هـ.
انظر: الأعلام (٦/ ٦٩)؛ إرشاد الأريب (٦/ ٤٢٣)، تذكرة الحفاظ (٢/ ٣٥١)، الوفيات (١/ ٤٥٦)، طبقات السبكي (٢/ ١٣٥)، مفتاح السعادة (١/ ٢٠٥).

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: (٣/ ٣٠٤).

أهل الكتاب»: أهل الكتابين، لأنهما جميعاً من أهل الكتاب. ولم يخصص جل ثناؤه بقوله: «يا أهل الكتاب» بعضاً دون بعض، فليس بأن يكون موجهاً ذلك إلى أنه مقصود به أهل التوراة بأولى منه، بأن يكون موجهاً إلى أنه مقصود به أهل الإنجيل، ولا أهل الإنجيل بأولى أن يكونوا مقصودين به دون غيرهم من أهل التوراة، وإذ لم يكن أحد الفريقين بذلك بأولى من الآخر، لأنه لا دلالة على أنه المخصوص بذلك من الآخر، ولا أثر صحيح، فالواجب أن يكون كل كتابي معنياً به... وأهل الكتاب يعم أهل التوراة وأهل الإنجيل، فكان معلوماً بذلك أنه عُني به الفريقان جميعاً)[(١)].

فأهل الكتاب إذاً هم اليهود والنصارى، وهذا أمر واضح متقرر لدى جميع المفسرين ويزيد الأمر وضوحاً إضافة «الكتاب» إلى هاتين الطائفتين خاصة، كما في قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأنعام]. قال ابن جرير رحمه الله: (فأما الطائفتان اللتان ذكرهما الله، وأخبر أنه إنما أنزل كتابه على نبيه محمد، لئلا يقول المشركون: لم ينزل علينا كتاب فنتبعه، ولم نُؤْمَرْ، ولم ننه، فليس علينا حجة فيما نأتي ونذر، إذ لم يأتِ من الله كتاب ولا رسول، وإنما الحجة على الطائفتين اللتين أنزل عليهما الكتاب من قبلنا، فإنهما: اليهود والنصارى. وكذلك قال أهل التأويل)[(٢)]. ثم روى بسنده عن ابن عباس[(٣)]

---

(١) جامع البيان: (٣/ ٣٠٢ - ٣٠٣).

(٢) جامع البيان: (٨/ ٩٣).

(٣) عبد الله بن العباس بن عبد المطلب الإمام البحر الحبر، ابن عم رسول الله ﷺ، وِلِدَ وبنو هاشم في الشعب قبل الهجرة بثلاث، دعا له رسول الله ﷺ فقال: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»، كان يلقب بحبر هذه الأمة، وقال فيه ابن مسعود: نعم ترجمان القرآن ابن عباس. مات بالطائف سنة ٦٨هـ رضي الله عنه وأرضاه.
الأعلام (٤/ ٩٥)، الإصابة ت (٤٧٧٢)، صفة الصفوة (١/ ٣١٤)، حلية الأولياء (١/ ٣١٤)، ذيل المذيل (٢١).

ومجاهد[١] وقتادة[٢] والسدي[٣] نحوه. وهذه القَبْلية المتقررة لدى المشركين بشأن طائفتي أهل الكتاب؛ اليهود والنصارى، هي القبلية المذكورة في حديث أبي سعيد الخدري[٤] ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لتتبعن سَنن الذين من قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضبٍ خرب لاتبعتموهم، قلنا: يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟»[٥].

وإطلاق مصطلح «أهل الكتاب»، وإرادة اليهود والنصارى بذلك خاصة مستفيضٌ في السنة المطهرة. ومن شواهد ذلك:

(١) ما روى البخاري[٦] عن ابن عمر ﷺ عن النبي ﷺ: «مثلكم

---

(١) مجاهد بن جبر، أبو الحجاج المكي، ولد سنة (٢١هـ) ويعد من كبار التابعين، من الأئمة المفسرين، قال الذهبي: شيخ القراء والمفسرين أخذ التفسير عن ابن عباس، توفي سنة (١٠٤هـ).
الأعلام (٥/ ٢٧٨)، صفة الصفوة (٢/ ١١٧)، ميزان الاعتدال (٣/ ٩)، حلية الأولياء (٣/ ٢٧٩)، غاية النهاية (٢/ ٤١).

(٢) قتادة بن دِعامة بن قتادة السدوسي، أبو الخطاب البصري، ثقة ثبت. مات سنة مائة وبضع عشرة سنة. تقريب التهذيب (٢/ ١٢٣).

(٣) إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة السدي، أبو محمد الكوفي، صدوق يهم، ورمي بالتشيع. مات سنة مائة وسبع وعشرين. تقريب التهذيب (١/ ٧٢).

(٤) سعد بن مالك بن سنان الخدري الأنصاري الخزرجي، من الملازمين للنبي ﷺ، توفي سنة ٧٤هـ. الأعلام (٣/ ٨٧)، تهذيب التهذيب (٣/ ٤٧٩)، صفة الصفوة (١/ ٢٩٩)، حلية الأولياء (١/ ٣٦٩).

(٥) رواه البخاري: (٨/ ١٥١)، ومسلم: (٤/ ٢٠٥٤).

(٦) محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله، حبر الإسلام، والحافظ لحديث رسول الله ﷺ صاحب «الجامع الصحيح». ولد عام ١٩٤هـ، في بخارى، وقام برحلة طويلة سنة ٢١٠هـ في طلب الحديث، فزار خراسان والعراق ومصر والشام، وسمع من نحو ألف شيخ، وله من التصانيف: «التاريخ الكبير»، و«خلق أفعال العباد»، و«الأدب المفرد»، و«جزء=

ومثل أهل الكتابين، كمثل رجل استأجر أجراء، فقال: من يعمل لي من غُدوةٍ إلى نصف النهار على قيراط؟ فعملت اليهود. ثم قال: من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط؟ فعملت النصارى، ثم قال: من يعمل لي من العصر إلى أن تغيب الشمس على قيراطين؟ فأنتم هم. فغضبت اليهود والنصارى، فقالوا: ما لنا أكثر عملاً وأقل عطاءً؟ قال: هل نقصتكم من حقكم؟ قالوا: لا. قال: فذلك فضلي أوتيه من أشاء»[(١)].

(٢) وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير... الحديث»[(٢)].

(٣) وفي مسند الإمام أحمد[(٣)] عن زياد بن لبيد[(٤)] ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «هذا أوان ذهاب العلم، قال شعبة: أو قال: هذا أوان

= القراءة خلف الإمام» وغيرها، وكتابه الصحيح انتقاه من ستمائة ألف حديث يحفظها، وكانت وفاته سنة ٢٥٦هـ.
الأعلام (٦/ ٣٤)، تذكرة الحفاظ (٢/ ١٢٢)، تهذيب التهذيب (٩/ ٤٧)، وفيات الأعيان (١/ ٤٥٥)، تاريخ بغداد (٢/ ٤ ـ ٣٦)، طبقات السبكي (٢/ ٢).

(١) صحيح البخاري: (٣/ ٤٩ ـ ٥٠).

(٢) صحيح مسلم: (١/ ١١٥).

(٣) أحمد بن محمد بن حنبل، أبو عبد الله الشيباني، الإمام الحافظ المحدث الفقيه أحد الأئمة الأربعة، ولد سنة ١٦٤هـ ببغداد، وسافر في طلب الحديث. امتحن في فتنة القول بخلق القرآن، فثبت، وأوذي فصبر، وأعز الله به السنة. من مصنفاته: «المسند»، و«فضائل الصحابة»، و«الزهد»، و«الأشربة» وغيرها. توفي سنة ٢٤١هـ.
الأعلام (١/ ٢٠٣)، حلية الأولياء (٩/ ١٦١)، صفة الصفوة (٢/ ١٩٠)، البداية والنهاية (١٠/ ٣٢٥)، تاريخ بغداد (٤/ ٤١٢).

(٤) زياد بن لبيد بن ثعلبة الأنصاري، الخزرجي، أبو عبد الله، صحابي شهد بدراً. وكان عاملاً على حضرموت لما مات النبي ﷺ. مات سنة إحدى وأربعين. تقريب التهذيب (١/ ٢٧٠).

انقطاع العلم. فقلت: وكيف وفينا كتاب الله، نعلمه أبناءنا، ويعلمه أبناؤهم أبناءهم؟ فقال: ثكلتك أمك يا ابن لبيد! ما كنت أحسبك إلا من أعقل أهل المدينة. أليس اليهود والنصارى فيهم كتاب الله تعالى؟ قال شعبة[١]: أو قال: أليس اليهود والنصارى فيهم التوراة والإنجيل ثم لم ينتفعوا منه بشيء؟ أو قال: أليس اليهود والنصارى أو أهل الكتاب، شعبة يقول ذلك، فيهم كتاب الله ﷻ؟»[٢].

(٤) وفي سنن أبي داود[٣] عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «افترقت اليهود على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة. وتفرقت النصارى على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة. وتفترق أمتي على ثلاثٍ وسبعين فرقة». ثم رواه من حديث معاوية[٤] بن أبي سفيان بلفظ: ألا إن رسول الله ﷺ قام فينا، فقال: «ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب، افترقوا على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الملة ستفترق

(١) شعبة بن الحجاج بن الورد العَتَكي، مولاهم، أبو بسطام الواسطي، ثم البصري، ثقة حافظ متقن. كان الثوري يقول: هو أمير المؤمنين في الحديث. وهو أول من فتش بالعراق عن الرجال وذب عن السنة. وكان عابداً. مات سنة مائة وستين. تقريب التهذيب (١/ ٣٥١).

(٢) المسند: (٤/ ٢١٩). وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه: (٢/ ٣٧٧).

(٣) سليمان بن الأشعث بن إسحاق الأزدي السجستاني، أبو داود، إمام أهل الحديث في زمانه، أصله من سجستان، ورحل رحلة كبيرة في طلب الحديث، وتوفي بالبصرة، من تصانيفه: «السنن»، و«المراسيل»، و«الزهد». وهو من تلاميذ الإمام أحمد، وله عنه «مسائل». توفي سنة ٢٧٥هـ.
الأعلام (٣/ ١٢٢)، تذكرة الحفاظ (٢/ ١٥٢)، تهذيب ابن عساكر (٦/ ٢٤٤)، تاريخ بغداد (٩/ ٥٥)، وفيات الأعيان (١/ ٢١٤)، الذريعة (١/ ٣١٦).

(٤) معاوية بن أبي سفيان، صخر بن حرب بن أمية، الأموي أبو عبد الرحمن، الخليفة، صحابي، أسلم قبل الفتح، وكتب الوحي. ومات في رجب سنة ستين، وقد قارب الثمانين. رضي الله عنه وأرضاه. تقريب التهذيب (٢/ ٢٥٩).

على ثلاث وسبعين: ثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، وهي الجماعة»[١].

وعند أحمد من حديث معاوية ﷺ، أيضاً، قال: «إن أهل الكتابين... الحديث»[٢].

فتبين بهذا أن الله سبحانه سمى «اليهود» و«النصارى» «أهل الكتاب»، ولم يسمهم «مسلمين»، وذلك لرغبتهم عن ملة إبراهيم «الإسلام» ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [البقرة]. قال ابن جرير رحمه الله: (عنى الله بذلك اليهود والنصارى لاختيارهم ما اختاروا من اليهودية والنصرانية على الإسلام، لأن ملة إبراهيم هي الحنيفية المسلمة، كما قال تعالى ذكره: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ ـ ثم ساق بسنده عن قتادة ـ: رغب عن ملته اليهود والنصارى، واتخذوا اليهودية والنصرانية، بدعة ليست من الله، وتركوا ملة إبراهيم، يعني الإسلام حنيفاً، كذلك بعث الله نبيه محمداً ﷺ بملة إبراهيم. ـ وعن الربيع بن أنس[٣] مثله ـ)[٤].

فأهل الكتاب من اليهود والنصارى ليسوا بمسلمين، ولا يشملهم وصف الإسلام لمفارقتهم ما كان عليه أنبياؤهم، وتحريفهم الكلم عن

(١) سنن أبي داود: أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني. إعداد وتعليق: عزت عبيد الدعاس، وعادل السيد. دار الحديث. بيروت. الطبعة الأولى ١٣٨٨هـ. (٥/ ٤ ـ ٦).

(٢) المسند: (٤/ ١٠٢). وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم: (٢٠٤) وجمع طرقه وشواهده.

(٣) الربيع بن أنس البكري، أو الحنفي، بصري، نزل خرسان، صدوق له أوهام. رمي بالتشيع. مات سنة مائة وأربعين أو قبلها. تقريب التهذيب (١/ ٢٤٣).

(٤) جامع البيان: (١/ ٥٥٨ ـ ٥٥٩).

مواضعه. وقد زعم بعض المتأخرين، المداهنين لأهل الكتاب، الداعين إلى التقارب معهم، أنهم مؤمنون، وأنه يسعهم ـ فيما بينهم وبين ربهم ـ البقاء على دينهم، والعمل بما في أيديهم من كتب، وأنه لا يلزمهم الدخول في الإسلام، والإيمان برسالة محمدٍ ﷺ[١]، وشبَّهوا ببضع آيات، وهي:

- قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة].
- وقوله تعالى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ [المائدة: ٤٧].
- وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦].
- ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨].

والجواب عن ذلك يسير ـ بحمد الله ـ:

- فأما آية البقرة وما شابهها، فللمفسرين فيها ثلاثة مسالك:

الأول: أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران]. وهو مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال ابن جرير رحمه الله: (كان يرى أن الله جل ثناؤه، كان قد وعد من عمل صالحاً من اليهود والنصارى والصابئين على عمله في الآخرة الجنة، ثم نسخ ذلك بقوله: «وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ»)[٢].

الثاني: أن معنى القيد في قوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أن:

---

(١) سيرد ذكر مقالاتهم في مبحث «الإسلاميون العصرانيون» من الباب الأول.
(٢) جامع البيان: (١/ ٣٢٣).

(إيمان اليهود والنصارى والصابئين، التصديق بمحمدٍ ﷺ وبما جاء به، فمن يؤمن منهم بمحمد، وبما جاء به وباليوم الآخر، ويعمل صالحاً، فلم يبدل ولم يغير حتى توفي على ذلك، فله ثواب عمله وأجره عند ربه)[1]، واستظهره ابن جرير[2].

الثالث: أن الآية تتناول من كان قبل بعثة نبينا محمدٍ ﷺ وحسب. قال الشيخ عبد الرحمن السعدي[3] ﷺ: (الصحيح أن هذا الحكم بين هذه الطوائف، من حيث هم، لا بالنسبة إلى الإيمان بمحمد، فإن هذا إخبار عنهم قبل بعثة محمد ﷺ وأن هذا مضمون أحوالهم... وذلك - والله أعلم - أنه لما ذكر بني إسرائيل وذمهم، وذكر معاصيهم وقبائحهم، ربما وقع في بعض النفوس، أنهم كلهم يشملهم الذم. فأراد الباري تعالى أن يبين من لا يلحقه الذم منهم بوصفه)[4].

ولم ير ابن كثير[5] ﷺ منافاة بين هذه المسالك: (فإن هذا الذي

---

(١) جامع البيان: (١/ ٣٢٠).

(٢) جامع البيان: (١/ ٣٢٤).

(٣) عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي: (١٣٠٧ - ١٣٧٦هـ)، التميمي، مفسر، من علماء الحنابلة، من أهل نجد. مولده ووفاته في عنيزة بالقصيم، وهو أول من أنشأ مكتبة فيها سنة ١٣٥٨هـ. له نحو ثلاثين كتاباً، منها: «تيسير الكريم المنان في تفسير القرآن»، و«طريق الوصول إلى العلم المأمول»، و«توضيح الكافية الشافية لابن القيم» وغيرها. الأعلام (٣/ ٣٤٠).

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبد الرحمن بن ناصر السعدي. المؤسسة السعيدية. الرياض - السعودية، مطابع الدجوي - القاهرة طبعة عام (١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م). (١/ ٩٣).

(٥) إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصروي ثم الدمشقي، أبو الفداء عماد الدين، حافظ مؤرخ فقيه محدث، ولد سنة (٧٠١هـ) في قرية من أعمال بصرى، ثم انتقل إلى دمشق، ورحل في طلب العلم، من تصانيفه «البداية والنهاية» و«شرح صحيح البخاري» ولم يكمله، وتفسير القرآن العظيم و«جامع المسانيد والسنن» وغيرها، توفي عام ٧٧٤هـ.

=

قاله ابن عباس إخبار عن أنه لا يقبل من أحدٍ طريقةً ولا عملاً إلا ما كان موافقاً لشريعة محمد ﷺ بعد أن بعثه الله بما بعثه به. فأما قبل ذلك فكل من اتبع الرسول في زمانه فهو على هدىً وسبيل نجاة)[(١)].

• وأما قوله: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ [المائدة: ٤٧] فتوجيهه على القراءتين في (وليحكم).

(«وَلِيَحْكُمَ» بالنصب على أن اللام لام كي، أي وآتيناه الإنجيل فيه هدىً ونور لِيحكمَ أهل ملته به في زمانهم. وقرئ: «وَلْيَحْكُمْ» بالجزم، اللام لام الأمر، أي ليؤمنوا بجميع ما فيه وليقيموا ما أمروا به فيه، ومما فيه البشارة ببعثة محمدٍ ﷺ، والأمر باتباعه وتصديقه إذا وُجد)[(٢)].

• وأما قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ...﴾ الآية، وقوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ...﴾ الآية [المائدة: ٦٦، ٦٨] فإن المراد بـ: «وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ/ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ»: (ما جاءكم به محمد ﷺ من الفرقان فتعملوا بذلك كله، وتؤمنوا بما فيه من الإيمان بمحمدٍ ﷺ وتصديقه، وتقروا بأن كل ذلك من عند الله، فلا تكذبوا بشيءٍ منه، ولا تفرقوا بين رسل الله، فتؤمنوا ببعض وتكفروا

= الأعلام (١/ ٣٢٠)، الدرر الكامنة (١/ ٣٧٣)، البدر الطالع (١/ ١٥٣)، (٢٥٨٢)، شذرات الذهب (٦/ ٢٣١)، آداب اللغة (٣/ ١٩٣).

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٢٨٥). وانظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: ابن تيمية: أبو العباس، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم. تحقيق: د. علي بن حسن ناصر، د. عبد العزيز العسكر، د. حمدان بن محمد الحمدان. دار العاصمة. الرياض. الطبعة الأولى ١٤١٤هـ. (٣/ ١٢١ ـ ١٢٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم: (٣/ ١٢٦)، وانظر: جامع البيان: (٦/ ٢٦٤ ـ ٢٦٥).

ببعض، فإن الكفر بواحدٍ من ذلك كفر بجميعه، لأن كتب الله يصدق بعضها بعضاً، فمن كذب ببعضها فقد كذب بجميعها)(١).

فلم يبق بحمد الله مستمسك للذين يريدون أن يفرقوا دين الله، أو يفرقوا بين رسل الله، ويكونوا شيعاً، ثم ينادي بعضهم بالتقريب بين الأديان. فدين الله واحد، ووحدته وتوحيده باتباع ما جاء به الرسول الخاتم ﷺ.

ويحسن في هذا المقام أن ننبه على ثلاث شُبَه تتعلق بمدلول: «أهل الكتاب».

الشبهة الأولى: أن اليهود والنصارى، أو معظمهم ـ على الأقل ـ لا يستحقون اليوم وصف «أهل الكتاب»؛ إذ قد هجروا دينهم وغيروا وبدلوا، وليسوا كأهل الكتاب وقت تنزل القرآن. وناتج هذه المقدمة أنه لا تجري على المنتسبين إلى هاتين الملتين الأحكام العلمية والعملية المتعلقة بأهل الكتاب.

والجواب: أن هذه دعوى باطلة، فإن انحرافهم عن كتاب ربهم وتغييرهم له وتحريفهم الكلم عن مواضعه، سابق لإطلاق هذا الوصف عليهم. فإن الله تعالى الذي أباح للمسلمين ذبائحهم والمحصنات من نساءهم، بوصفهم أهل الكتاب في صدر سورة المائدة بقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٥﴾ [المائدة] هو الذي أكفرهم بعدها ببضع آيات بقوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧، ٧٢]، وبقوله في نفس السورة: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]. وحكى عنهم في

---

(١) جامع البيان: (٦/ ٣٠٩).

آخرها مقالة الكفر في خطابه لنبيه عيسى عليه السلام يوم القيامة: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦].

وكذلك الحال بالنسبة لليهود، وقد لعنهم الله في هذه السورة بنفسه، وعلى لسان أنبيائه. فقال: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ﴾ [المائدة: ١٣]، وقال: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [المائدة] وحكى عنهم فيها مقالة السوء والكفر فقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤].

وكانت سورة المائدة من آخر ما نزل على رسول الله ﷺ. وأما إخلالهم اليوم بشرائع دينهم، وهجرهم لأحكام كتبهم، فإنه قديم فيهم، وليس حادثاً، فقد كانوا يتحايلون على أحكام التوراة ووصايا الأنبياء. ومع ذلك استحقوا هذا الاسم، فلا يزول عنهم لمجرد تماديهم في الكفر والفسوق والعصيان.

وجماع القول: أن القوم ما داموا ينتسبون إلى أديانهم، ويظهرون تعظيم أنبيائهم، وبيعهم، وكنائسهم، ويحتفلون بأعيادهم الدينية وغير ذلك من شعائرهم الظاهرة، وتقاليدهم الدينية الخاصة، فهم «أهل الكتاب» الذين عنى الله بكتابه، ورسوله ﷺ في سنته. فتتعلق بهم أحكام أهل الكتاب العلمية والعملية. ولا يزول هذا الوصف عن جملتهم وآحادهم إلا إذا فارقوا ذلك بإيمانٍ بالله ورسوله ﷺ فيكونون من جملة المسلمين، أو تحولٍ إلى ملةٍ من الملل الإلحادية أو الوثنية، سوى اليهودية والنصرانية، فحينئذٍ تجري عليهم أحكام سائر المشركين والملحدين، وتزول عنهم خاصية «أهل الكتاب».

الشبهة الثانية: تتعلق بالنصارى خاصة. ومفادها: أن النصارى المذكورين في القرآن، المشمولين بوصف «أهل الكتاب»، ليسوا هم

«نصارى اليوم»، بل هم فرقة تاريخية خارجة عن النصرانية الرسمية التي أقرها مجمع نيقية عام ٣٢٥م. وبالتالي فنصارى اليوم غير معنيين بأحكام الكفر والغلو والضلال التي دمغ القرآن بها تلك الفرقة، ولا تنسحب عليهم آثارها.

ويروج لهذه الشبهة بعض دعاة التقارب والحوار من النصارى العرب خاصة، وربما تابعهم عليها بعض المنتسبين إلى الإسلام. والحق أنه لا فرق بين النصارى المذمومين في القرآن، ونصارى اليوم البتة مهما تمحّل هؤلاء وتحذلقوا بالألفاظ، فالحقائق واحدة، وعقائدهم متطابقة[1].

الشبهة الثالثة: أن مصطلح «أهل الكتاب»، يشمل المسلمين أيضاً! بناءً على أن الكتاب إذا أطلق في القرآن يقصد به كل كتاب جاء من عند الله. ومراد القائلين بذلك مؤانسة اليهود والنصارى بالاندماج معهم في هذا الوصف تحقيقاً للتقارب، لإقامة جبهة «أهل الكتاب» في وجه الإلحاد[2].

ولا ريب أنه قول ساقط متهافت شاذ لم يسبق إليه قائله، ولا يغير شيئاً من ثوابت الكتاب والسنة وإجماع الأمة.

فكما تجب المحافظة على الألفاظ الشرعية، ويحرم العدول عنها إلى مصطلحات حادثة، تجب المحافظة على مدلولاتها التي أرادها الشارع، فلا يُدخل فيها ما ليس منها، ولا يخرج منها، ما هو منها، بأنواع التعطيل والتحريف.

وحتى تستبين سبيل أهل الكتاب، من يهودٍ ونصارى، وأنها مجافية لسبيل المؤمنين، راغبةٌ عن ملة إبراهيم، نقدم تعريفاً باليهودية والنصرانية من حيث هما ديانتان فقط، دون الاستطراد في الجوانب التاريخية، إلا ما دعت إليه الحاجة، لمقارنتهما بدين الإسلام الذي جاءت به الرسل.

---

(١) سيرد ذكر مزاعم هؤلاء النصارى ومناقشتها في مبحث «النصارى العرب» في الباب الأول.

(٢) سيرد ذكر هذه الدعوى في مبحث «الإسلاميون العصرانيون» في الباب الأول.

اليهودية

بعث الله نبيه موسى عليه السلام لغايتين:

إحداهما: دعوة فرعون وقومه إلى عبادة الله وحده، وموعظته وهدايته.

﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النازعات]، ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه].

الثانية: تخليص بني إسرائيل من أذى فرعون وقومه، وقيادتهم وهدايتهم.

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾﴾ [الشعراء].

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾﴾ [طه].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾ [إبراهيم].

فأما المهمة الأولى، فقد جرى في سبيلها مواقف مشهودة، انتهت بإغراق فرعون وقومه، بعد عنادهم واستكبارهم وجحدهم آيات الله، وقد استيقنتها أنفسهم.

وأما المهمة الثانية: فقد تمت بآية باهرة، ومنّة عظيمة على بني إسرائيل حين فرق بهم البحر، فكان كل فرقٍ كالطود العظيم. وتحقق

مراد الله ﷻ في قوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾ [القصص].

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ۝١٣٧﴾ [الأعراف].

ولكن هذه الأمة المنعتقة لتوها من نير العبودية والاستذلال لم تفقه الحكمة، ولم تشكر النعمة، ولم تع حقيقة التوحيد التي جاء بها نبيها عليه السلام، ففاجأوه بجملة من الاقتراحات الكفرية، والأفعال الشركية، والتمرد على طاعة الله:

- ﴿وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ﴾ [الأعراف: ١٣٨].
- ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ۝١٤٨﴾ [الأعراف].
- ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، ولما قال لهم نبيهم:

﴿يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ۝٢١ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ۝٢٢ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَـٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٢٣ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ۝٢٤﴾ [المائدة].

موقف اليهود من التوراة:

تلك حال أسلاف هذه الأمة المغضوب عليها؛ من الكفر بالله، وسوء الأدب معه، وأذية نبيه الذي كتب الله نجاتهم من عدوهم على يديه. ولكن المصيبة الأعظم التي منيت بها هذه الأمة المغضوب عليها، وتجاوز أثرها ذلك الجيل إلى كل يهودي في الأرض ـ إلا من رحم الله ـ موقفهم من كتاب الله ووحيه الذي به العصمة والنجاة، والهدى والنور. قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥] ﴿وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأعراف]. ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤] فكان موقف أسلافهم الذين عاينوا الآيات البينات، الرفض والعصيان:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣]، ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [الأعراف] فلم يرفعوا بذلك رأساً، ولم يقبلوا هدى الله الذي أرسل به رسوله. وسلك خلوفهم مسالك شتى في الحيدة عن هدى الله منها:

• تحريف الكلم عن مواضعه: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦]، ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: ٤١]. فوقع التحريف منهم في التأويل، وهو الأكثر، وفي التنزيل بزيادة ألفاظ أو تبديلها بغيرها(١).

(١) انظر: إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان: ابن القيم، محمد بن أبي بكر. تحقيق وتعليق: محمد عفيفي. المكتب الإسلامي. بيروت ـ مكتبة الخاني ـ الرياض. الطبعة الأولى (١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م). (٢/ ٤٨٠ ـ ٤٩٦).

• كتمان ما أنزل الله وإخفاؤه: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ﴾ [المائدة: ١٥]، ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٧١﴾ [آل عمران]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩﴾ [البقرة] ﴿قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ﴾ [الأنعام: ٩١].

• التحايل على شرع الله بوجوه الحيل للتخلص منه: وهم أئمة هذا المسلك الدنيء، ولهم فيه أفعال مشينة ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ [النساء: ١٤٢] فمن ذلك: ما رواه أبو هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «قاتل الله يهود حرمت عليهم الشحوم، فجمَّلوها، فباعوها ـ وفي رواية ـ: وأكلوا أثمانها»(١)، جملوها أي أذابوها.

(١) رواه البخاري: (٣/ ٤٠)، ورواه مسلم: (٣/ ١٢٠٧ ـ ١٢٠٨).

ومن حيلهم المسِفَّة التي وصفها أحدهم للتحايل على تحريم الحلب يوم السبت، فقال: (رأى الحاخامات الصهاينة أن الحلب الممنوع يصبح مباحاً إذا لم يكن الحليب أبيضاً وصبغ باللون الأزرق. وهذا الحلب السبتي الأزرق يخصص لصناعة الجبن حصراً. ويغسل الصباغ الأزرق بالمصل. وابتدع الحاخامون غير الصهاينة حيلةً أكثر مكراً، شاهدت بنفسي إجراءها في أحد الكيبوتزات الدينية ـ أي المستوطنات التي أقاموها في فلسطين ـ عام ١٩٥٢م؛ اكتشفوا حكماً قديماً يسمح بإفراغ ضروع البقرة يوم السبت بغرض تخفيف معاناة البقر من امتلاء ضروعها، بشرط أن يسيل الحليب على الأرض ويهمل. والآن ما الذي يجري فعلاً؟ صباح السبت يذهب أحد المتدينين في الكيبوتز إلى حظيرة الأبقار، ويضع الدلاء تحت البقرة... ثم يذهب إلى الكنيس ليصلي. فيأتي زميلٌ له معتزماً «بحسن نية» تخفيف معاناة الأبقار، بجعل حليبها يسيل على الأرض. فإذا وجد بالصدفة، دلاءً تحت الأبقار، فهل هو ملزم بإزاحتها؟ بالطبع لا. ولذلك يتجاهل الدلاء ويؤدي مهمته الرحيمة ويذهب إلى الكنيس. وختاماً يأتي ثالث من زملائه المتدينين إلى=

وهذا مشابه لما فعله أسلافهم «أصحاب السبت» الذين مسخهم الله قردة وخنازير، لما حرم عليهم الصيد يوم السبت، فاحتالوا على صيد الحيتان يوم السبت، ولم يأكلوها إلا ليلة الأحد[(١)]. قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الأعراف].

• هجر العمل به: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [المائدة: ٤٣].

• الاستعاضة عنه بغيره: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة].

❁ ❁ ❁

= حظيرة الأبقار، ويكتشف، مندهشاً، الدلاء الملأى بالحليب، فيضعها في برّاد، ويلتحق برفاقه في الكنيس. الأمر كله جيد الآن، ولا حاجة لتبديد الأموال لشراء الصباغ الأزرق). التاريخ اليهودي، الديانة اليهودية وطأة ثلاث آلاف سنة: للكاتب اليهودي: إسرائيل شاحاك ترجمة: صالح علي سوداح. بيسان للنشر والتوزيع بيروت ـ لبنان. الطبعة الأولى ١٩٩٥م. (٦٩). وقد ذكر أمثلة عجيبة لتحايلهم على شرائعهم. انظر أيضاً: (٧٨ ـ ٧٩).

(١) انظر جامع البيان: (٩/ ٩٠ ـ ١٠١).

الكتب المقدسة عند اليهود:

١ ـ توراة «عزرا»:

قد كان للأحداث التاريخية التي عصفت باليهود من بعد موسى عليه السلام، أثر بالغ في ضياع التوراة ثم محاولة صياغتها من جديد، ثم استحداث كتب أخرى تزاحمها في المنزلة حتى فاقتها. يقول السموأل بن يحيى(١)، الذي كان من أحبار اليهود ثم اهتدى إلى الإسلام في القرن السادس الهجري: (ذكر السبب في تبديل التوراة. علماؤهم وأحبارهم يعلمون أن هذه التوراة التي بأيديهم، لا يعتقد أحدٌ من علمائهم وأحبارهم، أنها المنزلة على موسى البتة؛ لأن موسى صان التوراة عن بني إسرائيل، ولم يبثها فيهم، وإنما سلمها إلى عشيرته أولاد ليوى... وكان بنو هارون قضاة اليهود وحكامهم، لأن الإمامة وخدمة القرابين وبيت المقدس كانت موقوفة عليهم. ولم يبذل موسى من التوراة لبني إسرائيل إلا نصف سورة(٢)... فأما بقية التوراة فدفعها

---

(١) كان اسمه رحمه الله شموائيل بن يهوذا بن أبوان. وكان والده من فاس وأمه من البصرة، وكلاهما من علماء اليهود. وقد اشتغل في صباه بعلوم الآلة والمنطق والرياضيات، ثم قرأ التواريخ فقاده ذلك إلى التفكر في المذاهب والأديان، فقرأ القرآن، فبهرته فصاحته، ورأى النبي ﷺ مرتين في المنام فأسلم، وحسن إسلامه. وصنّف «إفحام اليهود» توفي رحمه الله سنة ٥٧٠هـ. انظر قصته في كتابه المذكور آنفاً: (٧٤ ـ ٧٥).

(٢) لعل المراد نصف سورة من نسخة التوراة المكتوبة، قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥]، وقال: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأعراف]. وأما تبليغ الرسالة فقد جرىٰ كاملاً ولا ريب، ولم يكتم شيئاً منه عليه السلام، حاشا رسل الله من الكتمان: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾ [الأحزاب] قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ=

إلى أولاد هارون، وجعلها فيهم، وصانها عن سواهم. وهؤلاء الأئمة الهارونيون، الذين كانوا يعرفون التوراة ويحفظون أكثرها، قتلهم «بخت نصَّر»[١] على دمٍ واحد، يوم فتح بيت المقدس. ولم يكن حفظ التوراة فرضاً ولا سنةً بل كان كل واحدٍ من الهارونيين يحفظ فصلاً من التوراة.

فلما رأى «عزرا»[٢] أن القوم قد أحرق هيكلهم، وزالت دولتهم، وتفرق جمعهم، ورفع كتابهم، جمع من محفوظاته، ومن الفصول التي يحفظها الكهنة ما لفق منه هذه التوراة التي بأيديهم الآن... فهذه التوراة التي بأيديهم ـ على الحقيقة ـ كتاب عزرا، وليس كتاب الله[٣].

لقد سبق السموأل بن يحيى المغربي الباحثين الغربيين بقرابة تسعة قرون في الإفصاح عن هذه الحقيقة. فقد ظل اليهود والنصارى يعتقدون لقرونٍ طويلة أن موسى هو كاتب التوراة. ولكن هذا الاعتقاد الموروث

= وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾ [الجن].

(١) بخت نصَّر/ أو نبوخذ نصَّر: ملك كلداني بابلي، اجتاح دولة يهوذا، ودمّر أورشليم ونهب الهيكل سنة ٥٨٦ق.م، وأهلك الكثير من سكانها، واستاق الناجين إلى بابل، فيما عرف بالسبي البابلي. انظر: العهد القديم. سفر الأخبار الثاني (٨٣٠).

(٢) عزرا: كاهن وكاتب يهودي، ظهر في فترة السبي البابلي، عاصر عفو الملك الفارسي «قورش» عن اليهود، وإذنه لهم بالعودة لفلسطين. وكان له دورٌ بارز في تنظيم اليهود، وجمع شملهم، وعزلهم عن باقي الشعوب، وإعادة شريعتهم. انظر: العهد القديم. سفر عزرا (٨٤٧ ـ ٨٥٣).

(٣) إفحام اليهود، للسموأل بن يحيى المغربي تحقيق: د. محمد عبد الله الشرقاوي، طبع ونشر إدارات البحوث العلمية والافتاء. الطبعة الثانية (١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م) (١٣٥ ـ ١٤٠).

قد تداعى تحت مطارق النقد الحديث. يقول الدكتور موريس بوكاي[١]: (أما اليوم فقد هجر هذا الفرض تماماً)[٢]، ثم ذكر بعض الدراسات النقدية الجادة التي قام بها المتخصصون، وخلص إلى النتيجة التالية: (بهذا إذاً يمتد تحرير نص أسفار موسى الخمسة على ثلاثة قرون بأقل تقدير... وبهذا يتضح تكون أسفار موسى الخمسة من أقوالٍ موروثة مختلفة، جمعها بشكل يقل أو يزيد حذفاً محررون وضعوا تارةً ما جمعوا جنباً إلى جنب، وطوراً غيروا من شكل هذه الروايات بهدف إيجاد وحدة مركبة، تاركين للعين أموراً غير معقولة، وأخرى متنافرة، كان من شأنها أن قادت المحدثين إلى البحث الموضوعي عن المصادر)[٣]، ويكفي أن تلك الأسفار المنسوبة إلى موسى ﷺ قد ختمت بحكاية وفاة موسى نفسه[٤].

---

(١) كاتب وطبيب فرنسي معاصر، كان كاثوليكياً، عاش فترة شبابه في المغرب إبان الاحتلال الفرنسي. اطلع على القرآن الكريم، وانبهر بما فيه من الآيات المتعلقة بالخلق والفَلَك والظواهر الكونية والإنسانية المطابقة للحقائق العلمية الحديثة، فاًعتنق الإسلام عام ١٩٧٢م في الرياض، وزار مكة والمدينة، وتعلم اللغة العربية. من مؤلفاته بعد إسلامه: (القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم) و(ما أصل الإنسان؟ إجابات العلم والكتب المقدسة). انظر التعريف به في كتاب، مسلمو أهل الكتاب وأثرهم في الدفاع عن القضايا القرآنية. د. محمد بن عبد الله السحيم. ج١ (٣٨٣ ـ ٤٠٦).

(٢) القرآن والتوراة والإنجيل والعلم. دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة. د. موريس بوكاي. ترجمة: قسم الترجمة بالدار. مكتبة مدبولي ـ القاهرة. الطبعة الأولى ١٩٩٦م. (٣٠).

(٣) المرجع السابق. (٣٣).

(٤) انظر العهد القديم: دار المشرق ـ بيروت. توزيع: المكتبة الشرقية. جمعيات الكتاب المقدس في المشرق ـ بيروت. الطبعة الثالثة ١٩٨٩م. (٤١٣ ـ ٤١٤). سفر التثنية: (٣٤/١ ـ ١٢).

ويقول العالم اليهودي باهليل سلفر في كتابه «موسى والتوراة الأصلية»:

(حتى الوصايا العشر[١] التي يكاد يجمع العلماء على أنها الشيء الوحيد المتبقي من التوراة الأصلية، لم تكن بكاملها، وعلى هيئتها الحالية كالتي أتى بها موسى)[٢].

فإذا كان هذا في «التوراة» التي عليها المعول في الديانة اليهودية، فكيف بغيرها مما كتبه الذين يكتبون الكتاب بأيديهم، ثم يقولون هذا من عند الله، ليشتروا به ثمناً قليلاً؟ وأي سند رباني لليهودية وقد اختلط كتابها، وصبّت فيه روافد متعددة؟.

لقد تزعم «عزرا» حركة الكتابة هذه، ويصفه مؤلف (التوراة: تاريخها وغاياتها) بأنه: (أول الكتبة، ومعه ابتدأت تلك الفئة من المؤلفين الذين «وضعوا» التوراة والشريعة الشفهية، والتي سيطرت لقرونٍ

---

(١) وردت هذه الوصايا في سفر التثنية (٥/ ١ ـ ٢٢). العهد القديم: (٣٦٧ ـ ٣٦٨). وملخصها:
ـ لا يكن لك آلهة أخرى تجاهي.
ـ لا تصنع لك منحوتاً، أية صورة مما في السماء من فوق، وما في الأرض من تحت، وما في الماء من تحت الأرض. ولا تسجد لها، ولا تعبدها، لأني أنا الرب إلهك إله غيور. . .
ـ لا تلفظ اسم الرب إلهك باطلاً. . .
ـ احفظ يوم السبت لتقديسه، كما أمرك الرب إلهك. . . فلا تصنع فيه عملاً. . .
ـ أكرم أباك وأمك. . . ـ لا تقتل ـ لا تزن ـ لا تسرق ـ لا تشهد على قريبك شهادة زور.
ـ لا تشته امرأة قريبك، ولا تشته بيته ولا حقله ولا خادمه ولا خادمته ولا ثوره ولا حماره. . .).
(٢) نقلاً من: اليهود تاريخ وعقيدة: (١٤٢).

عديدة على عقول وجميع مقدرات اليهود. وكان للكتبة هؤلاء حزبٌ منظم، هو حزب «الفريسيين». وهم الذين حملوا فيما بعد اسم الحاخاميين، أي معلمو الشريعة. تقول الموسوعة اليهودية أمام كلمة «كتبة»: (هم هيئة من المعلمين، كانت مهمتهم تفسير الشريعة للشعب. وقد ابتدأ تنظيمهم مع عزرا الذي كان رئيسهم. وهؤلاء الكتبة كانوا أول من علم التوراة، وهم واضعو الشريعة الشفهية)[١].

٢ ـ العهد القديم:

لقد تتابع هؤلاء الكتبة على الإضافة إلى التوراة، وإلحاق أسفار جديدة حتى تكوّن لديهم ما يسمى بـ«العهد القديم»، وصار يبلغ خمسة أضعاف الأسفار الخمسة الأولى المنسوبة إلى موسى عليه السلام، والتي تؤرخ لبني إسرائيل حتى سنة ٢٤٠٠ق.م. وتؤلف القسم الأول، المسمى: «أسفار الشريعة» أو «التوراة» وهي: سفر التكوين، والخروج، الأحبار «اللاويين»، العدد، وتثنية الاشتراع. يتلوها أسفار تاريخية تبلغ ستة عشر سفراً تغطي تاريخ اليهود منذ دخولهم الأرض المقدسة في نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد إلى السبي البابلي في القرن السادس قبل الميلاد. ثم سبعة أسفار تعرف بكتب الحكمة تضم أشعاراً وأناشيد وأمثالاً. ثم ثمانية عشر سفراً تعرف بكتب الأنبياء تغطي الفترة بين القرن الثامن والقرن الثاني قبل الميلاد[٢].

لقد استغرق تدوين «العهد القديم» زمناً طويلاً (يربو على تسعة قرون وبلغات مختلفة، واعتماداً على التراث المنقول شفوياً. وقد

---

(١) التوراة. تاريخها وغاياتها: ترجمة وتعليق: سهيل ديب. دار النفائس. بيروت. الطبعة الرابعة. (١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م). (٤٧). وقد نسبه إلى لاهوتي أمريكي.

(٢) انظر في دراسة هذه المجموعات ونقدها: القرآن والتوراة والإنجيل. موريس بوكاي (٢٠ ـ ٦٥) تاريخ بني إسرائيل. محمد عزة دروزة.

صححت وأكملت أكثرية هذه الأسفار، بسبب أحداثٍ حدثت، أو بسبب ضرورات خاصة، وفي عصور متباعدة أحياناً... ولم تكتسب شكلها النهائي إلا في القرن الأول بعد المسيح، كما يرى الكثيرون)(١).

ولا يخفى أن هذه المدة الطويلة، وما شهدته من أحداثٍ جسيمة تعرض لها بنو إسرائيل من داخلهم وخارجهم قد حادت بهم عن نهج النبوة والدين الحق.

يقول السموأل بن يحيى ﷺ: (إن الدولة إذا انقرضت عن أمة باستيلاء غيرها عليها، وأخذها بلادها، انطمست حقائق سالف أخبارها، واندرس قديم آثارها وتعذر الوقوف عليها... وهذه الطائفة، بلا شك أعظم الطوائف حظاً مما ذكرناه، لأنها من أقدم الأمم عهداً، ولكثرة الأمم التي استولت عليها من الكنعانيين والبابليين والفرس واليونان والنصارى والإسلام.

وما من هذه الأمم إلا من قصدهم أشد القصد، وطلب استئصالهم، وبالغ في إحراق بلادهم، وإخرابها، وإحراق كتبهم(٢)، إلا

---

(١) القرآن والتوراة والإنجيل والعلم. (٢٦ ـ ٢٨).

(٢) ذلك مصداق قضاء الله عليهم بقوله: (وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب) (الأعراف: ١٦٧). ومن أشهر الحوادث التي وقعت عليهم في التاريخ:
ـ تسلط فرعون مصر «شيشنق» عليهم حتى نهب أورشليم في حدود ٩٠٠ق.م.
ـ هجوم «سارجون» ملك الآشوريين عليهم، وقضائه على دولة يهوذا، وسبي بعض أهلها سنة ٧٢٢ق. م.
ـ هجوم «نبوخذ نصّر» ملك البابليين عليهم مرتين سنة ٥٩٨ق.م ٥٨٦ق.م وتدمير أورشليم، وإحراق الهيكل، واستياق عشرات الألوف من اليهود أسرى فيما عرف بالسبي البابلي.
=

المسلمين. فإن الإسلام صادف اليهود تحت ذمة الفرس، ولم يبق لهم مدينة ولا جيش إلا العرب المتهودة بخيبر.

فأشد على اليهود من جميع هذه الممالك، ما نالهم من ملوكهم العصاة... وغيرهم من الملوك الإسرائيليين، الذين قتلوا الأنبياء، وبالغوا في تطلبهم ليقتلوهم، وعبدوا الأصنام، وأحضروا من البلاد سدنة للأصنام لتعظيمها، وتعليم رسوم عبادتها، وابتنوا لها البيَع العظيمة، والهياكل، وعكف على عبادتها الملوك ومعظم بني إسرائيل، وتركوا أحكام التوراة والشرع مدة طويلة، وأعصاراً متصلة. فإذا كان هذا تواتر الآفات على شرعهم من قِبَل ملوكهم، ومنهم على أنفسهم، فما ظنك بالآفات المتفنّنة التي تواترت عليهم من استيلاء الأمم فيما بعد، عليهم، وقتل أئمتهم، وإحراق كتبهم، ومنعهم إياهم عن القيام بشعائرهم)(١).

٣ ـ التلمود:

وإلى جانب «العهد القديم» طوّر حاخامات يهود عبر القرون تراثاً دينياً ضخماً، يعدونه الأصل الثاني في ديانتهم، وإن كان في حقيقة الأمر هو محل عنايتهم وحفاوتهم ودرسهم، ذلك هو «التلمود» ويعني بالعبرية «التعليم».

= ـ تسلط السلوقيين والبطالسة عليهم في حدود سنة ٣٠٠ق.م.
ـ اضطهاد القائد الروماني «تيتوس» إياهم وتدمير أورشليم وحرق الهيكل، واسترقاقهم سنة ٧٠ق.م.
ـ تجدد الاضطهاد الروماني على يد تراجان ١١٦م، وهادريان ١٣١م وهيرقليدس.
ـ اضطهاد «يزدجرد» الثاني ملك الفرس إياهم سنة ٤٣٨م.
انظر: اليهود تاريخ وعقيدة (١٨ ـ ٢٦).

(١) إفحام اليهود. وقصة إسلام السموأل ورؤياه النبي ﷺ. (١٤٣ ـ ١٤٥).

ويتكون التلمود، حسب دائرة المعارف اليهودية Jewish Encyclopaedia من جذرين أساسيين:

أحدهما: المشناه: Mishnah وهي مجموع المرويات الشفهية المنسوبة إلى موسى ﷺ التي يزعم الحاخامات أنهم تناقلوها جيلاً بعد جيل.

وقد شرع في تدوينها الحاخام «يوضاض» بعد المسيح بمائة وخمسين عاماً. ثم ضمها مع زيادات ألحقت بها الحاخام يهوذا هاناسي في حدود عام ٢٠٠م. ويحاول اليهودي المستعرب «موسى بن ميمون» تنظير هذه المرويات، بالسنَّة النبوية لدى المسلمين فيقول: (منذ أيام معلمنا موسى حتى حاخامنا المقدس يهوذا هاناسي لم يتفق أحدٌ من علماء اليهود على أي عقيدة من العقائد التي كانت تدرس علانية، باسم «القانون الشفهي»، بل كان رئيس محكمة كل جيل أو نبيه يضع مذكرة عما سمعه عن سلفه وموجهيه، لينقلها شفهياً إلى شعبه... وهكذا تقدم الزمن حتى أتى حاخامنا المقدس الذي جمع لأول مرة كل ما يتعلق بالسنَّة والأحكام والقرارات وشرح القانون المروي عن موسى، ـ معلمنا ـ المأمور به في كل جيل)[(١)].

وقد قام الحاخام يهوذا هاناسي بتنسيق مدونات مائتي عالم يهودي يعرفون باسم «تنائيم»، كتبوها لفترة تمتد من السنة العاشرة للميلاد حتى نهاية القرن الثاني للميلاد. ويضارع مشروع المشناه كتاب «بريثا» Braitha، الذي وضعه الحاخام اليعازر بن يعقوب.

الثاني: جمارا Gemara: وهي شرح لما استغلق فهمه من المشناه مع زيادات وتعليقات، ابتدأها ابنا الحاخام هاناسي، وتابعهم آخرون

---

(١) عن التلمود: تاريخه وتعاليمه. ظفر الإسلام خان. دار النفائس ـ بيروت. الطبعة السادسة (١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م). (١٢ـ ١٣).

في هذه المهمة عرفوا باسم «أمورائيم». ولهذا فإن كلمة جمارا تعني الإكمال.

وثم نوعان من الجمارا: جمارا أورشليم، أو فلسطين، صنف في حدود ٤٠٠م وقيل ٣٢٠م، وجمارا بابل، صنف في حدود ٥٠٠م، نسبة إلى موطن الشرَّاح من الحاخامات. فمن ثم تنوع «التلمود» إلى: تلمود أورشليم وتلمود بابل.

ويزعم اليهود أن أصل التلمود هي «الوصية» المذكورة في سفر الخروج: (وقال الرب لموسى: اصعد إليَّ إلى الجبل، وأقم هنا حتى أعطيك لوحي الحجارة والشريعة والوصية التي كتبتها لتعليمهم) ٢٤/ ١٢[1] بحسبان أن لوحي الحجارة هما ما يتضمن الوصايا العشر، والشريعة هي التوراة المكتوبة، والوصية هي المشناه وذلك مصداق قول الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٩].

ويصفه السموأل بن يحيى: (وأما التلمود، فهو الكتاب الأكبر، ومبلغه نحو نصف حمل بغل لكثرته. ولم يكن الفقهاء الذين ألَّفوه في عصرٍ واحد، وإنما ألَّفوه في جيل بعد جيل)[2]. أما الطبعات الحديثة التي ظهرت في هذا القرن ما بين عامي ١٩٣٥ ـ ١٩٥٢م فقد بلغت خمسة وثلاثين مجلداً[3].

---

(١) العهد القديم: (١٩٤ ـ ١٩٥)، وجاء في التلمود. تاريخه وتعاليمه: (قد أعطى الله الشريعة على طور سيناء، وهي التوراة والمشنا والجمارا، ولكنه أرسل على يد موسى الكليم التلمود شفهياً). عن الكنز المرصود في قواعد التلمود: ترجمة كتابَيْ: اليهودي على حسب التلمود د. روهلنج، تاريخ سوريا لسنة ١٨٤٠م. شارل لوران. ترجمة د. يوسف نصر الله. دار القلم ـ دمشق، دارة العلوم ـ بيروت. طبعة دار القلم الأولى (١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م). (٥١).

(٢) إفحام اليهود: (١٦٢).

(٣) التوراة تاريخها وغاياتها: (٨٢).

وقد أضفى أحبار السوء من الحاخامات على «التلمود» هالة من القداسة والتبجيل ليعظمه البلْه من بني إسرائيل، وبالغوا في وصفه وإطرائه وصونه. فمن مأثوراتهم:

- (إن من درس التوراة فعل فضيلة لا يستحق المكافأة عليها، ومن درس المشنا فعل فضيلة استحق أن يكافأ عليها، ومن درس الجمارا فعل أعظم فضيلة.
- من احتقر أقوال الحاخامات استحق الموت أكثر ممن احتقر أقوال التوراة ولا خلاص لمن ترك تعاليم التلمود واشتغل بالتوراة فقط، لأن أقوال علماء التلمود أفضل مما جاء في شريعة موسى.
- إن التوراة أشبه بالماء، والمشنا أشبه بالنبيذ، والجمارا أشبه بالنبيذ العطري. والإنسان لا يستغني عن الثلاثة كتب المذكورة، كما أنه لا يستغني عن الثلاثة أصناف السالف ذكرها)[(١)].

تلك نظرة شاملة على مصادر الديانة اليهودية، وكتبها المقدسة لديهم، تكشف بوضوح عن انقطاع السند بين اليهودية وملة إبراهيم، وطروء زيادات خطيرة، وحصول تحريفٍ، وكتمان لما أنزل الله، أنتج ديانة محرفة، لا تستقيم وقانون الإسلام العام في شقيها العقدي والتشريعي على نحو ما سنوضحه في الصفحات التالية:

العقائد اليهودية:

(١) في باب الإيمان بالله:

بالرغم مما بقي في الأسفار الخمسة المنسوبة إلى موسى عليه السلام، والمعدودة عندهم توراة، من التأكيد على التوحيد، ونبذ الوثنية والشرك، فقد حفل العهد القديم والتلمود بأنواع الكفر والشرك في

(١) الكنز المرصود في قواعد التلمود: (٥٠ ـ ٥١).

الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، مما تقشعر منه الأبدان، ولا يصدر من أهل إيمان، ومن شواهد ذلك:

□ **فِرية الرؤية في الدنيا**: جاء في سفر الخروج: (ثم صعد موسى وهارون وناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل، فرأوا إله إسرائيل، وتحت رجليه شبه صنع بلاط سفير أشبه بالسماء نفسها نقاءً. وعلى أعيان بني إسرائيل هؤلاء لم يمد يده، فرأوا الله وأكلوا وشربوا) ٢٤/ ٩ ـ ١١[١]. وفي سفر العدد يَرِد تَشَفُّع من موسى، وهو يناجي الله قائلاً ـ حسب زعمهم ـ: (... إنك يا رب، في وسط هذا الشعب الذي تراءيت له، يا رب، وجهاً لوجه، وأن غمامك مقيم فوقهم، وأنك سائر أمامهم بعمود غمام نهاراً، وبعمود نار ليلاً) ١٤/ ١٤ ـ ١٥[٢]. وهذا مما افتروه على الله. فإذا كان موسى ﷺ قد سأل الرؤية فلم ينلها في الدنيا، فكيف بهؤلاء الذين شرطوها على موسى لقاء إيمانهم، فأخذتهم الصاعقة. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف]. ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [البقرة].

□ **فِرية وصفه تعالى ـ بالندم ـ**: جاء في سفر التكوين: (فندم الرب على أنه صنع الإنسان على الأرض، وتأسف في قلبه. فقال الرب: أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقت، الإنسان مع البهائم والزحافات وطيور السماء، لأني ندمت على أني صنعتهم) ٦/ ٦ ـ ٧[٣].

---

(١) العهد القديم: (١٩٤).

(٢) العهد القديم: (٣٠٨).

(٣) العهد القديم: (٧٧ ـ ٧٨).

وفي سفر الخروج: (فعدل الرب عن الإساءة التي قال إنه ينزلها بشعبه) ٣٢/ ١٤[١]. ويرى السموأل بن يحيى أن المترجم حرف اللفظ، وصوابه: فندم[٢].

وفي سفر صموئيل الأول: (إني قد ندمت على إقامتي شاول ملكاً) ١٥/ ١١[٣] فسبحان العليم الحكيم.

أما التلمود فيغرق كاتبه في الإسفاف والتفريط في جنب الله، فيقول: (يتندم الله على تركه اليهود في حالة التعاسة، حتى إنه يلطم ويبكي كل يوم، فتسقط من عينيه دمعتان في البحر، فيسمع دويهما من بدء العالم إلى أقصاه، وتضطرب المياه وترتجف الأرض في أغلب الأحيان، فتحصل الزلازل)[٤]. فويلٌ لهم مما كتبت أيديهم.

□ **فِرية وصفه ـ تعالى ـ بالتعب:** جاء في سفر التكوين: (وانتهى الله في اليوم السابع من عمله الذي عمله، واستراح في اليوم السابع) ٢/ ٢[٥]. وقد أكذبهم الله بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق].

□ **فِرية وصفه ـ تعالى ـ بالنوم والغفلة:** حكى السموأل بن يحيى أن اليهود يقولون في العشر الأول من كل سنة، في صلاتهم دعاءً بشعاً معتدىً فيه: (لِمَ تقول الأمم: أين إلاههم؟ انتبه! لِمَ تنام يا رب، استيقظ من رقدتك) ثم علق قائلاً: (وهؤلاء إنما نطقوا بهذه الهذيانات والكفريات من شدة الضجر من الذل والعبودية والصغار، وانتظار فرجٍ

(١) العهد القديم: (٢٠٩).
(٢) إفحام اليهود: (١٣٣). ويرى رحمه الله أن متأخريهم هذبوا بعض الألفاظ بما استفادوه من توحيد المسلمين: (١٣٢).
(٣) العهد القديم: (٥٤٩).
(٤) الكنز المرصود: (٥٦).
(٥) العهد القديم: (٧٠).

لا يزداد عنهم إلا بعداً)[١]. فسبحان من ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

(٢) في باب أنبياء الله:

إذا كان القدح وسوء الأدب والجرأة في كتب اليهود قد بلغت جناب الله سبحانه وتعالى، فلا غرو أن تطال أذيتها رسله الكرام، ومصطفَيه الأخيار، عليهم صلواته سبحانه. ومن شواهد ذلك:

□ **نوحٌ** عليه السلام: جاء في سفر التكوين: (وابتدأ نوحٌ حارث الأرض يغرس الكَرم، وشرب من الخمر، فسكر، وتكشف في داخل خيمته) ٩/ ٢٠ ـ ٢١[٢]. وصدق الله، وكذبت يهود: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء].

□ **إبراهيم** عليه السلام يصوره سفر التكوين باذلاً عرض زوجته سارة لرؤساء الفراعنة حين قدومه مصر، لتحقيق مطامع دنيوية: (فلما قارب أن يدخل مصر، قال لساراي امرأته: أنا أعلم أنك امرأة جميلة المنظر، فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون هذه امرأته، فيقتلونني، ويبقونك على قيد الحياة. فقولي: أنك أختي حتى يُحسن إلي بسببك وتحيا نفسي بفضلك... فأحسن إلى أبرام بسببها، فصار له غنم وبقر وحمير وخدام وخادمات وحمائر وجمال) ١٢/ ١١ ـ ١٧ كل هذا وامرأته في بيت فرعون[٣].

---

(١) إفحام اليهود: (١٣١).

(٢) العهد القديم: (٨٢).

(٣) العهد القديم: (٨٦ ـ ٨٧). وأصل القصة ثابت في صحيح البخاري: (بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة، فقيل له: إن هذا الرجل معه امرأة من أحسن النساء فأرسل إليه فسأله عنها فقال: من هذه؟ قال: أختي. فأتى سارة فقال: يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري=

فحاشا نبي الله الذي ألقي في النار في ذات الله، أن يتجر بعرضه، وأن يرضى السوء في أهله.

□ **إسماعيل** ﷺ: لعل بشارة الملك لهاجر في البرية بتكثير نسل ابنها قد أغاظ كتبة سفر التكوين، فنفثوا فيه من حَر غيظهم هذه الجملة: (ويكون حماراً وحشياً بشرياً) ١٦/ ١٢[١]. وهي عبارة نشاز لا تتفق مع سياق البشارة.

□ **لوط** ﷺ وأهل بيته المؤمنون: يقلب كاتب سفر التكوين الحقائق في شأن أهل هذا البيت، فلا يقدح بكلمة واحدة في امرأة لوط الخائنة لزوجها في دينه وضيافته، بل يجعلها مشمولة أصلاً بالنجاة، فيقول عن الملكين حين أمرا لوطاً بالخروج من قرية «سدوم»: (فأمسك الرجلان بيده، وبيد امرأته وابنتيه، لشفقة الرب عليه، وأخرجاه، ووضعاه خارج المدينة ١٩/ ١٥ ـ ١٦[٢]. والواقع أنها تبعتهم لما أحست بالخطر. ولهذا لا يكاد يذكر في القرآن إنجاء الله للوط ﷺ وأهل بيته إلا مقروناً باستثناء امرأته. وبالمقابل فإن سفر

= وغيرك: وإن هذا سألني عنك فأخبرته أنك أختي، فلا تكذبيني. فأرسل إليها فلما دخلت عليه ذهب ليتناولها بيده فأخذ. فقال: ادعي الله لي ولا أضرك. فدعت الله فأُطلق. ثم تناولها الثانية، فأخذ مثلها أو أشد، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت الله فأُطلق. فدعا بعض حجبته فقال: إنك لم تأتني بإنسان، إنما أتيتني بشيطان. فأخدمها هاجر. فأتته وهو قائم يصلي، فأومأ بيده: مهيم؟ قالت: رد الله كيد الكافر أو الفاجر في نحره وأخدم هاجر) (٤/ ١١٢). فهذا السياق النبوي المعصوم للقصة، يكشف عن حال إبراهيم ﷺ في هذه المحنة التي ألمت به وزوجه، وأنه فزع إلى الصلاة. ولم يشتغل باستثمار الحمير والجمال مستغلاً حظوة زوجته الجميلة كما يصور سفر التكوين. وانظر فتح الباري: (٦/ ٢٧٨).

(١) العهد القديم: (٩١).

(٢) العهد القديم: (٩٥).

التكوين يصور لوطاً الذي وصفه الله بقوله: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٤]، ووصف أهل بيته ـ سوى امرأته ـ بقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣٥ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٣٦﴾ [الذاريات]، بصورة هابطة: (وصعد لوط من صُوعَر، وأقام في الجبل هو وابنتاه معه. لأنه خاف أن يقيم في صوعر. فأقام في مغارة هو وابنتاه. فقالت الكبرى للصغرى: إن أبانا قد شاخ، وليس في الأرض رجل يدخل علينا على عادة الأرض كلها. تعالي نسقي أبانا خمراً، ونضاجعه ونقيم من أبينا نسلاً. فسقتا أباهما خمراً هذه الليلة، وجاءت الكبرى فضاجعت أباها، ولم يعلم بنيامها ولا قيامها. فلما كان الغد قالت الكبرى للصغرى: ها أنذا قد ضاجعت أمس أبي، فلنسقه خمراً في تلك الليلة أيضاً. وتعالي أنت فضاجعيه لنقيم من أبينا نسلاً. فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة أيضاً، وقامت الصغرى فضاجعته، ولم يعلم بنيامها ولا قيامها، فحملت ابنتا لوط من أبيهما) ١٩/ ٣٠ ـ ٣٦[١]. فهذه وقيعة الذين يفترون على الكذب، ويؤذون أنبياءه، وقد شهد لآل لوط خصومهم فقالوا: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢، والنمل: ٥٦].

□ **موسى** عليه السلام: لم يسلم من أذاهم مع ما أجرى الله على يديه من إنجائهم من آل فرعون، وقيادتهم وتعليمهم، حتى إنه عاتبهم على ذلك فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الصف: ٥]، أي وأنتم تعلمون أني رسول الله إليكم.

ومن جملة ما سجله سفر الخروج من أذيتهم إياه: (فتذمر الشعب على موسى. وقال: ماذا نشرب؟) ١٥/ ٢٤[٢]، (فتذمرت جماعة بني إسرائيل كلها على موسى وهارون في البرية وقال لهما بنو إسرائيل:

(١) العهد القديم: (٩٦).
(٢) العهد القديم: (١٧٩).

ليتنا متنا بيد الرب في أرض مصر، حيث كنا نجلس عند قدر اللحم، ونأكل من الطعام شِبعنا، في حين أنكما أخرجتمانا إلى هذه البرية لتميتا هذا الجمهور كله بالجوع) ١٦/ ٢ ـ ٣[١]، (فصرخ موسى إلى الرب قائلاً: ماذا أصنع إلى هذا الشعب؟ قليلاً ويرجمني) ١٧/ ٤[٢].

وفي سفر العدد: (وتكلَّم الشعب على الله وعلى موسى، وقالوا: لماذا أصعدتنا من مصر لنموت في البرية؟ فإنه ليس لنا خبز ولا ماء. وقد سئمت نفوسنا هذا الطعام الزهيد) ٢١/ ٥[٣].

فلذلك نهى الله هذه الأمة المحمدية عن سلوك سبيل هؤلاء المعتدين، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ۝٦٩﴾[٤] [الأحزاب].

□ **هارون** عليه السلام: نسب سفر الخروج إلى هارون عليه السلام الضلوع في صناعة العجل الذهبي، والتهيئة لعبادته، استجابة لطلب مشركي قومه: (ورأى الشعب أن موسى قد تأخر في النزول من الجبل. فاجتمع الشعب على هارون، وقالوا له: قم فاصنع لنا آلهة تسير أمامنا. فإن موسى، ذلك الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر، لا نعلم ماذا أصابه. فقال لهم هارون: انزعوا حلقات الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم، وأتوني بها. فنزع كل الشعب حلقات الذهب التي في آذانهم، وأتوا بها هارون فأخذها وصبها في قالب، وصنعها عجلاً مسبوكاً. فقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر. فلما رأى هارون ذلك، بنى مذبحاً أمام العجل، ونادى قائلاً: غداً عيدٌ

(١) العهد القديم: (١٧٩ ـ ١٨٠).
(٢) العهد القديم: (١٨١).
(٣) العهد القديم: (٣٢١).
(٤) انظر في بيان معنى الأذى جامع البيان: (٢٢/ ٥٠ ـ ٥٣)، تفسير القرآن العظيم: (٦/ ٤٨٤ ـ ٤٨٧).

للرب. فبكروا في الغد، وأصعدوا مُحرقات، وقربوا ذبائح سَلامِية، وجلس الشعب يأكل ويشرب، ثم قام يلعب) ٣٢/ ٢ ـ ٦[١].

فالحمد لله الذي برأ نبيه في القرآن من بهتان الذين كفروا وظلموا، فقال: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾﴾ [طه]. وإنما صنعه سلفهم السامري. وقد أشربوا في قلوبهم حب العجل، والشرك بالله تعالى، فلم يزل يعاودهم الحنين إلى عبادة الأوثان، حتى عبدوها في أزمنة لاحقة، كما شهد عليهم سفر القضاة: (وعاد بنو إسرائيل فصنعوا الشر في عيني الرب، وعبدوا البعل والعشتاروت وآلهة آرام وآلهة صيدون وآلهة مؤاب وآلهة بني عمّون، وآلهة الفلسطينيين، وتركوا الرب، ولم يعبدوه) ١٠/ ٦[٢].

□ **داود** عليه السلام: يصمه سفر صموئيل الثاني بوصمة شنيعة، وعمل منحط لا يصدر إلا من أعتى المجرمين، وأدنى الخونة، حيث زعم أنه زنى بزوجة أحد جنوده المجاهدين المخلصين «أوريا»، وتعمد إرساله إلى أخطر جبهات القتال، وحمّله كتاباً فيه: (ضعوا أوريا حيث يكون القتال شديداً، وانصرفوا من ورائه، فيضرب ويموت)[٣] ١١/ ١٥ كل ذلك ليستأثر بها! حاشا نبي الله، وخليفته في الأرض، عن اتباع الهوى، وهو الذي وصفه الله بقوله: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص]، ووصف ملكه وحكمه بقوله: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ [ص] فهل تستقيم هذه الشهادة الصادقة العادلة مع ما تتنزل به الشياطين على كل أفاكٍ أثيم للنيل من نبي مبرأ كريم؟!.

فالحمد لله وسلامٌ على عباده الذين اصطفى.

---

(١) العهد القديم: (٢٠٨).

(٢) العهد القديم: (٤٨٩ ـ ٤٩٠).

(٣) العهد القديم: (٤٩٠).

□ **عيسى** عليه السلام وأمه رضي الله عنها: بعث عليه السلام رسولاً إلى بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف]، فما صدقوا رسالته، ولا قبلوا بشارته، بل وصموه بأبشع الألقاب، وقذفوا أمه العذراء البتول بأقذع السباب، وسعوا في أذيته وقتله. ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [النساء: ١٥٦ ـ ١٥٧]. ومما جاء في تلمودهم: (إن يسوع الناصري موجودٌ في لجّات الجحيم بين الزفت والنار. وأن أمه مريم أتت به من العسكري باندارا بمباشرة الزنى)[١]، وجاء وصفه فيه عليه السلام بأنه «ساحر» و«مجنون» و«كافر لا يعرف الله» و«تمثال» و«مرتد» و«تعاليمه كفر»[٢]، وأنه (ولد يوسف النجار سفاحاً)[٣].

وصدق الله إذ يقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

(٣) في باب الإيمان باليوم الآخر:

مع كون الإيمان باليوم الآخر من أسس الإسلام الذي بعث الله به الرسل كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة]، إلا إن ذكره في العهد القديم نادرٌ جداً، لا يتناسب مع أهميته العقدية في ترتيب الثواب والعقاب على الأعمال والشرائع التي تطفح بها كتبهم الدينية. وربما كان أوضح نصٍ يشير إلى البعث والجزاء والحساب الأخروي ما ورد

---

(١) الكنز المرصود في قواعد التلمود. المقدمة: (٢٧).
(٢) الكنز المرصود في قواعد التلمود: (١٠٥ ـ ١٠٦).
(٣) إفحام اليهود: (١٠٣).

في سفر دانيال، وهو من الأسفار التي وضعت في وقت متأخر(١): (وكثير من الراقدين في أرض التراب يستيقظون، بعضهم للحياة الأبدية، وبعضهم للعار والرذل الأبدي. ويضيء العقلاء كضياء الجَلَد، والذين جعلوا كثيراً من الناس أبراراً كالكواكب أبد الدهور) ١٢/٢ ـ ٤(٢).

وقد حدا هذا ببعض الحركات اليهودية الحديثة (الحركة الإصلاحية) إلى عقد مؤتمر في مدينة «فيلادلفيا» الأمريكية عام ١٨٦٩م، ثم في مدينة «بيتسبرج» تضمن كلاهما توصية صريحة بـ: (إنكار نظرية بعث الجسد. . . مع الاحتفاظ بمبدأ أزلية الروح، ينكر المؤتمر المبدأ القائل ببعث الأجساد، وبالعذاب بعد الموت)(٣).

وقد أغرب بعض الكتاب المعاصرين حين زعم أن هذا القدر الضئيل من الإشارة إلى البعث والحياة الآخرة اقتبسه اليهود من الفرس، وأنه لا أصل له في ديانتهم(٤).

والحق أن الإيمان باليوم الآخر من أعظم أركان الإيمان الذي جاءت به رسل الله قاطبة، ولهذا وعظ سحرة فرعون لما آمنوا، فرعون فقالوا: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ [طه] وهم حديثو عهدٍ بكفر،

(١) انظر «مدخل» للتعريف بسفر دانيال في العهد القديم: (١٨٥٢)، القرآن والتوراة والإنجيل والعلم: (٢٨).

(٢) العهد القديم: (١٨٨٥ ـ ١٨٨٦).

(٣) عن: الملل المعاصرة في الدين اليهودي. د. إسماعيل راجي الفاروقي. مكتبة هبة ـ القاهرة. الطبعة الثانية (١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م). (٥٥، ٥٦).

(٤) انظر مثلاً: اليهودية أحمد شلبي: (١٩٥)، اليهود تاريخ وعقيدة: (١٦٧)، قصة العقائد. سليمان مظهر: (٣١٨).

فدل ذلك على أن الإيمان بالبعث من أشهر ما جاء به موسى عليه السلام[(١)].

أما السبب الحقيقي لندرة ذكر البعث واليوم الآخر في كتبهم الدينية، فلعلمهم بما أعد الله لهم من العقوبة، فهم ينفرون من ذكره، ويطمسون مواضعه. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]، وقال: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [البقرة].

الشريعة اليهودية:

كما رغبت اليهودية عن ملة إبراهيم في الإيمان والاعتقاد، رغبت عنها كذلك في الأحكام والشرائع. فإن ملة إبراهيم عليه السلام مبنيةٌ على رفع الحرج: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾[(٢)] [الحج: ٧٨]، موسومة بموافقة الفطرة: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾[(٣)] [البقرة: ١٢٤]. أما الشريعة اليهودية فقد آلت إلى جملة من الأغلال والآصار المضروبة على رقاب اليهود، بعضها عقوبة من الله، بسبب معاصيهم وتفريطهم في جنب الله، وبعضها من وضع أحبارهم وحاخاميهم.

فأما الصنف الأول، فدل عليه قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ

---

(١) قال ابن كثير رحمه الله: (الظاهر من السياق أن هذا من تمام ما وعظ به السحرة لفرعون: (٥/ ٣٠٥).

(٢) قال ابن جرير رحمه الله: (نصب ملةَ، بمعنى: وما جعل عليكم في الدين من حرج، بل وسعه عليكم كملة أبيكم) جامع البيان: (١٧/ ٢٠٧).

(٣) ذهب جمع من المفسرين إلى أن المراد بهؤلاء الكلمات خصال الفطرة. والصحيح أن خصال الفطرة من هؤلاء الكلمات. انظر جامع البيان: (١/ ٥٢٤ ـ ٥٢٨).

هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النساء: ١٦٠ - ١٦١]، وقوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأنعام]. وقد كان حال بني إسرائيل قبل ذلك على البراءة الأصلية، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ [آل عمران: ٩٣].

وقد فتح الله لهم باب الفرج، لو أنهم ولجوه، مرتين؛ حين جاءهم عيسى عليه السلام بالتخفيف ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]، ثم حين جاءهم محمد ﷺ المنعوت لهم بجملة أوصاف منها: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وأما الصنف الثاني، فمما شددوا به على أنفسهم، في باب الذبائح والأطعمة وغيرها (مما ليس له أصل عن موسى ولا هو في التوراة، وإنما هو من أوضاع الحاخاميم وآرائهم)[١]. ونقتطف جملة من قوانينهم المعقدة التي يسمونها «هالاخاه شوخيطا» أي علم الذبائح: (لا بد من غسل الأطباق والحلل والسكاكين والملاعق مع الصلاة عليها. وهم لا يجيزون أكل اللحم والأسماك معاً، لاعتقادهم أن ذلك يؤدي إلى البرص. كما لا يجيزون الجمع بين اللحم والحليب ومشتقاته. ويحرم طبخ اللحم في السمن أو الزبد، بل يجب أن تطبخ في زيوت نباتية. كما يحرم وضع اللحم في إناءٍ كان قد وضع فيه لبن أو جبن من قبل أو أن تستعمل سكين واحدة في تقطيع اللحوم والجبن وما إليه. ولذلك يتعين على اليهودي الأكل بأوانٍ تخصص للحوم فقط

(١) إغاثة اللهفان: (٢/ ٤٤٩).

توضع في مكان، وأخرى للألبان ومشتقاتها وتوضع في مكان آخر... ولا يجوز أن يقوم بعملية الذبح إلا رجل دين يسمى «شوحيط» يتقن الذبح بالطريقة الشرعية. فإن لمس الحيوان أو الطير أثناء ذبحها أو قبل أن يصفي دمها غير رجل الدين المسؤول تصبح الذبيحة محرمة... ولا يجوز للذابح أن يذبح إلا بعد حصوله على ترخيص من حاخام... ويجب أن يكون نصل السكين ضعف زور الطائر أو الحيوان المراد ذبحه... ثم يمر بالسكين مرة واحدة وباتجاهٍ واحد على عنق الحيوان وإلا كان الأكل محرماً، وإن ضغط الذابح بالسكين على الزور، كما لو أنه يقطع شيئاً ما أو كمن يضرب بسيفٍ حرمت الذبيحة. وإذا غطى الريش أو الشعر السكين فالذبيحة محرمة)[١].

ومن صور هذا التشديد الذي ابتدعه حاخاماتهم ما حكاه السموأل بن يحيى: (أنهم أمروهم بأن ينفخوا الرئة حتى تمتلئ هواءً، ويتأملوها حتى يخرج الهواء من ثقب منها أم لا؟ فإن خرج منها الهواء حرّموه. وإن كانت بعض أطراف الرئة لاصقة ببعض لم يأكلوه.

وأيضاً فإنهم أمروا الذي قَدَّ الذبيحة أن يدخل يده في بطن الذبيحة، ويتأمل بأصبعه فإن وجد القلب ملتصقاً إلى الظهر أو أحد الجانبين، ولو كان الالتصاق بعرق دقيق كالشعرة، حرّموه ولم يأكلوه، وسموه «طريفاً» ويعنون بذلك أنه نجس)[٢].

ويرجع السموأل بن يحيى الأمر في تشديدهم الإصر على أنفسهم إلى سببين:

---

(١) الأعياد والمناسبات والطقوس لدى اليهود: غازي السعدي. دار الجيل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية. عمّان ـ الأردن. الطبعة الأولى ١٩٩٤م. (٦٥ ـ ٦٦).

(٢) إفحام اليهود: (١٦٦).

أحدهما: (أن الحاخاميم هم الذين شددوا على هذه الطائفة دينهم، وضيقوا عليها المعيشة، والإصر، فقصدوا بذلك مبالغتهم في مضادة مذاهب الأمم حتى لا يختلطوا بهم، فيؤدي اختلاطهم بهم إلى خروجهم من دينهم.

والسبب الثاني في تضييق الإصر عليهم، أن اليهود مبددون في شرق البلاد وغربها. فما من جماعةٍ منهم في بلدةٍ إلا إذا قدم عليهم رجل من أهل دينهم من بلادٍ بعيدة، يظهر لهم الخشونة في دينه، والمبالغة في التورع والاحتياط. فإن كان من المتفقهة، فهو يشرع في إنكار أشياء عليهم ويوهمهم التنزه عما هم فيه وينسبهم إلى قلة الدين، وينسب ما ينكره عليهم إلى مشائخه وأهل بلده، ويكون في أكثر ذلك الإسناد كاذباً... فأما إن كان القادم، أحد أحبار اليهود وعلمائهم فهنالك ترى العجب من الناموس الذي يعتمده، والسنن التي يحدثها ويلحقها بالفرائض، ولا يقدر أحدهم على الاعتراض عليه، فتراهم مستسلمين إليه، وهو يحتلب درَّهم ويجتلب ـ بحيله ـ درهمهم)[1].

فصدق الله العليم بحالهم ومآلهم: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤].

---

(١) إفحام اليهود: (١٧٥، ١٧٧).

النصرانية

بعث الله عبده ورسوله وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروحاً منه، عيسى عليه السلام، إلى بني إسرائيل الذي طال عليهم الأمد، فقست قلوبهم، آيةً للناس ورحمةً منه، مسبوقاً بالبشارات النبوية والملائكية؛ فقد تقدمه يحيى بن زكريا عليهما السلام ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٩]. وقالت الملائكة لأمه مريم بنت عمران: ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [آل عمران]. ورافق مولده من خوارق العادات، والخروج عن المألوفات؛ بكونه من أم بلا أب، وتكليمه الناس في المهد، ما يوجب أن يهز العقول البليدة، ويلين القلوب القاسية، ويلفت الأنظار والأفكار إلى ما جاء به: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم].

وحين شرع في دعوة بني إسرائيل، أيده الله بروح القدس، فأجرى على يديه الآيات العظام التي لا يعرض عنها إلا مفتون مطموس: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [آل عمران].

أما مضمون دعوته ورسالته، فكما قيل للرسل من قبله، عبادة الله وتوحيده:

﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢]، ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧]، ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾ [الزخرف]. وكانت رسالته عليه السلام موجهةً إلى بني إسرائيل خاصة: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم﴾ [الصف: ٦]، ومن أغراضها التخفيف عليهم: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]. وقد آتاه الله كتاباً من أعظم كتبه، وهو الإنجيل: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [المائدة]. وكانت رسالته عليه السلام حلقة وصل بين الرسالات السماوية السابقة واللاحقة: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾(١) [الصف: ٦].

ومع ما احتف بحمله ووضعه ومهده من آيات، وما أُيدت به رسالته بعد ذلك من معجزات، فإنه بشرٌ خالص البشرية، مخلوقٌ كما خلق آدم عليه السلام: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران]، وتلحقه صفات البشرية: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المائدة]، ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [النساء: ١٥٩]. وكما كانت ولادته آية، كانت وفاته الأولى آية:

---

(١) ولهذا قال نبينا ﷺ: (أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الأولى والآخرة. قالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: الأنبياء إخوة من علات، وأمهاتهم شتى، ودينهم واحد، فليس بيننا نبي) رواه مسلم: (٤/ ١٨٣٧).

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء]. ثم إن له جولة أخرى على الأرض قبل موته كما أقسم على ذلك نبينا محمد ﷺ، فيما رواه أبو هريرة: (والذي نفسي بيده! ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد)، ثم قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته)[1]. ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [مريم].

مواقف الناس من عيسى ابن مريم عليه السلام ورسالته:

انقسم الناس تجاه عبد الله ورسوله، وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروح منه، عيسى عليه السلام، ثلاثة أقسام:

● **قسم كفر به**، وهم عتاة اليهود، وعادوه وكذبوه، ورموه وأمه بالبهتان العظيم وسعوا في ذمه لدى الحكام الرومان، وراموا صلبه: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ﴾ [النساء].

● **وقسمٌ آمن به وصدَّقه** وناصره ودعا إلى دينه وشريعته، واحتمل الأذى الفظيع في سبيل ذلك، وهم الحواريون ومن تابعهم: ﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [آل عمران].

فكانت نتيجة دعوته: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ

---

(١) رواه مسلم: (١/ ١٣٥ ـ ١٣٦). ويقع له عليه السلام في نزوله هذا أحداثٌ عظام من قتل الدجال واجتماع المؤمنين إليه بعد فتح يأجوج ومأجوج، وحجه وعمرته مما صحت به السنة.

فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف] ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ(١) ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [آل عمران].

٣ ـ **وقسم غلا فيه**، ورفعه فوق منزلته التي أنزله الله إياها، وهي العبودية والرسالة، وبالغ في إطرائه، حتى خرج به من وصف البشرية إلى مرتبة الألوهية ـ والعياذ بالله ـ إما انبهاراً بما أجراه الله على يديه من الآيات المعجزات، وإما دسيسة من اليهود الكافرين الحاقدين ليفسدوا دين النصارى، كما وقع من شاول «بولس» وأشياعه من الغلو

---

(١) للمفسرين في المراد بـ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ﴾ قولان:
أحدهما: المؤمنون به حقاً من النصارى، ثم المسلمون من هذه الأمة. قال ابن جرير: (الذين اتبعوك على منهاجك وملتك من الإسلام وفطرته، فوق الذين جحدوا نبوتك، وخالفوا بسبيلهم جميع أهل الملل فكذبوا بما جئت به، وصدوا عن الإقرار به. فمصيرهم فوقهم ظاهرين عليهم). جامع البيان (٣/ ٢٩٢). وقال الشوكاني: (أي اتبعوا ما جئت به. وهم خلص أصحابه الذين لم يبلغوا في الغلو فيه إلى ما بلغ من جعله إلهاً. ومنهم المسلمون، فإنهم اتبعوا ما جاء به عيسى عليه السلام ووصفوه بما يستحقه من دون غلو... وقد ذهب إلى هذا كثير من أهل العلم) فتح القدير (١/ ٣٤٥).
الثاني: إنهم النصارى من حيث الجملة، فوق اليهود. قال ابن جرير: (وجاعل الذين اتبعوك من النصارى فوق اليهود) جامع البيان (٣/ ٣٩٣). وقال ابن كثير بعد ذكر تفرق النصارى، وظهور الملك قسطنطين: (وهم في هذا كله قاهرون لليهود، أيدهم الله عليهم لأنهم أقرب إلى الحق منهم، وإن كان الجميع كفار عليهم لعائن الله) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٤٨). وللشوكاني في هذا رسالة بعنوان: (وبل الغمامة في تفسير: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾).

كما سيأتي. قال ابن كثير رحمه الله: (إن المسيح عليه السلام لما رفعه الله إلى السماء تفرقت أصحابه شيعاً بعده؛ فمنهم من آمن بما بعثه الله به على أنه عبد الله ورسوله وابن أمته. ومنهم من غلا فيه فجعله ابن الله، وآخرون قالوا: هو الله، وآخرون قالوا: هو ثالث ثلاثة: وقد حكى الله مقالتهم في القرآن، ورد على كل فريق فاستمروا كذلك قريباً من ثلاثمائة سنة)(١).

حال النصارى بعد رفع المسيح:

لا ريب أن حواريي المسيح عليه السلام، ومن تبعهم بإحسان قد ساروا على سنن المرسلين، من توحيد رب العالمين، والعمل بشريعته المبلغة بالإنجيل: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ [المائدة: ٤٧]. ولكن المصادر الدينية التي تؤرخ لتلك الحقبة المهمة قد صيغت وللأسف وفق اعتقاد ضُلَّال النصارى، السائد اليوم. ومع ذلك فإنها تشير إلى وجود جماعة واحدة من كبار تلاميذ المسيح وأقربائه ملتزمة بالشريعة اليهودية، معظمةً للناموس الذي جاء به موسى عليه السلام، ولا تعزل نفسها عن أداء العبادات والصلوات في الهيكل كسائر بني إسرائيل، لكنها تؤمن بالمسيح عليه السلام، وتدعو إلى دينه في أوساط اليهود خاصةً دون سائر الأمم، وتلقت في سبيل هذا التميز صنوف الاضطهاد النفسي والبدني من رؤساء الكهنة اليهود.

ومن أقدم المصادر التي تصف حال الحواريين بعد رفع المسيح سفر «أعمال الرسل»(٢) وقد جاء فيه: (وكانوا يواظبون على تعليم

---

(١) تفسير القرآن العظيم: (٢/ ٤٧).

(٢) يُظن أن كاتب هذا السفر هو «لوقا» صاحب أحد الأناجيل الأربعة. انظر: مدخل إلى أعمال الرسل العهد الجديد: دار المشرق ـ بيروت. توزيع: المكتبة الشرقية. جمعيات الكتاب المقدس في المشرق ـ بيروت. الطبعة الثالثة. (٣٧٢).

الرسل، والمشاركة، وكسْر الخبز، والصلوات... وكان جميع الذين آمنوا جماعةً واحدة، يجعلون كل شيءٍ مشتركاً بينهم، يبيعون أملاكهم وأموالهم ويتقاسمون الثمن على قدر احتياج كل منهم. يلازمون الهيكل كل يومٍ بقلبٍ واحد... وكان الرب كل يوم يضم إلى الجماعة أولئك الذين ينالون الخلاص) ٢/ ٤٢ ـ ٤٧[١].

ويضم ذلك السفر ذكر حكايات وكرامات جرت لـ«الرسل»[٢]، تشابه آيات عيسى ﷺ من إحياء الموتى، وشفاء المرضى بإذن الله، كما يضم ذكر عظات لبني إسرائيل، على لسان بطرس، أكبر الحواريين، وقد نَدَّت في أحدها الجملة التالية:

(إن إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، إله آبائنا، قد مجَّد عبده «يسوع» الذي أسلمتموه أنتم وأنكرتموه أمام بيلاطس) ٣/ ١٣. مما أحوج المُحَشِّي أن يثبت التعليق التالي: (قد يكون هذا اللقب لقباً طقسياً... يتفرد به سفر أعمال الرسل... ولا شك أنه قديم)[٣] وتكرر هذا التعبير في هذا السفر، في موضعين آخرين: (على عبدك القدوس يسوع الذي مسحته) ٤/ ٢٧[٤]، (ليجري الشفاء والآيات والأعاجيب باسم عبدك القدوس يسوع) ٤/ ٣٠[٥]، مما يدل على صفاء العقيدة عند أوائل النصارى، وإن حاول مشركوهم طمسها.

ولعل أول خلافٍ نشأ بين أتباع المسيح ﷺ، ليس حول شخص

---

(١) العهد الجديد: (٣٨٠).

(٢) مصطلح «الرسل» عند النصارى يعني تلاميذ المسيح الاثني عشر، بعد الاستعاضة عن يهوذا الإسخريوطي، الخائن، بـ«مِتّيا» بطريق القرعة. انظر: أعمال الرسل: (١/ ٢١ ـ ٢٦). العهد الجديد: (٣٧٦).

(٣) العهد الجديد: (٣٨١).

(٤) العهد الجديد: (٣٨٥).

(٥) العهد الجديد: (٣٨٥).

المسيح وطبيعته، وإنما حول دعوة الأمم من غير اليهود، والآثار المترتبة على ذلك. فينسب سفر أعمال الرسل إلى بطرس رؤيا أو «جذب»، أوَّلها على مشروعية تعميد الوثنيين، وقبولهم مؤمنين بالمسيح ولو لم يكونوا يهوداً، فاستنكر أصحابه ذلك: (وسمع الرسل والإخوة في اليهودية أن الوثنيين هم أيضاً قبلوا كلمة الله. فلما صعد بطرس إلى أورشليم، أخذ المختونون[1] يخاصمونه. قالوا: لقد دخلت إلى أناس قلف وأكلت معهم) ١١/١ ـ ٣[2]. وتكرر الموقف مع بعض المؤمنين الفارين إلى الأمصار من اضطهاد اليهود، فكانوا (لا يكلمون أحداً بكلمة الله إلا اليهود... فلما قدموا أنطاكية أخذوا يكلمون اليونانيين أيضاً) ١١/١٩ ـ ٢٠[3]. وحين قدمها بولس وبرنابا، ووُجها بشغب اليهود قالا بجرأة: (إليكم أولاً كان يجب أن تُبَلَّغ كلمة الله. أما وأنتم ترفضونها، ولا ترون أنفسكم أهلاً للحياة الأبدية، فإننا نتوجه الآن إلى الوثنيين) ١٣/٤٦[4]. وترتب على هذا التوسع في الدعوة مشكلة تطبيقية في حق المهتدين من الوثنيين: (ونزل أناسٌ من اليهودية، وأخذوا يلقنون الإخوة فيقولون: إذا لم تختتنوا على سنة موسى، لا تستطيعون أن تنالوا الخلاص. فوقَع بينهم وبين بولس وبرنابا خلافٌ وجدال شديد. فعزموا على أن يصعد بولس وبرنابا، وأناس منهم آخرون إلى أورشليم حيث الرسل والشيوخ للنظر في هذا الخلاف) ١٥/١ ـ ٢[5].

وكان أن عقد أول مجمع نصراني لمناقشة وضع المؤمنين من غير

---

(١) المقصود بهم النصارى الذين يعتقدون لزوم العمل بشريعة موسى، ومنها الختان.

(٢) العهد الجديد: (٤٠٤).

(٣) العهد الجديد: (٤٠٥).

(٤) العهد الجديد: (٤١٢).

(٥) العهد الجديد: (٤١٤ ـ ٤١٥).

اليهود، تمخض عن القرار التالي: (قد حسن لدى الروح القدس، ولدينا ألا يلقى عليكم من الأعباء سوى ما لا بد منه. وهو اجتناب ذبائح الأصنام والدم والميتة والزنا. فإذا احترستم منها تحسنوا عملاً عافاكم الله) ١٥/٢٨ ـ ٢٩[١].

فإن صح النقل فهذه أول بادرة لهجر الشريعة وقعت من النصارى، وما زالت تتفاقم حتى تحللوا من جميع الشرائع، وكان ذلك من أعظم أسباب تفرقهم وعداوتهم وضلالهم، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ [المائدة: ١٤].

إن مؤرخي النصرانية يمنحون لمن يسمونهم «الرسل» ومن دونهم مزايا تشريعية لا تنبغي إلا لله سبحانه، بدعوى متهافتة، وهي إلهام الروح القدس[٢]، ومن ثم يسوغون لأسلافهم إحداث تعديلات في صلب الدين. يقول الأرثذوكسي الروسي أفغراف سميرنوف: (لم يكن اليهود المؤمنون بالمسيح يتميزون كثيراً في البداية عن الكنيسة اليهودية العامة. فكانوا يجتمعون للصلاة... في هيكل أورشليم، ويقدمون فيه تقادم، وبالإجمال يتممون كل ناموس الطقس الموسوي. وبما أنهم نشأوا على احترام الناموس الموسوي، فما استطاعوا بسرعة أن يكوِّنوا لذاتهم فكرةً بأن ناموس الطقوس كان ظلاً فقط للخيرات المقبلة، وصار بمجيء المسيح لا لزوم له. وكثيرون منهم كانوا يؤكدون بأنه من الواجب أن يحفظ في المسيحية أيضاً. وتحت تأثير الفكرة اليهودية

---

(١) العهد الجديد: (٤١٧).

(٢) أبطل الشيخ رحمة الله الهندي هذه الدعوة من سبعة عشر وجهاً. انظر: إظهار الحق: الهندي، رحمة الله بن خليل الرحمن الكيرانوي العثماني. تحقيق: محمد أحمد ملكاوي. الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية. الرياض. الطبعة الأولى ١٤١٠هـ. (٢/٣٥٣ ـ ٤٥٢).

القديمة بأن وعود الله بـ«مسيا» ومملكته تختص بالشعب اليهودي وحده، فكثيرون من المؤمنين من اليهود كانوا يؤكدون بأن اليهود وحدهم يجب أن يدخلوا في الكنيسة المسيحية. ولكي يصير قبول الوثنيين في الكنيسة، يجب عليهم أن يصيروا أولاً يهوداً، أعني يقبلوا الختان، ويتمموا كل ناموس الطقوس الموسوي... إن بدء التبشير بين الوثنيين ينسب إلى بدء السنة الأربعين بعد ميلاد المسيح)[١].

ولا شك أن هؤلاء اليهود المؤمنين بالمسيح عليه السلام هم أنصاره إلى الله وحواريوه، وإن كانت كتابات ضُلّال النصارى تبخسهم منزلتهم، وتغمطهم حقهم، وسبقهم، وتحاول إقصاءهم، مع علمهم التام بأنهم كبار تلامذة المسيح وحواريوه، مثل بطرس، وينبزونهم بألقاب التنقص مثل: «أساقفة الختان»، و«المسيحيين اليهود».

ولا شك أيضاً أن هؤلاء هم حفظة الإنجيل الحقيقي المتضمن للهدى والنور والموعظة، فإلامَ آل أمرهم، ومن ثم أمر دين المسيح؟.

يقول الأمير الحسن بن طلال في تعريفه بالمسيحية ـ حسب تعبيره ـ: (ومن بعد يسوع، عمد هؤلاء الأتباع: «العبريون» أي الإسرائيليون، وهم الذين عُرفوا باسم: «النصارى» باليونانية Nazarenoi إلى تنظيم أنفسهم في أورشليم كمذهبٍ خاص بقيادة يعقوب بن يوسف أحد إخوة يسوع الأربعة[٢]، ثم بقيادة آخرين من أقربائه باعتبارهم من

---

(١) تاريخ الكنيسة المسيحية (٢٦). ألفه باللغة الروسية أفغراف سميرنوف. تعريب: الكسندروس جحا. مطرانية الروم الأرثذوكس بحمص ـ سوريا. طبعة ١٩٦٤م. وقد منحه المجمع المقدم الروسي جائزة، وحبذه ليكون كتاباً مدرسياً لطلبة الصفوف العالية ـ من المقدمة.

(٢) يزعم النصارى أن عيسى عليه السلام هو ابن يوسف النجار، وإخوته هم: يعقوب ويوسي ويهوذا وسيعان. ويسمونهم «إخوة الرب» ـ تعالى الله عما يقولون علواً عظيماً ـ انظر: إنجيل مرقس (٦/٣)، متى (١٢/٣٦) قورنتس الأولى (٩/٥).

نسل داود. فتوجس الرومان خيفةً من أن هؤلاء يطالبون بملك محلي، ولذلك قاموا باضطهادهم بين حين وآخر... وقدامى مؤرخي الكنيسة أسموا يعقوب بن يوسف وخلفاءه «أساقفة الختان»... لا لأنهم كانوا أنفسهم أيضاً مختونين، كونهم إسرائيليين، بل لأن الكنيسة التي قادوها كانت تعتبر نفسها جماعةً دينية إسرائيلية أصولية تعتز بتشددها في اتباع شريعة موسى، وفي جعل الختان ملزماً لجميع الذكور من سائر الأمم الذين يختارون اتباع مذهبهم. ولم يختلف مذهب هؤلاء «النصارى» عن اليهودية إلا قليلاً. وأهم اختلاف هو أن «النصارى» اعترفوا بيسوع الناصري مسيح الوعد، في حين أن اليهود لم يقروا بذلك. ولهذا أنكر اليهود على «النصارى» مذهبهم، وصنفوهم على أنهم «مينيم»؛ وهي لفظة عبرية تعني «منشقين» أو «هراطقة». أما بالنسبة إلى شريعة موسى فقد كان تمسك «النصارى» بتفاصيلها، بل على نحو أدق، بحذافيرها، كتمسك أكثر اليهود تشدداً. وهم، على التقائهم كأبناء «كنيسة» ـ باليونانية Ekklesia، أي «جماعة» لها مذهبها الخاص، استمروا يقيمون عباداتهم في كنيس اليهود حتى نحو ٨٠م، عندما منع اليهود جماعات «المينيم» من استعمال كنيسهم. وعندما أخرج الإمبراطور «هدريان» اليهود من أورشليم عام ١٣٥م، كان النصارى من جملة من أخرج من المدينة، على أساس أنهم ليسوا إلا فرقةً من فرق اليهود.

ومع جلاء «النصارى» عن أورشليم في ذلك العام انتهت سلالة «أساقفة الختان» فيها... وبانقضاء هذا المذهب ازدادت الفرص لانتشار المسيحية بدلاً من أن تتضاءل)[١].

(١) المسيحية في العالم العربي: الحسن بن طلال. المعهد الملكي للدراسات الدينية. مكتبة عمّان ـ عمّان. الطبعة الأولى ١٩٩٥م. (٢٤).

بولس وإفساد النصرانية:

لقد استحالت النصرانية التي جاء بها عيسى عليه السلام من دين توحيدي إلى نصرانية خداج مشوهة، رسم معالمها خصم عنيد للحواريين، كان يضطهد المؤمنين، من عتاة اليهود، اسمه شاول، فما لبث أن ادعى الإيمان بالمسيح، وتغلغل في خاصة أصحابه، وأحدث في دينه ما أفسده، وخرج به عن ملة إبراهيم، الإسلام، إلى أوضاعٍ شركية، ومقولاتٍ كفرية، وتحلل من الشريعة، وشق كلمة القوم، وطرح بينهم بذور الشقاق والافتراق، حتى ساد مذهبه وغلب على أتباع المسيح.

لقد كان ذلك الدعيّ هو بولس. جاء في سفر أعمال الرسل: (أما شاول فما زال صدره ينفث تهديداً وتقتيلاً لتلاميذ الرب. فقصد إلى عظيم الكهنة وطلب منه رسائل إلى مجامع دمشق. حتى إذا وجد أناساً على هذه الطريقة رجالاً ونساءً ساقهم موثقين إلى أورشليم. وبينما هو سائر، وقد اقترب من دمشق، إذا نورٌ من السماء قد سطع حوله فسقط إلى الأرض، وسمع صوتاً يقول له: شاول، شاول، لماذا تضطهدني؟ فقال: من أنت يا رب؟. قال: أنا يسوع الذي أنت تضطهده. ولكن قم فادخل المدينة، فيقال لك ما يجب عليك أن تفعل) ٩/١ ـ ٦، وتمضي الأسطورة لتصنع منه قديساً ممتلأً منَ الروح القدس ـ على حد تعبيرهم ـ[1] ويبدي نشاطاً ملحوظاً، وحماساً وقَّاداً في نشر معتقده بين أبناء الأمم، وتنسب إليه خوارق وتضحيات، ويطوف مدائن فلسطين من أورشليم إلى قيصرية فطرطوس فأنطاكية فقبرص. ثم يمتد إلى مدن آسيا الصغرى واليونان ومالطة حتى بلغ روما في رحلاتٍ متتابعة، ونشاط دائب فرض له مكانةً ومنزلةً في الجماعة الناشئة.

لقد كان واضحاً منذ البداية أن بولس ينتهج خطاً مخالفاً لخط

---

(١) العهد الجديد: (٣٩٦ ـ ٣٩٧).

الحواريين ويتكلم بلغةٍ مشوبةٍ بمعتقداتٍ وأفكار غريبة عن الهدي النبوي للمسيح ﷺ، كما يقر بذلك المعجبون به من نصارى اليوم. يقول جون لوريمر، أستاذ تاريخ الكنيسة بكلية اللاهوت الإنجيلية بالقاهرة «بروتستانتي»: (يؤخذ من بعض الإشارات أنه كان يمزج في تعاليمه المسيحية بعضاً من الحكمة الوثنية، وربما نوعاً من الغنوسية[1]، أو بعض الفلسفات اليونانية)[2].

وسواءٌ كان «شاول» يهودياً حاقداً تظاهر بالنصرانية ليفسدها، أم كان «بولس» متنصراً متحمساً ذا مواهب شخصية فذة، لم يستطع أن يتخلص من آثار سابقة ولم يفقه دعوة المسيح وغاياتها، أياً كان الأمر، فقد أحدث شرخاً عظيماً في مسيرة النصرانية، ونقلها نقلةً واسعة من ديانةٍ توحيدية إصلاحية موجهة إلى بني إسرائيل خاصة، إلى ديانةٍ أمشاج صبت فيها ثقافات شتى، في محاولته الرامية لاستيعاب الأمم الأخرى، عبر صياغات عقدية دخيلة، بلغة تفهمها الأمم الوثنية.

وكان بذكائه وأناته يداري تلاميذ المسيح ﷺ، ويحرص على

---

(١) الغنوصية Gnosticism والغنوسية أيضاً، أو الغنوسطية، فلسفة صوفية. واسم علم على المذاهب الباطنية. غايتها معرفة الله بالحدس لا بالعقل، وبالوجد لا بالاستدلال. فهي المعرفة بالله التي يتناقلها المريدون سراً... وتقول بإلهين: أحدهما كبير، خير، مفارق لا يدركه العقل، ولا يحيط به العلم... وروح الشر أو إلهه الملقب أركون، ومنه خرج العلم السفلي... ولقد ظهر الغنوص أول ما ظهر في الأديان الفارسية... وعرفت اليهودية الغنوصية، وتجلت فيما عرف عند اليهود باسم «القبالة». وكانت القبالة أكبر غنوص عرفه تاريخ الأديان... والمسيحية كما طرحها بولس الرسول ديناً غنوصياً. واقتصر الغنوص فيها على المسيح وحده. الموسوعة الفلسفية (٢٩٦ - ٢٩٧).

(٢) تاريخ الكنيسة: جون لوريمر. ترجمة فهيم عزيز. دار الثقافة. القاهرة. طبعة ١٩٨٢م. (١/ ٦٥).

إظهار المرجعية لكنيسة أورشليم، حيث كبار التلاميذ «الرسل» والشيوخ، لينال الشرعية المطلوبة لمشاريعه الأممية الطموحة، حتى استطاع بقوة بيانه أن ينتزع قراراً من مجمع أورشليم بإعفاء الوثنيين المهتدين من بعض أحكام الشريعة كما تقدم، في حين أنه كان يطوي البساط من تحت النصارى الحقيقيين. وقد بلغ من مداراته لهم أن ختن تلميذه «طيموتاوس» ذا الأب اليوناني والأم اليهودية(١).

ومع ذلك تحوّل النصارى الخلّص السائرين على درب المسيح أمام التيار البولسي المتنامي إلى مجرد فرقة صغيرة صنفت فيما بعد ضمن الهراطقة، بعد أن وقفت موقفاً حازماً واضحاً من تجاوزات بولس وتلاميذه.

ويتابع أفغراف سميرنوف وصف مآل هذه الفرقة الأم، فيقول: (في بادئ الأمر لم يكن لهذه العقيدة صفة هرطقة، لأن جميع المسيحيين من اليهود الموجودين في فلسطين كانوا يتممون حسب العادة المرعية ناموس موسى ويختتنون. ولكن في بدء العصر الثاني استقل حزب الغيورين على ناموس موسى كهراطقة. وفي الثلاثين سنة من ذاك العصر بعد خراب أورشليم عندما لم يعد من الممكن المحافظة على ناموس موسى بحذافيره، فقسم المسيحيين من اليهود أعرض عن إتمامه بالكلية، وانضم إلى المسيحيين الذين من الوثنيين وألفوا كنيسة في المدينة التي بنيت مكان أورشليم ـ إيليا كبيتولينا ـ ووافقوا على انتخاب أسقفٍ ليس من ذوي الختان.

أما حزب المسيحيين من اليهود المدافع عن إتمام الناموس الموسوي، فقد انفصل بحزمٍ عن الكنيسة، وألف جمعية منفصلة هرطوقية تماماً. وانشق هذا الحزب إلى قسمين: الغيورون المتعصبون

---

(١) انظر: أعمال الرسل: (١٦/٣) العهد الجديد: (٤١٨).

للناموس، والمعتدلون[١]. فالقسم الأول معروف باسم: يفيونيين[٢]، والثاني باسم: ناصريين[٣]. فالناصريون لم يتراجعوا عن جوهر التعليم الكنسي العام، معترفين بيسوع المسيح مسيا[٤] وإلهاً، وموافقين على ولادته الخارقة الطبيعة، وغير ذلك ولكن مع هذا يعدون من الواجب على المسيحيين من اليهود المحافظة على ناموس موسى، ولم يعطوا للناموس مثل هذه الأهمية لأجل المسيحيين من الوثنيين. ويعترفون بالرسول «بولس» من أجل المسيحيين من الوثنيين. وقد نظرت الكنيسة بتساهل إلى هذا الحزب من المتهودين غير حاسبة إياهم «هراطقة» بالمعنى الخاص. وشيعة الناصريين بقيت موجودة بعدد قليل حتى العصر الرابع.

وعكس ذلك شيعة الأفيونيين الذين اتخذوا هذا الاسم من الكلمة العبرانية أفيون ومعناه «فقير». هؤلاء أوجبوا إتمام ناموس موسى على جميع المسيحيين، معتبرين لهذا السبب الرسول بولس، الذي ناهض الناموس، مرتداً عن الإيمان. والديانة اليهودية بموجب مفهومهم، لها

---

(١) هكذا في الأصل، ومقتضى اللغة: (الغيورين المتعصبين للناموس، والمعتدلين).

(٢) ويقال: الإبيونيين. وهو الأشهر في الكتابات الحديثة.

(٣) ناصري: لقب كان يطلق على المسيح نفسه، نسبة إلى الناصرة. وكان يوصف به أتباعه كما في القرآن. ونصارى اليوم يتنصلون منه، ويقصرون استعماله على المتهودين منهم. وقد تضمن سفر أعمال الرسل ٢٤/٥ إطلاقه عليهم، حيث وصف بولس أثناء محاكمته لدى الحاكم الروماني فيلكس بأنه (أحد أئمة شيعة النصارى) وعلق المحشي بقوله: (هذه هي المرة الوحيدة التي يسمى فيها المسيحيون «نصارى» على مثال يسوع. العهد الجديد: (٤٤٢).

(٤) (مسيا، أو مشيح (Messiah, Messie) هو المسيح الذي أنبأ العهد القديم بمجيئه لتحرير البشر من عبودية الخطيئة، وإقامة ملكوت الله في الأرض) العهد القديم. مصطلحات لغوية (٢٨).

أهمية عظيمة كالسابق في أمر خلاص البشر حتى بعد مجيء المسيح المخلص. وهكذا صارت الديانة المسيحية محدودة مع أن غاياتها أن تشمل جميع العالم. والأفيونيون لم يعتبروها ديانة جديدة، بل امتداداً للديانة اليهودية ذاتها. ومن هنا كان تعليمهم عن المسيح المخلص هو غير الذي تمسكت وتتمسك به الكنيسة المسيحية الحقيقية. لقد اعتبروه «مسيا» لكن ليس الله الفادي، بل نبياً عظيماً فقط يشبه موسى جاء ليكرز بمجيء مملكته التي يمكن أن يدخلها اليهود فقط. وكل مهمته انحصرت حسب مفهومهم بتفسير الناموس وإكماله بإعطاء وصايا جديدة. وقد أنكروا على يسوع المسيح استحقاق الألوهية معتبرين إياه إنساناً عادياً، ابن يوسف ومريم، ونال قوة إلهية واستحقاق مسيا في المعمودية فقط. وعلى هذا لم تكن عند الأفيونيين العقيدة المسيحية عن فداء البشرية، بواسطة الرب يسوع المسيح من الخطيئة واللعنة والموت، وموت المسيح المخلص ليس له عندهم أهمية فدائية...)[1].

ويتضح من هذا السياق أن الإفيونيين من جملة النصارى الذين أثنى عليهم القرآن الكريم، في حين ذمَّ غيرهم، وأن عقائدهم كما دوَّنها أفغراف سميرنوف، وهو مخالف لهم، هي عين ما يعتقده المسلمون من أمة محمد ﷺ في المسيح، مع التحفظ على نسبة المسيح إلى يوسف النجار، وقد يكون مخالفوهم أرادوا أن يظهروا إلى أي مدىً يرفض الأفيونيين فكرة تأليه المسيح فألصقوا بهم إنكار الولادة الخارقة من أمٍ بلا أب، وهم من ذلك براء.

لقد كان هؤلاء هم المدافعين عن الدين الصحيح أمام التيار البولسي لتبديل دين المسيح. وقد صمدوا ما شاء الله، ولكن الله غالب على أمره. يقول: جون لوريمر: (لا نعرف من العهد الجديد طول

(١) تاريخ الكنيسة المسيحية: (٨٥ ـ ٨٧).

المدة التي استمرت فيها قضية التهوديين مشتعلة داخل الكنيسة ولكن ما نعرفه هو أن الرسول بولس هو الذي حارب واستطاع أن يعيد التوازن إلى الكنيسة كمؤسسة لا يحتاج من يدخل فيها وينضم إليها سوى الإيمان بالمسيح يسوع. ومما ساعد على أفول هذه الحركة التهودية أفول نجم الكنيسة في أورشليم، وارتفاع نجم كنائس الأمم، وازديادها في العدد والأهمية والتأثير)(١).

وهكذا طويت صفحة هذه الفئة المؤمنة من أنصار المسيح الذين كانوا على ملة إبراهيم، وساد أنصار بولس. فحين جاء الإسلام كان ثمة بقايا من هؤلاء الموحدين من أهل الكتاب منتشرين في بعض الدّيارات والصوامع، قد فارقوا المشركين الذين صارت لهم الدولة والغلبة. فما أعظم فرحتهم ببعثة محمد ﷺ، وما أشد بهجتهم بالقرآن، وقد وصف الله ذلك الفرج عليهم بقوله: ﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [القصص]، وفي وصف آخر: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [المائدة].

الكتب المقدسة عند النصارى:

إذا كانت الجماعة المؤمنة التي حملت دين المسيح بحق قد توارت عن الأنظار، حتى التحق آخرها بدين الإسلام، فما مآل كتابها الذي آتاه الله نبيها، الإنجيل، ﴿هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ

---

(١) تاريخ الكنيسة (٦٩).

وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة]؟ ذلك أن الأمم تتعرض لأحوالٍ متفاوتة من الظهور والأفول، فإذا كان بين ظهرانيها كتابٌ محفوظٌ تعتصم به، أمكن أن تهتديَ به وتعود إلى رشدها، ويستقيم أمرها. فهل «الإنجيل»، الذي أنزله الله لا يزال موجوداً؟ وهل سلم من التحريف والزيادة والنقصان؟.

إن النصارى اليوم يعترفون بـ«الكتاب المقدس» وهو يضم جزئين:

١ ـ **العهد القديم**: وقد سبق التعريف به، ونقده عند الحديث عن اليهودية[(١)].

٢ ـ **العهد الجديد**: ويتكون من الأناجيل المنسوبة لأربعة من رواة سيرة المسيح عليه السلام، وهم: متّى، ومرقس، ولوقا، ويوحنا. تمثل أكثر من ثلث الكتاب. يعقبها سفر «أعمال الرسل» يُظن أن كاتبه «لوقا». ثم أربع عشرة رسالة موجهة إلى أهالي بعض المدن، وبعض الأفراد، وضعها «بولس»، تمثل قرابة ربع الكتاب. ثم مجموعةً من الرسائل العامة لبعض قديسيهم؛ واحدة ليعقوب واثنتان لبطرس، وثلاث ليوحنا، وواحدة ليهوذا، وتختتم برؤيا يوحنا. فيكون مجموعها سبعة وعشرين سفراً.

جاء في تصدير الرهبانية اليسوعية للطبعة الثالثة للعهد الجديد عام ١٩٨٩م ما نصه: (كانت السلطة العليا في أمور الدين تتمثل عند مسيحيي الجيل الأول في مرجعين: أولهما العهد القديم، وكان الكتبة

---

(١) ثَمَّ جدال قديم بين اليهود، وبين النصارى في تحديد قائمة الأسفار المعتمدة «القانونية» انعقدت لبحثها مجامع مسكونية. ولا يزال الخلاف قائماً بين مختلف الطوائف حول أسفار بعينها. انظر: مدخل إلى العهد القديم. العهد القديم: (٤٧ ـ ٥٢).

المسيحيون الأولون يستشهدون بجميع أجزائه على وجه التقريب استشهادهم بوحي الله. وأما المرجع الآخر الذي نما نمواً سريعاً فقد أجمعوا على تسميته «الرب»، وكان يطلق هذا الاسم على كل من التعليم الذي ألقاه يسوع... ولكن العهد القديم كان يتألف وحده من نصوصٍ مكتوبة. وأما أقوال الرب، وما كان يبشر به الرسل، فقد تناقلتها ألسنة الحفاظ مدةً طويلة، ولم يشعر المسيحيون الأولون إلا بعد وفاة آخر الرسل بضرورة كل من تدوين أهم ما علَّمه الرسل، وتولي حفظ ما كتبوه... ويبدو أن المسيحيين، حتى ما يقرب من السنة ١٥٠، تدرجوا من حيث لم يشعروا بالأمر إلا قليلاً جداً إلى الشروع في إنشاء مجموعة جديدة من الأسفار المقدسة. وأغلب الظن أنهم جمعوا في بدء أمرهم رسائل بولس واستعملوها في حياتهم الكنسية... ولا يظهر شأن الأناجيل طوال هذه المدة ظهوراً واضحاً، كما يظهر شأن رسائل بولس... ومهما يكن من أمر فليس هناك قبل السنة ١٤٠ أي شهادة تثبت أن الناس عرفوا مجموعةً من النصوص الإنجيلية المكتوبة...

وكان بعد السنة ١٥٠ بقليل أن مست الحاجة في الكنيسة إلى قاعدةٍ شاملة. فاتجهت الأنظار إلى مجموعة الأناجيل الأربعة، لأنها نالت، حتى ذلك الوقت انتباه الناس، لما تحلَّت به من الصفات، ولصحة الشهادة التي تؤديها «للرب»»[1].

ويتضح مما سبق بعض الحقائق المتصلة بالكتب المقدسة لدى النصارى:

١ ـ أن المرجع الديني المكتوب، هو «العهد القديم» الذي يجمعهم مع اليهود. وقد تقدم ذكر ما اعترى هذا المرجع من انقطاع

(١) العهد الجديد: (٨ ـ ٩).

سند وضياع، وإعادة صياغة، وما لحقه من تحريف وزيادات كتبتها الأيدي الآثمة ونسبتها إلى الله. فيلزم النصارى ما لزم اليهود.

٢ ـ أن عيسى عليه السلام لم يقم بإملاء نصٍ مكتوب هو «الإنجيل»، بل تم حفظ تعاليمه وأقواله عن طريق الحفظ في الصدور. وظل الأمر على هذه الصفة حتى منتصف القرن الثاني للميلاد، بعد انقراض جيل «الرسل».

٣ ـ أن رسائل «بولس» هي التي حظيت بالاهتمام والدرس والتداول بين أتباع الكنائس خارج أورشليم، وكانت شهرتها وأثرها تفوق الإنجيل.

٤ ـ أن مسوغ اختيار الأناجيل الأربعة، من بين سائر الأناجيل هو أنها نالت انتباه الناس وصحة الشهادة التي تؤديها.

هذه نظرة ضلال النصارى إلى ظروف تكوين «العهد الجديد». وحقيقة الأمر أن الله تعالى علَّم عبده ونبيه عيسى الإنجيل كما علمه التوراة: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾ [آل عمران]. وهو عليه السلام قد بلَّغ رسالات ربه، وعلَّم حوارييه ما علمه ربه من الإنجيل مميزاً إياه عن سائر مواعظه ووصاياه. وقد وجد بالفعل نسخٌ متعددة من الأناجيل بعضها منسوبٌ إلى كبار حوارييه، كإنجيل بطرس، أو كبار الرسل، كإنجيل برنابا، أو إلى طوائف معينة، كإنجيل الناصريين، وإنجيل الأبيونيين، وإنجيل العبرانيين، وإنجيل المصريين وغيرها. ولكن أتباع بولس الذي نشَّئوا المتنصرين من أبناء الأمم، غير اليهود، على رسائل بولس أقصوا ما لا يتفق وتعاليمهم الشركية، ووصفوا تلك الأناجيل بأنها «منحولة»، واستبقوا ما يوافق أهواءهم، فكانت هذه الأربعة.

يقول أفغراف سميرنوف: (.. في العصر الرابع اعترفت الكنيسة

بهذه الكتب أنها قانونية. وفيما الكنيسة تقبل في قانون الكتب المقدسة الكتب الرسولية، فقد فرزت من عدد الكتب التي ليست رسولية، ورفضت بكل حزم الكتب المزيفة والمدسوسة. مثلاً: «إنجيل اليهود» و«إنجيل المصريين» و«إنجيل نيقوديم» و«إنجيل توما» و«أعمال بولس» و«رؤيا بطرس» وغيرها)[١].

إنه لمما يدعو للدهشة والاستغراب أن تُضَم رسائل بولس الأربع عشرة إلى قانون العهد الجديد، ولم يكن بولس أحد الحواريين الاثني عشر «الرسل»، ولم يلقَ المسيح، وتستبعد كتابات تلاميذ المسيح! سيما وأن رسائل بولس تنحى منحىً مجافياً لتعاليم المسيح وهديه. ويقول: جون لوريمر: (من الأهمية بمكان أن نذكر أن الوثائق الأولى كانت رسائل الرسول بولس. وقد ركزت أساساً على أمور لاهوتية، وتعاليم خاصة بالسلوك الشخصي والأمور الدينية، ولم يكن بها شيءٌ يذكر عن حياة المسيح أو أية اقتباسات من تعليمه أو صلواته أو أمثاله)[٢].

أما الأناجيل الأربعة المنتخبة وفق شرط الإيمان البولسي فهي عبارة عن قصص تاريخية تروي سيرة النبي يحيى عليه السلام - يوحنا المعمدان عندهم - ثم سيرة عيسى عليه السلام، وما أحاط بحمله وولادته ونشأته من آيات، ثم دعوته وخطبه ومواعظه، وما يصاحب ذلك من آيات أجراها الله على يديه، ثم كيد اليهود له وسعيهم في قتله لدى الحكام الرومان، ثم محاكمته والحكم بصلبه، ودعوى صلبه فعلاً، ودفنه ثلاثة أيام، ثم قيامته من قبره، ومكوثه أربعين يوماً، ثم رفعه إلى السماء، ووعده حوارييه بالعودة إلى الأرض ثانية.

إن كنيسة أتباع بولس منذ عام ١٧٠م[٣] وحتى المجمع الفاتيكاني

---

(١) تاريخ الكنيسة المسيحية: (٧٧).

(٢) تاريخ الكنيسة: (٨٣).

(٣) يرجح النصارى أن هذا التاريخ هو تاريخ اعتماد الأناجيل الأربعة قانونياً. =

الثاني المنعقد في روما لعموم أساقفة الكاثوليك في الفترة (١٩٦٢ ـ ١٩٦٥)[١] وإلى ساعتنا هذه تؤكد بجمودٍ وإصرار على مصداقية هذه الأناجيل الأربعة، وتخلع عليها ألقاب القداسة والثقة، وتدعو إلى التشبث بها، فقد جاء في وثيقة المجمع «دستور عقائدي» في الفصل الخامس «العهد الجديد» ما نصه: (لا يغرب على أحدٍ أن الأناجيل تفضل حقاً سائر الكتب المقدسة، كانت ما كانت، ولو من العهد الجديد، لأنها شاهد ما بعده شاهد على مخلصنا، لكلمة الله المتجسد: على سيرته وتعاليمه.

لقد اعتبرت الكنيسة في كل مكان وفي كل زمان، أن الأناجيل الأربعة هي من وضع الرسل: إن ما كرز[٢] به هؤلاء، بأمر من المسيح قد نقلوه فيما بعد، هم أنفسهم أو بعض من أحاط بهم من المعاونين، مدونين إياه بوحي من الروح القدس، في أسفار أصبحت سند الإيمان نعني بها الأناجيل الأربعة التي تنوعت شكلاً، على حسب ما وردت على يد متى، ومرقص، ولوقا، ويوحنا.

إن الكنيسة المقدسة، أمُّنا، قد أصرت دوماً وتصر الآن على التأكيد أن الأناجيل المتعارف عليها، هي من الكتب التاريخية، من غير أن يساورها أي شك، وأن هذه الأناجيل قد نقلت بصدقٍ وأمانة، ما قام به يسوع ابن الله من أعمال، وما نشر من تعليم طيلة حياته بين الناس، لا ينوي منها إلا خلاصهم الأبدي، إلى اليوم الذي رفع فيه... إن الرسل بعد أن صعد الرب عنهم نقلوا إلى مستمعيهم كل ما

= انظر: تاريخ الكنيسة المسيحية (٧٧)، مدخل إلى العهد الجديد (١٠٨)، القرآن والتوراة والإنجيل والعلم (٧٧ ـ ٧٨).

(١) سيتم التعريف بهذا المجمع على سبيل التفصيل في الباب الأول.

(٢) كَرزَ كرزاً: وعظ ونادى ببشارة الإنجيل. «سريانية». المنجد في اللغة (٦٨٠).

ساقه من أقوال، وكل ما أجراه من أفعال، بعد أن فقهوا كامل معانيها، على ضوء ما جرى له من أحداث مجيدة، وعلى ضوء ما استناروا به من إشراقة روح الحق، فكان أن دوَّن الكتاب الإلهيون الأناجيل الأربعة مستخدمين أساليب متنوعة: فتارة انتخلوا بعضاً مما وصل إليهم روايةً، أو مما صادف أن انتهى إليهم كتابةً. وطوراً دمجوا أحداثاً وأقوالاً عديدة في خلاصاتٍ موجزة، وحيناً شرحوا أموراً مرتبطة بالمسيح على ضوء ما كانت عليه كنائسهم آنذاك. وحيناً اعتمدوا النمط الإرشادي في التبشير برسالة المسيح. لقد حرصوا في كل هذه الأساليب، أن ينقلوا لنا دوماً، عن يسوع، حقائق ثابتة، وخالصة الصدق. لقد سطروا مؤلفاتهم هذه، فمكنونا من اختبار «قوة» التعليم الذي تسلمناه... سواء اعتمدوا على ذاكرتهم وما سجلوه بأنفسهم، أو ركنوا إلى أقوال أولئك الذين كانوا منذ البدء شهود عيان، وخداماً للكلمة)[1].

إن هذا النص العقدي الذي نقلناه بكامله عن أحدث مجمعٍ من مجامع النصارى ليكشف عن حقائق مهمة، تتعلق بالأناجيل المعتمدة عند النصارى:

١ ـ أنهم يعترفون أن أياً من هذه الأناجيل ليس كلام الله، لا حقيقة ولا مجازاً، وليس من إملاء المسيح ﷺ ابتداءً، بل يسلّمون ـ ولا يستطيعون غير ذلك ـ بأن تلك الأناجيل عمل بشري من وضع الرسل أو معاونيهم، شأنهم شأن أي مصنف كتاب، فهم مجرد رواة ومؤرخين: نقلوا، ودوّنوا، وانتخلوا، ودمجوا، وشرحوا، وسطروا، وسجلوا، وركنوا... إلخ من الأفعال البشرية المسندة إلى بشرٍ عاديين.

---

(١) المجمع الفاتيكاني الثاني دساتير ـ قرارات ـ بيانات: ترجمة الأب حنا فاخوري ـ معهد القديس بولس للفلسفة واللاهوت حريصا. المكتبة البولسية. بيروت ـ لبنان. الطبعة الأولى ١٩٩٢م. (١٣٤ ـ ١٣٦).

وغاية ما يبهرجون به هذه «المذكرات» أن يزعموا أنها تمت بوحيٍ من روح القدس. وتلك دعوى عريضة يلوح بها النصارى كثيراً لتمرير بدعهم وإفكهم. فإذا كان «الروح القدس» ينزل على الحواريين الاثني عشر «الرسل عندهم» ـ أعمال الرسل ٢/١ ـ ٤[1] وعلى قورنيليوس الوثني، قائد المئة، وأهل بيته أثناء عظة بطرس ـ أعمال الرسل ١٠/ ٤٤ ـ ٤٦[2] وغير ذلك من مزاعم، فأي مزية لأنبياء الله على سائر البشر؟ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠، فصلت: ٦].

إن الإنجيل الذي أنزله الله على عيسى عليه السلام لا يمكن عقلاً أن يكون قصة حياته، وذهابه وإيابه، وقصة صلبه ودفنه ـ كما يزعمون ـ، وغاية ما تبلغ أن تكون بمنزلة «السيرة النبوية» أو «السنة النبوية» التي يشترط لقبولها صحة الإسناد، وفق معايير منضبطة. وبناءً عليه فليست هذه الأناجيل هي «الإنجيل» المنزل من عند الله، بل اكتسبت هذا الاسم الشريف ظلماً وافتياتاً على الحقيقة، وعرفاً فاسداً كما قال أ. تريكو A. Tricot في تعليقه على ترجمة للعهد الجديد: (منذ وقتٍ مبكرٍ جداً، منذ بداية القرن الثاني، استقر العرف على استخدام الكلمة «إنجيل» للإشارة إلى الكتب التي كان القديس جوستين، في نحو ١٥٠ يسميها أيضاً «مذكرات الرسل Memoires des Aportres»)[3].

وحقيقة الأمر أن النصرانية البولسية طمست كتاب الله «الإنجيل»، واستعاضت عنه بهذه المرويات التاريخية لسيرة المسيح بعد أن لوثتها بتعاليم بولس الكفرية، وخلعت عليها لقب «الإنجيل». وهكذا يتضح

---

(١) العهد الجديد: (٣٧٦).

(٢) العهد الجديد: (٤٠٣).

(٣) عن: القرآن والتوراة والإنجيل والعلم: (٧٧ ـ ٧٨). ولم يسلِّم د. موريس بوكاي استناداً على دراسات متخصصين كاثوليك وبروتستانت على وجود تلك الكتب في بداية القرن الثاني، وأقصى تاريخ ممكن هو ١٤٠م.

باعتراف المجمع الفاتيكاني الثاني، أضخم مجمع مسكوني للنصارى منذ وجودهم، فقدان الكنيسة للإنجيل الأصلي الموحى به من الله إلى عيسى ابن مريم، ولو محرفاً كالتوراة. وتلك قاصمة الظهر.

٢ ـ أنهم يعترفون أن واضعي هذه الأناجيل ليسوا جميعاً من تلاميذ المسيح. وتلك حقيقة تاريخية لا يملك النصارى إنكارها وتمثل طعناً في ثبوت ما تضمنته من أخبار بسبب انقطاع السند.

فأهم هذه الأناجيل وأولها في الترتيب لدى الكنيسة «إنجيل متى» المنسوب إلى أحد الحواريين. ويدور جدلٌ عميق بين دارسي العهد الجديد حول صحة نسبة الإنجيل إلى متى الحواري. وقد خلص د. موريس بوكاي إلى القول: (لنقل صراحة إنه لم يعد مقبولاً اليوم القول إنه أحد حواري المسيح)[١] كما يدور جدل حول تاريخ تدوينه. وقد خلص الشيخ محمد أبو زهرة[٢] إلى القول: (والحق أن باب الاختلاف في شأن التاريخ لا يمكن سده)[٣]، كما أن مترجمه من العبرانية إلى اليونانية مجهول تماماً.

أما إنجيل مرقص، وهو أقدمها من حيث الظهور التاريخي، وذلك

---

(١) القرآن والتوراة والإنجيل والعلم: (٨٣).

(٢) محمد بن أحمد أبو زهرة، من الشخصيات البارزة في العصر الحديث ولد سنة ١٣١٦هـ بمصر، وتعلم بمدرسة القضاء الشرعي وتولى تدريس العلوم الشرعية والعربية، ثم تدرج حتى أصبح أستاذاً محاضراً للدراسات العليا في الجامعة، وعضواً للمجلس الأعلى للبحوث العلمية، من تصانيفه: «أصول الفقه»، «الوحدة الإسلامية»، «أبو حنيفة»، «مالك»، «الشافعي»، «أحمد».
توفي سنة ١٣٩٤هـ.
الأعلام: (٦/ ٢٥).

(٣) محاضرات في النصرانية: محمد أبو زهرة. دار الفكر العربي ـ القاهرة ـ مصر. الطبعة الثالثة ١٣٨١هـ. (٤٥).
وانظر: إظهار الحق: (١/ ١٥١).

بعد منتصف القرن الأول، ربما بين ٦٥ ـ ٧٠م[١]، فليس مؤلفه من الحواريين قطعاً. لكنه تتلمذ لخاله «برنابا»، ورافقه في رحلته مع بولس إلى إنطاكية. وثَمَّ خلاف بين مؤرخي النصرانية حول كاتبه الحقيقي أهو بطرس عن مرقص، أم هو مرقص بتوجيه من بطرس، أم مرقص بغير توجيه من بطرس[٢]. وهذا «الاضطراب» ولا ريب يوهن النسبة. فضلاً عن العيوب المتعلقة بالتحرير والسرد القصصي المضطرب[٣].

أما إنجيل «لوقا» فقد ظهر بعد مرقص وقبل متى، ولوقا طبيب أنطاكي وليس من الحواريين، ولا من تلاميذ الحواريين، بل هو تلميذ لبولس صحبه في بعض أسفاره.

أما إنجيل «يوحنا» فآخرها ظهوراً، ويختلف عن الثلاثة السابقة اختلافاً بيّناً في ترتيبه وأسلوبه، بل ومضامينه العقدية، حيث إنه الإنجيل الوحيد الذي صرح بألوهية المسيح. والنصارى ينسبونه إلى الحواري يوحنا بن زبدي الصياد، حِبّ المسيح ﷺ ـ كما تحكي كتبهم ـ. ولكن هذه النسبة أيضاً محل خلاف. يقول د. موريس بوكاي: (إن الترجمة المسكونية للكتاب المقدس تحدد أن غالبية النقاد لا تأخذ بالفرض القائل بتحرير قام به يوحنا الحواري، وإن كان ذلك احتمالاً غير مستبعد برغم كل شيء. ولكن كل شيءٍ يدفع للاعتقاد بأن النص المنشور حالياً ينتمي إلى أكثر من كاتبٍ واحد)[٤] فلا يخلو الأمر من أن يكون قد كتبه «يوحنا» آخر، ويؤيد هذا تأخر ظهوره رغم نسبته إلى أحد الحواريين؛ أو أن يكون وضع أصله يوحنا الحواري ثم دس فيه إضافات ليست منه[٥].

---

(١) انظر: تاريخ الكنيسة: (٨٣)، والقرآن والتوراة والإنجيل والعلم: (٨٨).
(٢) انظر: محاضرات في النصرانية: (٤٧)، وإظهار الحق: (١/ ١٥٢).
(٣) القرآن والتوراة والإنجيل والعلم: (٨٨).
(٤) المرجع السابق: (٩٤).
(٥) انظر: إظهار الحق: (١/ ١٥٤ ـ ١٥٧).

وعلى كلا الاحتمالين فالباعث الرئيسي لاعتماده قانونياً، وربما لتأليفه، إدراج عقيدة ألوهية المسيح في الأناجيل، بسبب خلو الثلاثة السابقة منها، إذ كيف يعقل أن تهمل الأناجيل هذه العقيدة البولسية الأساسية؟!.

وبهذا تسقط نسبة الديانة النصرانية إلى سنة عيسى عليه السلام الشفهية، كما سقطت نسبتها إلى كتاب الله الإنجيل. وحُقَّ لنا أن نقول: ﴿ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف]. فلا وحي ولا أثر.

٣ ـ أنهم يعترفون أن هذه الأناجيل الأربعة متنوعة شكلاً، وأسلوباً، وتتفاوت في طريقة التصنيف وفي النمط الإرشادي... إلخ وهذا كافٍ بالقطع بأنها ليست من عند الله، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء]، فتحققُ جواب «لو» دليلٌ على ثبوت شرطه. ومع ذلك يزعم النصارى أنها نقلت كل أقوال المسيح وأفعاله بأمانةٍ وصدق. والدراسات النقدية الجادة والمتجردة من قبل النصارى، أنفسهم أثبتت وجود ثغرات كبيرة، وتناقضات صارخة، تجعل قارئها من النصارى فضلاً عن غيرهم، في حيرةٍ بالغة لا مخرج منها إلا باليقين التام أنها محاولات بشرية تمت في أجواء خصومة وتحزب، حملت محرريها، سواء كانوا من نُسبت إليهم فعلاً أو من نسبوها إلى غيرهم، وهم منها براء، على التحريف.

وبإزاء التوثيق الفاتيكاني المطلق لهذه الأناجيل الأربعة، تقول دراسة متأنية توفَّر عليها أكثر من مائة متخصص من الكاثوليك والبروتستانت، كمقدمة للترجمة المسكونية للعهد الجديد، ونشرت عام ١٩٧٢م، أن هذه الأناجيل (تتكيف مع مختلف الأوساط وتستجيب لاحتياجات الكنائس، وتعبر عن تأمل في الكتاب المقدس، وتصحح الأخطاء، وترد بهذه المناسبة على حجج الخصوم. بهذا الشكل جمع

ودوَّن المبشرون، كل بحسب وجهة نظره ما قد أعطتهم إياه الأقوال المتوارثة الشفهية)[١]. ويقول الأب كايننجسر: (لا يجب الأخذ بحرفية الأناجيل فهي كتابات ظرفية وخصامية حدد محرروها كتابة تراث جماعتهم عن المسيح)[٢].

وقد أدى هذا التنوع إلى حصول تناقضات كبيرة، في الحدث الواحد مما يقطع بعدم مصداقيتها، وأن النصارى أسسوا بنيانهم على شفا جرفٍ هار. وتفاصيل هذه التناقضات مبسوطٌ في الكتب المتخصصة في مجادلة أهل الكتاب[٣].

وهكذا حجب النصارى عن نور الحق، وانقطعت صلتهم بمشكاة النبوة المضيئة بسبب مكر بولس وأتباعه الذين غيبوا الإنجيل الحق، واستعاضوا عنه برسائل بولس الكفرية.

العقائد النصرانية:

أدخل بولس جملة من العقائد الوثنية المستمدة من عقائد الأمم الكافرة، على النصارى متخذاً من شخص المسيح ﷺ مظهراً لتلك العقائد. كما أنه ما زال يفتل في الذروة والغارب لفصل النصارى عن شريعة موسى ﷺ التي جاء عيسى ﷺ متمماً لها، لا ناقضاً، حتى فسخهم منها.

---

(١) القرآن والتوراة والإنجيل والعلم: (٧٩).
(٢) المرجع السابق: (٨٠).
(٣) انظر على سبيل المثال:
- الفصل في الملل والأهواء والنحل. لابن حزم: (٢/ ٢ ـ ٣٨).
- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح. لابن تيمية.
- تحفة الأريب في الرد على عباد الصليب. للميورقي. (٢٠٣ ـ ٢٢٢).
- إظهار الحق. لرحمت الله الهندي. (١/ ١٨٧ ـ ٢٤٦)، (٢/ ٢٩٩ ـ ٣٥٢).
- مناظرات الداعية المعاصر أحمد ديدات للنصارى.
- القرآن والتوراة والإنجيل والعلم: (٧٧ ـ ١٣٩).

وقد جُوبه في العقود الأولى التالية لرفع المسيح برفضٍ من الحواريين وكبار التلاميذ بعد أن تكشَّف لهم فساد طويته ومذهبه. وقد كان من أوائل الدعاة «الرسل» الذين تبينوا أمره «برنابا»، رغم أنه هو الذي عرَّف به أولاً وزكّاه أمام التلاميذ، فقد استصحبه في بعض أسفاره، ثم نشأت بينهما مشادة ومشاجرة شديدة في أنطاكية يصورها سفر أعمال الرسل ١٥/ ٣٧ ـ ٤٠[١] خصومة شخصية حول استصحاب مرقص معهما. ومثل هذا الأمر لا يوجب هذا الافتراق. فلا بد أن برنابا وجد منه ما يستحق النكير الشديد. ولهذا ورد في الكتاب المنسوب إلى برنابا في مقدمته ذكر الذين أضلهم الشيطان بدعوى بنوة المسيح لله، وترك الختان: (الذين ضل في عدادهم أيضاً بولص)[٢]. وفي آخر فصلٍ منه: (وآخرون بشروا ولا يزالون يبشرون بأن يسوع هو ابن الله. وقد خدع في عدادهم بولص) ٥/ ٢٢٢[٣].

وثم إنجيل آخر يسمى الأغنسطي ينسج على نفس المنوال في مقدمته وخاتمته في التنديد ببولس[٤]. كما أن قارئ رسائل بولس يلمس بشكل واضح الروح العدائية التي كان يواجه بها بولس من قبل أتباع المسيح أينما توجه، مما يحمله على النيل منهم، ومحاولة إثبات استقلاله عنهم بكونه تلقى عن المسيح مباشرة ـ رغم أنه لم يلقَه ـ في الحادثة التي يزعم أنها جرت له على طريق دمشق[٥].

---

(١) العهد الجديد: (٤١٨).

(٢) إنجيل برنابا: ترجمة: د. خليل سعادة. تحقيق: سيف الله أحمد فاضل. دار القلم. الكويت. الطبعة الثانية (١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م). (٣٨). وسيأتي تفصيل ذلك لاحقاً (١٣٢ ـ ١٣٩).

(٣) إنجيل برنابا: (٢٩٧).

(٤) انظر: مقدمة مترجم «إنجيل برنابا» د. خليل سعادة: (٢٧).

(٥) تقدم ذكرها: (٦٦).

• ففي رسالته إلى أهل غلاطية يصدرها بقوله: (من بولص وهو رسول، لا من قِبل الناس ولا بمشيئة إنسان، بل بمشيئة يسوع المسيح والله الآب الذي أقامه بين الأموات، ومن جميع الإخوة الذين معي إلى كنائس غلاطية... عجبت لسرعة ارتدادكم هذا عن الذي دعاكم بنعمة المسيح إلى بشارة أخرى، وما هي بشارة أخرى، بل هناك قوم يلقون البلبلة بينكم، وبغيتهم أن يبدلوا بشارة المسيح... فأعلمكم أيها الإخوة بأن البشارة التي بشرت بها ليست على سنة البشر، لأني ما تلقيتها ولا أخذتها عن إنسان، بل بوحي من يسوع المسيح) ١/١ ـ ٢، ٦ ـ ٧، ١١ ـ ١٢[(١)]. فهو هنا يشير إلى نوعين من البشارة موجهتين إلى نصارى ذوي كنائس، ويشير إلى مخالفين له يبلبلون تعاليمه. ويؤكد أنه يتلقى الوحي مباشرة من المسيح، فليس بحاجة إلى مرجعية الحواريين. ويتضح الخلاف الناشب بين الفريقين مع قدر أكبر من تحديد الخصوم حين يقول: (أما الأعيان[(٢)] ـ ولا يهمني ما كان شأنهم: أن الله لا يحابي أحداً من الناس ـ... ولكن لما قدم صخر[(٣)] إلى أنطاكية قاومته وجهاً لوجه لأنه كان يستحق اللوم... حتى إن برنابا انقاد هو أيضاً إلى ريائهم. فلما رأيت أنهم لا يسيرون سيرة قويمة، كما تقضي حقيقة البشارة، قلت لصخر أمام جميع الإخوة: إذا كنت أنت اليهودي تعيش عيشة الوثنيين، لا عيشة اليهود، فكيف تلزم الوثنيين بأن يسيروا سيرة اليهود) ٢/٦، ١١، ١٣ ـ ١٤[(٤)] ينكر بذلك على كبير الحواريين «بطرس»، وأحد كبار التلاميذ «برنابا» عدم تبشيرهم

---

(١) العهد الجديد: (٥٧٢ ـ ٥٧٣).

(٢) قال المعلق: أي الاثني عشر. العهد الجديد: (٥٧٤) حاشية (٦). يعني الحواريين.

(٣) لقب لكبير الحواريين «بطرس».

(٤) العهد الجديد: (٥٧).

الوثنيين القلف، ونهيهم المؤمنين عن مؤاكلتهم، مع زعمه أن بطرس كان يؤاكلهم.

• ومما يدل على حجم الانقسام الذي أحدثه بين النصارى، ما جاء في رسالته الأولى لأهل قورنتس: (كل واحد منكم يقول: أنا لبولس وأنا لأبلُّس وأنا لصخر وأنا للمسيح) ١/ ١٢[١].

وأخطر العقائد الكفرية التي دسها بولس في الإيمان النصراني ثم صارت مع مرور الزمن أركان العقيدة النصرانية، ما يلي:

أولاً: دعوى ألوهية المسيح وربوبيته:

• (في البدء كان الكلمة. والكلمة كانت لدى الله. والكلمة هو الله) إنجيل يوحنا ١/ ١[٢].

• (أجابه توما: ربي وإلهي! فقال له يسوع: الأنك رأيتني آمنت؟ طوبى للذين يؤمنون ولم يروا) إنجيل يوحنا ٢٠/ ٢٨ ـ ٢٩[٣].

• (وهو فوق كل شيء إلهٌ مبارك أبد الدهور) رسالة بولس إلى أهل رومة ٩/ ٥[٤].

• (ولا يستطيع أحدٌ أن يقول: «يسوع ربٌّ» إلا بإلهامٍ من الروح القدس) رسالة بولس الأولى إلى أهل قورنتس ١٢/ ٣[٥].

• (فليعلم يقيناً بيت إسرائيل أجمع، أن يسوع هذا الذي

---

(١) العهد الجديد: (٥١١)، وانظر: النصرانية تاريخاً وعقيدة.. وكتباً ومذاهب: د. مصطفى شاهين. دار الاعتصام. القاهرة. طبعة ١٩٩١م. (١٤٨ ـ ١٥٣).
(٢) العهد الجديد: (٢٨٩).
(٣) العهد الجديد: (٣٥٨).
(٤) العهد الجديد: (٤٨٧).
(٥) العهد الجديد: (٥٢٨).

صلبتموه، قد جعله الله رباً ومسيحاً) أعمال الرسل ٢/ ٣٦[١].

• (فدنوا منه، وأيقظوه، وقالوا له: يا رب نجنا لقد هلكنا) إنجيل متى ٨/ ٢٥[٢].

والأناجيل الأربعة تعج بوصف المسيح بـ «الرب» ومناداته بذلك بما يشق حصره.

ثانياً: دعوى بنوة المسيح:

• (... فقال لهم: ومن أنا في قولكم أنتم؟ فأجاب سمعان بطرس: أنت المسيح ابن الله الحي. فأجابه يسوع: طوبى لك يا سمعان بن يونا، فليس اللحم والدم كشفا لك هذا، بل أبي الذي في السماوات) إنجيل متى: ١٦/ ١٥ ـ ١٧[٣].

• (وإذا صوتٌ من السماوات يقول: هذا هو ابني الحبيب الذي عنه رضيت) إنجيل متى ٣/ ١٧[٤].

• (فقال له عظيم الكهنة: أستحلفك بالله الحي لتقولن لنا، هل أنت المسيح ابن الله؟ فقال له يسوع: هو ما تقول) إنجيل متى ٢٦/ ٦٣ـ ٦٤[٥]، وعند مرقص (أنا هو) ١٤/ ٦٢[٦].

• (لأنهم يصلبون ابن الله ثانية) رسالة بولس إلى العبرانيين ٦/ ٦[٧].

• (فأخذا يصيحان: وما لنا ولك يا ابن الله) إنجيل متى ٨/ ٢٩[٨].

---

(١) العهد الجديد: (٣٧٩).
(٢) العهد الجديد: (٥٩).
(٣) العهد الجديد: (٨٢ ـ ٨٣).
(٤) العهد الجديد: (٤٣).
(٥) العهد الجديد: (١١٢).
(٦) العهد الجديد: (١٧٣).
(٧) العهد الجديد: (٧٠٢).
(٨) العهد الجديد: (٥٩).

ثالثاً: مقالة التثليث:

• (اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمّدوهم باسم: الآب والابن والروح القدس) إنجيل متى ٢٨/ ١٩[(١)].

• (ولتكن نعمة ربنا يسوع المسيح، ومحبة الله، وشركة الروح القدس معكم جميعاً) رسالة بولس إلى أهل قورنتس ١٣/ ١٣[(٢)].

إن هذه العقائد الثلاث: ألوهية المسيح وبنوته لله والثالوث الأقدس، عقائد متلازمة:

(فالمسيحيون يعتبرون أن شخص يسوع البشري هو «ابن» الله الذي يشترك مع الله «الآب» في الألوهية والأزلية. وفي إنجيل يوحنا ١/ ١ ـ ١٨ أن يسوع هو كلمة الله الأزلية... التي صارت جسداً ـ أي كائناً إنسياً ـ فعاش يسوع إنساناً مملوءاً نعمةً وحقاً، مُظهِراً للعالم المجد الذي حل به لكونه «الابن» الوحيد لله «الآب».

وعلى هذا الأساس... فإن المسيحية تعد الله «ثالوثاً أقدساً» غير قابلٍ للتجزئة تتوحد فيه ثلاثة أقانيم إلهية ـ باليونانية Hypostasis مادة طبيعية، ماهية ـ وهذه الأقانيم الثلاثة هي «الآب» وهو الله المنزه؛ و«الابن» وهو الله المتمثل بالمسيح؛ والروح القدس وهو «الرب المحيي» الذي يمثل الوساطة الإلهية في الكون، التي تكلمت تاريخياً على ألسنة الأنبياء من بني إسرائيل، والتي تستمر في التبيان عن نفسها من خلال «شركة القديسين»، مشكلة بذلك الرابطة الأبدية بين الإلهي والإنساني على الأرض)[(٣)].

لعل هذه الصياغة الحديثة للعقائد الثلاث السابقة تحاول جاهدة

---

(١) العهد الجديد: (١١٩).

(٢) العهد الجديد: (٥٦٤).

(٣) المسيحية في العالم العربي: (١٦).

أن تجلي الغموض الذي يكتنف النصوص النصرانية القديمة حول عقيدة التثليث من جنس قول يوحنا: (في البدء كان الكلمة. والكلمة كان لدى الله. والكلمة هو الله. كان في البدء لدى الله. به كان كل شيء. وبدونه ما كان شيءٌ مما كان. فيه كانت الحياة، والحياة نور الناس... لم يكن هو النور. بل جاء ليشهد للنور. كان النور الحق الذي ينير كل إنسان آتياً إلى العالم، كان في العالم. وبه كان العالم. والعالم لم يعرفه... والكلمة صار بشراً، فسكن بيننا. فرأينا مجده. مجداً من لدن الآب لابن وحيد ملؤه النعمة والحق... إن الله ما رآه أحدٌ قط. الابن الوحيد الذي في حضن الأب هو الذي أخبر عنه) ١/ ١ ـ ٤، ٨ ـ ١٠، ١٤، ١٨[١].

ومن جنس نشيد بولس: (قد أُظهر في الجسد. وأعلن باراً في الروح. وتراءى للملائكة. وبُشر به عند الوثنيين. وأومن به في العالم. ورفع في المجد) رسالة بولس الأولى إلى طيموتاوس ٣/ ١٦[٢].

إن العقل السليم ليحار أمام هذه الجمل والمقاطع، ويتردد الذهن جيئةً وذهاباً بين مدلولاتها المحتملة، فما يكاد يفهم أن المراد بجملة ما «الله»، حتى يطوّح به النص نحو «الابن»، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن عامة العقلاء.

وحقيقة الأمر ـ مهما حاول النصارى قديماً وحديثاً أن يتنصلوا من هذه الحقيقة الدامغة ـ أنهم يثبتون ثلاثة آلهة منفصلة، ويخلعون على كلٍ منها خصائص الألوهية والربوبية، ولا تغني عنهم مماحكتُهم اللفظية الممتنعة ببداهة العقول، كقولهم: الآب والابن وروح القدس إلهٌ واحد. تثليث في وحدة، ووحدة في تثليث.

---

(١) العهد الجديد: (٢٩٨ ـ ٢٩١).
(٢) العهد الجديد: (٦٦٣ ـ ٦٦٤).

فها هو ذا يوحنا يقول في إنجيله: (فكما أن الآب يقيم الموتى ويحييهم. فكذلك الابن يحيي من يشاء. لأن الآب لا يدين أحداً، بل جعل القضاء كله للابن) ٥/ ٢١ ـ ٢٢[١].

فأين القوم من توحيد الربوبية، بله توحيد الألوهية والعبادة؟!.

وقد أكفر الله النصارى بهذه المقالة الفاجرة التي لا تصدر إلا ممن لم يقدر الله حق قدره، فقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧]، ثم دحض مقالتهم: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [المائدة]. وكرر تكفيرهم، وأقام عليهم الحجة البالغة من قول المسيح نفسه، وحكمه على من وقع منه ذلك، فقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة].

وأما دعوى البنوة فمهما حاولوا تصويرها تصويراً فلسفياً للنأي بها عن صورة الولادة البشرية، فإن مجرد نسبة الولد لله فرية عظيمة مهولة لا انفكاك لهم عن عارها وشؤمها. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٩٥] فلأجل هذه المقالة البائرة قاتلهم الله، ومن قاتله الله قتله: ﴿وَقَالَتِ

(١) العهد الجديد: (٣٠٢).

ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة].

وأما أسطورة «التثليث» بقولهم: «إن الله ثالث ثلاثة» فمن أعظم أسباب شقاء القوم. فهم يعجزون عن تقريرها بعبارة معقولة مقبولة، ويقرون بذلك[(١)]، فيفرون إلى ما ينافي العقل، وبئس المفر، فإن النصوص الشرعية الصحيحة قد تأتي بمحارات العقول، ولكنها لا تأتي بمحالات العقول[(٢)]. فالعقل يحار ويكل عن إدراك كيفية ما أخبر الله به عن نفسه، أو أحوال اليوم الآخر، لكنه لا يحكم باستحالة ذلك. يحكم قطعاً بأن التوحيد ينافي التثليث. قال ابن كثير كَلَلهُ: بعد ذكر تفرقهم إلى ملكية ويعقوبية ونسطورية: (وكل هذه الفرق تثبت الأقانيم الثلاثة في المسيح، ويختلفون في كيفية ذلك، وفي اللاهوت والناسوت على زعمهم! هل اتحدا أو ما اتحدا، بل امتزجا، أو حل فيه؟ على ثلاث مقالات. وكل منهم يكفر الفرقة الأخرى. ونحن نكفر الثلاثة)[(٣)].

ولما كانت خرافة التثليث من أسفه المقالات، زجرهم الله زجر السفهاء الذين يلقنون الحق، ولا يُنظر في قولهم لتهافته، فقال تعالى:

---

(١) نقل الشيخ محمد أبو زهرة كَلَلهُ عن أحد مصنفيهم بعد تقريره عقيدة التثليث قوله: (قد فهمنا ذلك على قدر طاقة عقولنا. ونرجو أن نفهمه فهماً أكثر جلاءً في المستقبل حين ينكشف لنا الحجاب عن كل ما في السماوات والأرض) محاضرات في النصرانية: (١٠٣). وسوف يفهمون حقيقة الأمر جيداً إذا ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ [ق].

(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل: (٥/ ٢٩٧).

(٣) تفسير القرآن العظيم: (٢/ ٤٧٩).

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾ [النساء].

وقد أقام الله دليلاً عقلياً، قاطعاً لمقالة مدعي الولد ومشركي الألوهية، فقال: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون].

وفي هذه الأدلة القرآنية كفاية في نقض عقائد النصارى، وأما اللوازم الفاسدة التي تترتب عليها فكثيرة واضحة مبسوطة في مظانها(١).

---

(١) انظر في الرد على النصارى:
- الفصل في الملل والأهواء والنحل. لابن حزم.
- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح. لابن تيمية.
- المختار في الرد على النصارى. للجاحظ.
- الرد الجميل لألوهية عيسى بصريح الإنجيل. للغزالي.
- أدلة الوحدانية في الرد على النصرانية. للقرافي.
- الرد على النصارى. للجعفري.
- هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى. لابن القيم.
- الأجوبة الجلية في دحض الدعوات النصرانية. للدمشقي الطيبي.
- تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب. للميورقي.
- إظهار الحق. لرحمت الله الهندي.
- المسيح ﷺ بين الحقائق والأوهام. لمحمد وصفي.
- حقيقة النصرانية من الكتب المقدسة. لعلي الجوهري.

=

قال ابن القيم[١] ﷺ: (إن هذه الأمة ارتكبت محظورين عظيمين، لا يرضى بهما ذو عقلٍ ولا معرفة:

أحدهما: الغلو في المخلوق، حتى جعلوه شريك الخالق، وجزءاً منه، وإلهاً آخر معه، وأنفوا أن يكون عبداً له.

والثاني: تنقُّصُ الخالق وسبُّه ورميه بالعظائم... وبالجملة فلا نعلم أمة من الأمم سبت ربها ومعبودها وإلهها بما سبت به هذه الأمة. كما قال عمر: إنهم سبوا الله مسبَّةً ما سبه إياها أحدٌ من البشر)[٢] يريد اعتقادهم أن عيسى هو الله مع ما وقع له من حملٍ ووضعٍ ورضاعٍ وسائر صفات البشر ثم ما وقع عليه من إهانةٍ ولطمٍ وبصق وصلبٍ في زعمهم.

= - المناظرة الأولى. لعلي الجوهر.
- النصرانية: تاريخاً وعقيدة وكتباً ومذاهب. لمصطفى شاهين.
- حقيقة النصرانية. لهشام أحمد عبد الحي.
- مناظرات الداعية أحمد ديدات.
- مناظرة بين الإسلام والنصرانية. لنخبة من المسلمين والنصارى.

(١) محمد بن أبي بكر بن أيوب الدمشقي، أبو عبد اللَّه، شمس الدين، من أركان الإصلاح الإسلامي، وأحد كبار العلماء، تتلمذ لشيخ الإسلام ابن تيمية حتى كان ينتصر لجل أقواله. وهو الذي هذب كتبه ونشرها، وسجن معه في قلعة دمشق، وأهين وعذب بسببه وطيف به على جمل مضروباً بالعصا، وكان حسن الخلق محبوباً عند الناس، وألف تصانيف كثيرة منها «إعلام الموقعين» و«أحكام أهل الذمة»، و«زاد المعاد في هدي خير العباد» و«الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة» وغيرها. وكان مولده سنة ٦٩١هـ، وتوفي سنة ٧٥١هـ.
الأعلام (٦/ ٥٦)، الدرر الكامنة (٣/ ٤٠٠)، البداية والنهاية (١٤/ ٢٣٤)، آداب اللغة (٣/ ٢٤٥)، شذرات الذهب (٦/ ١٦٨)، التيمورية (٣/ ٢٥١).

(٢) إغاثة اللهفان: (٢/ ٣٩٧ - ٣٩٨).

رابعاً: أسطورة الخطيئة والتكفير والخلاص بالصلب والفداء:

• (فكما أن الخطيئة دخلت في العالم عن يد إنسان واحد، وبالخطيئة دخل الموت وهكذا سرى الموت إلى جميع الناس لأنهم جميعاً خطئوا... فإذا كانت جماعة الناس قد ماتت بزلة إنسان واحد، فبالأولى أن تفيض على جماعة الناس نعمة الله والعطاء الممنوح بنعمة إنسان واحد ألا وهو يسوع المسيح) رسالة بولس إلى أهل رومة ٥/ ١٢، ١٤ ـ ١٥[١].

• (مع أننا كنا أمواتاً بزلاتنا، أحياناً مع المسيح «بالنعمة نلتم الخلاص» وأقامنا معه وأجلسنا معه في السماوات في المسيح يسوع. فقد أراد أن يظهر للأجيال الآتية نعمته الفائقة السعة بلطفه لنا في المسيح يسوع) رسالة بولس إلى أهل أفسس ١/ ٥ ـ ٧[٢].

• (هو وسيط لعهد جديد، بوصية جديدة، حتى إذا مات فداءً للمعاصي المرتكبة في العهد الأول نال المدعوون الميراث الأبدي الموعود. لأنه حيث تكون الوصية فلا بد أن يثبت موت الموصي... إنه لم يظهر إلا مرةً واحدة في نهاية العالم ليزيل الخطيئة بذبيحة نفسه... قُرِّب مرة واحدة ليزيل خطايا جماعة الناس. وسيظهر ثانية بمعزل عن الخطيئة للذين ينتظرونه للخلاص) رسالة بولس إلى العبرانيين ٩/ ١٥ ـ ١٦، ٢٦، ٢٨[٣].

• (جميع الناس قد خطئوا فحرموا مجد الله، ولكنهم بُرِّروا مجاناً بنعمته، بحكم الفداء الذي تم في المسيح يسوع، ذاك الذي جعله الله كفارةً في دمه بالإيمان ليُظهر برَّه، بإغضائه عن الخطايا الماضية في

(١) العهد الجديد: (٤٧٨).
(٢) العهد الجديد: (٥٩٢).
(٣) العهد الجديد: (٧٠٨).

حلمه تعالى، ليُظهر برَّه في الزمن الحاضر، فيكون هو بارّاً، ويبرر من كان من أهل الإيمان بيسوع) رسالة بولس إلى أهل رومة ٣/ ٢٣ ـ ٢٦[١].

إن هذه العقائد المتلازمة من سريان خطيئة آدم إلى ذريته، وحصول التكفير والخلاص بافتداء المسيح نفسه عن البشرية على خشبة الصليب، منظومة فلسفية وضعها بولس وأقام عليها سوق النصرانية. ومع أن الأناجيل الأربعة تفيض في ذكر حادثة الصلب المزعومة، بما يجعلها من المعلوم عندهم بالضرورة، إلا أنها تعرضها عرضاً مأساوياً محزناً، وتظهر المسيح ضحية لخيانة يهوذا الاسخريوطي، وليس بطلاً فدائياً يقوم بمهمة شريفة سامية كما يصور بولس في رسائله[٢]، ويقررها أتباعه على النحو التالي: (محبة الله ظهرت في تدبيره طريق الخلاص للعالم. لأن العالم من عهد سقوط آدم في الخطيئة، وهبوطه هو وبنيه إلى الدنيا مبتعد عن الله بسبب تلك الخطيئة. ولكن الله من فرط محبته، وفيض نعمته رأى أن يقربه إليه بعد هذا الابتعاد. فأرسل لهذه الغاية ابنه الوحيد إلى العالم، ليخلص العالم... وقد كان التكفير الذي قام به المسيح هو الصلب، ولهذا صُلب. ورضي الله عن صلبه. وهو ابنه، ودفن بعد الصلب، ولكنه قام بعد ثلاثة أيامٍ من قبره)[٣].

وكل هذا مما أدخله بولس على دين المسيح، وأفسد به أهل ملته، وابتدعه من عند نفسه. وهو طعن في عدل الله سبحانه وحكمته، فكيف يؤخذ اللاحق بجريرة السابق؟ ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا

---

(١) العهد الجديد: (٤٧٢ ـ ٤٧٣).

(٢) انظر: متى (٢٧/ ١١ ـ ٦١)، مرقس (١٥/ ١ ـ ٤٧) لوقا (٢٣/ ١ ـ ٤٩)، يوحنا (١٨/ ٢٨ ـ ٣٧).

(٣) محاضرات في النصرانية: (١٠٧).

سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النجم].

فكيف إذا كانت خطيئة آدم ﷺ مغفورة، وصاحبها مجتبىً مَهْدي: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه]. وثالثاً: كيف إذا لم يكن عيسى ﷺ قد صلب: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء][1].

خامساً: دعوى دينونة المسيح:

• (وإذا جاء ابن الإنسان في مجده، تواكبه جميع الملائكة، يجلس على عرش مجده، وتحشر لديه جميع الأمم، ويفصل بعضهم عن بعض كما يفصل الراعي الخراف عن الجداء. فيقيم الخراف عن يمينه والجداء عن شماله. ثم يقول الملك للذين عن يمينه: تعالوا يا من باركهم أبي، فرثوا الملكوت المعد لكم منذ إنشاء العالم... ثم يقول للذين عن الشمال: إليكم عني أيها الملاعين إلى النار الأبدية المعدة لإبليس وملائكته... فيذهب هؤلاء إلى العذاب الأبدي، والأبرار إلى الحياة الأبدية) إنجيل متى ٢٥/ ٣١ ـ ٣٤، ٤١، ٤٦[2].

• (الحقَّ الحقَّ أقول لكم: تأتي ساعة ـ وقد حضرت الآن ـ فيها يسمع الأموات ابن الله والذين يسمعونه يحيون. فكما أن الأب له الحياة في ذاته. فكذلك أعطى الابن أن تكون له الحياة في ذاته. وأولاه سلطة إجراء القضاء، لأنه ابن الإنسان. لا تعجبوا من هذا فتأتي ساعة فيها يسمَعُ صوته جميع الذين في القبور فيخرجون منها أما الذين

---

(١) وانظر في إبطال عقيدة الصلب والفداء: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: (٢/ ١٠٨ ـ ١١٦).

(٢) العهد الجديد: (١٠٧).

عملوا الصالحات فيقومون للحياة. وأما الذين عملوا السيئات فيقومون للقضاء) إنجيل يوحنا ٥/ ٢٥ ـ ٢٨[١].

فهذان النصَّان الصريحان من الأناجيل، وأمثالهما من رسائل بولس يكشفان عن اعتقاد النصارى: أن الذي سيتولى الفصل بين الخلائق يوم القيامة والجزاء على الأعمال هو المسيح وليس ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة]. وهذا من شركهم في الربوبية، قال تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ۝١٥ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝١٦ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝١٧﴾ [غافر]، ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ۝١٩﴾ [الانفطار]، ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾ [الغاشية]، ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ۝٤٧﴾ [الأنبياء].

وفي حديث الشفاعة الطويل أن الناس في الموقف يأتون آدم ثم نوحاً ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى ليشفعوا لهم عند ربهم في فصل القضاء فيعتذرون وكل واحدٍ منهم يقول: (نفسي نفسي)[٢]، حتى تنتهي النوبة إلى محمد ﷺ فينتدب لها، وهذا غاية المجد ذلك اليوم وهو المقام المحمود الذي وعده الله إياه: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء]. وهو الشفاعة لأهل الموقف أن يقضي الله بينهم.

وهذه العقائد النصرانية التي أدخلها بولس، مستمدةٌ في الواقع من

(١) العهد الجديد: (٣٠٢ ـ ٣٠٣).

(٢) رواه البخاري: (٥/ ٢٢٦).

النحل الوثنية، كما أخبر سبحانه: ﴿يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة]. قال ابن القيم رحمه الله: (ثم أخذ دين المسيح في التبدل والتغير، حتى تناسخ واضمحل. ولم يبق بأيدي النصارى منه شيء. بل ركّبوا ديناً بين دين المسيح ودين الفلاسفة عباد الأصنام. وراموا بذلك أن يتلطفوا للأمم حتى يدخلهم في النصرانية، فنقلوهم من عبادة الأصنام المجسدة إلى عبادة الصور التي لا أصل لها. ونقلوهم من السجود للشمس إلى السجود إلى جهة المشرق. ونقلوهم من القول باتحاد العاقل والمعقول والعقل، إلى القول باتحاد الأب والابن وروح القدس)[1].

وقد اعتنى بعض المعاصرين الحاذقين بالتنظير بين العقائد النصرانية والعقائد الوثنية، والمقابلة بينهما بما يكشف كشفاً جلياً عن مضاهاة بولس لقول الذين كفروا من قبل، واستمداده منهم[2].

المجامع النصرانية:

ظل الصراع قائماً بين أتباع المسيح وأتباع بولس. وكان الظهور للمؤمنين الموحدين حتى عام ٧٠م حين حصار أورشليم من قبل الرومان، وفتكهم بأهلها من اليهود وحيث إن أتباع المسيح كانوا متمسكين بالناموس الموسوي فقد بدوا في أعين الرومان يهوداً فتعرضوا للاضطهاد والشتات، في حين بدا البولسيون مجافين للمظاهر اليهودية فساعد ذلك في تمكينهم. ومع ذلك فقد احتاج أتباع بولس إلى عدة

---

(١) إغاثة اللهفان: (٢/ ٣٨٤).

(٢) انظر كتاب العقائد الوثنية في الديانة النصرانية: لمحمد بن طاهر التنير البيروتي. ت(١٣٥٢هـ ـ ١٩٣٣م) تحقيق: د. محمد بن عبد الله الشرقاوي. دار عمران ـ بيروت، مكتبة الزهراء ـ القاهرة. الطبعة الأولى (١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م). وانظر أيضاً: محاضرات في النصرانية: (٣٣ ـ ٣٩).

قرون لخلخلة العقائد الصحيحة، وزرع العقائد الوثنية في أجيال النصارى. ونظراً للاضطهاد العام الذي لقيه النصارى في أرجاء الدولة الرومانية وتخفي علمائهم، وصعوبة التواصل بينهم فقد حال ذلك دون كشف الشبهات، ومقاومة العقائد الدخيلة، فضلّوا ضلالاً بعيداً. ولما اطمأن القوم في مطلع القرن الرابع وتنفسوا الصعداء، وجهروا بما يعتقدون تكشَّف الحال عن خلافٍ عريض، وانقسام عميق، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فلا يجمعهم سوى مجرد الاسم وفوجئ الإمبراطور الروماني قسطنطين لما اعتنق النصرانية عام ٣١٢م بهذا التشرذم، فأراد أن يجمع كلمتهم في مجمع يضم رؤوسهم، مفتتحاً بذلك سلسلة من المجامع المتعاقبة لتقرير العقيدة النصرانية، ونبذ ما يخالفها.

مجمع نيقية:

هو أول مجمع مسكوني. وقد دعا إليه الإمبراطور قسطنطين، فانعقد في مدينة نيقية في شهر مايو عام ٣٢٥ وحضره ألفان وثمانمائة وأربعون أسقفاً، لمناقشة عقيدة آريوس، وهو كاهن في كنيسة الإسكندرية، أنكر إنكاراً شديداً أن يكون «ابن الله» مساوٍ لـ«الأب» في الجوهر. (وحظيت هذه العقيدة الأريوسية، وما رافقها من تعاليم بالقبول السهل لدى جماعات مسيحية في أرجاء مختلفة من العالم الروماني، وما يحيط به من مناطق. وأفضى هذا إلى بدعة حظيت بانتشار شعبي واسع، فهددت وحدة الكنيسة كما لم تُهدَّد من قبل. وقد جعلت هذه البدعة من «الابن» في الثالوث الأقدس، وكذلك ضمنياً من الروح القدس، وسيطين للآب، وكائنين مخلوقين، الأمر الذي حول المسيحية إلى نوعٍ متطور من الإيمان اليهودي، يجعل الآب هو الله الخالق وهو وحده الأبدي. لكن المذهب الآريوسي أقر في الوقت نفسه الماهية الإلهية للابن وللروح القدس في الثالوث، وبذلك خرج

عن مبدأ التوحيد، إذ جاء في الواقع معترفاً بثلاثة آلهة: واحدٌ أولي واثنين ثانويين)[١].

وكان هذا الحشد الكبير من الأساقفة يمثلون طوائف شتى متباينة الأقوال في أصول الإيمان. فأتاح لهم قسطنطين أن يتناظروا ويتجادلوا، وشارك في تلك المناقشات آريوس نفسه، ثم جنح قسطنطين إلى مقالة أتباع بولس القائلين بتأليه المسيح وعددهم ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً فقط (أي: ١٥,٥٪ من المجتمعين) واستبعد من سواهم، وفوضهم أن يصوغوا قانوناً للإيمان يحمل عليه الكافة ويبدع من لم يقل به، فكان مجمع نيقية الذي تمخض عن (قانون الإيمان النيقاوي) أو ما يسميه النصارى العرب (الأمانة الكبرى)[٢]. ونصها المعدل بعد مجمع القسطنطينية الأول المنعقد عام ٣٨١م ما يلي:

(أنا أومن: (١) بإلهٍ واحدٍ آب قادر على كل شيء، خالق السماء والأرض، وكل ما يرى ولا يرى. (٢) وبرب واحدٍ يسوع المسيح، ابن الله الوحيد، المولود من الآب، قبل كل الدهور، نور من نور، إلهٌ حق من إلهٍ حق، مولود غير مخلوق، مساوٍ للآب في الجوهر، هو الذي به كان كل شيء، الذي من أجلنا نحن البشر، ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد بالروح القدس من مريم العذراء، وصار إنساناً. وصلب عنا في عهد بيلاطس البنطي، وتألم وقبر وقام أيضاً في اليوم الثالث، على ما في الكتب المقدسة، وصعد إلى السماء، وهو جالس عن يمين الآب. وسيأتي أيضاً بمجدٍ ليدين الأحياء والأموات، الذي ليس لملكه نهاية. (٣) وأومن بالروح القدس الرب المحيي المنبثق من الآب (والابن)[٣]،

(١) المسيحية في العالم العربي: (٣٩).
(٢) قال ابن كثير رحمه الله: (التي هي الخيانة الحقيرة) (٢/ ٤٨).
(٣) هذه اللفظة (الابن) أدخلت على النص اللاتيني دون اليوناني لاحقاً، وصارت مدعاة للخلاف أيضاً.

المسجود له، والممجد مع الآب والابن، الذي تكلم بالأنبياء. (٤) وأعتقد بكنيسة واحدة رسولية. (٥) وأعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا. (٦) وأنتظر قيامة الموتى. (٧) وحياة الدهر الآتي)[١].

وسواء كان آريوس موحداً حقاً، أو جاء بتوحيد مهجن من توحيد اليهود وتثليث النصارى، فقد انقرض مذهبه تحت حملات الإرهاب البولسي المدعوم بسيف الإمبراطور.

(وقد أمر قسطنطين في الرسالة التي وجهها بعد المجمع إلى جميع الأساقفة والشعوب أن تحرق تآليف آري ـ أي آريوس ـ ويهدد بالموت كل من يخفيها)[٢]. فاندثرت مقالة آريوس وسائر المقالات الأخرى التي لا تتوافق مع قانون الإيمان النيقاوي. ولكن ذلك لم يوحد كلمة النصارى، فلم تزل الانشقاقات تعصف بهم حول أتفه خلافٍ لفظي أو سلطة كنسية فيعقدون لذلك المجامع المسكونية الكبرى لفض النزاع، فلا يزيدهم ذلك إلا فرقة[٣]. قال ابن القيم رحمه الله: (وكل مجامعهم كانت تجتمع على الضَّلال وتفترق على اللعن. فلا ينفض إلا وهم ما بين لاعن وملعون. ـ وقال بعد أن ذكر مجامعهم الكبار ـ: فهذه عشرة مجامع كبار من مجامعهم مشهورة، اشتملت على أكثر من أربعة عشر ألفاً من البتاركة والأساقفة والرهبان، كلهم ما بين لاعن وملعون. فهذه حال المتقدمين مع قرب زمانهم من أيام المسيح، ووجود أخباره فيهم، والدولة دولتهم، والكلمة كلمتهم، وعلماؤهم إذ

(١) أخذ نَصُّها من: المسيحية في العالم العربي: (٤٢ ـ ٤٣).
(٢) تاريخ الكنيسة المسيحية (٢٢٨).
(٣) اكتفينا بذكر مجمع نيقيه لأهميته البالغة في رسم عقيدة عامة النصارى. وانظر تفصيل القول فيه وفي بقية المجامع: تاريخ الكنيسة المسيحية. الفصل الثاني (٢٢٠ ـ ٢٩٦). هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى: (٣١٨/٣٤٦)، محاضرات في النصرانية: (١٢٠ ـ ١٤٨).

ذاك أوفر ما كانوا، واهتمامهم بأمر دينهم، واحتفالهم به كما ترى، وهم حيارى تائهون، ضالون مضلون، لا يثبت لهم قدم، ولا يستقر لهم قولٌ في إلٰههم، بل كل منهم قد اتخذ إلٰهه هواه، وصرح بالكفر والتبري ممن اتبع سواه. فقد تفرقت بهم في نبيهم وإلٰههم الأقاويل. وهم كما قال الله سبحانه: ﴿قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾[1] [المائدة].

الشريعة عند النصارى:

جاء عيسى عليه السلام مصدقاً لما بين يديه من التوراة، ومتمماً لشريعة موسى، ومخففاً عن بني إسرائيل بعض ما جُوزوا به ـ كما تقدم ـ ولم يأت ناقضاً لشريعة بني إسرائيل التي أودعها الله في التوراة، وحكم بها النبيون الذين أسلموا ـ وهو أحدهم ـ للذين هادوا. وقد جاء في إنجيل يوحنا أنه قال: (لا تظنوا أني جئت لأبطل الشريعة أو الأنبياء: ما جئت لأبطل، بل لأُكمل. الحقَّ أقول لكم: لن يزول حرف أو نقطة من الشريعة حتى يتم كل شيء، أو تزول السماء والأرض. فمن خالف وصيةً من أصغر تلك الوصايا وعلَّم الناس أن يفعلوا مثله، عُدَّ الصغيرَ في ملكوت السماوات. وأما الذي يعمل بها ويعلِّمها فذاك يعد كبيراً في ملكوت السماوات) ٥/١٧ ـ ١٩.

وهكذا كان الحواريون وكبار التلاميذ محافظين على الناموس، ملتزمين بالشريعة الظاهرة التي عليها قومهم بنو إسرائيل، حتى أجلب عليهم بولس في شأن المتنصرين من الوثنيين، وطالب بإعفائهم من الختان وأحكام الشريعة، سوى ذبائح الأصنام، والدم، والميتة،

---

(١) إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان: (٢/٣٨٩، ٣٩٥) وما أصدق قول الله فيهم: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [المائدة: ١٤].

والزنى. أعمال الرسل ١٥/٢٣ ـ ٢٩، ولم يزل يهون من شأن الشريعة حتى أبطلها بعقيدة الصلب والفداء؛ ذلك أنه لم يكتف باتخاذ هذه العقيدة تكفيراً وخلاصاً من خطيئة آدم الموروثة ـ بزعمه ـ، بل جعل منها بزخرف القول، وتشقيق الكلام، ذريعة للتحلل من أحكام الشريعة التي كانت مضروبة على بني آدم، وسبباً لحلول اللعنة عليهم بزعمه. يقول في رسالته إلى أهل غلاطية: (إن أهل العمل بأحكام الشريعة هم جميعاً في حكم اللعنة. فقد ورد في الكتاب: «ملعون من لا يثابر على العمل بجميع ما كتب في سفر الشريعة»، أما أن الشريعة لا تبرِّر أحداً عند الله فذاك أمرٌ واضح، لأن «البار بالإيمان يحيا»، على حين أن الشريعة ليست من الإيمان، بل من عمل بهذه الأحكام يحيا بها. إن المسيح افتدانا من لعنة الشريعة إذ صار لعنةً لأجلنا، فقد ورد في الكتاب: «ملعونٌ من عُلِّق على الخشبة» ذلك كيما تصير بركة إبراهيم إلى الوثنيين في المسيح يسوع فننال بالإيمان الروح الموعود به... فقبل أن يأتي الإيمان كنا بحراسة الشريعة مغلقاً علينا من أجل الإيمان المنتظر تَجَلِّيه. فصارت الشريعة لنا حارساً يقودنا إلى المسيح لنُبرَّر بالإيمان، فلما جاء الإيمان لم نبق في حكم الحارس. لأنكم جميعاً من أبناء الله بالإيمان بالمسيح يسوع)[١] (٣/ ١٠ ـ ١٤، ٢٣ ـ ٢٦).

لقد أرسى بولس عقيدة «الإرجاء» لدى النصارى، الذي يجعل الإيمان مجرد المعرفة، وفق الفلسفة التالية: البشر مرتهنون بخطيئة أبيهم آدم. وقد أعطى الله لإبراهيم عهداً بالخلاص لذريته من بني إسرائيل لقاء الالتزام بأحكام الشريعة، فمن خالفها فهو ملعون. وبالتالي فأهل العمل بأحكام الشريعة ـ فضلاً عن الوثنيين ـ في حكم اللعنة. والعمل الخلاصي الذي قام به المسيح هو أنه قَبِل ميتة الملعون، وصار لعنةً من

(١) العهد الجديد: (٥٧٧ ـ ٥٧٨).

أجل البشر ليحررهم من لعنة الشريعة الناتجة عن الخطيئة، ودفع حياته ثمناً لهذا الخلاص فصار مجرد الإيمان بيسوع من يهودي أو وثني؛ مختون أو غير مختون هو سبب الخلاص دون العمل بأحكام الشريعة. فالإيمان يفتح قلب الإنسان على الحياة التي في المسيح والشريعة تحبسه في الخطيئة وتتركه في اللعنة. وبذلك يتسع العهد الخلاصي الممنوح لذرية إبراهيم ـ فرع إسحاق ـ ليشمل جميع البشر ببركة الإيمان بالمسيح وحسب(١).

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصافات]. هذا هو الأساس النظري لتنصلهم من الشريعة. وقد ساعد على ذلك ما وقع عليهم من اليهود من اضطهادٍ ومضارَّة، فأرادوا مفاصلتهم والخروج عن شعارهم الظاهر، كيداً وتشفياً. قال ابن القيم ﷺ: (... أخذ القوم في التغيير والتبديل والتقرب إلى الناس بما يهوون، ومكايدة اليهود ومناقضتهم بما فيه ترك دين المسيح والانسلاخ منه جملة. فرأوا اليهود قد قالوا في المسيح: إنه ساحر مجنون ممخرق ولد زنية. فقالوا: هو إله تام وهو ابن الله. ورأوا اليهود يختتنون فتركوا الختان. ورأوهم يبالغون في الطهارة فتركوها جملة. ورأوهم يتجنبون مؤاكلة الحائض وملامستها ومخالطتها جملة فجامعوها. ورأوهم يحرمون الخنزير فأباحوه، وجعلوه شعار دينهم. ورأوهم يحرمون كثيراً من الذبائح والحيوان فأباحوا ما دون الفيل إلى البعوضة، وقالوا: كل ما شئت ودع ما شئت لا حرج. ورأوهم يستقبلون بيت المقدس في الصلاة فاستقبلوا هم الشرق. ورأوهم يحرمون على الله نسخ شريعة شرعها فجوزوا هم لأساقفتهم وبتاركتهم أن ينسخوا ما شاءوا ويحللوا ما شاءوا. ورأوهم يحرمون

---

(١) انظر: الشروحات والتعليقات على النص السابق من رسالة بولس إلى أهل غلاطية. العهد الجديد: (٥٧٥).

السبت ويحفظونه، فحرموا هم الأحد، وأحلوا السبت، مع إقرارهم بأن المسيح كان يحرم السبت ويحفظه... فذهبت النصارى تنقضها شريعة شريعة في مكايدة اليهود ومغايظتهم)[١]، فلا عجب إذاً أن كثر أتباعهم من حصب جهنم.

الطقوس البدعية الكهنوتية عند النصارى:

استعاض النصارى من أتباع بولس بالعبادات الشرعية، طقوساً وثنية كهنوتية لم تَرَح رائحة ملة إبراهيم، ولم تخرج من مشكاة النبوة، وهي ما يسمونها «الأسرار الكنسية» ويعرِّفونها بأنها: (أعمال مقدسة تمنح بواسطتها بصورة غير منظورة نعمة الله التي تعيد وتجدد وتقدس الإنسان الذي يقبلها... مصدر الأسرار إلهي، وأنه يجب أن تتم بطرقٍ معلومة محددة على أيدي أناسٍ مفوضين بذلك)[٢].

وهذه الأسرار المزعومة سبعة، ثلاثة أصلية، وأربعة ملحقة:

(١) **سر المعمودية أو العماد**: وهو غمس الجسم «تغطيسه» في الماء، أو غسله أو رشه ثلاث مرات ـ على خلاف بين مذاهبهم ـ ثم مسحه بالزيت المقدس «الميرون» باسم الآب والابن والروح القدس، بغرض تطهير طالب الدخول في النصرانية، أو الطفل المولود لأبوين نصرانيين من الخطيئة الأصلية، خطيئة آدم، وغفران جميع الخطايا.

(٢) **سر القربان المقدس «العشاء الرباني»**: حيث يقوم الكاهن من أسقفٍ أو قسيس بتقديس خبزٍ وخمر ليأكله الجمهور بعد استدعاء الروح القدس، على التقدمة، فالخبز يصبح بمثابة جسد المسيح، والخمر دمه، حقيقة! ويسمى أيضاً «سر الشكر» «الأفخاريستيا».

---

(١) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى: (٢٦٦).
(٢) تاريخ الكنيسة المسيحية: (٨١ ـ ٨٢).

(٣) **سر السيامة**: وهي انتقال سلطة يسوع الروحية التي وهبها - بزعمهم - للرسل من جيلٍ إلى جيل لقيادة الكنيسة عن طريق «وضع الأيدي» على الرؤوس، فحينئذٍ تسري «الخلافة الرسولية» في الرتب الكنسية الثلاث: الأسقفية، المشيخة أو القسوسية والشَّمَّاسية. وهذا السر هو ما يميز رجال الدين النصارى «الأكليروس» عن العلمانيين، أي المؤمنين العاديين. فهذه الأسرار الثلاثة أصلية قديمة.

(٤) **سر الزواج المقدس**: بالاقتران الشرعي - في مقابل المدني - بين الزوجين في مراسم كنسية، فيجعلهما هذا السر جسداً واحداً بمباركة الكنيسة.

(٥) **سر الإماتة أو الغفران**: وهو نيل الغفران والتكفير عن الخطيئة بالاعتراف أمام الكاهن. ويلتحق به سر الصلاة على المحتضر «الطقوس الأخيرة» لتحقيق الغفران أيضاً.

(٦) **سر مسحة الميرون**: لمنح نعمة مواهب الروح القدس لتثبيته في الحياة.

(٧) **سر مسحة الزيت**: لشفاء المرضى نفسياً وبدنياً[(١)].

وهكذا اتخذ النصارى دينهم هزواً ولعباً، وهجروا شريعة الله التي فيها الهدى والنور.

إنجيل برنابا:

وقد جدد الله إقامة الحجة على النصارى في القرون الأخيرة حين اكتشفت نسخة تامة وحيدة من كتاب لأحد كبار تلاميذ المسيح المخلصين، وهو «برنابا»، وذلك في مطلع القرن الثامن عشر، عرفت

(١) انظر تفاصيل هذه الأسرار في تاريخ الكنيسة المسيحية: (١٦١ - ١٦٦)؛ و: المسيحية في العالم العربي: (٤٥ - ٥٠).

باسم «إنجيل برنابا»[١].

والكاتب لم يزعم أن ما كتبه هو «الإنجيل» المنزل من عند الله، رغم أنه كُتب على طرته: الإنجيل الصحيح لعيسى المسمى المسيح[٢]. وغاية ما ذكر أنه حكى في الفصل الحادي والعشرين بعد المائتين، الفصل قبل الأخير، ما يلي: (والتفت يسوع إلى الذي يكتب وقال: يا برنابا عليك أن تكتب إنجيلي حتماً، وما حدث في شأني مدة وجودي في العالم، واكتب أيضاً ما حل بيهوذا[٣]، ليزول انخداع المؤمنين ويصدق كل أحد الحق. حينئذٍ أجاب الذي يكتب: إني لفاعلٌ ذلك إن شاء الله يا معلم...)[٤] ١٢١/١ ـ ٣.

فالكاتب قد كتب في هذا الكتاب ما حدث بشأن المسيح مدة وجوده في العالم من البشارات به، وولادته الخارقة، وآياته المؤيدة بروح القدس، ودعوته إلى عبادة الله تعالى، والبشارة بنبيه محمد ﷺ، وما وقع له من أذى اليهود واضطهادهم وسعيهم في محاكمته وصلبه لدى الحاكم الروماني، ثم رفعه إلى السماء، وضمن ذلك خطبه ومواعظه وأمثاله ووصاياه، التي ربما كان بعضها نصوصاً من الإنجيل الحقيقي، كل ذلك بأسلوبٍ إيماني مشرق، ووضوح تام وحميّة صادقة، تُشعِر القارئ أن كاتبه يقبس من مشكاة

---

(١) انظر في قصة العثور عليها: مقدمة المترجم لها الدكتور خليل سعادة في كتاب إنجيل برنابا: (١٧ ـ ٢٠).
(٢) المرجع السابق: (٣٧).
(٣) يهوذا الإسخريوطي: أحد تلاميذ المسيح الاثني عشر، باع معلمه بثلاثين من الفضة، فصار اسمه عنواناً للخيانة. شنق نفسه يأساً. المنجد في الأعلام (٧٥٢) هكذا عند النصارى، والصحيح أن الله ألقىٰ شبه المسيح عليه، فشبه لهم وصلبوه، وأما المسيح عليه السلام فما قتلوه وما صلبوه، بل رفعه الله إليه.
(٤) المرجع السابق: (٢٩٦).

النبوة، ويمتح من معين التنزيل. حتى إن مترجم هذا الكتاب الدكتور خليل سعادة، رغم كونه نصرانياً مخالفاً لكاتبه في المعتقد، أطراه بما يلي: (الحقيقة التي لا مراء فيها أن كاتب إنجيل برنابا على جانبٍ كبير من الفلسفة، وسمو المدارك، وقوة الحجة، وشدة العارضة، وجلاء البيان، وإن مباحثه الفلسفية في الجسد والحس والنفس من الوجهة الدينية لمن أسمى ما كتب الباحثون الدينيون في هذا الموضوع)[١].

وقد أفصح برنابا ﷺ في مفتتح كتابه وختامه بنفرته مما أحدثه بولس وأشياعه من كفر وضلال، فاستهل بالخطبة التالية: (برنابا رسول يسوع الناصري المسمى المسيح يتمنى لجميع سكان الأرض سلاماً وعزاءً. أيها الأعزاء إن الله العظيم العجيب[٢] قد افتقدنا في هذه الأيام الأخيرة بنبيه يسوع المسيح برحمة عظيمة للتعاليم والآيات التي اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى التقوى، مبشرين بتعليم شديد الكفر داعين المسيح ابن الله، ورافضين الختان الذي أمر به الله دائماً، مجوزين كل لحمٍ نجس، الذين ضل في عدادهم أيضاً بولس الذي لا أتكلم عنه إلا مع الأسى، وهو السبب الذي لأجله أسطر ذلك الحق الذي رأيته وسمعته أثناء معاشرتي ليسوع لكي تخلصوا ولا يضلكم الشيطان فتهلكوا في دينونة الله. وعليه فاحذروا كل أحدٍ يبشركم بتعليم جديد مضاد لما أكتبه لتخلصوا خلاصاً أبدياً. وليكن الله العظيم معكم، وليحرسكم من الشيطان ومن كل شر. آمين)[٣] ١ ـ ١٠ فهذا هو

---

(١) المرجع السابق. المقدمة: (٢٩). والنصارى يعبرون بـ«الفلسفة» و«المباحث الفلسفية» عن «العقيدة» و«المباحث العقدية».

(٢) هكذا جاء في النص المترجم. ومعلومٌ أن هذا اللفظ ليس من «الأسماء الحسنى»، ولعل ترجمته الصحيحة: «القدير» كما سيدل عليه نص لاحق: (٣/٢١٦).

(٣) إنجيل برنابا: (٣٧ ـ ٣٨).

الباعث على تأليف هذا الكتاب. وفي آخر فصلٍ منه يختتم بما يلي: (وبعد أن انطلق يسوع تفرقت التلاميذ في أنحاء إسرائيل والعالم المختلفة. أما الحق المكروه من الشيطان فقد اضطهده الباطل، كما هي الحال دائماً. فإن فريقاً من الأشرار المدعين أنهم تلاميذ بشروا بأن يسوع مات ولن يقوم. وآخرون بشروا بأنه مات بالحقيقة ثم قام. وآخرون بشروا ولا يزالون يبشرون أن يسوع هو ابن الله. وقد خدع في عدادهم بولص. أما نحن فإنما نبشر بما كتبتُ، الذين يخافون الله ليخلصوا في اليوم الأخير لدينونة الله. آمين) ٢٢٢/١ ـ ٦[1].

لقد روى برنابا مما سمعته أذناه ووعاه قلبه عن المسيح مباشرة ما يدحض كفريات بولص وأشياعه، وهو ما يشهد له القرآن العظيم الذي جاء مصدقاً لما بين يديه من الكتاب. فنذكر أهمها، ونستشهد بموضوع واحد من كتابه لكل مسألة، ونشير إلى مواضع أخرى بأرقامها، طلباً للاختصار:

* **أولاً:** إنكاره ﷺ دعوى ألوهيته، وانزعاجه البالغ من ذلك، وأنه عبد الله ورسوله: (لقد ضللتم ضلالاً عظيماً أيها الإسرائيليون لأنكم دعوتموني إلهكم وأنا إنسان... أشهد أمام السماء، وأشهد كل شيء على الأرض أني بريء من كل ما قد قلتم. لأني إنسان مولود من امرأة فانية بشرية وعرضة لحكم الله، مكابد شقاء الأكل والمنام وشقاء البرد والحر كسائر البشر) ٩٣/١ ـ ٢، ١٠[2].

* **ثانياً:** إنكاره ﷺ دعوى بنوته: (ليكن ملعوناً كل من يدرج في أقوالي أني ابن الله) ٥٣/ ٣٥[3].

---

(١) إنجيل برنابا: (٢٩٧).

(٢) إنجيل برنابا: (١٥٤). وانظر أيضاً: (٤٧/٩ ـ ١١) (٩٩) ٥٩/١ ـ ٤ (٢٣٦).

(٣) إنجيل برنابا: (١٠٧). وانظر: ٧٠ (١٢٨، ٢١٢/ ٥ (٢٨٥).

* **ثالثاً**: إثباته العهد لإسماعيل عليه السلام وأنه الذبيح: (صدقوني لأني أقول لكم الحق: إن العهد صنع بإسماعيل لا بإسحاق) ٤٣/٣١[(١)].

(فكلم الله حينئذ إبراهيم قائلاً: خذ ابنك بكرك إسماعيل، واصعد الجبل لتقدمه ذبيحة فكيف يكون إسحاق البكر وهو لما وُلد كان إسماعيل ابن سبع سنين؟) ٤٤/١٠ ـ ١١[(٢)].

* **رابعاً**: بشارته ببعثة محمد ﷺ وأنه «مسيا» الذي ينتظره بنو إسرائيل: سأله كهنة الهيكل وغيرهم في مناسباتٍ عدة هل أنت مسيا؟ فمن أجوبته: (لست أحسب نفسي نظير الذي تقولون عنه: لأني لست أهلاً أن أحل رباطات جرموق أو سيور حذاء رسول الله الذي تسمونه مسيا، الذي خلق قبلي، وسيأتي بعدي، وسيأتي بكلام الحق، ولا يكون لدينه نهاية) ٤٢/١٤ ـ ١٥[(٣)].

(إن اسم مسيا عجيب، لأن الله نفسه سماه لما خلقَ نفسه... إن اسمه المبارك محمد) ٩٧/١٤، ١٧[(٤)].

* **خامساً**: تأكيده على العمل بشريعة الأنبياء: (أتظنون أني جئت لأجل الشريعة والأنبياء؟ الحق أقول لكم، لعمر الله أني لم آتِ لأبطلها ولكن لأحفظها... لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته لا يمكن أن يكون مرضياً لله من يخالف أقل وصاياه) ٣٨/٢ ـ ٣، ٥[(٥)].

---

(١) إنجيل برنابا: (٩٤).
(٢) إنجيل برنابا: (٩٥).
(٣) إنجيل برنابا: (٩٢). وفي نقل برنابا هاهنا ما يستنكر من الغلو، فلينتبه لذلك.
(٤) إنجيل برنابا: (١٦١ ـ ١٦٢). وانظر: (٣٩/١٤ ـ ٢٦) (٨٨، ٤١/٣٠) (٩١) (٤٤/١٩ ـ ٣١) (٩٦، ٨٢/٧ ـ ١٩) (١٤٢، ١٤٣، ٩٦) (١٥٩) وغيرها كثير.
(٥) إنجيل برنابا: (٨٦).

* **سادساً:** إثباته الدينونة لله سبحانه وتعالى، والشفاعة العظمى لنبيه محمد ﷺ: تضمنت الفصول: ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٥٦ شرحاً وافياً لأحوال يوم القيامة وأهواله ومحاسبة الله للخلائق، وفيه: (تعالوا للدينونة أيتها الخلائق لأن خالقك يريد أن يدينك) ١٨/٥٤، وشفاعة النبي ﷺ، وفيه: (ويكلم الله رسوله قائلاً: مرحباً بك يا عبدي الأمين، فاطلب ما تريد تنل كل شيء... وبعد أن يتكلم يعطي الله رسوله كتاباً مكتوباً فيه أسماء كل مختاري الله) ١٦/٥٥ ـ ١٧، ٣٧[١]. حتى لكأن القارئ يقرأ حديث الشفاعة.

* **سابعاً:** إثبات رفع المسيح إلى السماء، ونفي صلبه: (ولما دنت الجنود مع يهوذا من المحل الذي كان فيه يسوع... جاء الملائكة الأطهار وأخذوا يسوع من النافذة المشرفة على الجنوب. فحملوه ووضعوه في السماء الثالثة في صحبة الملائكة التي تسبح الله إلى الأبد) ١/٢١٥، ٥ ـ ٦[٢].

(ودخل يهوذا بعنف إلى الغرفة التي أصعد منها يسوع. وكان التلاميذ كلهم نياماً. فأتى الله العجيب بأمرٍ عجيب، فتغير يهوذا في النطق وفي الوجه، فصار شبهاً بيسوع) ١/٢١٦ ـ ٤[٣].

هكذا روى برنابا مشاهداته الأخيرة بوصفه «شاهد عيان». وتفيض الفصول التالية في وصف ما جرى ليهوذا الخائن من محاكمة وإهانة وصلب بنفس الترتيب الذي ترويه الأناجيل الأربعة منسوباً إلى المسيح. كما يصف برنابا الاضطراب الذي حصل في صفوف أتباعه من جراء

---

(١) إنجيل برنابا: (١٠٥ ـ ١١٢).

(٢) إنجيل برنابا: (٢٨٨). وانظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: (٢/ ٣٠٢ ـ ٣٠٤).

(٣) إنجيل برنابا: (٢٨٨).

ذلك، وكيف زاغ بعضهم، وثبَّت الله الراسخين في الإيمان بسياقٍ يتفق من حيث الجملة مع ما قرر القرآن.

يقول الدكتور خليل سعادة، مترجم كتاب برنابا، في مقدمته: (ولما شاع خبر إنجيل برنابا في فجر القرن الثامن عشر، أحدث دوياً عظيماً في أندية الدين والعلم، ولا سيما إنكلترة، فكثر بشأنه الجدل، واحتدمت بين العلماء مناقشات)(١).

لقد كان اكتشاف هذا الكتاب وشيوعه بارقة أمل وفرصة نادرة للمراجعة واتباع الهدى، وإيثاره على الهوى، سيما والكتاب يفوق ما يسمونها «الأناجيل الأربعة» سمواً في المعاني، وجزالة ووضوحاً في الأسلوب، وتمكناً في العلم بالكتب السابقة، وعلواً في الإسناد، حتى قال مترجمه: (إنك إذا أعملت النظر في هذا الإنجيل وجدت لكاتبه إلماماً عجيباً بأسفار العهد القديم لا تكاد تجد له مثيلاً بين طوائف النصارى إلا في أفرادٍ قليلين من الأخصائيين الذين جعلوا حياتهم وقفاً على الدين كالمفسرين، حتى إنه ليندر أن يكون بين هؤلاء أيضاً من له إلمامٌ بالتوراة يقرب من إلمام كاتب إنجيل برنابا)(٢).

فيا سبحان الله لِمَ لا يكون كاتب إنجيل برنابا هو برنابا نفسه؟ لقد نُكِس القوم على رؤوسهم، وآثروا رسوم آبائهم، وأصروا على ملة بولس.

وقد تشبث بعضهم بوجود تعليقات باللغة العربية على هوامش المخطوط، فحاولوا نسبة الكتاب إلى مؤلفٍ مسلم مجهول! وما أحسن ما أجاب به الشيخ محمد أبو زهرة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومن الغريب أن يُتخذ من

---

(١) مقدمة مترجم إنجيل برنابا: (٢٠).
(٢) المرجع السابق: (٢٤).

التعليقات العربية دلالة على أصله الإسلامي، ولا يتخذ من صلبه الإيطالي دليلاً على أصله المسيحي)[١].

ومن الثابت لدى مؤرخي النصرانية وجود جملة من الأناجيل والرسائل الرسولية، سوى ما تضمنه قانون العهد الجديد، وأن الكنيسة دأبت على اعتبارها «منحولة» و«مزورة» ومن ذلك «إنجيل برنابا»[٢]. ويذكرون أن البابا «جلاسيوس الأول» أصدر قراراً في أواخر القرن الخامس الميلادي يتضمن قائمةً بالكتب المحرّمة، المنهي عن مطالعتها، وفي عدادها كتاب اسمه: إنجيل برنابا[٣]. وذلك قبل بعثة النبي محمد ﷺ بأكثر من قرنٍ من الزمان. فكيف يتسنى أن يؤلفه مسلمٌ عربي؟! وأما وجود البشارة في النبي محمد ﷺ باسمه الصريح «محمد» فذاك دليلٌ على صدقه لا على تزويره، لموافقته ما في القرآن: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

وبعد:

فإن اليهود قد رغبوا عن ملة إبراهيم، ورسالة موسى ﵇، وهجروا التوراة، واتبعوا «عزرا»، وعظموا التلمود.

وإن النصارى قد رغبوا عن ملة إبراهيم ورسالة المسيح ﵇، وضيعوا الإنجيل، واتبعوا «بولس» واشتغلوا برسائله.

فخرجت هاتان الأمتان عن دين الإسلام الذي ابتعث الله به جميع رسله، إلى معتقداتٍ وأحوالٍ وأوضاع ليست على هدى الله ولا سنن المرسلين، تتراوح بين الغلو والتساهل، والإفراط والتفريط. فحينئذٍ (بعث الله محمداً ﷺ إلى الخلق على فترة من الرسل، وقد مقت أهل

(١) محاضرات في النصرانية: (٦٣).
(٢) انظر: تاريخ الكنيسة: (١٥١)، والقرآن والتوراة والإنجيل والعلم: (١٠٣).
(٣) مقدمة مترجم إنجيل برنابا: (٢٧).

الأرض: عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب ماتوا ـ أو أكثرهم ـ قبل مبعثه.

والناس إذ ذاك أحد رجلين: إما كتابي معتصمٌ بكتاب إما مبدل، وإما منسوخ، ودينٍ دارس بعضه مجهول، وبعضه متروك. وإما أمي من عربي وعجمي، مقبل على عبادة ما استحسنه، وظن أنه ينفعه: من نجمٍ أو وثنٍ أو قبرٍ أو تمثالٍ أو غير ذلك، والناس في جاهليةٍ جهلاء، من مقالاتٍ يظنونها علماً وهي جهل، وأعمالٍ يحسبونها صلاحاً وهي فساد. وغاية البارع منهم علماً وعملاً أن يحصل قليلاً من العلم الموروث عن الأنبياء المتقدمين، وقد اشتبه عليهم حقه بباطله. أو يشتغل بعملٍ القليل منه مشروع، وأكثره مبتدع لا يكاد يؤثر في صلاحه إلا قليلاً، أو أن يكدح بنظره كدح المتفلسفة، فتذوب مهجته في الأمور الطبيعية والرياضية وإصلاح الأخلاق، حتى يصل ـ إن وصل ـ بعد الجهد الذي لا يوصف إلى نزرٍ قليلٍ مضطرب، لا يروي ولا يشفي من العلم الإلهي، باطله أضعاف حقه ـ إن حصل ـ وأنى له ذلك مع كثرة الاختلاف بين أهله، والاضطراب وتعذر الأدلة عليه والأسباب. فهدى الله ببركة نبوة محمد ﷺ وبما جاء به من البينات والهدى، هداية جلَّت عن وصف الواصفين، وفاقت معرفة العارفين، حتى حصل لأمته المؤمنين عموماً، ولأولي العلم منهم خصوصاً، من العلم النافع، والعمل الصالح، والأخلاق العظيمة، والسنن المستقيمة، ما لو جمعت حكمة سائر الأمم، علماً وعملاً، الخالصة من كل شوب، إلى الحكمة التي بعث بها، لتفاوتا تفاوتاً يمنع معرفة قدر النسبة بينهما، فللَّه الحمد كما يحب ربنا ويرضى)[١].

وبهذا يعلم أن من يسعى للتقريب بين الإسلام وبين اليهودية والنصرانية يحاول الجمع بين النقيضين، والتوفيق بين المتضادين، وأنه لم يفقه حقيقة الدين الذي بعث الله به المرسلين.

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (١/ ٦٣ ـ ٦٤).

المبحث الثالث

حكم الإسلام في «أهل الكتاب»

أرسل الله تعالى نبيه محمداً ﷺ رحمة للعالمين، وحجةً على الناس أجمعين؛ كتابيِّهم ومشركهم، عربهم وعجمهم، في وقتٍ كانوا أشد ما يكونون حاجة إلى نبيٍ من عند الله يخرجهم من الظلمات إلى النور، ويذكرهم بأيام الله، ويهديهم إلى صراطٍ مستقيم. ذلك أنهم قد آل أمرهم إلى مأزقٍ لا يمكنهم الانفكاك من قبضته إلا ببينة من ربهم، قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢﴾ [البينة].

فجاء هذا «القرآن» الذي هو كلام الله بياناً شافياً، وحكماً فصلاً، وقضاءً عدلاً، فيما كانوا فيه يختلفون، سيما أهل الكتاب الذين اتخذوا دينهم شيعاً، وتفرقت بهم المذاهب والأهواء، ولم يقيموا التوراة والإنجيل. فلذلك خُصُّوا بالذكر في آياته، واستُهدفوا في مقاصده وغاياته. قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝٧٦ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٧٧ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝٧٨﴾ [النمل] فهو يرفع الخلاف، ويهدي ويرحم، ثم يقضي ويحكم.

وقال تعالى بعد ذكر الكتابين السابقين، التوراة والإنجيل: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ۚ﴾ [المائدة: ٤٨]. قال ابن كثير رحمه الله بعد أن ذكر الأقوال في معنى «مهيمناً

عليه»: (وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى، فإن اسم «المهيمن» يتضمن هذا كله، فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتابٍ قبله)(١).

فمن سبقت له من الله الحسنى، من أهل الكتاب، وقبل البشرى أُوتي أجره مرتين ونال الحُسنيين، وصار من جملة المسلمين، كما حكى الله ذلك عن بعضهم: ﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٥١ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ۝٥٣ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٥٤﴾ [القصص]. وقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٨٣ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٨٤ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٨٥﴾ [المائدة]. فليس عن هؤلاء «السعداء» نتكلم في هذا المبحث، فقد ارتفع عنهم وصف «أهل الكتاب»، وصاروا من «أهل الإسلام». وإنما الكلام على من أصر على دينه، وتشبث برسوم ملته، وأخذته العزة بالإثم، فلم يرفع بالإسلام رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي بعث به نبيه محمداً ﷺ.

وقد حكم الإسلام في أهل الكتاب حكمين:

أحدهما: حكم علمي: في بيان حقيقة ما هم عليه من الاعتقادات والأعمال، وتعيين مُسمَّاهم في باب أسماء الدين والإيمان، وبيان جزائهم في باب وعيد الله.

الثاني: حكم عملي: في وصف معاملتهم، وما يختصون به من أحكام دون سائر الناس.

---

(١) تفسير القرآن العظيم: (٣/١٢٨).

فالأول: ثابتٌ لا يتغير بتغير الزمان والمكان والحال. **والثاني:** أصله ثابت كذلك، لكن قد تتغير بعض أحكامه بتغير الأحوال، وفق ما تقتضيه السياسة الشرعية على نحو ما سنبين لاحقاً ـ إن شاء الله ـ.

أولاً: حكم الإسلام في أهل الكتاب من الناحية الاعتقادية:

توافرت نصوص الكتاب والسنة عل ذم عامّة أهل الكتاب، وحكاية مقالاتهم الفاسدة في مختلف أبواب الإيمان، وأعمالهم البدعية والشركية، وأخلاقهم الذميمة، مما سبق ذكر طرفٍ منه من صميم كتبهم التي يقدسونها، وتاريخهم الذي يسلِّمون به، في المبحث السابق. ونذكر هاهنا حكم الإسلام الفصل في حقيقة ما عليه أهل الكتاب من عقائد وأعمال حين أدركهم الإسلام، دون الاستطراد في ذكر معايبهم السابقة مع أنبيائهم على سبيل التفصيل مما قصه الله في سورة البقرة والنساء والأعراف وطه وغيرها، عن اليهود، وما قصه في سورة آل عمران والمائدة وغيرهما، عن النصارى.

١ ـ الحكم بنفي الإيمان عنهم:

* ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة: ٢٩].

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١].

* ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾[المائدة].

* ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٨١].

* ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة].

٢ ـ الحكم بكفرهم:

وردت النصوص بتكفير اليهود والنصارى صريحة واضحة لا تحتمل اللبس والتأويل مقرونةً بذكر سبب كفرهم. وقد تنوعت موارد كفرهم، فمن ذلك:

أ ـ القول بألوهية المسيح:

* ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧، ٧٢].

ب ـ القول بالتثليث:

* ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣].

جـ ـ القول بالبنوة:

* ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة].

د ـ الكفر بآيات الله:

* ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١، آل عمران: ١١٢].

* ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ﴾ [آل عمران: ٩٨].

* ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [النساء: ١٥٥].

هـ ـ عدم إقامة التوراة والإنجيل:

* ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [المائدة].

و ـ الكفر برسالة محمد ﷺ:

* ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة].

ز ـ كفرهم بإطلاق:

* ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ [النساء].

* ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة].

* ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾﴾ [البينة].

٣ ـ الحكم بشركهم وعبادتهم غير الله:

* ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة].

* ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾ [النساء].

* ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن

كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة].

* ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة].

٤ ـ الحكم بضلالهم:

* ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ [المائدة] ـ في النصارى ـ.

* ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾ [المائدة].

٥ ـ الحكم بفسقهم:

* ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المائدة].

* ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [المائدة].

* ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ [الصف].

* ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد].

* ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ [المائدة].

* ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الحديد].

٦ ـ الحكم عليهم باللعن والغضب:

* ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾ [المائدة].

* ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [البقرة].

* ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة ٦١، ٩٠، آل عمران: ١١٢].

* ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [النساء].

* ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [البقرة].

* ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ﴾ [المائدة: ١٣].

* ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ﴾ [المائدة: ٦٤].

* وقال ﷺ: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد». متفق عليه(١).

٧ ـ الحكم عليهم بالنار والخلود فيها:

* ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [المائدة].

* ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ

---

(١) صحيح البخاري: (١/ ١١٠)، صحيح مسلم: (١/ ٣٧٦).

عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾﴾ [البقرة].

* ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾﴾ [البينة].

* ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [المائدة].

* ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [البقرة].

* ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾﴾ [البقرة].

* ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾ [آل عمران].

* ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [البقرة].

* وقال ﷺ: «والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحدٌ من

هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار» رواه مسلم[1].

فهذا حكم الإسلام في أهل الكتاب من الناحية العلمية الاعتقادية:

فهم في باب أسماء الدين والإيمان: كفارٌ، غير مؤمنين، مشركون، ضلالٌ، فساق، ضلالاً وفسقاً مخرجين عن حد الإيمان، مغضوبٌ عليهم، ملعونون.

وهم في باب وعيد الله: خالدون مخلدون في النار.

فجملة ما أكفر الله به اليهود والنصارى:

١ ـ عدم إيمانهم بالله الإيمان الصحيح، بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته. فقد اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم، ونسبوا إليه الولد وألهوا المسيح، وجعلوا الله ثالث ثلاثة، ووصفوه بصفات العيب والنقص ومشابهة المخلوقين.

٢ ـ أذيتهم لأنبياء الله بالقتل والسب والتكذيب.

٣ ـ إنكارهم لنبوة محمدٍ ﷺ بعد قيام الحجة عليهم.

٤ ـ كفرهم بآيات الله، بتكذيبها وكتمانها وإخفائها وتحريفها تحريفاً لفظياً ومعنوياً والاختلاف فيها، وعدم إقامتها، والإعراض والتولي عنها.

٥ ـ كفرهم باليوم الآخر.

---

(١) صحيح مسلم: (١/ ١٣٤).

الحكم بنسخ شرائعهم بشريعة الإسلام:

فلما آل حال القوم إلى الكفر بالله وتكذيب رسله وتحريف كتبه، واستزلال الشيطان لهم في عباداتهم إلى الشرك والبدعة، وفي معاملتهم إلى الظلم والعدوان، حتى انطمس انتماؤهم إلى ملة إبراهيم، وتحللوا من عرى الدين، نسخ الله شرائعهم بشريعة الإسلام، وأبطل اليهودية والنصرانية، وأثبت الحنيفية المسلمة، فلا يقبل ديناً سوى الإسلام: وأدلة ذلك:

* ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩].

* ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران].

وصدر سورة آل عمران قد نزل في محاجة نصارى نجران الذين وفدوا على النبي ﷺ.

* ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨].

* ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [المائدة: ٤٩].

وذلك بعد ذكر أمره السابق لليهود بالحكم بالتوراة، وأمره للنصارى بالحكم بالإنجيل.

* وقال ﷺ: «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»[1].

---

(١) صحيح مسلم: (١/ ١٣٤).

* وقال أيضاً: «إن ذات الدين عند الله الحنيفية المسلمة، لا اليهودية ولا النصرانية»(١).

وإلى جانب هذا الحكم العقدي الفاصل كشف الله تعالى في كتابه لعباده المؤمنين من صفات السوء، التي طبعوا عليها، وصارت سمةً لعامتهم، وما يكفيهم للحذر منهم، وعدم الوقوع فيما وقعوا فيه، وأكثرها في اليهود، ومن ذلك:

١ ـ الحسد:

* ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [آل عمران].

٢ ـ النفاق والخيانة:

* ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ [المائدة: ٤١].

* ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: ٤٢].

* ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾ [آل عمران].

* ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟

---

(١) رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح (١٣/٢٠٤، ٢٦٤). ورواه أحمد بلفظ: (إن ذلك الدين القيم عند الله الحنيفية غير المشركة ولا اليهودية ولا النصرانية): المسند: (٥/١٣١). وقال محققوه: إسناده حسن. انظر: تكملة تحقيق المسند طبعة مؤسسة قرطبة الجزء الثاني من المجلد الخامس: (٧٢ ـ ٧٣).

أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [البقرة].

٣ ـ المكر والخديعة:

* ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ [آل عمران: ٧٢، ٧٣].

٤ ـ المعصية والعدوان وموالاة الكفار:

* ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ﴾ [المائدة: ٦٢].

* ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ﴾ [النساء: ١٦١]،

* ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [المائدة].

٥ ـ البخل والشح:

* ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة: ٦٤].

* ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ﴾ [آل عمران: ٧٥].

٦ ـ الجبن:

* ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [آل عمران: ١١١].

* ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ ﴿١٤﴾﴾ [الحشر].

٧ ـ قسوة القلوب:

* ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤].

* ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦].

* ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ⑬﴾ [المائدة].

٨ ـ العداوة والبغضاء:

* ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [المائدة: ٦٤] ـ في اليهود ـ.

* ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [المائدة: ١٤] ـ في النصارى ـ.

٩ ـ الذلة والمسكنة:

* ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ [البقرة: ٦١].

* ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ [آل عمران: ١١٢].

١٠ ـ السعي في الفساد:

* ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ [المائدة: ٦٤].

١١ ـ نقض العهود:

* ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ⑩⑩﴾ [البقرة].

* ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٥٥].

* ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ﴾ [المائدة: ١٣].

١٣ ـ الدعاوى العريضة الكاذبة:

* ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ﴾ [المائدة: ١٨]

* ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [البقرة: ١١١].

ثانياً: حكم الإسلام في معاملة أهل الكتاب:

بناءً على الحكم العقدي الواضح في كفر أهل الكتاب وفسقهم وضلالهم ورغبتهم عن ملة إبراهيم، واستنكافهم عن اتباع خاتم المرسلين ﷺ، جاءت أحكام الشريعة الإسلامية بمعاملتهم معاملةً تجمع بين التزام الحق ولزوم العدل؛ بين تمييز أهل الإيمان وإظهار شرفهم وعلوهم، لشرف الحق الذي يحملونه، ليظهره الله على الدين كله، وبين منع الظلم والاستطالة بغير حق على من يعيش في كنف المسلمين، ويستظل بولايتهم ملتزماً شرائطهم العادلة المنصفة.

وقد كان يعيش في أطراف الجزيرة العربية، وبعض نواحيها قبائل من أهل الكتاب كنصارى تغلب، ونصارى نجران، ويهود خيبر وفدك بعد إجلاء اليهود من المدينة إبان العهد النبوي، ولما فتح الخلفاء الراشدون الأمصار كان عامة أهل العراق والشام ومصر من أهل الكتاب. فما ضاقت بهم شريعة الله، ولم يحتر المسلمون في معاملتهم، ولم يحتاجوا إلى ما عرف في التاريخ القديم والحديث بعمليات التطهير العرقي والديني. وفي ذات الوقت لم يتخل أهل الإسلام عن خصائص دينهم، أو يتأثروا بجمهورهم الكثيف في بداية حركة الفتح الإسلامي. بل لزموا موازنةً دقيقة منصفةً عادلة مستمدة من

كتاب الله، وسنة نبيه ﷺ، لقَّحت عقول المجتهدين من أئمة الفقه وولاة المسلمين، حتى تكون ما عرف بـ«أحكام أهل الذمة».

ونثبت فيما يلي طائفتين من الأحكام المتعلقة بمعاملة أهل الكتاب:

الطائفة الأولى: في الأحكام المقصودة لحفظ الدين، وتميز المسلمين.

والطائفة الثانية: في الأحكام المقصودة لحفظ الحق وقيام العدل والإحسان.

ثم نتبعه ببيان الفارق الدقيق بين هذين المقصودين، وميزان العدل بين هاتين الكفتين الذي خفي على كثيرٍ من الناس فوقع بعضهم في الإفراط وبعضهم في التفريط.

أ ـ الأحكام المتعلقة بحفظ الدين وتميز المسلمين:

١ ـ كون الدين كله لله بإسلامهم أو إعطائهم الجزية أو قتالهم:

* ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البقرة].

* ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنفال].

* ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة].

* عن بريدة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمَّر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيراً. ثم قال: «اغزوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله.

اغزوا ولا تَغُلُّوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً. وإذا لقيت عدوك من المشركين، فادعهم إلى ثلاث خصال (أو خلال)، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم. ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك، فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم...»[١] الحديث.

* وعند معاذ بن جبل[٢] ﷺ قال: بعثني النبي ﷺ إلى اليمن فأمرني أن آخذ من كل ثلاثين بقرة تبيعاً أو تبيعة، ومن كل أربعين مسنة، ومن كل حالم ديناراً أو عدله مَعَافِر[٣].

وعلى ذلك درج الخلفاء الراشدون أثناء الفتوحات الإسلامية لبلاد الشام والعراق ومصر. فصار قوادهم يبرمون العهود والاتفاقيات الملزمة لأهل الكتاب الباقين على دينهم، بدفع الجزية للمسلمين مع إقرارهم على أموالهم وعقارهم ومعابدهم، واعتبارهم «أهل ذمة». قال ابن

---

(١) رواه مسلم: (٣/ ١٣٥٧).

(٢) معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري، الخزرجي، أبو عبد الرحمن، من أعيان الصحابة. شهد بدراً وما بعدها. وكان إليه المنتهى في العلم بالأحكام والقرآن. مات بالشام سنة ثمان عشرة. تقريب التهذيب (٢/ ٢٥٥).

(٣) رواه الترمذي: (٣/ ١١٥)، والنسائي: (٣/ ٢٦)، وأبو داود: (٢/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥) وقال عن المعافر: (ثياب تكون في اليمن). وقال ابن حجر: (وصححه ابن حبان والحاكم) بلوغ المرام من أدلة الأحكام: ابن حجر، أحمد بن علي، العسقلاني. تحقيق: محمد حامد الفقي. دار الكتب العلمية. بيروت (٢٧٥).

القيم رَحِمَهُ الله: (فالجزية هي الخراج المضروب على رؤوس الكفار إذلالاً وصغاراً.. واختلف الناس في تفسير «الصَّغار» الذي يكونون عليه وقت أداء الجزية. فقال عكرمة(١): أن يدفعها وهو قائم، ويكون الآخذ جالساً. وقالت طائفة: أن يأتي بها بنفسه ماشياً لا راكباً، ويطال وقوفه عند إتيانه بها، ويجر إلى الموضع الذي تؤخذ منه بالعنف، ثم تجريده ويمتهن.

وهذا كله مما لا دليل عليه. ولا هو مقتضى الآية، ولا نقل عن رسول الله ﷺ ولا عن الصحابة أنهم فعلوا ذلك. والصواب في الآية أن الصغار هو التزامهم بجريان أحكام الملة عليهم، وإعطاء الجزية، فإن التزامهم ذلك هو الصغار)(٢).

هذا هو المقصود الأعظم، والهدف الأساسي من فرض الجزية كما نطقت بذلك النصوص. فهي مظهر جلي لكون الدين كله لله، واستسلام العباد لأمره، وكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.

وقد تقترن بهذا الهدف مقاصد أخرى من مقتضى عقد الذمة، وهي الحماية والمنعة المكفولة من قبل الدولة الإسلامية لأهل ذمتها، ومن أجل ذلك رد أبو عبيدة(٣)، عامر بن الجراح رضي الله عنه ما أخذه من

---

(١) عكرمة: مولى ابن عباس، وثقه جماعة، واعتمده البخاري. أما مسلم فلم يخرج له إلا قليلاً مقروناً بغيره، قال الشعبي: ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة. توفي سنة ١٠٥هـ. ميزان الاعتدال (٤/ ١٣).

(٢) «أحكام أهل الذمة» ابن القيم، شمس الدين، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر. تحقيق: د. صبحي الصالح. دار العلم للملايين. بيروت. الطبعة الرابعة ١٩٩٤م. (١/ ٢٢ ـ ٢٤). (١/ ٢٢ ـ ٢٤).

(٣) عامر بن عبد الله بن الجراح، القرشي، الفهري، أبو عبيدة أحد العشرة، أسلم قديماً، وشهد بدراً. مات شهيداً بطاعون عمواس سنة ثماني عشرة، وله ثمان وخمسون سنة. تقريب التهذيب (١/ ٣٨٨).

الجزية على أهل الشام لما بلغه اجتماع جحافل الروم لحرب المسلمين، فخشي ألا يفي بما وعدهم من الحماية: (فكتب أبو عبيدة إلى كل والٍ ممن خلَّفه في المدن التي صالح أهلها يأمرهم أن يردوا عليهم ما جبي منهم من الجزية والخراج)[١]: قال الماوردي[٢] رحمه الله: (يجب على ولي الأمر أن يضع الجزية على رقاب من دخل في الذمة من أهل الكتاب لِيُقَرُّوا بها في دار الإسلام، ويلتزم لهم ببذلها حقان:

أحدهما: الكف عنهم، **والثاني:** الحماية لهم، ليكونوا بالكف آمنين، وبالحماية محروسين)[٣].

ويجنح كثير من الكتاب المسلمين المعاصرين إلى «الاعتذار» عن الإسلام! لفرضه الجزية على أهل الكتاب، بألوان متكلفة من التوجيهات والاستنباطات، وربما صح بعضها تبعاً، لا استقلالاً، في حين يغضون الطرف عن الحكمة الأصيلة في هذا التشريع، وهي إذلال الكفار وإظهار صغارهم[٤]. ولا ريب أن هذا المنحى إنما هو نتيجة للهزيمة

---

(١) كتاب الخراج: أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم. المطبعة السلفية ـ القاهرة. الطبعة الخامسة ١٣٩٦هـ. (١٥٠).

(٢) الماوردي (٣٦٤ ـ ٤٥٠هـ) علي بن محمد بن حبيب، أبو الحسن، الماوردي. أقضى قضاة عصره. من العلماء الباحثين أصحاب التصانيف الكثيرة النافعة. ولد في البصرة وانتقل إلى بغداد، وولي القضاء في بلدانٍ كثيرة. ثم جعل «أقضى القضاة» في أيام القائم بأمر الله العباسي. توفي في بغداد. من كتبه: أدب الدنيا والدين، والنكت والعيون، والأحكام السلطانية. وغيرها. انظر: الأعلام (٤/ ٣٢٧).

(٣) الأحكام السلطانية والولايات الدينية: الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي. تخريج وتعليق: خالد عبد اللطيف السبع العلمي. دار الكتاب. بيروت. (٢٥٤).

(٤) انظر على سبيل المثال: غير المسلمين في المجتمع الإسلامي د. يوسف القرضاوي. مؤسسة الرسالة ـ بيروت. الطبعة السادسة (١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م). (٣٤ ـ ٣٦).

النفسية والحضارية التي يعيشها المسلمون في هذا الزمان. ويقابل هذا الانكسار المعاصر تساؤلٌ يَرِد في قلوب المسلمين الأولين: هل في إبقاء أهل الكتاب بين ظهراني المسلمين بالجزية، ما ينافي كون كلمة الله هي العليا، وكون الدين لله؟ ويجيب ابن القيم كَلَلهُ قائلاً: (ليس في إبقائهم بالجزية ما يناقض هذا المعنى، كما أن إبقاء أهل الكتاب بالجزية بين ظهور المسلمين لا ينافي كون كلمة الله هي العليا، وكون الدين كله لله. فإن من كون الدين كله لله إذلال الكفر وأهله وصغاره، وضرب الجزية على رؤوس أهله، والرق على رقابهم، فهذا من دين الله، ولا يناقض هذا إلا ترك الكفار على عزهم، وإقامة دينهم كما يحبون، بحيث تكون لهم الشوكة والكلمة. والله أعلم)[١].

ويلتحق بهذا الأصل العظيم؛ كون الدين كله لله، وكون كلمة الله هي العليا، خضوع أهل الذمة لأحكام الشرع العام في الدماء والأموال والأعراض، وعدم مضايقة المسلمين بالاستعلان بشعائرهم الظاهرة. وما سوى ذلك من الأمور التعبدية والشخصية والاجتماعية فيما بينهم فهم أحرار، إلا أن يحتكموا إلينا.

وقد ألحق ابن القيم كَلَلهُ ذكر الشروط العمرية وأحكامها وموجباتها وشرحها في آخر كتاب «أحكام أهل الذمة» وأشاد بها، وقوى من شأنها فقال: (وشهرة هذه الشروط تغني عن إسنادها، فإن الأئمة تلقوها بالقبول وذكروها في كتبهم واحتجوا بها، ولم يزل ذكر الشروط العمرية على ألسنتهم، وفي كتبهم، وقد أنفذها بعده الخلفاء وعملوا بموجبها)[٢]. وسياق هذه الشروط يعطي المتفقه حدود المعالم الرئيسية لمعاملة أهل الكتاب، ودينونتهم لحكم الإسلام. وقد رواها

---

(١) أحكام أهل الذمة: (١/ ١٨).
(٢) أحكام أهل الذمة: (٢/ ٦٦٣ ـ ٦٦٤).

عبد الله ابن الإمام أحمد[1] بسنده أن أهل الجزيرة كتبوا إلى عبد الرحمٰن بن غنم[2]: (إنا حين قدمت بلادنا طلبنا إليك الأمان لأنفسنا وأهل ملتنا، على أنَّا شرطنا لك على أنفسنا ألا نحدث في مدينتنا كنيسة، ولا في ما حولها ديراً ولا قلاية[3] ولا صومعة راهب، ولا نجدد ما خرب من كنائسنا، ولا ما كان منها في خطط المسلمين، وأن لا نمنع كنائسنا من المسلمين أن ينزلوها في الليل والنهار، وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل، ولا نؤوي فيها ولا في منازلنا جاسوساً، ولا نكتم غشاً للمسلمين، وألا نضرب بنواقيسنا إلا ضرباً خفياً في جوف كنائسنا فيما يحضره المسلمون، وألا نخرج صليباً ولا كتاباً في سوق المسلمين، وألا نخرج باعوثاً ـ قال: والباعوث يجتمعون كما يخرج المسلمون يوم الأضحى والفطر ـ ولا شعانين[4]، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا، ولا نظهر النيران معهم في أسواق المسلمين، وألا نجاورهم بالخنازير ولا ببيع الخمور، ولا نظهر شركاً، ولا نرغِّب في ديننا، ولا ندعو إليه أحداً، ولا نتخذ شيئاً من الرقيق الذي جرت عليه سهام المسلمين، وألا نمنع أحداً من أقربائنا أرادوا

---

(١) عبد الله بن أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني البغدادي، أبو عبد الرحمن، ولد سنة ٢١٣هـ، من حفاظ الحديث المتقنين، وهو راوي المسند عن أبيه، وله زوائد المسند، وله أيضاً زوائد الزهد على كتاب الزهد لأبيه وله مسائل عن أبيه. ومن كتبه أيضاً «السنة» توفي سنة ٢٩٠هـ. الأعلام (٤/ ٦٥)، تهذيب التهذيب (٥/ ١٤١)، الطبقات لأبي يعلى (١/ ١٨٠)، التيمورية (٢٣٦٢)، الرسالة المستطرفة (١٦).

(٢) عبد الرحمن بن غَنْم الأشعري. مختلف في صحبته وذكره العجلي في كبار ثقات التابعين. مات سنة ثمان وسبعين. تقريب التهذيب (١/ ٤٩٤).

(٣) القِلَّاية: مسكن الأسقف «يونانية» المنجد في اللغة (٦٥٢).

(٤) الشعانين: عيد الأحد الذي قبيل الفصح «عبرانية» مأخوذ من: «هوشيعه نا» أي خلصنا. المنجد في اللغة (٣٣٦).

الدخول في الإسلام، وأن نلزم زيَّنا حيث كنا، وألا نتشبه بالمسلمين في لبس قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر، ولا في مراكبهم، ولا نتكلم بكلامهم، ولا نكتني بكناهم، وأن نجز مقادم رؤوسنا، ولا نفرق نواصينا، ونشد الزنانير[١] على أوساطنا، ولا ننقش خواتمنا بالعربية، ولا نركب السروج ولا نتخذ شيئاً من السلاح ولا نحمله، ولا نتقلد السيوف، وأن نوقر المسلمين في مجالسهم، ونرشدهم الطريق، ونقوم لهم عن المجالس إن أرادوا الجلوس، ولا نطلع عليهم في منازلهم، ولا نعلم أولادنا القرآن، ولا يشارك أحدٌ منا مسلماً في تجارة إلا أن يكون إلى المسلم أمر التجارة، وأن نضيف كل مسلم عابر سبيل ثلاثة أيام، ونطعمه من أوسط ما نجد. ضمنا لك ذلك على أنفسنا وذرارينا وأزواجنا ومساكيننا، وإن نحن غيرنا أو خالفنا عما شرطنا على أنفسنا، وقبلنا الأمان عليه فلا ذمة لنا، وقد حل لك منا ما يحل لأهل المعاندة والشقاق.

فكتب بذلك عبد الرحمٰن بن غنم إلى عمر بن الخطاب ﵁، فكتب إليه عمر: (أن امض لهم ما سألوا، وألحق فيهم حرفين، اشترطهما عليهم مع ما شرطوا على أنفسهم: ألا يشتروا من سبايانا. ومن ضرب مسلماً فقد خلع عهده) فأنفذ عبد الرحمٰن بن غنم ذلك، وأقر من أقام من الروم في مدائن الشام على هذا الشرط[٢].

ورغم ما قيل في شأن هذه الشروط من ناحية الثبوت، أو من الناحية الموضوعية فقد ظلت المرجع الأساسي لفقهاء الأمة[٣].

---

(١) الزنانير: جمع زُنَّار وزُنَّارة: ما يشد على الوسط «يونانية». المنجد في اللغة (٣٠٨).

(٢) عن أحكام أهل الذمة: (٢/ ٦٥٧ ـ ٦٦١).

(٣) ذكر ابن حزم هذه الشروط في مراتب الإجماع: ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد. دار الكتب العلمية. بيروت. (١١٥). ورواها بسنده عن=

يقول الماوردي: (ويشترط عليهم في عقد الجزية شرطان، مستحق ومستحب:

أما المستحق فستة شروط:

أحدها: ألا يذكروا كتاب الله تعالى بطعن فيه ولا تحريف له.

والثاني: ألا يذكروا رسول الله ﷺ بتكذيب له ولا ازدراء.

والثالث: ألا يذكروا دين الإسلام بذم له ولا قدح فيه.

والرابع: ألا يصيبوا مسلمة بزنا لا باسم نكاح[١].

والخامس: ألا يفتنوا مسلماً عن دينه، ولا يتعرضوا لماله ولا دينه.

والسادس: ألا يعينوا أهل الحرب، ولا يودوا أغنياءهم[٢].

فهذه الستة حقوق ملتزمة، فتلزمهم بغير شرط، وإنما تشترط إشعاراً لهم وتأكيداً لغليظ العهد عليهم، ويكون ارتكابها بعد الشرط نقضاً لعهدهم.

وأما المستحب فستة أشياء:

أحدها: تغيير هيئاتهم بلبس الغيار، وشد الزنار.

= عبد الرحمن بن غنم، في المحلى: (٧/٣٤٦ ـ ٣٤٧). والبيهقي في السنن الكبرى (٩/٢٠٢). وذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية في «اقتضاء الصراط المستقيم». وقال بعدها: «رواه حرب بإسنادٍ جيد) ثم قال: (وهذه الشروط أشهر شيءٍ في كتب الفقه والعلم. وهي مجمع عليها في الجملة بين العلماء من الأئمة المتبوعين، وأصحابهم وسائر الأئمة) (١/٣٢٦ ـ ٣٢٧).

(١) في العبارة خفاء. ولعلها: (ولا باسم نكاح) أو (ولو باسم نكاح).

(٢) في العبارة خفاء. ولعلها: (ولا يؤووا عيونهم)، فقد جاء في ما يلزم الذّمي عند أبي يعلىٰ: (ولا يؤوي للمشركين عيناً، أعني جاسوساً). الأحكام السلطانية ١٥٨، فربما جرىٰ تصحيف من النساخ.

والثاني: ألا يعلوا على المسلمين في الأبنية، ويكونوا إن لم ينتصوا مساوين لهم.

والثالث: أن لا يسمعوهم أصوات نواقيسهم، ولا تلاوة كتبهم، ولا قولهم في عزير والمسيح.

والرابع: ألا يجاهروهم بشرب خمورهم، ولا بإظهار صلبانهم وخنازيرهم.

والخامس: أن يخفوا دفن موتاهم، ولا يجاهروا بندبٍ عليهم ولا نياحة.

والسادس: أن يمنعوا من ركوب الخيل عتاقاً وهجاناً، ولا يمنعوا من ركوب البغال والحمير.

وهذه الستة المستحبة لا تلزم بعقد الذمة حتى تشترط فتصير بالشرط ملتزمة، ولا يكون ارتكابها بعد الشرط نقضاً لعهدهم، لكن يؤاخذون بها إجباراً ويؤدبون عليه زجراً، ولا يؤدبون إن لم يشترط ذلك عليهم)[(١)].

والناظر في هذه الشروط من خلال الأصول العامة للشريعة، والنصوص الواضحة بإلزام أهل الذمة الذلة والصغار، وأن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه يدرك أنها ذات أصل عُمَري راشدي مستضيء بنور الكتاب والسنة. أما ما غص به بعض الكتاب المحدثين واستثقلوه منها، أو اجتهدوا في توجيهها توجيهاً لا يتفق ومقاصد الشرع فإنما جاء نتيجة لضغط الواقع المرير والضعف البالغ الذي مني به المسلمون في هذه الأزمنة، والله المستعان.

---

(١) الأحكام السلطانية: (٢٥٨ ـ ٢٦٠)، وانظر أيضاً: الأحكام السلطانية لأبي يعلى الفراء: (١٥٨).

٢ ـ عدم موالاتهم أو ائتمانهم واتخاذهم بطانة من دون المؤمنين:

* قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [آل عمران].

* ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [آل عمران].

* ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [المائدة].

* ﴿۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة].

* ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة].

* فنُهي المؤمنون عن موالاة الكفار عموماً، وأهل الكتاب خصوصاً، ومعنى الموالاة في اللغة القرب والنصر والحلف. قال الجوهري[(١)] في مادة «ولي»: (الولْي: القرب والدنو. يقال: تباعد بعد

---

(١) إسماعيل بن حماد الجوهري، أبو نصر، لغوي، من الأئمة، ومن أشهر مؤلفاته: الصَّحاح، وله كتاب في العروض، ومقدمة في النحو. مات سنة ٣٩٣هـ. =

ولْي.. والوَلِيُّ: ضد العدو. يقال منه: تولاه.. والموالاة ضد المعاداة والوَلاية والوِلاية: النصرة. يقال هم عليَّ ولَاية: أي مجتمعون في النصرة)[١]. وقال ابن جرير رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة]، بعد أن ذكر أقوالاً في سبب نزولها: (والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله تعالى ذكره نهى المؤمنين جميعاً أن يتخذوا اليهود والنصارى أنصاراً وحلفاء على أهل الإيمان بالله ورسوله، وأخبر أنه من اتخذهم نصيراً وحليفاً وولياً من دون الله ورسوله والمؤمنين فإنه منهم في التحزب على الله وعلى رسوله والمؤمنين، وأن الله ورسوله منه بريئان)[٢].

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [آل عمران] (يعني بذلك تعالى ذكره: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله وأقروا بما جاءهم به نبيهم من عند ربهم: ﴿لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾، يقول: لا تتخذوا أولياء وأصدقاء لأنفسكم من دونكم، يقول: من دون أهل دينكم وملتكم، يعني من غير المؤمنين، وإنما جعل البطانة مثلاً لخليل الرجل فشبهه بما ولي بطنه من ثيابه لحلوله منه في اطلاعه على أسراره وما يطويه عن أباعده، وكثير من أقاربه، محل ما ولي جسده من ثيابه)[٣]، ثم بين أن المعنيين بذلك هم أهل الكتاب من يهود بني

= الأعلام (١/٣١٣)، معجم الأدباء (٢/٢٦٩)، النجوم الزاهرة (٤/٢٠٧)، لسان الميزان، (١/ ٤٠٠)، إنباه الرواة (١/ ١٩٤)، يتيمة الدهر (٤/ ٢٨٩).

(١) الصحاح: (٦/ ٢٥٢٨).

(٢) جامع البيان: (٦/ ٢٧٦).

(٣) جامع البيان: (٤/ ٦٠).

إسرائيل وليس المنافقين أو المشركين[١].

وهكذا فهم الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ الذي شهد عهده فتوح الأمصار وانضواء أهل الكتاب تحت عقد الذمة، فكان شديد الحرص والحيطة على عدم موالاتهم واتخاذهم بطانة من دون المؤمنين، وزجر عماله ونوابه على استعمالهم على مصالح المسلمين الخاصة. ومن أمثلة ذلك ما رواه ابن أبي حاتم[٢] بسنده قال: (قيل لعمر بن الخطاب: إن هاهنا غلاماً من أهل الحيرة حافظاً كاتباً فلو اتخذته كاتباً. قال: قد اتخذت إذاً بطانة من دون المؤمنين)[٣]، وعقب ابن كثير رحمه الله قائلاً: (ففي هذا الأثر مع هذه الآية دليل على أن أهل الذمة لا يجوز استعمالهم في الكتابة التي فيها استطالة على المسلمين واطلاع على دواخل أمورهم التي يخشى أن يغشوها إلى الأعداء من أهل الحرب)[٤]. وقد أفاض ابن القيم رحمه الله في سرد مواقف بعض الخلفاء من أهل الذمة، حين رأوا منهم نفوذاً واستطالةً على المسلمين في دولة بني أمية وبني العباس وانتهاءً بدولة بني أيوب[٥]. ونختار منها قطعةً نسخها رحمه الله من كتابٍ للخليفة العباسي المتوكل[٦] إلى عماله،

(١) جامع البيان: (٤/ ٦٣ ـ ٦٤).

(٢) عبد الرحمن بن محمد، أبي حاتم، ابن إدريس بن المنذر التيمي الحنظلي، الرازي، أبو محمد ولد سنة ٢٤٠هـ، حافظ للحديث، من كبارهم. له تصانيف منها: الجرح والتعديل، والتفسير، والرد على الجهمية. وغيرها توفي سنة ٣٢٧هـ. الأعلام (٣/ ٣٢٤).

(٣) تفسير ابن أبي حاتم: (٢/ ٥٠٠) وصحح المحقق إسناده.

(٤) تفسير القرآن العظيم: (١/ ٣٩٨).

(٥) انظر: أحكام أهل الذمة: (٢٠٨ ـ ٢٤٤).

(٦) جعفر (المتوكل على الله) بن محمد (المعتصم بالله) بن هارون (الرشيد)، أبو الفضل خليفة عباسي، ولد ببغداد وبويع بعد وفاة أخيه الواثق سنة (٢٣٢هـ)، ولما استخلفه كتب إلى أهل بغداد كتاباً بترك الجدل في القرآن، وأن الذمة=

يقول فيه بعد مقدمة زاخرة بالآيات القرآنية في تحريم موالاة أهل الكتاب وائتمانهم: (... وقد انتهى إلى أمير المؤمنين أن أناساً لا رأي لهم ولا روية يستعينون بأهل الذمة في أفعالهم، ويتخذونهم بطانة من دون المسلمين، ويسلطونهم على الرعية فيعسفونهم، ويبسطون أيديهم إلى ظلمهم وغشهم، والعدوان عليهم، فأعظَمَ أمير المؤمنين ذلك وأنكره وأكبره، وتبرأ إلى الله منه، وأحب التقرب إلى الله تعالى بحسمه والنهي عنه، ورأى أن يكتب إلى عماله على الكُوَر والأمصار، وولاة الثغور والأجناد في ترك استعمالهم للذمة في شيء من أعمالهم وأمورهم، والإشراك لهم في أماناتهم وما قلدهم أمير المؤمنين واستحفظهم إياه، وجعل في المؤمنين الثقة في الدين والأمانة على إخوانهم المؤمنين، وحسن الرعاية لما استرعاهم، والكفاية لما استكفوا، والقيام بما حملوا، ما أغنى عن الاستعانة بالمشركين بالله، المكذبين برسله، الجاحدين لآياته الجاعلين معه إلهاً آخر، لا إله إلا هو وحده لا شريك له، ورجاء أمير المؤمنين بما ألهمه الله من ذلك، وقذف في قلبه، جزيل الثواب، وكريم المآب، والله يعين أمير المؤمنين على نيته في تعزيز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وحزبه، فليعلم هذا من رَأي أمير المؤمنين، ولا يستعان بأحد من المشركين، وإنزال أهل الذمة منازلهم التي أنزلهم الله تعالى بها. فاقرأ كتاب أمير المؤمنين على أهل أعمالك وأشعه فيهم، ولا يعلمن أمير المؤمنين أنك استعنت ولا أحدٍ من عمالك وأعوانك بأحدٍ من أهل الذمة في عمل. والسلام)(١).

ثم خلص ابن القيم رحمه الله إلى القول: (ولما كانت التولية شقيقة الولاية كانت توليتهم نوعاً من توليهم، وقد حكم تعالى بأن من تولاهم

= بريئة ممن يقول بخلقه أو غير خلقه. توفي سنة (٢٤٧هـ). الأعلام (٢/ ١٢٧)، تاريخ بغداد (٧/ ١٦٥)، تاريخ الطبري (١١/ ٢٦ ـ ٦٢).

(١) أحكام أهل الذمة: (١/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤).

فإنه منهم، ولا يتم الإيمان إلا بالبراءة منهم، والولاية تنافي البراءة، فلا تجتمع البراءة والولاية أبداً، والولاية إعزاز فلا تجتمع هي وإذلال الكفر أبداً، والولاية صلة، فلا تجامع معاداة الكافر أبداً)(١).

٣ ـ تحريم محبتهم وموادتهم ومؤاخاتهم:

■ قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة]، وأي محادَّة لله تعالى أعظم من الشرك به ووصفه بالنقائص والعيوب، تعالى عما يقولون علواً عظيماً! وأي محادَّة لرسوله ﷺ أعظم من تكذيبه وإنكار نبوته، ورد الحق الذي جاء به!.

■ وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لأبي ذر(٢): (أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله، والمعاداة في الله، والحب في الله، والبغض في الله)(٣).

والنصوص في هذا المعنى كثيرة. ومن عجبٍ أن تنزلق ألسنة

---

(١) أحكام أهل الذمة: (١/ ٢٤٢).

(٢) أبو ذر: جندب بن جناده بن سفيان، من بني غفار، من كبار الصحابة، أسلم قديماً قبل الهجرة وله فضائل ومناقب جمّة، توفي بالربذة سنة ٣٢هـ.
الأعلام (٢/ ١٤٠)، طبقات ابن سعد (٤/ ١٦١)، الإصابة (٧/ ٦٠)، صفة الصفوة (١/ ٢٣٨)، حلية الأولياء (١/ ١٥٦)، الذريعة (١/ ٣١٦)، الكنى والأسماء (١/ ٢٨).

(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير: (٣/ ١٢٥)، والبغوي في شرح السنة: (٣/ ٤٢٩). وقال الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة: (الحديث بمجموع طرقه يرتقي إلى درجة الحسن على الأقل) (٤/ ٣٠٧، ٢/ ٧٣٥).

بعض رقاق الدين المتعالمين فيطلقون وصف «الأخوة» على أهل الكتاب، فيرفع أحدهم عقيرته في المنتديات العامة، وفوق المنابر العالية قائلاً: إخواننا النصارى!! كيف وقد قال الله: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ [التوبة]، وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

٤ ـ تحريم التشبه بهم:

* قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء].

* وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من تشبه بقوم فهو منهم»(١). وهذا التشبه المنهي عنه، المذموم شرعاً، يشمل مماثلة أهل الكتاب ومضاهاتهم، ومجاراتهم في عقائدهم وعباداتهم وسلوكهم وعاداتهم التي يختصون بها، لما يوجب ذلك التشبه ـ ولو كان ظاهرياً ـ من الميل الباطني. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (... إن الصراط المستقيم هو أمور باطنة في القلب من اعتقادات وإرادات وغير ذلك. وأمور ظاهرة: من أقوالٍ وأفعال قد تكون عبادات، وقد تكون أيضاً عادات في الطعام واللباس والنكاح والمسكن، والاجتماع والافتراق والسفر والإقامة والركوب وغير ذلك.

وهذه الأمور الباطنة والظاهرة بينهما ارتباط ومناسبة، فإن ما يقوم

---

(١) رواه أحمد في المسند: (١/ ٥٠)، وأبو داود (٤/ ٣١٤)، وجوّد سنده ابن تيمية، وحسَّنه ابن حجر. انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٢٤٠)، والفتاوى (٢٥/ ٣٣١) وفتح الباري (٦/ ٩٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير من حديث البشير النذير: السيوطي، جلال الدين، عبد الرحمن بن أبي بكر. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. مكتبة الحلبوني. دمشق. برقم (٦٠٢٥).

بالقلب من الشعور والحال يوجب أموراً ظاهرة، وما يقوم بالظاهر من سائر الأعمال يوجب للقلب شعوراً وأحوالاً.

وقد بعث الله محمداً ﷺ بالحكمة التي هي سنته، وهي الشرعة والمنهاج الذي شرعه له فكان من هذه الحكمة أن شرع له من الأعمال والأقوال ما يباين سبيل المغضوب عليهم، والضالين، فأمر بمخالفتهم في الهدي الظاهر، وإن لم يظهر لكثير من الخلق في ذلك مفسدة، لأمور:

منها: أن المشاركة في الهدي الظاهر تورث تناسباً وتشاكلاً بين المتشابهين يقود إلى موافقة ما في الأخلاق والأعمال. وهذا أمر محسوس، فإن اللابس ثياب أهل العلم يجد من نفسه نوع انضمام إليهم، واللابس لثياب الجند المقاتلة مثلاً يجد من نفسه نوع تخلق بأخلاقهم، ويصير طبعه مقتضياً لذلك إلا أن يمنعه مانع.

ومنها: أن المخالفة في الهدي الظاهر توجب مباينة ومفارقة توجب الانقطاع عن أسباب الغضب، وأسباب الضلال، والانعطاف على أهل الهدى والرضوان، وتحقق ما قطع الله من الموالاة بين جنده المفلحين، وأعدائه الخاسرين. وكلما كان القلب أتم حياء وأعرف بالإسلام ـ الذي هو الإسلام ـ لست أعني مجرد التوسم ظاهراً أو باطناً بمجرد الاعتقادات من حيث الجملة، كان إحساسه بمفارقة اليهود والنصارى باطناً وظاهراً أتم، وبعده عن أخلاقهم الموجودة في بعض المسلمين أشد.

ومنها: أن مشاركتهم في الهدي الظاهر توجب الاختلاط الظاهر، حتى يرتفع التمييز ظاهراً بين المهديين المرضيين، وبين المغضوب عليهم والضالين إلى غير ذلك من الأسباب الحكمية.

هذا إذا لم يكن ذلك الهدي الظاهر إلا مباحاً محضاً لو تجرد عن

مشابهتهم، فأما إن كان من موجبات كفرهم، كان شعبة من شعب الكفر، فموافقتهم فيه موافقة في نوع من أنواع معاصيهم، فهذا أصل ينبغي أن يتفطن له)[١].

وقد أسس شيخ الإسلام رحمه الله كتابه العظيم ـ اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم ـ على هذا الأصل الكبير، وساق جملة كبيرة من النصوص الدالة على منع التشبه بالقوم ظاهراً وباطناً.

٤ ـ الحذر من كتبهم ومروياتهم:

تقدم ذكر الآيات الدالة على تحريفهم للكلم من بعد مواضعه، وكتابتهم الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله.

* وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب عن شيءٍ، وكتابكم الذي أنزل الله على نبيكم ﷺ أحدث الأخبار بالله، محضاً لم يُشَب، قد حدثكم الله أن أهل الكتاب قد بدلوا من كتب الله وغيروا، فكتبوا بأيديهم، قالوا: هو من عند الله، ليشتروا بذلك ثمناً قليلاً. أولا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم! فلا والله ما رأينا رجلاً منهم يسألكم عن الذي أنزل عليكم)[٢].

* وعن جابر[٣] بن عبد الله أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه النبي ﷺ فغضب، فقال: (أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية. لا تسألوهم بشيءٍ فيخبروكم بحقٍ فتكذبوا به.

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم: (١/ ٨٠ ـ ٨٢).
(٢) صحيح البخاري: (٨/ ٢٠٨).
(٣) جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الخزرجي الأنصاري، من المكثرين في الرواية عن النبي ﷺ له ما يقرب من ١٥٤٠ حديثاً. توفي سنة ٧٨هـ. الأعلام (٢/ ١٠٤)، الإصابة (١/ ٢١٣)، تهذيب التهذيب (١/ ١٤٢).

أو بباطلٍ فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني)[١].

* وفي رواية: (فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا)[٢].

* وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب أتى رسول الله ﷺ بنسخةٍ من التوراة فقال: يا رسول الله، هذه نسخة من التوراة فسكت. فجعل يقرأ ووجه رسول الله ﷺ يتغير. فقال أبو بكر: ثكلتك الثواكل، ما ترى ما بوجه رسول الله ﷺ؟ فقال: أعوذ بالله من غضب الله، وغضب رسول الله ﷺ، رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمدٍ نبياً. فقال رسول الله ﷺ: (والذي نفس محمدٍ بيده! لو بدا لكم موسى، فاتبعتموه وتركتموني، لضللتم عن سواء السبيل، ولو كان حياً وأدرك نبوتي لاتبعني)[٣].

* وعن أبي نملة الأنصاري[٤] رضي الله عنه أنه بينما هو جالس عند رسول الله ﷺ جاءه رجلٌ من اليهود، فقال: يا محمد: هل تتكلم هذه الجنازة؟ قال رسول الله ﷺ: الله أعلم. قال اليهودي: أنا أشهد أنها تتكلم. فقال رسول الله ﷺ: (إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم، ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالله وكتبه ورسله. فإن كان حقاً لم

---

(١) رواه أحمد. المسند: (٣/ ٣٨٧)، وقد استقصى الشيخ محمد ناصر الدين الألباني طرقه وشواهده وخلص إلى القول: (هو على أقل تقدير حديث حسن). ووصف في فتوى اللجنة الدائمة في المملكة العربية السعودية رقم (١٩٤٠٢) في ٢٥/ ١/ ١٤١٨هـ بالثبوت.

(٢) رواه أحمد. المسند: (٣/ ٣٣٨).

(٣) رواه الدارمي في المقدمة: (١١٥).

(٤) أبو نملة الأنصاري، صحابي اختلف في اسمه فقيل عمار، وقيل عمر، وقيل عمارة، وهو ابن معاذ بن زرارة من بني ظفر من الأوس شهد أحداً، وقيل شهد بدراً. انظر: تقريب التهذيب (٢/ ٤٨٢).

تكذبوهم، وإن كان باطلاً لم تصدقوهم)[١].

فيجب الحذر من كتبهم ومروياتهم وآثارهم، وهي ما أطلق عليه المسلمون «الإسرائيليات»، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (هذه الأحاديث الإسرائيلية، تذكر للاستشهاد لا للاعتقاد، فإنها على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما علمنا صحته مما بأيدينا، مما يشهد له بالصدق، فذاك صحيح.

والثاني: ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه.

والثالث: ما هو مسكوت عنه، لا من هذا القبيل، ولا من هذا القبيل، فلا نؤمن به ولا نكذبه وتجوز حكايته، لما تقدم[٢]، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود لأمرٍ ديني)[٣].

٥ ـ تحريم بداءتهم بالسلام، وتقديمهم في المرور أو العبور ونحو ذلك:

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: لا تبدؤا اليهود ولا النصارى بالسلام، فإذا لقيتم أحدهم في طريقٍ فاضطروهم إلى أضيقه)[٤].

* وعن أبي بَصرة[٥] رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: (إنا غادون إلى يهود فلا تبدؤوهم بالسلام، فإذا سلموا عليكم: فقولوا: وعليكم)[٦].

---

(١) رواه أحمد. المسند: (٤/ ١٣٦). وأبو داود: (٤/ ٥٩).

(٢) يعني حديث: (وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج) رواه البخاري: (٤/ ١٤٥).

(٣) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٦٦ ـ ٣٦٧).

(٤) صحيح مسلم: (٤/ ١٧٠٧).

(٥) أبو بَصرة، حُمَيل وقيل جُمَيْل بن بصرة بن وقاص، أبو بصرة الغفاري، صحابي سكن مصر ومات بها. تقريب التهذيب (١/ ٢٠٥).

(٦) مسند الإمام أحمد (٦/ ٣٩٨). وقال محققوه: (حسن). انظر: الجزء الثالث من المجلد السادس: (٤٧٥).

قال ابن القيم ﷺ: (والمقصود أن السلام اسمه ووصفه وفعله، والتلفظ به ذكر له.. فحقيق بتحية هذا شأنها أن تصان عن بذلها لغير أهل الإسلام، وألا يحيى بها أعداء القدوس السلام. ولهذا كانت كتب النبي ﷺ إلى ملوك الكفار: «سلام على من اتبع الهدى» ولم يكتب لكافر: «سلام عليكم» أصلاً. فلهذا قال في أهل الكتاب: «لا تبدؤوهم بالسلام»)(١).

(وأما الرَّدُّ عليهم فأمر أن يقتصر به على «عليكم»... هذا كله إذا تحقق أنه قال السامّ عليكم، أو شك فيما قال. فلو تحقق السامع أن الذمي قال له: «سلام عليكم» لا شك فيه، فهل له أن يقول: وعليك السلام؟ أو يقتصر على قوله: «وعليك»؟ فالذي تقتضيه الأدلة الشرعية وقواعد الشريعة أن يقال له: وعليك السلام. فإن هذا من باب العدل، والله يأمر بالعدل والإحسان. وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ [النساء: ٨٦] فندب إلى الفضل وأوجب العدل، ولا ينافي هذا شيئاً من أحاديث الباب بوجه ما)(٢).

٦ ـ تحريم تهنئتهم بشعائر الكفر وأعيادهم الدينية:

قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء] ولا ريب أن أعيادهم الدينية حافلة بترداد عبارات الكفر والشرك، فلا يشاركهم فيها، ويقرهم عليها، ويهنئهم بها إلا منافق ما قدر الله حق قدره. قال ابن القيم ﷺ: (وأما التهنئة بشعائر الكفر المختصة به، فحرام بالاتفاق، مثل أن يهنئهم بأعيادهم وصومهم، فيقول: عيد مبارك

---

(١) أحكام أهل الذمة: (١/ ١٩٧).
(٢) أحكام أهل الذمة: (١/ ١٩٧ ـ ١٩٩).

عليك، أو: تهنأ بهذا العيد، ونحوه، فهذا إن سلم قائله من الكفر فهو من المحرمات، وهو بمنزلة أن يهنئه بسجوده للصليب، بل ذلك أعظم إثماً عند الله، وأشد مقتاً من التهنئة بشرب الخمر، وقتل النفس، وارتكاب الفرج الحرام ونحوه. وكثير ممن لا قدر للدين عنده يقع في ذلك، ولا يدري قبح ما فعل، فمن هنأ عبداً بمعصية أو بدعة فقد تعرض لمقت الله وسخطه)[١].

٧ ـ تحريم دخولهم الحرم وإقامتهم بجزيرة العرب:

* قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [التوبة] قال الماوردي رحمه الله: (أن ليس لجميع من خالف دين الإسلام من ذمي أو معاهد أن يدخل الحرم، لا مقيماً فيه ولا ماراً به، وهذا مذهب الشافعي[٢] رحمه الله وأكثر الفقهاء. وجوز أبو حنيفة[٣] دخولهم إليه إذا لم يستوطنوه)[٤].

---

(١) أحكام أهل الذمة: (١/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦).

(٢) الإمام محمد بن إدريس بن العباس الهاشمي المطلبي القرشي، أبو عبد الله، ولد سنة ١٥٠هـ وجمع بين الفقه والحديث والتقى والورع، له «الرسالة» و«الأم» وغيرها، توفي سنة ٢٠٤هـ.
الأعلام (٦/ ٢٦)، تذكرة الحفاظ (١/ ٣٢٩)، تهذيب التهذيب (٩/ ٢٥)، الوفيات (١/ ٤٤٧)، غاية النهاية (٢/ ٩٥)، تاريخ بغداد (٢/ ٥٦ ـ ٧٣).

(٣) النعمان بن ثابت التيمي بالولاء، الكوفي، أبو حنيفة، إمام الحنفية المجتهد المحقق، أحد الأئمة الأربعة، ولد سنة ٨٠هـ، وتنسب إليه رسالة «الفقه الأكبر»، توفي سنة ١٥٠هـ.
الأعلام (٨/ ٣٦)، تاريخ بغداد (١٣/ ٣٢٣)، وفيات الأعيان (٢/ ١٦٣)، النجوم الزاهرة (٢/ ١٢)، البداية والنهاية (١٠/ ١٠٧)، الجواهر المضية (١/ ٢٦).

(٤) الأحكام السلطانية: (٢٩٠).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما نحن في المسجد إذ خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: انطلقوا إلى يهود، فخرجنا معه حتى جئنا بيت المدراس فقام النبي ﷺ فناداهم: يا معشر يهود: أسلموا تسلموا. فقالوا: قد بلَّغت يا أبا القاسم. فقال: ذلك أريد. ثم قالها الثانية، فقالوا: قد بلغت يا أبا القاسم، ثم قال الثالثة، فقال: اعلموا أن الأرض لله ورسوله، وإني أريد أن أجليكم، فمن وجد منكم بماله شيئاً فليبعه، وإلا فاعلموا أنما الأرض لله ورسوله)[١].

فهذا دليل خاص على منع استيطانهم المدينة. قال الماوردي: (وأجلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه أهل الذمة عن الحجاز، وضرب لمن قدم منهم - تاجراً أو صانعاً - مقام ثلاثة أيام، ويخرجون بعد انقضائها فجرى به العمل، واستقر عليه الحكم، فمنع أهل الذمة من استيطان الحجاز، ولا يمكنون من دخوله، ولا يقيم الواحد منهم في موضع منه أكثر من ثلاثة أيام، فإذا انقضت صرف عن موضعه، وجاز أن يقيم في غيره ثلاثة أيام ثم يصرف إلى غيره، فإن أقام بموضع منه أكثر من ثلاثة أيام عُزِّر إن لم يكن معذوراً)[٢].

* وعن عمر بن الخطاب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلماً)[٣].

* وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان آخر ما عَهِد رسول الله ﷺ أن قال: «لا يترك بجزيرة العرب دينان»[٤].

---

(١) رواه البخاري: (٨/ ٧٥)، (٤/ ٦٥)، (٨/ ١٥٦)، ومسلم: (٣/ ١٣٨٧).
(٢) الأحكام السلطانية: (٢٩٢).
(٣) رواه مسلم: (٣/ ١٣٨٨).
(٤) مسند الإمام أحمد: (٦/ ٢٧٥). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: (٥/ ٣٢٥): (رجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع).

* وعن أبي عبيدة بن الجراح ﷺ قال: آخر ما تكلم به النبي ﷺ (أخرجوا يهود أهل الحجاز، وأهل نجران من جزيرة العرب، واعلموا أن شرار الناس الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)[١].

وإنما أمر النبي ﷺ بإخراجهم مع كونه قد عقد معهم صلحاً، فلأنهم لم يفوا بشروطه، فأما أهل نجران فلإسلام بعضهم ثم ردته. ولأنه ﷺ صالحهم على ترك الربا فنقضوا عهده. وأما يهود خيبر فلأنه ﷺ جعل عقد الصلح معهم جائزاً من جهته فقال: (نقركم بها على ذلك ما شئنا)[٢]، وفي لفظ: (نقركم ما أقركم الله)[٣][٤].

وهذه النصوص تدل على أهمية بقاء جزيرة العرب معقلاً للإسلام، وحوزةً يفيء إليها أهله، ويأرز إليها الدين، فلا غرو أن تكون بمنأى عن أعدائه لا يهتكون سترها ولا يستبيحون حماها. وسبحان العليم الحكيم.

ب ـ الأحكام المتعلقة بحفظ الحقوق، وقيام العدل والإحسان:

ـ عدم الإكراه في الدين:

* قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

* ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [يونس].

* ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف].

---

(١) مسند الإمام أحمد: (١/ ١٩٥).
(٢) رواه مسلم: (٣/ ١١٨٨).
(٣) رواه البخاري: (٣/ ١٧٧).
(٤) انظر: أحكام أهل الذمة: (١٧٥ ـ ١٩١).

قال ابن كثير في تفسير قوله: لا إكراه في الدين: (أي لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام، فإنه بين واضح جليّ دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونوَّر بصيرته، دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه، وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرهاً مقسوراً)(١).

وهكذا كان رسول الله ﷺ وخلفاؤه من بعده يكتفون بالعرض والترغيب، ولا يكرهون أحداً على التزام الإسلام، ويكلونه لبارئه.

* فعن وسق الرومي قال: (كنت مملوكاً لعمر، فكان يقول لي: أسلم، فإنك إن أسلمت استعنت بك على أمانة المسلمين، فإنه لا ينبغي أن أستعين على أمانتهم من ليس منهم، فأبيت، فقال: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ فلما حضرته الوفاة أعتقني فقال: اذهب حيث شئت)(٢).

٢ ـ الإحسان إليهم والعدل في معاملتهم وتحريم أذيتهم وحفظ ذمتهم:

* قال تعالى: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٩﴾ [الممتحنة].

قال ابن جرير رحمه الله بعد سياق الأقوال في المعنيين بقوله: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾: (وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عُني بذلك: لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين من جميع أصناف الملل والأديان أن تبروهم

(١) تفسير القرآن العظيم: (١/ ٣١٠).
(٢) أحكام القرآن للجصاص: (٢/ ٤٤)، وانظر: أحكام أهل الذمة لابن القيم: (١/ ٢١١).

وتصلوهم وتقسطوا إليهم، إن الله ﷻ عم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ جميع من كان ذلك صفته، فلم يخصص به بعضاً دون بعض)[١].

* وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [المائدة].

قال ابن جرير رحمه الله: (لا يحملنكم عداوة قومٍ على ألا تعدلوا في حكمكم فيهم، وسيرتكم بينهم، فتجوروا عليهم من أجل ما بينكم وبينهم من العداوة)[٢].

* وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: «من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاماً»[٣].

* وفي عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى أهل إيلياء ـ بيت المقدس ـ:

(هذا ما أعطى عبد الله عمر، أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان: أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها، وسائر ملتها، لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحدٌ من اليهود)[٤].

---

(١) جامع البيان: (٢٨/ ٦٦).

(٢) جامع البيان: (٦/ ١٤١).

(٣) رواه البخاري: (٤/ ٦٥)، (٨/ ٤٧).

(٤) تاريخ الطبري: (٢/ ٤٤٩).

* قال موفق الدين بن قدامة[١] رحمه الله في باب أحكام أهل الذمة: (وعلى الإمام حفظهم والمنع من أذاهم، واستنقاذ من أسر منهم) وشرحها شمس الدين بن قدامة[٢] رحمه الله بقوله: (تلزمه حمايتهم من المسلمين وأهل الحرب وأهل الذمة، لأنه التزم بالعهد حفظهم، ولهذا قال علي رضي الله عنه: إنما بذلوا الجزية لتكون دماؤهم كدمائنا، وأموالهم كأموالنا. وقال عمر رضي الله عنه في وصيته للخليفة بعده: «وأوصيه بأهل ذمة المسلمين خيراً، أن يوفي لهم بعهدهم، ويُحَاطُوا من ورائهم، ويجب فداء أسراهم، سواء كانوا في معونتنا أو لم يكونوا»)[٣].

* وقال ابن حزم[٤] في مراتب الإجماع: (واتفقوا أن من أسره

---

(١) عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة، الجماعيلي المقدسي، ثم الدمشقي الحنبلي، أبو محمد، موفق الدين. ولد عام (٥٤١هـ) إمام في الفقه عالم بالحديث من تصانيفه: «المغني» و«روضة الناظر» و«الكافي» و«المقنع» وغيرها. مات سنة (٦٢٠هـ). انظر: الأعلام (٤/ ٦٧)، البداية والنهاية (١٣/ ٩٩)، شذرات الذهب (٥/ ٨٨)، ذيل الطبقات (٢/ ١٣٣).

(٢) عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي، الجماعيلي الأصل، الصالحي، الحنبلي، شمس الدين أبو الفرج، ولد سنة (٥٩٧هـ)، فقيه أصولي، محدث خطيب، ولد بسفح قاسيون في دمشق، وتفقه على عمه موفق الدين، وولي القضاء مدة تزيد على اثنتي عشرة سنة على كره منه، ثم عزل نفسه في آخر عمره. وتوفي بدمشق سنة (٦٨٢هـ). من تصانيفه: «شرح المقنع لعمه» و«تسهيل المطلب في تحصيل المذهب».

(٣) المقنع والشرح الكبير ومعهما الإنصاف: موفق الدين ابن قدامة، وشمس الدين ابن قدامة، وعلاء الدين المرداوي. تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي. هجر. مصر. الطبعة الأولى (١٤١٥هـ - ١٩٩٥م). (١٠/ ٤٨٩).

(٤) علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري، أبو محمد، عالم الأندلس في عصره، ولد سنة (٣٨٤هـ)، وكانت له ولأبيه من قبله رياسة الوزارة، فزهد بها وانصرف إلى العلم والتأليف، وكان يقال: «لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقان» لسلاطة لسانه، توفي سنة (٤٥٦هـ). من تصانيفه «الفصل في=

أهل الحرب من كبار أهل الذمة وصغارهم ونسائهم أن ذمتهم لا تنتقض بذلك ما لم يلحق مختاراً، وأنه إن ظفر المسلمون بالمأسورين المذكورين من أنهم لا يسترقون)(١).

* وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في رسالته إلى سرجوان ملك قبرص:

(.. وقد عرف النصارى كلهم أني لما خاطبت التتار في إطلاق الأسرى، وأطلقهم غازان(٢) وقطلوشاه(٣)، وخاطبت مولاي فيهم فسمح بإطلاق المسلمين. قال لي: لكن معنا نصارى أخذناهم من القدس، فهؤلاء لا يطلقون. فقلت له: بل جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا؛ فإنا نفتكهم، ولا ندع أسيراً لا من أهل الملة، ولا من أهل الذمة، وأطلقنا من النصارى من شاء الله، فهذا عملنا وإحساننا، والجزاء على الله)(٤).

* وجاء في وصية أبي يوسف(٥) إلى هارون

= الملل والأهواء والنحل» و«المحلى» و«ملخص إبطال القياس» وغيرها. الأعلام (٤/ ٢٥٤)، نفح الطيب (١/ ٣٦٤)، آداب اللغة (٣/ ٩٦)، إرشاد الأريب (٥/ ٨٦ ـ ٩٧)، لسان الميزان (٤/ ١٩٨)، اللباب (١/ ٢٩٧).

(١) مراتب الإجماع: (١٢٣).

(٢) غازان ويقال: «قازان» محمود بن أرغون بن بغا. أحد ملوك التتار. استولى على بلاد الشام واعتنق الإسلام سنة (٦٩٣هـ) وتوفي سنة (٧٠٣هـ). انظر: البداية والنهاية (١٣/ ٣٤٠، ١٤/ ٦، ٢٩).

(٣) الأمير سيف الدين قطلو بك التشنكير الرومي. كان من أكابر الأمراء، وولي الحجوبية في وقت. وهو الذي عمر القناة بالقدس. توفي تسع وعشرين وسبعمائة. انظر: البداية والنهاية (١٤/ ١٤٥).

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: (٢٨/ ٦١٧ ـ ٦١٨).

(٥) يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري الكوفي البغدادي، أبو يوسف صاحب أبي حنيفة ولد سنة ١١٣هـ، يعد أول من نشر مذهب أبي حنيفة، كان فقيهاً=

الرشيد[1] رحمهما الله: (وقد ينبغي يا أمير المؤمنين أيدك الله أن تتقدم في الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد ﷺ والتقدم لهم حتى لا يظلموا، ولا يؤذوا، ولا يكلفوا فوق طاقتهم، ولا يؤخذ من أموالهم إلا بحقٍ وجب عليهم)[2].

٣ ـ حسن جوارهم:

* قال تعالى: ﴿۞ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء].

واختار ابن جرير رحمه الله في معنى «الجنب» (الغريب البعيد، مسلماً كان أو مشركاً، يهودياً كان أو نصرانياً)[3].

= علامة، ولي القضاء ببغداد أيام المهدي والهادي والرشيد، من كتبه «الخراج» و«الآثار» وهو مسند أبي حنيفة و«أدب القاضي» والجوامع وغيرها، توفي سنة ١٨٢هـ.
الأعلام (٨/ ١٩٣)، مفتاح السعادة (٢/ ١٠٠ ـ ١٠٧)، النجوم الزاهرة (٢/ ١٠٧)، البداية والنهاية (١٠/ ١٨٠)، الجواهر المضية (٢/ ٢٢٠)، تاريخ بغداد (١٤/ ٢٤٢).

(١) هارون الرشيد (١٤٩ ـ ١٩٣هـ) هارون «الرشيد» ابن محمد «المهدي» بن المنصور العباسي، أبو جعفر: خامس خلفاء الدولة العباسية في العراق وأشهرهم. ولد بالري. وولاه أبوه غزو الروم في القسطنطينية، فصالحته الملكة إيريني Irene وافتدت منه مملكتها بسبعين ألف دينار سنوياً. بويع بالخلافة بعد وفاة أخيه الهادي سنة ١٧٠هـ فقام بأعبائها، وازدهرت الدولة في أيامه. كان عالماً بالأدب وأخبار العرب والحديث والفقه. فصيحاً، شجاعاً، كريماً، حازماً، متواضعاً، يحج سنة ويغزو سنة. رحمه الله. انظر: الأعلام (٨/ ٦٢).

(٢) الخراج: (١٣٤ ـ ١٣٥).

(٣) جامع البيان: (٥/ ٨٠).

* وعن مجاهد رَحِمَهُ اللهُ أن عبد الله بن عمرو ذبحت له شاة في أهله، فلما جاء قال: أهديتم لجارنا اليهودي؟ أهديتم لجارنا اليهودي؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما زال جبريل يوصيني بالجار، حتى ظننت أنه سيورثه)[١].

٤ ـ عيادة مريضهم:

* عن أنس رضي الله عنه قال: كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ فمرض فأتاه النبي ﷺ يعوده فقعد عند رأسه فقال له: أسلم. فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال له: أطع أبا القاسم ﷺ فأسلم، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: (الحمد لله الذي أنقذه من النار)[٢]، وقيده بعض أهل العلم بقصد دعوته إلى الإسلام[٣]. ولعل في مجرد الزيارة والعيادة من تأليف قلبه، وإظهار محاسن الإسلام، ما يستقل بذلك.

٥ ـ القيام لجنائزهم:

* عن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى[٤] قال: كان سهل بن حُنيف[٥]، وقيس بن سعد[٦] قاعدين بالقادسية فمروا عليهما بجنازة فقاما، فقيل لهما: إنها من أهل الأرض، أي من أهل الذمة، فقال: إن النبي ﷺ

---

(١) رواه الترمذي: (٨/ ١٢٤ ـ ١٢٥). وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

(٢) صحيح البخاري: (٢/ ٩٧).

(٣) انظر: أحكام أهل الذمة: (١/ ٢٠٠ ـ ٢٠٢).

(٤) عبد الرحمن بن أبي ليلى الأنصاري، المدني، ثم الكوفي. ثقة. مات بوقعة الجماجم سنة ستٍ وثمانين. تقريب التهذيب (١/ ٤٩٦).

(٥) سهل بن حُنيف بن واهب الأنصاري، الأوسي صحابي، من أهل بدر، استخلفه علي على البصرة. ومات في خلافته. تقريب التهذيب (١/ ٣٣٦).

(٦) قيس بن سعد بن عُبادة، الخزرجي، الأنصاري صحابي جليل. مات سنة ستين تقريباً. تقريب التهذيب (٢/ ١٢٨).

مرت به جنازة فقام، فقيل له: إنها جنازة يهودي، فقال: «أليست نفساً؟»[١].

* وعن جابر رضي الله عنه قال: (قام النبي ﷺ وأصحابه لجنازة يهودي حتى توارت)[٢]. وفي شهود جنائزهم وتعزيتهم تفصيل عند الفقهاء[٣].

٦ - دخول مساجد المسلمين - سوى المجسد الحرام - للحاجة:

* قال ابن إسحاق[٤]: (وفد على رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران بالمدينة. فحدثني محمد بن جعفر بن الزبير[٥]، قال: لما قدم وفد نجران على رسول الله ﷺ دخلوا عليه مسجده بعد صلاة العصر، فحانت صلاتهم، فقاموا يصلون في مسجده، فأراد الناس منعهم، فقال رسول الله ﷺ: (دعوهم). فاستقبلوا المشرق. فصلوا صلاتهم)[٦].

---

(١) صحيح البخاري: (٢/ ٨٧)، صحيح مسلم: (٢/ ٦٦١).
(٢) صحيح مسلم: (٢/ ٦٦١).
(٣) انظر؛ أحكام أهل الذمة: (١/ ٢٠٢ - ٢٠٥).
(٤) محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي بالولاء المدني، من أقدم مؤرخي العرب، له «السيرة النبوية» التي هذبها ابن هشام و«كتاب الخلفاء» و«المبدأ» توفي سنة (١٥١هـ). الأعلام (٦/ ٢٨)، تهذيب التهذيب (٩/ ٣٨)، إرشاد الأريب (٦/ ٣٩٩)، وتذكرة الحفاظ (١/ ١٦٣)، عيون الأثر (١/ ١٠)، ذيل المذيل (١٠٣).
(٥) محمد بن جعفر بن الزبير بن العوام، روى عن عميه عبد الله وعروة، وعنه ابن إسحاق وابن جريج وغيرهم، ثقة من الطبقة السادسة مات سنة بضع عشرة مائة، وأخرج له الجماعة. تقريب التهذيب (٩/ ٩٣)، تقريب التهذيب (٤٧١) رقم (٥٧٨٢).
(٦) نقلاً عن زاد المعاد في هدي خير العباد: ابن القيم، شمس الدين، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر. تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعبد القادر الأرنؤوط. مؤسسة الرسالة - بيروت، مكتبة المنار الإسلامية - الكويت. الطبعة الأولى (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م). (٣/ ٦٢٩)، وانظر: تفسير ابن كثير: (١/ ٣٦٨ - ٣٧١). وصحح ابن القيم القصة والصلاة في أحكام أهل الذمة: (١/ ١٨٧).

قال ابن القيم: (في فقه هذه القصة: ففيها: جواز دخول أهل الكتاب مساجد المسلمين. وفيها: تمكين أهل الكتاب من صلاتهم بحضرة المسلمين وفي مساجدهم أيضاً إذا كان ذلك عارضاً، ولا يمكنون من اعتياد ذلك)[(١)].

٧ - الصدقة والوقف على فقرائهم والوصية لهم:

* قال ابن القيم رحمه الله: (لا ريب أن الصدقة جائزة على مساكين أهل الذمة. والوقف صدقة. فهاهنا وصفان: وصف يعتبر وهو المسكنة، ووصف ملغى في الصدقة والوقف وهو الكفر، فيجوز الدفع إليهم من الوقف بوصف المسكنة، لا بوصف الكفر)[(٢)].

* وروى أبو عبيد القاسم بن سلام[(٣)] رحمه الله بسنده عن سعيد بن المسيب[(٤)]: (أن رسول الله ﷺ تصدق صدقة على أهل بيت من اليهود فهي تجري عليهم)[(٥)].

* وروى أبو يوسف بسنده: قال: مر عمر بن الخطاب بباب قومٍ وعليه سائل يسأل، شيخ كبير ضرير البصر. فضرب عضده من خلفه

---

(١) زاد المعاد: (٣/ ٦٣٨).

(٢) أحكام أهل الذمة: (١/ ٣٠٠).

(٣) القاسم بن سلام الهروي الأزدي، أبو عبيد، مولده سنة ١٥٧هـ من كبار العلماء بالحديث والفقه، له «الأموال» و«الأمثال» و«غريب الحديث» وغيرها. توفي سنة ٢٢٤هـ. الأعلام (٢/ ١٧٦)، تذكرة الحفاظ (٢/ ٥)، تهذيب التهذيب (٧/ ٣١٥)، وفيات الأعيان (١/ ٤١٨).

(٤) سعيد بن المسيب بن حزن، أبو محمد، سيد التابعين، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة. ولد سنة ١٣هـ وجمع بين الفقه والحديث والزهد والورع. وكان أحفظ الناس لأقضية عمر حتى سمي راوية عمر، توفي سنة ٩٤هـ. الأعلام (٣/ ١٠٢)، طبقات ابن سعد (٥/ ٨٨)، وفيات الأعيان (١/ ٢٠٦)، صفة الصفوة (٢/ ٤٤)، حلية الأولياء (٢/ ١٦١).

(٥) الأموال: (٦٠٥).

وقال: من أي أهل الكتاب أنت؟ فقال: يهودي. قال: فما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: أسأل الجزية، والحاجة، والسن. قال: فأخذ عمر بيده، وذهب به إلى منزله، فرضخ له بشيءٍ من المنزل. ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال: انظر هذا وضرباءه، فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم. (إنما الصدقات للفقراء والمساكين)، والفقراء هم المسلمون، والمساكين من أهل الكتاب. فوضع عنه الجزية وعن ضربائه)[(١)].

وقال الإمام البخاري في صحيحه: (باب الوصية بالثلث. وقال الحسن: لا يجوز للذمي وصية إلا الثلث. وقال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩])[(٢)].

٨ ـ الحقوق المعيشية في السكنى والتنقل والتكسب:

* قال ابن حزم في «مراتب الإجماع»: (واتفقوا أن لأهل الذمة المشي في أرض الإسلام، والدخول حيث أحبوا من البلاد حاشا الحرم بمكة، فإنهم اختلفوا أيدخلونه أم لا. واتفقوا على أن لهم سكنى أي بلدٍ شاءوا من بلاد الإسلام على الشروط التي قدمنا حاشا جزيرة العرب)[(٣)].

* وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ: (اشترى طعاماً من يهودي إلى أجل ورهنه درعاً من حديد)[(٤)].

* وعن عائشة أيضاً قالت: كان على رسول الله ﷺ ثوبان قِطريان غليظان فكان إذا قعد فعرق ثقلا عليه، فقدم بزٌّ من الشام لفلان

---

(١) الخراج: (١٣٦).

(٢) صحيح البخاري: (٣/١٨٦ ـ ١٨٧).

(٣) مراتب الإجماع: (١٢٢).

(٤) صحيح البخاري: (٣/٨).

اليهودي، فقلت: لو بعثت إليه فاشتريت منه ثوبين إلى الميسرة، فأرسل إليه، فقال: قد علمت ما يريد. إنما يريد أن يذهب بمالي أو بدراهمي. فقال رسول الله ﷺ: كذب. قد علم أني من أتقاهم لله وأداهم للأمانة)(١).

* وعن ابن عمر رضي الله عنهما: (أن رسول الله ﷺ عامل أهل خيبر بشطر ما يخرج منها من ثمرٍ أو زرع)(٢).

٩ ـ حل طعامهم ونسائهم:

* قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾ [المائدة].

فأما الطعام المذكور في الآية ف(لم يختلف السلف أن المراد بذلك الذبائح)(٣).

وأما المحصنات هنا ف(هن العفايف)(٤) وتفاصيل هذين الحكمين في مظانها في كتب الفقه.

وفي تمييز أهل الكتاب عن سائر أصناف المشركين بهذين الأمرين من البر والإحسان وحسن المعاملة ما لا يخفى، وله آثارٌ حميدة في استمالة قلوبهم، وتقريبهم إلى دين الإسلام.

(١) رواه الترمذي: (٥/ ٢١٧). وقال: حديث حسن غريب صحيح.
(٢) صحيح البخاري: (٣/ ٦٩)، صحيح مسلم: (٣/ ١١٨٦).
(٣) أحكام أهل الذمة: (١/ ٢٤٥).
(٤) أحكام أهل الذمة: (٢/ ٤١٩).

١٠ ـ تشميت عاطسهم:

* عن أبي موسى ﷺ قال: كانت اليهود تعاطس عند النبي ﷺ رجاء أن يقول لها: يرحمكم الله فكان يقول: يهديكم الله، ويصلح بالكم)[١].

هذه الموازنة الدقيقة التي جاء بها الإسلام بين النهي عن موالاة الكافرين ومودادتهم، والحث على برهم والإحسان إليهم وإيجاب العدل معهم، تشكل على كثير من الناس فيفضي به الأمر إما إلى إعمال الطائفة الأولى من النصوص والغض عن الطائفة المقابلة، فيقع في ظلم أهل الكتاب ـ سوى الحربيين ـ والعنف معهم وجفوتهم وأذيتهم، وإما إلى إعمال الطائفة الثانية من النصوص والإغراق في مداهنة أهل الكتاب ومودادتهم حتى تتعطل دلالة النصوص الأولى، ويختلط عليهم أمر الولاء والبراء، ينقض أوثق عرى الإيمان.

وقد تنبه الفقيه المالكي أبو العباس القرافي[٢] رحمه الله لهذا الاشتباه الخطير فعقد فصلاً في كتابه القيم «الفروق» ننقله بطوله لأهميته وبيانه، فقال:

(الفرق التاسع عشر والمائة بين قاعدة بر أهل الذمة، وبين قاعدة التودد لهم.

اعلم أن الله تعالى منع من التودد لأهل الذمة بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ

---

(١) رواه أبو داود: (٥/ ٢٩٢)، والترمذي: (١٠/ ١٩٨ ـ ١٩٩) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) القَرافِي: (٠٠٠ ـ ٦٨٤هـ) أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن، أبو العباس، شهاب الدين الصنهاجي القرافي. من علماء المالكية. وهو مصري المولد والمنشأ والوفاة. له مصنفات جليلة في الفقه والأصول. منها: أنوار البروق في أنواء الفروق، والذخيرة في فقه المالكية، والأجوبة الفاخرة في الرد على الأسئلة الفاجرة، وغيرها. انظر: الأعلام (١/ ٩٥).

جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾﴾ [الممتحنة] فمنع الموالاة والتودد. وقال في الآية الأخرى: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ [الممتحنة] وقال في حق الفريق الآخر: ﴿إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الممتحنة] وقال ﷺ: «استوصوا بأهل الذمة خيراً»[(١)]، وقال في حديثٍ آخر: «استوصوا بالقبط خيراً»[(٢)]. فلا بد من الجمع بين هذه النصوص، وأن الإحسان لأهل الذمة مطلوب، وأن التودد والموالاة منهي عنهما، والبابان ملبسان فيحتاجان إلى الفرق.

وسر الفرق أن عقد الذمة يوجب حقوقاً علينا لهم، لأنهم في جوارنا وفي خفارتنا، وذمة الله تعالى وذمة رسوله ﷺ ودين الإسلام، فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء أو غيبة في عرض أحدهم، أو نوع من أنواع الأذية، أو أعان على ذلك فقد ضيع ذمة الله تعالى، وذمة رسوله ﷺ وذمة دين الإسلام. وكذلك حكى ابن حزم في مراتب الإجماع له: أن من كان في الذمة، وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه، وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالكراع والسلاح، ونموت دون ذلك، صوناً لمن هو في ذمة الله تعالى، وذمة رسوله ﷺ فإن تسليمه دون ذلك إهمال لعقد الذمة. وحكى في ذلك إجماع الأمة[(٣)]. فعقد يؤدي إلى إتلاف النفوس والأموال صوناً لمقتضاه عن الضياع، إنه لعظيم. وإذا كان عقد الذمة بهذه المثابة تعين علينا أن نبرهم بكل أمر لا يكون ظاهره يدل على مودات القلوب، ولا تعظيم شعائر الكفر،

---

(١) لم أجده.

(٢) لم أجده.

(٣) لم أجد هذا النقل في «مراتب الإجماع» ولعل ذلك بسبب اختلاف النسخ.

فمتى أدى إلى هذين، امتنع وصار من قبل ما نهى عنه في الآية وغيرها. ويتضح ذلك بالمثل: فإخلاء المجالس لهم عند قدومهم علينا، والقيام لهم حينئذٍ، ونداؤهم بالأسماء العظيمة الموجبة لرفع شأن المنادى بها، هذا كله حرام. وكذلك إذا تلاقينا معهم في الطريق، وأخلينا لهم واسعها ورحبها والسهل منها، وتركنا أنفسنا في خسيسها وحزنها وضيقها، كما جرت العادة أن يفعل ذلك المرء مع الرئيس، والولد مع الوالد، والحقير مع الشريف، فإن هذا ممنوع لما فيه من تعظيم شعائر الكفر، وتحقير شعائر الله تعالى وشعائر دينه واحتقار أهله. ومن ذلك تمكينهم من الولايات والتصرف في الأمور الموجبة لقهر من هي عليه، أو ظهور العلو وسلطان المطالبة، فذلك كله ممنوع وإن كان في غاية الرفق والأناة أيضاً، لأن الرفق والأناة في هذا الباب نوع من الرئاسة والسيادة وعلو المنزلة في المكارم، فهي درجة رفيعة أوصلناهم إليها، وعظمناهم بسببها، ورفعنا قدرهم بإيثارها، وذلك كله منهي عنه، وكذلك لا يكون المسلم عندهم خادماً ولا أجيراً يؤمر عليه وينهى، ولا يكون أحد منهم وكيلاً في المحاكمات على المسلمين عند ولاة الأمور، فإن ذلك أيضاً إثبات لسلطانهم على ذلك المسلم. وأما ما أمر به من برهم من غير مودة باطنية؛ فالرفق بضعيفهم، وسد خلة فقيرهم، وإطعام جائعهم، وإكساء عاريهم، ولين القول لهم على سبيل اللطف لهم والرحمة، لا على سبيل الخوف والذلة، واحتمال أذايتهم في الجوار مع القدرة على إزالته لطفاً منا بهم، لا خوفاً وتعظيماً، والدعاء لهم بالهداية، وأن يجعلوا من أهل السعادة ونصيحتهم في جميع أمور دينهم ودنياهم، وحفظ غيبتهم إذا تعرض أحد لأذيتهم، وصون أموالهم وعيالهم وأعراضهم وجميع حقوقهم ومصالحهم، وأن يعانوا على دفع الظلم عنهم، وإيصالهم لجميع حقوقهم، وكل خير يحسن من الأعلى مع الأسفل أن يفعله، ومن العدو أن يفعله مع

عدوه، فإن ذلك من مكارم الأخلاق. فجميع ما نفعله معهم من ذلك ينبغي أن يكون من هذا القبيل لا على وجه العزة والجلالة منا[١]، ولا على وجه التعظيم لهم وتحقير أنفسنا بذلك الصنيع لهم، وينبغي لنا أن نستحضر في قلوبنا ما جبلوا عليه من بغضنا وتكذيب نبينا ﷺ، وأنهم لو قدروا علينا لاستأصلوا شأفتنا، واستولوا على دمائنا وأموالنا، وأنهم من أشد العصاة لربنا ومالكنا عز وجل. ثم نعاملهم بعد ذلك بما تقدم ذكره امتثالاً لأمر ربنا عز وجل وأمر نبينا ﷺ، لا محبة فيهم، ولا تعظيماً لهم، ولا نظهر آثار تلك الأمور التي نستحضرها في قلوبنا من صفاتهم الذميمة. لأن عقد العهد يمنعنا من ذلك، فنستحضرها حتى يمنعنا من الود الباطن لهم المحرم علينا خاصة)[٢].

هذا هو الفقه بعينه، الذي يجري جميع النصوص مجراها، ولا يضرب بعضها ببعض، أو يُعمل بعضها ويلغي الآخر. إنه فهم دقيق، وتمييز واع بين الاعتقاد الباطن وما يستلزمه، والعدل الظاهر وما يقتضيه. فلله دره.

ومن المؤسف أن كثيراً من الكتاب المعاصرين يجتزئ ما يعجبه ويوافق هواه من كلام هذا الإمام، ويهمل ذكر باقيه مما لا يتم المعنى إلا به، فيبرز الجمل العظيمة المتضمنة بر أهل الذمة والإحسان إليهم، ويسوقها باسم تسامح الإسلام، ويضرب صفحاً عن عباراته القوية الإيمانية في التبرؤ القلبي من موادتهم وموالاتهم.

وفي هذا عدوان على النصوص، وتجنٍ على هذا الإمام، وغش للأمة حيث حجب عنها كامل الحقيقة، وحرمها هذا الفرقان المبين، والله المستعان.

---

(١) هكذا في الأصل. ولعل صوابها: (من هذا القبيل على وجه العزة والجلالة منا، لا على وجه التعظيم....).

(٢) الفروق: القرافي، شهاب الدين، أبو العباس أحمد بن إدريس الصنهاجي. دار المعرفة. بيروت. (١٤ ـ ١٦).

المبحث الرابع

«موقف أهل الكتاب من الإسلام»

لقد كان أولى الناس باتباع محمد ﷺ، أهل الكتاب. وذلك لأسباب:

أحدها: أنه البشارة المرتقبة التي زفَّها الأنبياء قبله إلى أقوامهم، فتعلقت أفئدتهم بذلك النبي المنتظر، الذي خلعت عليه وعلى أتباعه أجل الأوصاف، وأكرم المعاني، على نحو ما سنذكر بعد قليل.

والثاني: أنه البينة التي بها افتكاكهم من دوامة الخلاف المرير الذي مزقهم كل ممزق، حتى كفَّر بعضهم بعضاً، وقتل بعضهم بعضاً.

والثالث: أنه فتح لأهل الإيمان على أهل الشرك والأوثان.

ولكن هذا التوقع لم يقع إلا بصورة جزئية فردية، فقد تحددت مواقف أهل الكتاب من يهود ونصارى إبان العهد النبوي، وحين تنزل القرآن، وبدلاً من أن تنضوي زعامتا الديانتين اليهودية والنصرانية، في الديانة الإسلامية التي تمثل الامتداد الطبيعي لملة إبراهيم عليه السلام، ناصبتاها العداء، وتفننتا في ردها، ومحاولة وأدها في مهدها، واستئصالها بعد بدوها. ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾ [الصف].

أولاً: موقف أهل الكتاب من الإسلام قبل البعثة النبوية:

دل كتاب الله، القرآن العظيم، على أن أهل الكتاب قد بُشروا بنبي عظيم موصوف بصفات شريفة يبعث في آخر الزمان، وقد أمروا باتباعه، كما أفاضت كتبهم الدينية في الحديث عنه.

١ - القرآن الكريم:

* قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف].

* ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [آل عمران].

* ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح].

* ﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [البقرة].

* روى ابن جرير بسنده عن ابن عباس: (﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ أي بصاحبكم رسول الله، ولكنه إليكم خاصة، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا: لا تحدثوا العرب بهذا فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم، فكان منهم. فأنزل الله: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ﴾، أي تقرون بأنه نبي، وقد علمتم أنه قد أخذ له الميثاق عليكم باتباعه. وهو يخبرهم أنه النبي ﷺ الذي كنا ننتظر ونجده في كتابنا، اجحدوه ولا تقروا لهم به)[1].

* ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة].

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [البقرة]. قال ابن جرير رحمه الله: (أخبر الله جل ثناؤه أن اليهود لما جاءهم رسول الله ﷺ من الله بتصديق ما في أيديهم من التوراة أن محمداً ﷺ نبي الله، نبذ فريق، يعني بذلك أنهم جحدوه ورفضوه بعد أن كانوا مقرين، حسداً منهم له، وبغياً عليه)[2].

* ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

فهذه الآيات القرآنية قاطعة بحصول البشارة بالنبي ﷺ في التوراة والإنجيل وكونه موصوفاً فيهما بأكرم الصفات المقتضية لتعلق أهل هذين الكتابين بالإيمان بنبوته والتشوق لمبعثه، ولما كان عيسى ابن مريم عليه السلام أولى الناس به، حيث لم يكن بينهما نبي انتقلت البشارة من الوصف إلى التسمية الصريحة القاطعة لأدنى التباس.

---

(١) جامع البيان: (١/ ٣٧٠).

(٢) جامع البيان: (١/ ٤٤٣).

في كتبهم الدينية:

تضمنت كتب بني إسرائيل عبارات متعددة دالة على مبعث نبي عظيم، مؤيد من عند الله، يخضع الله له الأمم والشعوب، ويظهره على من خالفه، وهذا موافق لما أخبر الله به في كتابه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران].

وقد روى ابن جرير رحمه الله بسنده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: (لم يبعث الله عز وجل نبياً، آدم فمن بعده، إلا أخذ عليه العهد في محمد: لئن بعث وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، ويأمره فيأخذ العهد على قومه)[١]. ولكن أهل الكتاب لا يثبتون هذه البشارة في حق نبينا محمد ﷺ، بل يحملها اليهود على موعودٍ منتظر في آخر الزمان يتبعونه، ويحملها النصارى على المسيح عيسى ابن مريم، ورجعته في آخر الزمان. ولا ريب أن هذه العبارات تعرضت لعوامل التحريف اللفظي والمعنوي من قبل الأحبار والرهبان لصرف نظر أتباعهم عن رسالة نبينا محمد ﷺ. قال الفخر الرازي[٢] في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [البقرة]: (اعلم

---

(١) جامع البيان: (٣/ ٣٣٢).

(٢) محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري، فخر الدين الرازي، إمام في الفلسفة وعلم الكلام، ويقال له «ابن خطيب الري» وهو قرشي النسب أصله من طبرستان ومولده في الري وإليها نسبته. وتوفي في هراة سنة ٦٠٦هـ، ومن مؤلفاته: «مفاتيح الغيب» وهو التفسير المشهور و«لوامع البينات في شرح أسماء الله والصفات» و«معالم أصول الدين» و«المحصول في علم الأصول» وغيرها.
الأعلام (٦/ ٣١٣)، الوفيات (١/ ٤٧٤)، مفتاح السعادة (١/ ٤٤٥)، آداب اللغة (٣/ ٩٤)، لسان الميزان (٤/ ٤٢٦).

أن إضلال الغير لا يحصل إلا بطريقين، وذلك لأن ذلك الغير إن كان قد سمع دلائل الحق فإضلاله لا يمكن إلا بتشويش تلك الدلائل عليه، وإن كان ما سمعها فإضلاله إنما يمكن بإخفاء تلك الدلائل عنه، ومنعه من الوصول إليها. فقوله: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ إشارة إلى القسم الأول وهو تشويش الدلائل عليه. وقوله: ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾ إشارة إلى القسم الثاني وهو منعه من الوصول إلى الدلائل)[١].

وسنذكر أدناه نماذج من هذه الجمل المتضمنة البشارة بنبينا محمد ﷺ.

* جاء في سفر التثنية: (فقال لي الرب: . . . سأقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك. وأجعل كلامي في فمه فيخاطبهم بكل ما آمره به) ١٨/١٧ ـ ١٨[٢]. وقد بين الشيخ رحمت الله الهندي[٣] رحمه الله دلالة هذا النص على البشارة بنبينا محمد ﷺ من عشرة أوجه[٤] مدارها على امتناع إرادة يوشع بن نون أو عيسى ابن مريم عليه السلام بذلك، وإثبات لفظ «إخوتهم» يستعمل في التوراة في حق بني إسماعيل. وقال البروفسور المهتدي عبد الأحد داود[٥] رحمه الله معلقاً على النص السابق: (فإذا كانت

---

(١) التفسير الكبير: الفخر الرازي، محمد بن عمر. دار الفكر. الطبعة الثالثة (١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م). (٢/ ٥٤).

(٢) العهد القديم: (٢٨٦).

(٣) سيرد التعريف به في آخر الباب الثالث.

(٤) إظهار الحق: (١١١٦ ـ ١١٢٨).

(٥) عبد الأحد داود: كان اسمه دافيد بنجامين، كلداني. ولد سنة ١٨٦٧م في «أرميا» من بلاد فارس. وعمل موظفاً في إرسالية الكنيسة الإنجليكانية إلى النسطريين في بلدته بين عامي ١٨٨٦، ١٨٨٩م، ثم ابتعث إلى روما لدراسة اللاهوت. ورسم كاهناً عام ١٨٩٥م. وكان قسيساً لطائفة الروم الكلدانيين. وفي عام ١٩٠٤م زار إستانبول عائداً من بريطانيا، والتقى بعدد من العلماء المسلمين، فاعتنق الإسلام. انظر: مقدمة كتابه (محمد في الكتاب المقدس)، =

هذه الكلمات لا تنطبق على «محمد» فإنها تبقى غير متحققة ولا نافذة. فالمسيح نفسه لم يدَّعِ أبداً أنه النبي المشار إليه. حتى إن حوارييه كانوا على نفس الرأي، وأنهم يتطلعون إلى دعوة المسيح مرة ثانية لكي تتحقق النبوءة، وحتى الآن فإنه من الثابت غير المنقوض بأن «الظهور الأول للمسيح» لم يكن ليدل على ما جاء في الجملة «أقيم لهم نبياً مثلك» وكذلك فإن عودة المسيح مرةً ثانية لا تكاد تحمل معنى هذه الكلمات. وأن المسيح كما تؤمن به كنيسته سوف يظهر كقاضٍ، وليس كمقدم للتشريع؛ بينما الموعود هو الذي يجيء حاملاً «الشريعة النارية المشعة بيده اليمنى»[(١)].

* جاء في سفر التثنية أيضاً: (أقبل الرب من سيناء. وأشرق لهم من ساعير. وسطع من جبل فاران) ٣٣/ ٢[(٢)].

قال الشيخ رحمت الله الهندي مبيناً هذه الجمل: (فمجيئه من سيناء إعطاؤه التوراة لموسى ﷺ، وإشراقه من ساعير إعطاؤه الإنجيل لعيسى ﷺ، واستعلانه من جبل فاران إنزاله القرآن؛ لأن فاران جبل من جبال مكة. وفي الباب الحادي والعشرين من سفر التكوين في وصف حال إسماعيل ﷺ هكذا: «٢٠ ـ وكان الله معه، ونما وسكن في البرية وصار شاباً يرمي بالسهام، وسكن برية فاران وأخذت له أمه امرأة من أرض مصر»[(٣)].

= وانظر: «مسلمو أهل الكتاب وأثرهم في الدفاع عن القضايا القرآنية» د. محمد السحيم (٢٣٧ ـ ٢٦٠).

(١) محمد في الكتاب المقدس: عبد الأحد داود. ترجمة: فهمي شما. مراجعة وتعليق: أحمد محمد الصديق. دار الضياء للنشر والتوزيع. عمّان. الطبعة الثانية) ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م).

(٢) العهد القديم: (٤١١).

(٣) إظهار الحق: (٤/ ١٣٥). والمعروف أن إسماعيل عليه السلام تزوج مرتين من قبيلة جرهم، التي جاورت البيت.

* وجاء في سفر التكوين: (وأما إسماعيل فقد سمعت قولك فيه. وهاءنذا أباركه وأنميه وأكثره جداً جداً، ويلد اثني عشر رئيساً. وأجعله أمة عظيمة) ١٧/ ٢٠[1].

وهذا النص يناسب دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، في القرآن: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة]. ولا ريب أن هذه الدعوة إنما تحققت ببعثة نبينا محمد ﷺ، وأن «الأمة» المسلمة المنشودة إنما هي أمته. أما ذكر الاثني عشر رئيساً فلعله يوافق قوله ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه جابر بن سمرة[2] رضي الله عنه قال: دخلت مع أبي على النبي ﷺ فسمعته يقول: «إن هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة». قال: ثم تكلم بكلام خَفِيَ عليّ. قال: فقلت لأبي: ما قال: قال: «كلهم من قريش»[3]، وفي لفظ: (لا يزال الإسلام عزيزاً...)[4]، وفي لفظ: (لا يزال الدين قائماً حتى تقوم الساعة. أو يكون عليكم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش)[5]. وقريش هم صفوة ذرية إسماعيل عليه السلام،

---

(١) العهد القديم: (٩٢).

(٢) جابر بن سمرة بن جُنادة، السوائي، صحابي، ابن صحابي. نزل الكوفة ومات بها سنة سبعين. تقريب التهذيب (١/ ١٢٢).

(٣) رواه مسلم: (٣/ ١٤٥٢).

(٤) رواه مسلم: (٣/ ١٤٥٣).

(٥) رواه مسلم: (٣/ ١٤٥٤) وتمام هؤلاء الخلفاء القرشيين الاثني عشر عمر بن عبد العزيز رحمه الله الذي ولي على رأس القرن الأول، خير القرون، قرن رسول الله ﷺ وفيه جرت معظم الفتوح الإسلامية، ودخل الناس في دين الله أفواجاً.

ورسول الله ﷺ هو صفوة الصفوة كما في الحديث الذي رواه واثلة بن الأسقع قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»[١]. يقول البرفسور المهتدي عبد الأحد داود: (فإذا كان «محمد» وكما هو معروف للجميع قد جاء من نسل إسماعيل، وابنه قيدار «عدنان»، ثم ظهر بعد ذلك نبياً في قفار فاران، ثم دخل مكة مع عشرة آلاف قديس «مؤمن»، وجاء بالشريعة النارية إلى شعبه، أو ليست هذه النبوءة السالفة الذكر هي التي تحققت بالحرف الواحد؟؟)[٢].

* جاء في إنجيل «يوحنا» ما نصه: (إذا كنتم تحبوني حفظتم وصاياي، وأنا سأسأل الآب فيهب لكم مؤيِّداً آخر يكون معكم للأبد) ١٤/ ١٥ ـ ١٦، ثم قال في فقرة لاحقة من نفس الإصحاح: (ولكن المؤيِّد الروح القدس الذي يرسله الآب باسمي، هو يعلمكم جميع الأشياء ويذكركم جميع ما قلته لكم) ١٤/ ٢٦[٣]. وقد نقل الشيخ رحمت الله الهندي هذا النص عن التراجم العربية المطبوعة سنة ١٨٢١م وسنة ١٨٣١م وسنة ١٨٤٤م في لندن على النحو التالي: (١٥ ـ إن كنتم تحبوني فاحفظوا وصاياي (١٦) وأنا أطلب من الآب فيعطيكم «فارقليط» آخر ليثبت معكم إلى الأبد (١٧) روح الحق الذي لن يطيق العالم أن يقبله لأنه ليس يراه ولا يعرفه، وأنتم تعرفونه لأنه مقيم عندكم، وهو ثابت فيكم (٢٦) والفارقليط روح القدس الذي يرسله الآب باسمي، وهو يعلمكم كل شيء وهو يذكركم كلما قلته لكم (٣٠) والآن قد قلت لكم قبل أن يكون حتى إذا كان تؤمنوا)[٤].

---

(١) رواه مسلم: (٤/ ١٧٨٢).
(٢) محمد في الكتاب المقدس: (٣٢).
(٣) العهد الجديد: (٣٣٧).
(٤) إظهار الحق: (٤/ ١١٨٥).

هذا النص المنسوب إلى المسيح ﷺ يتفق في مضمونه مع البشارة القرآنية الواردة على لسانه ﷺ: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦] وقد كان عيسى ﷺ يتكلم بالعبرانية، فلما كتبت الأناجيل باليونانية عبر عن المبشَّر به بلفظ «بيريكليتوس»، فلما عربت الأناجيل كتبها البعض بلفظ «الفارقليط»، وترجمها البعض بمعنى «المعزي». يقول الداعية أحمد ديدات[1]: («أحمد» أو «محمد» المثنى عليه أو الممدوح أو المحمود (The Praised One) هو تقريباً ترجمة للكلمة اليونانية «بيركليتوس» (Periclytos)؛ في إنجيل يوحنا الموجود حالياً (يوحنا ١٤:١٦؛ ١٥:٢٦، ١٦:٧) تأتي كلمة «كومفرتر» (Comforter) في النسخة الإنجليزية (والتي تترجم في التراجم العربية بـ«المعزي») عوضاً عن الكلمة اليونانية «باراكليتوس» (paracletos) التي تعني «المحامي» أو «المؤيد» أو «الشفيع» (Advocate) «الذي يدعى لمساعدة أو معاونة (إنسان) آخر، الصديق، أو الولي، الودود الحنون».

---

(١) أحمد ديدات: أحمد حسين ديدات. ولد سنة ١٩١٨م. هندي الأصل، ويعيش في «جنوب أفريقيا». تخرج من كلية «مولاي سلطان التقنية» واجتاز برنامجاً في الرسم الهندسي التقني، وفي رياضيات تشغيل اللاسلكي وصيانته. اشتغل بالدعوة إلى الله منذ أكثر من خمسة وثلاثين عاماً، وشارك في العديد من المؤتمرات الإسلامية والإقليمية والدولية. واعتنى بالرد على النصارى خاصة. ومناظرتهم في المحافل العامة، ففتح له في ذلك وأفحم خصومه بسعة اطلاعه على كتبهم الدينية، وبيان تناقضها وتحريفها، وقوة حجته، وطول نفسه، وسجل أكثر من اثنتي عشرة محاضرة ومناظرة تداولها الناس. وقد أنشأ لهذا الغرض معهداً إسلامياً اسمه «السلام»، وألف بضعة كتب عن النصرانية، منها: ماذا يقول الإنجيل عن محمد؟، هل الإنجيل كلمة الله؟، الصلب أو خرافة الصلب. وغيرها. منح براءة جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام عام ١٤٠٦هـ. انظر: التعريف به في النشرة الصادرة عن هيئة الجائزة.

وهذه الترجمة مفضلة عن ترجمتها بـ«المعزي». ويؤكد علماؤنا... أن كلمة «باراكليتوس» (paracletos) تفسير خاص محرف، أو قراءة محرفة لكلمة «بيريكليتوس» (periclytos) ومعناها: المستوجب للحمد. وأنه كان في القول الأصلي لعيسى نبوءة خاصة بنبينا الكريم «أحمد» بالاسم[(١)].

وحتى لو قرأناها «باراكليت» (بارقليط أو فارقليط) (paraclte) فإنها تشير إلى النبي الكريم «المبعوث» ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء] وهو ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة]... إنه من الواضح لكل الباحثين عن الحق بإخلاص أن محمداً ﷺ هو «الباراكليت» الموعود (The promised paraclete)، أو المعزي (Comforter) المسمى أيضاً على سبيل التخيير بالمساعد أو المعين (helper) والمحامي والمؤيد والشفيع (Advocate) والناصح الأمين أو المشير (Counsellor)... إلخ المذكور في نبؤات عيسى عليه السلام في إنجيل يوحنا)[(٢)].

* ويزيد الأمر وضوحاً حول شخصية «الفارقليط» أو «المعزي» ومهمته ودوره، ما جاء في إنجيل يوحنا على لسان المسيح عليه السلام: (أما الآن فإني ذاهب إلى الذي أرسلني. وما من أحدٍ منكم يسألني: إلى أين تذهب؟ بل ملأ الحزن قلوبكم لأني قلت لكم هذه الأشياء. غير أني أقول لكم الحق: إنه خير لكم أن أذهب. فإن لم أذهب لا يأتكم المؤيد. أما إذا ذهبت فأرسله إليكم وهو متى جاء أخزى العالم على الخطيئة والبر والدينونة. أما على الخطيئة فلأنهم لا يؤمنون بي، وأما على البر فلأني ذاهب إلى الآب فلن تروني، وأما على الدينونة فلأن سيد هذا العالم قد دين. لا يزال عندي أشياء كثيرة أقولها لكم، ولكن

---

(١) انظر: ما كتبه البرفسور عبد الأحد داود حول هذا التحريف في كتابه محمد في الكتاب المقدس: (٢١٩ ـ ٢٢٩)، وراجع ما تقدم من إثبات البشارة به في إنجيل برنابا في المبحث السابق في التمهيد.

(٢) مفهوم العلاقة بين الله والبشر في الأديان السماوية: (٣٠ ـ ٣٣).

لا تطيقون الآن حملها، فمتى جاء هو، أي روح الحق، أرشدكم إلى الحق كله، لأنه لن يتكلم من عنده، بل يتكلم بما يسمع، ويخبركم بما سيحدث، سيمجدني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم به) ١٦/ ٥ ـ ١٤[1].

وهذه البشارة بـ«المؤيد» أو «المعزي» كما في بعض الترجمات صدرت في الأيام الأخيرة من حياة المسيح عليه السلام قبل رفعه كما واضح في إنجيل يوحنا. ولعل فيها بياناً لسبب تلقيب المبشر به بـ«المعزي» أو على الأقل لترجمته بذلك. وهو أن رجاء قدومه وبعثه يزيل الكآبة التي ملأت قلوب الحواريين لفراق المسيح، فيكون في ذلك عزاء لهم. كما أن فيه دلائل قوية متعينة على إرادة النبي ﷺ بهذه البشارة منها:

١ ـ أنه يقيم الحجة البالغة على العالم.

٢ ـ أنه يبين مقتضى الإيمان الصحيح بالمسيح عليه السلام بين الغالي فيه والجافي عنه؛ بين النصارى الذين رفعوه فوق منزلته وألهوه وادعوا بنوته لله تعالى، واليهود الذين كفروا به وزعموا أنه ابن سفاح وآذوه أشد الإيذاء وهموا بقتله. وأما هو ﷺ فقد مجَّده، لأنه يتلقى الوحي من الله الذي أرسل كلاً منهما عليهما السلام وأداه كما سمعه. قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران]، وقال: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَـٰثَةٌ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَـٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾ [النساء]، وقال بعد سرد قصة ولادته: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَـٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾ [مريم].

(١) العهد الجديد: (٣٤٣ ـ ٣٤٤).

٣ ـ أنه يجيء بالحق الكامل، والهداية التامة الشاملة الموحى بها من عند الله تعالى: (فمتى جاء هو أي روح الحق أرشدكم إلى الحق كله، لأنه لن يتكلم من عنده بل يتكلم بما يسمع، ويخبركم بما سيحدث...)، قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

والمقصود من سياق هذه النصوص من التوراة والإنجيل التي بأيدي القوم، بيان موقفهم من الإسلام ونبيه ﷺ قبل البعثة، وأنهم يهوداً ونصارى كانوا يتطلعون إلى بعثته بفارغ الصبر، ويستفتحون بذلك على أعدائهم من الوثنيين، ويرون أنهم أولى الناس به، وأنه وارث دين إبراهيم عليه السلام.

وكانوا قبيل البعثة يخبرون عن نبي أظلَّهم زمانه، كما جاء في قصة إسلام سلمان الفارسي[(١)] رضي الله عنه الطويلة في رحلته للبحث عن الحق، وتنقله بين الأساقفة؛ كل واحدٍ يوصي به إذا حضرته الوفاة إلى مثله، فكان آخرهم صاحب عمورية، فقال له سلمان لما حُضِر: (يا فلان: إني كنت مع فلان، فأوصى بي فلان إلى فلان، وأوصى بي فلان إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إليك، فإلى من توصي بي؟ وما تأمرني؟ قال: أي بني والله ما أعلمه أصبح على ما كنا عليه أحد من الناس آمرك أن تأتيه، ولكنه قد أظلك زمان نبي هو مبعوث بدين إبراهيم، يخرج بأرض العرب، مهاجراً إلى أرض بين حرتين بينهما نخل، به علامات لا تخفى؛ يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة بين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل...)[(٢)] الحديث.

---

(١) سلمان الفارسي أبو عبد الله، ويقال له سلمان الخير. أصله من أصبهان، وقيل من رامه هرمز، من أول مشاهده الخندق، مات سنة (٣٤هـ). تقريب التهذيب (١/ ٣١٥).

(٢) رواه أحمد بطوله: (٥/ ٤٤٢ ـ ٤٤٣). وأصله مجملاً في صحيح البخاري: (٤/ ٢٧٠) عن سلمان رضي الله عنه أنه تداوله بضعة عشر سيداً.

ثانياً: موقف أهل الكتاب من الإسلام بعد البعثة النبوية:

لقد كان حرياً بأهل الكتاب أن يقبلوا البشارة، ويؤمنوا جميعاً بالنبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، موصوفاً بالأوصاف المنضبطة، مضروباً له الأمثال المنطبقة، حتى يؤتيهم الله كفلين من رحمته، ويجعل لهم نوراً يمشون به، ويغفر لهم، كما وعدهم. قال ﷺ: (ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه، وأدرك النبي ﷺ فآمن به واتبعه وصدقه، فله أجران...)[١] الحديث. ولكن مواقفهم تباينت؛ فمن سبقت له من الله الحسنى قَبِل البشرى وَقَرَّ بها عيناً. ومن حق عليه القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس، لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي بعث به نبيه الخاتم.

ويمكن القول إن موقف زعماء أهل الكتاب تحدد إبان العهد النبوي حيث كان اليهود يقطنون المدينة وما حولها، كما أنه ﷺ قد كاتب ملوك النصارى في مصر والحبشة وبلاد الشام، ووفد عليه نصارى نجران[٢]. ويتلخص في رفض دعوة الإسلام، وتكذيب رسوله، والإصرار على دين الآباء المحرف، حتى مع وهج السيف أو ذل الجزية.

أما الموقف «الشعبي» المتمثل في جمهور أهل الديانتين - سوى الزعماء الدينيين والمدنيين - فقد تفاوت تفاوتاً بيناً. فقد كان النصارى أكثر قبولاً للإسلام ومودة للمؤمنين واتباعاً للحق، بينما كان اليهود - كعادتهم - أغلظ قلوباً وطباعاً، وأشد عداوة للذين آمنوا، وقد سجل القرآن الكريم هذه الحقيقة بقوله: ﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ

---

(١) رواه البخاري (١/ ٣٣) ومسلم (١/ ١٣٤ - ١٣٥).

(٢) انظر: الباب الثالث. الفصل الثاني.

ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَـٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [المائدة].

وتأتي شهادة التاريخ موافقةً لما قرره القرآن الكريم حيث شهدت العقود الأولى التالية للفتوحات الإسلامية لبلاد الشام والعراق ومصر انخراط أعدادٍ كبيرة من سكان البلاد الأصليين من النصارى في الدين الجديد، وقد تمت عملية «إسلام» لا «أسلمة»، بشهادة المؤرخين المنصفين من الأعداء قبل الأصدقاء، ودهشتهم في نفس الوقت، وفي الدراسة المتميزة التي أعدها فيليب فارج[(١)]، ويوسف كرباج[(٢)] بعنوان: «المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي» يطرح الباحثان سؤالاً ملفتاً: (كيف تسنى لحفنة من الفاتحين، الذين يتميز إيمانهم بهذه الدرجة من الحمية، الفوز بولاء جماهير على هذه الدرجة من الضخامة، وعلى هذه الدرجة من البعد؟ كيف أمكن العثور في مصر وفي الهلال الخصيب على نقطة توازن بين الضغوط المتعارضة التي مثلها التوسع الإسلامي، والمقاومة المسيحية)[(٣)]؟ ويقدم الباحثان

---

(١) مدير مركز البحوث والوثائق الاقتصادية والقانونية والاجتماعية (القاهرة)، وباحث في المعهد الوطني للدراسات الديموغرافية (فرنسا)، مؤلف دراسات ديموغرافية عديدة عن الشرق العربي.

(٢) باحث بالمعهد الوطني للدراسات الديموغرافية (فرنسا)، مؤلف دراسات ديموغرافية عديدة عن المغرب الأقصى. من مقدمة كتابيهما.

(٣) المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي: فيليب فارج، =

إجابات متعددة، وتفسيرات متنوعة لهذا التساؤل نختلف معهما في أولويتها وأهميتها لكنهما ـ وهذا هو المهم ـ يعترفان (أن الإكراه عليه ـ أي اعتناق الإسلام ـ كان غائباً في أغلب الأحيان، وهو لم يحدث في تاريخ الإسلام العربي إلا بصفة استثنائية...

ومن ثم فإن جزءاً من السكان يتبنى الإسلام بسرعة، ويفوز بحكم تحوله إلى اعتناق الإسلام بالمواطنة التامة، وربما دون مكابدة قطيعة حقيقية، لأن الدين الجديد يقدم نفسه بوصفه امتداداً للمسيحية واليهودية)[1].

وأياً كانت الأسباب المفترضة، فإنا نعتقد أن السبب الحقيقي والأساس يرجع إلى أمرين:

أولهما: صحة دين الإسلام ونقائه ووضوحه وشموله، وموافقته للعقل والفطرة وتصديقه لما بين يديه من الكتاب.

ثانيهما: الأوصاف الحميدة التي ذكرها الله في كتابه عن مؤمني النصارى وهي:

١ ـ العلم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ﴾.

٢ ـ العبادة: ﴿وَرُهْبَانًا﴾.

٣ ـ التواضع: ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

٤ ـ قبول الحق ورقة الطباع: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ

= ويوسف كرباج. ترجمة: بشير السباعي. سينا للنشر بالتعاون مع البعثة الفرنسية للأبحاث والتعاون. القاهرة. الطبعة الأولى ١٩٩٤م. (٣٧).

(١) المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي (٣٨). والإسلام يمثل الحلقة الأخيرة من دين الله الحق لا اليهودية ولا النصرانية المحرفتين، بل امتداد لملة إبراهيم الذي ما كان يهودياً ولا نصرانياً، ولكن كان حنيفاً مسلماً.

أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

٥ ـ **العقل والشجاعة**: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

تلك هي المؤهلات الحقيقية التي تقود صاحبها للإيمان بالله ورسله في كل زمان ومكان، ومن كل جيل وقبيل بصرف النظر عن الانتماءات العرقية والدينية السابقة، لكن المؤثرات التاريخية والاجتماعية وحظوظ النفس وأهواءها، وحب الدنيا والشيطان صوارف عن سبيل الله، وقد تكثُر في قومٍ وتقل نسبياً عند آخرين.

ومنذ العهد النبوي، إلى يومنا هذا، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، يصر اليهود على يهوديتهم، والنصارى على نصرانيتهم، ويردون دين الإسلام الذي نسخ الله به جميع الشرائع السابقة، ويزعمون أنهم هم الذين على الحق، المستحقون لدخول الجنة، ومن سواهم كافر محروم منها. وفي بيان هذا الموقف العام المشترك يقول الله تعالى عنهم:

- ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [البقرة].
- ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة]،
- ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة].

■ ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [المائدة].

■ ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ [البقرة].

■ ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة].

هذا هو الموقف العام، ولكلٍ من الفريقين خصوصية زائدة توضحها نصوص خاصة، ووقائع كاشفة من السيرة النبوية.

أ ـ موقف اليهود من الإسلام:

١ ـ الجحود والاستكبار بعد العلم والبينة:

■ قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة].

قال ابن جرير ﷺ: (كان هؤلاء اليهود الذين لما جاءهم كتاب من عند الله مصدقٌ لما معهم من الكتب، التي أنزلها الله قبل الفرقان، كفروا به، يستفتحون بمحمد ﷺ، ومعنى الاستفتاح: الاستنصار، يستنصرون الله به على مشركي العرب من قبل مبعثه: أي من قبل أن يبعث ـ ثم روى بسنده عن عمر بن قتادة الأنصاري[1] عن أشياخٍ منهم ـ قالوا: فينا والله وفيهم، يعني في الأنصار وفي اليهود الذين كانوا جيرانهم نزلت هذه القصة... قالوا: كنا قد علوناهم دهراً في

(١) عمر بن قتادة بن النعمان الظَّفَري، الأنصاري، المدني، مقبول. تقريب التهذيب (٢/ ٦٢).

الجاهلية، ونحن أهل الشرك، وهم أهل الكتاب، فكانوا يقولون: إن نبياً مبعثه الآن قد أظل زمانه، يقتلكم قتل عادٍ وإرم، فلما بعث الله تعالى ذكره رسوله من قريش واتبعناه كفروا به..

وروى بسنده عن ابن عباس: أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب كفروا، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ بن جبل، وبشر بن البراء بن معرور[1] أخو بني سلمة: يا معشر يهود، اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ، ونحن أهل شرك، وتخبرونا أنه مبعوث، وتصفونه لنا بصفته، فقال سلام بن مشكم أخو بني النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكر لكم، فأنزل الله جل ثناؤه في ذلك من قولهم: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة][2].

■ ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾[3] [البقرة].

■ ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [البقرة][4].

---

(١) بشر بن البراء بن معرور، رضي الله عنهما، هو وأبوه صحابيان. مات من أكلة خيبر، من الشاة المسمومة التي أهدتها اليهودية للنبي ﷺ. انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٠٩).

(٢) جامع البيان: (١/ ٤١٠ ـ ٤١١).

(٣) تقدم بيان معناها في أول هذا الفصل.

(٤) تقدم بيان معناها في أول هذا الفصل.

■ عن ابن مسعود[(١)] رضي الله عنه قال: (إن الله ابتعث نبيه ﷺ لإدخال رجل الجنة، فدخل الكنيسة، فإذا هو بيهود، وإذا يهودي يقرأ عليهم التوراة، فلما أتوا على صفة النبي ﷺ أمسكوا، وفي ناحيتها رجل مريض، فقال النبي ﷺ: ما لكم أمسكتم؟ قال المريض: إنهم أتوا على صفة نبي فأمسكوا. ثم جاء المريض يحبو، حتى أخذ التوراة فقرأ حتى أتى على صفة النبي ﷺ وأمته. فقال: هذه صفتك وصفة أمتك. أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله ثم مات. فقال النبي ﷺ: لُوا أخاكم)[(٢)].

■ وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لو آمن بي عشرة من اليهود، لآمن بي اليهود»[(٣)]. وفي رواية عنه: «لو آمن بي عشرة من أحبار اليهود لآمن بي كل يهودي على وجه الأرض»[(٤)].

■ وعن أنس بن مالك[(٥)] رضي الله عنه، أن عبد الله بن سلام[(٦)] بلغه

---

(١) عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلي، أبو عبد الرحمن، من السابقين إلى الإسلام المقربين إلى رسول الله ﷺ، وكان خادمه وصاحب سره ورفيقه في حله وترحاله. توفي سنة (٣٢هـ).
الأعلام (١٣٧/٤)، الإصابة (٤٩٥٥)، غاية النهاية (٤٥٨/١)، صفة الصفوة (١٥٤/١)، حلية الأولياء (١٢٤/١).

(٢) رواه أحمد. المسند: (٤١٦/١).

(٣) رواه البخاري: (٢٦٩/٤)، مسلم (٢١٥١/٤).

(٤) رواه أحمد (٣٤٦/٢، ٣٦٢، ٤١٦).

(٥) أنس بن مالك بن النضر النجاري الخزرجي الأنصاري، أبو حمزة، خادم رسول الله ﷺ. أسلم صغيراً، وتوفي سنة ٩٣هـ. الأعلام (٢٤/٢)، صفوة الصفوة (٢٩٨/١).

(٦) عبد الله بن سلام الإسرائيلي، أبو يوسف، حليف بني الخزرج، قيل كان اسمه الحصين فسماه النبي ﷺ عبد الله. مشهور، له أحاديث وفضل مات بالمدينة سنة ثلاثون وأربعين. تقريب التهذيب (٤٢٢/١).

مقدم النبي ﷺ المدينة فأتاه يسأله عن أشياء، فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي، فذكرهن، وأخبره بخبرهن. . . فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. قال: يا رسول الله، إن اليهود قومٌ بُهُتٌ فاسألهم عني قبل أن يعلموا بإسلامي. فجاءت اليهود فقال النبي ﷺ: أي رجل عبد الله بن سلام فيكم؟ قالوا: خيرنا وابن خيرنا وأفضلنا وابن أفضلنا. فقال النبي ﷺ: أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام؟ قالوا: أعاذه الله من ذلك. فأعاد عليهم فقالوا مثل ذلك، فخرج عليهم عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. قالوا: شرنا وابن شرنا، وتنقصوه، قال: هذا كنت أخاف يا رسول الله)[(١)].

■ وعن عوف بن مالك[(٢)] ﷺ قال: انطلق النبي ﷺ يوماً وأنا معه، حتى دخلنا كنيسة اليهود بالمدينة يوم عيد لهم، فكرهوا دخولنا عليهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: يا معشر اليهود، أروني اثني عشر رجلاً يشهدون أنه لا إله إلا الله وأني محمداً رسول الله يحبط الله عن كل يهودي تحت أديم السماء الغضب الذي غضب عليه، قال: فأسكتوا، ما أجابه منهم أحد. ثم رد عليهم فلم يجبه أحد، ثم ثلث فلم يجبه أحد. فقال: أبيتم فوالله إني لأنا الحاشر وأنا العاقب، وأنا النبي المصطفى آمنتم أو كذبتم. ثم انصرف وأنا معه حتى إذا كدنا أن نخرج نادى رجل من خلفنا: كما أنت يا محمد. قال فأقبل، فقال ذلك الرجل: أي رجل تعلمون فيكم يا معشر اليهود؟ قالوا: والله ما نعلم أنه كان فينا رجل أعلم بكتاب الله منك، ولا أفقه منك، ولا من

---

(١) رواه البخاري: (٤/٢٦٨). وانظر سيرة النبي ﷺ: ابن هشام، أبو محمد عبد الملك. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. نشر إدارة البحوث العلمية والإفتاء. الرياض. (٢/١٣٨ ـ ١٣٩).

(٢) عوف بن مالك الأشجعي، أبو حماد، صحابي مشهور، من مسلمة الفتح، وسكن دمشق ومات سنة ثلاث وسبعين. تقريب التهذيب (٢/ ٩٠).

أبيك قبلك، ولا من جدك قبل أبيك، قال: فإني أشهد له بالله أنه نبي الله الذي تجدونه في التوراة، قالوا: كذبت ثم ردوا عليه قوله، وقالوا فيه شراً. قال رسول الله ﷺ: كذبتم، لن يقبل قولكم، أما آنفاً فتثنون عليه من الخير ما أثنيتم، ولما آمن كذبتموه، وقلتم فيه ما قلتم، فلن يقبل قولكم، قال: فخرجنا ونحن ثلاثة: رسول الله ﷺ وأنا وعبد الله بن سلام. وأنزل الله ﷻ فيه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠﴾[1] [الأحقاف].

■ وعن صفية بنت حيي[2] ﵂ قالت: (كنت أحب ولد أبي إليه وإلى عمي أبي ياسر، لم ألقهما قط مع ولدٍ لهما إلا أخذاني دونه. قالت: فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، ونزل بقباء في بني عمرو بن عوف، غدا عليه أبي حيي بن أخطب، وعمي أبو ياسر بن أخطب مُغَلِّسَيْن، قالت: فلم يرجعا حتى كان مع غروب الشمس، قالت: فأتيا كالَّين، كسلانين، ساقطين، يمشيان الهوينى، قالت: فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إلي واحدٌ منهما مع ما بهما من الغم. قالت: وسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي حيي بن أخطب: أهوَ هوَ؟ قال: نعم والله. قال: أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم، قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت)[3].

(١) رواه أحمد. المسند (٦/ ٢٥)، والطبراني في الكبير (١٨/ ٤٦، ٤٧)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٤١٥ ـ ٤١٦) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ١٠٥ ـ ١٠٦): رجاله رجال الصحيح.

(٢) صفية بنت حُيَي بن أخطب، الإسرائيلية، أم المؤمنين تزوجها النبي ﷺ بعد خيبر. وماتت سنة ستٍ وثلاثين. وقيل في ولاية معاوية، وهو الصحيح. تقريب التهذيب (٢/ ٦٠٣).

(٣) سيرة النبي ﷺ (١٠/ ١٤٠). وانظر: البداية والنهاية (٣/ ٢١٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: حضرت عصابة من اليهود رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم، حدثنا عن خلالٍ نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبي، فقال رسول الله ﷺ: سلوا عما شئتم، ولكن اجعلوا لي ذمة الله وما أخذ يعقوب على بنيه لئن أنا حدثتكم شيئاً فعرفتموه لتتابعني على الإسلام. فقالوا: ذلك لك، فقال رسول الله ﷺ: سلوني عما شئتم، فقالوا: أخبرنا عن أربع خلالٍ نسألك عنهن: أخبرنا أي الطعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة، وأخبرنا كيف ماء المرأة وماء الرجل، وكيف يكون الذكر منه والأنثى، وأخبرنا بهذا النبي الأمي في النوم، ومن وليُّه من الملائكة، فقال رسول الله ﷺ: عليكم عهد الله لئن أنا أنبأتكم لتتابعُنِّي، فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق، فقال: نشدتكم بالذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن إسرائيل مرض مرضاً شديداً فطال سقمه منه، فنذر نذراً لئن عافاه الله من سقمه ليحرمن أحب الطعام والشراب إليه، وكان أحب الطعام إليه لحم الإبل، فقالوا: اللهم نعم، فقال رسول الله ﷺ: أشهد الله عليكم، وأنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو الذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ، وأن ماء المرأة، أصفر رقيق، فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله، فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة، كان الولد ذكراً بإذن الله، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل كان الولد أنثى بإذن الله؟ قالوا: نعم. قال: اللهم اشهد، قال: وأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن هذا النبي الأمي تنام عيناه، ولا ينام قلبه؟ قالوا: اللهم نعم. قال: اللهم اشهد. قالوا: أنت الآن تحدثنا من وليك من الملائكة، فعندها نتابعك أو نفارقك. قال: فإن وليّي جبريل، ولم يبعث الله نبياً قط إلا وهو وليه. قالوا فعندها نفارقك. لو كان وليك سواه من الملائكة تابعناك وصدقناك. قال: فما يمنعكم أن تصدقوه؟ قالوا: إنه عدونا. فأنزل الله ﷻ: ﴿مَن كَانَ

عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧] إلى قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة] فعندها باءوا بغضب على غضب)(١).

هذه نماذج من مواقف النبي ﷺ مع يهود، استفرغ النبي ﷺ جهده في دعوتهم، وإقامة الحجة عليهم، فلم يكن منهم إلا الإعراض والصدود والجحد والتكذيب، بعد العلم والبينة، حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق.

٢ ـ الصد عن سبيل الله وإثارة الشبهات:

* قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [النساء]. وقد روى ابن جرير رحمه الله بسنده أن جماعة من أحبار اليهود قدموا على قريش فـ(قالوا: هؤلاء أحبار يهود، وأهل العلم بالكتاب الأول، فاسألوهم أدينكم خير، أم دين محمد؟ فسألوهم فقالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أهدى منه، وممن اتبعه، فأنزل الله فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾)(٢).

* وقال تعالى: ﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾ [البقرة]، روى ابن جرير رحمه الله عن مجاهد، والبراء، وابن عباس أن السفهاء هم اليهود(٣).

---

(١) جامع البيان: (١/ ٤٣١ ـ ٤٣٢) ورواه أحمد في مسنده (١/ ٢٧٣، ٢٧٨).
(٢) جامع البيان: (٥/ ١٣٥).
(٣) جامع البيان: (٢/ ١ ـ ٢).

وإنما أرادوا التشكيك والإثارة والطعن في هذا الدين للصد عنه والتنفير منه.

قال ابن كثير رحمه الله: (لما وقع هذا حصل لبعض الناس من أهل النفاق والريب، والكفرة من اليهود ارتياب وزيغ عن الهدى وتخبيط وشك، وقالوا: «ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها»؟ أي قالوا: ما لهؤلاء تارة يستقبلون كذا، وتارة يستقبلون كذا. فأنزل الله جوابهم: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ أي الحكم والتصرف والأمر كله لله)(١).

* قال تعالى: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٦٩﴾ [آل عمران]. قال ابن كثير رحمه الله: (يخبر تعالى عن حسد اليهود للمؤمنين وبغيهم إياهم الإضلال، وأخبر أن وبال ذلك إنما يعود على أنفسهم وهو لا يشعرون)(٢).

* وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

* وقال تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٧٢ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٧٣﴾ [آل عمران]. قال ابن كثير رحمه الله: (هذه مكيدة أرادوها ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم؛ وهو أنهم اشتوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار ويصلوا مع المسلمين صلاة الصبح، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا

---

(١) تفسير القرآن العظيم: (١/ ١٩٠).
(٢) تفسير القرآن العظيم: (١/ ٣٧٣).

إلى دينهم ليقول الجهلة من الناس: إنما ردهم إلى دينهم اطلاعهم على نقيصة وعيب في دين المسلمين)[١].

٣ ـ محاولة قتل النبي ﷺ وأذيته:

* نقل الحافظ ابن حجر[٢] في فتح الباري، وصحح إسناده، ما رواه ابن مردويه[٣] بسنده عن رجلٍ من أصحاب النبي ﷺ في قصة إجلاء يهود بني النضير، وفيه: (فأجمع بنو النضير على الغدر، فأرسلوا إلى النبي ﷺ، اخرج إلينا في ثلاثة من أصحابك، ويلقاك ثلاثة من علمائنا، فإن آمنوا بك اتبعناك ففعل، فاشتمل اليهود الثلاثة على الخناجر. فأرسلت امرأة من بني النضير إلى أخٍ لها من الأنصار، مسلم، تخبره بأمر بني النضير، فأخبر أخوها النبيَّ ﷺ قبل أن يصل إليهم، فرجع، وصبحهم بالكتائب... إلخ ثم قال الحافظ: وكذا أخرجه عبد بن حميد[٤] في تفسيره عن عبد الرزاق[٥]، وفي ذلك رد

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٧٣)، وانظر الآثار المروية في ذلك في جامع البيان (٣/ ٣١١ ـ ٣١٣).

(٢) ابن حجر (٧٧٣ ـ ٨٥٢هـ) أحمد بن علي بن محمد الكناني، العسقلاني، أبو الفضل، شهاب الدين، ابن حَجَر. من أئمة العلم والتاريخ، أصله من عسقلان بفلسطين، ومولده ووفاته بالقاهرة. أقبل على علم الحديث، ورحل إلى الحجاز واليمن وغيرهما لسماع الشيوخ، حتىٰ أصبح حافظ الإسلام في عصره. ولي قضاء مصر مرات. تصانيفه كثيرة جليلة منها: (فتح الباري شرح صحيح البخاري)، (لسان الميزان)، (الدرر الكامنة). انظر الأعلام (١/ ١٧٨).

(٣) ابن مردويه (٣٢٣ ـ ٤١٠هـ) أحمد بن موسى بن مردويه الأصبهاني، أبو بكر، ويقال له: ابن مردويه الكبير: حافظ مؤرخ مفسر، من أهل أصبهان. له كتاب «التاريخ» وكتاب في «تفسير القرآن» و«مسند» و«مستخرج» في الحديث. الأعلام (١/ ٢٦١).

(٤) عبد بن حميد بن نصر، الكسيّ، أبو محمد ثقة حافظ، مات سنة مائة وتسع وأربعين. تقريب التهذيب (١/ ٥٢٩).

(٥) عبد الرزاق بن همام بن نافع الصنعاني، أبو بكر، من أئمة الحديث وحفاظهم=

على ابن التين في زعمه أنه ليس في هذه القصة حديث بإسناد. قلت: فهذا أقوى مما ذكر ابن إسحاق..)[١].

* قال ابن إسحاق: (.. وخرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير يستعينهم في دية العامريين اللذين قتل عمرو بن أمية الضمري[٢]، فلما خلا بعضهم ببعض قالوا: لن تجدوا محمداً أقرب منه الآن، فمن رجل يظهر على هذا البيت، فيطرح عليه صخرةً فيريحنا منه؟ فقال عمرو بن جحاش بن كعب: أنا، فأتى رسول الله ﷺ الخبر فانصرف عنهم...)[٣].

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن يهودية أتت النبي ﷺ بشاة مسمومة فأكل منها، فجيء بها، فقيل: ألا نقلتها، قال: لا. فما زلت أعرفها في لهوات رسول الله ﷺ[٤].

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: سحر النبي ﷺ حتى إنه ليخيل إليه أنه يفعل الشيء وما فعله. حتى إذا كان ذات يوم وهو عندي دعا الله ودعاه. ثم قال: أشعرت يا عائشة أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه؟

= الأثبات، ولد سنة ١٢٦هـ، وله «المصنف» و«التفسير» و«الجامع الكبير» وغيرها توفي سنة ٢١١هـ. الأعلام (٣/ ٣٥٣)، تهذيب التهذيب (٦/ ٣١٠)، وفيات الأعيان (١/ ٣٠٣)، ميزان الاعتدال (٢/ ١٢٦)، الرسالة المستطرفة (٣١).

(١) فتح الباري، شرح صحيح البخاري: ابن حجر، شهاب الدين، أحمد بن علي بن محمد العسقلاني. دار المعرفة ـ بيروت. الطبعة الثانية. (٧/ ٢٥٥). وانظر: المصنف لعبد الرزاق (٥/ ٣٥٩ ـ ٣٦٠)، وسنن أبي داود (٣/ ٤٠٤ ـ ٤٠١).

(٢) عمرو بن أمية بن خويلد بن عبد الله، أبو أمية الضَّمري، صحابي مشهور، أول مشاهده بئر معونة. مات في خلافة معاوية. تقريب التهذيب (٢/ ٦٥).

(٣) عن سيرة النبي ﷺ لابن هشام (٢/ ١٩٢)، وانظر: فتح الباري (٧/ ٢٥٤).

(٤) صحيح البخاري (٣/ ١٤١)، صحيح مسلم (٤/ ١٧١٢).

قلت: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: جاءني رجلان فجلس أحدهما عند رأسي والآخر عند رجليّ، ثم قال: أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل؟ قال: مطبوب. قال: ومن طبّه؟ قال: لبيد بن الأعصم اليهودي من بني زريق. قال: فيما ذا؟ قال: في مُشطٍ ومُشاطَة وجُفِّ طلعةٍ ذكر[1]. قال: فأين هو؟ قال في بئر ذي أروان. قال: فذهب النبي ﷺ في أناسٍ من أصحابه إلى البئر، فنظر إليها وعليها نخل، ثم رجع إلى عائشة فقال: والله لَكأن ماءها نُقاعة الحِنَّاء، ولَكأن نخلها رؤوس الشياطين. قلت: يا رسول الله: أفأخرجته؟ قال: لا، أما أنا، فقد عافاني الله وشفاني، وخشيت أن أثوّر على الناس منه شراً، وأمر بها فدفنت)[2].

* وعن عائشة ﵂ قالت: كان على رسول الله ﷺ ثوبان قِطْرِيَّان غليظان، فكان إذا قعد فعرق ثقلا عليه، فقدم بَزٌّ من الشام لفلانٍ اليهودي، فقلت: لو بعثت إليه فاشتريت منه ثوبين إلى الميسرة. فأرسل إليه فقال: قد علمت ما يريد، إنما يريد أن يذهب بمالي، أو بدراهمي فقال رسول الله ﷺ: كذب، قد علم أني من أتقاهم لله، وأداهم للأمانة)[3].

* وعن جابر بن عبد الله ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن لكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله... الحديث)[4]، وكان يهودياً شاعراً، وكان يهجو رسول الله ﷺ ويحرض عليه[5].

---

(١) المُشط: الآلة التي يسرح بها الشعر، والمشاطة: ما يخرج من الشعر عند التسريح. وجف الطلع: الغشاء الذي يكون عليه.
(٢) صحيح البخاري: (٧/ ٢٩ ـ ٣٠).
(٣) رواه الترمذي: (٥/ ٢١٧). وقال: حديث عائشة حديث حسن غريب صحيح.
(٤) صحيح البخاري: (٥/ ٢٥).
(٥) انظر: فتح الباري: (٧/ ٢٥٩).

* وعن أنس بن مالك ﷺ قال: مر يهودي برسول الله ﷺ فقال: السَّامُ عليك. فقال رسول الله ﷺ: وعليك. فقال رسول الله ﷺ: أتدرون ما يقول؟ قال: السّامُ عليك. قالوا: يا رسول الله، ألا نقتله؟ قال: لا، إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم)(١).

* وعن علي ﷺ أن يهودية كانت تشتم النبي ﷺ وتقع فيه، فخنقها رجلٌ حتى ماتت، فأبطل رسول الله ﷺ دمها)(٢).

٤ ـ موالاة الكافرين والمنافقين، ومعاداة المؤمنين:

* قال تعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَـٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ [المائدة].

* وقال عن المنافقين: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾ [البقرة]. قال ابن عباس ﷺ: (شياطينهم من يهود، الذين يأمرونهم بالتكذيب وخلاف ما جاء به الرسول)(٣).

* وجاء في خبر بني النضير، فيما رواه أبو داود وغيره عن رجلٍ من أصحاب النبي ﷺ، وفيه: (.. فكتبت كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود: إنكم أهل الحلقة والحصون، وإنكم لتُقاتلُن صاحبنا، أو لنفعلن كذا وكذا، ولا يحول بيننا وبين خَدَم نسائكم شيء ـ وهي الخلاخيل، فلما بلغ كتابهم النبي ﷺ أجمعت بنو النضير بالغدر...

(١) صحيح البخاري: (٨/ ٥١).

(٢) سنن أبي داود: (٤/ ٥٢٩ ـ ٥٣٠).

(٣) جامع البيان: (١/ ١٣٠).

الحديث)[١]. ونقل الحافظ ابن حجر رحمه الله عن موسى بن عقبة[٢] رحمه الله في المغازي قال: (كانت النضير قد دسوا إلى قريش، وحضوهم على قتال رسول الله ﷺ، ودلوهم على العورة)[٣]. فكانت هذه خيانةٌ منهم لعهد رسول الله ﷺ، وسبباً، بالإضافة إلى ما تقدم من محاولة قتلهم إياه، في إجلائهم عن المدينة، وبذلك يكونون هم البادؤون في حرب رسول الله ﷺ ونقض عهده، كما قال ابن عمر رضي الله عنهما: (أن يهود بني النضير وقريظة حاربوا رسول الله ﷺ...)[٤].

* نقل الحافظ ابن حجر رحمه الله عن موسى بن عقبة رحمه الله في مغازيه قال: (خرج حيي بن أخطب بعد قتل بني النضير إلى مكة يحرض قريشاً على حرب رسول الله ﷺ، وخرج كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق يسعى في غطفان ويحضهم على قتال رسول الله ﷺ على أن لهم نصف ثمر خيبر...)[٥].

فلما تحزب الأحزاب، وحاصروا المدينة نقض بنو قريظة العهد، وانضموا إلى الأحزاب، ولحق المسلمين شدة عظيمة، وجهد وجوع كما قال تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾﴾ [الأحزاب]. قال موسى بن عقبة رحمه الله: (وأمر كعب بن أسد وبنو قريظة حيي بن أخطب

---

(١) سنن أبي داود (٣/ ٤٠٥ ـ ٤٠٦).

(٢) موسى بن عقبة بن أبي عياش، الأسدي، مولى آل الزبير، ثقة فقيه إمام في المغازي. مات سنة مائة وإحدى وأربعين، وقيل بعد ذلك. تقريب التهذيب (٢/ ٣٨٦).

(٣) فتح الباري: (٧/ ٢٥٥).

(٤) صحيح البخاري: (٥/ ٢٢)، صحيح مسلم (٣/ ١٣٨٧)، سنن أبي داود (٣/ ٤٠٧).

(٥) فتح الباري: (٧/ ٣٠١)، وانظر: سيرة النبي ﷺ (٣/ ٢٢٩ ـ ٢٣٠).

أن يأخذ لهم من قريش وغطفان رهائن لئلا ينالهم ضيم إن هم رجعوا ولم يناجزوا محمداً. قالوا: وتكون الرهائن تسعين رجلاً من أشرافهم، فنازلهم حيي على ذلك فعند ذلك نقضوا العهد، ومزقوا الصحيفة التي كان فيها العقد...)[١].

وستظل هذه العداوة بين المسلمين ويهود إلى قيام الساعة، كما تدل عليه الأحاديث النبوية الصحيحة:

* عن ابن عمر ﵄ أن رسول الله ﷺ قال: تقاتلون اليهود حتى يختبئ أحدهم وراء الحجر فيقول: يا عبد الله، هذا يهودي ورائي فاقتله)[٢].

* وعن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله، إلا الغرقد، فإنه من شجر اليهود)[٣].

وواقع الحال من تسلط اليهود على أرض فلسطين دليل متجدد على عداوتهم الأزلية الأبدية للمسلمين، وعلم من أعلام النبوة، وبشارات الفرج.

ب ـ موقف النصارى من الإسلام:

لا يختلف الموقف العام للنصارى من الإسلام عن موقف اليهود. فكلا الطائفتين أصرت على عقائدها السابقة، وردت الحق الذي جاء به محمد ﷺ، وحافظت على تنظيماتها الدينية، وقياداتها

---

(١) انظر: البداية والنهاية: (٤/ ١٠٣)، وسيرة النبي ﷺ لابن هشام (٢٣٥ ـ ٢٣٨).

(٢) صحيح البخاري: (٣/ ٢٣٢).

(٣) صحيح البخاري: (٣/ ٢٣٢) واللفظ لمسلم (٤/ ٢٢٣٩).

المرجعية المرسومة قبل مجيء الإسلام. ولا يعهد أن فرقة من فرق النصارى المعروفة ـ على كثرتها ـ أعلنت اعتناقها للدين الجديد، وانخلاعها من الأوضاع السابقة. وإنما يتميز النصارى على اليهود على المستوى الفردي، حيث تحفظ وقائع السيرة النبوية مواقف مشرفة صادقة لعدد من الأفراد الذين كانوا على النصرانية، فاعتنقوا الإسلام، أو على الأقل أبدوا مظاهر التبجيل والتعظيم لنبيه ﷺ وتأدبوا معه. ويقع هذا الموقف الفردي المتعاطف من أعلى القيادات السياسية والدينية للنصارى كما يقع من سائر الأفراد. بينما نفتقد هذا الملحظ بالنسبة لليهود، حتى قال ﷺ: «لو آمن بي عشرة من اليهود ـ وفي رواية من أحبار اليهود ـ لآمن بي كل يهودي على وجه الأرض»[(١)].

وسنسوق أدناه بعض الشواهد لاستجلاء هذا الموقف، وبيان أوجه الموافقة والمفارقة مع ما سبق.

* إن أول اتصال جرى بين الإسلام والنصارى كان في الساعات الأولى من البعثة[(٢)]. فقد جاء في قصة بدء الوحي، بعد أن عاد ﷺ من غار حراء ـ حيث جاءه الملك ـ إلى زوجه خديجة رضي الله عنها يرجف فؤاده فطمأنته ثم: (انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة، وكان امرءاً قد تنصَّر في الجاهلية، وكان

---

(١) متفق عليه. صحيح البخاري (٤/٢٦٩)، صحيح مسلم (٤/١٥١). وقد تقدم.

(٢) يذكر بعض المؤرخين للسيرة النبوية قصة «بحيرا»، ويحاول بعض المغرضين من المستشرقين ومتعصبة النصارى الاحتجاج بها على حصول صلة وتتلمذ بين نبي الإسلام ﷺ ورهبان النصارى، وقد درس د. أكرم ضياء العمري هذه الحادثة وتتبع أسانيدها الضعيفة ونقدها. انظر: السيرة النبوية الصحيحة: د. أكرم ضياء العمري. مكتبة العبيكان. الرياض. الطبعة الأولى ١٤١٦هـ. (١/ ١٠٦ ـ ١١١).

يكتب الكتاب العِبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عَمي، فقالت خديجة: يا ابن عم: اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى. فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزَّل الله على موسى. يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: أو مخرجي هم؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً، ثم لم ينشب ورقة أن توفي)[١].

* وعن أم سلمة[٢] ﵂ أنها قالت: (لما ضاقت مكة، وأوذي أصحاب رسول الله ﷺ، وفتنوا، ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان رسول الله ﷺ في منعة من قومه ومن عمه، لا يصل إليه شيء مما يكره، ومما ينال أصحابه، فقال لهم رسول الله ﷺ: «إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم أحدٌ عنده، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه» فخرجنا إليه أرسالاً، حتى اجتمعنا بها، فنزلنا بخير دار إلى خير جار، آمنين على ديننا، ولم نخش فيه ظلماً).

* وفي رواية عنها قالت: (لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار، النجاشي، أمِنَّا على ديننا، وعبدنا الله، لا نؤذى، ولا نسمع شيئاً نكرهه)[٣].

---

(١) صحيح البخاري: (١/٣ ـ ٤).
(٢) أم سلمة: أم المؤمنين هند بنت سهيل المعروف بأبي أمية، القرشية المخزومية ﵂. تزوجها النبي ﷺ في السنة الرابعة من الهجرة، وكانت من أكمل النساء عقلاً وخلقاً، توفيت بالمدينة سنة ٦٢هـ.
الأعلام (٨/٩٧)، صفوة الصفوة (٢/٧٠)، الإصابة في تمييز الصحابة (كتاب النساء).
(٣) مسند أحمد (١/٢٠٢ ـ ٢٠٣)، (٥/٢٩٠)، دلائل النبوة للبيهقي (٣٠٢)، =

* وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه في قصة الهجرة: (وبعثت قريش عمرو بن العاص[١]، وعمارة بن الوليد بهدية. فلما دخلا على النجاشي سجدا له، ثم ابتدراه عن يمينه وعن شماله، ثم قالا له: إن نفراً من بني عمنا نزلوا أرضك ورغبوا عنا وعن ملتنا. قال: فأين هم؟ قالا: في أرضك فابعث إليهم، فبعث إليهم. قال جعفر[٢]: أنا خطيبكم اليوم، فاتَّبعوه. فسلم ولم يسجد، فقالوا له: ما لك لا تسجد للملك؟ قال: إنا لا نسجد إلا لله عز وجل. قال: وما ذاك؟ قال: إن الله بعث إلينا رسولاً، ثم أمرنا ألا نسجد لأحدٍ إلا لله عز وجل. وأمرنا بالصلاة والزكاة، قال عمرو: فإنهم يخالفونك في عيسى ابن مريم. قال: فما تقولون في عيسى ابن مريم وأمه. قال: نقول كما قال الله: هو كلمته وروحه ألقاها إلى العذراء البتول التي لم يمسها بشر، ولم يفرضها ولد. قال: فرفع عوداً من الأرض، ثم قال: يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان، والله ما يزيدون على الذي نقول فيه ما يسوى هذا، مرحباً بكم، وبمن جئتم من عنده أشهد أنه رسول الله، وأنه الذي نجد في الإنجيل، وأنه الرسول الذي بشر به عيسى ابن مريم، انزلوا حيث شئتم. والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أكون أنا الذي أحمل نعليه، وأمر بهدية الآخرين فردت إليهما...)[٣].

= دلائل النبوة لأبي نعيم (١/ ٢٤٨). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٢٧): (رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع).

(١) عمرو بن العاص بن وائل السهمي، الصحابي المشهور، أسلم عام الحديبية. مات سنة نيف وأربعين. وقيل بعد الخمسين. تقريب التهذيب (٢/ ٧٢).

(٢) جعفر بن أبي طالب، الهاشمي، ذو الجناحين، الصحابي الجليل، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم استشهد في غزوة مؤتة، سنة ثمان من الهجرة. تقريب التهذيب (١/ ١٣١).

(٣) مسند أحمد (١/ ٤٦١)، والبيهقي في دلائل النبوة ص (٢٩٨). وقال ابن كثير في البداية والنهاية: (وهذا إسناد جيد قوي وسياق حسن) (٣/ ٦٩).

* وفي رواية أم سلمة، لما قرأ جعفر على النجاشي صدر سورة ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ قالت: (فبكى والله النجاشي حتى أخضل لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة. انطلقا فوالله لا أسلمهم إليكم أبداً ولا أكاد . . ـ ولما أراد عمرو بن العاص أن يكيدهم في اليوم التالي بسؤالهم عن عيسى ابن مريم، فأجابوا الملك بالحق الذي جاء به القرآن ـ قالت: فضرب النجاشي يده على الأرض فأخذ منها عوداً، ثم قال: ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود. فناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم والله. اذهبوا فأنتم سيوم بأرضي. والسيوم: الآمنون. من سبكم غُرم، من سبّكم غُرم، من سبّكم غُرم. فما أحب أن لي دير ذهب وأني آذيت رجلاً منكم، والديْر بلسان الحبشة الجبل. . .)[1].

* وفي رواية موسى بن عقبة أنه لما وافقهم على قولهم في عيسى ابن مريم: (فقال عظماء الحبشة: والله لئن سمعت الحبشة لتخلعنك. فقال: والله لا أقول في عيسى غير هذا أبداً. . .)[2].

* وعن جعفر بن أبي طالب ﷺ في قصة الهجرة إلى الحبشة قال: (فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وظهر بها قلنا له: إن رسول الله ﷺ قد ظهر وهاجر إلى المدينة، وقتل الذين كنا حدثناك عنهم، وقد أردنا الرحيل إليه فردنا. قال: نعم. فحملنا وزوّدنا، ثم قال: أخبر صاحبك بما صنعت إليكم، وهذا صاحبي معكم، أشهد أن لا إله إلا الله، وأنه رسول الله، وقل له: يستغفر لي. قال جعفر: فخرجنا حتى أتينا المدينة، فتلقاني رسول الله ﷺ واعتنقني، ثم قال:

---

(١) تقدم تخريجه قريباً. ومعنى «ناخرت» وفي لفظ «تناخرت» أي تكلموا بكلامٍ يشوبه الغضب والنفور. والبطارقة: جمع بطريق وهم رجال الكنيسة.
(٢) انظر: السيرة النبوية لابن كثير (٢/١٩ ـ ٢٠).

ما أدري أنا بفتح خيبر أفرح أم بقدوم جعفر. ووافق ذلك فتح خيبر. ثم جلس، فقال رسول النجاشي: هذا جعفر فسله ما صنع به صاحبنا. فقال: نعم، فعل بنا كذا وكذا، وحملنا، وزوَّدنا، وشهد أن لا إلٰه إلا الله وأنك رسول الله، وقال لي: قل له يستغفر لي. فقام رسول الله ﷺ فتوضأ ثم دعا ثلاث مرات: اللهم اغفر للنجاشي، فقال المسلمون: آمين. ثم قال جعفر: فقلت للرسول: انطلق فأخبر صاحبك بما رأيت من رسول الله ﷺ)[١].

* وعن جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ حين مات النجاشي: (مات اليوم رجل صالح، فقوموا فصلوا على أخيكم أصحمة)[٢].

* وعن ابن عباس ﷺ أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، وكانوا تجاراً بالشام في المدة التي كان رسول الله ﷺ مادَّ فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوه وهم بإيلياء فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا ترجمانه، فقال: أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: قلت: أنا أقربهم نسباً، فقال: أدنوه مني، وقربوا أصحابه، فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لهم إني سائل هذا عن الرجل، فإن كذبني فكذبوه. قال: فوالله لولا الحياء من أن يأثروا علي كذباً لكذبت عنه. ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب. قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا. قال: فهل كان من آبائه من ملكٍ؟ قلت: لا. قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم. قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون. قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد

---

(١) رواه الحافظ ابن عساكر في تاريخه في ترجمة جعفر بن أبي طالب، وقال في إثرها: حسن غريب نقلاً عن السيرة النبوية لابن كثير (٢/ ١٥ ـ ١٧).
(٢) صحيح البخاري: (٤/ ٢٤٦)، (٢/ ٨٨).

أن يدخل فيه؟ قلت: لا. قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها. قال: ولم تمكني كلمة أُدخِل فيها شيئاً غير هذه الكلمة. قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه. قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول: اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة. فقال للترجمان: قل له: سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها. وسألتك هل قال أحدٌ منكم هذا القول، فذكرت أن لا، فقلت لو كان أحدٌ قال هذا القول قبله، لقلت رجل يتأسّى بقولٍ قيل قبله، وسألتك هل كان من آبائه من ملك، فذكرت أن لا. قلت: فلو كان من آبائه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه. وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أن لا. فقد أعرِف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك: أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم، فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل. وسألتك: أيزيدون أم ينقصون، فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم. وسألتك: أيرتد أحدٌ سخطةً لدينه بعد أن يدخل فيه، فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب. وسألتك هل يغدر، فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك بما يأمركم، فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف. فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين. وقد كنت أعلم أنّه خارج، لم أكن أظن أنه منكم. فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به

دحية[١] إلى عظيم بصرى فدفعه إلى هرقل، فقرأه فإذا فيه: (بسم الله الرحمٰن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل، عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى. أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم اليريسيين. ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواءٍ بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون. قال أبو سفيان: فلما قال ما قال، وفرغ من قراءة الكتاب كثر عنده الصخب، وارتفعت الأصوات، وأخرجنا. فقلت لأصحابي حين أخرجنا: لقد أَمِرَ أمرُ ابن أبي كبشة، إنه يخافه ملك بني الأصفر، فما زلت موقناً أنه سيظهر حتى أدخل الله علي الإسلام.. وقال في آخره: فأذن هرقل لعظماء الروم في دسكرةٍ له بحمص، ثم أمر بأبوابها فغلقت، ثم اطلع فقال: يا معشر الروم: هل لكم في الفلاح والرُّشد، وأن يثبت ملككم، فتبايعوا هذا النبي؟ فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غلقت، فلما رأى هرقل نفرتهم، وأيس من الإيمان، قال: ردوهم علي. وقال: إني قلت مقالتي آنفاً أختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيت. فسجدوا له ورضوا عنه. فكان ذلك آخر شأن هرقل)[٢].

* وقد روى الإمام أحمد وغيره ما يدل على تكرار هذا الموقف من هرقل مع قومه في السنة التاسعة للهجرة حين غزا النبي ﷺ غزوة تبوك، لما بلغه أن الروم قد حشدوا للمسلمين، فلم يجد لهم أثراً، ولم يلق حرباً، وبعث كتاباً إلى هرقل: (.. فلما أن جاءه كتاب رسول الله ﷺ دعا قسيسي الروم وبطارقتها ثم أغلق عليه وعليهم باباً

---

(١) هو دحية بن خليفة بن فرزة بن فضالة الكلبي، صحابي جليل، مات في خلافة معاوية. تقريب التهذيب (١/ ٢٣٥).

(٢) صحيح البخاري: (١/ ٥ ـ ٧)، صحيح مسلم (٣/ ١٣٩٣ ـ ١٣٩٧).

فقال: قد نزل هذا الرجل حيث رأيتم، وقد أرسل إلي يدعوني إلى ثلاث خصال؛ يدعوني إلى أن أتَّبعه على دينه، أو على أن نعطيه مالنا على أرضنا، والأرض أرضنا، أو نلقي إليه الحرب. والله لقد عرفتم فيما تقرؤون من الكتب، ليأخذن ما تحت قدميّ، فهلم نتبعه على دينه أو نعطيه ما لنا على أرضنا، فنخروا نخرة رجلٍ واحد حتى خرجوا من برانسهم وقالوا: تدعونا إلى أن ندع النصرانية أو نكون عبيداً لأعرابي جاء من الحجاز؟! فلما ظن أنهم إن خرجوا من عنده أفسدوا عليه الروم رفأهم[١]، ولم يكد، وقال: إنما قلت ذلك لكم لأعلم صلابتكم على أمركم...

- ثم ذكر تمام القصة، وبعث هرقل للتنوخي ليتثبت له من ثلاث خصال، وفيه أن رسول الله ﷺ قال: يا أخا تنوخ إني كتبت بكتابٍ إلى كسرى فمزقه، والله ممزقه، وممزق ملكه، وكتبت إلى النجاشي[٢] بصحيفة فخرقها، والله مُخرِقُه ومُخرق ملكه، وكتبت إلى صاحبك بصحيفة فأمسكها، فلن يزال الناس يجدون منه بأساً، ما دام في العيش خير)[٣].

* عن حذيفة رضي الله عنه قال: (جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه. قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل، فوالله لئن كان نبياً فلاعنّا لا نفلح ولا عقبنا من بعدنا. قالا: إنا نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلاً أميناً، ولا تبعث معنا إلا أميناً. فقال: لأبعثن معكم رجلاً أميناً حق أمين، فاستشرف له أصحاب

---

(١) رفأهم: أي ترفق بهم حتى أسكتهم.

(٢) في صحيح مسلم عن أنس: (وليس بالنجاشي الذي صلى عليه النبي ﷺ) (١٣٩٧/٣).

(٣) مسند أحمد (٤٤١/٣ - ٤٤٢)، (٧٤/٤)، ومدار الرواية على سعيد بن أبي راشد وهو مقبول.

رسول الله ﷺ. فقال: قم يا أبا عبيدة بن الجراح، فلما قام، قال رسول الله ﷺ: هذا أمين هذه الأمة)[(١)].

هكذا روى البخاري قصة وفد نصارى نجران مختصراً، وقد أفاض أهل التواريخ في تفصيل وقائع القصة بما لا يرتقي إلى درجة الصحة، ويطول سرده[(٢)]، ونكتفي بقطعة رواها ابن إسحاق صاحب السير، قال:

قدم على رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران ستون راكباً، منهم أربعة وعشرون رجلاً من أشرافهم، والأربعة والعشرون منهم ثلاثة نفر إليهم يؤول أمرهم: العاقب أمير القوم، وذو رأيهم، وصاحب مشورتهم، والذي لا يصدرون إلا عن رأيه وأمره، واسمه عبد المسيح. والسيد: ثِمالُهم وصاحب حلهم ومجتمعهم، واسمه، الأيهم، وأبو حارثة بن علقمة أخو بني كعب بن وائل أسقفهم، وحبرهم، وإمامهم، وصاحب مدراسهم. وكان أبو حارثة قد شرف فيهم ودرس كتبهم، وكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شرَّفوه وموَّلوه، وأخدموه، وبنوا له الكنائس، وبسطوا عليه الكرامات لما يبلغهم عنه من علمه واجتهاده في دينهم.

فلما وجَّهوا إلى رسول الله ﷺ من نجران، جلس أبو حارثة على بغلة له موجهاً إلى رسول الله ﷺ، وإلى جنبه أخٌ له يقال له: كرز بن علقمة يسايره، إذ عثرت بغلة أبي حارثة، فقال له كرز: تعس الأبعد، يريد رسول الله ﷺ، فقال له أبو حارثة: بل أنت تعست. فقال: ولِمَ يا أخي؟ فقال: والله إنه النبي الأمي الذي كنا ننتظره. فقال له كُرز:

---

(١) صحيح البخاري: (٥/ ١٢٠).
(٢) انظر: البداية والنهاية: (٥/ ٥٢ ـ ٥٦) وتفسير ابن كثير (١/ ٣٦٨ ـ ٣٧٠)، زاد المعاد (٣/ ٦٢٩ ـ ٦٣٨). فتح الباري (٨/ ٧٣ ـ ٧٤).

فما يمنعك من اتباعه وأنت تعلم هذا؟ فقال: ما صنع بنا هؤلاء القوم: شرفونا، وموّلونا، وأكرمونا، وقد أبوا إلا خِلافه، ولو فعلت نزعوا منا كل ما ترى، فأضمر عليها منه أخوه كرز بن علقمة حتى أسلم بعد ذلك)(١).

هذه أربعة أمثلة تظهر أربعة مواقف فردية للنصارى، من الإسلام:

١ ـ ورقة بن نوفل: الحبر المؤمن الذي عرف الحق فاتبعه.

٢ ـ والنجاشي: الملك المؤمن، الذي عرف الحق فاتبعه، ولم يعبأ بتهديد بطارقته.

٣ ـ وهرقل: الملك العالم، الذي عرف الحق، لكنه ضن بملكه، وانخذل أمام قومه.

٤ ـ وأبو حارثة ابن علقمة: أسقف نجران، الذي عرف الحق، لكنه آثر الحياة الدنيا وزينتها.

وخلف هذه الرموز يقف مئات بل ألوفٌ من النصارى يتخذون مواقف مشابهة، لا يتسع ديوان التاريخ لتقييدها جميعاً، لكن المحصلة العامة لحركة التاريخ، تثبت ما أسلفنا من تهيؤ النصارى لقبول الحق أكثر من اليهود، كما تثبت الشواهد السابقة حرص المؤسسة الكنسية بتنظيماتها المختلفة على التمسك بنصرانيتها حفاظاً على السيادة والقيادة والمصالح الشخصية. قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة]. ويحلو لبعض الكتاب المحدثين والصحفيين المدهنين، أن يتوددوا إلى النصارى باستدعاء

(١) نقلاً عن زاد المعاد (٣/ ٦٢٩ ـ ٦٣٠).

الشواهد التاريخية على تعاطف النصارى مع المسلمين، وتمييع قضية العداوة الأزلية بين الفريقين التي نطقت بها نصوص الوحيين، والتلبيس على الناس بالخلط بين المواقف الفردية لآحاد النصارى الصادقين في طلب الحق، والموقف العدائي الدائم للكنيسة على اختلاف اتجاهاتها، وتعدد فرقها. إن مقتضى الأمانة التاريخية ـ فضلاً عن الثوابت العقدية ـ تقضي بإبراز المواقف العدائية العنيفة للنصارى ضد المسلمين منذ العهد النبوي وحتى يومنا هذا، ومحاولة فتنتهم عن دينهم، شواهد ذلك في العهد النبوي:

□ حشدهم مائتي ألف مقاتل من الروم ونصارى العرب في معركة «مؤتة» مقابل ثلاثة آلاف مجاهد من المسلمين[١].

□ قتلهم فروة بن عمرو الجذامي ـ عامل الروم على من يليهم من العرب ـ لما أسلم، وصلبهم إياه[٢].

□ قتلهم «صفاطر» الأسقف، لما شهد شهادة الحق، وقد كان مقدماً معظماً عند الروم[٣]. بالإضافة إلى ما تقدم سرده من مواقف بطارقة هرقل والنجاشي ونصارى نجران، والله المستعان.

وأما التاريخ الإسلامي فحافلٌ بالعلاقات العدائية الدموية ـ كما سنلمح إليه في الفصل التالي ـ بين المسلمين والنصارى. وشواهد العصر الحديث حاضرة ماثلة في مواقع متعددة من العالم كالفلبين، وأندونيسيا، وأرتريا، والبلقان.

يبقى أن نقرر جازمين أن هذه العلاقة العدائية ستظل إلى يوم

---

(١) انظر: ما أفرد في وصف المعركة مثل: غزوة مؤتة: لمحمد أحمد باشميل. وغزوة مؤتة لشوقي أبو خليل وغيرهما.

(٢) انظر: سيرة النبي ﷺ لابن هشام (٤/ ٢٦١).

(٣) انظر: البداية والنهاية: (٤/ ٢٦٧).

القيامة عداوةً أبدية، لإخبار الله ورسوله ﷺ بذلك ثم بحكم اختلاف الاعتقاد من جهة، ولما يتميز به هؤلاء النصارى ممثلين بالروم من صفاتٍ وخصائص نوعية، من جهة أخرى، تبقي لهم أسباب القوة المادية، والشوكة الحربية، فلا يزال الناس يجدون منهم بأساً، كما قال ﷺ[(١)]. وقد روى مسلم[(٢)] رحمه الله أن المستورد القرشي[(٣)] رضي الله عنه قال عند عمرو بن العاص رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (تقوم الساعة والروم أكثر الناس) فقال له عمرو: أبصر ما تقول. قال: أقول ما سمعت من رسول الله ﷺ، قال: لئن قلت ذلك، إن فيهم لخصالاً أربعاً: إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرة بعد فرةً، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف. وخامسة حسنة جميلة: وأمنعهم من ظلم الملوك)[(٤)]. وفي لفظ عند مسلم أيضاً: (وأجبر الناس عند مصيبة، وخير الناس لمساكينهم وضعفائهم)[(٥)].

وعنه رضي الله عنه قال: بينا أنا عند عمرو بن العاص فقلت له: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (أشد الناس عليكم الروم، وإنما هلكتهم مع الساعة) فقال له عمرو: ألم أزجرك عن مثل هذا[(٦)].

---

(١) تقدم في قصة التنوخي (٢٢٩).

(٢) مسلم بن الحجاج بن مسلم، القشيري النيسابوري، ثقة، حافظ، إمام، مصنف، عالم بالفقه، مات سنة إحدى وستين ومائتين. وله سبع وخمسون سنة. تقريب التهذيب (٢/ ٢٤٥).

(٣) المستورد بن شداد بن عمرو القرشي، الفهري، حجازي، نزل الكوفة، له ولأبيه صحبة. مات سنة خمس وأربعين. تقريب التهذيب (٢/ ٢٤٢).

(٤) صحيح مسلم: (٤/ ٢٢٢٢).

(٥) المرجع السابق.

(٦) مسند أحمد (٤/ ٢٣٠). ولعله زجره عن ذلك حتى لا يفت في أعضاد الناس في قتالهم. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٢١٥): رواه أحمد وفيه ابن لهيعة، وفيه ضعف، وحديثه حسن وبقية رجاله رجال الصحيح.

وقد أخبر النبي ﷺ عن الفتن والملاحم التي تكون في آخر الزمان بين أهل الإسلام وعبدة الصلبان بما لا يدع مجالاً للشك في أبدية هذه العداوة، وأن ما يجري هذه الأيام منهم من مجاملات ومودات إنما هو قشرة رقيقة ظاهرة تخفي تحتها عداوة متأصلة، وكيداً خفياً، وإحناً وأحقاداً لا يطفئ لهيبها إلا أن نتبع ملتهم ـ عياذاً بالله ـ ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة]، ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: ٨]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [آل عمران].

ومن أمثلة هذه الأحاديث الصحيحة:

■ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق[1]، فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذٍ فإذا تصافُّوا قالت الروم: خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم، فيقول المسلمون: لا والله لا نخلي بينكم وبين إخواننا. فيقاتلونهم، فينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبداً، ويقتل ثلثهم، أفضل الشهداء عند الله، ويفتتح الثلث لا يفتنون أبداً. فيفتحون قسطنطينية، فبينا هم يقتسمون الغنائم، قد علقوا سيوفهم بالزيتون إذ صاح فيهم الشيطان: إن المسيح قد خلفكم في أهليكم، فيخرجون، وذلك باطل. فإذا جاءوا الشام خرج، فبينا هم يُعِدون للقتال يسوون الصفوف، إذ أقيمت الصلاة. فينزل عيسى ابن مريم ﷺ فأمَّهم، فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملح في الماء، فلو تركه لانذاب حتى

---

(١) موضعان بالشام قرب حلب.

يهلك، ولكن يقتله الله بيده فيريهم دمه في حربته)[١].

■ وعن يُسيرِ بن جابر[٢] قال: هاجت ريح حمراء بالكوفة فجاء رجلٌ ليس له هِجِّيرى[٣] إلا: يا عبد الله بن مسعود جاءت الساعة. قال: فقعد وكان متكئاً فقال: إن الساعة لا تقوم حتى لا يقسم ميراث، ولا يفرح بغنيمة، ثم قال بيده هكذا، ونحّاها نحو الشام فقال: عدوٌّ يجمعون لأهل الإسلام، ويجمع لهم أهل الإسلام، قلتُ: الروم تعني؟ قال: نعم، وتكون عند ذاكم القتال رَدَّةٌ شديدة، فيشترط المسلمون شُرطَة[٤] للموت لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل. فيفيء هؤلاء وهؤلاء، كل غير غالب، وتفنى الشُّرطة، ثم يشترط المسلمون شُرطة للموت لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل، فيفيء هؤلاء وهؤلاء، كل غير غالب، وتفنى الشُّرطة، ثم يشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبةً، فيقتتلون حتى يمسوا، فيفيء هؤلاء وهؤلاء كل غير غالب، وتفنى الشرطة. فإذا كان اليوم الرابع نهد إليهم بقية أهل الإسلام فيجعل الله الدَّبْرَة[٥] عليهم فيقتلون مقتلةً، إما قال: لا يرى مثلها، وإما قال: لم يُرَ مثلها. حتى إن الطائر ليمر بجنباتهم، فما يخلّفهم حتى يخر ميتاً، فيتعادُّ بنو الأب كانوا مائة فلا يجدونه بقي منهم إلا الرجل الواحد. فبأي غنيمة يفرح، أو أي ميراثٍ يُقاسم. فبينما هم كذلك إذ سمعوا ببأس هو أكبر من ذلك؛

---

(١) رواه مسلم (٤/ ٢٢٢١) وفي الحديث دلالة على أن الروم سينتزعون القسطنطينية من أيدي المسلمين، ثم يفتتحها المسلمون ثانية.

(٢) يسير بن جابر، الكوفي، مختلف في نسبته، قيل: كندي وقيل غير ذلك. وله رؤية. مات سنة خمس وثمانين. تقريب التهذيب (٢/ ٣٧٤).

(٣) أي شأنه ودأبه ترديد تلك الجملة.

(٤) طائفة من الجيش تتقدم إما للشهادة أو النصر.

(٥) الدَّبرة: الهزيمة.

فجاءهم الصريخ أن الدجال قد خلفهم في ذراريهم، فيرفضون[١] ما في أيديهم، ويقبلون، فيبعثون عشرة فوارس طليعة، قال رسول الله ﷺ: إني لأعرف أسماءهم، وأسماء آبائهم، وألوان خيولهم، هم خير فوارس على ظهر الأرض يومئذٍ، أو من خير فوارس على ظهر الأرض يومئذٍ)[٢].

■ وعن ذي مِخبَر[٣] رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ستصالحون الروم صلحاً آمناً، فتغزون أنتم وهم عدواً من ورائكم، فتنصرون وتغنمون وتسلمون ثم ترجعون، حتى تنزلوا بمرجٍ ذي تلول، فيرفع رجلٌ من أهل النصرانية الصليب فيقول: غلب الصليبُ، فيغضب رجلٌ من المسلمين، فيدقُّه، فعند ذلك تغدر الروم، وتجمع للملحمة)[٤] وفي رواية: (وتكون الملاحم، فيجتمعون إليكم فيأتونكم في ثمانين غاية، مع كل غاية عشرة آلاف)[٥].

■ وعن عوف بن مالك رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ في غزوة تبوك وهو في قبة من أدم فقال: (اعدد ستاً بين يدي الساعة، وذكر السادسة: ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر، فيغدرون، فيأتونكم تحت

---

(١) يتركون.

(٢) صحيح مسلم: (٤/ ٢٢٣٤ ـ ٢٢٢٤).

(٣) ذي مِخْبر، الحبشي، صحابي، نزل الشام، وهو ابن أخي النجاشي. تقريب التهذيب (١/ ٣٩).

(٤) رواه أبو داود (٣/ ٢١٠)، وسنن ابن ماجه: ابن ماجه، أبو عبد الله، محمد بن يزيد القزويني. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. المكتبة العلمية، بيروت. (٢/ ١٣٦٩) والحاكم (٤/ ٤٢١) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي وقال في الزوائد: إسناده صحيح وأحمد (٥/ ٣٧١ ـ ٣٧٢)، (٥/ ٤٠٩).

(٥) رواه أحمد (٤/ ٩١)، والحاكم (٤/ ٤٢١) وصححه ووافقه الذهبي.

ثمانين غاية، تحت كل غاية اثنا عشر ألفاً)[١]. وفي رواية عنه عند أحمد: (قلت: وما الغاية؟ قال: الراية، تحت كل راية اثنا عشر ألفاً. فسطاط المسلمين يومئذٍ في أرضٍ يقال لها الغوطة في مدينة يقال لها: دمشق)[٢].

■ وفي رواية عن عبد الله بن عمرو ﵄: (وهدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر، ليجمعون لكم تسعة أشهر، كقدر حمل المرأة، ثم يكونون أولى بالغدر منكم...)[٣].

■ تلك طبيعة العلاقة مع عباد الصليب في الماضي والحاضر والمستقبل، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة].



(١) رواه البخاري: (٤/ ٦٨).
(٢) المسند: (٦/ ٢٥).
(٣) المسند: (٢/ ١٧٤).

المبحث الخامس

لمحة تاريخية عن العلاقات بين المسلمين وأهل الكتاب

تبين من المبحثين السابقين أن العهد النبوي شهد اكتمال الأحكام العقدية والشرعية الإسلامية تجاه أهل الكتاب، بما لا يدع مجالاً لتحريفٍ أو ابتداع. كما شهد أيضاً تطبيق تلك الأحكام واقعاً مُعاشاً من خلال مساكنة اليهود المسلمين في المدينة، وفرض الجزية على نصارى نجران، وغيرهم. فلا ريب أن ذلك العهد الزاهر لا يمثل مرحلة تاريخية فحسب، بل مرجعية عقدية شرعية لكل المراحل التالية.

كما أن مواقف زعامات أهل الكتاب الدينية والسياسية إبان ذلك العهد رسمت الطريق لخلفهم في الاستنكاف عن قبول الحق، ومعاداة أهله.

ونقصد في هذا المبحث الإلمام بمجمل العلاقات التاريخية بين المسلمين بعد العهد النبوي المتميز، وأهل الكتاب، سواء كانوا ذميين أو مستأمنين أو كانوا حربيين، ولا شك أن الإحاطة بتفاصيل ومفردات العلاقات التاريخية بين المسلمين وأهل الكتاب عمل موسوعي ضخم يتطلب توافر عشرات الباحثين عليه، لسعة رقعته الزمانية والمكانية وتنوع مادته. والمقصود هنا وضع خطوطٍ عامة بارزة لتكوين خلفية تاريخية يستصحبها القارئ وهو يدلف إلى دراسة قضية معاصرة، ونازلة جديدة هي «دعوة التقريب بين الأديان».

يمكن أن نقسم تاريخ العلاقات الإسلامية ـ الكتابية إلى خمس

مراحل متميزة[1]، آخذين بالاعتبار حين التقسيم العلاقات الإسلامية - النصرانية أساساً، لكونها الجبهة الساخنة، ذات الشوكة والمواجهة، والكر والفر، والمد والجزر، على مدار التاريخ، بينما تختفي اليهودية في معظم فترات التاريخ عن الصدارة بسبب القلة العددية، والشتات القومي ليهود، والذلة والمسكنة التي ضربها الله عليهم دون التقليل من خطرهم وكيدهم الخفي.

المرحلة الأولى: من عام ١١هـ إلى عام ١١٤هـ:

تضم هذه المرحلة عصر الخلفاء الراشدين وصدر الإسلام، وعلى وجه التحديد من وفاة الرسول ﷺ إلى معركة «بلاط الشهداء»، في زمن الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك[2]، حيث بلغت الدولة الإسلامية الفتية أقصى اتساعها في غرب أوربا، وشارفت جيوش عبد الرحمٰن الغافقي[3] رحمه الله على اجتياح فرنسا، وتمثل هذه المرحلة «المرحلة

---

(١) سيكون تاريخ الحافظ ابن كثير رحمه الله (البداية والنهاية) مرجعاً أساسياً في هذا العرض التاريخي، لاستيعابه فترة طويلة من تاريخ العلاقات، ولمزاياه الفنية المنهجية، ودفعاً للتوسع والإطالة في مبحثٍ لا يهدف أصلاً الدراسة التاريخية المتخصصة، وإنما التقاط الشواهد التاريخية التي تتأتى من مصدر واحدٍ وثيق كالبداية والنهاية.

(٢) هشام بن عبد الملك بن مروان (٧١ - ١٢٥هـ) من خلفاء الدولة الأموية. بويع له بالخلافة بعد وفاة أخيه يزيد سنة ١٠٥هـ. نشط في عهده الجهاد في سبيل الله فقاتل المسلمون الترك، وقتلوا خاقانهم، واستولوا على بلاد ما وراء النهرين، وكثر المال. كان حسن السياسة، يقظاً في أمره، يباشر الأعمال بنفسه. انظر: الأعلام (٨/ ٨٦)، البداية والنهاية (٩/ ٣٥١ - ٣٥٤).

(٣) عبد الرحمن بن عبد الله بن بشر بن الصارم الغافقي: أبو سعيد، أمير الأندلس، من كبار القادة الغزاة الشجعان. أصله من غافق، من قبيلة عك في اليمن. رحل إلى أفريقية ثم إلى الأندلس، وولي قيادة الشاطئ الشرقي، وكثرت جموعه بعد مقتل السمح بن مالك سنة ١٠٢هـ، وولاه هشام بن=

الذهبية» للإسلام مع النصرانية، حيث تم طي بساط النصرانية عن الأقاليم المعمورة؛ في الشام والعراق ومصر والمغرب بل وأسبانيا وجنوب فرنسا، ونشر أعلام الإسلام عبر سلسلة متتابعة من الفتوحات السريعة المذهلة، كان قوادها، ولحمة سداها أصحاب محمد ﷺ وخيار التابعين. فقد استهل الخليفة الراشد الأول: أبو بكر الصديق مدة خلافته القصيرة، سنتين وثلاثة أشهر، بإنفاذ جيش أسامة بن زيد(١) ﷺ - الذي عقد لواءه رسول الله ﷺ قبل وفاته، والسير إلى تخوم البلقاء من الشام وقتال الروم(٢)، رغم ارتداد كثير من قبائل العرب عن الإسلام، ولما تم القضاء على المرتدين، شرع الصديق ﷺ في جمع المسلمين لغزو الشام، وتولية الأمراء، وعقد الألوية والرايات، وذلك في أول سنة ثلاثة عشر للهجرة(٣).

وبعد وفاة الصديق ﷺ في جمادى الآخرة، تولى الخلافة الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ فكان كما وصف النبي ﷺ في حديث عبد الله بن عمر ﷺ: (أريت في المنام أني أنزع بِدلْوٍ بكرة على

= عبد الملك إمارة الأندلس سنة ١١٢هـ، وهو الذي بنى قنطرة قرطبة المشهورة. واجتاز بالمسلمين جبال البرانس لغزو بلاد الغال «فرنسا» فاستولى على أجزاء منها، ودحر جيوش شارل مارتل، فجمع له جيشاً كبيراً، من الغاليين والجرمانيين، فدارت معركة هائلة في «بواتييه» عرفت باسم بلاط الشهداء، استشهد فيها ﷺ. انظر: الأعلام (٣/ ٣١٢).

(١) أسامة بن زيد بن حارثة: الأمير، أبو محمد، وأبو زيد. صحابي مشهور. حِب رسول الله ﷺ وابن حِبه. ولد بمكة، ونشأ على الإسلام. سكن وادي القرى بعد وفاة النبي ﷺ ثم انتقل إلى الشام في أيام معاوية ﷺ. مات سنة أربع وخمسين من الهجرة، عن خمسٍ وسبعين سنة. انظر: تقريب التهذيب (١/ ٥٣)، الأعلام (١/ ٢٩١).

(٢) انظر: البداية والنهاية: (٦/ ٣٠٤).

(٣) انظر: البداية والنهاية: (٧/ ٢ ـ ٤).

قليب، فجاء أبو بكر فنزع ذنوباً[١] أو ذنوبين نزعاً ضعيفاً، والله يغفر له. ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت غرباً[٢]، فلم أر عبقرياً[٣] يَفري فَرِيَّه[٤] حتى رَويَ الناس، وضربوا بعطن)[٥]. ففي زمن خلافته ﷺ استكملت فتوح العراق والشام ومصر عبر سلسلة متلاحقة من المعارك الفاصلة والفتوحات العظام مثل: معركة اليرموك ١٣هـ، فتح دمشق ١٣هـ، وقعة فحل ١٣هـ، معركة القادسية ١٤هـ، فتح حمص الأول، وقنسرين وقيسارية وأجنادين وبيت المقدس وحمص الثانية جميعها في ١٥هـ. ثم فتح المدائن ومعركة جلولاء وفتح تكريت والموصل من أرض العراق في ١٦هـ والجزيرة في ١٧هـ وفي سنة ٢٠هـ كان فتح مصر، والإسكندرية عام ٢٥هـ.

وفي عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان ﷺ جرى فتح أفريقية عام ٢٧هـ، وابتداء فتح الأندلس ٢٧هـ، وفتح قبرص ٢٨هـ ومعركة ذات الصواري البحرية ٣١هـ، وغزوة ملاطية ٣٣هـ. ثم انكفأ المسلمون على أنفسهم بسبب ما جرى من الفتنة، وقتل عثمان ﷺ، فتوقفت الفتوح.

ولما استتب الأمر لمعاوية بن أبي سفيان ﷺ عاود غزو بلاد الروم منذ سنة اثنتين وأربعين للهجرة، وبلغ المسلمون مدينة قسطنطينية

---

(١) الذنوب: الدلو الكبيرة إذا كان فيها الماء. فتح الباري (٧/ ٣٢).
(٢) الغرب: الدلو العظيمة.
(٣) المراد به كل شيء بلغ النهاية.
(٤) أي يعمل عمله البالغ. فتح الباري (٧/ ٣٣).
(٥) صحيح البخاري (٤/ ١٩٨) والعطن: مناخ الإبل إذا شربت ثم صدرت. فتح الباري (٧/ ٣٣). وقال ابن حجر: (.. لم يتعرض في ذكر عمر إلى عدد ما نزعه من الدلاء، وإنما وصف نزعه بالعظمة إشارة إلى كثرة ما وقع في خلافته من الفتوحات والله أعلم) الفتح (٧/ ٣٢).

عام ٤٣هـ وعام ٤٩هـ، في غزواتٍ متتابعة لبلاد الروم، وفتحت جزيرة «رودس» عام ٥٣هـ، و«كريت» عام ٥٥هـ. وفي عام ٦٢هـ سارت جيوش المسلمين غرباً في الشمال الإفريقي لقتال الروم والبربر، وفي عام ٧٨هـ بلغوا «طنجة» في أقصى المغرب، واكتمل فتح المغرب في عام ٩١هـ. وفي عام ٩٢هـ غزا المسلمون بلاد الأندلس وفتحوا أقاليمها في أقل من ثلاث سنين. وفي عام ٩٤ تم فتح «أنطاكية» و«سندرة» من أرض الروم. قال ابن كثير رحمه الله: (وفيها فتح الله على الإسلام فتوحات عظيمة في دولة الوليد بن عبد الملك[١]، على يدي أولاده وأقربائه وأمرائه، حتى عاد الجهاد شبيهاً بأيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه)[٢].

وقد حاول المسلمون مراراً فتح القسطنطينية، وكان من أواخر هذه المحاولات الجادة في هذه المرحلة تجهيز سليمان بن عبد الملك[٣] عام ٩٨هـ لأخيه مسلمة بجيش عظيم، ولكن لم يقع ذلك الفتح

---

(١) الوليد بن عبد الملك بن مروان، أبو العباس (٤٨ ـ ٩٦هـ)، من خلفاء الدولة الأموية. ولي بعد وفاة أبيه سنة ٨٦هـ، فوجه القواد لفتح البلاد، فامتدت الفتوح في عهده إلى بلاد الهند والتركستان وأطراف الصين شرقاً، وأقاصي المغرب وبلاد الأندلس غرباً. وكان ولوعاً بالبناء والعمران وإصلاح الطرق. وهو أول من أحدث المستشفيات في الإسلام، وأجرى الأرزاق على الناس، وجعل لكل أعمى قائداً، ولكل مقعد خادماً، وجعل بيوتاً للغرباء. وأعاد بناء المسجد النبوي، والمسجد الأقصى والجامع الأموي بدمشق، رحمه الله. انظر: الأعلام (٨/ ١٢١)، البداية والنهاية (٩/ ١٦١ ـ ١٦٦).

(٢) البداية والنهاية: (٩/ ٩٥).

(٣) سليمان بن عبد الملك بن مروان (٥٤ ـ ٩٩هـ) أبو أيوب، الخليفة الأموي، ولد في دمشق، وولي الخلافة يوم وفاة أخيه الوليد سنة ٩٦هـ. وكان عاقلاً فصيحاً طموحاً إلى الفتح، وجهز جيشاً كبيراً، وسيره في السفن بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك لحصار القسطنطينية. وفي عهده فتحت جرجان وطبرستان، وكانتا في أيدي الترك. رحمه الله. الأعلام (٣/ ١٣٠)، والبداية والنهاية (٩/ ١٧٧).

المرتقب، ولم يرجع مسلمة حتى بنى مسجداً بالقسطنطينية شديد البناء محكماً، رحب الفناء شاهقاً في السماء)[١].

وفي عهد الخليفة الأموي العادل عمر بن عبد العزيز[٢] ﷺ اخترق المسلمون جبال البرانس الفاصلة بين شبه الجزيرة الإيبيرية (أسبانيا والبرتغال حالياً، الأندلس سابقاً) ودخلوا جنوب فرنسا (بلاد الغال) وفتحوا «سبتمانيا» ومدن حوض نهر «الرون» حتى بلغوا مدينة «سانس» الواقعة على بعد ثلاثين كيلومتراً جنوب باريس. وظلوا يتوسعون في تلك المناطق ويناوشون الفرنجة، حتى تصاف جيشان ضخمان وجهاً لوجه في معركة فاصلة من معارك التاريخ، عرفها المسلمون باسم «بلاط الشهداء»، وسماها خصومهم الفرنجة: «تور ـ بواتييه) وذلك في أواخر شعبان سنة ١١٤هـ أسفرت ـ بعد ملاحم طاحنة ـ عن انهزام المسلمين إلى مواقع خلفية في جنوب فرنسا.

لقد كان هذا الحدث التاريخي مؤشراً هاماً في حركة المد الإسلامي يمثل الذروة العليا، والحد الأقصى الذي بلغته حركة الفتوح الإسلامية الظافرة، ومن بعده أخذ المؤشر يتجه ناحية الانحدار، وتلك سنة الله في خلقه: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

---

(١) البداية والنهاية: (٩/ ١٧٤).

(٢) عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي، أبو حفص، الخليفة الصالح والملك العادل، وربما قيل خامس الخلفاء الراشدين، ولي الخلافة من سنة ٩٩هـ حتى وفاته سنة ١٠١هـ، فمدة خلافته سنتان ونصف وأخباره في عدله وحسن سياسته شهيرة، وقد ألفت في مناقبه كتب جمة.
الأعلام (٥/ ٥٠)، فوات الوفيات (٢/ ١٠٥)، تهذيب التهذيب (٧/ ٤٧٥)، حلية الأولياء (٥/ ٢٣٥)، صفوة الصفوة (٢/ ٦٣)، والنجوم الزاهرة (١/ ٢٤٦).

يقول «جيبون»: (لو انتصر العرب في تور ـ بواتييه، لتلي القرآن وفسر في أكسفورد وكمبردج)[١].

لقد تميزت هذه المرحلة «الذهبية» المدهشة بجملة من الخصائص الفريدة:

أولاً: الدافع العقدي النقي، والحماس الإيماني الجهادي لدى الفاتحين المسلمين الذين خرجوا من بوتقة جزيرتهم العربية الضيقة ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور غير مبالين بقلة عددهم، وضعف عتادهم، وقوة عدوهم وكثرة جموعه، مستعلين بالإيمان، مستخفِّين بالطغيان، موقنين بموعود ربهم الآجل والعاجل، مصدقين ببشارة نبيهم ﷺ، فضربوا أروع الأمثلة في التضحية والبسالة والحرص على الشهادة، والزهادة بما في أيدي الناس في مواقف وملاحم ومقامات مشهورة أذهلت أبناء البلاد المفتوحة، فوطأ الله لهم أكناف الأرض وفتح لهم القلوب قبل الحصون. وتسمو درجة النقاء والطهر والنزاهة في الأفواج الأولى من الفاتحين الذين هم أصحاب محمد ﷺ وكبار التابعين، وفي عصرهم فتحت الأقاليم الكبار، وصارت دار إسلام إلى آخر الزمان، وكلما مضى الدهر قدماً نقص هذا المستوى الرفيع، وشابته الشوائب حتى بلغ الأمر منتهاه في هذه المرحلة التي تمثل قرناً من الزمان بعد وفاة الرسول ﷺ تقريباً، وعامة أهلها خير القرون.

لقد كان يحدو أولئك الفاتحين في هذه المرحلة حاديان؛ عامٌ وخاص.

فأما العام: فقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ

---

(١) نقلاً عن: بلاط الشهداء: شوقي أبو خليل. دار الفكر. دمشق. الطبعة الرابعة (١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م). ل: شوقي أبو خليل (٣٦). وأكسفورد وكمبردج جامعتان عريقتان في إنجلترا.

بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرًا لَّهُمۚ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وأما الخاص: فقوله ﷺ: (لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش)(١). ورواه الإمام أحمد من حديث بشر الخثعمي ﷺ، قال: فدعاني مسلمة بن عبد الملك(٢) فسألني فحدثته فغزا القسطنطينية.

وعن أسلم أبي عمران قال: غزونا من المدينة، يريد القسطنطينية، وعلى الجماعة عبد الرحمٰن بن خالد بن الوليد، والروم ملصقو ظهورهم بحائط المدينة، فحمل رجل على العدو، فقال الناس: مه مه، لا إله إلا الله، يلقي بيده إلى التهلكة، فقال أبو أيوب(٣): إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، لما نصر الله نبيه، وأظهر الإسلام، قلنا: هلم نقيم في أموالنا ونصلحها، فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِۛ﴾ [البقرة: ١٦٥]. فالإلقاء بالأيدي إلى التهلكة: أي نقيم في أموالنا، ونصلحها وندع الجهاد. قال أبو عمران: فلم يزل

---

(١) المسند (٤/ ٣٣٥). وسنده حسن وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٢٢١): رواه أحمد والبزار والطبراني ورجاله ثقات.

(٢) مسلمة بن عبد الملك بن مروان (٠٠ ـ ١٢٠هـ) أمير قائد، من أبطال عصره من بني أمية في دمشق له فتوحات مشهورة. سار في مئة وعشرين ألفاً لغزو القسطنطينية في دولة أخيه سليمان، وبنى مسجد مسلمة بالقسطنطينية سنة ٩٦هـ، وولاه أخوه يزيد إمرة العراقين ثم أرمينية. وغزا الترك والسند سنة ١٠٩هـ ومات بالشام. قال الذهبي: كان أولى بالخلافة من سائر إخوته. انظر: الأعلام (٧/ ٢٢٤)، البداية والنهاية (٩/ ٣٢٨).

(٣) خالد بن زيد بن كليب الأنصاري، أبو أيوب من كبار الصحابة، شهد بدراً، ونزل النبي ﷺ حين قدم المدينة عليه، مات غازياً بالروم سنة خمسين وقيل بعدها. تقريب التهذيب (١/ ٢١٣).

أبو أيوب يجاهد في سبيل الله حتى دفن بالقسطنطينية)[١].

ظل المسلمون يبعثون بالصوائف والشواتي في أرض الروم طوال القرن الأول طلباً لهذا الشرف العظيم، فتح القسطنطينية، والفوز بالمنقبة الرفيعة التي وصف بها النبي ﷺ جيش الفاتحين وأميرهم.

وكذلك الحال على الجانب الغربي، فقد كان هذا الهاجس يحدو جيوش المسلمين المجاهدة في الشمال الإفريقي وهم يهمون بفتح الأندلس، قال ابن كثير ﷺ: (لما افتتحت أفريقية: بعث عثمان إلى عبد الله بن نافع بن عبد قيس وعبد الله بن نافع بن الحصين الفهريين من فورهما إلى الأندلس فأتياها من قبل البحر، وكتب عثمان إلى الذين خرجوا إليها يقول: إن القسطنطينية إنما تفتتح من قبل البحر، وأنتم إذا فتحتم الأندلس فأنتم شركاء لمن يفتح قسطنطينية في الأجر آخر الزمان، والسلام)[٢]. وكان ذلك في سنة ٢٧هـ في خلافة عثمان ﷺ.

لقد كان المسلمون يطمحون أن يحيلوا بحر الروم ـ البحر الأبيض المتوسط حالياً ـ إلى بحر الإسلام، وأن يحيطوا بالقسطنطينية من جانبيها الآسيوي والأوربي، وكان موسى بن نصير[٣] ﷺ يقول: (لو

---

(١) سنن أبي داود (٣/ ٢٧) والترمذي برقم (٢٩٧٦) وقال: حديث حسن غريب صحيح.

(٢) البداية والنهاية (٧/ ١٥٢). وانظر: الكامل (٣/ ٤٧) وتاريخ الطبري (٤/ ٢٥٣).

(٣) موسى بن نصير بن عبد الرحمن اللخمي، بالولاء (١٩ ـ ٩٧هـ) أبو عبد الرحمن، فاتح الأندلس، أصله من وادي القرى بالحجاز نشأ في دمشق، وولي غزو البحر لمعاوية. فغزا قبرس، وبنى بها حصوناً، وغزا أفريقية، ووليها، وأقام بالقيروان، ووجه مولاه طارق بن زياد لفتح الأندلس عام ٩٢هـ، ففتحها ثم التحق به في العام التالي، وأكملا معاً فتح الجزيرة حتى جبال البرانس، وكان يطمع باختراق أوربا ليصل إلى القسطنطينية من الجانب الآخر، ولكن الوليد بن عبد الملك خاف عاقبة الإيغال فأمره بالتوقف=

انقاد الناس لي لقدتهم حتى أفتح بهم مدينة رومية - وهي المدينة العظمى في بلاد الفرنج - ثم ليفتحها الله على يدي إن شاء الله تعالى)(١). وبهذه الروح الوثابة، وهذا التألق الإيماني رسم الفاتحون خريطة العالم من جديد، وأزاحوا النصرانية عن أشرف مقدساتها، وأغلى مرابعها، وأرسوا دعائم الدين الحق، ووطدوا أركانه.

ولعل استعصاء هذه المدينة «القسطنطينية» ومنعتها أمام جيوش المسلمين ومحاولاتهم المتكررة لفتحها، حتى اكتفوا ببناء جامع فيها على رأس القرن الأول، ثم ما تلا ذلك من صد التوسع الإسلامي في فرنسا بعد معركة بلاط الشهداء الفاصلة عام ١١٤هـ، كان إيذاناً بانتهاء مرحلة متميزة، فريدة، أثمرت ثماراً يانعة باقية في تاريخ بني الإنسان.

ثانياً: الإقبال العظيم على اعتناق الإسلام، والدخول في دين الله من أبناء البلاد المفتوحة رضاً وطواعية. ولقد شهدت العقود الأولى من الفتح الإسلامي انخراطاً في الدين الجديد من معتنقي الأديان الأخرى - خصوصاً النصارى - وتحولاً ملفتاً في المجتمعات المنضوية تحت راية الإسلام دون عنفٍ ولا إكراه في ظاهرة تاريخية لم يسبق لها مثيل، شهد بها الخصوم قبل الأولياء.

يقول برنارد لويس(٢): (لقد وصل محمد إلى السلطة والحكم أثناء

= والعودة إلى دمشق، فوصلها عام ٩٦هـ في مرض الوليد، ثم حج مع سليمان، وتوفي في وادي القرى. وكان شجاعاً عاقلاً كريماً، لم يهزم له جيش قط رحمه الله. انظر: الأعلام (٧/ ٣٣٠).

(١) البداية والنهاية (٩/ ١٧٤).

(٢) برنارد لويس: ولد في لندن عام ١٩١٦م. حصل على الليسانس مع مرتبة الشرف الأولى من جامعة لندن عام ١٩٣٦م، ودبلوم الدراسات السامية من جامعة باريس عام ١٩٣٧م، والدكتوراه من جامعة لندن عام ١٩٣٩م. وهو أستاذ الدراسات الخاصة بالشرق الأدنى في جامعة «برنستون»، وعضو دائم=

حياته، وقد أسس بنفسه أول دولة إسلامية، وحكمها مع أصحابه، لقد انتهت مهمة الرسالة الروحية لمحمد بوفاته، ولكن رسالته الدينية والسياسية استمرت على يد خلفائه. وتحت حكم الخلفاء، تقدم المسلمون من انتصار إلى انتصار، وبالتالي نشأ خلال قرن واحد كيان شاسع الأصقاع يمتد من حدود الهند والصين إلى جبال البيرينيه وسواحل المحيط الأطلسي، وهو كيان يحكم ملايين الأتباع، وبأعدادٍ هائلة، ممن اعتنقوا الدين الجديد... إن تاريخ الدولة الإسلامية المبكر - الذي يحظى بالقداسة - يشكل جوهر ولب ذاكرة ووعي المسلمين في كل مكان، وهو يحكي قصة الفتوحات السريعة المتواصلة، والتي تساقط أمامها زعماء العقائد الفاسدة التي تضطهد شعوبها.

لقد وصل الإسلام إلى الانتصار النهائي سواء من حيث العقيدة أو السلاح، وأوصل كلمة الله إلى البشرية كلها، وفرض الشريعة الإلهية على العالم كله)[(١)]. (.. وهكذا فعندما وصل المسلمون في العصور الوسطى إلى صقلية وأسبانيا والبرتغال، شاهدنا بعد فترة قصيرة عمليات تحول ودخول جماعات كثيرة من النصارى إلى الدين الجديد)[(٢)].

إن التفسير الحقيقي لظاهرة الاعتناق الجماعي للإسلام من سكان البلاد المفتوحة؛ كتابيين أو وثنيين، ترجع إلى أمرين أساسيين:

= في معهد الدراسات المتقدمة في برنستون - نيوجرسي - ١٩٧٤م. يشغل العديد من المناصب العلمية، وعضو فخري في عشرات الجمعيات. مؤلفاته تربو على العشرين، وله عشرات الأبحاث المنشورة في التاريخ والفرق. انظر التعريف به في مقدمة كتابه (الإسلام الأصولي). دار الجيل. بيروت. ط١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

(١) الإسلام والغرب: برنارد لويس. دار الرشيد - دمشق - بيروت، مؤسسة الإيمان - بيروت. الطبعة الأولى (١٤١٤هـ - ١٩٩٤م). (٥).

(٢) الإسلام والغرب (٨).

أولهما: صحة العقيدة الإسلامية ووضوحها ومتانتها، وموافقتها التامة للعقل والفطرة وأصول الشرائع السابقة، وبعدها عن التعقيد والغموض والتكلف والبدعة الذي آلت إليه الأديان المحرفة. فوجد فيها القوم بغيتهم، وسكينة قلوبهم، وحل إشكالاتهم العقدية والتشريعية، على حد قول الله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣﴾ [البينة: ١ ـ ٣].

وثانيهما: الالتزام الشرعي، والتطبيق الدقيق لحملة هذا الدين من الفاتحين المؤمنين الأولين، حتى ضربوا أروع الأمثلة في الصدق والوفاء بالعهود، وحفظ الذمة والعدل والنزاهة، مع صدق الإيمان وقوة الصلة بالله تعالى، والشهادة في سبيله على حد قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ۝٤١﴾ [الحج].

لقد رأى أبناء البلاد المفتوحة في أصحاب رسول الله ﷺ ملائكة يمشون على الأرض مطمئنين، فبهروا بصدقهم وإخلاصهم وعدلهم وخشيتهم لربهم وزهادتهم في الدنيا، فعلموا أنهم تضلعوا من معين النبوة، وأشرقت قلوبهم بنور الإيمان فاختاروا الإسلام راغبين منقادين رجاء أن يؤتوا أجورهم مرتين(١).

---

(١) يقول الباحثان فيليب فارج، ويوسف كرباج: (إن العراق الذي كان يركز الكتلة الديموغرافية للمنطقة، قد ترك لنا المؤشرات الأكثر ترتيباً،... ففي الشمال في ظل الخلفاء الأوائل تظل النسطورية حيوية... وفي الجنوب، في المقابل، يمتد الإسلام بسرعة بالغة، والبرهان على ذلك هو انهيار إيرادات ضريبة الرأس: ففي عهد الخليفة عمر الأول، تصل إلى ما بين ١٠٠ مليون و١٢٠ مليوناً من الدراهم؛ بينما لا يجمع الأمويون منها غير ٤٠ مليوناً من الدراهم في عهد عبد الملك (٦٨٥ ـ ٧٠٥م). وهذه الأرقام توضح اتساع=

ولا ننفي أن تكون التشريعات الإسلامية في حق أهل الذمة من فرض الجزية وغيرها قد تدفع ببعضهم إلى اعتناق الإسلام، أو على الأقل تحملهم على التفكير بذلك. ولكننا نجزم أن «الجزية» في حد ذاتها، أو مجرد «الغلبة» و«السيطرة السياسية» غير كافية أبداً في التخلي عن المعتقد، بدليل أن هؤلاء القوم قد خضعوا لبعض مخالفيهم في المعتقد، الذين ساموهم سوء العذاب، ونكلوا بهم، فما زادهم ذلك إلا إصراراً على دينهم. كما أن ذلك الذمي يرى مواطنه المسلم يدفع لبيت مال المسلمين زكاة ماله كما يدفع هو الجزية. إضافةً إلى ذلك فقد ظل أعداد من هذه الطوائف قروناً متطاولة مصرين على دينهم الأول، يدفعون الجزية. فالباعث الحقيقي والسبب الرئيس في إقبالهم على الإسلام هو ما أشرنا إليه، ولو كره الحاسدون.

وقد تفيأ أهل الذمة ظلال العدل الإسلامي الوارفة، وعاشوا آمنين مطمئنين على أرواحهم، وأموالهم، وأعراضهم، بل ومقدساتهم طوال هذه المرحلة متمتعين بضمانات كفلها لهم التشريع الإسلامي ذاته[(١)].

فلم يلحظ التاريخ خلال هذه الفترة حوادث شغب أو ثورات أو

= عمليات التحول إلى اعتناق الإسلام: إن ثلثي إجمالي السكان يقرران الانتماء إلى الإسلام منذ النصف الأول للقرن. وإذا ما سلمنا بأن العراق (بمفهوم جغرافي واسع) كان يضم نحو عام ٧٠٠ زهاء ٩ ملايين من السكان، فبالإمكان توزيع هؤلاء إلى ٦ ملايين من المسلمين حديثي الاعتناق للإسلام و٣ ملايين من المسيحيين). المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلام العربي والتركي (٢٤ ـ ٢٥).

وأما في مصر فيقول الباحثان: (إن أكثر من نصف الأقباط سوف يتحولون إلى اعتناق الإسلام في أقل من أربعين سنة؛ ٢٦٪ بين عامي ٦٤٤، ٦٦١ ثم ٣٣٪ في عهد معاوية وحده بين عامي ٦٦١، ٦٨٠). المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي (٣٢).

(١) راجع مبحث: حكم الإسلام في أهل الكتاب.

انتفاضات، على ضد ما يجري إثر عمليات الاحتلال من الشعب المغلوب على الجيش المنتصر. بل إن التاريخ يحفظ وقائع يطول سردها تكشف عن الجانب الخلقي في التعامل، والوفاء بالعهود، وحفظ الحقوق، سواء على المستوى الفردي أو الجماعي.

ونختار لذلك مثلين: أحدهما في قصة بناء الجامع الأموي في دمشق، الذي كان كنيسة للنصارى، فلما فتح المسلمون دمشق (أخذوا منهم نصف هذه الكنيسة التي كانوا يسمونها كنيسة «مريُحنا»[1]، بحكم أن البلد فتحه خالد من الباب الشرقي بالسيف، وأخذت النصارى الأمان من أبي عبيدة، وكان على باب الجابية، الصلح، فاختلفوا ثم اتفقوا على أن جعلوا نصف البلد صلحاً ونصفه عنوة، فأخذوا نصف هذه الكنيسة الشرقي، فجعله أبو عبيدة مسجداً يصلي فيه المسلمون... وكان المسلمون والنصارى يدخلون هذا المعبد من باب واحد... فينصرف النصارى إلى جهة الغرب إلى كنيستهم، ويأخذ المسلمون يمنةً إلى مسجدهم، ولا يستطيع النصارى أن يجهروا بقراءة كتابهم ولا يضربوا بناقوسهم، إجلالاً للصحابة، ومهابة وخوفاً.. ثم لم يزل الأمر على ما ذكرنا من أمر هذه الكنيسة شطرين بين المسلمين والنصارى من سنة أربع عشرة إلى سنة ستٍ وثمانين في ذي القعدة منها)[2].

ولما كثر المسلمون، وضاق بهم المسجد، وتأذوا من مجاورة النصارى لرفع أصواتهم بقراءة الأناجيل، فاوضهم الوليد بن عبد الملك على الخروج وصالحهم وأرضاهم.

وفي عهد عمر بن عبد العزيز رحمه الله هَمَّ أن يرد عليهم ما أخذ منهم الوليد، حتى حقق القضية وخيرهم بين الرد وبين استرجاع كنائس خارج

---

(١) لعلها نطق عربي لـ «مار يوحنا».

(٢) البداية والنهاية: (٩/ ١٤٤ ـ ١٤٥).

البلد لم تدخل في الصلح، فاختاروا استبقاء تلك الكنائس، ويطيبوا نفساً للمسلمين بتلك البقعة من الجامع)[١].

إن هذه الحادثة التي دامت فصولها قرابة تسعين سنة، لتدل على مدى التحرج الشرعي الذي يشعر به المسلمون تجاه حقوق أهل الذمة، تديناً لله، وحفظاً لعهده وذمة رسوله ﷺ، لا خوفاً من هؤلاء النصارى ولا طمعاً فيهم، ولا يحفظ تاريخ الغزاة والفاتحين تسامحاً وعدلاً وإنصافاً ووفاءً كما حفظ لأهل الإسلام، خصوصاً في هذا القرن الأول.

وأما المثال الثاني فعلى المستوى الفردي، فقد روى أبو بكر الآجري[٢] رحمه الله في أخبار أبي حفصٍ عمر بن عبد العزيز رحمه الله بسنده أنه (أمر مناديه أن ينادي: ألا من كانت له مظلمة فليرفعها. فقام إليه رجل ذمي من أهل حمص، أبيض الرأس واللحية، فقال: يا أمير المؤمنين: أسألك كتاب الله عز وجل. قال: وما ذاك؟ قال: العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبني أرضي ـ والعباس جالس ـ فقال له: يا عباس ما تقول؟ قال: أقطعنيها يا أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك وكتب لي بها سِجلاً، فقال عمر: ما تقول يا ذمي؟ قال: يا أمير المؤمنين، أسألك كتاب الله. فقال عمر: كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد بن عبد الملك، فاردد عليه يا عباس ضيعته، فرد عليه)[٣].

---

(١) انظر: تفاصيل الموضوع في البداية والنهاية (٩/ ١٤٢ ـ ١٥٢).

(٢) محمد بن الحسين بن عبد الله، أبو بكر الآجري الشافعي، فقيه محدث نسبته إلى آجر (من قرى بغداد) ولد فيها، وحدث ببغداد، ثم انتقل إلى مكة وتوفي فيها، وله من التصانيف: «الشريعة»، و«أخلاق العلماء» و«النصيحة» وغيرها. مات سنة (٣٦٠هـ). انظر: الأعلام (٦/ ٩٧)، وفيات الأعيان (١/ ٤٨٨)، صفوة الصفوة (٢/ ٢٦٥).

(٣) أخبار أبي حفص عمر بن عبد العزيز رحمه الله وسيرته: الآجري، أبو بكر=

هذه هي الضمانة الوثيقة التي يجد فيها أهل الذمة مأمنهم: «كتاب الله»، حتى ولو كان خصمه ابن خليفة معه سجل من الخليفة. فكتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد. فأين يجد الباحث إنصافاً ونصرة للمظلوم من أبناء الأمم المغلوبة من ظالمه من السادة المتغلبين في تاريخ البشرية؟

تلك لمحة مختصرة عن العلاقة التاريخية على الصعيدين الداخلي والخارجي بين المسلمين وأهل الكتاب في هذه المرحلة المتميزة تنبئ عما وراءها من مواقف وأحداث لا يتسع المقام لحصرها.

المرحلة الثانية: من عام ١١٥هـ إلى عام ٤٩٠هـ.

تشغل هذه المرحلة حيزاً زمنياً يمتد من منتصف العقد الثاني من القرن الثاني الهجري حيث بلغت الفتوحات الإسلامية أقصى امتدادٍ لها، وآذنت بالانحسار التدريجي البطيء، وينتهي بالإرهاصات السابقة لأولى الحملات الصليبية على بلاد الشام في العقد الأخير من القرن الخامس الهجري، أي ما يقارب أربعمائة سنة تقريباً.

والسمة المميزة لهذه المرحلة من ناحية العلاقات الإسلامية الكتابية على جانبيها الشرقي والغربي، أي في خط المواجهة مع الإمبراطورية البيزنطية شرقاً، والفرنجة غرباً، كونها مرحلة كرٍ وفر، ومناوشات متبادلة، وحماية ثغور، وعمليات صلح وتبادِل أسرى، دون أن تشهد إضافة أقاليم كبار لدار الإسلام كما كان الحال في المرحلة الأولى. وربما كانت الكفة راجحة للجانب الإسلامي في العقود الأولى من هذه المرحلة، لا سيما في خط التماس مع الإمبراطورية البيزنطية، ثم مالت الكفة لصالح الجانب النصراني في أواخر هذه المرحلة، لا سيما في بلاد الأندلس.

= محمد بن الحسين. تحقيق: عبد الله عبد الرحيم عسيلان. مؤسسة الرسالة. بيروت. الطبعة الأولى (١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م). (٥٧ ـ ٨٥).

ويمكن أن نبين هذا الإجمال بشيءٍ من التفصيل الموجز الذي تفرضه طبيعة البحث.

• إثر معركة «بلاط الشهداء» ١١٤هـ = ٧٣٢م زحف النصارى بقيادة «شارل مارتل» تجاه جنوب فرنسا واسترد بعض المدن المفتوحة، وبعد ستٍ وثلاثين سنة من الحروب والمناوشات ودع المسلمون فرنسا بعد إقامة دامت سبعين سنة تقريباً (٧٢٠ ـ ٧٦٨م)، مخلفين ورائهم جبال البرانس حداً طبيعياً فاصلاً بين مملكة الفرنجة في فرنسا ومملكة المسلمين في الأندلس[(١)].

• وفي الجانب الآخر دخلت الدولة الأموية في معمعة من الفتن الداخلية، واضطراب الأمور، وفساد أمر الخلافة بعد وفاة هشام بن عبد الملك ﷺ عام ١٢٥. قال ابن كثير: (لما مات هشام بن عبد الملك مات ملك بني أمية، وتولى وأدبر الجهاد في سبيل الله)[(٢)]. وانشغل المسلمون بأنفسهم، وسقطت الخلافة الأموية، وقامت خلافة بني العباس على أشلاء المسلمين ودمائهم عام ١٣٢هـ، وظل أمر الجهاد راكداً مما أغرى الروم بالهجوم على «ملطية» عام ١٣٨هـ، فقابله المسلمون بالتوغل في بلاد الروم عام ١٣٩هـ، ومفاداة الأسرى[(٣)]، ثم توقفت الصوائف حتى عام ١٤٦هـ[(٤)].

• وحين استتبت الأمور لبني العباس في عهد المهدي[(٥)] (١٥٨ـ١٦٩هـ)،

---

(١) تفاصيل ذلك في: نفح الطيب ج(١)، فجر الأندلس، جذوة المقتبس.
(٢) البداية والنهاية: (٨/ ٣٥٤).
(٣) البداية والنهاية: (٩/ ٧٣).
(٤) المرجع السابق.
(٥) المهدي العباسي (١٢٧ ـ ١٦٩هـ) محمد بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي العباسي، أبو عبد الله، المهدي بالله. من خلفاء الدولة العباسية في العراق. ولي بعد وفاة أبيه سنة ١٥٨هـ، وأقام في الخلافة عشر سنين وشهراً. =

والرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣هـ)، والمأمون[١] (١٩٨ ـ ٢١٨هـ)، والمعتصم[٢] (٢١٨ ـ ٢٢٧هـ) ـ باستثناء فترات طارئة من الفتن الداخلية ـ نشطت حركة الجهاد نسبياً، وتتابع الغزو وحماية الثغور، وفتح بعض المدن والحصون، وأخذ الجزية من ملوك القسطنطينية أحياناً. ومن أبرز تلك الأحداث: غزو عام ١٥٩هـ، ١٦٢هـ، ١٦٤هـ، وغزو القسطنطينية عام ١٦٥هـ وأخذ الجزية من أهلها في خلافة المهدي[٣]، ثم فتح «أنقرة» و«مطمورة» عام ١٨١هـ، وإذلال ملك الروم «نقفور» عام (١٨٧ ـ ١٩٠هـ) في خلافة الرشيد[٤]. وغزو بلاد الروم عام ٢١٥هـ، والرد على هجومهم على «طرسوس» عام ٢١٦هـ، وما تبع ذلك من مناوشات عام

= كان محمود العهد والسيرة، محبباً إلى الرعية، شديداً على المبتدعة والزنادقة. انظر: الأعلام (٦/ ٢٢١).

(١) عبد الله بن هارون الرشيد بن المهدي، أبو العباس، سابع خلفاء بني العباس، وأحد أعاظم الملوك، ولي الخلافة بعد خلع أخيه الأمين، فعمل على ترجمة كتب الفلسفة والمنطق، وأتحف ملوك الروم بالهدايا سائلاً أن يصلوه بما لديهم من كتب الفلاسفة، وحض الناس على قراءتها، وقرب العلماء والمتكلمين وأهل اللغة والأخبار والشعراء وامتحن الناس بالقول بخلق القرآن في آخر حياته، توفي سنة ٢١٨هـ.
الأعلام (٤/ ١٤٢)، تاريخ بغداد (١٠/ ١٨٣)، الكامل في التاريخ (٦/ ١٤٤ ـ ١٤٨)، تاريخ الطبري (١٠/ ٢٩٣)، فوات الوفيات (١/ ٢٣٩).

(٢) محمد بن هارون الرشيد بن المهدي، خليفة من أعاظم خلفاء بني العباس، بويع سنة ٢١٨هـ بعد وفاة أخيه المأمون، وهو فاتح عمورية من بلاد الروم الشرقية في خبر مشهور، اتسع ملكه جداً، وقرب إليه الأتراك، وكثروا في جنده فبنى لهم سامرا لما ضاقت بهم بغداد، توفي سنة ٢٢٧هـ. الأعلام (٧/ ١٢٧)، الكامل (٦/ ١٤٨ ـ ١٧٩)، مروج الذهب (٢/ ٢٦٩ ـ ٢٧٨).

(٣) انظر: البداية والنهاية: (١٠/ ١٢٩، ١٣٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٦٥).

(٤) انظر: البداية والنهاية: (١٠، ١٧٧، ١٩٣، ١٩٩، ٢٠٣).

٢١٧ ـ في خلافة «المأمون»[١]، ثم الرد على هجوم الروم على «ملطية»، وفتح عمورية عام ٢٢٣هـ في خلافة المعتصم[٢].

وبالجملة فقد كان جانب الدولة الإسلامية مرهوباً في الصدر الأول من خلافة بني العباس.

ولما آل الأمر إلى المتوكل (٢٣٢ ـ ٢٤٧هـ)، وازداد نفوذ الأمراء الأتراك، ضعف أمر الجهاد، واستطال الروم على المسلمين، بل وقعت سابقة خطيرة، فقد هجمت الفرنجة على مدينة «دمياط» المصرية، وقتلوا وحرقوا وسبوا، ورجعوا في مراكبهم لم يعرض لهم أحد، وذلك عام ٢٣٨هـ[٣]. كما أغار الروم على بلاد الجزيرة عام ٢٤٢هـ[٤] وقصد ملك الروم بلاد الشام في عام ٢٤٨هـ في خلافة «المنتصر[٥]» (٢٤٧ـ ٢٤٨)[٦]. وهزم المسلمون في «ملطية» عام ٢٤٩هـ في خلافة «المستعين[٧]» (٢٤٨ ـ ٢٥٢هـ)[٨]. وكل ذلك لضعف جانب الخلافة،

---

(١) انظر: البداية والنهاية: (١٠/ ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١).
(٢) انظر: البداية والنهاية: (١٠/ ٢٨٥)
(٣) انظر: البداية والنهاية: (١٠/ ٣١٧).
(٤) انظر: البداية والنهاية: (١٠/ ٣٤٣).
(٥) المنتصر العباسي (٢٢٣ ـ ٢٤٨هـ) محمد «المنتصر بالله» بن جعفر «المتوكل على الله» بن المعتصم أبو جعفر: من خلفاء الدولة العباسية. بويع بالخلافة بعد أن قتل أباه، سنة ٢٤٧هـ. وهو أول من عدا على أبيه من بني العباس. ولم تطل مدته، مدة خلافته ستة أشهر وأيام. قيل مات مسموماً. انظر: الأعلام (٦/ ٧٠)، البداية والنهاية (١٠/ ٣٩٤ ـ ٣٥٤).
(٦) انظر: البداية والنهاية (١٠/ ٣٥٣).
(٧) المستعين بالله العباسي (٢١٩ ـ ٢٥٢هـ) أحمد بن محمد بن المعتصم بن هارون الرشيد، أبو العباس. أمير المؤمنين، من خلفاء الدولة العباسية. بويع له بعد وفاة المنتصر سنة ٢٤٨هـ. وجرت في مدته فتن داخلية. انظر: الأعلام(١/ ٢٠٤)، البداية والنهاية (١١/ ٢ ـ ١١).
(٨) انظر: البداية والنهاية: (١١/ ٣).

وتفويض الأمر إلى أمراء الأجناد الأتراك، واشتغال الخلفاء بالملاهي والقيان والخمور، وعدم النهوض بأعباء الجهاد وحماية الثغور، وقد أدت أحداث عام ٢٤٩هـ في ملطية إلى هياج العامة، وتبني أهل اليسار من البغاددة تمويل المتطوعين للجهاد في الثغور(١).

واستمر الحال في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري أثناء خلافة «المعتمد»(٢) (٢٥٦ ـ ٢٧٩هـ) في مناوشات مستمرة، كانت المبادرة غالباً بأيدي الروم، بينما يستميت أهل الثغور من المسلمين في الدفاع، كما جرى في ملطية عام ٢٥٩هـ(٣)، وصقلية عام ٢٦٦هـ(٤)، وطرسوس عام ٢٧٠هـ(٥)، والرقة عام ٢٨٩هـ(٦).

• وما أن حل القرن الرابع الهجري حتى كانت دويلات الرافضة تجثم على معظم الأقاليم الإسلامية، وتنشر الرعب والخراب والكفر والبدعة فيها. فالقرامطة (٢٧٨ ـ ٤٦٦) في الأحساء والبحرين يقطعون الطريق على الحجيج، ويقتلونهم في المسجد الحرام(٧)، ويغيرون على البصرة وجنوب العراق، والصليحيون في اليمن (٤٢٩ ـ ٥٦٩هـ)،

---

(١) انظر: البداية والنهاية: (١١/ ٣).
(٢) المعتمد على الله (٢٢٩ ـ ٢٧٩هـ) أحمد بن المتوكل على الله جعفر بن المعتصم، أبو العباس، المعتمد على الله. خليفة عباسي. ولد بسامراء، وولي الخلافة سنة ٢٥٦هـ بعد مقتل المهتدي. وطالت أيام ملكه، وكانت مضطربة، بسبب نفوذ الموالي، حتىٰ قام ولي عهده أخوه الموفق بالله طلحة فضبط الأمور. كان سمحاً جيد الفهم شاعراً. مات ببغداد. انظر: الأعلام (١/ ١٠٧).
(٣) انظر: البداية والنهاية: (١١/ ٣١).
(٤) انظر: البداية والنهاية: (١١/ ٣٩).
(٥) انظر: البداية والنهاية: (١١/ ٤٥).
(٦) انظر: البداية والنهاية: (١١/ ٨٤).
(٧) انظر: البداية والنهاية: (١١/ ٨١، ١٢٢، ٢٧٢، ١٦٠).

والعبيديون (٢٩٧ ـ ٥٦٧هـ) في المغرب ومصر، ثم فلسطين والشام، والحمدانيون في الموصل وحلب وأعمالها (٣١٧ ـ ٣٩٤هـ). وبقيت الخلافة العباسية في العراق رسماً بالياً، والخليفة جسداً ملقى، يسيره الأمراء الأعاجم من البويهيين الرافضة (٣٢٠ ـ ٤٤٠هـ) أو حريم القصر.

وبالجملة فقد عم الرفض الأرض[1]. فلا غرو أن يشهد القرن الرابع أحداثاً جساماً، وجرأة بالغة من أهل الصليب، منتهزين ضعف أهل السنة وغلبة أهل التشيع والرفض.

ومن أبرز أحداث ذلك القرن العصيب:

* هجوم «الدمستق» ملك الروم على «ملطية»، ومطالبته أهل السواحل الإسلامية بالخراج عام ٣١٤هـ[2].

* هجومه على «رأس العين» وإعماله القتل والسبي في أهلها عام ٣٣٢هـ[3].

* هزيمة الروم لسيف الدولة الحمداني[4]، وإيقاعهم بأهل

(١) قال ابن كثير: (.. وقد امتلأت البلاد رفضاً، وسباً للصحابة من بني بويه وبني حمدان والفاطميين. وكل ملوك البلاد مصراً وشاماً وعراقاً وخراسان وغير ذلك من البلاد، كانوا رفضاً، وكذلك الحجاز وغيره، وغالب بلاد المغرب فكثر السب والتكفير منهم للصحابة). البداية والنهاية: (١١/ ٢٣٣).

(٢) انظر: البداية والنهاية: (١١/ ١٥٣).

(٣) انظر: البداية والنهاية: (١١/ ٢٠٨).

(٤) سيف الدولة الحمداني (٣٠٣ ـ ٣٥٦هـ) علي بن عبد الله بن حمدان التغلبي، أبو الحسن، سيف الدولة، الأمير، يقال: لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع بباب سيف الدولة من شيوخ العلم، ونجوم الدهر. ولد في «ميافارقين» بديار بكر، ونشأ شجاعاً مهذباً، عالي الهمة، وملك واسطاً وما جاورها. ومال إلى الشام فامتلك دمشق، وعاد إلى حلب فملكها=

طرسوس عام ٣٣٧هـ[١].

* احتلال الروم «سروج» وقتل أهلها، وإحراق مساجدها عام ٣٤١هـ[٢].

* دخول الروم «آمد» و«ميافارقين»، وأخذ مدينة «سمساط» عام ٣٤٧هـ[٣].

* بل دخولهم «حلب» وإعمال السيف في أهلها الذين استبسلوا في الدفاع عنها، وتخريبها، وأخذ الأسارى والسبايا عام ٣٥١هـ[٤].

* إغارة الروم على «الرها» عام ٣٥٢هـ[٥]، ومناوشة المسلمين في جزيرتي إقريطش «كريت» عام ٣٥١هـ[٦]، و«صقلية» عام ٣٥٣هـ[٧].

* ثم هجومهم على «المصيصة» و«طرسوس» عام ٣٥٤هـ[٨].

* تحريق «حمص» وسبي أهلها عام ٣٥٨هـ[٩]، ثم دخول «أنطاكية وقتل الشيوخ والعجائز وسبي الأطفال والنساء عام ٣٥٩هـ، ثم «طرابلس».

قال ابن كثير: (ثم مالوا على السواحل فملكوا ثمانية عشر بلداً،

= سنة ٣٣٣هـ، وتوفي فيها، ودفن في ميافارقين. أخباره ووقائعه مع الروم كثيرة. انظر: الأعلام (٤/ ٣٠٣)، البداية والنهاية (١١/ ٢٦٣).

(١) انظر: البداية والنهاية: (١١/ ٢٢٠).

(٢) انظر: البداية والنهاية: (١١/ ٢٢٥).

(٣) انظر: البداية والنهاية: (١١/ ٢٣٣).

(٤) انظر: البداية والنهاية: (١١/ ٢٣٩).

(٥) انظر: البداية والنهاية: (١١/ ٢٤٣).

(٦) انظر: البداية والنهاية: (١١/ ٢٣٩).

(٧) انظر: البداية والنهاية: (١١/ ٢٥٣).

(٨) انظر: البداية والنهاية: (١١/ ٢٥٥).

(٩) انظر: البداية والنهاية: (١١/ ٢٦٦).

سوى القرى، وتنصر خلقٌ كثير على أيديهم، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وجاءوا إلى «حمص» فأحرقوا ونهبوا وسلبوا، ومكث ملك الروم شهرين يأخذ ما أراد من البلاد، ويأسر من قدر عليه. وصارت له مهابة في قلوب الناس، ثم عاد إلى بلده ومعه السبي نحو من مائة ألف ما بين صبي وصبية)[(١)].

كل هذه المآسي والنكسات، وقد طبق الرفض جميع ممالك الإسلام تقريباً، وكان أخطرها استيلاء بني بويه على مقاليد الأمور في دار الخلافة في بغداد عام ٣٣٤هـ.

قال ابن كثير: (وكل هذا في ذمة ملوك الأرض، أهل الرفض الذين قد استحوذوا على البلاد، وأظهروا فيها الفساد. قبحهم الله)[(٢)]. وقال في ترجمة النقفور ملك الأرمن، الملقب بالدمستق، الهالك سنة ٣٥٦هـ ما نصه:

(كان هذا الملعون من أغلظ الملوك قلباً، وأشدهم كفراً، وأقواهم بأساً، وأحدهم شوكة، وأكثرهم قتلاً وقتالاً للمسلمين في زمانه، استحوذ في أيامه لعنه الله على كثير من السواحل، وأكثرها انتزعها من أيدي المسلمين قسراً، واستمرت في يده قهراً، وأضيفت إلى مملكة الروم قدراً. وذلك لتقصير أهل ذلك الزمان، وظهور البدع الشنيعة فيهم وكثرة العصيان من الخاص والعام منهم، وفشو البدع فيهم، وكثرة الرفض والتشيع منهم، وقهر أهل السنة بينهم، فلهذا أديل عليهم أعداء الإسلام، فانتزعوا ما بأيديهم من البلاد مع الخوف الشديد، ونكد العيش، والفرار من بلاد إلى بلاد، فلا يبيتون ليلةً إلا

---

(١) انظر: البداية والنهاية: (١١/ ٢٦٨).

(٢) انظر: البداية والنهاية: (١١/ ٢٦٧).

في خوف من قوارع الأعداء، وطوارق الشرور المترادفة، فالله المستعان)(١).

وفي هذا التقرير البليغ من هذا المؤرخ الموسوعي، والعالم الرباني، دروس من دروس الزمان، ودلائل الإيمان، يتعين على أهل الإسلام أن يعوها، ويقدروها حق قدرها، ويعرفوا عدوهم الداخلي والخارجي، فهل من مستعتب؟

لم يكن لملوك الرفض هَمٌّ بإقامة الجهاد، ورد عبَّاد الصليب، بل كانت عهودهم عهود شر وفتن، واضطراب وفساد، وإرهاق للمسلمين بالحروب الداخلية.

ثم بدت أعلام السنة تلوح من قبل المشرق بظهور الدولة الغزنوية عام ٣٦٦هـ، وعلو نجم ملكها المظفر فاتح بلاد الهند محمود بن سبكتكين(٢) رحمه الله، بعد ملكٍ دام ثلاثاً وثلاثين سنة نصر فيه السنة، وقمع البدعة، ونشر الإسلام(٣).

• ثم جاء من بعده ملوك السلاجقة السنيون عام ٤٢٩هـ، وتم على أيديهم القضاء على بني بويه الذين جثموا على دار الخلافة

---

(١) انظر: البداية والنهاية: (١١/ ٢٤٣).

(٢) محمود بن سبكتكين الغزنوي (٣٦١ ـ ٤٢١هـ) السلطان، يمين الدولة، أبو القاسم، فاتح الهند، وأحد كبار القادة. امتدت سلطنته من أقاصي الهند إلى نيسابور. وكانت عاصمته «غزنة» بين خراسان والهند، وفيها ولادته ووفاته. أرسل إليه القادر بالله العباسي خلعة السلطنة عام ٣٨٩هـ، غزا خراسان وقضى على الدولة السامانية. وصمد لقتال ملك الترك وراء النهر. كان حازماً صائب الرأي، يجالس العلماء ويناظرهم، وكان من أعيان الفقهاء، فصيحاً بليغاً. أصيب بمرض مدة سنتين حتى مات رحمه الله. انظر: الأعلام (٧/ ١٧١)، البداية والنهاية (١٢/ ٢٩ ـ ٣١).

(٣) انظر: ترجمته في البداية والنهاية: (١٢/ ٢٩ ـ ٣١).

العباسية في بغداد أكثر من مائة عام، (٣٣٤هـ ـ ٤٤٧هـ). وفي ظل هذه الدولة السنية الفتية انتعش أمر الجهاد فجدد السلاجقة ما اندرس من غزو الروم عام ٤٤٠هـ حتى (لم يبقَ بينهم وبين القسطنطينية إلا خمسة عشر يوماً)[١].

* ثم في عام ٤٤٦هـ[٢]، وفي النصف الثاني من القرن الخامس وقعت ثلاثة أحداث كبار في تاريخ العلاقات الإسلامية النصرانية:

أولها: معركة «ملاذ كرت» أو «مانزكرت» عام ٤٦٣هـ ـ ١٠٧٠م، بين جحافل الإمبراطورية البيزنطية بقيادة ملك الروم «أرمانوس» والسلاجقة السنيين بقيادة السلطان ألب أرسلان في معركة من معارك التاريخ الفاصلة. كان الظفر فيها حليف المسلمين[٣].

الثاني: سقوط مدينة «طليطلة» بيد «ألفونسو»، ملك قشتالة النصراني عام ٤٧٨هـ ـ ١٠٨٥م بعد حكم دام ٣٧٢ سنة[٤].

الثالث: استيلاء الفرنج النورمانديين على جزيرة «صقلية» عام ٤٨٤هـ ـ ١٠٩٠م[٥].

إن لهذه الأحداث الكبار دلالات كباراً أيضاً:

١ ـ لقد كانت معركة «ملاذ كرت» إيذاناً بانهيار الخطر البيزنطي، وفشل محاولات النصارى من قبل المشرق، ومن ثم التفكير الجاد بالبحث عن سبل أخرى.

(ولم تقم للروم مذ ذاك قائمة، وبعدها لم ينفك أباطرة بيزنطة

(١) انظر: البداية والنهاية: (١٢/ ٥٨).
(٢) انظر: البداية والنهاية: (١٢/ ٦٥).
(٣) انظر: البداية والنهاية: (١٢/ ١٠١)، والكامل في التاريخ (٨/ ٢٢٣).
(٤) انظر: الكامل في التاريخ(٨/ ٢٩٨).
(٥) انظر: الكامل في التاريخ (٨/ ٣٤٥).

يوفدون البعثات إلى الغرب، يروجون الدعوة للحروب المقدسة)[(١)].

٢ ـ كان سقوط «طليطلة» ـ عاصمة القوط قديماً ـ بيد النصارى إيذاناً بأفول شمس المسلمين في الأندلس. فقد كانت هذه المدينة واسطة عقد المدن الأندلسية، وسرة الجزيرة، وقد عبر بعض الشعراء عن هذا المعنى بقوله:

يا أهل أندلس حثوا مطيكم ... فما المقام بها إلا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى ... ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط
ونحن بين عدوٍ لا يفارقنا ... كيف الحياة مع الحيات في سفط[(٢)]

٣ ـ كان سقوط جزيرة «صقلية» بأيدي الفرنج إيذاناً بانتهاء سيادة المسلمين البحرية على بحر الروم ـ البحر الأبيض المتوسط ـ بوصفها درة ذلك البحر، وكبرى جزره، والمسيطرة على طرق التجارة والأساطيل فيه، واطمأن النصارى على سلامة عاصمتهم الكبرى «روما» التي هددها الفاتحون المسلمون وحاصروها عام ٢٣١هـ = ٨٥٠م في عهد البابا «سرجيوس الثاني»[(٣)].

أما على الصعيد المدني، أي حال أهل الذمة في دار الإسلام، فقد كان من حيث الجملة استمراراً لحالهم في المرحلة الأولى من ناحية الحقوق والواجبات. ومن الطبيعي أن يصاحب ضعف التمسك بالدين، أو تولي المبتدعة والباطنية مقاليد الحكم في بعض الولايات

---

(١) الحروب الصليبية والمجابهة. شمس الدين الكيلاني. «مجلة الاجتهاد» (ملف العلاقات الإسلامية المسيحية) الأعداد (٢٨ ـ ٣٢) رئيس التحرير: الفضل شلق، رضوان السيد. دار الاجتهاد ـ بيروت (١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م) (٢٨/ ٥٣).

(٢) عن كتاب الزلاقة: شوقي أبو خليل. دار الفكر. دمشق. الطبعة الرابعة (١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م). (١٩).

(٣) انظر: مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام (١٠١). عن فتح صقلية: شوقي أبو خليل دار الفكر ـ دمشق. الطبعة الرابعة (١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م). (٨٧).

نوع ظلم واعتداء على حقوق أهل الذمة، وربما كان مبعثها أحياناً تصرفات استفزازية تصدر من أهل الذمة تهيج العامة أو بعض المتسلطين فيوقعون بهم. ومع ذلك تظل هذه الحوادث والوقائع محدودة تحفظ ولا يقاس عليها، بل إننا نجد شواهد من التسامح، وإن شئت قل من التساهل والتفريط في إسناد بعض الأمور الهامة لأهل الذمة، وتقريبهم من الخلفاء.

ونقتطف نبذاً من الأمثلة مما جمعه الشيخ محمد عبده[١] في رده على صاحب مجلة «الجامعة»: (.. ممن اشتهر من الحكماء بالحظوة عند الخلفاء: جيورجيس بن بختيشوع الجنديسابوري طبيب المنصور.. وممن حظي بالمكانة العليا عند الخليفة المهدي تيوفيل بن توما النصراني المنجم، وكان على مذهب الموارنة من سكان لبنان، وله كتب في التاريخ جليلة، ونقل كتاب «أميردس» إلى السريانية بأفصح عبارة. وممن ارتفع شأنه عند الرشيد من الفلاسفة بختيشوع الطبيب، وجبريل ولده، ويوحنا بن ماسويه النصراني السرياني، ولاه الرشيد ترجمة الكتب القديمة، طبية وغيرها، وخدم الرشيد ومَن بعده، إلى المتوكل... وممن علا قدره في زمن المأمون يوحنا البطريق مولى المأمون، أقامه كذلك أميناً على ترجمة الكتب من كل علم من علوم الطب والفلسفة[٢] وكذلك ارتفع شأن سهل بن سابور، وسابور ابنه، وكانا نصرانيين، وولي سابور بن سهل بيمارستان جنديسابور.

وكان سلمويه بن بنان النصراني طبيباً عند المعتصم... وفي أيام

---

(١) تأتي ترجمته والكلام عنه في الباب الأول.

(٢) ليته ما فعل. فإن ترجمة كتب الفلاسفة من اليونان وغيرهم قد فتحت على المسلمين باب علم الكلام المذموم، فانصرف المفتونون به عن الطريقة القرآنية النبوية في تقرير العقائد، وأرادوا الوصول إلى ذلك بالقوانين الأرسطية التي تبلبل العقل وتورث الشك.

المتوكل اشتهر حنين بن إسحاق النصراني العبادي، وهو من أشهر المترجمين لكتب أرسطو(١) وغيره... وممن ارتفع شأنه عند الخلفاء والخاصة، والعامة في زمنه أيام خلافة الراضي(٢) متى بن يونس المنطقي النصراني النسطوري، كان متفنناً في جميع العلوم العقلية... ومن المقربين عند الخلفاء قسطا البعلبكي من فلاسفة دولة الإسلام، وهو نصراني، طلبه الخلفاء إلى بغداد لأجل الترجمة، ثم يحيى بن عدي بن حميد بن زكريا المنطقي، انتهت إليه الرياسة ومعرفة العلوم الحكمية في وقته... ومنهم أبو الفرج بن الطيب، فيلسوف عالم)(٣).

ويمكن القول أن هذا اللون من المعاملة والتمكين يمثل أحد طرفي قصد الأمور، فلم يكن المسلمون في القرن الأول يمكنون أهل الذمة من المهام الكبار، أو يتخذونهم بطانة، وإنما ظهر ذلك في هذه المرحلة كما أن الطرف الآخر، بمعنى الإساءة والتجاوز ظهر أيضاً في هذه المرحلة بصفة محدودة، ولأسبابٍ محلية، ومن شواهد ذلك:

---

(١) أرسطو طاليس بن نيقوماخوس، من أهل أسطاخرا، ويعد من متأخري فلاسفة اليونان، وهو المقدم المشهور والمعلم الأول عندهم، ولد سنة ٣٨٤ق.م وسمي المعلم الأول لأنه واضع التعاليم المنطقية ومخرجها من القوة إلى الفعل، وكان قد تتلمذ على أفلاطون نيفاً وعشرين سنة. وكان أرسطو يلقي دروسه على تلاميذه وهم يمشون فلذا لقب أتباعه بـ «المشائين». الملل والنحل: الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم. تحقيق: محمد سيد كيلاني. دار المعرفة ـ بيروت. الطبعة (١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م). (٢/ ١١٩).

(٢) الراضي بالله (٢٩٧ ـ ٣٢٩هـ) محمد ابن المقتدر بالله جعفر بن المعتضد بالله أحمد، أبو العباس، الراضي بالله. ورث عن سلفيه، القاهر والمقتدر، خلافة ضعيفة، فحاول إصلاح الأمر حين ولي سنة ٣٢٢، فعجز. واستقل الولاة بما يلون من الأقاليم، وأكثرهم رافضة. ولم يبق اسم للخليفة في غير بغداد وأعمالها. انظر: الأعلام (٦/ ١٧).

(٣) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية (١٦ ـ ١٩).

□ مشاركة نصارى حمص في التمرد على واليها في عهد المتوكل العباسي عام ٢٤١هـ، فكان من آثار ذلك أن أمر الخليفة (أن يخرج كل نصراني بها، ويهدم كنيستها العظمى التي إلى جانب المسجد الجامع، وأن يضيفها إليه)(١).

وربما حصل مزيدٌ من التشديد في مسألة تمييز أهل الذمة عن المسلمين فوق ما كان معمولاً به في القرن الأول، ففي سنة ٢٣٥هـ (أمر المتوكل أهل الذمة أن يتميزوا عن المسلمين في لباسهم وعمائمهم، وثيابهم، وأن يتطيلسوا بالمصبوغ بالقلى، وأن يكون على عمائمهم رقاع مخالفة للون ثيابهم من خلفهم ومن بين أيديهم، وأن يلزموا بالزنانير الخاصرة لثيابهم كزنانير الفلاحين اليوم، وأن يحملوا في رقابهم كرات من خشب كثيرة، وأن لا يركبوا خيلاً، ولتكن ركبهم من خشب، إلى غير ذلك من الأمور المذلة لهم، المهينة لنفوسهم، وأن لا يستعملوا في شيء من الدواوين التي يكون لهم فيها حكم على مسلم، وأمر بتخريب كنائسهم المحدثة، وبتضييق منازلهم المتسعة، فيؤخذ منها العشر، وأن يعمل مما كان متسعاً من منازلهم مسجد، وأمر بتسوية قبورهم بالأرض، وكتب بذلك إلى سائر الأقاليم والآفاق، وإلى كل بلدٍ ورستاق)(٢).

وأياً كانت طبيعة معاملة أهل الذمة وتفاوتها في المجتمع الإسلامي، نظراً لاختلاف السياسة الشرعية في ظرفٍ معين، فإنها لا تنحدر إلى حد الإكراه في الدين، والتهديد بالقتل كما يقع من النصارى أنفسهم لرعاياهم وأسراهم من المسلمين في تلك العهود.

قال ابن كثير رحمه الله: (.. وقد كانت أم الملك «تدورة» ـ لعنها الله ـ

---

(١) البداية والنهاية: (١٠/ ٣٢٣).

(٢) البداية والنهاية: (١٠/ ٣١٣ ـ ٣١٤).

عرضت النصرانية على من كان في يدها من الأسارى، وكانوا نحواً من عشرين ألفاً، فمن أجابها إلى النصرانية وإلا قتلته، فقتلت اثني عشر ألفاً، وتنصر بعضهم...)(١).

□ وربما تعرض أهل الذمة للمضايقة والأذى بسبب فساد الدولة وانحراف الحاكم، كما جرى أثناء تسلط الحاكم بأمره العبيدي من تخريب كنيسة بيت المقدس، وإباحتها للعامة، وهدم كنائس أخرى في مصر عام ٣٩٨هـ. ثم نودي في النصارى: (من أحب الدخول في دين الإسلام دخل، ومن لا يدخل فليرجع إلى بلاد الروم آمناً، ومن أقام منهم على دينه فليلتزم بما شرط عليهم من الشروط التي زادها الحاكم على العهدة العمرية، من تعليق الصلبان على صدورهم، وأن يكون الصليب من خشب زنته أربعة أرطال، وعلى اليهود تعليق رأس العجل زنته ستة أرطال. وفي الحمام يكون في عنق الواحد منهم قربة زنة خمسة أرطال، بأجراس، وأن لا يركبوا خيلاً، ثم بعد هذا كله أمر بإعادة بناء الكنائس التي هدمها، وأذن لمن أسلم منهم في الارتداد إلى دينه. وقال: (ننزه مساجدنا أن يدخلها من لا نية له، ولا يعرف باطنه، قبحه الله)(٢).

□ وربما وقع شيء من الفتن بين المسلمين وأهل الذمة بسبب استفزاز هؤلاء الأخيرين للمسلمين كما جرى في بغداد سنة ٤٠٣هـ حين (توفيت زوجة بعض رؤساء النصارى، فخرجت النوائح والصلبان معها جهاراً، فأنكر ذلك بعض الهاشميين فضربه بعض غلمان ذلك الرئيس النصراني بدبوس في رأسه فشجه، فثار المسلمون بهم فانهزموا حتى لجأوا إلى كنيسة لهم هناك، فدخلت العامة إليها فنهبوا ما فيها، وما

---

(١) البداية والنهاية: (١٠/٣٢٤).
(٢) البداية والنهاية: (١١/٣٣٩).

قرب منها من دور النصارى، وتتبعوا النصارى في البلد...)[١].

ونخلص إلى القول أن هذه المرحلة لم تشهد عمليات فتح كبرى، على الجانب النصراني على الأقل، أخذاً بالاعتبار بعض الفتوحات الإسلامية في المشرق، بل اتخذ الجهاد صفة حماية الثغور، وأخذ الجزية في بادئ الأمر، ثم جرت عملية انحسار تدريجي بطيء استغرق قروناً، في أطراف الدولة الإسلامية بسبب ضعف الخلافة، وهيمنة الجنس الأعجمي من الأتراك على خلفاء بني العباس، وإنهاك الدولة بالحروب والفتن الداخلية التي أثارتها الدول الرافضية في أواخر القرن الثالث، والقرن الرابع.

وأما على الصعيد الداخلي، فرغم حوادث متفرقة تعرض لها أهل الذمة فقد سارت عملية فهم الإسلام واعتناقه من قبل السكان المحليين سيراً حثيثاً[٢]، بسبب كثرة العلماء والصالحين والوعاظ، وظهور آثار الإسلام الاجتماعية والنفسية على معتنقيه.

لقد سلك التاريخ العلمي والدعوي لأهل الإسلام مسلكاً مغايراً للتاريخ السياسي للحكومات الإسلامية المتعاقبة، وافترقا منذ انتهاء المرحلة الأولى بعد القرن الأول تقريباً.

ويتضح هذا الافتراق، بالمقارنة بين هذين التاريخين، وتراجم أعلام كل منهما، حتى كأنهما، لا يشتركان في رقعة مكانية وزمانية واحدة.

---

(١) البداية والنهاية: (٣٤٨/١١).

(٢) انظر الجداول الإحصائية والرسوم البيانية لنسب السكان من مختلف الطوائف. المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي (٤٤ ـ ٤٧).

المرحلة الثالثة من عام (٤٩٠ - ٦٩٠هـ):

تمثل هذه المرحلة فترة الحملات الصليبية المنطلقة من غرب ووسط أوربا النصرانية إلى بلاد المشرق الإسلامي (سواحل الشام ومصر وآسيا الصغرى) في سبع حملاتٍ متعاقبة استغرقت قرابة قرنين من الزمان (٤٩٠ ـ ٦٩٠هـ). بالإضافة إلى استمرار الزحف النصراني جنوباً على بقية الأندلس المسلمة، وبقية جزر البحر الأبيض المتوسط.

والسمة المميزة لهذه المرحلة هي انتقال المجابهة النصرانية من الإمبراطورية البيزنطية الأرثذوكسية إلى دول وسط وغرب أوربا الكاثوليكية بقيادة بابوات روما، وبالتالي انتقال أرض المعركة من الحدود والثغور المتاخمة للإمبراطورية البيزنطية في آسيا الوسطى إلى العمق الإسلامي في السواحل الشامية وبيت المقدس، بسبب عمليات الإنزال البحري التي تقذف بها هذه الحملات، أو الجموع الهوجاء التي تنطلق من الممالك الأوربية لتلتقي عند أسوار القسطنطينية، وتُفوَّج من هناك.

ويمكن أن يؤرخ لبدء الحملات الصليبية بالاجتماع الحاشد الذي دعا إليه البابا «أربان الثاني» في مدينة «كليرمون» في جنوب فرنسا، في نوفمبر من عام ١٠٩٦م، وحضره كبار الأساقفة والأمراء والإقطاعيين. وقد ألهب البابا حماس المجتمعين بخطبة بليغة مؤثرة، أثار فيها العصبية الدينية، بل والأطماع الدنيوية، تمحورت حول أربع ركائز:

الأولى: الدعوة إلى حملة مقدسة هدفها فلسطين، استناداً على نصوص من الإنجيل.

الثانية: أنه يدعو إلى هذه الحملة باسم الرب بوصفه نائباً عنه في الأرض.

الثالثة: الحث على نبذ الخلافات بين المؤمنين بالمسيح وتوحيد الجهود.

الرابعة: منح غفران جزئي لكل من يشارك في هذه الحملة، سواءً مات في الطريق أو قتل(١).

واستجاب الحاضرون لنداءات البابا التحريضية، وصاحوا جميعاً في ذلك الحقل الفسيح صيحة مدوية صارت شعاراً في حروبهم المقبلة مع المسلمين قائلين: (الرب يريدها) أو (تلك إرادة الله). ثم شرع الباب أوربان الثاني يجوب أنحاء فرنسا للدعوة إلى حربه المقدسة. كما برز قادة كنسيون شعبيون من أمثال «بطرس الناسك» هجروا أديرتهم وتفرغوا لتهييج الفلاحين والفقراء لإنقاذ مهد المسيح ـ بزعمهم ـ، ودغدغة مشاعرهم بامتلاك الأرض التي تفيض لبناً وعسلاً(٢).

وعلى مدى قرنين من الزمان تمخضت أوربا الصليبية عن سبع حملات شهيرة موجهة نحو بلاد المشرق الإسلامي، نوجزها بما يلي:

أولاً: الحملة الصليبية الأولى:

تكونت من خمسة جيوش جرارة، قدمت من فرنسا وألمانيا وإيطاليا والتقت في عاصمة الإمبراطورية البيزنطية «القسطنطينية» في أواخر عام ١٠٩٦م، ثم عبرت مضيق البسفور متجهة نحو دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، فسقطت عاصمتهم «نيقية» عام ١٠٩٧م. وفي الطريق إلى «أنطاكية» جنح قسم من الصليبيين نحو الرها، وكونوا أول إمارة صليبية في قلب العالم الإسلامي. وفي أواخر عام ١٠٩٧م فرض الصليبيون حصاراً على أنطاكية التي صمدت صموداً باهراً أمام الحصار، لولا خيانة بعض الأرمن المستأمنين على أحد أبراجها، فسقطت في منتصف عام ١٠٩٨م ـ ٤٩١هـ. وقد حاول بعض الأمراء

---

(١) باختصار من: ماهية الحروب الصليبية. د.قاسم عبده قاسم. (١٠٣ ـ ١٠٦).
(٢) انظر: ماهية الحروب الصليبية: د. قاسم عبده قاسم. عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية. القاهرة. طبعة ١٩٩٣م. (١٠٨ ـ ١١١).

المسلمين إيقاف الزحف الصليبي بعد سقوط أنطاكية ولكنه مُني بالهزيمة، وهكذا تكونت الإمارة الصليبية الثانية عام ١٠٩٩م في أنطاكية. ثم واصل الصليبيون مسيرهم جنوباً فاستولوا على «معرة النعمان». وكان الهدف الأخير، والحلم المنشود لهذه الجموع الهادرة مدينة «القدس» التي كانت حديثة عهد بصراع بين السلاجقة والعبيديين، فاستفاد العبيديون من انشغال السلاجقة بحروبهم مع الصليبيين فاستولوا على القدس عام (٤٩٣هـ = ١٠٩٩م). ولكن متعتهم لم تطل فقد حاصرها الصليبيون على مدى خمسة أسابيع في ذلك العام. قال ابن كثير رحمه الله: (لما كان ضحى يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان سنة ثنتين وتسعين وأربعمائة، أخذت الفرنج لعنهم الله بيت المقدس، شرفه الله، وكانوا في نحو ألف ألف مقاتل، وقتلوا في وسطه أزيد من ستين ألف قتيل من المسلمين، وجاسوا خلال الديار، وتبروا ما علوا تتبيراً)[١].

وهكذا تكونت مملكة بيت المقدس الصليبية عام ١١٠٠م[٢].

لقد كانت هذه الأحداث صدمة هائلة لجمهور المسلمين الذين لم يملكوا إلا البكاء وإزجاء القصائد العاطفية، فقد كان ضعف التمسك بالدين، وفشوا المعاصي والبدع، يقف خلف التشرذم السياسي والتنافس بين أمراء المدن الكبار: دمشق، وحلب، والموصل، وضعف الخلافة العباسية في بغداد يكبل هذه المشاعر، ويحول دون تحولها لتكوين جبهة موحدة أمام هذا العدو الغاشم، والعنصر الغريب الذي زرع قسراً في الأرض الإسلامية. أما «العبيديون» في مصر فكانوا أبعد ما يكون من تقديم المساعدة لأهل الإسلام في بلاد الشام. بل كانوا يرسلون السفارات إلى ملوك الصليبيين للتفاوض على اقتسام الأرض.

---

(١) البداية والنهاية: (١٢/١٥٦).

(٢) انظر: ماهية الحروب الصليبية (١٢٠ ـ ١٣٠).

ومع كون الصليبيين قد وسعوا نفوذهم على السواحل الشامية[١]، حتى دان لهم شرق البحر الأبيض المتوسط بالإضافة إلى جيب «الرها» وريف القدس، إلا إنهم لم يهنأوا بهذا الملك المغتصب، فقد كانوا يتعرضون لبعض الهزائم المنكرة على أيدي المسلمين. فمن ذلك:

* ما ذكره ابن كثير في حوادث سنة أربع وتسعين وأربعمائة: (.. وفيها أقبل ملك الفرنج في ثلاثمائة ألف مقاتل، فالتقى معه ستكين بن أنشمند طايلو، أتابك دمشق الذي يقال له أمين الدولة.. فهزم الإفرنج وقتل منهم خلقاً كثيراً، بحيث لم ينج منهم سوى ثلاثة آلاف، وأكثرهم جرحى - يعني الثلاثة آلاف - وذلك في ذي القعدة منها، ولحقهم إلى ملطية فملكها وأسر ملكها ولله الحمد)[٢].

* وفي حوادث سنة سبع وتسعين وأربعمائة: (.. قصد الفرنج لعنهم الله الشام، فقاتلهم المسلمون فقتلوا من الفرنج اثني عشر ألفاً، ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً. وقد أسر في هذه الوقعة «بردويل» صاحب الرها)[٣].

* وفي حوادث سنة سبع وخمسمائة (١١١٣م): (.. كانت وقعة عظيمة بين المسلمين والفرنج في أرض «طبرية»، كان فيها ملك دمشق الأتابك «طغتكين» ومعه صاحب سنجار، وصاحب ماردين، وصاحب الموصل، فهزموا الفرنج هزيمة واضحة، وغنموا منهم أموالاً جزيلة، وملكوا تلك النواحي كلها. ولله الحمد والمنة)[٤].

---

(١) في عام ٤٩٤هـ سقطت قيسارية وسروج وعكا. ٥٠٣هـ طرابلس، ٥٠٤ صيدا، ٥٠٥ صور.

(٢) البداية والنهاية: (١٢/ ١٥٨)

(٣) البداية والنهاية: (١٢/ ١٦٣). و«بردويل» هو: «بلدوين» كونت الرها.

(٤) البداية والنهاية: (١٢/ ١٧٥ ـ ١٧٦).

* وفي حوادث سنة ثلاث عشرة وخمسمائة: (.. سارت الفرنج إلى مدينة حلب ففتحوها عنوة وملكوها، وقتلوا من أهلها خلقاً، فسار إليهم صاحب ماردين إيلغازي بن أرتق في جيش كثيف، فهزمهم ولحقهم إلى جبل قد تحصنوا به، فقتل منهم هنالك مقتلة عظيمة، ولله الحمد. ولم يفلت منهم إلا اليسير، وأسر من مقدميهم نيفاً وتسعين رجلاً، وقتل فيمن قتل «سيرجال» صاحب أنطاكية وحمل رأسه إلى بغداد)[١].

* وفي حوادث سنة خمس عشرة وخمسمائة: (حاصر ملك بن بهرام وهو ابن أخي إيلغازي مدينة الرها، فأسر ملكها جوسكين الإفرنجي وجماعة من رؤوس أصحابه، وسجنهم بقلعة خرتبرت)[٢].

* وفي حوادث سنة عشرين وخمسمائة: (اقتتل طغتكين صاحب دمشق وأعداؤه من الفرنج فقتل منهم خلقاً كثيراً، وغنم منهم أموالاً جزيلة ولله الحمد والمنة)[٣].

* وفي حوادث سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة: (حاصرت الفرنج مدينة «دمشق»، فخرج إليهم أهلها فقاتلوهم قتالاً شديداً... حتى نصرهم الله من عنده، فإن المسلمين هزموهم، وقتلوا منهم عشرة آلاف، ولم يفلت منهم سوى أربعين نفساً، ولله الحمد والمنة. وقتل «بوهيموند» الفرنجي صاحب أنطاكية)[٤].

* وفي حوادث سنة أربع وعشرين وخمسمائة: (.. ملك عماد الدين زنكي[٥] بلاداً كثيرة من الجزيرة، وهما «كذا» مع الفرنج، وجرت

---

(١) البداية والنهاية: (١٢/ ١٨٤).

(٢) البداية والنهاية: (١٢/ ١٨٨).

(٣) البداية والنهاية: (١٢/ ١٩٦).

(٤) البداية والنهاية: (١٢/ ٢٠٠).

(٥) عماد الدين زنكي بن آقسنقر. مؤدب الأميرين ألب أرسلان وفروخ شاه=

معهم حروبٌ طويلة، نصر عليهم في تلك المواقف كلها ولله الحمد. وقتل خلقاً من جيش الروم حين قدموا الشام)[١].

* وفي حوادث سنة سبع وعشرين وخمسمائة: (.. اقتتلت الفرنج فيما بينهم قتالاً شديداً فمحق الله بسبب ذلك خلقاً كثيراً. وغزاهم فيها عماد الدين زنكي فقتل منهم ألف قتيل، وغنم أموالاً جزيلة، ويقال لها غزوة «أسوار»)[٢].

* وفي حوادث سنة ثمان وعشرين وخمسمائة: (فتح زنكي قلاعاً كثيرة، وقتل خلقاً من الفرنج، وفيها فتح شمس الملوك الشقيف وتيروت، ونهب بلاد الفرنج)[٣].

* وفي حوادث سنة تسع وثلاثين وخمسمائة (١١٤٤م): (أخذ عماد الدين زنكي الرها وغيرها من حصون الجزيرة من أيدي الفرنج، وقتل منهم خلقاً كثيراً، وسبى نساء كثيرة، وغنم أموالاً جزيلة، وأزال عن المسلمين كرباً شديداً)[٤].

يقول الدكتور قاسم عبده قاسم: (كانت تلك هي أول إمارة صليبية تقوم على أرض الشرق العربي الإسلامي، وكان سقوطها صدمة نفسية مؤلمة وعنيفة على الصليبيين، ترددت أصداؤها في كل مكان. إذ أن المدينة كانت ترتبط بتراث المسيحية الباكر. كما أن سقوطها بعد

= السلجوقيين. تولى واسط سنة (٥١٦هـ)، وانتزع الرها من أيدي الصليبيين، واغتيل سنة (٥٤١هـ) في حروبه ضد الصليبيين. انظر: البداية والنهاية (١٢/ ١٩٠، ٢١٩، ٢٢١).

(١) البداية والنهاية: (١٢/ ٢٠٠).
(٢) البداية والنهاية: (١٢/ ٢٠٤).
(٣) البداية والنهاية: (١٢/ ٢١٩).
(٤) البداية والنهاية: (١٢/ ٢١٩).

أقل من خمسين عاماً من استيلاء بلدوين البويوني عليها كان نذير شؤم بالنسبة للصليبيين)[١].

وهكذا مال ميزان القوىٰ لصالح المسلمين الذين لم يزالوا يعانون من التفكك والفتن الداخلية، وإن كانت بوادر العافية قد بدأت تظهر بعلو نجم آل زنكي في أرض الموصل.

ثانياً: الحملة الصليبية الثانية: (١١٤٥ ـ ١١٤٩م).

جاءت هذه الحملة رد فعل بطيء لسقوط إمارة الرها، في عهد البابا «إيجينيوس الثالث» (١١٤٥ ـ ١١٣٥م)، وتكونت من جيوش ألمانيا بقيادة الإمبراطور «كونراد الثالث»، وفرنسا بقيادة ملكها «لويس التاسع». ووصلت إلى المنطقة نهاية عام ١١٤٧م، وقد منيت بالفشل الذريع، وعاد الملكان الصليبيان يجران أذيال الخيبة[٢].

قال ابن كثير رحمه الله في حوادث سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة: (حاصرت الفرنج وهم في سبعين ألف مقاتل، ومعهم ملك الألمان في خلق لا يعلمهم إلا الله عز وجل، دمشقَ، وعليها مجير الدين أرتق، وأتابك معين الدين، وهو مدبر المملكة، وذلك يوم السبت سادس ربيع الأول، فخرج إليهم أهلها في مائة ألفٍ وثلاثين ألفاً، فاقتتلوا معهم قتالاً شديداً، قتل من المسلمين في أول يومٍ نحو من مائتي رجل، ومن الفرنج خلق كثير لا يحصون، واستمر الحَرب مدة، وأخرج مصحف عثمان إلى وسط صحن الجامع، واجتمع الناس حوله يدعون الله ﷻ، والنساء والأطفال مكشفي الرؤوس يدعون ويتباكون، والرماد مفروش في البلد، فاستغاث أرتق بنور الدين محمود[٣] صاحب حلب، وبأخيه

---

(١) ماهية الحروب الصليبية (١٣٨).

(٢) انظر: ماهية الحروب الصليبية (١٣٩ ـ ١٤٠).

(٣) نور الدين محمود بن زنكي (عماد الدين)، أبو القاسم، الملقب بالملك=

سيف الدين غازي صاحب الموصل، فقصداه سريعاً في نحو من سبعين ألفاً بمن انضاف إليهم من الملوك وغيرهم، فلما سمعت الفرنج بقدوم الجيش تحولوا عن البلد، فلحقهم فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وجماً غفيراً)(١).

وكان من آثار هذه الحملة على الجانب الإسلامي مزيد من التوحد بين الممالك الإسلامية، فقد صارت بلاد الشام جبهة واحدة تحت قيادة نور الدين محمود، في مواجهة الإمارات الصليبية على امتداد الساحل. وبقيت الجبهة الجنوبية، مصر بأيدي العبيديين الذين كانوا يلفظون أنفاسهم الأخيرة.

وقد تصدى نور الدين محمود زنكي لجهاد الصليبيين، وانتزاع الحصون والبلاد من أيديهم في بلاد الشام في وقائع مظفرة من أشهرها:

* غزوة سنة أربع وأربعين وخمسمائة التي قتل فيها ملك أنطاكية. ثم فتح حصن فاميا قرب حماة(٢).

* فتح حصن إعزاز سنة خمس وأربعين وخمسمائة، وأسر جوسلين الإفرنجي وابنه(٣)، وأخذ كل ما كان تحت يده من البلاد في السنة التي تلتها.

= العادل، ملك الشام والجزيرة ومصر، وهو أحد ملوك زمانه وأجلهم وأفضلهم، كان مداوماً للجهاد يباشر القتال بنفسه، وقارع الصليبيين وهزمهم في مواقع، وكان متواضعاً مهيباً وقوراً مكرماً للعلماء، توفي سنة ٥٦٩هـ. الأعلام (٧/ ١٧٠)، الروضتين (١/ ٢٢٧ ـ ٢٢٩) وما قبلها، الكامل في التاريخ (١١/ ١٥١)، تاريخ ابن خلدون (٥/ ٢٥٣)، وفيات الأعيان (٢/ ٨٧)، مرآة الزمان (٨/ ٣٠٥).

(١) البداية والنهاية: (١٢/ ٢٢٤).

(٢) البداية والنهاية: (١٢/ ٢٢٥ ـ ٢٢٦).

(٣) البداية والنهاية: (١٢/ ٢٢٨).

* وقعة سنة سبع وأربعين وخمسمائة وكانت (وقعة عظيمة بين نور الدين الشهيد وبين الفرنج، فكسرهم وقتل منهم خلقاً ولله الحمد)(١).

* وقعة حارم سنة تسع وخمسين وخمسمائة، (فكسرهم كسرة فظيعة، وأسر البرنس «بيموند» صاحب أنطاكية، والقومص، صاحب طرابلس، والدوك صاحب الروم، وابن جوسلين، وقتل منهم عشرة آلاف، وقيل عشرين ألفاً)(٢).

* فتح «بانياس» في سنة تسع وخمسين أيضاً، وقيل ستين(٣).

* فتح حصن «المنيطرة» في الشام، سنة إحدى وستين وخمسمائة(٤).

ولكن انتصار الصليبيين في عسقلان، وانتزاعهم إياها من أيدي العبيديين سنة ٥٤٨هـ أثار مخاوف نور الدين محمود من طمعهم في الاستيلاء على مصر، في وقتٍ كانت الدولة العبيدية تلفظ أنفاسها الأخيرة. وحصل ما توقعه نور الدين ـ فعلاً ـ فقد (أقبلت الفرنج في جحافل كثيرة إلى الديار المصرية، وساعدهم المصريون، فتصرفوا في بعض البلاد)(٥) وذلك سنة ثنتين وستين وخمسمائة، فبعث نور الدين أحد أمرائه وهو أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين(٦) يوسف بن

---

(١) انظر: البداية والنهاية: (١٢/ ٢٢٩).
(٢) انظر: البداية والنهاية: (١٢/ ٢٤٨).
(٣) المرجع السابق.
(٤) انظر: البداية والنهاية: (١٢/ ٢٥١).
(٥) انظر: البداية والنهاية: (١٢/ ٢٥٢)، و(المصريون) يطلق في تلك الحقبة على ملوك مصر من العبيديين.
(٦) يوسف بن أيوب بن شادي، أبو المظفر، الملقب بالملك الناصر، من أشهر ملوك الإسلام، له المناقب الجمة، والسيرة العظيمة، فمن مناقبه قضاؤه على العبيديين بمصر، والإصلاح الداخلي في البلاد حيث جمع بين ملك مصر=

أيوب، فهزما الفرنج وعادا بعد ذلك إلى الشام[١]. ولكن الأمر استفحل في سنة أربع وستين وخمسمائة فقد (.. طغت الفرنج بالديار المصرية... وتحكموا في أموالها ومساكنها، أفواجاً أفواجاً ولم يبق شيء من أن يستحوذوا عليها، ويخرجوا منها أهلها من المسلمين، وقد سكنها أكثر شجعانهم، فلما سمع الفرنج بذلك جاءوا إليها من كل فج وناحية، صحبة ملك عسقلان في جحافل هائلة... فعند ذلك أرسل صاحبها «العاضد» يستغيث نور الدين، وبعث إليه بشعور نسائه يقول: أدركني، واستنقذ نسائي من أيدي الفرنج..)[٢].

فحينئذٍ بعث نور الدين ـ مرة أخرى ـ أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين فانسحب الصليبيون. وتم فتح مصر في تلك السنة، ولم يلبث أسد الدين أن توفي بعد شهرين، وولي صلاح الدين، وزارة العاضد، وكان نائباً لنور الدين في مصر. وبعد فك الحصار عن «دمياط» سنة خمس وستين[٣]، اتجه صلاح الدين إلى إصلاح ما أفسده العبيديون الرافضة، ففي سنة ست وستين وخمسمائة: (عزل صلاح الدين قضاة مصر، لأنهم كانوا شيعة، وولى قضاء القضاة بها لصدر

= والشام والجزيرة والموصل. فعمل على جمع الصفوف وتوحيد الكلمة ومن ثم جابه الصليبيين ونازلهم حتى كانت موقعة «حطين» الشهيرة بقيادته، وكانت وفاته سنة ٥٨٩هـ. وللمصنفين كتب كثيرة في سيرته منها كتاب «تاريخ الروضتين» لأبي شامة، وغيرها.

الأعلام (٨/ ٢٢٠)، وفيات الأعيان (٢/ ٣٧٦)، تاريخ ابن خلدون (٤/ ٧٩، ٥/ ٢٥٠ ـ ٣٣٠)، الكامل في التاريخ (١٢/ ٣٧)، طبقات السبكي (٤/ ٣٢٥)، مرآة الزمان (٨/ ٤٢٥).

(١) انظر: البداية والنهاية: (١٢/ ٢٥٢).

(٢) انظر: البداية والنهاية: (١٢/ ٢٥٥).

(٣) انظر: البداية والنهاية: (١٢/ ٢٦٠).

الدين عبد الملك بن درباس الماراني الشافعي[١]، فاستناب في سائر المعاملات قضاة شافعية، وبنى مدرسة للشافعية وأخرى للمالكية.. وعمَّر صلاح الدين أسوار البلد، وكذلك أسوار إسكندرية، وأحسن إلى الرعايا إحساناً كثيراً، وركب فأغار على بلاد الفرنج بنواحي عسقلان وغزة، وضرب قلعة كانت لهم على أيلة، وقتل خلقاً كثيراً من مقاتلتهم... وفيها قطع صلاح الدين الأذان بحي على خير العمل من ديار مصر كلها، وشرع في تمهيد الخطبة لبني العباس على المنابر)[٢].

وفي أول جمعة من سنة سبع وستين وخمسمائة هلك العاضد، آخر ملوك الدولة العبيدية، وأقيمت الخطبة لبني العباس بمصر وأعمالها في الجمعة الثانية بعد انقطاعٍ دام أكثر من مائتي سنة (٣٥٩ ـ ٥٦٧هـ)، واجتثت تلك الشجرة الخبيثة من أرض الإسلام، وعادت مصر إلى حظيرة السنة، وعاصمة الخلافة[٣]. ولله الحمد والمنة.

وإنما مُني المسلمون بأوطانهم، وغزاهم عدوهم في عقر دارهم بسبب هؤلاء الباطنية الذين أرادوا إطفاء نور الإيمان، ونشر البدعة والشرك والعصيان، ومكنوا لأعداء المسلمين من الصليبيين والتتار وسائر ملل الكفار، وملكوهم الحصون والثغور، كهؤلاء العبيديين

---

(١) صدر الدين عبد الملك بن عيسىٰ بن درباس الماراني: قاضي الديار المصرية، الكردي الشافعي، ولد بأعمال الموصل عام ٥١٦ تقريباً، ورحل في طلب الفقه، وكان مشهوراً بالصلاح والفقه، توفي سنة ٦٠٥هـ، وكان من أبناء التسعين. السير (٢١/ ٤٧٤)، التكملة لوفيات النقلة (٢/الترجمة ١٠٦٢)، تاريخ الإسلام ١٨/ ١/ ١٩٦ ـ ١٩٧، العبر (٥/ ١٣)، البداية والنهاية (١٣/ ٥٢)، حسن المحاضرة (١/ ١٩٠).

(٢) انظر: البداية والنهاية: (١٢/ ٢٦٣).

(٣) انظر: البداية والنهاية: (١٢/ ١٦٤).

اللئام، وقد بيّن المؤرخ الفاضل عماد الدين بن كثير هذه اللازمة، فقال: (وقد كان الفاطميون أغنى الخلفاء، وأكثرهم مالاً، وكانوا من أعتى الخلفاء وأجبرهم وأظلمهم، وأنجس الملوك سيرة، وأخبثهم سريرة. ظهرت في دولتهم البدع والمنكرات، وكثر أهل الفساد، وقل عندهم الصالحون من العلماء والعباد، وكثر بأرض الشام النصرانية والدرزية والحشيشية، وتغلب الفرنج على سواحل الشام بكماله، حتى أخذوا القدس ونابلس وعجلون والغور وبلاد غزة وعسقلان وكرك الشوبك وطبرية وبانياس وصور وعكا وصيدا وبيروت وصفد وطرابلس وأنطاكية وجميع ما والى ذلك، إلى بلاد إياس وسيس، واستحوذوا على بلاد آمد والرها ورأس العين، وبلاد شتى غير ذلك، وقتلوا من المسلمين خلقاً، وأمماً لا يحصيهم إلا الله، وسبوا ذراري المسلمين من النساء والولدان مما لا يحد ولا يوصف، وكل هذه البلاد كانت الصحابة قد فتحوها، وصارت دار إسلام، وأخذوا من أموال المسلمين ما لا يحد ولا يوصف، وكادوا أن يتغلبوا على دمشق، ولكن الله سلم، وحين زالت أيامهم وانتقض إبرامهم أعاد الله ﷻ هذه البلاد كلها إلى المسلمين بحوله وقوته وجوده ورحمته)[1].

وقد توفي الملك المجاهد نور الدين محمود زنكي رحمه الله سنة تسع وستين وخمسمائة بعد حياة حافلةٍ بالجهاد في سبيل الله، وتسلم الراية بعده الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي، وبعد أربعة عشر عاماً قضاها في لم الشمل وجمع الكلمة، والقضاء على الفتن الداخلية، والإثخان في الصليبيين، وإصلاح أمور الرعية[2]، تهيأ في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة للملحمة الكبرى مع الفرنج التي كانت مقدمة ضرورية لفتح القدس، فكانت معركة حطين الفاصلة في شهر ربيع

(١) البداية والنهاية: (١٢/ ٢٦٧).
(٢) انظر: تفاصيل ذلك في البداية والنهاية من (٢٨٥) إلى (٣٢٠) ج(١٢).

الآخر، حشد فيها الجانبان قواتهما، وشهدها ملوكهما، ودارت رحى الحرب يومي الجمعة والسبت لخمس بقين من ربيع الآخر، (ثم أمر السلطان بالتكبير والحملة الصادقة فحملوا وكان النصر من الله ﷻ، فمنحهم الله أكتافهم، فقتل منهم ثلاثون ألفاً في ذلك اليوم، وأسر ثلاثون ألفاً من شجعانهم وفرسانهم، وكان في جملة من أسر جميع ملوكهم، سوى قومس طرابلس، فإنه انهزم في أول المعركة، واستلبهم السلطان صليبهم الأعظم، وهو الذي يزعمون أنه صلب عليه المصلوب، وقد غلفوه بالذهب واللالئ والجواهر النفيسة، ولم يسمع بمثل هذا اليوم في عز الإسلام وأهله، ودمغ الباطل وأهله)[١].

ثم قتل صلاح الدين رحمه الله «أرياط» صاحب الكرك بيده، لكونه تعرض لسب النبي ﷺ.

وفي الخامس عشر من شهر رجب من السنة نفسها ٥٨٣هـ سارت جحافل المسلمين إلى بيت المقدس ففتحوه يوم الجمعة في السابع والعشرين من رجب، بعد أن بقي بيد عبدة الصلبان اثنتين وتسعين سنة (٤٩٢ ـ ٥٨٣هـ)[٢] (١٠٩٩ ـ ١١٨٧م). ثم اتجه صلاح الدين رحمه الله لفتح الحصون الممتنعة واستنقاذ مدن الساحل الشمالية، حتى كاد يفتح أنطاكية. والحمد لله رب العالمين.

ثالثاً: الحملة الصليبية الثالثة (٥٨٦هـ = ١١٩٠م):

كان وقع أنباء انتصارات صلاح الدين مؤلماً في أوربا، حتى إن البابا أربان الثالث (١١٨٥ ـ ١١٨٧م) مات من هول الصدمة حين بلغته الأنباء[٣]. قال ابن الأثير: (ثم إن الرهبان والقسوس، وخلقاً كثيراً من

---

(١) البداية والنهاية: (١٢/ ٣٢١).
(٢) انظر: تفاصيل ذلك الفتح العظيم في البداية والنهاية (١٢/ ٣٢٣ ـ ٣٢٧).
(٣) انظر: ماهية الحروب الصليبية (١٤٨).

مشهوريهم وفرسانهم لبسوا السواد، وأظهروا الحزن على خروج البيت المقدس من أيديهم، وأخذهم البطرك الذي كان بالقدس، ودخل بهم بلاد الفرنج، يطوفها بهم جميعاً، ويستنجدون أهلها، ويستجيرون بهم، ويحثونهم على الأخذ بثأر البيت المقدس، وصوروا المسيح ﷺ، وجعلوه مع صورة عربي يضربه، وقد جعلوا الدماء على صورة المسيح ﷺ، وقالوا لهم: هذا المسيح يضربه محمد نبي المسلمين، وقد جرحه وقتله، فعظم ذلك على الفرنج، فحشروا، وحشدوا حتى النساء)[١].

وقد تكونت الحملة الصليبية الثالثة من كبار ملوك أوربا، وهم:

• الإمبراطور الألماني فردريك بربروسا (١١٥٢ ـ ١١٩٠م) الذي هلك غرقاً في أحد أنهار آسيا الصغرى، وتمزق جيشه، وملك إنجلترا، ريتشارد الأول (١١٨٩ ـ ١١٩٩م)، وملك فرنسا، فيليب أغسطس (١١٨٠ ـ ١٢٢٣م).

وقد وصل الفرنسيون عكا في ربيع الأول سنة سبع وثمانين، ثم وافاهم الإنجليز في جمادى الأولى من السنة نفسها، وحاصروها حصاراً شديداً، واستبسل أهلها وحاميتها في الدفاع عنها، ومن ورائهم الملك صلاح الدين يمدهم بالمؤن والأقوات عن طريق البحر، حتى سقطت بأيدي الفرنج في السابع من جمادى الآخرة. وقتل الفرنج ثلاثة آلاف أسير من أهلها صبراً. رحمهم الله

ولم تتمكن هذه الحملة التي علقت عليها الآمال تحقيق أهدافها من استعادة بيت المقدس ومدن الساحل، رغم ما بذلوه من محاولات،

---

(١) الكامل في التاريخ. ابن الأثير، عز الدين، أبو الحسن علي بن محمد الشيباني. تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري. دار الكتاب العربي. بيروت. الطبعة الأولى (١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م) (٦٩/١٠).

وتكبدوه من خسائر وهزائم متكررة. وانحصرت مكاسبهم في الاستيلاء على عكا، التي دافع عنها صلاح الدين الأيوبي سبعة وثلاثين شهراً. وحاولوا أخذ عسقلان فصدهم المسلمون حتى يئسوا وطلبوا الصلح والأمان، وجرت الهدنة بين المسلمين والنصارى في السابع من شعبان من سنة ثمان وثمانين وخمسمائة على وضع الحرب ثلاثين سنة ونصف. وعاد ملوك أوربا يجرون أذيال الخيبة، وعاد صلاح الدين إلى بيت المقدس يصلح شؤونها، ثم إلى دمشق، حيث توفي ﷺ جاهداً مجاهداً في السابع والعشرين من شهر صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة[(١)].

رابعاً: الحملة الصليبية الرابعة: (٦٠٠هـ ـ ١٢٠٤م):

كان هدف هذه الحملة «مصر»، وذلك في عهد البابا «إنوسنت الثالث» (١١٩٨ ـ ١٢١٦م)، ولكن مسار الحملة انحرف عن القاهرة إلى القسطنطينية، تحقيقاً لأحلام بابوية روما القديمة في القضاء على الكنيسة البيزنطية الأرثذوكسية. فدمروا المدينة الحصينة ونهبوها، وقتلوا إخوة الدين، وكفى الله المؤمنين القتال سوى فرق قليلة من هذه الحملة اتحدت مع المستوطنين في بلاد الشام من الصليبيين. قال ابن كثير: (ثم إن الفرنج قصدوا بلاد الشام، وقد تقووا بملكهم القسطنطينية، فنزلوا عكا وأغاروا على كثيرٍ من بلاد الإسلام من ناحية الغور وتلك الأراضي فقتلوا وسبوا، فنهض إليهم العادل[(٢)]، وكان بدمشق،

(١) انظر: تفاصيل ذلك في البداية والنهاية (١٢/ ٣٣٤ ـ ٣٥١).

(٢) الملك العادل (٥٤٠ ـ ٦١٥ هـ): محمد بن أيوب بن شادي، أبو بكر، سيف الإسلام، الملقب بالملك العادل. أخو السلطان صلاح الدين ونائبه على مصر. من كبار سلاطين الدولة الأيوبية. تنقل بين الولايات، ثم ضمها جميعاً، وقسمها بين أولاده. كان حازماً مجرباً داهية حسن السيرة توفي وهو يجهز العساكر لقتال الإفرنج بعالقين، وقضىٰ على بقايا الإسماعيلية بمصر سنة=

واستدعى الجيوش المصرية والشرقية، ونازلهم بالقرب من عكا، فكان بينهم قتال شديد وحصار عظيم، ثم وقع الصلح بينهم والهدنة، وأطلق لهم شيئاً من البلاد، فإنا لله وإنا إليه راجعون[(١)].

خامساً: الحملة الصليبية الخامسة: (٦١٥ـ٦١٨هـ) (١٢١٨ـ١٢٢١م):

استهدفت هذه الحملة مصر، أيضاً، وانطلقت من عكا على الساحل الشامي قوات الصليبيين، ونزلت على «دمياط»، وذلك سنة خمس عشرة وستمائة. وفي تلك الأثناء توفي الملك العادل أبو بكر بن أيوب، أخو صلاح الدين، فسقطت دمياط وما وراءها، ثم سار الصليبيون متجهين نحو القاهرة، ونازلهم المسلمون في مواقع كثيرة حتى إن الملك الكامل[(٢)] (عرض عليهم في بعض الأوقات أن يرد إليهم بيت المقدس وجميع ما كان صلاح الدين فتحه من بلاد الساحل، ويتركوا «دمياط»، فامتنعوا من ذلك ولم يفعلوا. فقدر الله تعالى أنها ضاقت عليهم الأقوات، فقدم عليهم مراكب فيها ميرة لهم، فأخذها الأسطول البحري، وأرسلت المياه على أراضي «دمياط» من كل ناحية، فلم يمكنهم بعد ذلك أن يتصرفوا في أنفسهم، وحصرهم المسلمون من الجهة الأخرى حتى اضطروهم إلى أضيق الأماكن، فحينئذٍ أنابوا إلى المصالحة بلا معاوضة)[(٣)]. وكان ذلك سنة ثمان عشرة وستمائة. يقول

= ٦٠٤هـ. قال المقريزي: «ولم يجسر أحد بعدها أن يتظاهر بمذهبهم»، انظر: الأعلام (٦/ ٤٧).

(١) البداية والنهاية: (١٣/ ٣٧).

(٢) الملك الكامل (٥٧٦ ـ ٦٣٥هـ): محمد بن محمد العادل ابن أيوب، أبو المعالي، ناصر الدين. من سلاطين الدولة الأيوبية، ولي مصر سنة ٦١٥، ووسع نطاق ملكه، فشمل الشام والحجاز واليمن والجزيرة. جاهد الصليبيين بدمياط. كان حازماً عفيفاً عن الدماء مهيباً، يباشر أمور الملك بنفسه. توفي بدمشق، ودفن بقلعتها. انظر: الأعلام (٧/ ٢٨).

(٣) البداية والنهاية: (١٣/ ٩٥).

د. قاسم عبده قاسم: (كانت الحملة ضد دمياط آخر محاولات البابوية لتوجيه حملة صليبية تحت قيادتها فقط، ولحسابها منفردة)[١].

سادساً: الحملة الصليبية السادسة: (٦٢٦هـ ـ ١٢٢٨م):

قائد هذه الحملة هو الإمبراطور الألماني المحنك فردريك الثاني (١٢١٥ ـ ١٢٥٠م)، الذي استغل تفرق حكام الدولة الأيوبية، وروح الضعف والمسالمة التي أبداها الملك الكامل أثناء حصار دمياط، فحقق عن طريق السياسة مكاسب لم تحققها الحملات الصليبية العسكرية الضخمة. فقد قدم فلسطين بستمائة فارس فقط، وأسطول هزيل[٢]، ومع ذلك رجع وقد تسلم بيت المقدس! ويصف ابن كثير هذه الملابسة العجيبة في أحداث سنة ست وعشرين وستمائة فيقول: (استهلت هذه السنة وملوك بني أيوب مفترقون مختلفون، قد صاروا أحزاباً وفرقاً، وقد اجتمع ملوكهم إلى الكامل محمد صاحب مصر، وهو مقيم بنواحي القدس الشريف، فقويت نفوس الفرنج لعنهم الله بكثرتهم بمن وفد إليهم من البحر، وبموت المعظم[٣]، واختلاف من بعده من الملوك. فطلبوا من المسلمين أن يردوا إليهم ما كان الناصر صلاح الدين أخذ منهم، فوقعت المصالحة بينهم وبين الملوك أن يردوا لهم بيت المقدس وحده! وتبقى بأيديهم بقية البلاد. فتسلموا القدس الشريف، وكان المعظم قد هدم أسواره، فعظم ذلك المسلمين جداً، وحصل وهن شديد، وإرجافٌ عظيم. فإنا لله وإنا إليه راجعون)[٤].

---

(١) ماهية الحروب الصليبية: (١٥٨).

(٢) ماهية الحروف الصليبية: (١٦٠).

(٣) الملك المعظم: توران شاه بن أيوب بن شادي، شمس الدولة، فخر الدين، أخو صلاح الدين الأيوبي. تولىٰ اليمن ثم دمشق، ثم انتقل إلى مصر سنة ٥٧١هـ حتى مات فيها سنة ٥٧٦هـ. انظر: الأعلام (٢/ ٩٠).

(٤) البداية والنهاية: (١٣/ ١٢٤).

وظل بيت المقدس بيد الصليبيين عشر سنين (٦٢٦، ٦٣٦هـ)، (١٢٢٩ ـ ١٢٣٩م) تمثل الهدنة السابقة. وما أن انقضت سني الهدنة حتى هجم الصليبيون على جنوب فلسطين فقاتلهم الأيوبيون في غزة سنة ست وثلاثين وستمائة وهزموهم شر هزيمة، ثم استنقذوا بيت المقدس في السنة نفسها ولله الحمد. وظلت بأيدي المسلمين حتى استولى عليها الإنجليز، ثم اليهود الصهاينة في العصور الأخيرة[١].

سابعاً: الحملة الصليبية السابعة: (٦٤٧هـ ـ ١٢٤٩م):

كانت هذه الحملة موجهة أيضاً إلى مصر، لكن دون المرور بعكا، معقل الصليبيين في السواحل الشامية. بل انطلقت من ميناء مرسيليا الفرنسي بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا، ونزل قبالة «دمياط»، وذلك في آخر حياة الملك الصالح[٢] أيوب. (فهرب من كان فيها من الجند والعامة، واستحوذ الفرنج على الثغر وقتلوا خلقاً كثيراً من المسلمين)[٣]. ثم توفي الملك الصالح في تلك الأثناء واستدعي ابنه الملك المعظم توران شاه. وفي مطلع السنة التالية، سنة ثمانٍ وأربعين وستمائة (في ثالث المحرم يوم الأربعاء كان كسر المعظم توران شاه للفرنج على ثغر دمياط، فقتل منهم ثلاثين ألفاً، وقيل مائة ألف، وغنموا شيئاً كثيراً ولله الحمد، ثم قتل جماعة من الأمراء الذين أسروا.

---

(١) ماهية الحروب الصليبية: (١٦٢).

(٢) الملك الصالح (٦٠٣ ـ ٦٤٧هـ): أيوب بن محمد الكامل بن أبي بكر العادل بن أيوب، أبو الفتوح، نجم الدين. من كبار الملوك الأيوبيين بمصر. ولد ونشأ بالقاهرة. وولي بعد خلع أخيه العادل الثاني سنة ٦٣٧هـ. كان شجاعاً مهيباً عفيفاً صموتاً. عمَّر بمصر ما لم يعمِّره أحد من ملوك بني أيوب. أغار الإفرنج في أواخر أيامه على دمياط سنة ٦٤٧هـ. فتوفي بالسل أثناء جهادهم بالمنصورة. ودفن بالقاهرة. انظر: الأعلام (٣٨/٢).

(٣) البداية والنهاية: (١٧٧/١٣).

وكان فيمن أسر ملك الفرنسيين وأخوه)[١]. وقد أفرج عنه فيما بعد لقاء فدية كبيرة والانسحاب عن دمياط. وقد كانت هذه الحملة آخر حملة صليبية على مصر[٢]، بل كانت آخر حملة صليبية ذات بال على المشرق الإسلامي.

وبعد أن آل الأمر إلى دولة المماليك الفتية التي قضت على الهجوم التتري الكاسح في عين جالوت سنة ٦٥٨هـ، اتجه القائد المظفر السلطان الظاهر بيبرس البندقداري[٣] (٦٥٨ ـ ٦٧٦هـ) إلى تصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام بحزم وعزم وصرامة، فتهاوت معاقل النصارى واحدة تلو الأخرى في موسم حصاد رابح: قيسارية وأرسوف (٦٦٣هـ ـ ١٢٦٨م)، قلعة صفد، معقل الفرسان الداوية (٦٦٤هـ ـ ١٢٦٦م) يافا، وحصن شقيف أرنون (٦٦٦هـ ـ ١٢٦٨م).

وفي نفس العام حصل الفتح الكبير لأنطاكية بعد أن ظلت أسيرة بيد الصليبيين أكثر من مائة وخمسين عاماً.

وفي عهد السلطان المنصور قلاوون[٤] تابع فتوح سلفه بيبرس،

---

(١) البداية والنهاية: (١٣/ ١٧٨).

(٢) ماهية الحروب الصليبية: (١٦٥).

(٣) الظاهر بيبرس (٦٢٥ ـ ٦٧٦هـ): بيبرس العلائي البندقداري الصالحي، ركن الدين، الملك الظاهر. ولد بأرض القبجاق، وأسر فبيع حتى آل إلىٰ الملك الصالح، نجم الدين أيوب فقربه ثم أعتقه. صار «أتابك» العساكر المصرية زمن الملك قطز وقاتل معه التتار في «عين جالوت». تولىٰ سلطنة مصر والشام سنة ٦٥٨. وقاتل الصليبيين، وفتح بلاد النوبة. وكان شجاعاً جباراً. توفي في دمشق. انظر: الأعلام (٢/ ٧٩).

(٤) المنصور قلاوون (٦٢٠ ـ ٦٨٩هـ): قلاوون الألفي العلائي الصالحي، النجمي، أبو المعالي، سيف الدين، السلطان الملك المنصور. أول ملوك الدولة القلاوونية بمصر والشام. قبجاقي الأصل. أعتقه الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٤٧هـ، خدم الظاهر بيبرس، وابنه العادل ثم خلعه، وتولىٰ=

فقد سقط حصن المرقب سنة ٦٨٤هـ ـ ١٢٨٥م، ثم اللاذقية في سنة ٦٨٦هـ ـ ١٢٨٧م، ثم طرابلس وبيروت وجبلة سنة (٦٨٨هـ ـ ١٢٩١م)، في عهد السلطان الأشرف خليل[١] ابن السلطان المنصور قلاوون، مؤذناً بنهاية الوجود الصليبي على أرض الإسلام بعد مائتي عامٍ تماماً من حملتهم الأولى[٢].

لقد مرت بالمسلمين فترة عصيبة طوال هذين القرنين (٤٩٠ ـ ٦٩٠هـ) من جراء هذا الغزو الصليبي، وكانت حرباً عقدية صرفة في مظاهرها وأعلامها وأهدافها المعلنة[٣] وخطابها للجمهور. ودافع المسلمون دفاعاً مجيداً عن ديارهم ومقدساتهم، وبذلوا المهج والأرواح والأموال، ولم يدعوا عدوهم يهنأ بعيش، أو يقر له قرار. ولا ريب أن الصليبيين خسروا خسائر فادحة، وباءت محاولاتهم المتكررة بالفشل والخيبة، وتكسر نصالهم على صدور أهل الإسلام المنيعة، وتعلموا درساً راسخاً من دروس التاريخ. والحقيقة أنه ما كان يمكن أن يكون لهم موطىء قدم، لولا عوامل داخلية مهدت لهم الطريق، أهمها:

= السلطنة. وكانت له حروب مع التتار والنوبة، ظفر فيها وغنم. مات بالقاهرة. انظر: الأعلام (٥/٢٠٣).

(١) الأشرف ابن قلاوون (٦٦٦ ـ ٦٩٣هـ): خليل بن قلاوون الصالحي، الملك الأشرف، صلاح الدين، ابن السلطان الملك المنصور. من ملوك مصر. ولي بعد وفاة أبيه سنة ٦٨٩، واستفتح الملك بالجهاد، فقصد البلاد الشامية، وقاتل الإفرنج، واسترد منهم عكا وصوراً وصيدا وبيروت وجميع الساحل، وكان شجاعاً مهيباً عالي الهمة جواداً. قتل غيلة بمصر. انظر: الأعلام (٢/٣٢١).

(٢) انظر: ماهية الحروب الصليبية: (١٦٦ ـ ١٧٠) والبداية والنهاية (١٣/٢٤٤، ٢٤٦، ٢٥١، ٢٥٢، ٣٠٥، ٣٠٩، ٣١٣، ٣٢٠).

(٣) انظر: في مناقشة دوافع الحملات الصليبية وأهدافها: أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوربي خلال الحروب الصليبية د. عبد الله الربيعي (٢٢ ـ ٣٨).

أولاً: تسلط دول الرافضة على رقاب المسلمين، وإشاعتهم الكفر والفسوق والعصيان والبدع، وتواطئهم مع أعداء الإسلام، والنشاط الباطني المدمر، الذي اعتمد أسلوب الاغتيالات الانتحارية على أيدي «فداوية» الإسماعيلية الرافضة في هذين القرنين، ومحاولة إجهاض أي بادرة قوة، وزعامة صالحة من ملوك أهل السنة(١).

ثانياً: التشرذم السياسي، والفتن الداخلية، داخل معسكر أهل السنة، وضعف الخلافة العباسية في معظم الأحوال.

وفي الوقت الذي كانت تدور فيه رحى حرب صليبية في المشرق الإسلامي، كانت تجري أحداث مشابهة في الساحة الأندلسية. إذ لم تشترك «إسبانيا النصرانية» في الحملات الصليبية المتجهة إلى بيت المقدس لأنها كانت تخوض حرباً صليبية حامية الوطيس في عقر دارها، هدفها طرد المسلمين من شبه الجزيرة الأيبيرية وإعادتها إلى المنظومة الأوربية، والكنيسة الكاثوليكية.

فبعد سقوط «طليطلة» الخطير، مستهل ثمانٍ وسبعين وأربعمائة (٤٧٨هـ ـ ١٠٨٥م)، لم يوقف تقدم الأسبان الجارف لالتهام دويلات ملوك الطوائف إلا جواز أمير المرابطين، يوسف بن تاشفين(٢) (٤٦٣ ـ ٥٠٠هـ)

---

(١) انظر: شواهد لهذه المحاولات والاغتيالات المتكررة في المواضع التالية من البداية والنهاية (١٥٨/١٢، ١٥٩، ١٦٧، ١٧٢، ١٧٣، ١٩٠، ١٩٤، ٢٠٠، ٢٠٤، ٢٠٨، ٢٩٨).

(٢) يوسف بن تاشفين (٤١٠ ـ ٥٠٠هـ): يوسف بن تاشفين بن إبراهيم، المصالي الصنهاجي اللمتوني الحميري، أبو يعقوب أمير المسلمين، وملك الملثمين، سلطان المغرب الأقصىٰ، وباني مدينة مراكش. كتب إليه المعتمد بن عباد، صاحب أشبيلية يستنجده على قتال الفرنج، فجاز إلى الأندلس بمجموعة، وكسر النصارى في وقعة الزلاقة الفاصلة سنة ٤٧٩ وبايعه ملوك الطوائف، وملك الجزيرة كلها وبلاد المغرب. وكان حازماً ضابطاً. انظر: الأعلام (٨/ ٢٢٢).

إلى البر الأندلسي، والتحام المسلمين والنصارى في سهل «الزلاقة» في معركة فاصلة من معارك التاريخ الكبرى، كان النصر فيها حليف المسلمين، في الثاني عشر من شهر رجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة (٤٧٩هـ - ١٠٨٦م)[1]. وكان من ثمرات هذه المعركة إلى جانب وقف الزحف النصراني، إنهاء عهد ملوك الطوائف وتوحيد الأندلس المسلمة تحت راية المرابطين، ثم من بعدهم الموحدين. وتوج المرابطون انتصاراتهم ضد النصارى بفتح حصن «أقليش» على رأس القرن السادس الهجري سنة خمسمائة وواحد (٥٠١هـ - ١١٠٨م). واستمرت المعارك العنيفة بين المسلمين والنصارى فسقطت «سرقسطة» سنة اثنتي عشرة وخمسمائة، ثم «قلعة أيوب» بعدها بسنة. وسقطت دولة المرابطين سنة إحدى وأربعين وخمسمائة تحت مطارق الموحدين في البر المغربي، والنصارى في الأندلس.

وانبعثت روح الجهاد الإسلامي في بلاد المغرب مع دولة «الموحدين» الفتية، في الوقت الذي انبعثت فيه هذه الروح على يد «آل زنكي» ثم «آل أيوب» في بلاد المشرق الإسلامي. فقد قام عبد المؤمن بن علي الموحدي بشن غاراتٍ برية وبحرية على ثغر «المهدية» على الساحل التونسي، واستعادها من الفرنج النورمانديين، حكام صقلية، بعد أن بقيت رهينة بأيديهم اثنتي عشرة سنة. وذلك سنة خمس وخمسين وخمسمائة (٥٥٥هـ - ١١٦٠م).

وجاءت الوفود الأندلسية تستنصر إمام الموحدين عبد المؤمن بن علي القيسي[2] في الدين، فجاز البحر في سنة ست وخمسين

---

(١) انظر: الكامل في التاريخ (٨/ ٣٠٧).

(٢) عبد المؤمن بن علي (٤٨٧ - ٥٥٨هـ): عبد المؤمن بن علي بن مخلوف بن يعلىٰ بن مروان، أبو محمد الكومي، أمير المؤمنين مؤسس دولة الموحدين في المغرب وإفريقية وتونس. التقىٰ بابن تومرت فتصادقا وانتهىٰ الأمر بأن=

وخمسمائة (٥٥٦هـ ـ ١١٦١م). وضم ممالك الأندلس ومدنها تحت راية الموحدين وأثخن في النصارى. حتى توفي سنة ثمان وخمسين، وقد حشد حملة عسكرية ضخمة كانت مؤهلة للقضاء على ممالك النصارى الخمس شمال الجزيرة. وخلفه في جهاد النصارى ابنه أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن(١)، الذي قضى أربعة عشر عاماً في الفتوح ومناوشة الأعداء حتى قضى نحبه في معركة «شنترين» سنة ثمانين وخمسمائة (٥٨٠هـ ـ ١١٨٤م)(٢).

وبعد خطاب تحدٍ واستفزاز بعث به ألفونسو الثامن ملك قشتالة إلى سلطان الموحدين أبي يوسف يعقوب بن يوسف المنصور(٣)، كتب على ظهره مجيباً: «ارجع إليهم فلنأتينهم بجنودٍ لا قبل لهم بها،

= ولي ابن تومرت ملك المغرب الأقصىٰ، ولقب بالمهدي، وجعل لعبد المؤمن قيادة جيوشه، ثم خلفه سنة ٥٢٤هـ، وقاتل المرابطين، فاستأصلهم، ودخل الأندلس واستولىٰ على مدائنها. ودفن إلى جوار ابن تومرت. انظر: الأعلام (٤/ ١٧٠).

(١) يوسف بن عبد المؤمن (٥٣٣ ـ ٥٨٠هـ): يوسف بن عبد المؤمن بن علي القيسي الكومي، أبو يعقوب. أمير المؤمنين. ثالث ملوك دولة الموحدين بالمغرب والأندلس. كان حازماً شجاعاً حسن السيرة. له ميل إلى الفلسفة. جاهد الفرنجة، فأصيب في «شنترين» فمات متأثراً بجراحه. انظر: الأعلام (٨/ ٢٤١).

(٢) انظر: الكامل في التاريخ (٩/ ٤٨٠).

(٣) المنصور الموحدي (٥٥٤ ـ ٥٩٥ هـ): يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي الكومي الموحدي، أبو يوسف المنصور بفضل الله من ملوك الموحدين في المغرب، وأعظمهم آثاراً. وجه عنايته إلى الإصلاح والفتوح. استرد أربع مدن من الإفرنج بالأندلس، كانوا قد أخذوها من المسلمين قبل أربعين عاماً. فخافه الفونس، صاحب طليطلة، فطلب منه الصلح خمس سنين، ليجمع لحربه ولكنه كسرهم سنة ٥٩١هـ. كان ديناً، نهى الفقهاء عن الإفتاء إلا بالكتاب والسنة. بنى كثيراً من المساجد والمدارس، والمستشفيات أجرى عليها الأرزاق. انظر: الأعلام (٨/ ٢٠٣).

ولنخرجنهم منها أذلةً وهم صاغرون» الجواب ما ترى، لا ما تسمع، التقى جحفلان عظيمان كأمثال الجبال، حشد فيها كل طرف وسعه، يوم التاسع من شعبان سنة إحدى وتسعين وخمسمائة (٥٩١هـ ـ ١١٩٥م) في معركة فاصلة، عرفت باسم «الأرك» انتصر فيها الموحدون، تذكر بمعركة «الزلاقة» التي انتصر فيها المرابطون قبل أكثر من مائة عام (٤٧٩هـ). وسار الموحدون الظافرون يخترقون الأراضي القشتالية حتى بدت لهم مشارف «طليطلة» معقل النصارى، فحاصروها، ولكنها امتنعت، فأعقب ذلك هدنة. وهكذا أوقفت موقعة الأرك زحف النصارى البطيء عشرين سنة لاحقة.

وابتدأ الوهن في جانب الموحدين إثر موقعة «العقاب» التي مُني فيها أبو عبد الله محمد الناصر(١)، سلطان الموحدين ـ بهزيمة فادحة وذلك سنة تسع وستمائة (٦٠٩هـ ـ ١٢١٢م) أعقبها انتكاسات خطيرة في النصف الأول من القرن السابع الهجري. فقد سقطت «ماردة» و«بطليوس» سنة ثمان وعشرين، «وأبده» سنة إحدى وثلاثين، و«قرطبة» سنة ثلاثٍ وثلاثين، ثم «بلنسية» و«شاطبة» و«دانية» سنة ستٍ وثلاثين، ثم «مرسية» سنة إحدى وأربعين، وأخيراً «إشبيلية» سنة ستٍ وأربعين وستمائة.

وهكذا تهاوت حواضر الأندلس الشهيرة، الواحدة تلو الأخرى في ملحمة مأساوية، وبدت الأندلس المسلمة في النصف الثاني من القرن السابع تسير نحو مصيرها المحتوم، وخاتمتها البائسة، لولا نفحة ربانية

---

(١) محمد الناصر: محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الزناتي، الكومي، الموحدي، الناصر لدين الله. من خلفاء دولة الموحدين في المغرب والأندلس. في أيامه كانت وقعة «العقاب» مع نصارىٰ الأندلس سنة ٦٠٩، كسر فيها الموحدون. عاد بعدها إلىٰ مراكش، وتوفي بها سنة ٦١٠هـ. انظر: الأعلام (٧/ ١٤٥).

أجراها الله تعالى على أيدي «المرينيين» أنعشت الوجود الإسلامي في جنوب الجزيرة المتمثل في مملكة بني الأحمر في «غرناطة»، الذين لم تفدهم مصانعتهم للنصارى في تجنب استنزافهم إياهم، واستنقاصهم أراضيهم من أطرافها، فاستنجد بنو الأحمر بإخوة الدين، فهب أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني[1] لنجدتهم، وتمكن من دحر النصارى سنة أربعٍ وسبعين وستمائة (٦٧٤هـ ـ ١٢٧٥م)، وقتل قائدهم «دونونة» الذي عاث في أرض المسلمين قتلاً ونهباً وفساداً. ثم سار فحاصر «أشبيلية» و«شريش» سنة خمسٍ وسبعين، وتوغل في أراضي النصارى سنة سبعٍ وسبعين. كما قام الأسطول المريني بالانتصار على الأسطول القشتاليّ في معركة بحرية سنة ثمان وسبعين وستمائة أسفرت عن تحرير «الجزيرة الخضراء» التي أراد النصارى بالاستيلاء عليها قطع الطريق على المدد الآتي من المغرب الإسلامي. واضطر «شانجة» ملك قشتالة إلى طلب الصلح من المسلمين. وهكذا اكتشف النصارى أن من الخير لهم الرضى بوجودٍ إسلامي محدود في جنوب الأندلس، دون المخاطرة بعمل عسكري أحمق يثير حمية المسلمين في العدوة المقابلة، فيتعرضون لحملة إسلامية لا يستطيعون التنبؤ بآثارها. وقد أجّلت هذه التحسبات والمخاوف دولة بني الأحمر قرنين من الزمان، إلى أن سقطت آخر الحواضر الإسلامية من بلاد الأندلس، مدينة غرناطة في

---

(١) المنصور المَريني (٦٠٧ ـ ٦٨٥هـ): يعقوب بن عبد الحق المريني الزناتي. أبو يوسف، السلطان المنصور بالله، بربري من أصل عربي. آلت إليه إمارة بني مرين سنة ٦٥٦هـ، قضىٰ على دولة الموحدين سنة ٦٧٤، وصفا له المغرب كله، ثم جاز إلى الأندلس، فأثخن في النصارىٰ واسترد منهم ما أخذوه من مدائن الأندلس. وكان عهده عامراً بالفتوح والعمران والإصلاح الاجتماعي والإحسان إلى المرضىٰ والعمي والفقراء، وبناء المدارس لطلبة العلم. واستمر غازياً مجاهداً، بانياً مصلحاً إلى أن توفي في الجزيرة الخضراء بالأندلس. انظر: الأعلام ٨/ ١٩٩.

الثامن من ربيع الأول سنة سبعٍ وتسعين وثمانمائة (٨٩٧هـ ـ ١٤٩٢م). ولله الأمر من قبل ومن بعد[١].

لقد كانت حرب الاستعادة الإسبانية ـ Spanish Reconquest ـ كما يسميها المؤرخون النصارى ـ حرباً صليبية صرفة، تقف خلفها حركة الإصلاح الكلوني، التي ولدت في «دير كلوني» في مطلع القرن العاشر الميلادي (٩١٠م)، وأشعلت فكرة الحرب المقدسة ضد المسلمين الغزاة، الذين استولوا على الممالك النصرانية. فقد أكد البابا غريغوري السابع بأن إسبانيا جزءٌ من أرض القديس بطرس، وأن الجزيرة الأيبيرية جزء لا يتجزأ من الجسد المسيحي. كما حرم البابا «باسكال الثاني» (١٠٩٩ ـ ١١١٨م) وكان راهباً كلونياً على الفرسان الإسبان المشاركة في الحروب الصليبية في الشرق[٢]. وذلك لأولوية المشاركة في الحرب الصليبية في الغرب على أرض الأندلس.

أما على الصعيد الداخلي في «دار الإسلام»، فقد بقي أهل الذمة يواصلون عيشهم في أحضان المجتمع الإسلامي وفق القواعد المقررة في الكتاب والسنة والإجماع، والمستقرة منذ القرون الأولى، ولا يعكر هذا الصفو سوى حوادث متفرقة مردها إلى عمليات استفزاز محلية تثور في أوساط العوام، دون أن تتبناها أو حتى تقرها السلطة المركزية[٣]. ولا تكاد تمثل هذه الحوادث نسبةً تذكر إذا قورنت بحوادث الشغب التي تجري بين السنة والروافض في بغداد وغيرها، أو حتى حوادث التعصب المذهبي الفقهي بين الجهلة من أتباع المذاهب الفقهية.

---

(١) انظر: مقالة «حرب الاستعادة الإسبانية: هل هي حرب كلونية مقدسة ضد الإسلام؟ لـ: فيسنت كانتارينو. مجلة الاجتهاد (٢٩/ ٥٩ ـ ٨١).

(٢) المرجع السابق.

(٣) انظر: على سبيل المثال حادثة لليهود في بغداد. في البداية والنهاية (١٢/ ٢٩٨).

لقد كان المسلمون خلال هذين القرنين يفرقون بين «أهل الذمة» و«الفرنج» الحربيين. بل إن النصارى الشرقيين أنفسهم عانوا الأمرين من هؤلاء الغزاة التابعين للكنيسة الكاثوليكية بوصفهم إياهم هراطقة، عليهم أن يعودوا إلى حمى النصرانية الصحيحة، بالرغم من أن البابا أربان الثاني سوّق دعايته للحملات الصليبية بحجة حماية النصارى المضطهدين على أيدي المسلمين بزعمه.

يقول الباحثان فيليب فارج، ويوسف كرباج: (كان الفرنجة قد جاءوا لتقديم العون إلى المسيحيين الشرقيين. وبدلاً من تحقيق هذا المشروع الأولي، سوف تنتهي حملتهم بتدهور ملحوظ لوضع الجماعة المسيحية الشرقية.

وعندما يبدأ المسلمون في استعادة الأرض المقدسة، فإنهم لن يتهموا الجماعة المسيحية المحلية بالتواطؤ «مع العدو». والواقع أن إعادات الفتح الإسلامي المتعاقبة قد لقيت حيادها، وأحياناً تعاونها. وكان الاحتلال الإفرنجي قد أدخل نوعاً من التواطؤ فيما بين السكان المحليين المنتمين إلى مختلف الملل. ويصل الأمر بالمسيحيين العرب إلى حد اعتبار انتصارات نور الدين في الشمال، وانتصارات صلاح الدين في الجنوب خطوة أولى نحو تحررهم من النير الديني الإفرنجي، بل ويبدو أنهم سوف يذهبون في القدس إلى حد التفاهم مع صلاح الدين بهدف تسهيل الاستيلاء على المدينة. والواقع أن مسيحيي القدس والمدن الساحلية سوف يكون بوسعهم البقاء حيث هم وصون ممتلكاتهم، بشرط دفع ضريبة رأس. هذه الأخيرة تنزلق من جديد من خزانة إلى أخرى، ولكن في اتجاه مضاد: فهي تنتقل الآن من خزينة المملكة اللاتينية إلى خزينة المملكة الإسلامية)(١).

(١) المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي (٨٥).

وبدلاً من أن يتحالف أهل الذمة من النصارى مع إخوة الدين من الفرنجة، نجد وقائع محدودة يتحالف فيها هؤلاء مع المغول الوثنيين ضد المسلمين مما كلفهم بعد ذلك عملية تصفية حساب مريرة يستحقونها.

قال ابن كثير رحمه الله في حوادث سنة ثمان وخمسين وستمائة حين دخول التتار دمشق بقيادة أمير منهم من قبل هولاكو[١] يقال له: «إبل سيان»: (وكان لعنه الله معظماً لدين النصارى، فاجتمع به أساقفتهم وقسوسهم فعظمهم جداً، وزار كنائسهم، فصارت لهم دولة وصولة بسببه، وذهب طائفة من النصارى إلى هولاكو، وأخذوا معهم هدايا وتحفاً، وقدموا من عنده ومعهم أمان فرمان من جهته[٢]. ودخلوا من باب توما، ومعهم صليب منصوب يحملونه على رؤوس الناس، وهم ينادون بشعارهم ويقولون: ظهر الدين الصحيح دين المسيح، ويذمون دين الإسلام وأهله، ومعهم أواني فيها خمر، لا يمرون على باب مسجدٍ إلا رشوا عنده خمراً، وقماقم ملآنة خمراً يرشون منها على وجوه الناس وثيابهم، ويأمرون كل من يجتازون به في الأزقة والأسواق أن يقوم لصليبهم... فوقف خطيبهم إلى دكة دكان في عطفة السوق فمدح دين النصارى، وذم دين الإسلام وأهله، فإنا لله وإنا إليه راجعون)[٣].

---

(١) هولاكو (١٢١٧ ـ ١٢٦٥م): حفيد جنكيزخان المغولي. باطش جبار، أغار على الممالك الإسلامية الشرقية، وأعمل في أهلها السيف، حتى بلغ بغداد فحاصرها سنة (٦٥٦هـ ١٢٥٨م)، وتواطأ معه ابن العلقمي الرافضي، وزير المستعصم، فدخلها واستباحها، وقتل الخليفة والقضاة والعلماء، ثم احتل الشام، وعاد إلى إيران. انظر: البداية والنهاية (١٣/ ٢٤٨).

(٢) وهكذا صنع لعنه الله حين دخول بغداد، حيث استباح دماء المسلمين غدراً، وأمن اليهود والنصارى. انظر: البداية والنهاية (١٣/ ٢٠٢) واتخذ لنفسه زوجة نصرانية، ويقال إنه اعتنق النصرانية سراً.

(٣) البداية والنهاية: (١٣/ ٢١٩).

لم يكن ثم مبررٌ لتلك المظاهرة الغادرة، سيما وأجواء الشام لا تزال معطرة بسيرة صلاح الدين الأيوبي وتسامحه مع خصومه، فلمَ هذا الحلف المغولي ـ النصراني الأحمق؟ ولم يمض سوى سبعة أشهر حتى انهزم المغول في عين جالوت، في العشر الأخير من رمضان من تلك السنة هزيمة منكرة، (فتبادر عند ذلك المسلمون إلى كنيسة النصارى التي خرج منها الصليب، فانتهبوا ما فيها، وأحرقوها، وألقوا النار فيما حولها، فاحترقت دور كثيرة إلى النصارى «كذا» ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً، وأحرق بعض كنيسة اليعاقبة. وهمت طائفة بنهب اليهود، فقيل: إنه لم يكن منهم الطغيان كما كان من عبدة الصلبان)[1].

لم يقم المسلمون المنتصرون على الفرنج خلال هذين القرنين بعمليات تطهير ديني، وتهجير واسعة النطاق كما فعل الأسبان بالمسلمين، بل غاية ما في الأمر وقوع عمليات تأديب وثأر وانتصار.

ويشاء الله تعالى أن «ينقلب السحر على الساحر» وينعكس الأمر على أولئك النصارى الذين طمعوا في التعاون مع الغزاة الجدد لإطفاء نور الإسلام، فيقع ما لم يكن لهم بحسبان؛ ففي سنة أربع وتسعين وستمائة (مَلَكَ التتار «قازان» بن أرغون بن أبغا بن تولى بن جنكيزخان، فأسلم وأظهر الإسلام على يدي الأمير «توزون» رَحِمَهُ اللَّهُ، ودخلت التتار أو أكثرهم في الإسلام، ونثر الذهب والفضة واللؤلؤ على رؤوس الناس يوم إسلامه، وتسمى بمحمود، وشهد الجمعة والخطبة وخرّب كنائس كثيرة، وضرب عليهم الجزية)[2].

وهكذا يعز الله دينه، ويعلي كلمته بأقوام قدموا من أقصى المشرق ليجتثوه من أرضه، ويطمسوا معالمه، فأبى الله إلا أن يتم نوره،

---

(١) البداية والنهاية: (١٣/ ٢٢١).

(٢) البداية والنهاية: (١/ ٣٤٠).

فيخضع أولئك البرابرة الجفاة لقوة الإسلام الذاتية، وتأثيره العجيب بعد أن عجزت السيوف والرماح عن إخضاعهم. ويعوض الله المسلمين عما فقدوه في الحروب الصليبية، وفي الأندلس بأعدادٍ هائلة من المسلمين الجدد الذين أعادوا ترتيب «النِّسَب» السكانية، فتحول «أهل الذمة» إلى أقلية مطلقة[١].

المرحلة الرابعة: (٦٩٠هـ - ١٢١٣هـ):

لم تكد تطوى صفحة الصليبيين في بلاد الشام، وهم يستقلون مراكبهم هاربين من عكا سنة تسعين وستمائة (٦٩٠هـ - ١٢٩١م)، حتى فتحت صفحة جديدة من صفحات المواجهة الإسلامية النصرانية. لكن ميدان المعركة انتقل هذه المرة إلى الطرف الآخر، وعلى وجه التحديد على الحدود الشرقية للإمبراطورية البيزنطية المتاخمة لممالك السلاجقة المسلمين.

لقد شهد النصف الأخير من القرن السابع الهجري نشأة إمارة صغيرة لقوم من الترك النازحين إلى هضبة الأناضول فراراً من بطش المغول، وإثر مشاركتهم في بعض المعارك المحلية منحهم سلطان «قونية» ثغراً على حدود سلطنته مع الإمبراطورية البيزنطية، انطلق منه هؤلاء المجاهدون يثخنون في الأرض، ويوسعون نفوذهم، حتى تأسست لهم دولة مستقلة على يد أميرهم عثمان بن أرطغرل، صارت فيما بعد أطول دولة في التاريخ عمراً، عرفت باسم الدولة العثمانية[٢].

---

(١) انظر: فصل «سبعة قرون من الأسلمة» في: المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي التركي (٢٣ - ٣٧).

(٢) انظر في نشأة الدولة العثمانية وتاريخها: الفتوحات الإسلامية: دحلان، أحمد زيني. مطبعة السعادة - مصر. أحمد زيني دحلان. (٢/٨٩ - ٩٠)، صحوة الرجل المريض؛ د. موفق بني المرجة. دار البيارق - بيروت. الطبعة الثامنة=

اتجه آل عثمان إلى قتال الروم، ووطئت أقدامهم أراضٍ لم يطأها فاتح مسلمٌ من قبل. فقد تمكن السلطان عثمان (٦٩٩ ـ ٧٢٦هـ) من توسعة الإمارة التي ورثها عن أبيه أرطغرل أكثر من ثلاثة أضعاف ما كانت عليه، وتمكن من النفاذ إلى بحر «مرمرة» سنة سبع وسبعمائة، وفي آخر أيامه تم فتح مدينة بيزنطية عظيمة؛ بروسة. فنقل إليها خليفته وابنه السلطان «أورخان» كرسي مملكته ليكون قريباً من ساحات الفتوحات الجديدة في أوربا الشرقية، فافتتح مدينة «نيقوميدية» و«أزينق» من بلاد اليونان، وفتح مدينة «غليبولي» التي تعد مفتاح «القسطنطينية» سنة ثمانٍ وخمسين وسبعمائة. وفي عهد ابنه السلطان الشهيد «مراد الأول» (٧٦١ ـ ٧٩٢هـ) تم فتح «أدرنة» في العام التالي لحكمه. ونقل إليها عاصمة مملكته، وأخضع معظم الأراضي البيزنطية بحيث صارت «القسطنطينية» محاصرة تماماً بالأراضي العثمانية، التي بلغت حدود مملكة الصرب وبلغاريا وألبانيا. وقد تحالف ملوك البوسنة وصربيا والمجر ضد العثمانيين ـ إثر سقوط أدرنة ـ بمباركة وتأييد من البابا «أربانوس»، وهاجموا المدينة المفتوحة فهزمهم السلطان عندها هزيمة منكرة سنة خمسٍ وستين وسبعمائة (٧٦٥هـ ـ ١٣٦٣م).

وتتواصل الفتوح العثمانية حتى تسقط بلغاريا في أيدي المسلمين، ويأسرون أميرها. وأمام هذا السيل الجارف من الانتصارات يتحالف أمراء أوربا الشرقية ضد السلطان مراد الأول، فتدور معركة حامية الوطيس، من معارك الإسلام الفاصلة سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة

= (١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م)، العثمانيون في التاريخ والحضارة: د. محمد حرب. دار القلم، دمشق. الطبعة الأولى (١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م). د. محمد حرب (١٣، ١٥)، تاريخ المشرق العربي. د.عمر بن عبد العزيز عمر (٣٥ ـ ٣٨)، الشعوب الإسلامية: د. عبد العزيز سليمان نوار. دار النهضة العربية. بيروت. طبعة عام ١٩٧٣م. (٢٣ ـ ٢١٠).

(٧٩٢هـ ـ ١٣٨٩م) عرفت باسم «قوصووة» ينتصر فيها العثمانيون، ويؤسر ملك الصرب، ويقتل. ولكن السلطان مراد يقضي نحبه بطعنة غادرة من جندي صربي وهو يتفقد ساحة المعركة. ولكنه خلف أراضيَ شاسعة تبلغ خمسة أضعاف ما ورثه عن أبيه أورخان في مدى ثلاثين سنة تقريباً قضاها كَلَلهُ في الفتوح والجهاد.

وفي عهد ابنه السلطان «بايزيد الأول» الملقب بـ «الصاعقة»، استمرت الجيوش العثمانية النظامية المعروفة بـ «الإنكشارية» تنتقص أوربا من أطرافها، بطموحات عالية، وهمة مضاءة، ففتح رومانيا وألبانيا وجزيرة رودس، وحاصر «القسطنطينية» سبعة أشهر كاملة. فقام ملك المجر «سيجسموند» بالاستنجاد بالبابا لتكوين حملة صليبية أوربية حملت شعار: سحق الأتراك أولاً، ثم احتلال «القدس».

وتجمعت جيوش مجرية وألمانية وفرنسية وإنجليزية وإيطالية وإسبانية بلغ تعدادها مائة ألف مقاتل، وعبرت نهر الدانوب لتصطدم بجيوش بايزيد الصاعقة على مقربة من مدينة نيكوبولي «نيقوبوليس»، فتصعق بهزيمة نكراء سنة تسع وتسعين وسبعمائة (٧٩٩هـ ـ ١٣٩٦م) كانت هزيمة لأوربا كلها، وللنصارى عامة على يد آل عثمان.

لقد كان بايزيد الصاعقة يطمح إلى اجتياح أوربا كلها. وكان الأوربيون يدركون ذلك، فحينئذٍ يتجدد الحلف النصراني ـ المغولي الذي سبق أن أبرمه النصارى مع «هولاكو»، لكن في هذا الزمان مع طاغية مغولي آخر هو «تيمورلنك»[(١)]. فـ (في سنة اثنتين وثمانمائة اجتمع

(١) تيمورلنك (١٣٣٦ ـ ١٤٠٥م): ملك المغول، وحفيد جنكيزخان. ولد في كش بالقرب من سمرقند. اعتلى العرش بدهائه وبطشه. فتح خوارزم وكشغر وفارس وسورية ومصر. خرب بغداد سنة ١٣٨٦م، واحتل موسكو، وانتصر على العثمانيين في معركة أنقرة سنة ١٤٠٢م. انظر: المنجد في الأعلام (٢٠٠).

كثير من ملوك الروم الذين اقتلع ملكهم السلطان يلدرم[١] بايزيد، وساروا إلى تيمور مستغيثين به، يشكون إليه من السلطان بايزيد، ويرغبونه في المسير إلى الروم، يستنجدون به عليه في رد ممالكهم، فأجاب تيمور سؤالهم، وسار بجيوش كثيرة...)[٢]. وكان نهاية هذا السلطان المجاهد أن وقع أسيراً في يد تيمور، وتوفي في عاصمته تبريز.

قام السلطان «محمد الأول» (٨١٦ ـ ٨٢٤هـ) بلم شعث الدولة بعد تمزيقها، وإخماد الفتن والانشقاقات حتى استقرت الأمور، وخلفه ابنه السلطان «مراد الثاني» (٨٢٤ ـ ٨٥٥هـ)، وجرت بينه وبين ملوك أوربا وبابواتها حروبٌ وملاحم عظيمة تراوحت بين نصرٍ وهزيمة، ولكنها أسفرت في نهاية المطاف عن إخضاع الصرب والبوسنة وبلاد المورة، وضرب الجزية على الأقاليم المجاورة.

ولما آل الأمر إلى «محمد الثاني» (٨٥٥ ـ ٨٨٦هـ) الملقب بالفاتح، استهل ولايته بالتهيؤ لفتح القسطنطينية، فتم ذلك فعلاً سنة سبع وخمسين وثمانمائة (٨٥٧هـ ـ ١٤٥٣م). وكان حدثاً هاماً اهتز له العالم الإسلامي فرحاً وسروراً، وهز أوربا وسائر النصارى في العالم حزناً وثبوراً، وسقطت الدولة البيزنطية العريقة، واعتبر ذلك التاريخ مبدءاً للتاريخ الحديث، لجلالة المناسبة وعميق آثارها. وتحولت مدينة قسطنطين «القسطنطينية» إلى مدينة الإسلام «إسلامبول»، وصارت كنيستها العظمى «أياصوفيا» جامعاً للمسلمين[٣].

---

(١) يلدرم تعني «الصاعقة» بالتركية.

(٢) الفتوحات الإسلامية (٢/١٠١).

(٣) انظر: في تفاصيل هذا الفتح العظيم وسيرة محمد الفاتح: محمد الفاتح د. سالم الرشيدي، محمد الفاتح: عبد السلام فهمي.

وقد تابع السلطان محمد فتوحاته حتى أخضع بلاد المورة والصرب والبوسنة والأرناؤوط وألبانيا، إلى سنة إحدى وسبعين وثمانمائة (٨٧١هـ ـ ١٤٦٧م). ثم ولى وجهه نحو بلاد القرم فأخضعها سنة تسع وسبعين وثمانمائة (٨٧٩هـ ـ ١٤٧٥م). أما أهم دولتين في أوربا ذلك العهد، وهما جمهوريتا البندقية وجنوة فقد اضطرتا للصلح مع السلطان محمد الفاتح، والتنازل عن كثيرٍ من المواقع.

لقد كان النصف الثاني من القرن التاسع الهجري يمثل قمة تألق الدولة العثمانية وقوتها ونفوذها بحيث لا تساميها دولة من دول العالم آنذاك. وكان فاتح القسطنطينية يطمح إلى فتح «روما»، معقل البابوية، لولا أن عاجله الأجل سنة ست وثمانين وثمانمائة (٨٨٦هـ ـ ١٤٨١م)، بعد حكم دام أكثر من ثلاثين سنة، أبلاها في الحروب والفتوح وتسطير الأمجاد الخالدة، رحمه الله رحمة واسعة.

وفي نهاية القرن التاسع سجل التاريخ ثلاثة أحداث كبار:

١ ـ سنة ستٍ وثمانين وثمانمائة (٨٨٦هـ ـ ١٤٨١م) وصل الرحالة البرتغالي «فاسكو دي جاما» إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح.

٢ ـ سنة سبعٍ وتسعين وثمانمائة (٨٩٧هـ ـ ١٤٩٢م) وصل الرحالة الأسباني كريستوفر كلومبس إلى إحدى جزر الهند الغربية ـ كما كان يظن ـ وتم اكتشاف قارة أمريكا.

٣ ـ في نفس العام كان سقوط «غرناطة» آخر ممالك المسلمين في الأندلس على يد النصارى الأسبان، وجرى طرد المسلمين من أسبانيا إلى الشمال الأفريقي.

لقد كان للحدثين الأولين آثار استراتيجية، واقتصادية بالغة الأثر في تغيير ميزان القوى لصالح الغرب النصراني. كما كان للحدث الثالث أثر نفسي في رد الاعتبار، والثأر الديني لنصارى أوربا لقاء الهزائم

المتكررة التي منوا بها في الجانب الشرقي من قارتهم، لا سيما سقوط القسطنطينية.

وتجددت الأمجاد الإسلامية في عهد أشهر سلاطين «آل عثمان» وهو السلطان «سليمان القانوني» (٩٢٦ ـ ٩٧٤هـ)، الذي هز أركان أوربا بفتوحاته العظام، وجهاده الدؤوب في كل صوب، ومن أشهر مآثره:

* فتح «بلغراد» سنة سبع وعشرين وتسعمائة (٩٢٧هـ ـ ١٥٢١م).

* هزيمة الجيش المجري وحلفائه الألمان والنمساويين في معركة «موكر»، وقتل ملك المجر، القائد الأعلى للقوات النصرانية «لويس الثاني»، سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة (٩٣٢هـ ـ ١٥٢٦م)، والاستيلاء على العاصمة المجرية «بشت»، التي تعرف الآن باسم «بودابست»، وخضوع مملكة المجر للحماية العثمانية.

* حصار «فيينا» عاصمة النمسا، سنة خمسٍ وثلاثين وتسعمائة (٩٣٥هـ ـ ١٥٢٩م)، وفرار الأرشيدوق النمسوي «فرديناند» منها، والإغارة على الأراضي الألمانية.

* تجريد حملة عثمانية بقيادة السلطان عرفت باسم الحملة العثمانية على ألمانيا لتأديب أسرة «هابسبرج» العريقة، اخترقت البلقان والمجر والنمسا إلى ألمانيا، فاضطر «فرديناند» ملك النمسا إلى التوقيع على معاهدة صلح مذلة، ودفع جزية سنوية قدرها ثلاثون ألف دوق ذهباً للخزينة العثمانية.

* استعادة مدينة «بودين» المجرية سنة ثمان وأربعين وتسعمائة (٩٤٨هـ ـ ١٥٤١م) وتحويل أضخم كنائسها إلى جامعٍ للمسلمين، وتعيين ملكٍ للمجر من قبل السلطان.

* القضاء على حملة صليبية بإشراف البابا بول الثالث، ومشاركة

ملكي النمسا والمجر سنة إحدى وخمسين وتسعمائة (٩٥١هـ ـ ١٥٤٣م)، وإلزامهما بدفع الجزية. ولما نقض النصارى المعاهدة قام أمراء سليمان القانوني بتأديب النمساويين وإلزامهم بالاعتراف بالحماية العثمانية لمملكة المجر، ودفع الجزية سنة تسع وستين وتسعمائة (٩٧٩هـ ـ ١٥٦٢م).

كانت هذه الانتصارات المجيدة في ميادين القتال البرية، يقابلها على ثبج البحار انتصارات مماثلة جعلت من البحر الأبيض المتوسط شبه بحيرة عثمانية تروح فيها أساطيلهم وتغدو، كما جحافلهم البرية، فمن أشهر الوقائع البحرية في عهد السلطان سليمان القانوني:

■ فتح جزيرة «رودس» سنة ثمان وعشرين وتسعمائة (٩٢٨هـ ـ ١٥٢٢م)، وانتزاعها من فرسان القديس يوحنا. وكانت قلعتها أقوى قلعة بحرية في العالم آنذاك. وقد استعصت على الأسطول العثماني سنة خمسٍ وثمانين وثمانمائة زمن السلطان محمد الفاتح.

■ كسر الأسطول الصليبي المتحالف في موقعة «بَرَوَزة» سنة خمسٍ وأربعين وتسعمائة (٩٤٥هـ ـ ١٥٣٨م)، الذي دعا لتكوينه البابا «بول الثالث»، وقاده أشهر القادة البحريين في العالم حينذاك «أندريا دوريا»، وضم ثلاثمائة قطعة بحرية. فهزمهم القائد العثماني «خير الدين برباروس»، الذي لم يكن تحت يده سوى مائة وعشرين قطعة.

■ هزيمة أسطول «شرلكان» ملك الألمان سنة ثمان وأربعين وتسعمائة (٩٤٨هـ ـ ١٥٤١م)، وصده عن مهاجمة الجزائر.

■ تحرير «طرابلس الغرب» من احتلال فرسان مالطة النصارى، ومحاصرتهم سنة تسع وخمسين وتسعمائة (٩٥٩هـ ـ ١٥٥٢م) على يد قبطان البحر العثماني «طورغود رئيس».

■ كما قامت القوات البحرية العثمانية بأربع حملات بحرية تأديبية

للبرتغاليين المعتدين على مسلمي الهند، بعد اكتشافهم طريق رأس الرجاء الصالح، منذ عام أربع وأربعين وتسعمائة (٩٤٤هـ ـ ١٥٣٨م) إلى أربع وستين وتسعمائة (٩٦٤هـ ـ ١٥٥٧م).

وتوفي السلطان سليمان القانوني، بعد حكم دام ثمانٍ وأربعين سنة، عام أربع وسبعين وتسعمائة (٩٧٤هـ ـ ١٥٦٦م). يقول الدكتور محمد حرب: (كان عهد القانوني قمة العهود العثمانية سواءً في الحركة الجهادية، وفي الناحية المعمارية والعلمية والأدبية والعسكرية. كان هذا السلطان يؤثر في السياسة الأوربية تأثيراً عظيماً، وبمعنى أوضح كان هو القوة العظمى دولياً في زمنه. نعمت الدولة الإسلامية العثمانية في عهده بالرخاء والطمأنينة)[١].

شهد آخر القرن العاشر بعد وفاة سليمان القانوني فتح العثمانيين لجزيرة «قبرص» وانتزاعها من أهل «البندقية» سنة تسع وسبعين وتسعمائة (٩٧٩هـ ـ ١٥٧١م)، ثم أعقبه اتحاد نصراني مكون من أسبانيا والبندقية والبابوية أخذوا المسلمين على حين غرة وهزموهم في معركة «لينتر البحرية» في نفس السنة.

أما القرن الحادي عشر الهجري فقد كان قرناً جهادياً حافظ العثمانيون فيه بشكلٍ عام على تفوقهم العسكري، وأخضعوا الشعوب الأوربية المتمردة تحت ولايتهم، كما أضافوا عدداً من الفتوحات والانتصارات الهامة، باستثناء فترة اضطرابٍ قصيرة في مستهل ولاية السلطان «محمد الرابع».

ومن أبرز أحداث ذلك القرن على صعيد العلاقات الإسلامية النصرانية:

١ ـ فتوح في المجر في مطلع القرن، زمن السلطان «محمد

---

(١) العثمانيون في التاريخ والحضارة (٨٩).

الثالث» (١٠٠٣ هـ - ١٠١٢هـ)، ثم نصر عظيم على التحالف الأوربي في سهل «كرزت» سنة أربعٍ بعد الألف (١٠٠٤هـ - ١٥٩٦م).

٢ - تأديب المتمردين من أهل بولونيا وهم من القوزاق، والقضاء على المتحالفين معهم من الروس والفرنسيين والنمساويين سنة ثلاثين بعد الألف (١٠٣٠هـ - ١٦٢١م) إثر معارك طاحنة بقيادة السلطان «عثمان» (١٠٢٧هـ - ١٠٣١هـ) وفرض عليهم الجزية.

٣ - فتح جزيرة «كريت» وانتزاعها من البنادقة سنة ثمانين بعد الألف (١٠٨٠هـ - ١٦٦٩م).

٤ - غزو بولندا سنة ثلاث وثمانين بعد الألف (١٠٨٣هـ - ١٦٧٢م).

٥ - حصار مدينة «فيينا» سنة إحدى وتسعين (١٠٩١هـ - ١٦٨٠م)، ثم حصارها مرة ثانية سنة أربعٍ وتسعين (١٠٩٤هـ - ١٦٨٣م). وتم فك الحصار على أيدي قوات مشتركة من النمسا وألمانيا وبولونيا وسائر الأمم الأوربية، وأوقعت بالمسلمين خسائر فادحة. ويبدو أن هذه الحادثة رفعت معنويات النصارى المنحطة وأيقظت فيهم روح الأمل في التحرر من الهيمنة العثمانية. ويصف أحمد زيني دحلان[1] تلك التغييرات بعد حادثة «فيينا» بقوله: (.. وبعد تلك الوقائع الشديدة، والحروب المهولة، أخذ البابا يحرض أهل أوربا على طرد المسلمين من قرة بلادهم، فاجتمعت العساكر من كل الجهات، وصمموا على

(١) أحمد بن زيني دحلان (١٢٣٢ - ١٣٠٤هـ) فقيه، مكي، مؤرخ. ولد بمكة، وتولى فيها الإفتاء والتدريس. وفي أيامه أنشئت أول مطبعة بمكة، فطبع فيها بعض كتبه. ومات في المدينة، من تصانيفه «الفتوحات الإسلامية». وكان من أعداء دعوة الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وقد شوه سمعتها، وافترى عليها برسالة ظالمة جائرة نشرها بين الحجيج عنوانها: «رسالة في الرد على الوهابية». انظر: الأعلام (١٢٩/١).

إخراج المسلمين من أوربا. فتكفلت النمسا، وتكفلت مقدونيا ببلاد بولونيا، والبندقية وغيرهم من ساكني شطوط البحر الأبيض في دلمانيا ـ هكذا ـ بكثير من البلاد، وزحفوا على بلاد الدولة العثمانية من جميع الأطراف، فكانت عساكر الدولة تحارب الإفرنج من جملة أماكن، والبابا يحرض الإفرنج على التجلد والقتال وأنجدهم بجيوش كثيرة)(١).

وفعلاً، مُني العثمانيون في نهاية القرن الحادي عشر بخسائر فادحة بلغت إلى حد حصار النمساويين لبلغراد. وبعد معارك متعددة في عهد السلطان «مصطفى الثاني» (١١٠٦هـ ـ ١٦١٥م) تراوحت بين النصر والهزيمة، وقعت معاهدة «كارلونز» سنة عشر ومائة بعد الألف (١١١٠هـ ـ ١٦٩٩م).

لقد تم في هذه المرحلة نشر الإسلام في مواطن كثيرة من آسيا وأوربا لم تبلغها دعوة الإسلام من قبل، واعتنقت شعوب وأعراق بأكملها هذا الدين في فترة وجيزة. فقد اعتنق الألبان الإسلام وظلوا يشكلون غالبية سكان ألبانيا رغم عمليات التهجير والاضطهاد النصراني والشيوعي التي تمت فيما بعد. كما دخل «البوغوميليون»(٢) في دين الإسلام أفواجاً في بلاد البوشناق وبلغاريا وغيرهما. كما انتشر الإسلام في رومانيا واليونان وقبرص. وكذلك الحال في الجانب الآسيوي من القرم والشراكسة «الداغستان» وغيرهم، وامتزجت هذه القوميات في هذا الكيان الإسلامي الكبير، وانتقلت أعداد كبيرة من الألبان والأرناؤوط والشركس والقرم إلى المشرق الإسلامي في مصر والشام والعراق لدواعٍ أمنية ووظيفية واقتصادية متنوعة. كما استقر عشرات الآلاف من الأتراك

(١) الفتوحات الإسلامية: (٢/ ١٩٠ ـ ١٩١).

(٢) انظر: البوغوميليون والمسيحيون والبوسنة. لطفي المعوش. مجلة الاجتهاد (٢٩/ ١٠٧ ـ ١١٦)، وانظر أيضاً: الدعوة إلى الإسلام. السير توماس أرنولد، ومحمد الفاتح د. سالم الرشيدي (١٩٨ ـ ١٩٩).

المسلمين في البلاد المفتوحة شرق أوربا، وشادوا معالم الإسلام التي لا تزال شواهدها باقية حتى يومنا هذا في دول البلقان. وصار المسلمون، رغم كل ما تعرضوا له من صنوف القهر والفتنة ـ ولا يزالون ـ جزءاً لا يتجزأ من بنية الشعوب الأوربية الشرقية. ولولا الوضع القلق والفتن والقلاقل المتتابعة لاعتنقت تلك الشعوب الإسلام بالكلية.

أما القرن الثاني عشر الهجري فقد كان قرن المجابهة مع الروس الذين نهضت دولتهم على يد قيصرهم «بطرس الأكبر»، الذي اعتدى على الأراضي العثمانية في «أزاق»، فأعلنت إستانبول الحرب على روسيا سنة ثلاث وعشرين بعد المائة والألف (١١٢٣هـ ـ ١٧١١م)، وانتصرت على القوات الروسية عند نهر «بروث»، حتى حاق الخطر بالقيصر، فلجأت زوجته «كاترينا» إلى إبرام معاهدة «بروث» المذلة لهم. ثم استغلت روسيا انشغال العثمانيين بمحاربة العجم فتحالفت مع النمسا، وأشهرت الحرب ضد العثمانيين لكنهما منيتا بالهزيمة سنة ثمانٍ وأربعين (١١٤٨هـ ـ ١٧٣٥م).

وهكذا انقضى النصف الأول من القرن الثاني عشر وكفة المسلمين راجحة ضد الروس، بالإضافة إلى استرجاع بلاد المورة من جمهورية البندقية سنة سبعٍ وعشرين (١١٢٧هـ ـ ١٧١٥م). أما النصف الثاني منه فكانت الكفة تميل فيه لصالح الروس، فقد هُزم العثمانيون في موقعة «شكزم» سنة اثنتين وخمسين (١١٥٢هـ ـ ١٧١٥م). واتبعها توقيع معاهدة بين الطرفين في بلغراد، وسرعان ما نقضت «كاترينا الثانية» ملكة روسيا المعاهدة واعتدت على بلاد «القرم». فأعلنت الدولة العثمانية الحرب على روسيا سنة اثنتين وثمانين (١١٨٢هـ ـ ١٧٦٨م). ولكنها هزمت في معركة «جزيرة خيوش» البحرية سنة أربعٍ وثمانين (١١٨٤هـ ـ ١٧٧٠م)، ثم عقدت معاهدة «كجوق كينارجه» سنة

١١٨٨هـ، ثم معاهدة القسطنطينية سنة ١١٩٨هـ إثر ضم روسيا بلاد القرم إليها سنة (١١٩٧هـ - ١٧٨٣م). واستمر التفوق الروسي في مطلع القرن الثالث عشر على حساب الممالك العثمانية في صربيا والمجر حتى أبرمت معاهدة «باسي» بتوسط دولة إنجلترا ودولة بروسيا.

لقد شاخ هذا المحارب القديم، وأثخنته الجراحات الداخلية والخارجية، وتكالبت عليه الأعداء ينهشونه من كل جانب، وهو يحاول أن يستمسك ويستقيم، ولكنه يترنح ويهتز أمام أمم فتية ناشطة يؤلف بينها الحقد الصليبي وثارات التاريخ، كما يطعن في خاصرته الباطنيون من أحفاد هولاكو وتيمورلنك، مرتدين عباءة التشيع في أجزاء كثيرة من بدنه المترهل. وكانت قاصمة الظهر حقاً لهذا الكيان الإسلامي المتقادم، أن رفض دعوة التوحيد والتجديد التي ظهرت في النصف الثاني من القرن الثاني عشر على يد الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب(١)، والتي كانت مرشحة حقاً لبث روح الصفاء

(١) محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي، التميمي، النجدي، الإمام المجدد المصلح. ولد سنة ١١١٥هـ في بلدة «العيينة». حفظ القرآن دون العاشرة، وتتلمذ في صباه على والده، قاضي العيينة ثم حريملاء. ثم رحل في طلب العلم إلى الحرمين والشام والبصرة. وكان شغوفاً بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، عظيم التأثر بمنهجهما السلفي في الاعتقاد والعمل. فعاد إلى نجد يدعو إلى إخلاص التوحيد، ونبذ الشرك، ومحاربة البدع الاعتقادية والعملية، فلقي معارضة وتخذيلاً، حتىٰ ناصره أمير الدرعية الإمام محمد بن سعود سنة ١١٥٧هـ وجاهد في سبيل نشر دعوته هو وأبناؤه من بعده، حتى دانت لهم معظم الجزيرة العربية، وبلغوا أطراف الشام والعراق. وعرف أتباعه بأهل التوحيد، ونبزهم خصومهم بالوهابية، إيهاماً بأنهم قد استحدثوا مذهباً جديداً. وسرىٰ هذا المصطلح إلى كتب الغربيين وغيرهم. وكان لدعوته الإصلاحية رحمه الله تأثير في نشوء اليقظة الدينية في كثير من مناطق العالم الإسلامي. توفي رحمه الله في الدرعية سنة ١٢٠٦هـ. من آثاره: كتاب التوحيد، وكشف الشبهات، وأصول الإيمان. ورسائل متعددة. انظر: =

والنقاء العقدي في جسم الدولة العثمانية، الذي أنهكته الطرق الصوفية البدعية، والمظاهر الشركية، لكن علماء السوء، وبطانة الشر ما زالت تفتل في الذروة والغارب حتى حملت «الباب العالي» على إيصاد أبوابه في وجه دعوة الحق، وتجريد الحملات المتتابعة للقضاء على الدعوة السلفية في نجد والحجاز. ولا عجب أن نرى الاقتران التام بين هذا الموقف العدائي وأفول نجم الدولة العثمانية.

لقد أخطأت الدولة العثمانية حين تعاملت مع دعوة الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله كتعاملها مع «إسماعيل الصفوي[(١)]» أو «فخر الدين المعني[(٢)]» أو غيرهما من أصحاب الضلالات العقدية أو المطامح الدنيوية. كان اللائق بدولة جهادية تقف على ثغور المسلمين أن تعنى بالبناء الداخلي والإصلاح العقدي وتنقية المجتمعات الإسلامية مما شابها من البدعة والشرك والفسوق، وكانت جميع هذه العناصر

= تاريخ ابن غنام، والكتب المؤلفة باسمه للندوي وابن حجر آل أبي طامي وغيرهم. وانظر: الأعلام (٦/ ٢٥٧).

(١) إسماعيل الصفوي (١٤٨٧ ـ ١٥٢٤م): ولد في أردبيل، وتوفي فيها. مؤسس الدولة الصفوية في إيران. استولى على أذربيجان وفارس. تلقب بالشاه سنة ١٥٠٣م. وسع ممتلكاته إلى هراة شرقاً، وبغداد جنوباً، وفرض سيادته على كربلاء والنجف، ونشر مذهب الرافضة. اصطدم بالعثمانيين، فكسروه في معركة جالدران ١٥١٤م. انظر: المنجد في الأعلام (٤٤)

(٢) فخر الدين المعْنِي (٩٨٠ ـ ١٠٤٤ = ١٥٧٢ ـ ١٦٣٥م) فخر الدين (الثاني) ابن قرقماس ابن فخر الدين الأول، من آل معن. من أكبر أمراء هذه الأسرة من دروز الشوف بلبنان. ولي سنة ١٠١١هـ، عظم أمره واستولى على صيدا وصفد وبيروت، وناوأ حكومة الأستانة، فجرّدت حملة للقضاء عليه، ففر إلى إيطاليا، ثم عفي عنه وأعيد إلى إمارته، ولقب بسلطان البر، فطمع في التوسع مجدداً، فقبض عليه سنة ١٠٤٣هـ، فسجن في الأستانة مدة، ثم عفى عنه السلطان واستبقاه، ثم كثرت الوشايات فيه فقتله وولديه.

والمؤهلات مجتمعة في دعوة التوحيد السلفية مضافاً إليها روح الجهاد، وحب الاستشهاد، ولكن هذا الأمل لم يقع، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

وهكذا أطل القرن الثالث عشر الهجري على الساحة الإسلامية وهي تشهد تراجعاً وانحساراً في خطوط المواجهة مع النصارى الأوربيين والروس، الذين أخذوا يخطون خطواتٍ واسعة في ميادين التقدم المادي والصناعي، ويرمقون الممالك الإسلامية التابعة للدولة العثمانية بنظراتٍ طامعة حاقدة.

المرحلة الخامسة: (١٢١٣هـ ـ ١٣٦٨هـ):

تمثل هذه المرحلة فترةً تمتد من قيام الحملة الفرنسية على مصر عام ثلاثة عشر بعد المائتين وألف (١٢١٣هـ ـ ١٧٩٨م) وتنتهي بالإعلان عن قيام دولة يهود (إسرائيل) فوق أرض فلسطين عام (١٣٦٨هـ ـ ١٩٤٨م).

والسمة العامة لهذه المرحلة هي التقهقر السياسي والعسكري والعلمي للأمة الإسلامية مقابل النمو الأوربي المطرد في كافة المجالات المادية مما أفضى إلى انهيار الخلافة العثمانية، وطي بساطها من أوربا الشرقية، ثم احتلال البلدان الإسلامية العريقة من قبل الاستعمار الأوربي بشكل لم يسبق له مثيل حتى في الحروب الصليبية.

والمتغير الوحيد في هذه المرحلة عن مرحلة الحروب الصليبية أن الحكومات الأوربية المتأثرة بالثورة الفرنسية (١٧٨٩م) العلمانية باتت أكثر دهاءً، وغزت المجتمعات الإسلامية بأسلحتها المتفوقة، تحت شعارات منمقة لا تحمل الطابع الديني الصليبي، بل تحاول أن تتجنب استفزاز المشاعر الإسلامية، وتتستر تحت لافتات سياسية مثل «الانتداب» و«الوصاية» و«الحماية»... إلخ.

ومن أبرز الحوادث التاريخية التي ترسم معالم هذه المرحلة ما يلي:

١ ـ الحملة الفرنسية على مصر: بعد عشر سنوات تقريباً من قيام الثورة الفرنسية جرد «نابليون بونابرت»[١] حملة بحرية للاستيلاء على مصر، أسوة بأسلافه الصليبيين الذين كان آخرهم «لويس التاسع». فرست العبّارة الفرنسية أمام شواطئ الإسكندرية في المحرم من سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف (١٢١٣هـ ـ ١٧٩٨م). وبث نابليون مرسوماً في المصريين تضمن العبارات الخادعة التالية: (بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله لا ولد له، ولا شريك له في ملكه، من طرف الفرنساوية المبني على أساس الحرية والتسوية، السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونوبارته يُعَرِّف أهالي مصر جميعهم أن من زمان مديد، الصناجق[٢] الذين يتسلطون في البلاد المصرية يتعاملون في الذل والاحتقار في حق الملة الفرنساوية، ويظلمون تجارها بأنواع الإيذاء والتعدي، فحضر الآن ساعة عقوبتهم، وأخرنا من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من بلاد الأبازة والجراكسة، يفسدون في الإقليم الحسن الأحسن الذي لا يوجد في كرة الأرض كلها مثله. فأما رب العالمين القادر على كل شيء فإنه قد حكم على انقضاء دولتهم. يا أيها المصريون: قد قيل لكم إنني ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم، فذلك كذب صريح فلا تصدقوه، وقولوا للمفترين إنني ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين. وإنني أكثر

(١) نابليون (١٧٦٩ ـ ١٨٢١م): ولد في أجاكسيو، من عائلة بونابرت. إمبراطور فرنسا (١٨٠٤ ـ ١٨١٥). اشتهر في حملة على إيطاليا مرتين، قاد حملة على مصر سنة (١٧٩٨ ـ ١٧٩٩)، وجلب إليها مطبعة من الفاتيكان. تحالفت أوربا ضده، فهزم في معركة «واترلو» سنة ١٨١٥، فنفي إلى جزيرة سانت هيلانة، حيث توفي. انظر: المنجد في الأعلام (٧٠٣).

(٢) الصناجق: كلمة تركية تعني هنا الحكام على جزء من الولايات العثمانية.

من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى، وأحترم نبيه والقرآن العظيم...

أيها المشايخ والقضاة والأئمة والجربجية(١) وأعيان البلد: قولوا لأمتكم إن الفرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون، وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا في «رومية الكبرى»، وخربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائماً يحث النصارى على محاربة الإسلام. ثم قصدوا جزيرة مالطة، وطردوا منها «الكواللرية» الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين، ومع ذلك، الفرنساوية في كل وقتٍ من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني، وأعداء أعدائه أدام الله ملكه...)(٢).

بهذه المزايدات الرخيصة، والتلون الساخر أراد هذا الداهية أن يطمأن جموع المسلمين إلى سلامة أهدافه ونبلها، وادعاء الإسلام، وتعظيم النبي والقرآن والسلطان أمام السذج الجهلة من العامة، وأرباب الطرق الصوفية وأتباعهم، الذين كانوا جمهور الناس في تلك الحقبة المنحطة وللأسف، بلغة سوقية منحطة، قصد بها مخاطبة الغوغاء. وتكشف أحداث هذه الواقعة عن مدى التضعضع العقدي والاجتماعي والنفسي الذي آلت إليه المجتمعات الإسلامية، فضلاً عن الفوضى السياسية، وانفراط عقد الأمن والتدبير في مواجهة هذا الخطر الداهم(٣).

مكث الفرنسيون في مصر حتى جمادى الأولى سنة ست عشرة

---

(١) الجربجية: مصطلح تركي يعني زعماء العساكر الإنكشارية.

(٢) انظر: النص الكامل في تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار: الجبرتي، عبد الرحمن بن حسن. دار الجيل ـ بيروت. (٢/ ١٨٢ ـ ١٨٤).

(٣) انظر في وصف الواقع السياسي والاجتماعي والديني ما كتبه المؤرخ النابه، والناقد البصير عبد الرحمن الجبرتي في تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (٢/ ١٧٩ ـ ٥٠٠).

ومائتين وألف (١٢١٦هـ ـ ١٨٠١م)، ولولا وجود منافس آخر في الساحة من طينتهم، وهم الإنكليز، لبقوا أكثر من ذلك. فقد كان الإنكليز يحسدون الفرنسيين على هذه «الغنيمة الباردة» فتظاهروا بمساندة الدولة العثمانية لطرد الفرنسيين، وإزاحتهم عن ميدان الصراع واقتسام الغنائم.

وقد كان لهذه الحملة آثار ثقافية واجتماعية على المجتمع المصري[١]، كما كشفت عن تواطؤ الأقباط مع أهل ملتهم، وسومهم ـ لما تمكنوا ـ المسلمين العذاب[٢].

٢ ـ الحملة الإنكليزية على مصر: جرَّد الانكليز حملةً عسكرية على مصر، في غرة محرم سنة اثنتين وعشرين ومائتين وألف (١٢٢٢هـ ـ ١٨٠٧م)، فاستولوا على الإسكندرية. ثم تصدى لهم «محمد علي باشا»[٣] (١١٨٣هـ ـ ١٢٦٥هـ) فهزمهم، وعقد معهم صلحاً فغادروا البلاد في شهر رجب من تلك السنة[٤].

٣ ـ ثورة اليونان: أدى الضعف الذي أصاب الدولة العثمانية، وهزائمها المتوالية أمام الجيوش الروسية في البلقان إلى طمع اليونانيين

---

(١) انظر: في المصدر السابق على سبيل المثال (٢/٤٣٦ ـ ٤٣٧، ٤٨٦).
(٢) انظر: في المصدر السابق على سبيل المثال (٢/ ٢٥٠، ٣٤٧، ٤٣٧، ٤٩١).
(٣) محمد علي باشا (١١٨٤ ـ ١٢٦٥هـ= ١٧٧٠ ـ ١٨٤٩م): محمد علي بن إبراهيم أغا بن علي، ألباني الأصل مستعرب. ولد في «قولة» التابعة الآن لليونان، واحترف تجارة الدخان، فأثرىٰ، وولي مصر سنة ١٢٢٠هـ فقضىٰ على المماليك سنة ١٢٢٦هـ غدراً. أوعزت إليه الحكومة العثمانية أن يجرد حملة للقضاء على الدولة السعودية الأولىٰ، وشارك في حرب «المورة»، واستولىٰ على سورية، ثم قايض الدولة العثمانية على ردها لقاء أن يكون حكم مصر وراثياً في أسرته. أرسل البعثات التعليمية إلى أوربا، وبنىٰ المدارس والمعامل في مصر. اعتزل الأمور لابنه إبراهيم سنة ١٢٦٤هـ. انظر: الأعلام (٦/ ٢٩٨).
(٤) انظر: تاريخ عجائب الآثار (٣/١٧٦ ـ ٢١٤).

في الاستقلال. فشبت نار الثورة في بلاد المورة سنة سبع وثلاثين ومائتين وألف (١٢٣٧هـ ـ ١٨٢٦م)، فعقدت الدول الأوربية الكبرى مؤتمراً في لندن ذلك العام بدعوى الاحتجاج على الممارسات غير الإنسانية لإبراهيم باشا[1]، ودمروا السفن العثمانيين والمصرية، واحتلت فرنسا بلاد المورة سنة أربع وأربعين (١٢٤٤هـ ـ ١٨٢٨م). ثم أرغمت روسيا والدول الأوربية العثمانيين على القبول باستقلال اليونان في معاهدة «أدرنة» سنة خمسٍ وأربعين ومائتين وألف (١٢٤٥هـ ـ ١٨٢٩م).

٤ ـ احتلال فرنسا للجزائر: وذلك سنة ست وأربعين ومائتين وألف (١٢٤٦هـ ـ ١٨٣٠م)، بدعوى أن أهلها كانوا يعتدون على مراكبهم البحرية!. وظلت الجزائر رهينة الأسر مدة مائة وخمسة وثلاثين عاماً، حتى انسحابهم منها سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة وألف، تحت وطأة الجهاد الإسلامي المستميت (١٣٨١هـ ـ ١٩٦٢م).

٥ ـ احتلال الإنكليز لعدن والسيطرة على مضيق باب المندب: سنة أربع وستين ومائتين وألف (١٢٦٤هـ ـ ١٨٣٩م). وقد بقيت تحت نير الاحتلال حتى، سنة سبع وثمانين وثلاثمائة وألف (١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م).

---

(١) إبراهيم «باشا» بن محمد علي «باشا» (١٢٠٤ ـ ١٢٦٤هـ) قائد بعيد المطامح، من ولاة مصر. قدم مصر مع طوسون بن محمد علي سنة ١٢٢٠هـ، فتعلم بها، وأرسله أبوه، أو متبنيه محمد علي سنة ١٢٣١هـ بحملةٍ إلى الحجاز ونجد، ثم إلى بلاد المورة ـ اليونان ـ ١٢٩٣هـ، ثم إلى سورية سنة ١٢٤٧هـ، فانقادت له بلاد الشام. ودخل في معارك طاحنة مع الدولة العثمانية، ظفر في معظمها حتى قارب الأستانة. وفي عهد السلطان عبد المجيد سنة ١٢٥٤هـ اتفق مع الإنجليز على إخراجه من سورية، فعاد إلى مصر سنة ١٢٥٦هـ في مدة ولاية محمد علي الذي تنازل له، وجاء الفرمان من الأستانة بتوليته، ثم مات قبل وفاة محمد علي. انظر: الأعلام (١/ ٧٠).

٦ ـ **سقوط رومانيا واستقلالها عن الدولة العثمانية:** سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف (١٢٧٣هـ ـ ١٨٥٧م)، بعد حكم دام أكثر من أربعة قرون ونصف.

٧ ـ **حرب القرم:** بين الحكومة العثمانية وحلفائها الإنكليز والفرنسيين من جهة، وروسيا من الجهة الأخرى سنة تسع وستين ومائتين وألف (١٢٦٩هـ ـ ١٨٥٣م) بسبب تحرشات الروس بالعثمانيين وإهانتهم إياهم، واستمرت حتى توقيع معاهدة باريس سنة ثلاث وسبعين (١٢٧٣هـ ـ ١٨٥٦م). وقد أنهكت هذه الحرب الدولة العثمانية وفقدت أجزاء من أراضيها، وزادت من نفوذ الإنكليز والفرنسيين في سياسات الحكومة العثمانية تجاه الأقليات النصرانية، وغيرها.

٨ ـ **سقوط الهرسك:** سنة ثلاث وتسعين ومائتين (١٢٩٣هـ ـ ١٨٧٦م) بمساندة الروس والدول المجاورة في أول ولاية السلطان عبد الحميد الثاني، وقد امتدت الحرب وتقهقر العثمانيون إلى قرب أدرنة. وأعقب ذلك معاهدة تقضي بتملك الروس لتلك البلاد، ويبقى للعثمانيين أدرنة ـ عاصمتهم القديمة ـ وما يليها إلى إستانبول مع تحميلهم دفع غرامة الحرب. وتلتها معاهدة برلين ١٨٧٨م التي كانت أشد إذلالاً.

٩ ـ **احتلال الفرنسيين تونس:** سنة سبع وتسعين ومائتين وألف (١٢٩٧هـ ـ ١٨٨١م) بدعوى تأديب بعض قبائل العرب المعتدين! وظلت تونس بأيديهم ثمان وسبعين سنة حتى نالت استقلالها سنة خمس وسبعين وثلاثمائة وألف (١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٦م).

١٠ ـ **احتلال الإنكليز لمصر:** سنة ثمانٍ وتسعين ومائتين وألف (١٢٩٨هـ ـ ١٨٨٢م) للقضاء على ثورة «عرابي باشا»[1]، والتحكم في

---

(١) عرابي باشا (١٢٥٧ ـ ١٣٢٩هـ= ١٨٤١ ـ ١٩١١م) أحمد عرابي بن محمد=

ولاتها من أحفاد محمد علي باشا ثم احتلال السودان تبعاً لمصر. وقد ظل الإنكليز في مصر حتى سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة (١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٤م)، وفي السودان إلى ما بعد ذلك بسنتين.

١١ ـ انعقاد المؤتمر الصهيوني في مدينة «بال» بسويسرا: سنة ١٨٩٧م الذين ضم زعامات اليهود في العالم لرسم الخطط للسيطرة على العالم، وإنشاء وطنٍ قومي لليهود على أرض فلسطين.

١٢ ـ سقوط بلغاريا: سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة وألف (١٣٢٨هـ ـ ١٩٠٨م) بعد حكم دام أكثر من خمسة قرون.

١٣ ـ قيام ثورة جمعية الاتحاد والترقي العلمانية التركية وخلع السلطان عبد الحميد الثاني[1]: سنة تسع وعشرين وثلاثمائة وألف

= عرابي بن محمد وافي بن محمد غنيم. زعيم مصري. ولد في قرية رزنة من قرى الزقازيق بمصر، وجاور في الأزهر سنتين، ثم انتظم جندياً في الجيش سنة ١٢٧١هـ، وبلغ رتبة «أميرالاي». تزعم هو وبعض الضباط حركة تتضمن مطالب وطنية أيام الخديوي توفيق فاعتقل ثم أفرج عنه، وجعل وكيلاً لنظارة الجهادية، وأنعم عليه بلقب لواء «باشا». وبعد استيلاء الإنجليز على مصر سنة (١٢٩٩هـ ١٨٨٢م)، نفوه إلى جزيرة سيلان سنة ١٣٠٠هـ، فمكث فيها ١٩ عاماً، ثم عاد إلى مصر أيام الخديوي عباس، وتوفي بالقاهرة. انظر: الأعلام (١/ ١٦٨).

(١) السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٤٢ ـ ١٩١٨م) عبد الحميد ابن السلطان عبد المجيد العثماني، آخر سلاطين آل عثمان الفعليين. ورث مملكة مترامية الأطراف يتربص بها الأعداء من كل جانب. حاول أن يحيي فكرة الجامعة الإسلامية لمواجهة الأطماع الأوربية المتنامية لتقاسم إرث الرجل المريض كما كانوا يصفون الخلافة العثمانية، ولكنه فشل بسبب مؤامرات جمعية الاتحاد والترقي التي عزلته عن منصبه سنة ١٩٠٩م، ونصبت سلاطين صوريين بعده. وقد شوهت سيرته من قبل الغربيين والنصارى العرب. انظر: مذكرات السلطان عبد الحميد، صحوة الرجل المريض.

(١٣٢٩هـ ـ ١٩٠٩م) الذي كان آخر خليفة عثماني فعلي، وذلك لوأد فكرة الجامعة الإسلامية التي صار يدعو إليها لمواجهة التسلط الأوربي.

١٤ ـ سقوط ألبانيا وانتزاعها من الدولة العثمانية: سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة وألف (١٣٣٢هـ ـ ١٩١٢م) بعد حكم إسلامي دام قرابة أربعة قرون ونصف.

١٥ ـ احتلال فرنسا لمراكش وتقاسمها مع إسبانيا الأراضي المغربية: سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة وألف (١٣٢١هـ ـ ١٩٠١م)، حتى نالت الاستقلال سنة خمس وسبعين وثلاثمائة وألف (١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م). وبقيت مدينتا «سبته» و«مليلة» تحت الحكم الأسباني إلى الآن.

١٦ ـ احتلال إيطاليا ليبيا: سنة أربعٍ وثلاثين وثلاثمائة وألف (١٣٣٤هـ ـ ١٩١٤م) وظلت أسيرة في أيديهم قرابة نصف قرن حتى سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة وألف (١٣٧١هـ ـ ١٩٥١م).

١٧ ـ إبرام اتفاقية (سايكس ـ بيكو): سنة ست وثلاثين وثلاثمائة وألف (١٣٣٦هـ ـ ١٩١٦م) بين فرنسا وبريطانيا بشأن اقتسام المنطقة العربية المتبقية من تركة الرجل المريض ـ أي الدولة العثمانية ـ وهي العراق وسوريا الكبرى والخليج العربي وفلسطين والأردن، باسم «الحماية» لحكومات مصطنعة، تنشأ بعد مسرحية الثورة العربية الكبرى، التي يعلنها الشريف حسين بن علي[1] في الحجاز ضد العثمانيين في

---

(١) الشريف حسين (١٢٧٠ ـ ١٣٥٠هـ= ١٨٥٤ ـ ١٩٣١م) الحسين بن علي بن محمد بن عبد المعين بن عون، من أحفاد أبي نمي ابن بركات، الحسني الهاشمي. ولد في الأستانة، وانتقل مع والده إلى مكة، فتعلم فيها، ونبغ في شؤون الإمارة، فطلب عمه عون الرفيق من الحكومة العثمانية إبعاده، فنفي إلى الأستانة عام ١٣٠٩هـ حتى مات عمه فعاد أميراً لمكة سنة ١٣٢٦هـ. وفي عام (١٣٣٤هـ ١٩١٦م) أعلن بمساندة من الإنجليز الثورة العربية على=

تلك السنة، وتدعم من قبل طرفي الاتفاقية. وقد كشف البلاشفة بنود هذه الاتفاقية في العام التالي.

١٨ ـ صدور وعد «بلفور» رئيس وزراء بريطانيا: سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة وألف (١٣٣٧هـ ـ ١٩١٧م) بتعهد من الحكومة البريطانية لليهود بإنشاء وطن قومي للشعب اليهودي فوق أرض فلسطين. وفي نفس العام دخل القائد الإنكليزي «اللنبي» مدينة القدس هاتفاً: الآن انتهت الحروب الصليبية، كما دخلوا بغداد، وفي السنة التالية دخل الفرنسيون بيروت.

١٩ ـ اندلاع الثورات العربية في فلسطين وسوريا ضد الانتداب الأجنبي: سنة أربعين وثلاثمائة وألف (١٣٤٠هـ ـ ١٩٢٠م) وقمعها من قبل القوات الغازية المتفوقة عسكرياً، كما في موقعة «ميسلون» قرب دمشق في نفس العام. وتتبع الإنجليز لفصائل المجاهدين التابعين لعز الدين القسام[(١)] ﷺ وغيره في فلسطين. ثم توقيع معاهدات استعمارية مع الحكومات المحلية في كل من سوريا وفلسطين ولبنان والعراق ومصر سنة ست وثلاثين وثلاثمائة وألف (١٣٣٦هـ ـ ١٩٥٦م).

= الأتراك. وحين منع أهل نجد من الحج قصده الملك عبد العزيز بن سعود، وتخلى عنه الإنجليز، فخرج من جدة إلى العقبة ثم قبرص عام ١٩٢٥م، ثم رجع إلى عمّان، فمات بها، ودفن في القدس. انظر: الأعلام (٢/٢٤٩).

(١) عز الدين القسام (١٣٠٠ ـ ١٣٥٤هـ): محمد عز الدين بن عبد القادر القسام، مجاهد من أسرة كريمة في جبَلة من أعمال اللاذقية. تعلم في الأزهر بمصر، واشتغل في بلده بالتعليم والوعظ إلى أن احتل الفرنسيون ساحل سورية في ختام الحرب العالمية الأولىٰ سنة ١٩١٨م، فثار في جماعة من تلاميذه ومريديه، وطارده الفرنسيون. ثم انتقل إلى دمشق، فحيفا في فلسطين، وتولىٰ فيها إمامة جامع الاستقلال وخطابته، وخاض معارك جهادية ضد الإنجليز لما استفحل خطر اليهود، وظهرت بطولته، حتى قضىٰ مجاهداً. ودفن في قرية «الشيخ» قرب حيفا ﷺ. انظر: الأعلام (٦/٢٦٧).

٢٠ ـ **إلغاء الخلافة الإسلامية العثمانية**: سنة أربع وأربعين وثلاثمائة وألف (١٣٤٤هـ ـ ١٩٢٤م) بعد حكم دام أكثر من ستة قرون، بعد انتخاب مصطفى كمال، أتاتورك(١)، رئيساً للجمهورية التركية العلمانية الحديثة. وكان ليهود «الدونمة» الدور الأكبر في اتخاذ هذه الخطوة الخطيرة، ومن خلفهم المؤتمر الصهيوني العالمي، بإثارة الفتن وتشويه صورة السلطان عبد الحميد الثاني، وتأسيس الجمعيات المناوئة في داخل تركيا وخارجها(٢).

أما وضع «أهل الذمة» فقد تحول إلى مشكلة ضخمة في هذه المرحلة. فقد كان يعيش بين ظهراني المسلمين في الولايات العثمانية أكثر من عشر طوائف نصرانية أساسية(٣)، ونصف هذا العدد من اليهود(٤). وكانت معاملتهم تجري وفق القواعد الشرعية المتبعة من سائر الدول الإسلامية المتعاقبة.

---

(١) مصطفى كمال (١٨٨١ ـ ١٩٣٨م): قائد تركي، ولد في سلانيك، ينتمي إلى يهود الدونمة من جهة أمه. شارك في ثورة الاتحاد والترقي ضد السلطان عبد الحميد الثاني، التي دعت إلى إحلال الدستور محل الشريعة الإسلامية، ثم خلعت السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٩ وألغت السلطنة عام ١٩٢٢م، ثم الخلافة الإسلامية عام ١٩٢٤م، بعد تأسيس الجمهورية التركية، وكان أول رئيس لها عام ١٩٢٣م. قام بمحاولة القضاء على مظاهر الإسلام في تركيا، واستبدل الأبجدية العربية باللاتينية، وعمل على علمنة البلاد وتغريبها. انظر: الرجل الصنم، وصحوة الرجل المريض.

(٢) انظر: في الأحداث المسرودة في الفقرات من ٣ إلى ٢٠. العثمانيون في التاريخ والحضارة (١٠٧ ـ ١٢٧)، صحوة الرجل المريض (٢٢٨ ـ ٢٥٨).

(٣) هي: الروم الأرثذوكس، الروم الكاثوليك، السريان الأرثذوكس، النساطرة، الموارنة، الأقباط الأرثذوكس، الأقباط الكاثوليك، الكلدان الكاثوليك، اللاتين الكاثوليك، والبروتستانت.
وانظر في هذا: المسيحية في العالم العربي، للحسن بن طلال، والعرب والنصارى لحسين العودات.

(٤) وهي: الربانيون، السامريون، السبتيون، الدونمة، وشهود يهوه.

ولكن الأطماع الأوربية أرادت أن تتخذ من هذه الطوائف موطئ قدم للنفاذ إلى العمق الإسلامي لدولة الخلافة، وأن تتذرع بالدفاع عن حقوقها كلما أرادت أن تسوغ تدخلاً في الشؤون الداخلية لها.

يرجع أول تنظيم مقنن لشؤون أهل الذمة إلى عهد السلطان «محمد الفاتح» إثر سقوط القسطنطينية (٨٥٧هـ - ١٤٥٣م)، وهو ما عرف بنظام الملة (الذي قسم «الرعايا» إلى مللٍ حسب أديانهم، وأعطى لرجال الدين المسيحيين على طوائفهم ما هو موكولٌ إلى رجال الدين المسلمين على طوائفهم، وخاصة الأمور الدينية والتعليمية والأحوال الشخصية وغيرها. ثم اكتشف أن طقوس العبادة النصراني تختلف من طائفة لأخرى، فزاد عدد الملل حسب الطوائف أيضاً، وليس حسب الأديان فقط)(١).

وقد تمتعت الطوائف المسيحية واليهودية، منذ سقوط القسطنطينية بالاعتراف بها اعترافاً رسمياً. فقد أقرت السلطنة العثمانية للبطاركة الأرثذوكس والأرمن ولحاخام العاصمة الأعظم بأنهم ليسوا رؤساء طوائفهم الروحية فحسب، بل رؤساؤها السياسيون أيضاً. أما الطوائف الأخرى، كالأقباط في مصر، والموارنة والنساطرة والسريان والأرثذوكس في لبنان وسوريا والعراق فكانت على اتصال أقل بالحكام لإقامتها بعيداً عن العاصمة، ومع ذلك فقد كان بطاركتها ينالون اعتراف السلطان بهم من وقتٍ إلى آخر، وكان السلطان يقوم بتنصيب البطاركة والحاخاميين رسمياً)(٢).

كما يرجع أول تنظيم للامتيازات الأجنبية لدى الدولة العثمانية إلى

---

(١) العرب النصارى: حسين العودات. الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع. دمشق. الطبعة الأولى ١٩٩٢م. (١٥٦).
(٢) الفكر العربي في عصر النهضة. ألبرت حوراني (٤٦).

عهد السلطان سليمان القانوني، الذي تربطه علاقة مميزة بفرانسوا الأول ملك فرنسا. فقد وقع مع فرنسا معاهدة سنة (٩٤١هـ ـ ١٥٣٥م) يمنحها بعض الامتيازات التجارية طالما أن الحاكمين على قيد الحياة. وظل الفرنسيون يجددون تلك المعاهدة حتى أقرت رسمياً سنة (١١٥٣ ـ ١٧٤٠م). كما منح السلطان سليمان القانوني فرانسوا الأول لقب «حامي الكاثوليكية» في البلاد الإسلامية[١]. كما نصت المعاهدة الموقعة في ١١٥٣هـ ـ ١٧٤٠م على إعفاء الفرنسيين المقيمين في الدولة العثمانية من الخراج. (وإذا حدث خلاف بين فرنساويين فللسفراء والقناصل أن يفحصوا ويحكموا حسب شرائعهم وعوائدهم بدون أن يمانعهم بذلك أحد)[٢]. وتضمنت المعاهدة نص المرسوم السلطاني التالي: (إن الأمم النصرانية المعاديتنا ـ كذا ـ، والمسالمة إمبراطور فرنسا، التي ترغب في زيارة القدس الشريف تقدر على الذهاب والإياب بكل حرية وأمان، وإن وجد فيما بعد السماح للأمم المذكورة بالاتجار في ممالكنا المحروسة، فذهابهم وإيابهم حالتئذٍ يكون تحت الراية الفرنساوية)[٣]. كما عززت المعاهدة الوضعية الخاصة للرهبان الفرنسيين المقيمين في الأراضي المقدسة)[٤].

ومع الضغوط المتتالية على الحكومة العثمانية الآخذة في الضعف والاضمحلال منحت مثل هذه الامتيازات لبقية الدول الكبرى؛ بريطانية ثم روسيا والنمسا وغيرها، واختصت كل دولة بحماية طائفة معينة؛ ففرنسا حامية الكاثوليك، وروسيا حامية الأرثذوكس، وبريطانيا حامية البروتستانت وهكذا.

---

(١) انظر: صحوة الرجل المريض، موفق بني المرجة (١٧٦).
(٢) انظر: نص المعاهدة في المصدر السابق (٤٠١ ـ ٤٠٣) البنود (٢٦، ٣٢، ٣٣).
(٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق.

وحين استولى إبراهيم باشا على بلاد الشام أثناء الصراع المصري العثماني سنة (١٢٤٨هـ ـ ١٨٣٢م) سن أنظمة جديدة عرفت بالقانون (البيورلدي) تقضي بإلغاء الضرائب عن جميع الطوائف، ومعاقبة من يطالبهم بأدنى إتاوة مهما كان مسماها. كما سمح للنصارى بترميم معابدهم، وبناء معابد جديدة. وألغى نظام «الغيار» الخاص بملابس أهل الذمة، ومكنهم من لبس ما يشاءون، وركوب الجياد، وولاهم المناصب في المجالس المحلية، بل وجلد من أنكر عليهم هذه المساواة مع المسلمين)[1].

ومجاراةً لهذه التنظيمات الجريئة، سارع خصمه السلطان عبد المجيد الأول العثماني إلى إرضاء الأوربيين فأصدر مرسومه الشهير بـ (خط شريف كولخانه) الذي ألغى رسمياً (نظام الملل) العثماني، وذلك سنة (١٢٥٥هـ ـ ١٨٣٩م)، فقرر المساواة بين المسلمين وغيرهم، وإلغاء نظام الذمة، ومشاركة غير المسلمين في الخدمة العسكرية على حدٍ سواء مع المسلمين. وتفرع عنه «فرمانات» تنفيذية لضمان الحرية الدينية، وإزالة مظاهر التحقير والصغار، وتخصيص مرتبات مالية للرهبان، وفسح بناء المعابد وغير ذلك)[2].

وقد استغلت الدول الكبرى امتيازات الحماية استغلالاً بشعاً، طال ضرره تلك الطوائف، وحولها من مللٍ مشمولة برعاية الدولة المسلمة وعهدها وذمتها إلى «أقليات» تعيش وسط أغلبية مسلمة ترى فيها وكراً للتآمر وإيواء الأجنبي. بل جعل منها أقليات متنافرة مختلفة الولاءات رغم اتحاد الدين. وكان من آثار ذلك اندلاع الفتن الطائفية في لبنان والشام بين الدروز والموارنة سنة (١٢٥٧هـ ـ ١٨٤١م) وانتهائه

---

(١) انظر: العرب النصارى (١٦٨ ـ ١٧٠).

(٢) انظر: المصدر السابق (١٧٠ ـ ١٧٣)، الشعوب الإسلامية (١٨٤ ـ ١٨٥).

بتقسيم لبنان إلى قائمقاميتين[١]: درزية ومارونية بعد ذلك بسنة. ثم عودة النزاع الطائفي على أوسع نطاق في بلاد الشام سنة (١٢٧٦هـ ـ ١٨٧٠م)، كانت بريطانيا تسلح فيه الدروز، وفرنسا تسلح المارونيين. وبلغ عدد الضحايا من الجانبين أكثر من عشرة آلاف قتيل.

ومن صور الاستغلال البشع أن روسيا استغلت الخلاف الواقع بين طائفتي الروم الأرثذوكس، الواقعين تحت حمايتها، واللاتين الكاثوليك في بيت المقدس للتحرش بالدولة العثمانية وإشعال فتيل حرب القرم سنة (١٢٦٩هـ ـ ١٨٥٣م)[٢]. واستمرت هذه الحرب الفاجرة ثلاث سنين، ثم جلست الأطراف الكبرى المتحاربة على مائدة المفاوضات في باريس سنة (١٢٧٣هـ ـ ١٨٥٦م). (واتفق لقبول الدولة العثمانية ضمن المجموعة الأوربية أن تصدر «خطاً» جديداً يضع برنامجاً واضحاً للإصلاح أكثر اتساعاً ودقة من «خط كلخانه» وعلى هذا الأساس صدر الخط الهمايوني (١٨٥٦م)[٣].

قضى هذا القانون الجديد «الخط الهمايوني» على البقية الباقية من تميز المسلمين، وتمييز غيرهم في المجتمع العثماني، ومكن لأهل الذمة أن يصبحوا مواطنين من الدرجة الأولى. ونص على معاقبة كل من يستعمل عبارة مهينة ضد الأقليات، وأطلق لهم الحرية في شغل الوظائف العامة المدنية والعسكرية، وبيع وشراء الأملاك العقارية... إلخ)[٤]. كما شهدت هذه المرحلة الخامسة من سلسلة العلاقات الإسلامية النصرانية نشاطاً ملحوظاً في الإرساليات التنصيرية من أوربا

---

(١) تعبير سياسي تنظيمي كان سائداً في الولايات التابعة لتركيا العثمانية، (قائم مقام).

(٢) انظر: الفتوحات الإسلامية: (٢/ ٢٦٩).

(٣) الشعوب الإسلامية: (١٩٣).

(٤) انظر: العرب النصارى: (١٧٣)، الشعوب الإسلامية (١٩٣).

وأمريكا، وافتتاح الجامعات والكليات الدينية والمدنية المختلفة في بلاد المسلمين. وقد تلقفت بالدرجة الأولى أبناء الطوائف النصرانية، وثقفتهم بالعلوم العصرية مما مكنهم لاحقاً من البروز والتصدر في المناصب السياسية والفكرية في بلاد المسلمين بعقولٍ أوربية، وكان لهؤلاء أسوأ الأثر في سلخ المجتمع الإسلامي عن خصوصيته[(١)].

هكذا بدا العالم الإسلامي في القرن الثالث عشر الهجري إلى منتصف القرن الرابع عشر، (التاسع عشر الميلادي إلى منتصف القرن العشرين). بدت صورته كئيبة قاتمة؛ هزائم متلاحقة، فوضى سياسية، جهل وبدع وانحرافات عقدية ومسلكية، تخلف في جميع مناحي الحياة الفكرية والمادية، أزمة ثقة بين شعوبه، وتحالف مع الأعداء أحياناً، في مقابل قفزات سريعة لدى الأمم النصرانية في مجال الإعداد المادي، والقوة الصناعية والعسكرية والاقتصادية، وتنسيق دائب على اقتسام التركة، وإذلال الورثة. أدى هذا وذاك إلى قطع شجرة الخلافة الإسلامية الجامعة، من أصلها بفرع من فروعها، وبأيدي أبنائها، أو هكذا يبدو ظاهراً على الأقل. ثم قسم متاع الأيتام وعيونهم زائغة.

لقد كانت الحركات الإسلامية الجهادية التي ظهرت في أجزاء من العالم الإسلامي إبان فترة الاستعمار الحديث كانتفاضات الطير الذبيح، سرعان ما أخمدت أنفاسه.

جاء النصارى هذه المرة دون صلبان، يتقدمهم المستشرقون وليس القسس، ويفاوضون بقناصلهم ومندوبيهم السامين لا ببطرس الناسك. إنهم هذه المرة لا يهدمون الجوامع ـ غالباً ـ ويحولونها إلى كنائس وكاتدرائيات، ولكنهم يظهرون تعظيم الدين والمشايخ، ويدغدغون

(١) انظر في تاريخ وأثر هذه الإرساليات: صحوة الرجل المريض (١٦٥ ـ ١٧٣)، المسيحية في العالم العربي (١١٧ ـ ١٢٧)، الإسلام والحضارة الغربية. د. محمد محمد حسين.

مشاعر العامة والدهماء. لقد فقهت أوربا النصرانية درس الحروب الصليبية، وتحاشت أن تنجب الاستفزازات الدينية أمثال «نور الدين زنكي»، و«صلاح الدين الأيوبي»، و«الظاهر بيبرس البندقداري».

جاء النصارى هذه المرة باسم السياسة لا باسم الدين، فحققوا ما لم يحققه أسلافهم المتعصبون. لقد أوهنوا عرى الدين في المجتمعات الإسلامية، وغزوا الأفكار قبل الديار، وغسلوا الأدمغة، وهزوا الثوابت والعقائد، ونشروا الرذيلة باسم الحرية، ونفخوا في صورة أهل الذمة باسم حماية الأقليات، وأحَلُّوا الفكرة «العلمانية» محل الفكرة الدينية، واستنطقوا بذلك رجالاً من بني جلدتنا يتكلمون بألسنتنا.

فيا لها من داهية على المسلمين عظيمة، ونازلة لم يشهد تاريخ الإسلام لها نظيراً. فالرزايا والبلايا التي وقعت في تاريخ هذه الأمة تكون على الأبدان والأموال والبلدان، ولكن هذه الداهية الأخيرة تستأصل العقول والأفكار. وتورث الردة والإلحاد، وقد كان؛ فكم التهمت نار المبادئ الضالة التي ولدت وترعرعت في حضن هؤلاء المستعمرين من أبناء هذه الأمة، وسخرتهم في تدميرها. ولولا أن الله تعالى تكفل بحفظ الذكر، وتجديد الدين، وبقاء الطائفة المنصورة، وإلا لكان الإسلام نسياً منسياً. ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يوسف].

وبعد هذه القراءة التاريخية لأبرز الأحداث التي رسمت حدود العلاقات الإسلامية الكتابية في مراحلها المختلفة على مدى أربعة عشر قرناً هجرياً، وفي مدٍ وجزر على شواطيء البحر الأبيض المتوسط، والدول المطلة عليه، حيث جرت معظم هذه الوقائع، ندرك مقدار الكم الهائل من الصور والذكريات التي تختزنها كلٌ من الذاكرتين الإسلامية والنصرانية، وتستدعيها كلما تجدد لونٌ من ألوان المجابهة والتَّماس.

لقد كانت علاقة ساخنة لا تبرد، هادرةً لا تهدأ، متصلة لا

تنقطع، أشبه ما تكون بمعركة حامية الوطيس، لا يكف طرفاها عن الكر والفر، إلا أن يفنى صاحبه، أو يحتويه.

إن الذاكرة النصرانية لا يمكن أن تنسى كيف طوي بساطها، وقلص ظلها عن مقدساتها، ومهد مسيحها، وأرض التوراة والإنجيل، وانتزعت من يدها مواطن أشرف كنائسها في بيت المقدس، والإسكندرية، وأنطاكية، والقسطنطينية، وصارت الأرض التي تدر عسلاً ولبناً دار إسلام، فما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين.

لقد روعت النصرانية حين اخترقت جحافل الإسلام شمال إفريقيا، وعبرت مضيق جبل طارق، واستوعبت شبه الجزيرة الأيبيرية (أسبانيا والبرتغال)، ثم تسلقت جبال البرانس لتمكث في جنوب فرنسا سبعين سنة.

إن الذاكرة النصرانية لا يمكن أن تنسى كابوس العثمانيين الذين دوَّخوا أوربا، وأقضُّوا مضاجع البابوية عدة قرون، وأخضعوا عواصم البلقان تحت سنابك خيولهم، وهدموا أسوار القسطنطينية، وبلغراد، وبودابست بمدافعهم العملاقة، وحاصروا «فينا» ثلاث مراتٍ، وطموحهم لا يقف إلا عند روما معقل النصرانية. ولهذا يصبون لعناتهم على الأتراك ليل نهار في أدبياتهم فضلاً عن صلواتهم.

وبالمقابل فإن الذاكرة الإسلامية لا يعزب عنها تلك الفظائع التي أنزلها الصليبيون بوحشية وهمجية في بيت المقدس، وسواحل الشام، على مدى قرنين من الزمان.

ولا ينسى المسلمون حرب الاستعادة الأسبانية التي جازتهم على ما ساقوه إلى الأندلس من علم وحضارة جزاء «سنمار»، وطردتهم شر طردة، ثم أتبعتها بمأساة «الموريسكيين»(١) التي تعد من أعظم مآسي التاريخ.

وكيف يغيب عن بال المسلمين صور الإذلال والقمع التي أحلها

---

(١) الاسم الذي كان ينبز به النصارى الأسبان بقايا المسلمين في الأندلس ومعناه عندهم: العرب الأصاغر.

الغزاة النصارى بديار الإسلام على يد نابليون في مصر، وفظائع الروس بالعثمانيين في بلاد البلقان والقرم والداغستان وأواسط آسيا. وأخيراً تقاسم الدول الأوربية لتركة «الرجل المريض» كما يقسم المتاع، فيمتصون خيراتها، ويذيقون أهلها الذل والهوان.

إنه إرث تاريخي لا يتجاهله إلا مغفل مغرور، بلغت به السذاجة مبلغاً عظيماً، فصار ألعوبةً بيد أعدائه المستبصرين. وهو إرث يتفق اتفاقاً تاماً، جملةً وتفصيلاً مع الثوابت العقدية لدى المسلمين في نظرتهم نحو أهل الكتاب، ومفرداته شواهد واضحة كالشمس في رابعة النهار على تلك الثوابت[1]. قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة: ٢١٧].

وبعد:

فأين نحن الآن؟ وما طبيعة المرحلة الراهنة؟ هل هي امتداد للمرحلة الخامسة، أم هي مرحلة جديدة لها خصائصها المميزة؟

لقد ورثت البلدان الإسلامية التابعة للحكومة العثمانية عنها «الخط الهمايوني» بالإضافة إلى جملة القوانين الوضعية التي ابتدأ إصدارها في عهد السلطان «سليم الثالث» عام (١٢٢٢هـ ـ ١٨٠٦م) على الطريقة الفرنسية، وظلت تتتابع حتى آخر أيام الدولة العثمانية[2]. ثم جاء الاستعمار الأوربي ليؤكد الفكرة العلمانية وينحّي الفكرة الدينية لتنظيم الحياة والعلاقات، عبر مستشرقيه وتلامذتهم المستغربين وغزوه الفكري.

وحينما حمل الاستعمار عصاه ورحل إلى بلاده، واستقلت الدول الإسلامية، وجدت نفسها في عالم متغير ـ بعد الحرب العالمية الثانية ـ عالم يرفع شعارات السلام الدولي، والمواثيق الدولية التي تعلن المساواة بين شعوب العالم في الحقوق والواجبات، وتدعو إلى نبذ

---

(١) راجع مبحث: حكم الإسلام في أهل الكتاب.

(٢) انظر: الشعوب الإسلامية: (١٧٥ ـ ١٩٥).

التمييز على أساس الدين والعرق واللون، وكوّن لتمثيل هذه المبادئ وتطبيقها منظمة عالمية عرفت باسم «هيئة الأمم المتحدة» تأسست عام ١٩٤٥م، وتفرعت عنها الهيئات والمنظمات واللجان العالمية التي تنتظم العالم بخيط واحد، وفق معايير متساوية ـ على الأقل من الناحية النظرية[١] ـ.

فلا ريب أن الأمة الإسلامية تعيش مرحلة جديدة مستقلة لها خصائصها المميزة، وإن كانت لم تكتمل صورتها بعد، لا تحتاج فيها إلى إنشاء مبادئ فذلك أمرٌ محسوم مقرر منذ ظهور هذا الدين الخاتم، ومبادئه ثابتة لا تقبل النقاش، وإنما تحتاج إلى فقه علمي تؤسس عليه «السياسية الشرعية» التي تلائم وضعها الحالي في حلبة الصراع الدولي، دون المساس بالثوابت العقدية.

ومن المعالم البارزة التي ترسم خصائص هذه المرحلة الراهنة ما يلي:

* **أولاً:** نمو فكرة «العالمية» أو «العولمة» GLOBALIZATION، والدعوة إلى إلغاء الفروق العقدية والعرقية والإقليمية بين شعوب العالم، والسعي نحو قيام «الحكومة العالمية». وبذور هذه الفكرة وضعتها الماسونية العالمية، وخلفها تقف المخططات اليهودية[٢].

* **ثانياً:** قيام دولة إسرائيل فوق أرض فلسطين المسلمة، بدعم

---

(١) انظر: في تفاصيل ذلك: أصول القانون الدولي العام د. محمد سامي عبد الحميد.
المنظمات الدولية الحديثة وفكرة الحكومة العالمية. د. محمد حسن الأبياري.

(٢) انظر في الماسونية: الماسونية في العراء. د. محمد بن علي الزغبي، الماسونية ذلك العالم المجهول. صابر طعيمة، الماسونية تحت المجهر: د. إبراهيم فؤاد عباس. دار الرشاد ـ جدة ـ السعودية. الطبعة الأولى (١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م)، القوى الخفية لليهودية العالمية. داود عبد الغفور سنّقرط.

وتأييد مطلق من القوى النصرانية في العالم، في مسرح الأحداث التي جرت عليها الحروب الصليبية. وفق خلفية توراتية مشتركة بين اليهود والنصارى.

* **ثالثاً:** تنامي الأصولية الإنجيلية، وتأثيرها الظاهر والخفي في السياسات الدولية[١].

* **رابعاً:** تنامي الصهيونية المسيحية في أوربا وأمريكا ضد الإسلام[٢].

* **خامساً:** تنامي الصحوة الإسلامية في أرجاء العالم الإسلامي، والأقليات المسلمة في العالم.

* **سادساً:** ظهور الدعوة لتقارب الأديان من الجانب النصراني، وتفعليها بصفة لم يسبق لها مثيل.

وهي معالم تبدو معقدة ومتشابكة ومتعارضة، فمن دعوة إلى الانخراط في الأممية العالمية وشعارات الإنسانية، إلى حركاتٍ ظاهرةٍ وخفية تجذِّر التعصب الديني، إلى دعواتٍ للحوار والتفاهم وفهم الآخر، والالتقاء حول نقاط الاتفاق.

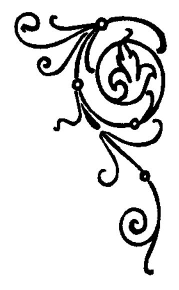
كل ذلك يشعرنا أننا أمام وضعٍ جديد، ومرحلة متغيرة عما سبقها في تاريخ العلاقات الإسلامية ـ الكِتابية. وكل معلم من هذه المعالم جدير بالدراسة والفحص والتقويم لكي يتخذ المسلمون الموقف الشرعي والإجرائي المكافىء له.

ومن هذه المعالم الجديدة الطارئة في تاريخ العلاقات الإسلامية الكتابية الدعوة إلى تقارب الأديان، وهو موضوع دراستنا هذه التي نسأل الله تعالى أن تسهم في جلاء الغبش وبيان الحق في هذه النازلة.

---

(١) انظر: الأصولية الإنجيلية. صالح الهذلول.

(٢) انظر: الصهيونية المسيحية. محمد السماك، النبوة والسياسة. غريس هالسل.

الباب الأول

حقيقة التقريب بين الأديان وأصوله وبواعثه

ويتضمن:

* الفصل الأول: حقيقة التقريب بين الأديان.
* الفصل الثاني: الأصول التاريخية لدعوة التقريب بين الأديان.
* الفصل الثالث: حقيقة التقريب بين الأديان في العصر الحديث.
* الفصل الرابع: بواعث الدعوة إلى التقريب بين الأديان.




الفصل الأول

حقيقة التقريب بين الأديان

تطلق: «دعوة التقريب بين الأديان» على مجمل المحاولات الفكرية والعملية الساعية لإيجاد لونٍ من ألوان التلاقي والاتصال بين دين الإسلام وغيره من الأديان المحرفة، والملل الوثنية.

ومع أن هذه الدعوة بشقيها الفكري والعملي ذات جذور تاريخية، إلا إنها لم تظهر ظهوراً جلياً، ولم تنتشر انتشاراً عالمياً إلا في العصر الحاضر، وعلى وجه الخصوص في الربع الأخير من القرن الرابع عشر الهجري حتى أيامنا هذه، النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي، حيث اكتسبت معانيَ جديدة، وأهدافاً متعددة، ووسائل متنوعة لم تكن متاحة من قبل، وصارت ـ بالفعل ـ إحدى المعالم المميزة لهذه الحقبة من التاريخ التي تسودها شعارات الإنسانية والمساواة والحرية، دون تمييز مبني على أساس ديني أو عرقي، وإنْ بالشعارات فقط، وذلك على مدى نصف قرن، منذ انقضاء الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥م. وأخيراً، وفي أعقاب سقوط الكتلة الشيوعية، وتفكيك الاتحاد السوفيتي، وانحلال حلف وارسو، ولد مصطلحٌ جديد هو: «العولمة» أي توحيد العالم(١). وذلك ما يعني المضي حثيثاً في إزالة الفوارق،

(١) يقول سمير أمين: (معنى ذلك: ولادة مفاهيم ومضامين وأفكار وأنساق جديدة على حساب انتهاء وانتفاء ظواهر وحالات ومضامين ومصطلحات ومفاهيم عدة، مثل: (شرق ـ غرب، شمال ـ جنوب) (العالم الثالث)، الشيوعية، (البلدان الاشتراكية)، (الحياد الإيجابي)، (عدم الانحياز)، (التأميم)... إلخ، وسيمضي زمن ليس بطويل تعيش فيه مفاهيم القرن العشرين في حالة=

وتمييع الحدود، والقضاء على الخصوصيات للمجتمعات المتنوعة دينياً، وثقافياً. وذلك يتطلب المزيد من التقريب بين الأديان في المرحلة المقبلة.

يقول الكاتب الإسلامي الفاضل د. محمد محمد حسين[(١)] كَلَّلهُ: (العالمية في الاصطلاح الحديث مذهبٌ يدعو إلى البحث عن الحقيقة الواحدة التي تكمن وراء المظاهر المتعددة في الخلافات المتباينة. ويزعم أصحاب الدعوة والقائمون عليها أن ذلك هو السبيل إلى جمع الناس على مذهبٍ واحد، تزول معه خلافاتهم الدينية والعنصرية، لإحلال السلام في العالم محل الخلاف)[(٢)]. وهي بهذا التعريف أوسع مدلولاً، وأشمل أثراً من «تقريب الأديان» أو «وحدة الأديان»، بل تصبح وحدة الأديان إحدى مفردات «العالمية»، ويوضح ذلك قوله: (وللعالمية تطبيقات واسعة في كل نواحي الحياة وأنشطتها المختلفة، من سياسية ودينية واقتصادية وأدبية ولغوية. وكلها تحاول أن تصل إلى

= اغتراب حقيقي، أو سيقضى عليها نهائياً، لتصبح تاريخاً أيديولوجياً عفى عليه الزمن. إذ ستنبثق مفاهيم ومصطلحات ومضامين جديدة، تتخذ لها صوراً وأشكالاً مختلفة كونها ستعبر عن واقع سياسي أو أيديولوجي مختلف). العولمة الجديدة، والمجال الحيوي للشرق الأوسط. مفاهيم عصرٍ قادم. سيار الجميل. مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق. بيروت. الطبعة الأولى (١٩٩٧م).

(١) محمد محمد حسين (نحو ١٣٣٠هـ - ١٤٠٣هـ) كاتب إسلامي ملتزم، وناقد أدبي، ذو غيرة إيمانية. ولد بسوهاج بصعيد مصر، وولي التدريس بجامعة الإسكندرية، وجامعة بيروت العربية، وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض. تميزت كتاباته بالأصالة والمنهجية، وكشف عوار الدعوات العصرانية، من مؤلفاته: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، حصوننا مهددة من داخلها، الثقافة الغربية، أزمة العصر، الروحية الحديثة، وغيرها. انظر: ذيل الأعلام (١٩٩).

(٢) الإسلام والحضارة الغربية (١٧١).

النظام الواحد، الذي يجمع الناس في كل ميدان من هذه الميادين المختلفة على مذهبٍ واحد، أو بعبارة أخرى تحاول أن تكتشف الأصول الإنسانية المشتركة ـ حسب زعمهم ـ وراء مظاهر التعدد المتباينة في هذه الأنشطة البشرية لتصبح الأرض وطناً واحداً يدين بدينٍ واحد، ويتكلم لغةً واحدةً، يتذوق الفنون والآداب بذوقٍ واحدٍ مشترك)[١].

والواقع أن دعوة التقريب بين الأديان التي هبت رياحها بقوة من الغرب النصراني، قبل أكثر من ثلاثة عقود، إثر المجمع الفاتيكاني الثاني (١٩٦٢ ـ ١٩٦٥م)، لا تحمل مدلولاً اصطلاحياً محدداً، فضلاً أن تكون ذات حقيقة شرعية. فلفظ «التقريب» أو «التقارب» **Rapprochement**، يدل على مسألة نسبية هي «القرب» تتفاوت في حقيقتها وتطبيقاتها لدى مختلف الأطراف، بل وفي نظرة كل طرفٍ على حدة، في فترة زمنية معينة، كما سيتضح لاحقاً، فقد تقتصر على حدٍ أدنى من المجاملات الشكلية، وقد توغل في الاقتراب إلى درجة الاندماج والوحدة وسقوط الفوارق، وبين هذا وذاك مراتب عديدة.

ومن بين أكثر من ثلاثمائة مؤتمر من مؤتمرات التقريب بين الأديان، والعديد من المناسبات والاحتفالات المشتركة، جرت في العصر الحديث، وتم حصرها وتوصيفها في الباب الثاني، بالإضافة إلى الكتابات الصادرة من دعاة التقريب ومنظريه، يمكن أن نميز ثلاثة اتجاهات:

أولاً: التقريب بين الأديان: ويمثل معظم المحاولات العالمية والإقليمية والمحلية لإيجاد تواصل، وبناء علاقات بين مختلف الأديان والملل. ويقوم على الخصائص الفكرية التالية:

---

(١) المرجع السابق (١٨٠).

١ ـ اعتقاد «إيمان» الطرف الآخر، وإن لم يبلغ الإيمان التام الذي يعتقده هو.

٢ ـ نبذ «التلفيقية» أو «التوفيقية» بجمع عناصر من مختلف الأديان أو محاولة حمل بعضها على بعض للوصول إلى وضعٍ موحَّد.

٣ ـ الاعتراف بالآخر، واحترام عقائده وشعائره، ورفع الأحكام المسبقة.

أما من الناحية المنهجية، فيعتمد الأساليب التالية:

١ ـ الدعوة إلى التعرف على الآخر كما يريد أن يُعرف.

٢ ـ تجنب البحث في المسائل العقدية الشائكة.

٣ ـ نسيان الماضي التاريخي، والاعتذار عن أخطائه، ومحاولة التخلص من آثاره.

٤ ـ إبراز أوجه التشابه والاتفاق، وإقصاء أوجه الاختلاف والافتراق.

٥ ـ التعاون على تحقيق القيم المشتركة.

٦ ـ تبادل التهاني والزيارات والمجاملات في المناسبات الدينية المختلفة.

وقد تبلور هذا التوجه في العصر الحديث في مقررات المجمع الفاتيكاني الثاني، وتجاوب معه ذوو الاتجاه العصراني من المسلمين وغيرهم. ومن ثم فقد حملت عناوين المؤتمرات المعقودة للتقريب بين الأديان في العقود الأربعة الأخيرة شعارات تعبر عن هذه الطبيعة العلائقية الجديدة، نرتبها حسب كثرة ورودها في مسرد المؤتمرات:

(الحوار = ٣٢ مرة)، (السلام = ١٨مرة)، (التعايش = ١٦مرة)، (التعاون = ١٤مرة)، (التفاهم = ٧ مرات)، (الانسجام = ٥ مرات)، (التعددية = ٥ مرات)، (الاشتراك ـ ومشتقاته = ٤ مرات)، (التسامح = ٣ مرات)،

(الانفتاح)، (التباحث)، (التعارف)، (الصداقة) = مرتين لكلٍ منها.

وهي معانٍ تصب في التيار العام للتقارب بدرجاتٍ متفاوتة، وجميعها تذكر مضافة إلى «الدين» أو «الإيمان»، أو إلى دينين معاً - غالباً: الإسلام والنصرانية - أو إلى ثلاثة: الإسلام، والنصرانية، واليهودية، أو إلى الأديان الخمسة الكبرى - على حد تعبيرهم - مضيفين البوذية والهندوسية.

وهذا المستوى من العلاقة هو السائد في العقود الأخيرة في المؤتمرات والندوات المعنية، وينخرط في فعالياته العديد من المفكرين ورجال الدين من سائر الملل، وبعض المنسوبين إلى العلم والدعوة من المسلمين.

ومن شواهد هذا الاتجاه ما جاء في البيان المجمعي: «علاقة الكنيسة بالأديان غير المسيحية» الصادر عن المجمع الفاتيكاني الثاني في ٢٨ أكتوبر ١٩٦٥م، وفيه: (والكنيسة الكاثوليكية لا تنبذ شيئاً مما هو في هذه الديانات حق ومقدس. وتولي تقديرها باحترامٍ صادق هذه الطرق المسلوكة في العمل والحياة، وهذه القواعد والتعاليم، التي وإن اختلفت في أمور كثيرة عما تقول به هي وتعلّمه، تحمل، غير مرة، قبساً من شعاع الحقيقة الي تنير جميع الناس... ولئن كان قد وقع، في غضون الزمن، كثير من المنازعات والعداوات بين المسيحيين والمسلمين، فإن المجمع يحرضهم جميعاً على نسيان الماضي، والعمل باجتهاد صادق في سبيل التفاهم في ما بينهم، وأن يحموا ويعززوا كلهم معاً، من أجل جميع الناس، العدالة الاجتماعية، والقيم الروحية، والسلام والحرية)[1].

---

(١) المجمع الفاتيكاني الثاني. دساتير. قرارات. بيانات (٦٢٨ - ٦٢٩)، وسيأتي مزيد تفصيل لموقف الكنيسة الكاثوليكية من دعوة التقريب.

* يقول محمد مهدي شمس الدين[(١)] واصفاً مشروعه للحوار الإسلامي المسيحي، بعد أن استبعد جميع أشكال الحوار التاريخية!: (يقوم بصورة أساسية على أن يبحث قادة الفكر والروح في كلا الدينين عن المساحات المشتركة بينهما في قضايا الإنسان والمجتمع والحضارة، فإذا اكتشفت هذه المساحات المشتركة، يتوجه الدينان معاً نحو العالم في عملية فتح روحي للحضارة الحديثة، وإنسانها ـ ثم يجمل «المساحات المشتركة» في ثمان نقاط: ـ الإيمان بالله، الإيمان باليوم الآخر، الإيمان ببعثة الأنبياء ـ إجمالاً ـ الإيمان بالبعد الروحي للإنسان، الإيمان بحاجة الإنسان للعبادة، الإيمان بكرامة الإنسان، الإيمان بالأخلاق، الإيمان بالأسرة. مع التأكيد البالغ على الابتعاد عن دائرة «حوار اللاهوت وعلم الكلام» أي «الحوار العقدي»[(٢)].

* ويقول د. يوسف القرضاوي: (نحن معاً نؤمن بالله، ولو إيماناً إجمالياً، نؤمن بالآخرة والجزاء الأخروي، نؤمن بعبادة الله، وبالقيم الأخلاقية، وبثبات هذه القيم، نؤمن بوحدة الإنسانية، وبأن الإنسان مخلوقٌ مكرم، نؤمن.. نأتي بأشياء يمكن أن تجمع بين المختلفين.

---

(١) محمد مهدي شمس الدين: ولد في النجف سنة (١٣٥٤هـ = ١٩٣٦م) توفي سنة (١٤٢١هـ = ٢٠٠١م)، وتتلمذ على كبار علماء الشيعة في زمانه مثل: محسن الحكيم، وأبو القاسم الخوئي، شارك في النشاطات السياسية والعلمية والاجتماعية للحركة الشيعية في العراق، هاجر إلى لبنان عام (١٩٦٩م) وانضم إلى موسى الصدر مؤسس المجلس الشيعي الأعلى في لبنان، ثم خلفه في رئاسة المجلس بعد اختفائه عام ١٩٧٨م، أسس العديد من المعاهد الدينية والمؤسسات الاجتماعية للطائفة الشيعية في لبنان. من مؤلفاته: «نظام الحكم والإدارة في الإسلام»، «دراسات في نهج البلاغة»، «ثورة الحسين»، «أنصار الحسين»، «عقائد الشيعة». ويبلغ المطبوع منها أكثر من عشرين مؤلفاً، انظر: الشيخ محمد مهدي شمس الدين بين وهج الإسلام وجليد المذاهب. فرج موسى (٢٩ ـ ٦٢).

(٢) انظر المرجع السابق (١٨ ـ ١٩).

فإذا وضعنا هذه الأشياء المتفق عليها، يمكن أن تُقرِّب بين المختلفين بعضهم بعضاً. من جهتنا نحن المسلمين مستعدون للتقارب. المهم أيضاً أن يكون عند الآخرين مثل هذه الروح.. فيعاملونا بمثل ما نعاملهم به، ويقتربون منا بقدر ما نقترب منهم»[(١)].

ولسنا في هذا المقام بصدد مناقشة مفردات هذه المقولات الصادرة عن الإسلاميين حيث أفرد لذلك مبحث مستقل، وإنما لرسم معالم هذا الاتجاه تمييزاً له عن غيره.

ثانياً: وحدة الأديان: وهو الاعتقاد بصحة جميع المعتقدات الدينية، وصواب جميع العبادات، وأنها طرق إلى غاية واحدة. وهذا الاتجاه، بطبيعة الحال يستصحب الخصائص الفكرية والمنهجية العامة للاتجاه السابق، ويزيد عليها بالدعوة إلى التخفف من السمات العقدية والتشريعية الخاصة بكل ديانة، بحسبانها ظواهر وتقاليد تاريخية محلية لشعبٍ معين، في حقبة تاريخية معينة، والانضواء تحت مفاهيم عامة، وجملٍ فضفاضة.

ويمثل هذا الاتجاه في التاريخ زنادقة الصوفية من أرباب وحدة الوجود، كابن عربي الطائي[(٢)] القائل:

---

(١) الإسلام والغرب مع د. يوسف القرضاوي: حسن علي دَبَا. دار البشير للثقافة والعلوم. طنطا ـ مصر. الطبعة الأولى (١٤١٧هـ = ١٩٩٧م). (١٦).

(٢) محمد بن علي بن محمد بن عربي، أبو بكر، الحاتمي الطائي الأندلسي، الملقب بالشيخ الأكبر عند الصوفية. ولد في مرسية في الأندلس سنة ٥٦٠هـ. طاف في البلاد الإسلامية واستقر في دمشق وتوفي فيها سنة ٦٣٨هـ قال عنه الذهبي: «قدوة القائلين بوحدة الوجود». له نحو أربعمائة كتاب ورسالة من أشهرها: الفتوحات المكية، وفصوص الحكم. كفّره بسبب مقالاته وشطحاته كثير من العلماء. انظر: الأعلام (٦/ ٢٨١). وتنبيه النبي للبقاعي، وجزء في عقيدته وحياته للفاسي.

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
فقد صار قلبي قابلاً كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني[(١)]

والفرق الباطنية مثل: إخوان الصفا وخلان الوفا[(٢)].

كما يمثله في العصر الحاضر متصوفة العصر السائرون على خطى ابن عربي وأمثاله، حيث يقول أحدهم: (جوهر أديان السماء كلها، وما جاءت به من شرائع إبراهيم وموسى والمسيح ومحمد وبوذا، وغيرهم من الأنبياء والحكماء ما هو إلا نقل الإنسان وتطويره من السيء إلى الحسن، ثم إلى الأحسن، ومن الجهل إلى العلم، ومن الشقاء إلى السعادة، ومن الظلم إلى العدالة والتراحم والمحبة)[(٣)]. أما الاختلاف بين الإسلام وسائر الأديان فـ (مثله مثل الزهور المتنوعة الألوان، التي إذا اجتمعت في باقة متناسقة بهرت العيون، وهزت الشعور)[(٤)].

كما نحا هذا المنحىٰ بعض شعراء المهجر من النصارىٰ العرب.

يقول جبران خليل جبران[(٥)]: (تقول فكرتكم: الموسوية،

---

(١) ذخائر الأعلاق شرح ترجمان الأشواق (٣٩).

(٢) انظر فصل: (الأصول التاريخية لدعوة التقريب) من هذا الباب (٣٩١).

(٣) الدعاة والدعوة الإسلامية المعاصرة المنطلقة من مساجد دمشق: إعداد: د.محمود حسن الحمصي. دار الرشيد. دمشق - بيروت، مؤسسة الإيمان - بيروت. الطبعة الأولى (١٤١١هـ = ١٩٩١م). (٢/ ٧٢٨، ١٠٥٩).

(٤) الدعاة والدعوة الإسلامية المعاصرة المنطلقة من مساجد دمشق. (٢/ ٦٧١).

(٥) جبران بن خليل بن ميخائيل، الماروني، اللبناني. ولد في قرية «بشرِّي» سنة ١٣٠٠هـ ١٨٨٣م، تعلم في بيروت، ورحل إلى باريس ثم الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٨٩٥م، وتوفي فيها سنة (١٣٤٩هـ = ١٩٣١م). يعد نابغة الكتاب المعاصرين في المهجر الأمريكي. من آثاره: دمعة وابتسامة، عرائس المروج، الأرواح المتمردة. انظر: الأعلام (٢/ ١١٠).

البرهمية، البوذية، المسيحية، الإسلام. أما فكرتي فتقول: ليس هناك سوىٰ دين واحد، مجرد، مطلق، تعددت مظاهره، وظل مجرداً مطلقاً، وتشعبت سبله. ولكن مثلما تتفرع الأصابع من الكف الواحد)[١].

وفي هذا السياق التأم عددٌ من عشاق التصوف في مؤتمرات متتابعة في عقدي السبعينيات والثمانينيات، تحت مسميات «الإيمان» و«الروحانيات» ونحوها، كان من أبرزها «فرقة الأبحاث الإسلامية المسيحية GRIC» المنطلقة من دير «سنينكا» في فرنسا[٢]، بالإضافة إلى المؤتمرات المنعقدة في تخليد ذكرى بعض «أولياء الصوفية»، و«قديسي النصرانية».

ومن أبرز منظِّري هذا الاتجاه «وحدة الأديان» في العقود الثلاثة الأخيرة، المفكر الفرنسي «روجيه جارودي»، ولكن من منطلقٍ «إنساني» بالدرجة الأولى، قبل وبعد إعلان إسلامه عام ١٩٨٢م، ثم باستدلالٍ «صوفي» بدرجة ثانية، بعد ذلك. وهو يطرح نوعين من الوحدة:

• **أحدهما:** وحدة صغرى، وهي «الإبراهيمية»، ويهدف من ورائها إلى توحيد الأديان التي تعلن انتماءها إلى أبي الأنبياء «إبراهيم» ﷺ، أي: الإسلام والنصرانية واليهودية، فيقول في الملتقى الإبراهيمي الذي دعا إليه في قرطبة عام ١٩٨٧م: (إن رسالة القرآن عالمية، وتحويل هذه الرسالة إلى التقاليد الخاصة بحقبة من الزمن أو بشعب ما، يعتبر دفاعاً عن فلكلور، وليس عن عقيدة... استرجاع رسالة إبراهيم التي هي موحِّدة، وذلك للإجابة والرد على التحديات في عصرنا هذا بعيداً عن تناقضاتنا)[٣]. وقال في كتابه «الإسلام» الصادر عام ١٩٩٦م: (إنهم

---

(١) قصة الأدب المهجري. محمد خفاجي (١٦٦).
(٢) سيأتي التعريف بها في الفصل الثاني من الباب الثاني (١٢٤٧).
(٣) النص المترجم للمحاضرة لدى الباحث.

كثيرون أولئك الذين يتطلعون في العالم المسيحي، كما في العالم المسلم إلى توحيد قواهم، ليبنوا معاً القرن الحادي والعشرين بوجهٍ إنساني، أي بوجهٍ إلهي، باسم إيمانٍ وحيد، بصورة أساسية عبر تنوع العبادات والطقوس)[١].

• **الثاني**: وحدة كبرى: تشمل جميع الأديان والملل الوثنية، بل والملحدين! بجامع أن تلكم الوثنيات آثار نبواتٍ سابقة، وأن الملحدين يؤمنون بـ «الإنسان» وأن للحياة «معنى». فيقول: (إن الفكرة الأولى لعلاقات المسلمين مع بقية الطوائف الدينية في فكر ورأي النبي ﷺ، كانت إقامة ما نسميه اليوم: «وحدة فيدرالية» للطوائف الدينية... أي على الإيمان بمعناه الأرحب والأوسع، وحتى مع الملحدين ممكن أن يكون لديهم إيمان بالإنسان. وبإمكانهم إقامة طائفة دينية بالمعنى الذي قلناه فيما سبق، لتعميق هذه الاحترام الأساسي للإنسان)[٢]. ويقول: (إن مهمتنا هي أن نجمع جميع الناس ذوي الإيمان ـ أياً كان إيمانهم ـ ضد العالم الحالي، عالم اللامعنى، وأن نخلق نويات لمقاومة اللامعنى، شاجبين ومقاتلين كل ما هو مناقض لوحدة العالم

---

(١) الإسلام: روجيه جارودي. ترجمة: وجيه أسعد. دار عطية للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت. الطبعة الأولى عام ١٩٩٦م. (٤٢).

(٢) من مقابلة مع مجلة الموقف عام ١٩٨٤م. «مجلة الموقف» شهرية ـ ثقافية ـ عربية. تصدر عن: المركز الوطني للدراسات والطباعة والنشر والتوزيع. لبنان ـ بيروت. عدد (٧٥) أبريل ١٩٩١م، رمضان ١٤١١هـ، عن كتاب: روجيه جارودي، من الإلحاد إلى الإيمان: لقاءات ومحاضرات. إعداد: رامي كلّاوي. دار قتيبة. بيروت ـ دمشق. الطبعة الثانية عام (١٤١٥هـ = ١٩٩٤م). (١٨١ ـ ١٨٢).

ومعنى (فيدرالية) (Federalism): اتحاد بين وحدات سياسية تتنازل عن سيادتها الفردية لسلطة مركزية، ولكنها تحتفظ بسلطات حكومية محدودة. انظر: المورد (٣٤١).

السمفونية)[١]. ويقول: (وليكن كلٌّ منا ما يكون مسلماً أو مسيحياً، فإن ذلك لا يفصله عمن لا يشاركه دينه... وسنلتقي جنباً إلى جنب مع كل أعضاء البشرية التي تحطم قيود الجزئي، قيود الفردية والقومية التي تفت العالم)[٢]. وهذا غيضٌ من فيض من مقولاته.

• **ثالثاً: توحيد الأديان**: ويقصد به المحاولات الساعية، قديماً وحديثاً، إلى دمج جملةٍ من الأديان والملل في دينٍ واحد مستمد منها جميعاً، بحيث ينخلع أتباع تلك الأديان منها، وينخرطون في الدين الملفق الجديد.

وفرق ما بينه والاتجاه السابق، أن المناداة بـ«وحدة الأديان» تعني تصويب أوضاعٍ قائمة ضمن أطرها الخاصة التي تميزها، بشرط عدم نفي أو استبعادَ الآخرين، وربط تلك الوحدات المفردة بإطار عام يسوغ توجهاتها جميعاً. في حين أن «توحيد الأديان» تفعيلٌ يقتضي إنهاء وحل تلك الأوضاع السابقة ونسخها بوضعٍ جديد، وإن كانت عناصره مأخوذةٌ من حطام السابق.

ويميز الباحثون في تاريخ الملل بين لونين من ألوان الدمج والتوحيد؛ فيقول د. محمد هلال: (يطلق باحثو الأديان اسم «الالتقاطية» «الألكتزم» على عملية دمج عناصر مختلفة دون محاولة إيجاد تنسيق منهجي... بينما يسمون عملية الدمج هذه، مع محاولة إيجاد تنسيق منهجي يربط العناصر الملتقطة المختلفة، بالتلفيقية

---

(١) نحو حرب دينية، جدل العصر: روجيه جارودي. تقديم: ليوناردو بوف. ترجمة: صيّاح الجهيّم. دار عطية للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت. الطبعة الأولى ١٩٩٦م. (٧٣). وكلمة (سيمفونية) (Symphonic) تعني: متناغم، متآلف الأصوات. انظر: المورد ٩٣٩.

(٢) جولتي وحيداً في القرن (٤٣٧). وقد أفرد لجارودي مبحث مستقل في الباب الثاني (٧٢٧ ـ ٨١٥).

«السنكرتزم»(١). وهذا يتضح جلياً في نشأة وتكون الأديان الوثنية الشركية التي تتلاقح فيما بينها، وتستعير من بعضها بعضاً أسماء المعبودات والطقوس والمعتقدات الدينية(٢). بل قد دب ذلك إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فجرى في جسم الديانتين إدماج بعض الفلسفات الوثنية والعقائد الشركية، كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠](٣).

ونستطيع أن نميز هذين اللونين في المحاولات الحديثة لتوحيد الأديان:

١ ـ الالتقاطية: تظهر بشكل جلي بالديانة «المونية» Moonism التي اخترعها في أواخر الخمسينيات الميلادية الكوري الشمالي: «صن مون»، واستمد مكوناتها العقدية من النصرانية أساساً، وخليطٍ عجيب من اليهودية والإسلام والبوذية، بل والنظريات العلمية الحديثة، وادعى النبوة، وسعى بثروته الهائلة إلى توحيد الأديان تحت رسالته، كما جاء في القانون الأساسي للحركة المونية، المنقح عام ١٩٨٤م: (إن الهدف الرئيسي هو العمل من أجل توحيد العالم تحت راية إلهٍ واحدٍ، بحيث تضمحل من هذا العالم كل الحواجز والعوائق الكنسية والسياسية و الوطنية والقومية والاجتماعية)(٤).

ويتبع «مون» قرابة ثلاثة ملايين نسمة في العالم، يعتقدون صحة تعاليمه(٥).

---

(١) مفاهيم معاصرة في ضوء الإسلام: د.محمد هلال. دار البشير ـ عمان ـ الأردن. الطبعة الأولى (١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م). (٦٨).
(٢) انظر في كتاب: «الله» لعباس محمود العقاد.
(٣) راجع مبحث «أهل الكتاب» في التمهيد.
(٤) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة (٤٩٢).
(٥) انظر مبحث «المونية» في الفصل الأول من الباب الثاني.

ومن شواهد الالتقاطية في محاولة توحيد الأديان تاريخياً، البهائية[١].

٢ ـ التلفيقية: تأسيساً على أن السمة التي تميز التلفيقية عن الالتقاطية هي وجود تنسيق منهجي يربط العناصر الملتقطة، يمكن أن نحسب محاولات الأب الأسباني إيميليو غاليندو آغيلار ومجموعته التي تطلق على نفسها «كريسلام» «Crislam»، لوناً من ألوان التلفيقية البطيئة، التي تسعى إلى الوصول إلى صيغة عقدية موحدة، تتجاوز حدود «الإبراهيمية» التي جاء بها جارودي وغيره لتشمل سائر الوثنيات، ولكن ليس تحت شعار غير ديني كما صنع جارودي أيضاً باسم «الإنسانية» أو «المعنى»، وإنما النفاذ إلى «البؤر الدينية» لكل دين أو نحلة، التي ستكون واحدة، في حسبان غاليندو، وهي ألوهية المسيح، تعالى الله عما يقولون علواً عظيماً، كما يشير إليه النص التالي: (إن خطورة كل حوار بين الأديان... هو أن لا يتحول إلى حوار ديني داخلي. وعلى الدوام يجري الحوار انطلاقاً من الأديان باعتبارها شيئاً نسبياً. فحوار ديني يرمي أن يكون مناسباً يتخطى الحدود الضيقة للإسلام والمسيحية... ويستلزم هذا بالضرورة أن ينتقل كل دينٍ من مظهره المؤسساتي إلى طابعه السري الأكثر عمقاً، للاتصال بهذا الجذر العالمي، مع هذه البؤرة الديناميكية... إنه بقدر قليلٍ من وضوح الرؤية يمكن أن نفهم أن هذا هو الطريق الوحيد البشري الذي يوجد أمامنا كي نقترب أكثر فأكثر بمرور الوقت من «المطلق»)[٢]. ثم يؤكد لاحقاً: (إن كل حوار ديني لا ينطلق من تجربة الإله، إنما يكون كلمة مشركة)[٣].

---

(١) انظر الكلام عن البهائية في فصل «الأصول التاريخية لدعوة التقريب».

(٢) من تقدمته لأعمال المؤتمر الدولي الأول بالمراسلة (العقيدة للأمام) تنظيم كريسلام (١٢ ـ ١٣).

(٣) العقيدة للأمام (١٧٥).

وفي نهاية المطاف يفصح عن العلاقة المتطابقة بين «تجربة الإله» و«المطلق» فيقول: (إن أولئك الذين دخلوا في تجربة ابن عربي نحو عيسى يعرفون بنورٍ واضح كالنيران، أن المطلق الوحيد هو الرب)(١).

وهذا الاتجاه يستدعي بوعي وإدراك، خلافاً لسائر الاتجاهات السابقة، المشكلات العقدية الجذرية، ويناقشها، ليقينه التام أنه لا يمكن تخطيها في سعيه نحو توحيد الأديان، ثم يقوم بتنسيقها ضمن منظومته العقدية الخاصة في علاقة الله بالإنسان(٢).

تلك خطوطٌ عامة للاتجاهات الرامية إلى التقريب بين الأديان، وفي الفصول التالية تفصيل لحقيقة التقريب لدى مختلف الفرقاء، ودرس للمحاولات الفردية والجماعية المبذولة في هذا السبيل.

ولا يعزب عن البال أن هذه المستويات الثلاثة: «التقريب»، و«الوحدة»، و«التوحيد»، لا يفصلها حدودٌ حاسمة في مجال التطبيق العملي الميداني، حيث تتمازج تياراتها، وتصب مفرداتها الفكرية بنسبٍ متفاوتة في مجرى «سبيل المجرمين» الذي يشطح بعيداً عن «سبيل المؤمنين»، ويرغب عن «ملة إبراهيم».

وقد آثرت في عنوان هذا البحث تغليب لفظ «التقريب»، لأنه الأعم من حيث الدلالة، والأقدم من حيث الاستعمال، كما أنه الاتجاه السائد من حيث التطبيق.

---

(١) من تقدمته لأعمال المؤتمر الدولي الثالث بالمراسلة (من أنا في قولكم أنتم) تنظيم كريسلام (١٣).

(٢) انظر الكلام عن محاولات غاليندو في الفصل الأول من الباب الثاني (٩٣٩).

الحوار بين الأديان:

شاع في العقود الأخيرة استعمال مصطلح «الحوار» DIALOGUE على كافة الأصعدة السياسية والاقتصادية والثقافية، وطال ذلك دعوة التقريب بين الأديان، فطغى هذا التعبير على ما عداه، وصارت تعرف بـ (حوار الأديان) أو (الحوار بين الأديان) Inter Faith أو Interreligiouse Dialogue، وصار محبذاً لدى المشتغلين في هذا الحقل، مقدماً على غيره من الاصطلاحات، مما يستدعي إلقاء الضوء على دلالته:

فـ «الحوار» من حيث اللغة، مادته «حور» و(الحوْر: الرجوع عن الشيء إلى شيء... والمُحاورة: المجاوبة. والتحاور: التجاوب... والمُحاورة: مراجعة المنطق، والكلام في المخاطبة)(١). وعلى هذا جاء استعماله في القرآن، قال الراغب في «مفردات القرآن»: (والمُحاورة، والحوَار: المرادّة في الكلام. ومنه التحاور. قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ﴾)(٢).

فحقيقته اللغوية مطابقة لحقيقته الاصطلاحية التي تعني التباحث بين طرفين أو أكثر، ومراجعة الكلام بينهم بغرض التوصل إلى اتفاق، وإبداء وجهة نظر. يقول د. عبد العزيز التويجري(٣): (مفهوم الحوار في الفكر السياسي والثقافي المعاصر، من المفاهيم الجديدة، حديثة العهد بالتداول؛ ولعل مما يدل على جدة هذا المفهوم وحداثته أن

---

(١) لسان العرب: ابن منظور، جمال الدين، أبو الفضل، محمد بن مكرم الأنصاري، تحقيق: أمين محمد عبد الوهاب، محمد الصادق العبيدي. دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي ـ بيروت. الطبعة الأولى (١٤١٦هـ = ١٩٩٦م). (٣/ ٣٨٣ ـ ٣٨٤).

(٢) مفردات القرآن (١٣٥)، ومنه قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥ﴾، ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥ﴾ [الكهف: ٣٤، ٣٧].

(٣) المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو).

جميع المواثيق والعهود الدولية التي صدرت في الخمسين سنة الأخيرة، بعد إنشاء منظمة الأمم المتحدة، تخلو من الإشارة إلى لفظ «الحوار»... فليس الحوار من ألفاظ القانون الدولي... وعلى هذا الأساس، فإن الحوار مفهوم سياسي إيدلوجي ثقافي حضاري، وليس مفهوماً قانونياً)[١].

ولعل من أسباب شيوع هذا الشعار في دعوة التقريب بين الأديان، كونه لا يفصح ـ بحد ذاته ـ عن هدفٍ مبيّت، أو يوحي بتوجهٍ معين، يمكن أن يعد ملزماً أو محرجاً للمنادين به من الطرفين. فالحوار لافتة تخفي وراءها أشكالاً متنوعة من المضامين، ووعاءٌ يمكن أن يحوي مواد متباينة. فقد يكون حواراً يقصد به التقريب وفق الأسس الفكرية والمنهجية التي سبق بيانها، وربما كان غطاءً لوحدة الأديان كما في «الحوار الإبراهيمي»، وقد يتذرع به دعاة توحيد الأديان للتسلل إلى مقاصدهم الخفية كما تصنع المونية، ومجموعة كريسلام.

وفي نفس الوقت، يستعمل مصطلح الحوار خارج نطاق دعوة التقريب بين الأديان، فيما يعرف بقضايا «التعايش»، وحينئذٍ فالأمر لا يتعلق بالدين من حيث هو دين، عقيدة وشريعة، ولكن بالعلاقة المعيشية البحتة بين معتنقي الأديان. وهو بهذا الاعتبار يهدف إلى تحسين مستوى العلاقة بين شعوبٍ أو طوائف، وربما تكون أقليات دينية، ويعنى بالقضايا المجتمعية كالإنماء، والاقتصاد، والسلام، وأوضاع المهجَّرين واللاجئين، ونحو ذلك. ومن أمثلة هذا اللون من الحوار: (الحوار العربي الأوربي)، و(حوار الشمال والجنوب).

---

(١) الحوار والتفاعل الحضاري من منظور إسلامي: د. عبد العزيز بن عثمان التويجري. المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ـ إيسيسكو ـ الطبعة الأولى (١٤١٧هـ = ١٩٩٧م). (٧).

وهذا الحوار بحد ذاته ـ بصرف النظر عما يصاحبه من تأطيرات قد تلتحق بالأنواع السابقة ـ تفرضه طبيعة الحياة البشرية، وحاجاتها الفطرية المختلفة، ومن ثم فلا غبار على الدخول في مفاوضاتٍ أو مداولات من هذا القبيل، حسب ما تقتضيه السياسة الشرعية لمصلحة الأمة الإسلامية. وقد رافق هذا اللون من حوار التعايش نشأة الأمة الإسلامية منذ عهد النبوة، كما جرى في المعاهدات النبوية مع يهود المدينة وغيرهم، وزخر الفقه الإسلامي المؤسس على الكتاب والسنة بتراثٍ ضخم في مجال العلاقات بين المسلمين وغير المسلمين.

وعليه فلا بد من التبين والاستفصال لدعوات الحوار المجملة، ومعرفة أهدافها ومادتها قبل الخوض في غمارها، وألا يجر المسلمون إلى مواقف لم يحسبوا لها حساباً، ولم يرسموا لها خطة. والجانب المقابل يدرك هذا جيداً. يقول الكاتب الروسي المعاصر إليكسي جورافسكي في كتابه: (الإسلام والمسيحية: من التنافس والتصادم إلى آفاق الحوار والتفاهم): (في كتابنا هذا حيث تناقش إشكالية الحوار الإسلامي ـ المسيحي لا بد قبل كل شيء من تحديد وضبط مفهوم الحوار ذاته. ففي المعنى العريض للكلمة يمكن فهم الحوار الإسلامي المسيحي كتاريخ للعلاقات المتبادلة بين المسلمين والمسيحيين على مدى أربعة عشر قرناً... ولكن في الوقت الحالي يتشكل مفهوم آخر للحوار ـ كمحطة تاريخية واعية، كوضع شديد الأهمية والحساسية، يتطلب دراسة مفاهيمية ـ نظرية متكاملة، ومعالجة مؤسساتية، عملية مثمرة وفاعلة. إن تاريخ الحوار المذكور لا يمتد لأكثر من بضعة عقودٍ من الزمن. وتقويم هذه الظاهرة الجديدة من زاويةٍ واحدة أمرٌ غير ممكن. وبغية تقدير مضمونه الفكري، فإنه لا بد أولاً من تحديد سياسي واجتماعي ـ ثقافي للبلد أو للإقليم، الذي يجري فيه الحوار. حيث إن الاتجاهات الخاصة بالحوار يمكن أن تكون ذات أهدافٍ متشعبة، ووفق

مستويات مختلفةٍ أيضاً تصعب الإحاطة بكل أطرافها وتفرعاتها وميادينها المعقدة ومتعددة الجوانب، التي تنضوي تحت عنوان «الحوار الإسلامي ـ المسيحي». ولكن من الضروري في الوقت ذاته إيجاد مرتكزات منهجية سليمة، من شأنها أن تمنحنا زاوية ملائمة، تسمح برؤية الجوانب المتنوعة في وحدة مشكلية واضحة المعالم إلى حدٍ معقول)[1].

ونحن بدورنا إذ نستشرف البحث في موضوعٍ يعد «نازلة» جديدة بالمسلمين ـ بصورته المعاصرة ـ ويحتل رقعة جغرافية تسع العالم بأكمله، كما يستشف من مسرد المؤتمرات المعقودة، ومواقعها، ويتناول موضوعاتٍ على درجةٍ فائقة من الخطورة والحساسية والآثار المتعدية، لا بد لنا من منهجية صارمة في استقراء معالم هذه الظاهرة المعاصرة ومراميها المعلنة والخفية، وتتبع أصولها التاريخية ومفهومها المعاصر لدى مختلف الفرقاء.



(١) الإسلام والمسيحية، من التنافس والتصادم إلى آفاق الحوار والتفاهم: أليكسي جوارفسكي. ترجمة: د. خلف محمد الجراد. مراجعة: أ.د: محمود حمدي زقزوق، عالم المعرفة. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت طبعة (١٤١٧هـ = ١٩٩٦م). (٢١ ـ ٢٢).

الفصل الثاني
الأصول التاريخية لدعوة التقريب بين الأديان

مرت دعوة التقريب بين الأديان بمراحل متعددة قبل أن تصل إلى الصيغة السائدة النشطة في النصف الثاني من القرن العشرين. ذلك أن المسافة بعيدة جداً بين الرفض المطلق والقبول النسبي، أو النبذ الكلي والاعتراف الجزئي، وتحتاج إلى سلسلة طويلة من الممهدات الفكرية لإحداث تغييرات جذرية لدى الملل التي لا تحتكم إلى معايير ثابتة، وعقائد راسخة في مبادئها وتقويمها للآخرين، وهذا ما حدث بالفعل من جانب أهل الكتاب، والنصارى خاصة، ومن بعض الشذاذ المنتسبين إلى الإسلام على مدار التاريخ.

وقد بدأت محاولات تقريب الإسلام إلى الملل والأديان الأخرى منذ وقتٍ مبكر، في العهد النبوي المكي، من قبل المشركين كما حكى الله عنهم: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾ [القلم]، وحين عرضوا على نبينا محمدٍ ﷺ أن يعبد آلهتهم سنة ويعبدوا إلهه سنة، فأنزل الله آياتٍ حاسمة حازمة تقطع طمع كل طامعٍ مراوغ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾[1] [الكافرون].

---

(١) روى الطبري، وابن أبي حاتم ـ رحمهم الله ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن قريشاً وعدوا رسول الله ﷺ أن يعطوه مالاً، فيكون أغنى رجلٍ بمكة، ويزوجوه ما أراد من النساء، ويطئوا عقبه، فقالوا: هذا لك عندنا يا محمد، وكُفَّ عن شتم آلهتنا، فلا تذكرها بسوء فإن لم تفعل فإنا نعرض عليك خصلةً واحدة، فهي لك، ولنا فيها صلاح. قال: ما هي؟ قالوا تعبد آلهتنا سنة، اللات=

وتكررت المحاولة في العهد النبوي من قبل أهل الكتاب لزحزحة المسلمين عن دينهم وإعادتهم إلى الشرك، أو الدخول في اليهودية أو النصرانية. قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن

= والعزى، ونعبد إلهك سنة. قال: حتى أنظر ما يأتي من عند ربي. فجاء الوحي من اللوح المحفوظ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون]، وأنزل الله: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ۝٦٤ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝٦٥ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ۝٦٦ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٧﴾ [الزمر]. جامع البيان (٣٠/ ٣٣١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (وقوله في الحديث: «حتى أنظر ما يأتيني من ربي» قد يقول هذا من يقصد به دفع الظالمين بالتي هي أحسن، ليجعل حجته أن الذي أنزل عليه طاعته قد منع من ذلك. فيؤخر الجواب حتى يستأمره. وإن كان هو يعلم أن هذا القول الذي قالوه لا سبيل إليه... فليس في مثل هذا الجواب تردد ولا تجويز منه أن الله يبيح له ذلك) مجموع الفتاوى (١٦/ ٥٤٤).

وفي رواية الطبري وابن أبي حاتم أبو خلف، عبد الله بن عيسى، قال الحافظ ابن حجر: «ضعيف» التقريب (١/ ٤٣٩). وقد روى الطبري عن سعيد بن مينا أن رهطاً من قريش قالوا: يا محمد، هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، ونشركك في أمرنا كله، فإن كان الذي جئت به خيراً مما بأيدينا، كنا قد شركناك فيه، وأخذنا بحظنا منه. وإن كان الذي بأيدينا خير مما في يدك، كنت قد شركتنا في أمرنا، وأخذت منه بحظك. فأنزل الله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون] حتى انقضت السورة. جامع البيان: (٣٠/ ٣٣١). ونسبها القرطبي إلى ابن عباس (٢٠/ ٢٢٥)، وانظر: أسباب النزول للواحدي (٥٠٥)، ولباب النقول للسيوطي (٢٣٧) من رواية عبد الرزاق عن وهب قال: قالت كفار قريش للنبي ﷺ: إن سرك أن تتبعنا عاماً، ونرجع إلى دينك عاماً. فأنزل الله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١﴾ [الكافرون] إلى آخر السورة.

بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وقال: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ [البقرة]. ومن ذلك ادعاؤهم الإبراهيمية، ومحاجتهم المسلمين في ذلك، فأدحض الله حجتهم، وأكذبهم بقوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [آل عمران].

فإذا تجاوزنا هذه المرحلة من العهد النبوي الذي تم فيها إرساء قواعد الإيمان وتقرير أحكام أهل الكتاب من الناحيتين العقدية والشرعية، والتحذير التام من الانسياق لإغراءاتهم المختلفة: ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩]، نجد أن تاريخ اليهودية والنصرانية والإسلام يضم بعض الشواهد التاريخية المتناثرة، أو بعض الممهدات الفكرية المتسلسلة لفكرة التقريب.

وهدف هذا الفصل تتبع تلك الشواهد، ورد الفروع الراهنة إلى الأصول الماضية في مسارب الزمن، وثنايا التاريخ.

كما أن التاريخ البشري العام، خارج حدود اليهودية والنصرانية والإسلام، يحتفظ بمحاولات للتقريب بين الأديان، لعل ممن أشهرها محاولة الملك المغولي الإمبراطور أكبر[1]، في الهند، الذي كان يجمع

(١) الإمبراطور أكبر: (١٥٤٢ ـ ١٦٠٥م)، سليل تيمورلنك، ابن همايون من زوجته الفارسية حميدة، ثبَّت إمبراطورية المغل المتداعية حين استلم الحكم ١٥٥٦. يعتبر أعظم الملوك المسلمين، وأباطرة المغل في الهند. ترك=

زعماء الأديان المختلفة من مسلمين ونصارى وهندوس، ويعقد بينهم المناظرات إبان فترة حكمه في النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي. «وقد شيد لهذا الغرض بناية فخمة في عاصمة مملكته «فاتحبور سِكري»، أطلق عليها اسم «خان العبادات»، وسعى لتحقيق المساواة بين الأديان، فألغى الجزية والامتيازات الأخرى، وحاول تأسيس دينٍ جديد ملفقٍ من سائر الأديان سماه «دين إلهي».

وقد أثار نهمه بالمناظرات التنافس بين أتباع الأديان المختلفة، حتى إن نصارى الهند بعثوا سفاراتٍ إلى روما وفرنسا وأسبانيا للاستعانة بهم في مناظرة المسلمين أمام الإمبراطور، فأمدوهم باليسوعيين والفرنسيسكان، طمعاً في تنصير المغول، ولكن المناظرات التي كان يديرها الإمبراطور نفسه أسفرت عن اعتناقه للإسلام، وتسميه بمحمد، وتلقبه بجلال الدين، وتكنيه بأبي الفتح[(١)].

ولا بد من تحديد مدلولٍ واضح لما هو «تاريخي» وما هو «معاصر»، وقد اعتمدت عرف المؤرخين باعتبار التاريخ المعاصر هو القرن الراهن، أي المائة سنة الأخيرة[(٢)].

= إمبراطورية قوية منظمة، امتدت من كابل غرباً إلى بنغال شرقاً، ومن أسفل الهملايا شمالاً إلى نهر نرمدة جنوباً، استعاد من الفرس مستعمرات أجداده في أواسط آسيا. المنجد في الأعلام (٥٨).

(١) انظر: المنجد في اللغة والأعلام: لويس معلوف اليسوعي. دار المشرق. بيروت ـ لبنان. الطبعة الحادية والعشرون ١٩٧٣م. (٥٨). ومجلة الأمة عدد ٥٤ عام ١٩٨٥م (٤٣) وانظر صوراً لخان العبادات وجلسات المناظرات في Recognize the Spiritual Bonds which Unite Us. p:4,87,88.

وانظر تمجيد روجيه جارودي له في الباب الثاني، المحاولات الفردية.

(٢) ليس ثم تقسيم حاسم، متفق عليه، للعصور التاريخية، والتقسيم الغربي التقريبي يدل على ما يلي:

العصور الوسطى التي تلت العصور القديمة: تبتدئ من سقوط الإمبراطورية=

وسوف تتم دراسة الأصول التاريخية من خلال ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: عند اليهود.
- المبحث الثاني: عند النصارى.
- المبحث الثالث: عند المسلمين.

= الرومانية الغربية سنة ٤٧٦ وتنتهي باكتشاف كولومبوس لأمريكا عام ١٤٩٢م، وأما عصر النهضة فيطلق على فترة الانتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة (القرون ١٤ ـ ١٦) ويؤرخ لها بسقوط القسطنطينية (١٤٥٣م). وتمثل القرون (١٧، ١٨، ١٩) العصر الحديث. انظر: الموسوعة العربية الميسرة: إشراف: محمد شفيق عطا غربال. دار القلم ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر. الطبعة الأولى عام ١٩٦٥م. (١٢١٦ ـ ١٢١٧).

المبحث الأول

الأصول التاريخية لدعوة التقريب عند اليهود

لم يُبد اليهود ميلاً إلى التقارب مع الديانات الأخرى، سواءً في المجتمعات النصرانية التي سيموا فيها سوء العذاب، أو في المجتمعات الإسلامية التي نعموا فيها بالأمن والاستقرار ورغد العيش، بل وتبوءوا فيها المناصب العليا، فيما عرف في اصطلاح اليهود أنفسهم بـ «العصر الذهبي لليهود»، في أسبانيا المسلمة، «الأندلس»[١].

ويرجع ذلك إلى عقيدة صارمة راسخة، هي عمدة الديانة اليهودية المتوارثة وهي: «عقيدة شعب الله المختار» الذي حظي بالاصطفاء، وأقيم العهد الرباني معه دون غيره، وما أنشأ ذلك من عقائد تلمودية[٢] باعثها الحقد والتشفي من الأمم الغالبة، بوصفها «أغياراً» أو «جوييم» ـ أي أمميين ـ لا تستحق مُصافَّة اليهود، فضلاً عن مقاربتهم.

لذا عاش اليهود ردحاً من الزمن في عزلة اجتماعية وفكرية وسياسية عن المجتمعات التي يقطنونها كأقليات. وضرب الحاخامات حول أتباع الديانة اليهودية سياجاً من التحذيرات والإرهاب الروحي، وأحياناً البدني لمن تسول له نفسه خرق التعاليم الدينية. ولم يطوّر اليهود من موقعهم الديني ـ خلافاً للنصارى ـ أي مشروع للتقارب مع الآخرين، رغم شدة الضغوط والاضطهاد التي يلقونها غالباً، قال

(١) انظر: التاريخ اليهودي. الديانة اليهودية، وطأة ثلاث آلاف سنة. إسرائيل شاحاك (٩١).

(٢) انظر: حقيقة التقريب عند اليهود في هذا الباب.

تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ [آل عمران: ١١٢]، وقال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٦٧﴾ [الأعراف]، بل وحين واتتهم الفرصة، أسفروا عن خبايا نفوسهم، وصرحوا بأفضلية دينهم على سائر الأديان، كما جرى ذلك حين هجم المغول على الممالك الإسلامية، وقضوا على الخلافة العباسية، وفتكوا بالمسلمين في بغداد سنة ٦٥٦هـ ـ ١٢٨٥م، في حين أمَّنوا اليهود والنصارى[(١)]، وفتح الوزير الرافضي الخبيث، ابن العلقمي[(٢)]، والخواجه نصير الدين ـ بل نصير الشرك ـ الطوسي[(٣)] الباب على مصراعيه للزنادقة والفلاسفة، وبنى لهم «دار الحكمة»[(٤)]. ففي تلك الأحوال المضطربة التي ينعق فيها بوم الكفر والزندقة، ويغيب فيها سيف السلطان، وكلمة الحق، ألّف اليهودي سعيد بن منصور بن كمونة[(٥)] كتابه «تنقيح الأبحاث في البحث

---

(١) انظر: البداية والنهاية: (١٣/ ٢٠٢).

(٢) محمد بن أحمد بن علي (٥٩٣ ـ ٦٥٦هـ) أبو طالب، مؤيد الدين! الأسدي، البغدادي، المعروف بابن العلقمي، وزير المستعصم العباسي، وصاحب الجريمة النكراء في ممالأة هولاكو على غزو بغداد، كان رافضياً، وقد أهين على أيدي التتار بعد دخولهم بغداد، ومات غماً في قلة وذلة، ودفن في مشهد موسى بن جعفر «الكاظمية» ببغداد.
انظر: الأعلام (٥/ ٣٢١).

(٣) محمد بن محمد بن الحسن (٥٩٧ ـ ٦٧٢هـ) أبو جعفر، فيلسوف، كان رأساً في العلوم العقلية، علت منزلته عند هولاكو فكان يطيعه فيما يشير عليه. ابتنى بمراغة قبة ومرصداً عظيماً، وقرر منجمين لرصد الكواكب، وجعل لهم أوقافاً تقوم بمعاشهم، وكان هولاكو يمده بالأموال. صنف كتباً عديدة في الفلسفة وعلم الهيئة والرياضيات. وهلك ببغداد. انظر: الأعلام (٧/ ٣٠).

(٤) المرجع السابق (١٣/ ٢١٥).

(٥) سعيد بن منصور بن سعد، هبة الله، ابن كمونة: الإسرائيلي، عز الدولة، =

عن الملل الثلاث». (لقد وضع ابن كمونة بحثه في الوقت الذي كان فيه الإسلام ـ تماماً كالمسيحية واليهودية ـ ديانة تتقبلها السلطة المغولية ـ البوذية. هذه المساواة في نظر السلطة بين الأديان الثلاثة هي ما أتاح لابن كمونة القيام بهذه المقارنة التاريخية...

إنه حوار الديانات الثلاث كما كان يقدر لمثل هذا الحوار أن يقوم في بغداد في القرن الثالث عشر)[1].

والحقيقة أنه كان حواراً من طرفٍ واحد، بل إنه يفتقر إلى المساواة خلافاً لما يزعمه الكتاب الغربيون المغرمون بالنقد التاريخي للأديان. وقد أجحف ابن كمونة الإسلام حقه، وطعن في صدق القرآن، مما حمل العامة على محاولة قتله[2].

وحين أبدى الرِّبي إبراهيم بن موسى بن ميمون، الذي ورث عن والده الشهير لقب «رأس الجالوت»، في مصر الأيوبية سنة ١٢٣٧م، نوعاً من الميل والتقارب مع الشريعة الإسلامية، قوبل مقابلةً عنيفةً من أبناء الجالية اليهودية، ورمي بالابتداع لأنه دعا إلى (تقليد المحيط المسلم، مثلاً في الصلاة... يقترح إزالة المساند من الكنيس، وتوزيع سجاجيد الصلاة على الأرض، كما هو الحال في المساجد. واقترح أيضاً الركوع كما هو الحال في صلاة المسلمين... ويمتدح

= أديب، منطقي كيميائي فيلسوف اليهود. من أهل بغداد، توفي بالحلة سنة (٦٨٣هـ). من مؤلفاته: «شرح تلويحات السهروردي في الحكمة»، «اللمعة الجوينية»، «شرح الإشارات لابن سينا»، «الحكمة الجديدة في المنطق»، «شرح التلويحات في المنطق والحكمة»، انظر: الأعلام (٣/ ١٠٢)، كشف الظنون (٩٥، ٤٨٢، ٤٩٥، ٦٨٥)، معجم المؤلفين (٢/ ٢١٤).

(١) الحقيقة بنت زمانها، مقارنة الأديان عند ابن كمونة. فريدريش نيفونر. مجلة الاجتهاد (٢٨/ ١٦٦ ـ ١٦٧).

(٢) المرجع السابق (١٧٢ ـ ١٧٨).

الصمت المحترم في المساجد الذي كان على نقيض الضوضاء غير المبجلة والصخب الذي تميزت به المعابد اليهودية في ذلك الزمن...)[(١)].

وقد آل به الأمر أن اشتكاه اليهود إلى الملك العادل، بدعوى أنه (يحاول إرغامهم على تبني بدعة محرمة في دينهم... لذلك أجبر إبراهيم أن يعتذر للحاكم المسلم، وأن يعلن توبته، وأنه لن يسيء استخدام سلطته باعتباره «رأس الجالوت» للطائفة اليهودية، وذلك عن طريق إدخال بدعٍ عليها)[(٢)].

إن اليهود، لبواعث عنصرية بحتة، لم يخضعوا ديانتهم لتجربة التقارب بين الأديان، وحرصوا أشد الحرص على التميز عن الأمميين، ولكنهم استعاضوا على تعريض دياناتهم للمساومة بإنشاء الجمعيات الهدامة التي تدعو إلى «العالمية» وتطلق الشعارات الإنسانية الفضفاضة، كالحرية والإخاء والمساواة ليتم تذويب، وصهر جميع الأديان، والثقافات العالمية في صهريجه الضخم، وتبقى «اليهودية» نقية، متماسكة أمام تيار «العالمية»، فيتسنى لها بعد القضاء على الخصوم، تحقيق السيادة على العالم.

الماسونية:

ومن أقدم تلك الجمعيات وأشهرها، وأكثرها نفوذاً: «الماسونية». وهي منظمة سرية يهودية، عالمية، يرجع بعض الكتاب تاريخ إنشائها إلى حقبٍ بعيدة في التاريخ، ترفع شعارات إنسانية، وتخفي ملامح

---

(١) الفكر الإسلامي والفكر اليهودي: بعض جوانب التأثير الثقافي المتبادل، هافا لازاروس ـ يافه. مجلة الاجتهاد (٢٨/ ٢٠٤ ـ ٢٠٩).

(٢) المرجع السابق.

يهودية في طقوسها ورموزها واصطلاحاتها، وتهدف في آخر المطاف إلى سيطرة اليهود على العالم[1].

وليس من هدف البحث الاستطراد في حقيقة هذه الجمعية الغامضة وما أحيطت به من مبالغات وتهويلات ـ ربما كان وراءها الماسون أنفسهم ـ بل الذي يعنينا هو موقفها من قضية التقريب بين الأديان، بوصفها جناحاً قوياً من أجنحة اليهودية، في موازاة الصهيونية. فالماسونية لاستغلال غير اليهود في مصالح اليهود، والصهيونية للحفاظ على هوية اليهود خاصة.

يقول رئيس محفل الشرف الأعظم الماسوني، محمد رشاد فياض، في كتابه النور الأعظم: (الميمات الثلاث في الموسوية والمسيحية والمحمدية[2] يجتمعون ـ هكذا ـ في ميم واحدة هو ميم الماسونية، لأن الماسونية عقيدة العقائد، وفلسفة الفلسفات. إنها تجمع وتوحّد المتفرقات والمتشتتات، وإن باءي البوذية والبرهمية يجتمعان في باء البناء، بناء هيكل المجتمع الإنساني الصالح المنزه من العمالة العنصرية والعملاء. إن ما أورثه الآباء الصالحون للأبناء هو مبادئ الحرية والمساواة والإخاء، ونحن نزيد عليها المحبة والعدالة

---

(١) انظر عن الماسونية: السر المصون في شيعة الفرِمسون، لويس شيخو، أسرار الماسونية: الجنرال رفعت أتلخان، الماسونية: داود سنقرط، بروتوكولات حكماء صهيون: ترجمة وتقديم: د. إحسان حقي. دار النفائس. بيروت ـ لبنان. الطبعة الأولى (١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م)، الماسونية: محمود ثابت الشاذلي، الماسونية ذلك العالم المجهول. صابر طعيمة، الماسونية في العراء. د. محمد الزغبي.

(٢) المحمدية: تعبير يراد به المسلمون. وقد نقل الشيخ بكر أبو زيد عن محمد علي مؤلف: الفكر الخوالد قوله: (أما التسمية بمحمدي ومحمدية فلم تكن في يوم من الأيام سائدة ولا مستساغة لدى أتباع هذا الدين، وعقب قائلاً: (إذاً: فالتوقي من هذا الإطلاق مناسب). معجم المناهي اللفظية (٤٩٧).

والعطاء... الماسونية على حقيقتها ليست عمالة لأية ديانةً أو عنصريةً معينة. إنها عقيدة العقائد، وفلسفة الفلسفات، وبالمبادئ الإنسانية مزينة. عقيدة الأحرار، هي عقيدة لجميع أبناء البشرية دون تمييزٍ أو تفريق. وإنها لن تمنح الفضل والأولوية لفريقٍ دون فريق)[١].

وهذه عباراتٌ مشبعة بالرموز الباطنية التي تذكر بمقالات البهائية والصوفية من جهة، ومسكونة بروح التهمة من جهة أخرى، لا سيما وهي تصدر عن ماسوني عربي يحاول تحسين وجه الماسونية اليهودية الكالح، وإلا فإن عداء الماسونية للأديان جميعاً أمرٌ لا يخفى قد طفحت به تصريحاتهم، كما جاء في البرتوكول الرابع عشر لحكماء صهيون: (عندما نغدو سادة لن نترك ديناً قائماً غير ديننا القائل بالإله الواحد الذي يرتبط به مصيرنا. لأننا نحن شعب الله المختار، وبنا ارتبط مصير العالم، ولذا يجب أن نقضي على كل الأديان، فإذا نشأ عن ذلك وجود ملحدين عصريين فإنهم سيكونون عناصر انتقالية، وهذا لا يضر مخططنا لأنهم سيكونون مثالاً للأجيال التي ستعتنق تعاليم دين موسى، الذي بفضل قوته وعقلانيته يجب أن ينتهي بنا إلى التسلط على العالم كله)[٢].



---

(١) النور الأعظم (١١٢ ـ ١١٥). عن الإسلام والحضارة الغربية د. محمد محمد حسين (١٨١).

(٢) بروتوكولات حكماء صهيون (٨٦). ترجمة: د. إحسان حقي. وانظر الماسونية تحت المجهر (٥٦ ـ ٥٧).

المبحث الثاني

الأصول التاريخية لدعوة التقريب عند النصارى

لقد كان ظهور الإسلام وانتشاره السريع في القرن السابع الميلادي صدمة عنيفة للكنائس النصرانية المختلفة التي تهيمن على شعوب منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط وما جاورها، فقد تهاوت معاقل النصرانية العريقة ومهد المسيح عليه السلام وأنبياء بني إسرائيل، أمام الفاتحين الجدد من أصحاب العمائم، رعاء الشاء والإبل، الضاربين في تيه الجزيرة العربية لقرون بعيدة، وفي تيه الشرك والوثنية والتخلف لقرونٍ أبعد. وفي مدةٍ تقل عن مائة عام تمكن المسلمون من إخضاع جميع السواحل الشرقية والجنوبية والغربية للبحر الأبيض المتوسط وفي مدةٍ تزيد على المائة قليلًا بلغوا أعماق أوروبا النصرانية في جنوب فرنسا. (وهكذا كان الإسلام يتوسع على نحوٍ مندفع مخلفاً، في الحقيقة، صدماتٍ هائلة تستعصي على التصور)[١]. كما عبر أحد الكتاب الغربيين.

والصدمة الكبرى التي تفوق إخضاع الأرض وضمها لدار الإسلام، كانت تتمثل في خضوع القلوب لدعوة الحق، ودخول الناس في دين الله أفواجاً. كما وعد الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ۝٩﴾ [الصف]، فـ (في مرحلة لاحقة، ومع الرسوخ السياسي واللاهوتي للدين الإسلامي،

---

(١) انظر: الشخصية العربية في الجدال المسيحي مع الإسلام. دانيل ساهاس. مجلة الاجتهاد (٢٨/ ١١١).

وتنامي النزعات والاتجاهات الانتقادية للمسيحية، تحولت الكتلة الأساسية لمسيحيي الشرق الأدنى إلى الإسلام)[١]، كما يعترف كاتب آخر.

وربما ظنت الدولة البيزنطية لأول وهلة أنها أمام زوبعة عارضة نشأت بسبب انفجار سكاني، وضيق معيشي حاق بأعراب الجزيرة، سرعان ما تخبو جذوته ويخمد لهيبه، لافتقار القوم لأسس التنظيم والتخطيط الذي يحفظ مكاسبهم.

وربما ظنت الكنيسة الأرثذوكسية، وغيرها من الكنائس المحلية الأخرى أنها أمام همج رعاع لا يرتقون في تفكيرهم إلى آفاق الثقافة الهلنستية[٢]، فلا تملك تقاليدهم البدوية الصمود أمام الفلسفة النصرانية العريقة.

ولكن هذه الظنون من المؤسستين الرسمية والكنسية تهاوت، كما تهاوت جحافلهم أمام إيمان الفاتحين المسلمين، ومتانة ووضوح عقائدهم.

ولم تشأ كبرياء الكنيسة النصرانية المصطنعة أن تذعن للحق، كما لم تشأ الإمبراطورية البيزنطية أن تذعن للأمر الواقع، ومن ثم فقد اتسمت العلاقات بين المسلمين والنصارى بالعداء المستمر طوال التاريخ، كما أن العلاقة بين الإسلام والنصرانية المحرفة اتخذت نفس الطابع، ولم يكن هناك مجالٌ لما عُرف أخيراً باسم «التقريب» أو

---

(١) الإسلام والمسيحية. أليكسي جورافسكي. (١٧٨).

(٢) الهلنستية أو الهيلينية :Hellenism الثقافة الناشئة من امتزاج الفلسفة اليونانية بثقافات حوض البحر المتوسط. وهي الثقافة السائدة إذ ذاك، انظر: الموسوعة الفلسفية: د. عبد المنعم الحَفني. دار ابن زيدون ـ بيروت، مكتبة مدبولي ـ القاهرة. الطبعة الأولى. (٥٠٢).

«الحوار» من الجانبين، بالصفة التي تمخضت عنها النصرانية في النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي.

ويصف المستشرق الروسي إليكسي جورافسكي هذه العلاقة التاريخية في جانبيها السياسي والعقدي بالعبارات التالية: (إن المجابهة العسكرية ـ السياسية بين هاتين الديانتين ـ أو قل بين هاتين الحضارتين ـ منذ بدء ظهورهما المتجاور، ووصولاً إلى القرن العشرين كانت هي الطابع المسيطر على علاقاتهما الأخرى، ـ بما في ذلك العلاقات الدينية ـ الأيديولوجية. وبودنا التأكيد في هذا السياق أن ترسيخ الإسلام وتوطيد أركانه العقائدية في سوريا، ومصر وشمال أفريقيا سحبا من المسيحية النصف الغني بثرواته من المجال الجغرافي الحضاري لشاطئ البحر المتوسط.

إن فتح المسلمين إسبانيا وصقلية، والحملات الصليبية إلى فلسطين، واستيلاء الصليبيين على القدس، وثأر صلاح الدين الأيوبي وانتصاره عليهم، وطرد العرب ـ المسلمين من أسبانيا، وسقوط القسطنطينية، وهجوم الأتراك العثمانيين على مناطق البلقان، وتمرد الشعوب الإغريقية والسلافية، كل هذه المصادمات والمجابهات العنيفة ألبست رداء الدين، والحرب من أجل تعزيز راية الإيمان ضد «الكفرة»[1]. ولهذا فإن مقولات مثل: «الحروب المقدسة» أو «الجهاد» ترسخت في وعي ومدارك، وفي لاوعي أتباع الديانتين كأوامر إلهية لا راد لها، بل أصبحت فريضة على المؤمنين من كلتا العقيدتين أن يلتزموا

---

(١) وهذا هو الواقع ظاهراً وباطناً لدى المسلمين في فتوحاتهم، انطلاقاً من قول الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقوله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣] وغيرهما، أما بواعث النصارى فالرجل أدرى بقومه.

بأدائها، والاستشهاد في سبيلها، وصولاً إلى إلغاء الطرف «الكافر»، أو «إخضاعه» وإلزامه بشروطٍ مذلة في كثيرٍ من الحالات والمواقف)[١].

أساليب النصارى في مواجهة الإسلام:

لقد احتاجت النصرانية إلى ثلاثة عشر قرناً من الزمان، بدءاً من القرن السابع إلى القرن العشرين حتى تبلغ مرحلة «الحوار». وبين التنافر والتقارب برزت في الفكر النصراني ممارسات متنوعة في مواجهة الإسلام في جانبه العقدي، يمكن تحديدها بما يلي:

أولاً: أسلوب التشويه والتضليل:

وقد ولد هذا الأسلوب في وقتٍ مبكر، لمواجهة موجات الفتح الإسلامي والاعتناق الجماعي لدين الإسلام. ومن أشهر من أرسى قواعده قسيسٌ دمشقي عرف باسم «يوحنا الدمشقي»[٢] المتوفى سنة ٧٥٠م، وقد عاش هو وأبوه منصور بن سرجون في أكناف أمراء بني أمية. وقد ألف عدة مؤلفاتٍ ضمنها القدح في الإسلام ونبيه ﷺ وكتابه القرآن. فالإسلام عنده ليس دين إبراهيم عليه السلام، بل هو مؤذِن بالمسيح الدجال. والرسول ﷺ واحد من أتباع بدعة آريوس، لا يعرف من العهدين القديم والجديد إلا ما ضحلت قيمته، والقرآن نتاج لأحلام اليقظة، كما ينتقد إجراءات الزواج والطلاق في الشريعة[٣].

---

(١) الإسلام والمسيحية (٣٦ ـ ٣٧).

(٢) ولد في دمشق عام ٦٧٥ تقريباً. من آباء ومعلمي الكنيسة، ويوصف بـ«القديس». قاوم ما يسميه النصارى بدعة تحطيم الصور «الأيقونات»، وألف في اللاهوت والفلسفة والخطابة والتاريخ والشعر. انظر: المنجد في الأعلام (٧٥٣).

(٣) انظر مقالة: (الشخصية العربية في الجدل المسيحي مع الإسلام) داينيل ساهاس مجلة الاجتهاد: (١٠٩/٢٨ ـ ١٣٦).

إن هذا القسيس المضلل، الذي يصفه النصارى بـ «القديس»، يبوء بإثم إشاعة هذه الافتراءات التي صدت كثيراً من النصارى في الشرق والغرب عن الوقوف على حقيقة الإسلام[1]. يقول إليكسي جورافسكي: (إذا كنا نتفق على واقعة أن التصورات الأوربية عن الإسلام تشكلت ما بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر للميلاد، فإننا يجب أن نشير إلى حقيقة أن هذه التصورات تكونت في كثير من جوانبها وخطوطها الكبرى على خلفية التفسير المسيحي الشرقي للعقيدة الإسلامية. وتعد المؤلفات التي وضعها يوحنا الدمشقي، المتوفى سنة ٧٥٠م من أكبر الدراسات المسيحية الشرقية عن الإسلام.

والواقع أن التصورات المتكونة عن الإسلام كبدعة مسيحية، مرتدة، ومنشقة، وعن محمد كنبي مزيف، انتقلت من مسيحيي سوريا إلى البيزنطيين، ومنهم إلى الأوربيين)[2].

وإذا كان يوحنا الدمشقي، وهو عربي النسب واللسان، يلجأ إلى كتابة مفترياته وتشويهاته المتعمدة عن الإسلام ونبيه ﷺ وكتابه العزيز، باللغة اليونانية، وهو يعيش بين ظهراني المسلمين، وفي خدمة البلاط الأموي خشية رد الفعل العلمي والاجتماعي والسلطوي، فللقارئ أن يتخيل ما يمارسه القسس الحاقدون الذين يعيشون خلف الحدود في أرجاء أوروبا البيزنطية، ثم الرومانية، حيث لا يعلمون عن الإسلام وعقيدته وشريعته وتطبيقه سوى ما يتلقفون من إنتاج نظرائهم الذين يتميزون غيظاً وحسداً في المشرق الإسلامي، ثم يضيفون إليه ما تبلغه

---

(١) يقول داينيل ساهاس: (يبدو أن يوحنا الدمشقي هو أول كاتب بيزنطي استخدم هذا التشويه الإتيمولوجي ـ أي الاشتقاقي ـ لأغراض الجدل العنيف، وتحفيز الذاكرة) الاجتهاد (١٢٦/٢٨) وذلك حين نبز المسلمين بلقب «السرازنيين Saracens»، أي الذين أبعدتهم سارة باحتقار.

(٢) الإسلام والمسيحية (٧٠ ـ ٧٣).

أوهامهم المريضة، وخيالاتهم الفاسدة من أساطير وحكايات مسفة. وهذا ما حدث بالفعل في أوروبا، طوال القرون الوسطى. فقد رُوجت العديد من الخرافات والتهم السخيفة عن الإسلام، وعن شخص نبينا محمد ﷺ نعف عن ذكرها إكراماً له وتوقيراً، مما حدا بباحث غريب معاصر أن ينتقدها بإنصاف قائلاً: (وللحقيقة، يجب القول أن تلك الأساطير المختلقة تمثل سخرية مأساوية، لأن النبي «محمد» الذي حارب أكثر من أي مخلوق آخر عبادة الأوثان، والذي حطم جميع أصنام الكعبة، يتحول في تصور المسيحيين إلى «صنم يؤلهه أتباعه» الذين يطلقون عليهم ازدراءً واحتقاراً لقب «عبيد سارة» أو «أبناء الجارية»[(١)]. وقد ظل هذا الأسلوب هو الأسلوب السائد والأسهل في الأوساط الشعبية للتنفير من الإسلام والصد عن سبيله، حتى اعتنقت أوروبا المذاهب العقلية، وانعتقت من سلطان الكنيسة الكهنوتي، فانحسر نوعاً ما، وإن كنا لا نزال نطّلع على خائنةٍ منهم، تحملها وسائل الإعلام المختلفة، تنبىء عن حقدٍ دفين[(٢)].

ثانياً: أسلوب المجادلة العقلية وإثارة الشبهات:

ورائد هذا المسلك هو الراهب الفرنسي (بطرس المبجّل) ـ كما يصفه النصارى ـ عاش في الفترة ١٠٩٤م ـ ١١٥٦م، وشغل منصب رئيس كهنة دير كلوني، وقد عاصر قيام الحملة الصليبية الأولى ١٠٩٦م والثانية ١١٤٥م، وأدرك فشل المسلك العدواني العسكري في تحقيق الأهداف النصرانية. (وقد انطلق من مُسلّمة حتمية الصراع ولكن ليس

(١) الإسلام والمسيحية (٧٧)، وانظر أيضاً ما جاء في (٦٧، ٧٤ ـ ٧٦).

(٢) دأبت وسائل الإعلام الغربي النصراني ـ ومن خلفها اليهود ـ على تشويه صورة الإسلام والمسلمين بتصويرهم بصورة الأحمق الجاهل المتخلف، وأخيراً الإرهابي، وبث ما يسيء إلى المسلمين ويحتقرهم من الدعايات التجارية التي تسخر بعقائد الإسلام وشرائعه.

بالسيف، وإنما بالكلمة والإقناع والحجة. وفي نظرته للمسلمين كهراطقة، واعتقد بطرس المبجل بإمكان إعادتهم إلى فلك الكنيسة، وذلك إذا تمكن اللاهوتيون والمبشرون المسيحيون من أن يظهروا لهم بشكل مقنع، أين تكمن انحرافاتهم وضلالاتهم)[١].

ومن المعروف أن دير كلوني الذي ينتمي إليه بطرس المبجل ـ عندهم ـ كان له دورٌ بارز في تاريخ النصرانية، فيما عرف بـ «الإصلاح الكلوني» وعلى وجه الخصوص في تأجيج الروح الصليبية في حرب الاستعادة الأسبانية Reconquista، ولكن الفترة التي تولى فيها هذا الراهب رئاسة الدير، كانت أوروبا مشغولة عنه بتمويل الحملتين الصليبيتين الأولى والثانية ضد منطقة شرق المتوسط، مما أدى إلى إعطاء الحروب الأسبانية ضد المسلمين مكانة ثانوية. ولعل هذا ما حدا به إلى سلوك أسلوب المجادلة العقلية.

يقول أستاذ لاهوت الأديان «لودفيغ هاغمان»: (يعتبر رئيس كهنة دير كلوني بطرس المعروف بالمبجَّل «١٠٩٤ ـ ١١٥٦» أول من مهد الطريق للمجادلة العقلية مع الإسلام، وقد اكتسب بذلك شهرة عريضة. فأثناء زيارته التفتيشية والرعوية للأديرة الخاضعة لرهبنته في أسبانيا عام ١١٤٢، خطرت له فكرة القيام بمجادلة عقلية. فالمعلومات الناقصة وغير الواضحة التي كونها معاصروه لأنفسهم جعلته يصل إلى القناعة بضرورة سد هذا العجز عبر برنامج مُلِح وصفه كما يلي:

١ ـ ردم حدة العجز الحاصل في المعلومات.

٢ ـ استنكار العمليات العسكرية.

٣ ـ إعطاء الأفضلية لتبرير الإيمان والمعتقد المسيحيين.

---

(١) الإسلام والمسيحية (٨١).

٤ ـ أخيراً الإقدام على وضع ترجمة لاتينية للقرآن الكريم)[١].

وقد استعان بطرس هذا بجملة من المستعربين في ترجمة بعض الأحاديث النبوية، وكتابة بعض المقالات والمحاورات المزعومة، كما وجه بنفسه خطاباً مفتوحاً إلى (العرب، أبناء إسماعيل، الذين يتبعون قانون الرجل الذي يدعى محمداً)[٢].

كما صنف كتاباً أسماه «دحض العقيدة الإسلامية» ضُم لاحقاً إلى ترجمات أتباعه، وعرفت المجموعة باسم «المجموعة الطليطلية» أو «فيلق كلوني» (وهي المجموعة التي صارت بالنسبة للأوربيين المصدر الرئيسي للمعلومات والمعطيات عن الدين الإسلامي على مدى خمسمائة عام تقريباً)[٣].

وعلى الرغم من أن هذا اللون من المقاربة يراد به النقض والهجوم، إلا إنه يمثل تحولاً في الاتجاه العام لدى نصارى القرون الوسطى من مرحلة المهاترات والتلفيقات ونسج الأساطير والخرافات بغرض التنفير، إلى مرحلة متقدمة تعتمد التعرف على الخصم عن كثب، لمجادلته وإثارة الشبهات في وجهه. وقد نسج على منوال بطرس المبجل، فيما بعد، المستشرقون في القرون اللاحقة، كما لاحظ ذلك المستشرق جورافسكي، فقال: (يلاحظ أي باحثٍ موضوعي، أن الأغلبية المطلقة من مستشرقي القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين لم يتخلصوا من المواقف المسبقة الموجهة ضد الإسلام، سواءً أكان عداؤها صريحاً مباشراً وعنيفاً، أم كان يتسم بعدم الارتياح تجاه الشعوب الإسلامية)[٤].

---

(١) المسيحية والإسلام من التصادم إلى التلاقي. مجلة الاجتهاد (٣٠/ ٢٥ ـ ٢٦).
(٢) انظر: الإسلام والمسيحية (٨٢ ـ ٨٣).
(٣) الإسلام والمسيحية (٨٤).
(٤) الإسلام والمسيحية (١٠٥).

ثالثاً: أسلوب التبشير «الدعوة إلى التنصر»:

ويمثل هذا الاتجاه الراهب الإيطالي فرنسيس الأسيزي «١١٨٢ ـ ١٢٢٦م». ويعده النصارى من أكبر قديسيهم، وإليه تنسب طائفة الرهبان الفرنسيسكان. وعمدتهم النص المنسوب إلى المسيح ﷺ: (اذهبوا في العالم أجمع، وأعلنوا البشارة إلى الخلق أجمعين) (إنجيل مرقس ١٦:١٥)[١]. وقد قام فرنسيس الأسيزي بنفسه بهذه المهمة، فقد صحب الحملة الصليبية السادسة الموجهة نحو مصر عام ١٢١٩م والتقى الملك الكامل الأيوبي ودعاه إلى النصرانية[٢].

ومن أشهر الرهبانيات التي انتهجت هذا الأسلوب، وكانت معاصرة من حيث النشأة للفرنسيسكان، طائفة الرهبان الدومينيكان التي أسسها الراهب الإسباني دومنيك «١١٧٠ ـ ١٢٢١م» وإليها ينسب «توما الإكويني»[٣] المتوفى سنة ١٢٧٤م، أكبر لاهوتي دومينيكاني.

ويقوم الفرنسيسكان والدومينيكان بذرع العالم، وبعث الإرساليات التنصيرية إلى شتى أنحاء المعمورة منذ تأسيسهما في مطلع القرن الثالث عشر الميلادي حتى يومنا هذا.

ومن الجدير بالذكر أن الدومينيكان قد أسسوا معهداً في القاهرة باسم «معهد الدراسات الدومينيكاني»، انبثقت عنه أولى جمعيات التقارب الديني في البلاد الإسلامية، وهي جمعية «الإخاء الديني» عام

(١) العهد الجديد (١٧٨).
(٢) انظر: الإسلام والمسيحية (٨٧ ـ ٨٩).
(٣) توما الإكويني (١٢٢٥ ـ ١٢٧٤م) ولد في إيطاليا، وعلّم في جامعة باريس. معلم الكنيسة وحجتها في اللاهوت والفلسفة المدرسية «سكولاستيك». اطلع على آراء ابن سينا والغزالي وابن رشد عن طريق الترجمات اللاتينية وانتقدها. من مؤلفاته العديدة: الخلاصة اللاهوتية، والخلاصة ضد الأمم. انظر المنجد في الأعلام (١٩٦).

١٩٤١م، كما عقدوا ندوة حوارية حملت اسم الأيام الدومينيكانية[١].

رابعاً: أسلوب التقارب والحوار:

لعل أقدم تراثٍ نصراني يشير إلى نزعة التقارب والحوار الديني المفضي إلى تصويب جميع صور العبادات والأديان هو ما جرى به قلم الراهب «رامون لول»[٢] الذي عاش حقبة الحروب الصليبية في المشرق، والصراع الإسلامي ـ النصراني في الأندلس. وكانت مدينة «ميورقة» الأندلسية، مسقط رأسه، تضم مسلمين ونصارى ويهود. وقد ألف كتاباً باللغة العربية عنوانه: «الملحد ـ أو الظريف ـ والحكماء الثلاثة» (يبين فيه كيف أن «الحكماء الثلاثة»؛ اليهودي والمسيحي والمسلم، أنقذوا «الظريف» «الكافر» من يأسه، إذ حملوا إليه الرسالة نفسها: ليس الإنسان وحيداً. وللعالم معنى)[٣]. ويحكي هذا الراهب، المتأثر بفلسفة ابن عربي ـ كيف اكتشف هؤلاء الثلاثة وحدة إيمانهم العميقة، وخطيئة انقسامهم.

وقد كان لسقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣م بأيدي الفاتحين العثمانيين آثاراً بعيدة المدى على جميع المستويات، فقد اهتزت أوروبا من أدناها إلى أقصاها لسقوط مدينة قسطنطين الكبير، وحطم ذلك البقية الباقية من كبريائها. وكان من آثار ذلك أن (برزت أطروحات ومواقف

(١) انظر: الحوار الإسلامي المسيحي ـ ضرورة المغامرة: د. سعود المولى. دار المنهل اللبناني. بيروت ـ لبنان. الطبعة الأولى (١٤١٦هـ = ١٩٩٦م). (١٤٠). وسيأتي التعريف بالجمعية ومناشطها في الباب الثاني (٩٤٢).

(٢) راهب فرنسيسكاني، ولد في ميورقة عام ١٢٣٢م، زاول التنصير في أفريقية، وعارض فلسفة ابن رشد. وشجع تعليم اللغات الشرقية. له مؤلفات بالعربية. توفي عام ١٣١٥هـ. انظر: المنجد في الأعلام (٦١٧).

(٣) انظر: الإسلام (١٣٦ ـ ١٣٨)، الإسلام في الغرب (٢٣٩ ـ ٢٤٠) لروجيه جارودي.

جديدة كل الجدة في هذا السياق، مثَّلها نيكولاي كوزاني (١٤٠١ ـ ١٤٦٤م) ويوحنا سيغوفي، (حوالي ١٤٠٠ ـ ١٤٥٨م) حيث انطلق الاثنان من رؤية، مؤداها أن الحرب لا تحل الخلاف بين الديانتين. وكلاهما اعتقد أن المحاولات الرامية إلى تحويل المسلمين إلى المسيحية بلا معنى ولا طائل منها، ولم تؤد إلى نتائج إيجابية. ولهذا طالبا بضرورة الكشف عن الفوارق والاختلافات الواقعية، والبحث الجاد عن الأمور المشتركة بينهما. وتماشياً مع هذا المنحى درس نيكولاي كوزاني ويوحنا سيغوفي فكرة وضع أساسٍ راسخ للحوار بين ممثلي هاتين العقيدتين)[1]. وقد ألف نيكولاي كوزاني كتابه «سلام الإيمان» في نفس العام الذي سقطت فيه القسطنطينية عام ١٤٥٣م. ثم ألف عام ١٤٦٢م (شرحاً نقدياً للقرآن الكريم «في غربلة القرآن» هادفاً إلى أن يباشر حواراً ينطلق مما هو مشترك بين المسيحيين والمسلمين)[2] وكذلك صنع صديقه سيغوفي. وهذه المحاولات في تاريخ دعوة التقريب لدى النصارى دفع إليها هول الصدمة الناتجة عن سقوط القسطنطينية. وقد تلاها سابقة ملفتة في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية، حيث وجه البابا بيوس الثاني ١٤٥٨ ـ ١٤٦٤م كتاباً إلى السلطان العثماني محمد الفاتح يتضمن بحثاً في مسائل عقدية[3]، ودعوة إلى النصرانية، ولكنه كما وصف لودفيغ هاغمان: (تشتم منه رائحة اليأس)[4].

وحين ظهرت حركة الإصلاح الديني «البروتستانتية» على يد مارتن لوثر[5] (١٤٨٣ ـ ١٥٤٦م)، بدت وكأنها تتجه نحو الموضوعية في فهم

---

(١) الإسلام والمسيحية. (٩١).
(٢) الإسلام. روجيه جارودي. (١٣٨ ـ ١٣٩).
(٣) الإسلام والمسيحية. (٩٢).
(٤) المسيحية والإسلام من التصادم إلى التلاقي، مجلة الاجتهاد (٣٠/٢٨).
(٥) راهب أوغسطيني. لاهوتي ومفكر وكاتب. بدأ في ألمانيا الإصلاح الديني=

الإسلام، مما أطلق عليه مارتن لوثر «خرافات الأوربيين وجهالاتهم» حيال الإسلام، ولكنه سرعان ما قلب ظهر المجن، وصب جام غضبه وسبابه المقذع على الأتراك العثمانيين الذين كانوا يحاصرون فيينا عام ١٥٢٩م(١).

و(في عام ١٧٠٥ أصدر هادريان ريلاند «١٦٧٦ ـ ١٧١٨م» كتابه «الديانة المحمدية» الذي يعتبر أول عرضٍ موضوعي للإسلام من وجهة نظر مسيحية... قامت الكنيسة الكاثوليكية بإلقاء الحرم عليه ومنعه. وفي هذا العصر قدم غولتهولد أفرايم لسنغ (١٧٢٩ ـ ١٧٨١م) عمله الأدبي «ناتان الحكيم»، الذي وضعه بصيغة رمزية جواباً عن السؤال التالي: أي من الديانات الثلاث، اليهودية، والمسيحية والإسلام تعتبر الدين الحق؟)(٢) ليصل إلى أن كلاً من الديانات الثلاث تعكس وحي الله.

ولكن هذه النبرات التي تحاول أن تتسم بالموضوعية في مطلع القرن الثامن عشر، ظلت خافتة ضعيفة وسط ضجيج التعصب والعماية لأصوات أكثر شهرة وقبولاً من أمثال الكاتب الفرنسي الشهير «فولتير»(٣)

= «البروتستانتية»، وانفصل عن الكنيسة في شأن الغفرانات، وسلطة البابا، والتبتل، وإكرام القديسين، والمطهر والقداس. وفي ١٥١٧م نقل التوراة إلى الألمانية، فكانت الترجمة حدثاً دينياً أدبياً، انظر: المنجد في الأعلام (٦١٥).

(١) انظر: المسيحية والإسلام من التصادم إلى التلاقي. مجلة الاجتهاد (٣٠/ ٢٩)، والإسلام والمسيحية (٩٧).

(٢) المسيحية والإسلام من التصادم إلى التلاقي. مجلة الاجتهاد (٣٠/ ٣١).

(٣) فولتير (فرنسوا ماري أراوي) ولد في باريس. مؤلف فرنسي من نوابغ زمانه. أقام في بروسيا وسويسرا. تزعم حركة الفلسفة المادية، وقاوم رجال السلطة الدينية والمدنية، ونقدهم بقلمه الرشيق اللاذع، كتب في الشعر والتاريخ والمسرح والمراسلة والفلسفة. من مؤلفاته: المحاورات الفلسفية «كنديد»، «زئير»، «محمد»، «شارل ١٢». انظر: المنجد في الأعلام (٥٣٣).

(١٦٩٤ ـ ١٧٧٨م)، الذي ألف مسرحية بعنوان «التعصب، أو النبي محمد»، ونبز فيها شخص نبينا محمد ﷺ بأبشع الصفات، في عصر يوصف في التاريخ الأوربي بعصر الأنوار. (وبشكل عام يمكن التأكيد، أنه بدءاً من القرن الخامس عشر وإلى نهاية القرن التاسع عشر، نمت المعارف الواقعية عن الإسلام بصورة بطيئة لأقصى الحدود، وضمن وسط محدود جداً من الدوائر العلمية الأوربية)[1].

ويرى جورافسكي أن (الإرهاصات الأولية، الممهدة فلسفياً ولاهوتياً للحوار الإسلامي ـ المسيحي، الذي نوقش رسمياً للمرة الأولى في المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني) تمت على يد شخصيتين بارزتين:

أحدهما: الفيلسوف الروسي فلاديمير سولوفيوف «١٨٥٣ ـ ١٩٠٠»، الذي تدرج في فهمه للإسلام وسر ظهوره التاريخي، وشخصية نبيه محمد ﷺ وكانت ذروة أبحاثه في هذا المضمار في كتابه «محمد: سيرته وتعاليمه الدينية»، الذي ألفه قبل وفاته بأربع سنوات ١٨٩٦م، وفيه يرتقي إلى إثبات نبوة محمد ﷺ حيث يقول: (في مكة ولد هذا الإنسان «النبي محمد»، الذي نفذت من خلاله وعود الرب، التي قطعها حول إسماعيل جد العرب، وجد نبيهم هذا... ـ ويقول: ـ لقد كان محمد يملك بالتأكيد عبقرية دينية خاصة... وكل تصرفاته كانت مرهونة ـ دون شك ـ بأسانيد دينية واضحة. إن دعوة محمد وأحاديثه عن الله وصفاته وقدراته وعن الوحي الإلهي، وعن الأوامر والنواهي، وعن مصير الأشرار والأخيار، رغم أنها لم تكن كاملة، ولكن هذه المبادئ لم تكن كاذبة مطلقاً)[2].

---

(١) الإسلام والمسيحية (١٠٣).

(٢) عن الإسلام والمسيحية: (١١٦ ـ ١١٧).

ولا ريب أن هذا الفيلسوف يرصد الإسلام من وجهة نظر النصرانية حين يفتقد في الإسلام بعض عناصر اللاهوت النصراني، فيصفه بعدم الكمال. ودين الإسلام الذي أكمل الله به الدين وأتم به النعمة في غنىً عن شهادته وأمثاله، ولكن المقام مقام تبيين التدرج التاريخي في مقاربة النصارى لدين الإسلام وفهمه.

ولا ريب أن هذه الكلمات إذا قورنت بقائمة السباب المقذع الذي كان يصدر من كبار مفكري أوروبا ولاهوتييها خلال القرون الوسطى والحديثة، تبدو تحولاً مهماً وتقدماً في طريق الحقيقة، وإن كان بقي على القوم مراحل. ولأجل هذا الطرح الجريء لفلاديمير سولوفيوف في نهاية القرن التاسع عشر، عده جورافسكي (أباً مؤسساً لحوار بين الديانات الكتابية ـ التوحيدية الثلاثة)[(١)] على حد تعبيره.

ولعل هذا الفيلسوف اللاهوتي الأرثذوكسي، قد مهد الطريق للشخصية الثانية، الكاثوليكية، التي هيأت للتقارب والحوار في النصف الأول من القرن العشرين وهو: المستشرق الفرنسي: لويس ماسينيون[(٢)] ١٨٨٣ ـ ١٩٦٢م، الذي اشتغل بالدراسات العربية في دمشق والقاهرة، واستهواه التصوف، فكانت أطروحته في الدكتوراه في جامعة السربون بعنوان: (مأساة الحسين بن منصور الحلاج[(٣)]، شهيد الإسلام الزاهد)،

---

(١) الإسلام والمسيحية: (١١١).

(٢) لويس ماسينيون: مستشرق فرنسي، عضو في المجامع العلمية في بلدانٍ عديدة شرقية وغربية، اهتم بنشر مؤلفات الحلاج. ترك آثاراً جمة في مختلف الشؤون الإسلامية، ولا سيما الصوفية منها. انظر: المنجد في الأعلام (٦٢٨).

(٣) أبو مغيث، فيلسوف من كبار الملحدين، كان يعتقد بالحلول ووحدة الوجود. قبض عليه المقتدر العباسي، وقتل شر قتلة سنة (٣٠٩هـ). له كتب في تقرير كفره وزندقته تربو على الأربعين، اعتنى المستشرقون بسيرته وتعاليمه. انظر: الأعلام (٢/ ٢٦٠).

وكتب عن ابن سبعين[١] الصوفي الأندلسي. واتجه إلى فكرة توحيد الديانات الكتابية الثلاث. (وفي رأي الدارسين، فإن مؤلفاته، وإسهاماته العلمية، ومنطلقاته الروحية، ونشاطاته السياسية مهدت الطريق للتحول الكاثوليكي الجذري بشأن الموقف من الإسلام)[٢].

يقول الأب موريس بورمانس[٣]: (.. بفعل «مسيحيين نبويين» مثل: ميجيل أسين إي بلاسيوس، ولويس ماسينيون وغيرهما، تجددت نظرة الكنيسة إلى الإسلام، وصارت ترى فيه، علمياً ولاهوتياً، دين توحيد يرتبط بالدعوة الإبراهيمية... فكان لا بد أن يؤدي ذلك إلى إعلان المجمع الفاتيكاني الثاني ١٩٦٢ ـ ١٩٦٥م عن علاقة الكنيسة بالديانات غير المسيحية، الذي أصبح للكاثوليك «شرعة الحوار الإسلامي المسيحي»)[٤].

---

(١) ابن سبعين (٦١٣ ـ ٦٦٩هـ) عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر بن سبعين الإشبيلي المرسي الرقوطي، قطب الدين، أبو محمد، من الفلاسفة القائلين بوحدة الوجود. من كتبه: الحروف الوضعية في الصور الفلكية، أسرار الحكمة المشرقية، النصيحة. قال ابن دقيق العيد ﷺ: جلست مع ابن سبعين من ضحوة إلى قريب الظهر، وهو يسرد كلاماً تعقل مفرداته، ولا تعقل مركباته. وقال الذهبي: اشتهر عن ابن سبعين أنه قال: لقد تحجر ابن آمنة واسعاً بقوله: «لا نبي بعدي»، ورد عليه شيخ الإسلام ابن تيمية. الأعلام (٣/ ٢٨٠).

(٢) الإسلام والمسيحية. (١٢٠ ـ ١٢١).

(٣) ولد في «ليل» ـ فرنسا ـ عام ١٩٢٥م. رسِّم كاهناً في رهبانية الآباء البيض عام ١٩٤٩م. دكتوراه في الآداب من السربون عام ١٩٧١م، أستاذ اللغة والقانون الإسلامي والروحانية عند المسلمين في المعهد البابوي للدراسات العربية والإسلامية بروما (١٩٦٤ ـ ١٩٨٤م)، أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة الكهنوت بروما «أوزبانيانا»، مدير المجلة الدولية الإسلامية المسيحية Islamo Christiana، من مؤلفاته: «توجيهات في سبيل الحوار ط١٩٨١م»، الحوار الإسلامي المسيحي في العشر سنوات الأخيرة ط١٩٧٨م.

(٤) توجيهات في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين: الأب: موريس=

لقد سلك ماسينيون في سبيل التقريب بين الإسلام والنصرانية مسلكين:

أحدهما: مسلك علمي يتجلى بجملة من الآراء والأفكار التي كونها عن الإسلام متأثراً باهتماماته الشخصية بالتصوف، وعلى الخصوص بالحلاج[1]. (إن تصور ماسينيون للدين الإسلامي يستند بالدرجة الأولى، ومن حيث الجوهر إلى النقطتين المركزيتين التاليتين:

١ ـ انتماء الإسلام للملة الإبراهيمية أو للشجرة الإبراهيمية.

٢ ـ النهج الذي سلكه الحلاج في تفسيره وممارسته للإشكالية اللاهوتية للإسلام)[2].

وهذه الثانية تكشف سر حماس ماسينيون للتقارب مع الإسلام. ذلك أن الفرق الهائل بين الإسلام والنصرانية يتركز في مفهوم «التوحيد»، حيث ينعى الإسلام على النصرانية عقيدة الحلول والتجسد في شخص المسيح، ويكفر القائلين بها لمنافاتها للتوحيد الخالص لله رب العالمين. وحيث إن الخلاف في هذه القضية خلاف أساسي مبدئي، فقد وجد ماسينيون في شخصية الحسين بن منصور الحلاج، الصوفي الزنديق، منفذاً يتسلل به إلى المسلمين، بتمجيد زائغٍ ينتسب إلى الإسلام ويقول بعقيدة الحلول، أي حلول الإله في شخصه، حتى حمله ذلك على أقوالٍ وأفعالٍ كفرية. قال ابن الجوزي[3] ﵀: (اتفق

= بورمانس. أمانة السر للعلاقات بغير المسيحيين. ترجمة: المطران يوحنا منصور. المكتبة البولسية. بيروت ـ لبنان. الطبعة الأولى ١٩٨٦م. (٢٧ ـ ٢٨).

(١) سيأتي الكلام عنه قريباً.

(٢) الإسلام والمسيحية (١٢٧).

(٣) عبد الرحمٰن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي، أبو الفرج، علامة عصره في التاريخ والحديث. ولد سنة (٥٠٨هـ)، كان كثير التصانيف له نحو ثلاثمائة مصنف، منها: «زاد المسير في علم التفسير»، «المنتظم في تاريخ=

علماء العصر على إباحة دم الحلاج)[١]. فكأن ماسينيون يريد أن يجتذب المسلمين لعقيدة تأليه عيسى ﷺ بضرب المثل بشخص الحلاج الذي صلب كما صلب المسيح بزعمه ـ فصار شهيد الإسلام. ويقرر إدوارد سعيد في كتابه الحافل «الاستشراق» هذا المعنى الخفي فيقول: (كان الإسلام في عرف لويس ماسينيون الذي قد يكون أعظم المستشرقين الفرنسيين شهرة وتأثيراً، رفضاً منتظماً للتجسد المسيحي، وكان بطل الإسلام الأعظم، لا محمد، ولا ابن رشد، بل الحلاج، القديس المسلم الذي صلبه المسلمون السنيون لجرأته على شخصنة الإسلام)[٢]. ويقول أيضاً: (كان النموذج المثالي لماسينيون هو الحلاج، الذي سعى لتحرير نفسه خارج الجماعة السنية بالبحث عن، وأخيراً بنوال، الصلب عينه الذي يرفضه الإسلام رفضاً قاطعاً؛ وكان محمد، كما يرى ماسينيون، قد رفض عمداً الفرصة التي أتيحت له لعبور الهوة التي كانت تفصله عن الله[٣]. ولذلك فإن إنجاز الحلاج تمثل في أنه حقق وحدة اسرارية بالله، وضد الطبيعة النظرية للإسلام)[٤].

= الملوك والأمم»، «تلبيس إبليس»، و«مناقب الإمام أحمد»، «الموضوعات»، وغيرها، توفي سنة ٥٩٧هـ.

مرآة الزمان (٨/ ٤٨١)، الكامل (١٠/ ٢٢٨)، الأعلام (٣/ ١٦)، وفيات الأعيان (١/ ٢٧٩)، البداية والنهاية (١٣/ ٢٨)، مفتاح السعادة (١/ ٢٠٧).

(١) تلبيس إبليس. (١٧٢).

(٢) الاستشراق: المعرفة. السلطة. الإنشاء: إدوارد سعيد. ترجمة: كمال أبو ديب. مؤسسة الأبحاث العربية. بيروت ـ لبنان. الطبعة العربية الرابعة ١٩٩٥م. (١٢٧).

(٣) قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾ [سورة الإخلاص].

(٤) الاستشراق (٢٧١).

وبالتالي، فقد كان ماسينيون يهدف في دعوته الصريحة إلى التقارب بين الديانتين، ليس إلى الوصول إلى جوامع مشتركة فحسب، بل أساساً إلى استزلال المسلمين إلى القول بعقيدة الحلول وتأنيسها، وتصوير خصومها متزمتين منغلقين ضد «فردٍ متنور» من المسلمين أنفسهم، وليس من خارجهم، وهو الحلاج، دون أن يمس جوهر النصرانية الشركي القائم على ألوهية المسيح، وبنوته بأدنى تغيير. ويستدل بواقعة الحلاج الذي أظهر هذه الفكرة واستشهد وصلب في سبيلها بعد مرور ثلاثمائة سنة تقريباً على ظهور الإسلام على أن: (الإسلام مفتوح لفعل الخير، ويحمل في جوهره إمكان ـ «التحول من الداخل»، أو «التجدد والانبعاث الذاتيين». والمفهوم هذا يضعه ماسينيون معارضاً «نقيضاً» لمفهوم «التحول إلى دين آخر» وذلك عَبْر الأولياء المسلمين الذي يأتي الحلاج على رأسهم ويشغل مكانة الصدارة بينهم)[1].

وإلى جانب هذه القضية الأساسية التي اتخذها ماسينيون ركيزة أساسية في مشروعه وتفنن في عرضها، يحشد شواهد دينية مشتركة ومواقف تاريخية سلمية لدعم فكرته في التقارب، ويعتقد (أن متابعة بحث تلك المحطات المشتركة ـ بين الديانتين ـ من شأنها تهيئة الأرضية الطيبة لحوار لاهوتي مثمر بين المسيحية والإسلام)[2].

المسلك الثاني الذي سلكه لويس ماسينيون، وتميز به عن كثير ممن سبقوه أو عاصروه مسلك عملي، لا يكتفي بتحبير الصفحات، وطرح الأفكار من بُعد، بل صاحبه تغلغل في أعماق المجتمع الإسلامي، واهتمام بقضاياه السياسية الساخنة ومناصرتها وتكوين جمعيات الصداقة المختلفة مع المسلمين:

- فقد تعلم اللغات الأساسية التي يتحدث بها المسلمون، وهي

(١) الإسلام والمسيحية. (١٢٥).
(٢) الإسلام والمسيحية. (١٢٧).

العربية والتركية والفارسية، وأتقن العربية حتى صار عضواً في مجمعيها في دمشق والقاهرة. وحاضر بالعربية.

- توجه للدراسة في الأزهر، وعين أستاذاً في جامعة القاهرة في الفترة ١٩١٢ ـ ١٩١٣م.
- صار مديراً لمجلة العالم الإسلامي عام ١٩١٩م.
- أسس الجمعية الفرنسية الإسلامية عام ١٩٤٧، وجمعية فرنسا ـ المغرب عام ١٩٥٣م، وأدان الاستعمار الفرنسي لبلاد المغرب: تونس والجزائر وسجن بسبب ذلك، ووقف مع الفلسطينيين[١].

هذا من جانب المسلمين، أما نشاطه العملي في سبيل تحقيق فكرته مع أبناء ملته فيتمثل في دعوتهم إلى الاعتراف بـ «المصداقية النسبية» للقرآن، والاعتراف الجزئي «المشروط» بنبوة محمد، وأنه يجب على الكنيسة أن تعترف بالإسلام ومكانته الاعتبارية المستقلة كديانة توحيدية[٢]. (وضمن هذا الفهم تقدم ماسينيون، بمبادراتٍ كثيرة لتغيير موقف الكنيسة الكاثوليكية ـ الرومانية «الفاتيكان» تجاه الإسلام. ولهذا يرى بعض دارسي مؤلفات ماسينيون والمهتمين بتحليل مواقفه العملية، وأنشطته الاجتماعية والسياسية أن مراسلاته واتصالاته الواسعة مع الهيئات الكاثوليكية العليا، بما في ذلك صداقته الشخصية مع جيوفاني باتيستا مونتيني ـ الذي أصبح البابا بولس السادس ـ مهدت التربة ـ إلى حدٍ معين ـ للمناقشات التي دارت في المجمع الفاتيكاني الثاني «١٩٦٣ ـ ١٩٦٥» حول العلاقة بين الكنيسة الكاثوليكية والمسلمين)[٣].

لقد كانت محاولات ماسينيون ذروة المحاولات التاريخية التي تمخضت عنها النصرانية طوال ثلاثة عشر قرناً في مقاربة الإسلام.

---

(١) انظر الأعلام (٥/ ٢٤٧).

(٢) انظر الإسلام والمسيحية: (١٢٥، ١٢٨).

(٣) الإسلام والمسيحية: (١٢٨).

المبحث الثالث

الأصول التاريخية لدعوة التقريب عند المسلمين

ثَمَّ فارقٌ كبير في تناول هذه القضية بالبحث بين المسلمين وغيرهم. ذلك أن بنية الإسلام المتماسكة عقيدة وشريعة، التي تكفل الله بحفظها بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر] تحول دون قبول بدعة في الدين، سيما ما يتصل بالأصول الاعتقادية الكبرى؛ من كون دين الإسلام هو الدين الحق الذي لا يقبل الله ديناً سواه، وأنه ناسخ لجميع الأديان، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٨٥﴾ [آل عمران]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]. وذلك يقطع طمع كل صاحب هوى وبدعة أن ينسب إلى الإسلام ما ليس منه.

أما النصارى فقد اتخذوا دينهم هزواً ولعباً، وأكثروا التنقل وفق أهوائهم دون ضابط رادع، أو معيار ثابت. فما عقدوا عليه الخناصر، وعضوا عليه بالنواجذ في مجمع، سرعان ما ينقضونه ويتبرءون منه في آخر، وما كان صاحبه ملعوناً محروماً في حقبة من التاريخ، تتغير الأحوال والقيم فيصبح بريئاً مظلوماً. والأمثلة على ذلك كثيرة، فاليهود الذين كانوا ألد أعداء المسيح وأتباعه لقرون متطاولة، أصبحوا في نظر الكنيسة ضحايا الظلم والتعسف، برآء من دم المسيح الذي صلبوه بزعمهم[١]. والعلماء التجريبيون في علوم الطبيعة والفلك وغيرهما الذين خالفوا علم الهيئة الكنسي واستحقوا الحجب والحرق أحياء، باتوا محل

(١) انظر: المجمع الفاتيكاني الثاني (٦٢٩ ـ ٦٣١).

التقدير لإسهاماتهم في حقل المعارف الإنسانية[١]. بل «الماسون»، الذين توالى بابوات روما منذ عام ١٧٣٨م على التنديد بهم وبجمعياتهم السرية، وتحريم الانتماء إليها، توقف ذلك عام ١٩٦٥م حين أصدر البابا بولس السادس أمراً بإلغاء تجريم الماسونية[٢].

أما اليهود فإن سر انكماشهم وانكفائهم على أنفسهم مرده لأسباب عنصرية، وشعور بالكبر والتفوق على سائر البشرية، وليس إلى معيارية دينية يلتزمون بها ويتحرجون من هتكها، فإن القوم أجرأ الناس على حدود الله وتعديها بأدنى الحيل.

أما المسلمون المعتصمون بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، فعندهم من العلم والإيمان ما يعصمهم من اتخاذ دينهم غرضاً للأهواء، ومركباً للمطامع الشخصية أو الجماعية. فلم يقع، ولن يقع ـ بحفظ الله ـ في تاريخ السواد الأعظم، أهل السنة والجماعة، أدنى ملابسة تشير إلى مقاربة أهل الكتاب في دينهم ومعتقدهم، والبحث عن صيغة مشتركة، وعقيدة ملفقة يمالئون بها أهل الكتاب. وحاشاهم.

ولكن وقع في غضون التاريخ من بعض المنتسبين إلى الإسلام، الناشئين في أكناف المسلمين، ممن استهوتهم الشياطين، بعض الزنادقة والملحدين قديماً، والمنهزمين المشبوهين حديثاً، من صار إلى شعبة من هذه الدعوة الخبيثة. ومن ثم فالحديث عن الأصول التاريخية عند المسلمين حديث عن شواهد التصقت بجسم الأمة الإسلامية، وليست منها، كما يلتصق الدنس بالبدن. أما الحديث عن ذلك عند الآخرين فحديث عن تحولاتٍ حقيقية، وتغيرات جذرية تجري في صلب عقائدهم، وتنطق بها مجامعهم ومراجعهم المعتمدة. وشتان بين الحالين.

---

(١) انظر: المجمع الفاتيكاني الثاني (٢٤٦ ـ ٢٤٩).
(٢) انظر: الماسونية تحت المجهر. د. إبراهيم فؤاد عباس. (٥٨).

ويمكن أن نحدد الأصول التاريخية لظهور دعوة التقريب عند المسلمين بالمحطات التالية:

- غلاة الصوفية من أصحاب وحدة الوجود.
- الفرق الباطنية.
- طلائع العصرانيين.

أولاً: غلاة الصوفية، القائلون بوحدة الوجود:

وهم الذين استزلهم الشيطان فأوحى إليهم أن لا موجود في الكون إلا الله، وأن سائر الأعيان والأشياء والأفعال ما هي إلا مظاهر وجوده، وتجليات أفعاله. ومن ثم فكل ما في الكون هو ذات الحق سبحانه، وكل حركة وسكون، وخيرٍ وشر، وطاعة ومعصية، وإيمان وكفر، تنغمر في بحر وحدة الوجود حتى تعود شيئاً واحداً، وتسقط الحواجز والحدود والرسوم بين الذات والغير. وهذا غاية التوحيد عندهم، في عبارات مبهرجة عليها من زخرف القول، وبريق المعنى ما يستهوي كل قلبٍ مفتون[1].

قال شيخ الإسلام: (وهؤلاء المتفلسفة ومتصوفوهم كابن سبعين وأتباعه، يجوزون أن يكون الرجل يهودياً أو نصرانياً أو مشركاً يعبد الأوثان. فليس الإسلام عنده واجباً، ولا التهود والتنصر والشرك محرماً، ولكن قد يرجحون شريعة الإسلام على غيرها. وإذا جاء المريد إلى شيخ من شيوخهم، وقال: أريد أن أسلك على يديك. يقول له: على دين المسلمين أو اليهود أو النصارى؟ فإذا قال له المريد: اليهود والنصارى! أما هم كفار؟ يقول: لا، ولكن المسلمون خير منهم. وهذا

---

(١) انظر ما جمعه محمود عبد الرؤوف القاسم في: «الكشف عن حقيقة الصوفية» (١٠٥ ـ ٢٦٢).

من جنس جهال التتر أول ما أسلموا. فإن الإسلام عندهم خير من غيره. وإن كان غيره جائزاً، لا يوالون عليه ويعادون عليه)[(١)].

وقد أجمع الدارسون على أن من نتائج القول بوحدة الوجود القول بوحدة الأديان.

يقول برهان الدين البقاعي[(٢)] رحمه الله: (وعلى هذا الأصل المخبث الخبيث ـ وهو الاتحاد بين جميع الكائنات، وأنه لا غير، ولا غيرية في شيء من الوجود ـ فرع صحة كل دين، لأن الفاعل عنده، إنما هو الله)[(٣)]. وذلك في رده على ابن الفارض[(٤)]. ويقول الشيخ عبد الرحمن الوكيل: (آمنت الصوفية بأن الله سبحانه هو عين خلقه،

---

(١) كتاب الرد على المنطقيين: ابن تيمية، أبو العباس، تقي الدين، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام. إدارة ترجمان السنة. لاهور ـ باكستان. الطبعة الرابعة. (١٤٠٢هـ = ١٩٨٢م). (٢٨٢).

(٢) برهان الدين البقاعي: إبراهيم بن عمر بن حسن الرُّبَاط بن علي البقاعي، أبو الحسن، برهان الدين، ولد سنة (٨٠٩هـ)، مفسر، محدث، مؤرخ. تتلمذ على أساطين عصره كابن حجر العسقلاني، وابن ناصر الدين. توفي بدمشق سنة ٨٨٥هـ، وصنف تصانيف عديدة منها: «المناسبات القرآنية» و«عنوان الزمان في تراجم الشيوخ والأقران»، و«تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي» وغيرها. انظر: الأعلام (١/٥٦).

(٣) تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي: برهان الدين البقاعي، تحقيق: عبد الرحمٰن الوكيل. دار الكتب العلمية. بيروت ـ لبنان. طبعة (١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م) (٢٤٠ ـ ٢٤١).

(٤) ابن الفارض: عمر بن مرشد، الحموي الأصل، المصري المولد والدار والوفاة، أبو حفص وأبو القاسم، شرف الدين، ابن الفارض. ولد سنة ٥٧٦هـ. تصوف حتى صار من كبارهم، ونظم الشعر حتى صار أشعر المتصوفين، في شعره كفر صراح من القول بوحدة الوجود، وقد جمع شعره سبطه علي في ديوان باسمه وشرحه كثيرون، مات سنة (٦٣٢هـ)، كفَّره نحو أربعين عالماً. انظر: الأعلام (٥/٥٥) وتحذير العباد من أهل العناد للبقاعي.

هذه الأسطورة ـ أسطورة وحدة الوجود ـ استلزمت عند الصوفية الإيمان بوحدة الأديان سواء منها ما نسجته عناكب الأوهام، وافترته أساطير الخيال، وفارت به الشهوات، أو ما أوحاه الله إلى رسله، ولهذا آمن الصوفية سلفهم وخلفهم، بأن الإيمان والتوحيد عين الكفر والشرك، وبأن الإسلام على هداه وقدسه، عين الدين المجوسي في ضلاله ورجسه)[١].

بل قد أدرك هذا المعنى كبار المستشرقين من أمثال: ر.ا. نيكلسون[٢]، حيث يقول: (ومن لوازم مذهبهم في وحدة الوجود أيضاً قولهم بصحة جميع العقائد الدينية أياً كانت)[٣]. وجولدتسيهر[٤] يؤكد

---

(١) هذه هي الصوفية: عبد الرحمٰن الوكيل. دار الكتب العلمية ـ بيروت لبنان. الطبعة الرابعة ١٩٨٤م. (٩٣)، وانظر في هذا المعنى الرسالتين العلميتين: مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية وأثرها على الأمة الإسلامية. إدريس محمود إدريس (٢٧٧)، تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي عرض وتحليل على ضوء الكتاب والسنة محمد أحمد لوح (٥٦٠)، وابن عربي دراسة وتحليل. سميح عاطف الزين (١٠٠ ـ ١٠٤)، وأصول التصوف. د. عبد الله حسن زروق (٧٩)، ونظرات في معتقدات ابن عربي. د. كمال محمد عيسى (٥٥).

(٢) ر.ا. نيكلسون: رينولد ألين نيكلسون Reynold Allen Nicholson مستشرق إنجليزي، ولد سنة (١٢٨٥هـ ـ ١٨٦٨م). أولع من صباه بالمشرقيات وتعلم في جامعتي أبردين وكمبردج، وتخرج منها سنة ١٨٩٣م وتعلم العربية والفارسية، وتخصص في التصوف الإسلامي، وأصدر: «مختارات من ديواني شمسي تبريزي» و«تذكرة الأولياء» للعطار، وألف في التصوف: «الصوفية في الإسلام» و«دراسات في التصوف الإسلامي» وغيرها. وتوفي سنة (١٣٦٤هـ ـ ١٩٤٥م)، انظر: الأعلام (٣/ ٣٩). ومقدمة الصوفية في الإسلام.

(٣) في التصوف الإسلامي وتاريخه (٨٨).

(٤) إجناس جولدتسيهر Ignas Goldziher، مستشرق مجري يهودي، ولد سنة (١٢٢٦هـ = ١٨٥٠م)، رحل إلى البلاد العربية، وصنف في الإسلام والأدب=

أنه (مهما تظاهر الصوفيون بتقديرهم للإسلام، فلغالبيتهم نزعة مشتركة إلى محو الحدود الفاصلة بين العقائد والأديان. وعندهم أن هذه العقائد كلها لها نفس القيمة النسبية إزاء الغاية المثلى التي ينبغي الوصول إليها)[١].

ونسوق أدناه أمثلة صريحة لهذه الزندقة التي تفوه بها بعض كبار المتصوفة:

• **قال ابن عربي:**

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي ... إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
فقد صار قلبي قابلاً كل صورة ... فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف ... وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت ... ركائبه فالحب ديني وإيماني[٢]

وقال أيضاً:

عقد الخلائق في الإله عقائداً ... وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه[٣]

ويقول معللاً مذهبه الكفري هذا: (فإياك أن تتقيد بعقد مخصوص، وتكفر بما سواه، فيفوتك خير كثير، بل يفوتك العلم بالأمر

= العربي باللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية، وترجم إلى العربية كتابه «العقيدة والشريعة في الإسلام» وفيه شبهات ومطاعن. وأخرج جزءاً كبيراً من كتاب «فضائح الباطنية» للغزالي. توفي في بودابست سنة (١٣٤٠هـ = ١٩٢١م). انظر: الأعلام (١/ ٨٤).

(١) العقيدة والشريعة. (١٧٠).

(٢) ذخائر الأعلاق شرح ترجمان الأشواق «ديوان ابن عربي» د. محمد الشقيري، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية. القاهرة. الطبعة الأولى (١٩٩٥م). (٢٤٥).

(٣) فصوص الحكم. لابن عربي (٣٤٥).

على ما هو عليه. فكن في نفسك هيولى[١] لصور المعتقدات كلها، فإن الله تعالى أوسع وأعظم من أن يحصره عقد دون عقد. . . فالكل مصيب، وكل مصيب مأجور، وكل مأجور سعيد، وكل سعيد مرضي عنه)[٢].

• **ويقول عصريُه ونظيره في الزندقة ابن الفارض:**

تنزهت في آثار صنعي منزهاً عن الشرك بالأغيار جمعي وألفتي
فبي مجلس الأذكار سَمْعُ مطالع ولي حانة الخمار عين طليعة
وما عقد الزنَّارَ حكماً سوى يدي وإن حُل بالإقرار بي فهي حَلَّتِ
وإن نار بالتنزيل محراب مسجد فما بار بالإنجيل هيكل بيعة
وأسفار توراة الكليم لقومه يناجي بها الأحبار في كل ليلة
وإن خر للأحجار في البُدِّ[٣] عاكف فلا وجه للإنكار بالعصبية
فقد عبد الدينار معنى منزهٌ عن العار بالإشراك بالوثنية
وما زاغت الأبصار من كل ملةٍ وما راغت الأفكار في كل نحلة
وما احتار من للشمس عن غرةٍ صبا وإشراقها من نور إسفار غُرَّتي
وإن عبد النارَ المجوس وما انطفت كما جاء في الأخبار في ألف حجة
فما قصدوا غيري وإن كان قصدهم سواي وإن لم يظهروا عقد نيتي
رأوا ضوء ناري مرة فتوهمو ه ناراً، فضلوا في الهدى بالأشعة)[٤]

(١) «الهيولى» (لفظ يوناني بمعنى: الأصل والمادة. وفي الاصطلاح: هي جوهر في الجسم قابل لما يعرض لذلك الجسم من الاتصال والانفصال، محل للصورتين: الجسمية والنوعية). التعريفات: الجرجاني علي بن محمد بن علي، تحقيق: إبراهيم الأبياري. دار الكتاب العربي. بيروت. الطبعة الثانية (١٤١٣هـ = ١٩٩٢م). (٣٢١).
(٢) فصوص الحكم. (١٩١).
(٣) البُدَّ: بيت الأصنام.
(٤) ديوان ابن الفارض د. عبد الخالق محمود. عين للدراسات الإنسانية والاجتماعية. القاهرة ط١٩٩٥م (٣٠٨ ـ ٣٠٨).

وقد نقل البقاعي ﷺ عن بعض شراح هذه الأبيات ـ ولم يسم ـ قولهم: (إنه مهد في هذه الأبيات أعذار كل فرقة، وإن كل صاحب ملةٍ ونحلة ـ وإن بطل سعيه ـ على نصيبٍ من الهدى. فعباد النار غير مؤاخذين من جميع الوجوه، بل من وجهٍ دون وجه، ولا لوم على أحد، بل لكل واحد وجه، ومحمل خير يحمل عليه، فكلٌ يعمل على شاكلته، وكذا عابد الأصنام، قالوا: لا تنكر عليه، فإن أنكرت لم يكن إنكارك إلا تعصباً؛ لأنك لا تنكر على المقبل على الدنيا، مع أنه أقوى شركاً من عابد الصنم! وقالوا: كما أن القرآن نور المساجد، فكذلك الإنجيل نور المعابد. وقالوا نحو هذا في التوراة، وفي عابد الشمس: إنه بإثبات عين الألوهية لم يكن ناقصاً، فقام له عذرٌ من وجه من الوجوه. وذلك كاف للكريم)(١)، ثم عقب قائلاً: (ولا يقول بشيءٍ من هذا مسلم)(٢).

• **وقال عبد الكريم الجيلي**(٣):

(وأسلمت نفسي حيث أسلمني الهوى ... ومالي عن حكم الحبيب تنازع
فطوراً تراني في المساجد راكعاً ... وإنيَ طوراً في الكنائس راتع
إذا كنتُ في حكم الشريعة عاصياً ... فإنيَ في علم الحقيقة طائع)(٤)

• **وقال جلال الدين الرومي**(٥): (من قصيدة مترجمة عن الفارسية).

---

(١) تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي. (٢٤٢).
(٢) تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي. (٢٤٢).
(٣) عبد الكريم بن إبراهيم بن عبد الكريم الجيلي، ابن سبط الشيخ عبد القادر الجيلاني، ولد سنة (٧٦٧هـ) من كبار المتصوفة، له كتب كثيرة منها: «الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل»، وأكثرها لا يزال مخطوطاً، توفي سنة (٨٣٢هـ). انظر: الأعلام (٤/ ٥٠).
(٤) فصوص الحكم (٢١٢).
(٥) جلال الدين الرومي: شاعر صوفي فارسي. ولد سنة (٦٠٤هـ = ١٢٠٧م)=

انظر إلى العمامة أحكمتها فوق رأسي.

بل انظر إلى زنار زرادشت حول خصري.

أحمل الزنار وأحمل المخلاة...

مسلمٌ أنا، ولكني نصراني وبرهمي وزرادشتي...

ليس لي سوى معبد واحد، مسجداً كان أو كنيسة أو بيت أصنام)[١].

وينقل عنه ر.ا. نيكلسون شعراً:

إن يكن في الدنيا محب ـ أيها المسلمون ـ فأنا ذلك المحب.

إن يكن في الدنيا مؤمنٌ، أو كافر، أو راهب نصراني، فأنا هو...

أنا الثنتان وسبعون فرقة ومذهباً في الدنيا، وأقسم بربي أنها ليست شيئاً غيري)[٢] ومن هنا استنتج هذا المستشرق أن (هذه المذاهب ـ منطقياً[٣] ـ تلغي كل قانون ديني أو أخلاقي. وليس عند خيال العارف مثوبات أو عقوبات ربانية، ولا مقاييس للحَسَن أو القبيح... ومن هنا كانت جميع أشكال الأديان متساوية، وليس الإسلام بأفضل من الوثنية. وليس شيئاً عقيدة يعتقدها الإنسان، أو شعيرة يؤديها)[٤].

= في بلخ إيران يلقب بجلبي أفندي، أسس الطريقة المولوية. ارتحل إلى مكة والشام، ثم استقر في قونية وتوفي بها سنة (٦٧٢هـ = ١٢٧٣م). من آثاره: «المثنوي» منظومة صوفية شهيرة، و«الروض الكبير» و«الصغير». انظر: المنجد في الأعلام (٢١٥) الطبعة السابعة، ومعجم المؤلفين (٣/ ١٥٣).

(١) في التصوف الإسلامي وتاريخه، (٩٤).

(٢) الصوفية في الإسلام: د.ر.ا. نيكلسون. ترجمة وتعليق: نور الدين شريبه، مكتبة الخانجي. القاهرة ـ مصر. طبعة (١٣٧١هـ = ١٩٥١م) ص١٥١.

(٣) أي كنتيجة منطقية للقول بوحدة الوجود.

(٤) الصوفية في الإسلام. (٨٥).

ثانياً: الفرق الباطنية:

يطلق هذا الاسم «الباطنية» على جملة من الفرق والحركات والاتجاهات الكفرية، ويجمعها جميعاً مبدأ التحلل من النصوص الشرعية في العقائد والأعمال، بدعوى أن لكل ظاهر باطناً ولكل تنزيل تأويلاً. وجعلوا التأويل رسالة الأئمة. وراموا بذلك التحلل من نصوص الشرع كلها، وإدخال أديانهم الباطلة على الإسلام باسم الإسلام، وكل يتدين بدينه باسم الإسلام. قال أبو حامد الغزالي[(١)] (إن الباطنية إنما لقبوا بها لدعواهم أن لظواهر القرآن والأخبار بواطن تجري في الظواهر مجرى اللب من القشر، وأنها بصورها توهم عند الجهال الأغبياء صوراً جلية، وهي عند العقلاء والأذكياء رموزٌ وإشارات إلى حقائق معينة)[(٢)].

وقد نشأت معظم هذه الفرق وتفرعت عن شجرة «الرفض» الخبيثة، حيث لا ضابط من نقل صحيح، أو عقل صريح، أو دينٍ رادع. وإنما هي أهواء تتجارى بأصحابها كما يتجارى الكَلَب بصاحبه. ولكن القوم ادَّرعوا بغلالة رقيقة من الإسلام زوراً ونفاقاً ليدفعوا عن أنفسهم غوائل السوء، وإلا فهم كما وصفهم الغزالي، وفضحهم بقوله: (ظاهر مذهبهم الرفض، وباطنه الكفر المحض)[(٣)].

قال عبد القاهر البغدادي[(٤)]: (الذي يصح عندي من دين الباطنية

---

(١) محمد بن محمد الغزالي، الملقب بحجة الإسلام، زين الدين، الطوسي، ولد عام (٤٥٠هـ)، كان من كبار الشافعية وعظماء الفلاسفة والصوفية، من مصنفاته: «إحياء علوم الدين»، «الوجيز»، «الوسيط»، «البسيط»، وغيرها. توفي عام (٥٠٥هـ). انظر: الأعلام (٧/ ٢٢)، وفيات الأعيان (١/ ٤٦٣)، طبقات الشافعية (٤/ ١٠١)، شذرات الذهب (٤/ ١٠)، مفتاح السعادة (٢/ ١٩١)، آداب اللغة (٣/ ٩٧).

(٢) فضائح الباطنية (١١).

(٣) المرجع السابق.

(٤) عبد القاهر بن طاهر البغدادي، أبو منصور، عالم متفنن من أئمة الأصول، =

أنهم دهرية زنادقة يقولون بقدم العالم، وينكرون الرسل والشرائع كلها، لميلها إلى استباحة كل ما يميل إليه الطبع)[١].

إخوان الصفا:

ومن أقدم مأثوراتهم الخبيثة جملة من الرسائل تبلغ اثنتين وخمسين رسالة، عرفت باسم: «رسائل إخوان الصفا، وخلان الوفا» اعتنى بإخراجها وقدم لها بطرس البستاني[٢]، وقال في مقدمتها: (تألفت هذه الجماعة في القرن الرابع الهجري[٣] «القرن العاشر للميلاد»، وكان موطنها البصرة، ولها فرعٌ في بغداد، ولم يعرف من

= ولد ونشأ في بغداد ورحل إلى خراسان ثم فارقها إلى أسفرائين، من تصانيفه «الفرق بين الفرق» و«أصول الدين» و«الناسخ والمنسوخ» وغيرها. توفي سنة (٤٢٩هـ). انظر: الأعلام (٤/ ٤٨)، وفيات الأعيان (١/ ٢٩٨)، طبقات السبكي (٣/ ٢٣٨)، فوات الوفيات (١/ ٢٩٨)، مفتاح السعادة (٢/ ١٨٥).

(١) الفرق بين الفرق: عبد القادر بن طاهر البغدادي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. دار المعرفة. بيروت ـ لبنان. (٢٩٤).

(٢) بطرس البستاني (١٣١٦ ـ ١٣٨٩هـ=١٨٩٨ ـ ١٩٦٩م): بطرس بن سليمان بن حسن أفرام البستاني. أديب لبناني، حسن الأسلوب من مواليد دير القمر. تعلم المبادىء وأحسن الفرنسية. عمل في الصحافة، وألف كتباً منها: أدباء العرب، معارك العرب، آداب المراسلة. وأشرف على طبع كتب منها: لسان العرب. انظر: الأعلام (٢/ ٥٩).

(٣) تميز القرن الرابع الهجري باستيلاء الرافضة على معظم الممالك الإسلامية، فقد استولى البويهيون على مقر الخلافة العباسية في العراق، منذ عام ٣٣٤، وتملكوا بلاد فارس وسائر المشرق. وظهر القرامطة قبلهم في الأحساء والبحرين وعمان واليمن وأجزاء من الشام منذ ٢٧٨هـ حتى ٤٦٦هـ، وانطلق العبيديون من المغرب عام ٢٩٦، واحتلوا مصر عام ٣٥٨هـ، ثم بلاد الشام حتى قضى عليهم صلاح الدين الأيوبي عام ٥٦٨هـ. وهكذا عم الرفض الأرض في القرن الرابع. وفي ظلهم ترعرعت هذه الجماعات الخبيثة. راجع مبحث نبذة تاريخية في التمهيد.

أشخاصها سوى خمسة يتغشاهم الغموض والشك، ولا يسفر اليقين عن حقيقة أمرهم بما يطمئن إليه الخاطر، وينشرح له الصدر لما كانوا عليه من التستر والاكتتام)[١].

ويتضح بجلاء لقارئ تلك الرسائل أن أولئك «الإخوان» جماعة شيعية سرية منظمة، تعتمد أسلوب الدعوة الفردية، للتغلغل في مختلف طبقات الناس، واقتناص من سبقت لهم من الله السوأى. وتنقسم تلك الرسائل إلى أربعة أقسام: رياضية تعليمية، وجسمانية طبيعية، ونفسانية عقلية، وناموسية إلهية. وقد استمدوا معلوماتهم من كلام الفلاسفة، وزوَّقوه بالنصوص الشرعية، فأولوها تأويلاً باطنياً، وصاغوا ذلك بأسلوبٍ متأدب متلطف، وصدَّروا فصولها بقولهم: (اعلم أيها الأخ البار الرحيم). وقد صرحوا في غير ما موضع:

(أن علومنا مأخوذة من أربعة كتب:

• **أحدها:** الكتب المصنفة على ألسنة الحكماء والفلاسفة، من الرياضيات والطبيعيات.

• **والآخر:** الكتب المنزلة التي جاءت بها الأنبياء، صلوات الله عليهم، مثل التوراة والإنجيل والفرقان، وغيرها من صحف الأنبياء المأخوذة معانيها بالوحي من الملائكة، وما فيها من الأسرار الخفية.

• **والثالث:** الكتب الطبيعية: وهي صور أشكال الموجودات، بما هي عليه الآن من تركيب الأفلاك، وأقسام البروج، وحركات الكواكب، ومقادير أجرامها، وتصاريف الزمان، واستحالة الأركان، وفنون الكائنات من المعادن والحيوان والنبات، وأصناف المصنوعات على أيدي البشر. كل هذه صور وكنايات دالات على معانٍ لطيفة

---

(١) مقدمة رسائل إخوان الصفاء (١/ ٥) وانظر في تحقيق نسبتها كتاب: الحركات الباطنية في العالم الإسلامي. د. محمد أحمد الخطيب (١٦٩ ـ ١٧٧).

وأسرار دقيقة، يرى الناس ظاهرها، ولا يعرفون معاني بواطنها من لطيف صفة الباري جل ثناؤه.

• **والنوع الرابع:** الكتب الإلهية التي لا يمسها إلا المطهرون الملائكة، التي هي بأيدي سفرة كرامٍ بررة...)[١].

ولا أظن باطنياً جاء بعدهم، إلا واستقى من هذا المستنقع الآسن، حتى إذا تضلع منه، واستروح زخمه ونتنه، قاءَه دعاوى ومفتريات، وهو قائم على بابٍ من أبواب جهنم من أجابه قذفه فيها، وأورده إياها، وبئس الورد المورود.

وقد نقل البستاني عن المستشرق دي بور قوله: (إن آراء إخوان الصفاء ظهرت في جملتها من جديد عند فرق كثيرة في العالم الإسلامي: كالباطنية والإسماعيلية والحشاشين والدروز، وقد أفلحت الحكمة اليونانية في أن تستوطن الشرق، وذلك عن طريق إخوان الصفاء)[٢].

وقد تبين من سرد مصادرهم الأربعة منزلة الأديان عندهم، وكونها على حدٍ سواء، وأن كتبها المنزلة من توراة وإنجيل وفرقان، وغيرها من صحف الأنبياء ـ كما زعموا ـ على درجة واحدة في المرجعية، بالإضافة إلى المصادر الثلاثة الأخرى. ولهذا نجدهم يهونون في مواضع كثيرة من شأن اختلاف الشرائع، ويجوزون الجميع، ويسوغونه بما يفضي إلى القول بوحدة الأديان. فمن ذلك قولهم: (اعلم أن اختلاف الشرائع ليس بضار، إذا كان الدين واحداً، لأن الدين هو طاعة وانقياد للرئيس الآمر فيما يأمر وينهى المرؤوسين بحسب ما يليق

---

(١) رسائل إخوان الصفاء (١٠/ ٤٢).
(٢) تاريخ الفلسفة في الإسلام (١١٣)، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة. عن المرجع السابق (١/ ٧).

بواحدٍ واحد، وما يرى أنه يصلح له ويصلح فيه، لأن أوامر أصحاب النواميس، ونواهيهم مماثلة لأمر الطبيب الرقيق الشفيق، فيما أمر العليل من الحِمية في الصيف من تناول الأشياء الحارة بالطبع، وإجازته شرب المبّردات في البلدان الحارة، وفيما يرى ويأمر له...

فبهذا الوجه أيضاً اختلاف العلماء رحمة، واختلاف أهل الديانات في أمر الدين، وسنن أحكامه، حكمة جلية لا يعرفها إلا المحققون المستبصرون)[(١)]. فجعلوا اختلاف الأديان كاختلاف المذاهب في الدين الواحد، والكل سائغ صحيح.

بل إن مذهبهم الباطني يتسع لكل شيء، ويقبل كل نحلة وملة، ولا يعادي أحداً. وبهذا يتواصون قائلين: (ينبغي لإخواننا، أيدهم الله تعالى، أن لا يعادوا علماً من العلوم، أو يهجروا كتاباً من الكتب، ولا يتعصبوا على مذهبٍ من المذاهب، لأن رأينا ومذهبنا يستغرق المذاهب كلها، ويجمع العلوم جميعها)[(٢)].

ومن ثم تنمحق الأديان كلها، في ساح الباطنية الفساح، فلا يميز دين من دين، ولا دين من ملة، ولا ملة من نحلة، ولا آية محكمة من فلسفة مظلمة. ومن لبان هذه المعاني ارتضع أرباب وحدة الوجود، ودهاقنة الباطنية. فقد حكى بطرس البستاني (أن سنان بن سليمان الملقب برشيد الدين من عظماء الإسماعيلية ورؤسائها كان يكب على مطالعة رسائل إخوان الصفاء)[(٢)].

وقال مصطفى غالب ـ الكاتب الإسماعيلي المعاصر ـ: (هذا هو دين الحب الإنساني الذي بشروا به ودعوا إليه. ومن الطبيعي أن يتأثر بأفكارهم هذه عباقرة الفلاسفة من المتصوفين، وعلى رأسهم

---

(١) رسائل إخوان الصفا. (٩/ ٤٨٧، ٤٩١).

(٢) رسائل إخوان الصفا. (٧).

محيي الدين بن عربي الذي نادى بدين الحب ووحدة الوجود ووحدة المعبود)[١].

البهائية:

ومن فروع هذه الشجرة الباطنية الخبيثة، فرقة «البهائية»، المنسوبة إلى مؤسسها الميرزا حسين علي المازندراني[٢]، المتلقب بـ «البهاء» أو «بهاء الله»، الفارسي، المولود سنة ١٢٣٣هـ، الذي ورث دعوة «البابية» إثر إعدام مؤسسها الباب، علي بن محمد الشيرازي[٣] سنة ١٢٦٥هـ ـ ١٨٤٩م. وكلا الداعيين أفاك أثيم، عُتُلٌ زنيم، ادعى ما ليس له، وتشبع بما ليس فيه، ولكن البهاء كان أكثر مراوغة وذكاء، واحتماء بأعداء الإسلام، فاستحالت دعوته دعوة عالمية، واسعة الانتشار، وإن

---

(١) إخوان الصفا. مصطفى غالب (١١٧ ـ ١١٨) عن الحركات الباطنية في العالم الإسلامي (١٨٥).

(٢) البهاء (١٢٣٣ ـ ١٣٠٩هـ): حسين علي نوري بن عباس بن بزرك، الميرزا، المعروف بالبهاء، أو بهاء الله. رأس «البهائية» ومؤسسها. إيراني مستعرب، أصله من «مازندران». اعتنق دعوة «البابية»، واتهم بالاشتراك في مؤامرة لاغتيال شاه إيران، فاعتقل ونفي إلى بغداد. دعا إلى بدعته في العراق والآستانة، فنفي إلى أدرنة ثم إلى سجن عكا. ثم أفرج عنه والتف حوله مريدوه، ودفن في حيفا. من آثاره: «الأقدس»، و«الإيقان»، و«الهيكل»، انظر: الأعلام (٢/٢٤٨).

(٣) الباب (١٢٣٥ ـ ١٢٦٦هـ): علي محمد ابن الميرزا رضىٰ البزاز الشيرازي. مؤسس البابية، التي هي أصل البهائية. إيراني. تقشف في صباه، فكان يمكث في الشمس ساعات عديدة، وأثَّر ذلك في عقله، ولما بلغ الخامسة والعشرين سنة ١٢٦٠هـ جاهر بعقيدة ظاهرها توحيد الأديان وقوامها تلفيق دين جديد. فادعىٰ أنه «الباب» ثم «المهدي المنتظر» وتبعه خلق كثير. قام عليه علماء الشيعة، فحوكم وسجن، ثم قتل رمياً بالرصاص. له كتاب «البيان» وغيره. انظر: الأعلام (٥/١٧).

كانت قليلة الأتباع(١). وساعده على ذلك مناداته بالتقارب بين الأديان، والوحد العالمية(٢)، ونسخ الجهاد، والتنصل من أحكام الإسلام، وموالاة اليهود والنصارى، وهي مسوغات كافية لدعمه وتشجيعه وتمكين أتباعه، من قبل الاستعمار الإنجليزي والروسي في ذلك الزمان.

يقول الميرزا حسين المازندراني «البهاء»: (يا علماء الأمم غضوا الأعين عن التجانب، وانظروا إلى التقارب والاتحاد، وتمسكوا بالأسباب التي توجب الراحة والاطمئنان لعموم أهل الإمكان)(٣).

وهو لا يدعو إلى مجرد إقرار جميع الديانات القائمة، ولكنه يدعو إلى وحدة الأديان بالانسلاخ من الأديان السابقة، واعتناق ديانة ملفقة نحتها عقله المأفون من جميع الأديان، ونسخت ما سبقها. فالبهائية (ليست ديناً جديداً: إنها الديانة المجردة، والتي تقوم على قمة أهرامات الديانات البرتستنتية والكاثوليكية والإسلامية واليهودية والبوذية... إلخ التي تتصارع بعضها مع بعض، وهي تحاول أن تجلب الجميع رغم أنوفهم إلى صفوفها، لأنها وحدها فقط الديانة الحقيقية، وكل الديانات الأخرى خاطئة، وغير صحيحة)(٤). ولهذا يقرر أنه (ليس لأحدٍ أن

---

(١) انظر في تاريخ هاتين الدعوتين وعقائدهما: حقيقة البابية والبهائية: د. محسن عبد الحميد. المكتب الإسلامي، بيروت - لبنان، دمشق - سوريا. الطبعة الثانية (١٣٩٥هـ = ١٩٧٥م)، البهائية: تاريخها وعقيدتها وصلتها بالباطنية والصهيونية، عبد الرحمٰن الوكيل، البابية: عرض ونقد. إحسان إلهي ظهير، البهائية. السيد محب الدين الخطيب، البهائية والقاديانية: د. أسعد السحمراني.

(٢) يقول المستشرق جولد تسيهر: (بينا البابية، في حقيقتها ترمي إلى إصلاح الإسلام، يتقدم بهاء الله بفكرة واسعة النطاق، وهي إيجاد ديانة عالمية يتحقق بواسطتها الإخاء الديني بين الناس كافة) العقيدة والشريعة في الإسلام (٢٧٥).

(٣) نبذة من تعاليم بهاء الله. (١٢٣). عن حقيقة البابية والبهائية. (٢٠٧ - ٢٠٨).

(٤) مقالة عن البهائية، للمستشرق الفرنسي دريفوس ص٨ نقلاً عن البهائية والقاديانية د. أسعد السحمراني. (٨٨).

يتمسك اليوم إلا بما ظهر في هذا الظهور. هذا حكم الله من قبل ومن بعد، وبه زين صحف الأولين)[١].

ومن ثم فقد نادى البهاء (أن يتحد العالم على دينٍ واحد، ويصبح جميع الناس إخواناً، وتتوثق عرى المحبة والاتحاد بينهم، وتزول الاختلافات الدينية)[٢]، ولكن كيف تزول الاختلافات الدينية، ويتحد العالم على دينٍ واحد؟ يكون ذلك بالدعوة إلى «الديانة العالمية» والتبشير بها، وهي البهائية الملفقة من شظايا الديانات الأخرى. يقول عباس عبد البهاء[٣] ـ ابن مؤسس الفرق البهائية: (لقد خطر ببالي أن أطوف البلاد الغربية، وأدعو في المنتديات الكبرى، وفي الكنائس، إلى وحدة العالم الإنساني حسب تعاليم حضرة بهاء الله، وأروج فكرة الصلح العام، وأرفع عقيرتي على قدر استطاعتي وأقول للعالم: الحمد لله لقد طلعت شمس الحقيقة من أفق الشرق[٤]، وأرسلت أشعتها على جميع العالم، وإن أشعتها هي تعاليم السماء فهي تدعو العالم بأجمعه إلى الاتحاد والسلام العام، وإلى التحري عن الحقيقة، وتأسيس التآلف والمحبة بقوة الدين، وتحكيم العلم والعقل والدين في المعاملات)[٥].

---

(١) الأقدس. (١٢). عن البهائية والقاديانية (٨٦).

(٢) بهاء الله والعصر الجديد. ل: أسلمنت ج.أ (١٢١). عن البهائية والقاديانية (٩١).

(٣) عباس عبد البهاء (١٢٦٠ ـ ١٣٤٠هـ): عباس عبد البهاء بن حسين علي نوري، الملقب بالبهاء. صحب أباه في نفيه إلى العراق والأستانة وأدرنة وعكا. خلف أباه في قيادة البهائية وتنظيم جماعتها سنة ١٣٠٩هـ. زار أوربا وأمريكا عامي (١٣٣٠، ١٣٣١هـ)، وعاد إلى فلسطين، فمات بحيفا. وله أتباع في أوربا وأمريكا وغيرها من دول العالم. من رسائله، مكاتيب عبد البهاء، الخطابات. انظر: الأعلام (٣/ ٢٦١)

(٤) الحقيقة أنها شمس طلعت بين قرني شيطان من مشرق الفتن.

(٥) من رسالة بعث بها عبد البهاء إلى مدير مجلة المشرق البريطانية عام ١٩١٣. نقلاً عن المصدر السابق (٩٥).

لقد جهر البهاء بما أَسَرَّه إخوان الصفاء بعد تسعة قرون. وهلك بعد ألف سنة من مهلك سلفه الحلاج سنة ١٣٠٩هـ.

ثالثاً: طلائع العصرانيين:

لعل أول من جهر بالدعوة إلى التقريب بين الأديان من الإسلاميين في العصر الحديث مؤسس المدرسة العصرانية الحديثة، وواضع لبناتها الفكرية الأولى: جمال الدين الأفغاني(١)، إذ يقول: (.. هكذا نجد الأديان الثلاثة: الموسوية، والعيسوية والمحمدية على تمام الاتفاق في المبدأ والغاية، إذا نقص في الواحدة شيء من أوامر الخير المطلق استكملته الثانية... لقد لاح لي بارق أمل كبير: أن تتحد أهل الأديان الثلاثة مثل ما اتحدت الأديان في جوهرها وأصلها وغايتها، وبهذا الاتحاد يكون البشر قد خطوا نحو السلام خطوة كبيرة في هذه الحياة القصيرة.

وأخذت أضع لنظريتي هذه خططاً، وأخط أسطراً، وأحبر رسائل للدعوة، كل ذلك وأنا لم أخالط أهل الأديان كلهم عن قربٍ وكثب، ولا تعمقت في أسباب اختلاف حتى أهل الدين الواحد، وتفرقهم فرقاً

---

(١) هو محمد بن صفدر، ولد سنة ١٢٥٤هـ ١٨٣٨م، قيل في أسعد آباد التابعة لولاية كنر من أفغانستان، وقيل في أسد آباد التابعة لهمدان في إيران. كما اختلف في نسبه فقيل إنه شريف ينتهي نسبه إلى الحسين بن علي ﷺ، وقيل بل هو فارسي الأصل. وقد طوّف البلاد الإسلامية وغير الإسلامية وكتب في الصحف، وألف الكتب، ودعا إلى ما أسماه بـ«الجامعة الإسلامية». وشخصيته غامضة مريبة، اتهم بالرفض وبالانخراط في الماسونية. توفي سنة ١٣١٥هـ ـ ١٨٩٧م. انظر: الأعلام ٦/١٦٨ ـ ١٦٩، دعوة جمال الدين الأفغاني في ميزان الإسلام (٩ ـ ٥٤). جمال الدين الأفغاني وفلسفة الجامعة الإسلامية: سمير أبو حمدان، الشركة العالمية للكتاب (دار الكتاب العالمي) بيروت ـ لبنان. الطبعة الأولى (١٤١٣هـ = ١٩٩٢م). (١٥ ـ ٧٤).

وشيعاً وطوائف. ولكن لما علمت أن دون اتحاد أهل الأديان تلك الهوات العميقة، وأولئك «المرازبة»[١] الذين جعلوا كل فرقة بمنزلة «حانوت»، وكل طائفة كمنجم من مناجم الذهب والفضة، ورأس مال تلك التجارات ما أحدثوه من الاختلافات الدينية والطائفية والمذهبية... علمت أن أي رجل يجسر على مقاومة التفرقة، ونبذ الاختلاف، وإنارة أفكار الخلق بلزوم الائتلاف، رجوعاً إلى أصول الدين الحقة فذلك الرجل هو هو، يكون عندهم قاطع أرزاق المتجرين في الدين، وهو هو في عرفهم الكافر الجاحد المارق المخردق المهرتق، المفرق.. إلخ.. إلخ)[٢].

• ويتبين من هذا النص ما يلي:

١ ـ أن «وحدة الأديان» في نظر الأفغاني لا تقتصر على الاتفاق في المبدأ والغاية ـ مع أن هذا غير مسلَّم بعد ما طرأ التحريف على اليهودية والنصرانية ـ ولكنها تعني أيضاً «التلفيقية» بدليل قوله: إذا نقص في الواحدة شيء استكملته الثانية.

٢ ـ أنه لا يرى «الإسلام» ناسخاً لما قبله من الأديان، ولا «مهيمناً» عليها، بل ينظر إلى الأديان الثلاثة على حدٍ سواء.

٣ ـ وبه يتبين أي لون من الائتلاف كان يدعو إليه، وأي لونٍ من

---

(١) جمع مرزبان (هو بضم الزاي: أحد مرازبة الفرس. وهو الفارس الشجاع المقدم على القوم دون الملك. وهو معرَّب) النهاية في غريب الحديث والأثر: ابن الأثير، مجد الدين، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري. تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية. بيروت ـ لبنان. طبعة (١٣٨٣هـ = ١٩٦٣م). (٣١٨/٤).

(٢) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني، د. محمد عمارة. القاهرة، ٢٩٦٨م. (٢٩٠ ـ ٢٩٥).

الاختلاف كان ينبذه، فهو يريدها ديانة فضفاضة ينضوي تحت لوائها كل جاهل زنديق لا يقيم وزناً للحدود والرسوم، بل يردد شعاراتٍ عامة لا تلتزم بما جاء به ﷺ من الهدى ودين الحق. وهذا ما يفسر المقاومة العنيفة التي قوبلت بها دعوته من وصفه بالكفر والجحود والمروق... إلخ مما أفصح عنه، وعد ذلك محافظة على الأرزاق والنفوذ من قبل معارضيه المتجرين بالدين بزعمه.

٤ ـ وأخيراً، فإن هذا الاعتراف الشخصي يدل على قِدم الفكرة في ذهنه وعشعشتها في خياله في مقتبل عمره، قبل أن يخالط أهل الأديان في الهند وإيران وبريطانيا وفرنسا وروسيا، كما يدل على تخطيط وعمل ودعوة لهذه الفكرة بكتابة الرسائل والتأليف. ثم جاءت سيرته الذاتية شاهداً عملياً على نظريته في توحيد الأديان، فقد كان تلاميذه خليطاً من اليهود والنصارى[١].

وقد تبعه على هذا المنهج أخص تلاميذه، وأشهرهم نسبةً إليه، وهو الشيخ محمد عبده[٢]، الذي حدث عن نفسه قائلاً: (في أثناء نفيي

---

(١) انظر: العصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التغريب: محمد حامد الناصر، مكتبة الكوثر، الرياض. الطبعة الأولى (١٤١٧هـ = ١٩٩٦م). (٣٦٨ ـ ٣٦٩).

(٢) محمد عبده بن حسن خير الله، التركماني، ولد عام ١٢٦٦هـ ـ ١٨٤٩م في قرية محلة نصر في مصر. تعلم بالجامع الأحمدي بطنطا، ثم بالأزهر، وتصوف وتفلسف، ولما قدم جمال الدين الأفغاني إلى مصر عام ١٨٧١م اتصل به وافتتن به. ناصر الثورة العرابية فسجن ثم نفي إلى بلاد الشام سنة ١٢٢٩هـ ١٨٨١م. ثم سافر إلى باريس، والتقى بشيخه الأفغاني، وأصدرا معاً جريدة «العروة الوثقى» وعاد إلى مصر عام ١٣٠٦هـ ـ ١٨٨٨م، وعين قاضياً. وتوثقت صلته باللورد كرومر، المندوب السامي لبريطانيا أثناء احتلالها لمصر. ثم ولي منصب المفتي العام للديار المصرية عام (١٣١٧هـ = ١٨٩٩م). وتوفي بالإسكندرية عام (١٣٢٣هـ = ١٩٠٥م). انظر: الأعلام (٦/ ٢٥٢)، الفكر الإسلامي المعاصر (١٣ ـ ٥٤)، الإمام محمد عبده. جدلية العقل والنهضة.

في دمشق سنة ١٨٨٣م كان أحد القسس في إنجلترا واسمه «إسحاق تيلور»[(١)] يقوم بالدعاية لتوحيد الإسلام والنصرانية، على أساس فكرة التوحيد الموجودة في الإسلام، والموجودة عند الكنيسة الإنجليكية[(٢)]. وكان لي صديق فارسيٌ «اسمه ميرزا باقر»[(٣)]، يعتقد إمكان تحقيق هذه الفكرة. وقد تمكن هذا من إقناعي أنا وآخرين من علماء دمشق بكتابة رسالة إلى تيلور في الموضوع. وما إن وصلت هذه الرسالة إلى القس تيلور حتى فرح بها ونشرها، مستعيناً بها على إثبات صحة دعواه)[(٤)].

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل تابع الإيراني المتذبذب ميراز باقر مهمته للجمع بين رجالات الدينين الإسلامي والنصراني لتحقيق فكرة التقريب. ويصف محمد رشيد رضا[(٥)]، تلميذ محمد عبده، ومؤرخ

---

(١) نقل محمد رشيد رضا قطعاً من مقالاته في الصحف الإنجليزية في الثناء على الإسلام والدعوة إلى التقارب مع النصرانية. انظر تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١/ ٨٢٢ ـ ٨٢٧).

(٢) التوحيد في الإسلام ليس مجرد «فكرة» بل هو «عقيدة» راسخة، ربانية المصدر، وليست بشرية من نتاج الأفكار كما عبر الكاتب. أما الكنيسة الإنجيليكية فلا تخالف سائر الكنائس بالقول بالتثليث. وحاشا الإسلام أن يكون موافقاً لها في مسألة الألوهية والتوحيد.

(٣) ذكر محمد رشيد رضا أن ميرزا باقر كان إيرانياً قد تنصر، وتسمى بميرزا يوحنا، ونشط في الدعوة للنصرانية. ثم أظهر توبته وعودته إلى الإسلام وشارك في ترجمة بعض المقالات الإنجليزية لجريدة العروة الوثقى، وكان يحتج بالقرآن دون الحديث على أصول الإسلام التي يدعو إليها ويعمل بها، وكان له شذوذ في ذلك غريب.
انظر تاريخ الأستاذ الإمام (١/ ٨١٧ ـ ٨١٩).

(٤) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر: د. محمد محمد حسين. مؤسسة الرسالة. بيروت. الطبعة الرابعة (١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م). (٢/ ٣١٩) (نقلاً عن مجلة الهلال عدد فبراير ١٩٣٩م ذي الحجة ١٣٥٧ س٤٧ ص٣٩٠ ـ ٣٩٣).

(٥) محمد رشيد بن علي رضا الحسيني، ولد ونشأ في «القلمون» من أعمال=

سيرته الذاتية ـ الخطوة التالية بقوله: (عرف ميرزا باقر في لندن وغيرها بعض رجال الإنكليز المستقلي الفكر، المحبين لحرية البحث في الدين. ولما وُجد هو والأستاذ الإمام في بيروت بعد تعطيل العروة الوثقى اجتمعا فيها بالأستاذ بيرزاده، وعارف أبي تراب، تابع السيد الأفغاني، وبجمال بك نجل رامز بك التركي، قاضي بيروت الشهير.. وألفوا جمعية سياسية دينية سرية موضوعها التقريب بين الأديان السماوية الثلاثة، وإزالة الشقاق بين أهلها، والتعاون على إزالة ضغط أوربة عن الشرقيين، ولا سيما المسلمين منهم، وتعريف الأفرنج بحقيقة الإسلام وحقيته، من أقرب الطرق، وقد دخل في هذه الجمعية مؤيد الملك أحد وزراء إيران، وحسن خان مستشار السفارة الإيرانية في الأستانة، وبعض الإنكليز واليهود. وكان من أعضائها من رجال الدين في لوندرة القس إسحاق طيلر، بل كان هو داعيتها هنالك، ومن رجال الحكومة «جي، دبليو، لينتر» مفتش المدارس في الهند. وكان الأستاذ الإمام صاحب الرأي الأول في موضوعها ونظامها، وميرزا باقر هو الناموس «السكرتير» العام لها»[(١)].

كما أشار رشيد رضا إلى موقف محمد عبده من أحد دعاة التقريب النصارى، واسمه «خريستفورس جبارة»، الذي كان ناشطاً

= طرابلس الشام عام ١٢٨٢هـ ١٨٦٥م. هاجر إلى مصر سنة ١٣١٥هـ، ولازم الشيخ محمد عبده وتتلمذ له. وأنشأ مجلة المنار عام ١٨٩٨م. وقد زار عدداً من الأقطار الإسلامية والأوربية، وكتب وألف. وتأثر أخريات عمره بالدعوة السلفية، وطبع في مطابع المنار كثيراً من كتب أئمة السلفية. وتوفي فجأة عام ١٣٥٤هـ ـ١٩٣٥م. انظر: الأعلام (١٢٦/٦)، الشيخ رشيد رضا والخطاب الإسلامي المعتدل: سمير أبو حمدان. الشركة العالمية للكتاب. دار الكتاب العالمي. بيروت ـ لبنان. الطبعة الأولى (١٤١٣هـ = ١٩٩٢م). (٩ ـ ٥٥).

(١) تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده: محمد رشيد رضا. مطبعة المنار. مصر. الطبعة الأولى (١٣٥٠هـ = ١٩٣١م). (٨١٩/١ ـ ٨٢٠).

متحمساً لهذه الدعوة في أمريكا، فقال: (ثم جاء إلى مصر وألف فيها كتباً ورسائل كثيرة يوفق فيها بين التوراة والإنجيل والقرآن، فحرمته الكنيسة الأرثذوكسية. وكان قد وصل من رتبها الكهنوتية إلى رتبة «لارشمندريت»، وكذلك قابله المسلمون بالهزء والسخرية، إلا الأستاذ الإمام، وصاحب المنار، فاحتمل من الإيذاء ما هو معهود في كل من يدعو الناس إلى خلاف ما هم عليه)[1].

ومن هذه الوقائع والاعترافات الشخصية نستخلص ما يلي:

١ - اقتناع الشيخ «محمد عبده» بفكرة التقريب بين الأديان، وأخذه زمام المبادرة، ونظرائه، بالكتابة إلى القس الإنكليزي إسحاق تيلور، داعية التقريب النصراني، وكان ذلك عام ١٣٠١هـ - ١٨٨٣م في دمشق.

٢ - الانتقال من طور الفكرة إلى العمل، بعد عودته من باريس، إثر تعطيل جريدة العروة الوثقى عام ١٨٨٥م، فأسس مع موافقيه جمعية التقريب بين الأديان السماوية، في بيروت بصفة سرية، وكان صاحب الرأي الأول فيها.

٣ - ضلوع الرافضة المبكر، بل وقوفهم خلف قيام هذه الجمعية فكرة وعملاً ومشاركة، كما يتضح من جهود الإيراني ميرزا باقر، ومؤيد الملك، وحسن خان، وكلهم إيرانيون.

٤ - استمرار هذه الفكرة لديه بعد عودته إلى مصر عام ١٣٠٦هـ - ١٨٨٨م وتعيينه مفتياً عاماً، كما يتضح من إيوائه لداعية التقريب «خريستفورس جبارة» وحدبه عليه.

وبهذه المواقف الفكرية والعملية لرائدي المدرسة العصرانية، تم

(١) تاريخ الأستاذ الإمام (١/ ٨٢٧).

إرساء دعامة كبيرة من دعائم الاتجاه العصراني الحديث، وهي الدعوة إلى «وحدة الأديان»، وتمييع الحواجز والحدود بين دين الله الحق الذي لا يقبل الله ديناً سواه، وهو دين الإسلام الذي جاء به محمدٌ ﷺ عقيدة وشريعة، والأديان المحرفة المنسوخة من اليهودية والنصرانية.

وقد تتابع تلاميذ هذه المدرسة على النسج على منوال أشياخهم، وترديد أفكارهم، بل والتوسع والإيغال فيها بما تقشعر منه جلود المؤمنين، ويذكر بمقالات الزنادقة والملحدين.



الفصل الثالث

حقيقة التقريب بين الأديان في العصر الحديث

جرت الإشارة في الفصل الأول من هذا الباب إلى الاتجاهات العامة لدعوة التقريب بين الأديان. وفي هذا الفصل نحاول الوقوف عن كثب على حقيقة هذه الدعوة لدى مختلف الفرقاء من خلال وثائقهم الرسمية أو كتابات زعاماتهم الدينية في هذه الحقبة من التاريخ المعاصر.

ونظراً لكون الجانب النصراني هو صاحب المبادرة في هذه الدعوة وتفعيلها على اختلاف طوائفه، وهيئاته الرسمية، فسيتم عرض موقفه بشكلٍ أكثر تفصيلاً، ثم نتبعه بالحديث عن اليهود، ثم الإسلاميين العصرانيين: على النحو التالي:

١ ـ المبحث الأول: حقيقة التقريب بين الأديان عند الكنيسة الكاثوليكية.

٢ ـ المبحث الثاني: حقيقة التقريب بين الأديان عند مجلس الكنائس العالمي.

٣ ـ المبحث الثالث: حقيقة التقريب بين الأديان عند النصارى العرب.

٤ ـ المبحث الرابع: حقيقة التقريب بين الأديان عند اليهود.

٥ ـ المبحث الخامس: حقيقة التقريب بين الأديان عند الإسلاميين العصرانيين.

المبحث الأول

حقيقة التقريب بين الأديان عند الكنيسة الكاثوليكية

تعني كلمة «كاثوليكية» جامعة. وهو الوصف الذي تضمنه الإيمان النيقاوي الذي أقر في مجمع «نيقية» سنة ٣٢٥م للكنيسة الشرعية، فجاء فيه: (وأعتقد بكنيسة واحدةٍ جامعة رسولية)(١).

وقد اعتبرت الكنيسة الغربية التي مقرها حاضرة الفاتيكان(٢) في روما نفسها مستحقةً لهذا الوصف دون ما سواها من الكنائس، بدعوى أن مؤسسها هو «بطرس» حواري المسيح ورسوله، بل كبير الحواريين ورئيسهم، والباباوات بعده خلفاؤه(٣). وكان أخطر وأكبر انقسام جرى في تاريخ الكنيسة هو الانفصال بين روما والقسطنطينية عام ١٠٥٤(٤)، أفضى إلى تمايز مزمن بين:

---

(١) راجع التمهيد. (٩٦ ـ ٩٨).

(٢) الفاتيكان Vatican: مقام البابوات في روما. يتألف من البلاط والمعابد والمتاحف والمكتبة... ودولة الفاتيكان: دولة اعترفت بها إيطاليا في معاهدة «لاتران» ١٩٢٩م. رئيسها «البابا»، مساحتها نحو ٤٤ هكتاراً، عدد سكانها لا يتعدى الألف شخص. تتألف من كنيسة القديس بطرس، والبلاط البابوي وملحقاته، بالإضافة إلى القصور والبنايات الموجودة في العاصمة الإيطالية، و(كاستل غوند ولفو) خارج حدود مدينة الفاتيكان. المنجد في الأعلام (١٥٦)، وانظر على سبيل التوسع كتاب: الفاتيكان عاصمة الكثلكة في العالم. تأليف بول بويار. منشورات عويدات. بيروت.

(٣) انظر: محاضرات في النصرانية (١٤٦).

(٤) انظر: تاريخ الكنيسة المسيحية. (٣٨١ ـ ٣٩٠).

١ ـ الكنيسة «الرومانية» «اللاتينية» «الكاثوليكية».

٢ ـ الكنيسة «البيزنطية» «اليونانية» «الأرثوذكسية».

وقد تبادلتا قرارات الحجب والحرمان عبر القرون، وتحاولان التقارب في النصف الأخير من هذا القرن(١).

وتعد الكنيسة الكاثوليكية أكبر الكنائس النصرانية أتباعاً، إذ يتجاوز عددهم تسعمائة مليون نسمة موزعين في شتى أنحاء العالم، ويتركزون في دول الغرب القديمة: إيطاليا وفرنسا وألمانيا وأسبانيا وغيرها(٢)، بالإضافة إلى مستعمرات تلك الدول في أمريكا اللاتينية ـ الجنوبية ـ والفلبين.

وتتميز الكنيسة الكاثوليكية بتنظيم هرمي دقيق، يتربع على سدته «البابا» أسقف روما، وخليفة بطرس الرسول ـ كما يزعمون ـ ويلقب بـ«الحبر الأعظم». وقد منحته بعض مجامعهم صفة «العصمة»(٣).

المجمع الفاتيكاني الثاني:

أطلق المجمع الفاتيكاني الثاني المنعقد في مدينة «روما»، في الفترة الممتدة من ١٩٦٢م إلى ١٩٦٥م، عقال الكنيسة الكاثوليكية في نظرتها وتعاملها مع الآخرين المخالفين، من النصارى أتباع الكنائس

---

(١) انظر: تاريخ الحركة المسكونية: الأب: روبير كليمان اليسوعي. ترجمة الأب: صبحي حموي اليسوعي. دار المشرق. بيروت ـ لبنان. الطبعة الأولى ١٩٩١م. ج(١، ٢).

(٢) انظر: تاريخ الكنيسة الشرقية، وأهم أحداث الكنيسة الغربية: المطران ميشيل يستيم. الأرشمندريت أغناطيوس ديك. معهد القديس بولس للفلسفة واللاهوت. حريصا. المكتبة البولسية. بيروت ـ لبنان. الطبعة الثالثة ١٩٩١م. (٣٨٨).

(٣) جرى ذلك في المجمع الفاتيكاني الأول عام ١٨٦٩م.

الأخرى، وغير النصارى من اليهود والمسلمين، بل والوثنيين والعلمانيين.

ولقد كان هذا المجمع حدثاً كبيراً، ومنعطفاً خطيراً، في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية، التي آلت إلى حالة من الجمود والشلل في أعقاب الحربين العالميتين، وما أعقبهما من تغيرات كبرى في العالم، وانفتاح بين الشعوب والأفكار والمعتقدات. وكان لا بد لهذه الكنيسة الصارمة أن تنفض عنها غبار القرون الوسطى، ولغتها الإملائية لتتمكن من العيش في هذا الواقع الجديد المنفتح، أو تقبل لنفسها ومؤسساتها ذات التنظيم الهرمي التراتبي الدقيق بالموت البطيء، والانحسار التدريجي أمام الأيديولوجيات التي تنافسها بقوة على الساحة العالمية، وعلى الأخص في عقر دارها «أوربا الحديثة»، التي اعتنقت الديموقراطية والحرية، وانعتقت من نير الكنيسة وسلطانها الكهنوتي.

لقد وجدت الكنيسة الكاثوليكية نفسها في مطلع النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي أمام ثلاثة خيارات فيما يتعلق بصلتها بالعالم:

(١ ـ موقف «الجيتو»[١] الهارب إلى عالمه الخاص، والمنكفئ على ذاته.

٢ ـ موقف التحريم، والاقتراب من العالم فقط بهدف إدانته.

٣ ـ موقف الحوار)[٢]. ولا ريب أن المصلحة اقتضت ترجيح الخيار الثالث، حتى مع بعض التنازلات الجوهرية، والتخلي عن بعض التقاليد والأفكار العتيدة، في سبيل مواكبة حركة المجتمع الإنساني التي

---

(١) الجيتو أو «الغيتو» Ghetto تعني في الأصل حي اليهود، حيث ينعزل اليهود عادة في تجمعات سكنية خاصة، ولا يختلطون بالسكان المجاورين. ثم صار تعبيراً شائعاً في الدلالة على العزلة.

(٢) انظر: الإسلام والمسيحية. إليكسي جورافسكي (١٦٤).

لم تنتظر إذناً من الكنيسة، ولم تعد تخشى حجباً أو حرماناً منها. ومن ثم كانت ولادة المجمع الفاتيكاني الثاني.

وبعد ما يقرب من أربع سنوات من المداولات والمجادلات، بل والنزاعات بين التيار المحافظ والتيار التقدمي، تبنت الكنيسة الخيار التقدمي المنفتح على الآخرين، مما يعد «تطويراً لاهوتياً» في هذا المجمع (الذي أدخل في الكنيسة نهجاً جديداً في التفكير اللاهوتي والعمل الراعوي)(١). فبعد أن كانت الكنيسة ترى أنها وحدها تمتلك «الحقيقة المطلقة»، وأنه لا سبيل إلى «الخلاص»(٢) إلا عن طريقها، أبدت قرارات المجمع الفاتيكاني الثاني مرونةً وتنازلاً عن هذه المعتقدات العتيدة التي كانت الأساس في القرون السابقة لقرارات الحجب والحرمان.

جاء في أول دساتير المجمع (الكنيسة: دستور عقائدي) فقرة ١٦: (... بيد أن تدبير الخلاص يشمل أيضاً أولئك الذين يؤمنون بالخالق، وأولهم المسلمون الذين يعلنون أنهم على إيمان إبراهيم، ويعبدون معنا الله الواحد الرحمن الرحيم، الذي يدين الناس في اليوم الآخر)(٣). وهذا النص (يسجل تغيراً جذرياً في موقف الكنيسة

---

(١) انظر مقدمة: المجمع الفاتيكاني. (٢١) للمطران كيرلس سليم بسترس. وانظر فصل: المجمع الفاتيكاني الثاني ولاهوت التحرر من كتاب: الحوار الإسلامي المسيحي ضرورة المغامرة (٧٩ ـ ٩٣). والراعوي أو الرُّعوي أو الرعِائي اصطلاح كنسي تنظيمي فـ (الراعي... كل من ولي أمر قومٍ كالأسقف والبطريرك وغيرهما... والرعية... الخاضعون لأوامره. ومنهُ رعية الأسقف ونحوه) المنجد (٢٦٨).

(٢) الخلاص: مصطلح كنسي عقدي يعني (النجاة... يوم الخلاص: الفوز بآخرة صالحة. المخلِّص: لقب السيد المسيح) المنجد (١٩١). وراجع العقائد النصرانية في التمهيد. (٩٠ ـ ٩٣).

(٣) المجمع الفاتيكاني الثاني: دساتير، قرارات، بيانات (٥٢).

الكاثوليكية بالنسبة إلى سائر الأديان. وهو تغير لا رجوع ممكن عنه... وهو ملزم بما للمجمع المسكوني من سلطة)[١].

وفي البيان المتعلق بعلاقة الكنيسة بالأديان غير المسيحية: (..والكنيسة الكاثوليكية لا تنبذ شيئاً مما هو في هذه الديانات حقٌ ومقدس، وتولي تقديرها باحترامٍ صادق هذه الطرق المسلوكة في العمل والحياة، وهذه القواعد والتعاليم التي وإن اختلفت في أمور كثيرة عما تقول به وتُعلِّمُه، تحمل غير مرة قبساً من شعاع الحقيقة التي تنير جميع الناس. غير أنها تبشر، ويجب أن تبشر بلا انقطاع بالمسيح الذي هو «الصراط والحقيقة والحياة» (يو ١٤: ٦).

من أجل ذلك تحرض أبناءها على الاعتراف بالقيم الروحية والأدبية والاجتماعية والثقافية التي توجد عند أتباع الديانات الأخرى، والمحافظة عليها وإنمائها، وذلك بطريق الحوار والتعاون معهم، بمقتضى الفِطنة والمحبة، مع الشهادة للإيمان والحياة المسيحية).

وبعد هذا الانفتاح العام على الآخرين، والاعتراف بما لديهم من قيمٍ ومثل في سابقة ليس لها نظير في الخطاب الكنسي، يتوجه البيان إلى خصوصية المسلمين بهذه الدعوة فيتابع قائلاً: (وتنظر الكنيسة أيضاً بتقدير إلى المسلمين الذين يعبدون الله، الواحد الحي القيوم، الرحمن، القدير، الذي خلق السماء والأرض، وكلم الناس. إنهم يسعون بكل نفوسهم إلى التسليم بأحكام الله، وإن خفيت مقاصده[٢]، كما سلم لله إبراهيم الذي يفخر الدين الإسلامي بالانتساب إليه، وإنهم على كونهم

---

(١) البيانات الإسلامية المسيحية. جولييت حداد (٢٨).

(٢) يزعم نصارى المجمع الفاتيكاني أن روح المسيح يعمل بطريقة خفية في جميع الأديان والتقاليد الأخرى. وأن ما فيها من حق وصواب فمن أثره الخفي. وسيأتي لذلك مزيد تفصيل.

لا يعترفون بيسوع إلهاً، يكرمونه نبياً، ويكرمون أمه العذراء مريم، مبتهلين إليها أحياناً بإيمان[١]. ثم إنهم ينتظرون يوم الدين الذي يجازي الله فيه جميع الناس بعد ما يبعثون أحياء. من أجل هذا يقدرون الحياة الأدبية، ويعبدون الله بالصلاة والصدقة والصوم خصوصاً.

ولئن كان قد وقع، في غضون الزمن، كثير من المنازعات والعداوات بين المسيحيين والمسلمين، فإن المجمع يحرضهم جميعاً على نسيان الماضي، والعمل باجتهاد صادق في سبيل التفاهم فيما بينهم، وأن يحموا ويعززوا كلهم معاً، من أجل جميع الناس، العدالة الاجتماعية، والقيم الروحية، والسلام والحرية).

ثم يتوجه البيان الكنسي إلى اليهود، فيذكر بأواصر الرحم والقربى، والتراث الروحي المشترك بين ورثة العهد القديم وورثة العهد الجديد، ويخلص إلى القول: (وبإزاء هذا الواقع، واقع التراث الروحي العظيم، المشترك بين المسيحيين واليهود، يريد المجمع أن يشجع ويحرض على التعاون والتقدير المتبادل بين الملتين، وذلك خصوصاً بالدراسات الكتابية واللاهوتية، وبطريق الحوار أيضاً).

وفي مسعىً مُلَطَّف لتبرئة اليهود من دم المسيح في زعمهم، ـ خلافاً لما درج عليه النصارى طوال القرون السالفة ـ يتابع البيان قائلاً: (ولئن يكن ذوو السلطان من اليهود ومشايعوهم هم الذين دفعوا على قتل المسيح، فإن ما اقترفته الأيدي إبان آلامه لا يمكن إسناده، في غير تمييز، إلى جميع اليهود الذين عاشوا آن ذاك، ولا إلى اليهود العائشين في عصرنا. من أجل ذلك لا يجوز على كون الكنيسة هي الشعب

---

(١) هذا من افتراء النصارى على المسلمين. فالمسلمون لا يبتهلون إلا إلى الله وحده، ولا يدعون أحداً سواه قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن].

الجديد لله (!) أن يُشَهَّر باليهود بأنهم منبوذون من الله، وأنهم ملعونون، كما لو كان ذلك يستنتج من الكتاب المقدس. فليحرص الجميع إذن، في التعليم المسيحي، وفي الوعظ بكلمة الله، ألَّا يعلموا شيئاً لا يتوافق مع حقيقة الإنجيل وروح المسيح.

وإلى ذلك فإن الكنيسة التي تستنكر جميع ألوان الاضطهاد لجميع الناس أياً كانوا، ولا قِبَل لها بأن تنسى التراث المشترك بينها وبين اليهود تأسف ـ لا لبواعث سياسية ألبتة بل بدافع من محبة الإنجيل الدينية ـ للأحقاد والاضطهادات وجميع مظاهر العداء للسامية التي ألمَّت باليهود، أياً كان عهدها، وأياً كان فاعلوها)[1].

وبالنسبة لموقف الكنيسة الكاثوليكية من الإسلام والمسلمين على وجه الخصوص يصور الكاتب الروسي أليكسي جورافسكي حجم النُّقلة قائلاً: (للمرة الأولى منذ أربعة عشر قرناً من وجود المسيحية والإسلام يتحدث مجمع مسكوني كاثوليكي بصورة إيجابية عن المسلمين، معترفاً بوضعهم الديني المتميز. ولهذا شبهت المطبوعات الكاثوليكية التغير الحاصل في موقف الكنيسة تجاه الإسلام بـ«الانقلاب الكوبرنيكي»[2]. وهو تشبيه غير مبالغ فيه، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن رسالة البابا بيوس الثاني عشر Fideil donum الصادرة في أواخر الخمسينيات (١٩٥٧م) رأت في انتشار الإسلام في أفريقيا «خطراً على الكنيسة»، وأن كتاب «تاريخ الإرسااليات الكاثوليكية»، المؤلف من أربعة

(١) المجمع الفاتيكاني الثاني (٦٢٩ ـ ٦٣١).

(٢) نسبة إلى العالم الفلكي البولوني «كوبرنيك Copernic (١٤٧٣ ـ ١٥٤٣) الذي برهن على دوران الكرة الأرضية على ذاتها وحول الشمس. انظر المنجد في الأعلام (٥٩٦) خلافاً للفكرة السائدة آنذاك من كون الأرض مركز الكون، فأحدث انقلاباً كبيراً في علم الفلك، وهذا وجه التشبيه.

مجلدات، والصادر في المرحلة نفسها، نظر إلى نشاط الإسلام وفعاليته العالمية ككارثة تضاهي خطر الشيوعية)[١].

إن هذه الفقرات من دساتير المجمع الفاتيكاني الثاني وبياناته، لتمثل موقفاً عقدياً جديداً، تبني عليه طريقة عمل جديدة أيضاً. وهي تمثل أساساً متيناً لمشروع الحوار والتقارب بين الكنيسة والأديان الأخرى، وقاعدة انطلاق عريضة استند عليها الناشطون من دعاة التقارب والحوار منذ ذلك الحين. وبتحليل تلك الفقرات نلمس ما يلي:

أولاً: إيجاد المسوغ العقدي لمشروعية الحوار بتوسيع دائرة الخلاص، وإمكان شمولها غير النصارى. وهي خطوة هامة وضرورية بالنسبة للكنيسة حتى تقيم جسور التواصل مع المخالفين الذين كانوا في نظرها سابقاً «كفاراً»، و«محرومين من ملكوت الله». هذا مع عدم التخلي عن البشارة بالمسيح مطلقاً.

ثانياً: الاعتراف بالأصول الإيمانية، العقائد والشرائع الدينية لدى المسلمين، وإن لم يبلغ الأمر الاعتراف بنبوة محمد ﷺ، لما يستلزم ذلك من لوازم تعني نسخ الديانة النصرانية.

ثالثاً: إبداء الأسف على النزاع التاريخي العدائي مع المسلمين، والاعتذار لليهود مما نالهم من اضطهاد وتشهير.

رابعاً: دعوة المسلمين واليهود إلى التفاهم والتعاون عن طريق الحوار الأخوي.

وبالمقابل، فقد أبدى الكاتب الروسي إلكسي جورافسكي في تحليله العميق لمقررات المجمع الفاتيكاني الثاني تجاه الإسلام جملة

---

(١) الإسلام والمسيحية. (١٣٧ ـ ١٣٨).

من التعقبات، إذ يقول: (.. لكن اللباقة القصوى للنص لم تتمكن مع ذلك من إخفاء بعض التناقضات المبدئية، والنقاط الخلافية الجدية بين الديانتين، وعلى الرغم من الحل الإيجابي الذي قدمه المجمع للمشكلة المسيحية القديمة حول موقع المسلمين في عقيدة «الخلاص Salut»، فإنه صرح بتحفظٍ وأشار من بعيد إلى وضع الإسلام في ما يتعلق بالتقليد التوراتي وبالوحي.. وقد امتنع المجمع عن الإشارة القاطعة والصريحة إلى اتباع المسلمين «ملة إبراهيم»، حيث يشير إلى ارتباط المسلمين بالتقليد الإبراهيمي، ولكن ليس من الناحية التاريخية، وإنما من حيث التبعية الإيمانية لإبراهيم[(١)].

وقد سكت المجمع عن مشكلة وثوقية وصحة المكانة النبوية لمحمد، مع أن هذه المسألة جرى التعرض لها أثناء المناقشات والمداولات، حيث اقترح بعض المؤتمرين إدخال تعديلٍ على القسم السادس عشر من مسودة الدستور العقائدي «الكنيسة» يؤكد أن المسلمين (يعبدون معنا الإله الواحد الرحيم، الذي كلَّم الناس بالأنبياء)، إلا أن اللجنة اللاهوتية المختصة ألغت هذه العبارة، نظراً لأنها يمكن أن تؤول

(١) يشير الكاتب إلى قضية مهمة وهي اعتقاد النصارى أن عهد الله لإبراهيم قد تحقق عبر فرع إسحاق في عيسى ﷺ، ولم يسر في الفرع الإسماعيلي إلى محمدٍ ﷺ. وكذب النصارى، وصدق الله العظيم إذا قال لخليله إبراهيم ﷺ: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة]. فما أبعد إخوان القردة والخنازير من اليهود، وعباد الصليب والصور من النصارى عن عهد الله، وملة إبراهيم الذي دعا ربه وهو يرفع القواعد من البيت ـ الكعبة ـ ومعه ابنه البكر إسماعيل ﷺ، قائلين: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة]. فكانت هذه الأمة وكان هذا الرسول ﷺ.

بشكل مثيرٍ للإشكال، كأن يفهم منها أن الله «تكلم عبر محمد» في حين أن التصريح الختامي صاغ هذه العبارة بصورة مقتضبة: «الذي كلم الناس».

من الملاحظ، أن كثيراً من النواحي، وخصوصاً تلك التي تتناقض مع طقوس المذهب الكاثوليكي ظلت خارج دراسة المجمع. كما لم تناقش المشكلات المتعلقة مثلاً برأي الإسلام بالقدرة الكلية ـ المطلقة للإله، وحرية الاختيار الإنساني[(١)].

كما لم يتعرض المجمع للمسائل ذات الصلة بمفهوم الأمة والكنيسة، وقضايا الوحي والإيمان، والدنيا والآخرة والعلمانية... إلخ علماً بأنه بالنسبة للوعي الديني، فإن هذه المسائل تشكل معطيات محددة للغاية، ولا يمكن فصلها عن النواحي الاجتماعية ـ الثقافية للتعاون والحوار بين هاتين الديانتين)[(٢)].

ورغم هذه التعقبات المهمة، تبقى قرارات المجمع الفاتيكاني الثاني معلماً بارزاً في رحلة التقارب بين الأديان.

الكتب والوثائق الكاثوليكية المتعلقة بقضية التقريب بين الأديان:

لِتبيُّن فهم الكنيسة الكاثوليكية لنصوص المجمع، وأسلوب تطبيق مقرراته، نختار بعض الكتابات والوثائق التي تجلي حقيقة التقريب في نظر الكنيسة:

أ ـ (نحو حوارٍ مع الإسلام):

من أقدم البيانات الكاثوليكية بعد المجمع الفاتيكاني الثاني، المقالة التي كتبها «لويس جاردت»، ونشرتها أمانة سر شؤون غير النصارى عام ١٩٦٦م بعنوان «نحو حوار مع الإسلام»، واستهلها

---

(١) دأب النصارى على وصف الإسلام بمذهب «الجبرية»! ربما لاعتقادهم أن العقيدة الأشعرية هي المعتمدة.

(٢) الإسلام والمسيحية: (١٤٥ ـ ١٥١).

بتوجيه لأبناء ملته قائلاً: (.. إن القيم المسيحية التي تبدو في حياة أولئك الذين يستقر إيمانهم في بواطنهم، لا تستدعي أن يظهروا ذلك الإيمان على صيغة سبابٍ للقيم الإسلامية، وإنما عليهم أن يجعلوا غايتهم «رصف الحجارة» التي توجد حقاً في الإسلام مثل «الثقة بالله، والصبر على شدة البلاء، والإخلاص والصدق...»، تلك الصفات التي ظهرت في أفضل أشكالها في حياة المسلمين الروحية، على الإنسان أن يتعلم كيف يجد المسرة في الثناء على هذه الصفات دون تحفظ)[١].

وبعد هذه المقدمة، يختار الكاتب «مواضيع محتملة للبحث» في الحوار الإسلامي المسيحي، هي عبارة عن: (ثلاثة «إرشادات عظيمة» تسيطر ليس فقط على فكر المسلم، ولكن على توجهه الكامل إلى العالم والإنسان والله، والتي تدفعني إلى الاعتقاد أنها مفيدة بشكل خاص من أجل استمرار البحث)[٢].

وهذه القضايا «الإسلامية» التي يريد الكاتب أن يجعلها مادة للبحث والحوار، يحاول عرضها بطريقة حذرة، ذكية، وبأساليب ملتوية، هي على النحو التالي:

أولاً: (.. القضية الكبرى في الفكر اللاهوتي الإسلامي، مشكلة ازدواجية السببية؛ السببية الإلهية، والسببية الإنسانية، أو مشكلة أفعال الله وأفعال الإنسان، ويتبع ذلك مشكلة حرية الإنسان.

---

(١) Towards a Dialoge with Islam. Louis Gardet Secretaraitus pro-non Christainis: Bulletin, VOL, NO.3 نحو حوار مع الإسلام. لويس جاردت. عن مجموعة وثائق صادرة عن المؤسسة الإسلامية، ليستر. بعنوان الحوار بين النصارى والمسلمين ج(٢)، (٢، ٣).

(٢) المرجع السابق، (٢، ٣).

إن المشكلة هنا ليست مجابهة بين الفكر المسيحي والفكر الإسلامي، بقدر ما هي «جهد مشترك للتفكير» في قضية «السلوك». ونترك المجال للتقدم الحديث في علوم الإنسان وفي المعرفة نفسها، وقد يجد الفكر الإسلامي نفسه مدعواً إلى التجديد والتقدم، دون إضاعة طبيعته الخاصة)[١].

أليس هذا الكلام ترديداً لما افتراه بعض المستشرقين من اتهام العقيدة الإسلامية بـ«الجبر»، بناءً على جنوح بعض الفرق الإسلامية في مسألة «أفعال العباد»؟ وليس المقصود نقاش هذه القضية طبعاً[٢]، ولكن التنبه لطبيعة القضايا المرشحة للحوار، والتي يتعين على الفكر الإسلامي كما يتوقع الكاتب أن يحدث «تجديداً» و«تقدماً» فيها!

ثانياً: مفهوم «الشهادة»: بعد تحليل فلسفي لمدلول الشهادة يصل الكاتب إلى جملٍ واضحة لعلها «بيت القصيد» فيقول: (.. تقوم النصرانية بمواجهة التحولات الظاهرية، والعمق النفسي بقضية الشخص وأساسه الوجودي بالمقابلة مع التصرفات ومواضيعها خارج فكره، وتتركز المشكلة الإسلامية على الشهادة وتهتم بها بشكلٍ ربما كان شديد العنف، ولكنها مشكلة تثير بدورها التساؤل عن الشيء المثبَت بكل نتائجه وقيمة الحكم على الوجود والحكم على الحقيقة)[٣].

لم يشأ الكاتب أن يستدعي بعض المصطلحات الدينية في معنى

---

(١) المرجع السابق، (٣).

(٢) العقيدة الإسلامية المستمدة من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ تثبت للإنسان إرادة واختياراً وفعلاً وقدرة، ولكنها تابعة لإرادة الله وقدرته كما قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير]، وقال ﷺ لأصحابه لما قالوا: أفلا نتكل؟: (لا، اعملوا فكل ميسر لما خلق له) رواه مسلم (٤/ ٢٠٤٠).

(٣) المرجع السابق، (٤).

الشهادة النصرانية، لأن السياق لا يناسب أن يقول في هذا المقام: «المسيح هو السبيل الأوحد إلى الله، ولا خلاص خارجاً عنه». وتلك هي الشهادة النصرانية في أبسط صورها، ولكنه يلمز الشهادة الإسلامية بكونها تؤدي «بشكل ربما كان شديد العنف» وذلك في إشارة واضحة إلى «الجهاد في سبيل الله» الذي يثمر الشهادة في أعظم صورها، ويسمى من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا «شهيداً» إذا قتل في هذا السبيل.

وبالتالي، فالكاتب يريد أن يخضع قضية «الجهاد» التي تقض مضاجع المستعمرين النصارى لمبضع الجراح لكن من خلال دائرة أوسع، وتحت عنوانٍ آخر هو مفهوم الشهادة، ويبدي تشوفه لحدوث تغيير أو تعديل في الموقف الإسلامي حين يقول: (إنني راغب جداً في أن أعتقد أن هناك مجالاتٍ جديدة تظهر أمام الفكر الإسلامي ليستكشفها فيما يتعلق بالشهادة...)[1].

ثالثاً: «القيم الخلقية الإسلامية». يقول الكاتب: (.. إن الإسلام في الماضي لم يقم بصياغة لاهوته الخلقي بنفسه، لقد كان يكفي أن يبرز العناصر حيثما تتطلب فرائض الله المتعلقة بمفاهيم القانون الإلهي «التكليف» استجابة أساسية من «المؤمن». ويبدو غريباً أن التقدم الحديث في علوم الإنسان لم يجعل المفكر المسلم يعيد النظر في مشكلة «التكليف» في إطار الأبعاد المتجددة لعلم الإنسان، وعلم الاجتماع، وبتعبير آخر ضمن أبعادٍ فلسفيةٍ خُلقيةٍ تأخذ بعين الاعتبار الماديات الأساسية لوضعِ لاهوت خلقي)[2].

إن الكاتب يعيد صياغة شبهات المستشرقين والمبشرين بطريقة

---

(١) المرجع السابق، (٤).
(٢) المرجع السابق، (٤).

«حوارية». فأحد المطاعن التي يدندن حولها المستشرقون والمبشرون أن الإسلام دين تكاليف و«أحكام شرعية»، وأن «الفلاح» في نظر المسلمين إنما يكون بحسب التزام المسلم بهذه الأحكام فعلاً وتركاً، بخلاف النصرانية التي تخلي عهدة أتباعها من جميع الالتزامات والأعمال اكتفاءً بالإيمان القلبي بالمسيح(١).

والكاتب يحاول أن يقرر أن هذه الجملة من التكاليف الخلقية ليست من أصل الإسلام في صياغتها الحالية، وفي ذلك إشارة إلى ما يزعمه البعض من أن الفقهاء المتأخرين هم الذين قننوا هذه الأعمال وأكسبوها الصفة الشرعية. ولذلك يبدي الكاتب استغراباً حول عدم تأثير التقدم الحديث في علوم الإنسان في إعادة النظر في مشكلة «التكليف».

وغير خافٍ على كل مسلم أن تدينه لله رب العالمين مبني على أساس متين من العقيدة والشريعة المحفوظة التي لم تنلها أيدي التحريف والتبديل، وأن مجموع تلك العقائد والشعائر (الإيمان والعمل الصالح) هو الموصل إلى «الفلاح» الدنيوي والأخروي بعد رحمة الله تعالى، ولكن القوم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله.

ثم يتساءل الكاتب أخيراً: (ألا تستطيع هذه الإرشادات الثلاثة المتلاقية في نقطة واحدة أن تحدد مجالاً ما يمكن فيه القيام بحوار خاص مثمر بين الفكر النصراني والإسلامي؟)(٢).

ومن حقنا نحن أن نتساءل: هل الحوار الذي تسعى إليه الكنيسة الكاثوليكية مع المسلمين يعني إثارة شبهات المستشرقين، وإن بشكلٍ مهذب، ونقل الحوار إلى قضايا تخص أحد الطرفين، ليقوم الطرف الآخر بتقويمها، وتقديم الحلول المناسبة من خلال المنظور الكنسي؟

---

(١) راجع مبحث الشريعة عند النصارى في التمهيد (٩٨ ـ ١٠١).
(٢) المرجع السابق، (٥).

لِمَ لم يطرح الكاتب معضلات العقيدة الكاثوليكية وأسرارها السبعة التي تأباها الفطر والعقول السليمة كما يشهد التاريخ والواقع فهي أولى بالاستجلاء والاستكشاف، كعقيدة التثليث والصلب والفداء والخلاص وعصمة البابا... إلخ(١)؟

إن هذه المقالة تكشف نوعاً من أنواع الأداء المبكر في أسلوب الحوار النصراني الإسلامي، يستهدف بحث مسائل عقدية، يأخذ الجانب النصراني فيها بزمام المبادرة والتخطيط والتوجيه، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٣٠﴾ [الأنفال].

ب ـ (توجيهات في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين):

ومن الإصدارات المهمة للكنيسة الكاثوليكية في مجال الكشف عن حقيقة التقريب بين الأديان لديها ما كتبه الأب «موريس بورمانس» بعنوان: «توجيهات في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين»، وحظي بمراجعة لفيفٍ من كبار الآباء والخبراء في طبعته الثانية عام ١٩٨٠م، وتبنته ونشرته أمانة السر للعلاقات بغير المسيحيين (التوطئة الحوار وقيام تعاون بين المسيحيين والمسلمين)(٢) مما يجعله وثيقة رسمية للكنيسة الكاثوليكية، وشرحاً لعبارات ومقاصد المجمع الفاتيكاني الثاني.

والكتاب في أصله موجهٌ إلى النصارى، وبالأخص الكاثوليك منهم. وقد أفصح مؤلفه عن غايته قائلاً: (إن الذين يدينون بالإسلام، والذين يتبعون «يسوع» يتساءلون اليوم عما كان لمسيرتهم معاً على الطريق من الأشكال المتنوعة، طوال أربعة عشر قرناً من التاريخ المضطرب، إن الله يدعوهم اليوم إلى استخلاص العبر من ذلك،

(١) راجع مبحث العقائد النصرانية في التمهيد (٨١ ـ ٩٥).
(٢) من مقدمة الرئيس المساعد لأمانة السر، جان جادو للكتاب (١٤).

ليعرفوا على وجهٍ أفضل، بلا ريب، أن سبل الحوار قد تصل بهم غداً إلى شهادة أنصع، وتعاون أخلص، في خدمة الله لمصلحة الناس وخير العالم. وهذه الفصول إنما كتبت لتساعد المسيحيين، ولا سيما الكاثوليك على ذلك، فقد دعاهم المجمع الفاتيكاني الثاني إلى العودة لما تقتضيه رسالة الحوار الصحيح، فيكون تقبلاً للآخر، وحديثاً عن الإيمان، ومشاركة في القيم. ولضمان هذه المرامي المجردة للحوار الذي كان قائماً على مر العصور، في الأوضاع التاريخية والحالات الشخصية الأشد تنوعاً، يجد المسيحيون في هذه الصفحات بعض الأفكار السريعة والمقترحات الوجيزة عن الأبعاد المتعددة لحوارهم الحاضر مع المسلمين)(١). ومن ثنايا هذا الخطاب الذي يوجهه الأب موريس بورمانس إلى مواطنيه، وأبناء ملته نلتقط بعض الجمل الكاشفة لحقيقة الحوار وغايته كما يراها أحد أقطاب المنادين بالحوار والتقارب المنتمين إلى الكنيسة الكاثوليكية:

■ (الحوار في جوهره يهدف إلى تعزيز التعاون بين الجميع، وجعلهم يتعمقون في عقيدتهم وتراثهم الديني، وإلى تنشيط التماسهم لمشيئة الله وحدها، ورجوع كل منهم إلى الرب الذي يخاطبه، ويغفر له، ويغير ما فيه إلى الأفضل، فلا يسوغ إذن، على الإطلاق، أن تكون غاية الحوار سعي المحاور إلى اجتذاب الآخر إلى دينه بأي ثمن، أو حمله على الشك في الإيمان الذي يغتذي به، بل على العكس، يعتزم المؤمنون، في «تنافس روحي» وتسابق مقدس، حيث «يستبقون الخيرات» (القرآن ٤٨,٥)(٢) أن يتعاونوا على «استباق

(١) توجيهات في سبيل الحوار (١٩).
(٢) الآية في سورة المائدة: ﴿فَٱسْتَبِقُوا ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [المائدة: ٤٨] وهذا الأسلوب في عزو الآيات محاكاة لأهل الكتاب في عزوهم إلى ما يسمونه (الكتاب المقدس) فينبغي الحذر من التشبه بهم.

أنفسهم»، فيصيروا خيراً مما هم عليه، في سياق ما دعاهم الله إليه، ليزدادوا قرباً منه، ويزيدوا من وزن الخير في العالم)[١].

■ وفي تقويمه للعلاقة الإسلامية بأهل الكتاب في العهد النبوي يقول: (إن الإسلام الذي نشأ في شبه جزيرة العرب متصدياً للشرك المكي، كان في وسعه أصلاً الاعتقاد بأنه النسيب الداني أو القاصي لليهودية القائمة في يثرب «المدينة» وفي غيرها من المدن، أو الجار الذي تربطه أواصر الود والتكامل مع تلك الجماعات في اليمن والحبشة القائلة بالطبيعة الواحدة، أو مع تلك الكنائس النسطورية[٢] في الإمبراطورية الساسانية، واليعقوبية[٣] أو الملكيّة[٤] في الإمبراطورية

---

(١) توجيهات في سبيل الحوار (٢٠).

(٢) النسطورية: النساطرة أو الأشوريوُّن طائفة من المسيحيين ينتسبون إلى نسطور بطريرك القسطنطينية. قطنوا في كردستان بين الموصل وأرمينية إلى أن تبدد شملهم بعد حرب ١٩١٤م. ازدهرت عندهم الحياة الرهبانية فأوفدوا المبشرين إلى آسيا الشرقية القرن (٦) ونشروا المسيحية في إيران والهند والصين، انضم قسم منهم إلى الكثلكة في القرن السادس عشر، وهم الكلدان). انظر: المنجد (٧٠٨).

(٣) اليعقوبية: (السريان: هم اليوم النصارى أبناء اللغة السريانية. انفصلت منهم جماعة عن كنيسة أنطاكية، على أثر المجادلات اللاهوتية حول طبيعة المسيح. وتلتقي مع الكنيسة القبطية في اعتناقها للمونوفيسية، وقولهما معاً بأن للمسيح طبيعة واحدة. وتنظمت في سورية وفي بلاد ما بين النهرين، بفضل يعقوب البرادعي، كنيسة يعرف أبناؤها باليعاقبة القرن (٦)، كما تفرعت منهم في القرن (٥) الكنيسة المارونيّة. وقد تكونت في القرن (٧) كنيسة سريانية كاثوليكية، وفي الهند طائفة لا يستهان بها من السريان هم المالنكاريون، ولها أتباع في العراق أيضاً. وطقوس السريان الكنسية مأخوذة من الطقس الأنطاكي، يستعملون فيها اللغة السريانية). انظر: المنجد في الأعلام (٣٥٤)، الموسوعة العربية الميسرة ١٤١٩هـ.

(٤) الملكانية: (المَلَكِيُّون: هو الاسم الذي أطلقه العرب على مسيحيي سورية=

البيزنطية. ولكن سرعان ما اعتُمد أسلوب التحريم والنبذ، فلم يعد الحوار الإسلامي المسيحي، الذي بدأ مأسوياً عند مباهلة المدينة (٦٣١) (القرآن ٦١,٣)[١] حين خضع مسيحيو نجران للدولة الإسلامية الفتية، وقبلوا عهد الذمة الذي فرضته، سوى سلسلة من المصادمات السياسية أو الثقافية أو الدينية، أوجدت فيها المماحكات الجدلية، والتحديات الأيديولوجية، جماً من الأفكار الخاطئة الناجمة عن إساءة في الفهم أو تسرع في الحكم، وتفاقمت الأمور على مر الزمن)[٢].

■ وفي محاولة لتحديد مفهوم «الحوار»: (إن كلمة «الحوار» وإن درجت في الاستعمال أكثر من اللزوم، وصارت عرضة للالتباس، حتى ليؤثر عليها البعض لفظة «المشاركة» أو «التلاقي» يراد بها هنا: التعبير عن نمطٍ من الوجود والعمل يأبى كل اعتزال، ويعني دائماً بالآخر، بل يعتقد أن العلاقة بالآخر هي التي تكوّن الشخصية. فمن الواجب إذن أن يكون الحوار الأمنية العميقة لكل مؤمنٍ جدّي صادق)[٣].

■ ويحدد الكاتب أربعة استعدادات أساسية في أشخاص المتحاورين، ضرورية في نظره لبلوغ حوار حقيقي، تكشف بدورها عن حقيقة ذلك الحوار وطبيعته:

= الذين خضعوا لقرارات المجمع الخلقيدوني (٤٥١)، وهم في ذلك من جهة الإمبراطور. انضم فرع منهم إلى الكنيسة الكاثوليكية القرن (١٨). والفرع الثاني هم الروم الأرثذوكس لغتهم الطقسية اليونانية والعربية). المنجد في الأعلام (٦٨٤).

(١) يشير إلى الآية (٦١ من السورة الثالثة، سورة آل عمران وهي آية المباهلة ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ [آل عمران].

(٢) المرجع السابق، (٢٥ ـ ٢٦).

(٣) المرجع السابق، (٤٥).

(١ ـ قبول الواحد للآخر: . . . يفترض استقبال المسيحيين والمسلمين بعضهم بعضاً قبول بعضهم للبعض الآخر، على ما بينهم من اختلافٍ عظيم، واحترام بعضهم بعضاً في تنوع تراثهم الديني، ومحاولة اكتشاف الآخر في جِدَّة اللقاء، سعياً إلى المزيد من التقدير والحب له. من هنا يجب أن يبدأ كل حوار. . .

٢ ـ التفاهم: . . . والمطلوب هو التلاقي في سبيل التفاهم، ومعرفة كل واحدٍ للآخر، لا كما هو فقط، بل كما يريد أن يكون أيضاً. . . ولكن تبادل الإعلام لن يكفي أبداً لبلوغ التفاهم. فعلى المتحاورين كذلك أن يتحرروا مما عندهم من عقد النقص أو التفوق، ويكونوا أكثر تقبلاً لما قد يبديه الآخر من توضيحاتٍ لذاته أو لتراثه الديني، بحيث يصبح كل واحدٍ في النهاية قادراً على أن يضع نفسه في موضع غيره. .

٣ ـ التعايش والمشاركة: على المسيحيين والمسلمين المدعوّين إلى أن يعترف بعضهم ببعض في أصالتهم، ويتبادلوا الشهادة لأمانتهم، أن يتلاءموا بعضهم مع بعض، ويخترعوا مواقف تعزز الوحدة، ويتعاونوا حيثما يشعرون بأنهم ملتزمون القيم نفسها، ولن نلح أبداً بكفاية على ما يتوفر للحوار من إغناء عندما يستطيع الجميع أن يأكلوا معاً، ويتعاضدوا في العمل، ويعانوا متضامنين الآلام نفسها، ويتقاسموا في نفس الأعياد الفرح والبهجة. . . إن الاعتراف لكل فردٍ وللجماعة التي ينتمي إليها بما يحق لهم من أفضال، وما يختصون به من فضائل يقوي حظ الحوار في بلوغ تكاملٍ أسمى.

٤ ـ الجرأة والمخاطرة: والحوار، في كل حال، هو دوماً مغامرة لا يعرف فيها المتحاورون إلى أين ينتهون، وبحسبهم أن تقوم بينهم الثقة، وأن يشرعوا في التخاطب والتعايش. ولا بد لذلك من فسحة من

الحرية حتى يجرب كل واحد فيها حظه، مع اجتهاده في مراعاة محاوره وجماعته)[١].

• - ويبرز الكاتب جملة من المحاذير والمحترزات التي تخالف روح الحوار الصادق - في نظره -.

(ليس أسوأ للحوار من السعي الكاذب إلى التكيف، وقوامه عند المسيحي، انتقاص إيمانه حين عرضه بحيث يجعله مقبولاً لدى المسلمين: إن الحوار يفقد كل معناه إذا انتقص الفريق المسيحي إيمانه إلى حد جعله عموميات، وحجب عقائده التي تفترق عما يؤكده القرآن.

وليس المقصود هنا تحولاً بالانتقال من دين إلى آخر، بفعل «مناورات» إيديولوجية أو مداخلات مجتمعية: المؤمنون الحقيقيون كلهم مجمعون على نبذ أشكال الاجتذاب الديني هذه، التي تليق بالإيمان الذي يعيشونه، وبالله الذي يخدمونه...

فلا مجال عندئذٍ لانتصار الواحد على الآخر، أو لاحتمال ضم الواحد إلى الآخر، أو للتباري في المجاملة والملاطفة: إن الحوار هو تساؤل في الإيمان، وتنافس أخوي في العمل «باسم الله»، «فما الحوار إلا صبرٌ طويل... (دعوة) تخلصت من أدران الجدل والدعاية... فتصبح أصلاً تفتحاً على الغير وانتباهاً إليه، تصبح بحثاً متواصلاً عن الحقيقة، وذلك بالتعمق في فهم القيم الدينية والإيمان بها إيماناً راسخاً، حتى تصير حياة الإنسان شهادة بحتاً...

إلا أن هناك خطراً دقيقاً قد يتهدد حوارهم المشترك، وهو الارتياب، الصحيح أو الباطل، بنوايا المحاور، فتنسب إليه أفكارٌ مبيتة تهدف إلى الاجتذاب الديني.

---

(١) المرجع السابق، (٤٩ - ٥١).

أو لا يتهم بعضهم الحوار اليوم بأنه أسلوبٌ جديد، بل «مناورة» بارعة، لضم الآخر إلى أيديولوجية من يقوم بالمبادرة، أو إلى إيمانه، فينبغي إذن تكرار القول أن الحوار الصحيح يفترض عند الطرفين العزوف عن السعي إلى حمل الآخر على تغيير دينه، على وجه مصطنع، أو حمله على الشك في معتقده الديني، وسيكون ذلك مسخاً أو خيانة للحوار الحقيقي. . .)(١).

ويلح الكاتب في مواضع كثيرة على «الارتقاء» بالحوار إلى مستوى «الحوار الروحي»، بل «الوحدة الروحية» الناتجة من الانفتاح على الآخر، والإعجاب بما لديه:

(إن حوار القيم الحضارية لا يمكن أن يكون فيه الكفاية للمؤمنين الذين يعلمون أن الحوار الأساسي هو الذي يفتتحه الله وينميه ويقوده إلى غايته مع كل واحدٍ منهم، في إطار تراثه الديني، وحسبما يراه الله في حرية مقتضياته غير المرتقبة. . .

فإذا كان عند المسيحيين والمسلمين كلامٌ كثير يتبادلونه عن القيم التي تهيمن على التزامهم خدمة البشر والمجتمع البشري، فهم يتبينون أيضاً أن بإمكانهم التحادث عن اختباراتهم الدينية بالمعنى الحقيقي، وعن جوابهم الشخصي للتلمسات الإلهية، وعن كنوز القداسة والصلاح التي أنمتها وادخرتها المسيحية والإسلام على مدى التاريخ. إن «الانفتاح في البحث الروحي» يدعو حينئذٍ كل محاور إلى الإعجاب بما يكتشفه عند المؤمنين في الديانات الأخرى. . .

هذه الدعوة إلى الوحدة الحية في نفوس المتحاورين من المسيحيين والمسلمين، تشبه المساعي المسكونية إلى لَمِّ شمل جميع الذين ينتمون إلى يسوع المسيح رباً أوحد. . .)(٢).

---

(١) المرجع السابق، (٥٧ ـ ٦٢).

(٢) توجيهات في سبيل الحوار (١٣٧ ـ ١٣٩).

● ويقترب الكاتب أكثر في تطبيق هذه الوحدة الروحية بأسلوبٍ عملي فيقول:

(والمسيحيون الذين يحضرون صلاة المسلم الأمين، التي يرددها خمس مراتٍ في اليوم يشعرون بالاحترام والإعجاب، وكذلك المسلمون الذين يشهدون أحياناً صلاة الساعات، أو صلاة القداس (الأفخارسيتا)[١] في جماعة مسيحية، يأخذهم العجب، ويحسون بالتعاطف. ومن مصلحة المسيحيين أن يزدادوا معرفةً لصيغ الصلاة العديدة عند محاوريهم من المسلمين، كما أن هؤلاء يجنون بلا ريب فائدة من إيلائهم الصلوات المسيحية انتباهاً أشد. وعلى حوار المؤمنين إذن أن يسهل هذا التبادل لكنوز الصلاة الروحية التي جمعها هؤلاء وأولئك على مدى التاريخ.

وقد يحدث أن يشعر المسيحيون والمسلمون بالحاجة إلى أن يصلوا معاً، ولكنهم يرون على الفور صعوبة تلبية تلك الحاجة. ويبدو أن على الجميع أن يحترم كل منهم احتراماً كاملاً قوام الصلاة الطقسية والعبادة المفروضة عند الآخر، دون أن يحاولوا أبداً المشاركة فيها مباشرة، على أن يتساهلوا ويقبلوا أن يشهدوها متعاطفين إذا ما دعوا إلى ذلك، أو طلبوا الحضور باسم الإضافة الإبراهيمية... قد يجد الفريقان في أسوة الأولياء والقديسين الجرأة الضرورية لاستنباط صيغ مشتركة جديدة للتسبيح والابتهال تجمعهما في اختبار للصلاة يتم في حياة كل منهما)[٢].

● ونختم هذه النقولات بإماطة اللثام عن موقف الكاتب، وموقف

---

(١) راجع مبحث الطقوس البدعية الكهنوتية عند النصارى في التمهيد. الأسرار السبعة (١٠١ ـ ١٠٢).

(٢) المرجع السابق، (١٤٧ ـ ١٤٩).

الكنيسة الكاثوليكية بالطبع، من الحوار في أخطر القضايا، وهي قضية التوحيد والألوهية، وحقيقة عيسى عليه السلام، فيقرر قائلاً: (ليس من النافع، بل قد يكون من الضار للحوار، إعادة الجدل وتوسيعه كما حصل في أوائل القرون الوسطى. ويبدو أنه من المستحيل التقريب بين المسيحيين والمسلمين في هذا المجال، باعتماد البراهين الفلسفية، أو الاستدلالات اللاهوتية الكلامية)[١].

ونكتفي بهذا القدر من كتاب «توجيهات في سبيل الحوار» لاستكناه حقيقة دعوة التقريب والحوار كما يراها الجانب النصراني، وهو يخاطب مواطنيه، وتتضح لنا معالم أساسية نستخلصها من العرض السابق:

أولاً: أن تاريخ العلاقات الإسلامية النصرانية خلا من الحوار بصورته الصحيحة، وعلى الأخص ما جرى في العهد النبوي مع نصارى نجران، حيث يصفه المؤلف بأنه «مأسوي» انتهى بالمباهلة والإخضاع، واعتمد أسلوب التحريم والنبذ. وما أعقبه بعد ذلك طوال التاريخ كان سلسلة من المصادمات والمماحكات والتحديات.

ومن ثم فالحوار المطلوب وليد هذا العصر الحديث. وأسلوب المناظرة والمجادلة والردود لا يتفق ومشروع الحوار الحقيقي المقترح.

ثانياً: حقيقة الحوار المطلوب انفتاح مطلق على الآخر يأبى كل اعتزال، ويعنى دائماً بالآخر، يتقبله ويحترم تراثه، ويحاول أن يكتشفه ويتعرف عليه، ومن ثَمَّ يتعايش معه ويشاركه آلامه وأفراحه، وينطلق معه في حوار مطلق بلا قيد ولا شرط إلى المجهول، (كالمسافرين في الطريق لا يعرفون جيداً إلى أين يقودهم الله، ولكنهم يقرون بأنه يريدهم أن يسيروا معاً)[٢]. تلك حقيقة الحوار وأسلوبه في نظر الكنيسة الكاثوليكية.

---

(١) توجيهات في سبيل الحوار (١٠٩).

(٢) المرجع السابق، (٦٢).

ثالثاً: هدف الحوار تعزيز التعاون بين الجميع، الموصل إلى التعمق في العقيدة والتراث الديني، الحامل للتغيير إلى الأفضل، ومحاولة الارتقاء نحو الوحدة الروحية، والمشاركة التعبدية، بل واستنباط صيغ مشتركة جديدة للصلاة والتسبيح يمارسها الطرفان معاً.

رابعاً: والحوار الحقيقي، والتقارب الصادق يربأ في نظر المؤلف عن محاولات الاجتذاب الديني والدعوي بجميع أشكاله، بل يعد ذلك خيانة لا تليق بالهدف النبيل الذي يسعى إليه. كما يرفض الحوار الصادق التكيف الكاذب والمجاملة على حساب الضمير والمعتقد، بل يؤكد الكاتب لمواطنيه النصارى أن مجرد التعبير عن إيمانه بعموميات، وحجب معتقده الذي يخالف صريح القرآن إلى الحد الذي يجعله مقبولاً لدى المسلمين انتقاص وسعي كاذب. كما لا بد لطرفي الحوار من السلامة من مشاعر الارتياب تجاه بعضهما بعضاً من تبييت نية مسبقة للضم والتشكيك والاجتذاب.

خامساً: ومع طلاقة الحوار، ورحابة الدعوة إلى الانفتاح، إلا أن للحوار حداً لا يجوز تخطيه، بل ولا الاقتراب منه، ذلك ما يتصل بعقيدة التثليث والتجسد والفداء في شخصية المسيح عيسى ابن مريم ﷺ، فالحوار هنا ضار بل مستحيل.

إن الحوار الذي يصفه الأب موريس بورمانس، شارحاً بذلك مضامين قرارات المجمع الفاتيكاني الثاني وأهدافه ليمثل نمطاً غريباً، وبدعة محدثة على منهج الدعوة الإسلامية في ماهيته وفي أسلوبه وفي غاياته.

إن الكاتب يغالي في تعظيم شأن الحوار وتمجيده، حتى يستحيل في حس القارئ إلى هدف بدلاً من كونه وسيلة. لقد عرف المسلمون منذ فجر الدعوة الإسلامية دعوة أهل الكتاب ومجادلتهم بالتي هي أحسن، بالحجة والبيان والدليل والبرهان، وتركوا في ذلك تراثاً

ضخماً، ولكن المحاور النصراني يريد أن يبرئ الحوار الصادق من أدنى تهمة للدعوة والاجتذاب والإقناع، ويرى في ذلك تعكيراً لصفاء الحوار!

كما استقر عند المسلمين بداهة أن أهم القضايا التي يجادلون فيها أهل الكتاب هي قضية التوحيد المطلق لله تعالى في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، ونبذ مظاهر الشرك وعبودية سوى الله تعالى، وعمدتهم في هذا الجدل الشرعي الصحيح قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝٦٤﴾ [آل عمران: ٦٤]. ولكن دعاة الحوار الحديث يريدون تنحية هذه القضية الأساسية وتحاشيها، لأن الحوار فيها يفسد الحوار، وهكذا يصبح الحوار غاية لا وسيلة. وفضلاً عن ذلك هو غاية غير واضحة يخبط المتحاورون فيه في التيه، بحرية ومغامرة لا يدرون إلى أين ينتهون! وكل ذلك مرفوض عقلاً، فضلاً عن كونه ردةً وزندقةً ديناً وشرعاً. ولا أدل على ذلك من تلك المطالب والمقترحات التي تقدم بها الكاتب للمشاركات الروحية من صلوات وابتهالات، لا يمكن أن يقبل بها مسلم يعي حقيقة دينه. وربما وجدت صدىً لدى بعض الزنادقة من المنتسبين إلى الإسلام من غلاة الصوفية الذين يسقطون الحدود والرسوم والشعائر، أو الفرق الباطنية الضالة. وهذا يفسر ميل الكاتب[1] وغيره من الآباء الروحيين للنصارى إلى أقطاب التصوف من القائلين بوحدة الوجود والاتحاد والحلول، وإعجابهم بهم، وتمجيدهم لهم، وذلك لاتفاق المشرب.

---

(١) انظر في المرجع السابق، (٨٩ ـ ٩١، ١٠٣، ١٠٥، ١٥٠).

ج ـ (حوار وبشارة: تأملات وتوجيهات في شأن الحوار بين الأديان والتبشير بالإنجيل):

وقد أثار هذا التحول التاريخي في موقف الكنيسة الكاثوليكية من الأديان سواءً ما يتعلق بالقاعدة النظرية حول توسيع فكرة الخلاص وشمولها من هم خارج الكنيسة، أو ما ترتب على ذلك من الدعوة إلى الحوار والبحث عن القيم المشتركة والتعاون في تنميتها، أثار جدلاً واسعاً في أروقة الكنيسة ذاتها وخارجها، واشتعل فتيل الجدل ـ بطبيعة الحال ـ في الملتقيات الأولى للمجمع الفاتيكاني الثاني عام ١٩٦٢م بين الدوائر الكنسية المحافظة في الفاتيكان والآباء التقدميين الراغبين في الانفتاح على عالم جديد منفتح.

وفي دورة المجمع الثانية عام ١٩٦٣م، بعد وفاة البابا يوحنا الثالث والعشرين وتتويج البابا بولس السادس، بلغ الجدل ذروته في مناقشة أهم دساتير المجمع المتعلق بتحديد هدف الكنيسة ورسالتها وعلاقاتها، ويصور الأب غابي هاشم البولسي هذه الأزمة بقوله: (احتل مشروع «الكنيسة[1]» مكان الصدارة في هذه الدورة، بل في أبحاث المجمع كله، ولا عجب في ذلك، لأن لهذا الموضوع أهميته الأساسية في حياة الكنيسة، إذ عليه يتم الاعتماد، وإليه يتم الرجوع في بناء الأسس اللاهوتية وانعكاساتها على سائر مضامير الحياة الكنسية، لقد شكل هذا المشروع المنعطف الخطير، وتسبب بأزمة حادة، وضعت مصير الكنيسة وتوجه المجمع على المحك. وسرى الريب في النفوس الضعيفة، فراحت تتساءل: هل تقوى الكنيسة على مواجهة ذاتها والانفتاح على العالم المعاصر، أم تتمسك بأهداب سلطة زمنية، وامتيازاتٍ إدارية، فتدير بالتالي ظهرها للفرصة الذهبية، ضاربة عرض

(١) المقصود مشروع صياغة الدستور العقدي الأول للمجمع المسمى «الكنيسة».

الحائط بآمال الكثيرين وتطلعاتهم؟ تلك لعمري أوج الأزمة التي بلغتها المناقشات قبيل التصويت التاريخي الذي جرى في ٣٠ تشرين الأول سنة ١٩٦٣م)[١].

وأسفر التصويت عن تفوق النزعة التقدمية، وتمخض المجمع عن تلك الوثيقة التاريخية المسماة «الكنيسة. دستور عقائدي» متضمنة تلك الفقرة المشار إليها آنفاً حول مفهوم الخلاص، والتخلي عن اعتبار الإسلام هرطقة دينية مسيحية، والاعتراف به ديناً رسمياً جديراً بالاحترام[٢]. وجرى جدل مماثل حول البيان المجمعي حول «علاقة الكنيسة بالأديان غير المسيحية»[٣]. ولكن الروح الانفتاحية، والعبارات التصالحية سادت في النهاية.

ولكن هذا الجدل الذي حسم رسمياً بصدور دساتير المجمع وقراراته وبياناته[٤] لم تنحسم مادته واقعياً في العقول والصدور. فثارت إشكالات متعددة حول بنوده المختلفة. ومن أبرز هذه الإشكالات المتصلة بموضوع بحثنا، معضلة العلاقة بين الحوار والبشارة، ومحاولة التوفيق بينهما. وسنلقي عليها بعض الضوء لكون ذلك يسهم بشكل جيد في كشف المفهوم الكنسي لقضية «الحوار» وأهدافه ومراميه، عند مقابلته بالقضية العتيدة التليدة لدى الكنيسة وهي «البشارة».

---

(١) من مقدمة: (المجمع الفاتيكاني الثاني) (١٦، ١٧).
(٢) المرجع السابق، (٥٢).
(٣) انظر مقدمة البيان في المرجع السابق، (٦٢٥، ٦٢٩).
(٤) (خرجت الكنيسة الكاثوليكية من المجمع بمجموعة من الوثائق التي تتفاوت قيمتها من الناحية الإيمانية، كما تدل على ذلك العناوين الرئيسية الثلاثة: فالدستور غير القرار، وكلاهما غير البيان، ذلك لأن الدستور يحمل سمة الديمومة، فيما القرار له صفة عملية، وأحكام مرتبطة بظروف الزمان والمكان، وأما البيان فإعلان موقفٍ من موضوع ما، وهو رهن بمناسبته التاريخية). من مقدمة كتاب: المجمع الفاتيكاني الثاني: دساتير، قرارات، بيانات) (٢٠).

وقد أصدرت أمانة السر للعلاقات بغير المسيحيين عقب الجمعية العمومية التي عقدت سنة ١٩٨٤م وثيقة بعنوان: «موقف الكنيسة من مؤمني سائر الأديان: تأملات وتوجيهات في شأن الحوار والرسالة» تضمنت ذكر أربعة أشكال من أشكال الحوار هي:

(أ ـ حوار الحياة: حيث يعمل الناس على أن يعيشوا بروح انفتاح وحسن جوار، مقتسمين أفراحهم وأحزانهم، ومشاكلهم ومشاغلهم الإنسانية.

ب ـ حوار الأعمال: حيث يتعاون المسيحيون والآخرون في سبيل تنمية كاملة وتحرر للإنسان غير منقوص.

ج ـ حوار التبادلات اللاهوتية: حيث يعمل أخصائيون على تعميق الفهم للتراث الديني لدى كلٍ منهم، وتقدير القيم الروحية الخاصة بكل منهم تقديراً متبادلاً.

د ـ حوار الخبرة الدينية: حيث يتقاسم أشخاصٌ متجذرون في تقاليدهم الدينية الخاصة ثرواتهم الروحية، من مثل ما يتعلق بالصلاة والتأمل، وبالإيمان وطرق البحث عن الله والمطلق)[1].

وبعد تحول «الأمانة» إلى «المجمع البابوي للحوار بين الأديان»، قام المجمع بمعالجة أوسع للقضية، وإعداد وثيقة جديدة بعنوان: «حوار وبشارة: تأملات وتوجيهات في شأن الحوار بين الأديان والتبشير بالإنجيل»، تم إقراراها في الجمعية العمومية للمجلس البابوي من أجل

---

(١) حوار بشارة: تأملات وتوجيهات في شأن الحوار بين الأديان، والتبشير بالإنجيل (٣١) وانظر: شرح هذه الأشكال بمزيدٍ من التفصيل عند: موريس بورمانس في: توجيهات في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين (٤٦ ـ ٤٨)، وعادل تيودور خوري في الفاتيكان والحوار الإسلامي المسيحي، مجلة الاجتهاد (٣١، ٤٦/٣٢ ـ ٥٠).

الحوار بين الأديان في نيسان ـ أبريل سنة١٩٩٠م[١]. وقد اشترك في وضع الوثيقة كل من: رئيس المجلس البابوي للحوار بين الأديان، ورئيس مجمع تبشير الأمم، ووقَّعاها في أيار ـ مايو سنة ١٩٩١م.

ونظراً لحداثة الوثيقة وأهميتها ورسميتها، فسنعتمدها مرجعاً أصيلاً في استجلاء حقيقة الحوار من وجهة النظر الكاثوليكية بعد خضوعه لمطارق النقد من داخل الكنيسة نفسها.

• في مقدمة الوثيقة تصوير لأبعاد المشكلة: (إن عمل الحوار يبعث في نفوس الكثيرين بعض المسائل. فهنالك من يبدو لهم في تفكيرهم الخاطئ، أن الحوار في رسالة الكنيسة الحالية، يجب أن يقوم مقام البشارة. وهنالك آخرون يقفون موقفاً معاكساً، ويمتنع عليهم فهم قيمة الحوار بين الأديان. وهنالك أخيراً من تولتهم الحيرة فتساءلوا قائلين: لئن بلغ الحوار بين الأديان هذه الدرجة من الأهمية، فهل فقدت الرسالة الإنجيلية دورها المُلِح؟ هل أصبح العمل على ضم الناس إلى حظيرة الكنيسة أمراً ثانوياً، أو بالأحرى نافلاً؟ من هنا الحاجة إلى بعض التوجيهات العقائدية والراعوية، ترمي هذه الوثيقة إلى المشاركة فيها، من غير أن تدعي التمكن من الإجابة الشافية عن شتى الأسئلة المعقدة التي يثيرها الموضوع)[٢].

تحاول الوثيقة أولاً إيجاد قاعدة لتسويغ وتبرير عملية الحوار مع غير النصارى بإثبات تضمن عقائدهم وتقاليدهم ما يستحق الاحترام والتقدير أولاً، ثم، وهذا هو الجديد هاهنا، إشعار النصراني أن تلك

---

(١) انظر مقدمة: حوارٌ وبشارة: تأملاتٌ وتوجيهات في شأن الحوار بين الأديان والتبشير بالإنجيل، المجمع البابوي للحوار بين الأديان. تعريب دائرة الترجمة في المكتبة البولسية. الطبعة الأولى ١٩٩٣م. (٧، ٨).

(٢) حوار وبشارة (٩).

الجوانب المشرقة لدى الآخرين إنما هي أثر للنعمة الحاصلة بيسوع المسيح بطريقة سرية غير مدركة لدى أولئك الأقوام:

• (... ينتج عن سر الوحدة هذا أن جميع المخلَّصين والمخلَّصات يشتركون، وإن بأشكالٍ مختلفة، بسر الخلاص عينه في يسوع المسيح بواسطة روحه. هذا ما يعيه المسيحيون جيداً بفضل إيمانهم فيما يغيب عن وعي الآخرين أن يسوع هو ينبوع خلاصهم. بيد أن سر الخلاص يشملهم بطرقٍ يعرفها الله، بفضل عمل روح المسيح غير المنظور. والواقع أن أعضاء الديانات الأخرى يستجيبون لدعوة الله، وينالون الخلاص بيسوع المسيح، بممارسة صادقة لما هو خير في تقاليدهم الدينية، واتباع توجيهات ضميرهم، حتى وإن لم يقروا ويعترفوا به على أنه مخلصهم)[1].

• (... إننا حين نؤكد أن التقاليد الدينية الأخرى تحتوي على «عناصر نعمة» لا نعني بذلك أن كل ما فيها ثمرة النعمة. فالخطيئة عملت في العالم. والتقاليد الدينية الأخرى، على ما لها من قيمة إيجابية، تعكس أيضاً حدود العقل البشري الذي يميل بعض الأحيان إلى اختيار الشر. وإن نظرة منفتحة وإيجابية على التقاليد الدينية الأخرى، لا تسمح لنا بالتغاضي عن التناقضات التي يمكن أن تكون بينها وبين الوحي المسيحي. وحيث يقتضي الأمر لا بد من الاعتراف بوجود تعارض بين بعض العناصر الأساسية للدين المسيحي، وبعض مظاهر هذه التقاليد)[2].

وهكذا تجمع الوثيقة أزمة «الخلاص» التي سبق أن أثبتها المجمع الفاتيكاني لغير النصارى، بيد العقيدة النصرانية، فالآخرون لم يهتدوا

---

(١) حوار وبشارة (٢٤، ٢٥).

(٢) حوار وبشارة (٢٤، ٢٥).

في نظر الكنيسة إلى طريق الله، وسبيل الخلاص، بصفة مستقلة، وإنما بنوعٍ من التأثير غير المدرك من الروح القدس، أحد أقانيم التثليث النصراني، وبالتالي فكل «عنصر نعمة» موجود في تلك الأديان والتقاليد الأخرى، فمن عمل يسوع. وما سوى ذلك مما لا تقره العقيدة النصرانية فمن أثر الخطيئة، ولا يمكن حينئذٍ التغاضي عنها.

وبهذا يتضح إن عملية «تأنيس» الحوار للرافضين له من الجانب الكاثوليكي، الذين يعتقدون أنه يعارض مهمة «البشارة»، تنطلق من محاولة نسبة ما لدى غير النصارى من معتقداتٍ وممارسات صائبة، إلى تأثرهم غير الواعي بعمل الخلاص النصراني، ومن هنا فقط، تستحق الاحترام والتقدير، فلا تعارض إذاً يقع في ضمير النصراني الذي يعتقد أنه يمتلك «الحقيقة المطلقة»، ما دامت عناصر الخير والصواب لدى الآخرين هي من تأثير الأسرار النصرانية، شعر الآخرون أم لم يشعروا.

فما أثر استبطان هذه الفكرة على قضية «الحوار»؟ تخلص الوثيقة إلى القول: (ذلك يعني إذن أن المسيحيين، وهم يعتقدون الحوار بروح منفتح مع أتباع التقاليد الدينية الأخرى، يستطيعون أن يحثوهم سلمياً على التفكير في محتوى معتقدهم، وعلى المسيحيين أنفسهم أن يقبلوا بدورهم أن يكونوا موضع تساؤل، ومع ما لديهم من ملء الوحي الإلهي في يسوع المسيح، قد تكون الطريقة التي يفهمون بها ديانتهم ويعيشونها بحاجة إلى تنقية)[1].

■ وبهذا الوضوح تفشي الوثيقة هدف الحوار وثمرته، وتوزع المهام على طرفي الحوار كالتالي:

١ ـ على أصحاب الديانات الأخرى إعادة النظر في مفردات عقائدهم، عَلَّهم أن يكتشفوا أصولها النصرانية التي أثمرت لهم هذه الممارسات والمعتقدات الصائبة.

---

(١) حوار وبشارة (٢٥، ٢٦).

٢ ـ على النصارى حثهم على ذلك بطريقة سلمية وهي «الحوار»، لا «المجابهة». وليس عليهم أن يعيدوا النظر في معتقداتهم، لأنها حقٌّ مطلق! . لكن عليهم أن يقبلوا ـ صابرين محتسبين ـ أن تكون تلك العقائد موضوع تساؤل من قبل الآخرين فحسب. ثم لا تنسى الوثيقة أن تكافئ المحاورين النصارى باعتبار ممارسة الحوار تتيح لهم «تنقية» تدينهم، و«تجديد» طريقة فهمهم له، وبذلك يلتقي «الحوار» و«البشارة» في هدفٍ مشترك، هو «الخلاص» بالمفهوم الكنسي. تقول الوثيقة: (في هذا الإطار يسهل أكثر فأكثر فهم السبب والمعنى اللذين يجعلان الحوار بين الأديان عنصراً جوهرياً من رسالة الكنيسة التبشيرية، والسبب الأساسي لالتزام الكنيسة بالحوار ليس «أنثروبولوجياً»[1] فحسب، بل لاهوتي أيضاً. ففي حوار يستمر مدى العصور، وهب الله الخلاص، ولم يبرح يهبه للبشر. والكنيسة وفاءً للمبادرة الإلهية توجب على نفسها إذن أن تدخل في حوار خلاصي مع الجميع)[2].

ويشرح القرار المجمعي «إلى الأمم» طبيعة هذا الحوار الخلاصي وحقيقته: (إن تلاميذ المسيح المتحدين بحياتهم وعملهم اتحاداً وثيقاً بالبشر، يتمنون أن يقدموا لهم شهادة المسيح الحقة، ويعملون من أجل خلاصهم حتى حيث لا يتمكنون من التبشير تبشيراً كاملاً بالمسيح. «إلى الأمم ١٢»[3].

وهكذا يتبين أن الحوار ليس مشروعاً مستقلاً، بل هو مشمول

---

(١) الأنثروبولوجيا Anthropology: علم الإنسان (علم يبحث في أصل الجنس البشري وتطوره وأعراقه وعاداته ومعتقداته) المورد: قاموس إنكليزي ـ عربي. منير البعلبكي. دار العلم للملايين. بيروت طبعة ١٩٧٦م الطبعة العاشرة. (٥٢).

(٢) حوار وبشارة (٢٩).

(٣) حوار وبشارة (٣٠).

بالمشروع الأساسي العتيد؛ البشارة. وما لا يدرك كله لا يترك جُلُّه. ولكن الوثيقة تعرب صراحة عن الأمنية النهائية حين تقول: (نظراً إلى هذا الهدف، أي قيام الجميع بارتداد أعمق إلى الله، يكون للحوار بين الأديان قيمته الخاصة. وفي أثناء هذا الارتداد، «قد يُولد القرار بالتخلي عن موقف روحي أو ديني سابق لاعتناق آخر» «موقف الكنيسة ٣٧»)[1].

وتمضي الوثيقة قدماً في التأكيد على ضرورة «إعلان بشرى يسوع المسيح»، وأصالة هذه المهمة، ودور الكنيسة، وطرائق إعلان البشرى، والعقبات التي تواجه ذلك[2]، حتى إن القارئ ليتساءل في ظل هذه التأكيدات الواضحة لأهمية التبشير المباشر الصريح، لِمَ الحوار إذن، وما الحاجة إليه؟

وتجيب الوثيقة عن هذا التساؤل في نهاية الفصل: (من البديهي إذن أن تكون الكنيسة لأسباب سياسية أو غير سياسية، في أوضاع يستحيل فيها عملياً إعلان البشرى، فتقوم برسالتها التبشيرية ليس فقطَ بحضورها وشهادتها، بل بنشاطاتها، كالالتزام بالإنماء البشري، وبالحوار نفسه. وأما في الأوضاع التي تتوافر فيها للناس الاستعدادات لسماع رسالة الإنجيل، والإمكانات للاستجابة لها، فينبغي للكنيسة أن تبادر إلى تطلعات هؤلاء الناس وتحقيق آمالهم)[3].

إن هذا النص يدل على أن «الحوار» تَقِيَّة تتخذ في الظروف غير المناسبة أو بعبارة أخرى: هو «أضعف الإيمان». فحينما يتعذر عملياً إعلان البشرى فلا أقل من طرح الموضوع للحوار، فلن يعدم المحاور

(١) حوار وبشارة (٣٠).
(٢) انظر: حوار وبشارة (٤٣ ـ ٦٤).
(٣) حوار وبشارة (٦٤).

فائدةً مهما قلّت: (الحوار الحقيقي بين الأديان يفترض من قبل المسيحي الرغبة في حمل الغير على معرفة يسوع ومحبته أكثر فأكثر. وإعلان يسوع المسيح يجب أن يتم بروح الحوار الإنجيلية، ولا شك أن النشاطين يبقيان متميزين. إلا أن التجربة تدل على أن الكنيسة المحلية وحدها، والشخص وحده يستطيعان أن يلتزما بهذا أو ذاك)(١).

العبارات واضحة المدلول جداً على كون الحوار وظيفة وقتية تمليها ظروف محلية يقدرها الفرد أو الكنيسة، وهو على كل حال يهدف إلى حمل الغير على معرفة يسوع ومحبته أكثر فأكثر. لقد سقطت الأقنعة، وظهرت الحقيقة من بين ركام الجمل الغائمة والعبارات المطاطية، والأساليب حمالة الأوجه. ونختم بهذا النداء الذي توجهه الوثيقة للنصارى:

(جميع المسيحيين مدعوون شخصياً ليكونوا شركاء بهاتين الطريقتين لإتمام هذه الرسالة الوحيدة للكنيسة، أي إعلان البشرى والحوار. أما شكل مشاركتهم فيرتبط بالظروف، وبدرجة إعدادهم لها. ولكن عليهم أن يتذكروا بأن الحوار كما قيل في السابق لا يكوِّن كل رسالة الكنيسة، وهو لا يستطيع أن يحل مكان إعلان البشرى إلا أنه يبقى متجهاً نحو إعلانها)(٢).

إن هذه التحولات، والتقلبات في مناخ الكنيسة الكاثوليكية تجاه قضية الحوار، لتكشف عن صراع مبطن بين أجنحة القوى داخل الكنيسة، والتي تمتد جذورها إلى المداولات الحامية التي دارت في أروقة المجمع الفاتيكاني الثاني أثناء مناقشة مسودات الدساتير والقرارات والبيانات بين أصحاب النزعات المختلفة. بل في الحقيقة

---

(١) حوار وبشارة (٦٧).

(٢) حوار وبشارة (٧٣).

إلى ما قبل المجمع ذاته فيما يتعلق بالإسلام والقرآن والنبوة، في مجال الدراسات الكاثوليكية المعاصرة(الإسلاميات)؛ إذ يشير إلكسي جورافسكي إلى وجود ثلاثة اتجاهات سابقة للمجمع:

(اتجاه الحد الأعلى: ويعترف أنصاره بصورة أو بأخرى بالطابع الإلهي للقرآن. أما الاتجاه المضاد فيمثل في التيار «المنغلق» أو «المتحفظ» إزاء الإسلام، ويطلق على أتباعه «أصحاب الحد الأدنى»... الذي يرى في الإسلام محاولة فاشلة قام بها حاخام مكي لتهويد العرب. مستخدماً لهذه الغاية «الأمي» محمد[١].

تيار الوسط: الموقف الرسمي للكنيسة المعاصرة ـ موقف الود، والانفتاح، والحوار مع المسلمين. مع أن موقفهم بالنسبة لنبوة محمد ﷺ، والطبيعة الإلهية للقرآن أكثر تحفظاً... وينطلق موقفهم من ضرورة الحوار والتقارب مع الإسلام في الميادين الاجتماعية والسياسية، والثقافية والروحية، مع ابتعادهم عن المنطقة التي لا تمس، أو التي لا تتحمل المناقشة المفصلة لحساسية الأمر، ونعني بها المسائل المتعلقة بالأسس والمبادئ العقائدية الكبرى في كلا الديانتين)[٢].

والحقيقة أن المجمع الفاتيكاني الثاني قد سجل انتصاراً لأنصار التقارب والحوار، لكنه لم يقضِ على الاتجاهات الأخرى، بل ظلت تصطرع في الخفاء، (ففي مرحلة ما بعد المجمع الفاتيكاني الثاني، برزت في الكاثوليكية ثلاث نزعات من حيث الموقف تجاه الحوار مع الإسلام:

---

(١) قد حكى الله هذه المقولة البائرة عن أمثالهم من المنكرين في مكة: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل].

(٢) الإسلام والمسيحية. (١٢٨ ـ ١٣٠).

■ أنصار النزعة الأساسية «الأكبر عدداً»، يؤسسون موقفهم المؤيد للحوار انطلاقاً من قرارات المجمع، ووثائق الفاتيكان، والرسائل البابوية اللاحقة، منطلقين من الاعتراف بـ«الصلة الروحية» القائمة بين الديانتين، والتي تتجلى أكثر وضوحاً في العقيدة التوحيدية[(١)]. وهي العقيدة السامية، التي ستؤدي إلى التفاهم المتبادل، والصون والتعزيز المشترك «للعدالة الاجتماعية والسلام»...

■ أما أنصار النزعة الثانية، فإنهم لا يمانعون من حيث المبدأ في إقامة الحوار بين الديانتين، لكنهم يشترطون إقامته ضمن المجال الدنيوي البحت، بحيث ينأى الحوار عن مناقشة الإشكاليات والمسائل الدينية التي تتصل بمفهومي «الأمة» و«الكنيسة العالمية»...

■ بينما تتجلى مواقف أنصار النزعة الثالثة ومنطلقاتهم في رسالة الأسقف اللبناني ب. بسيم[(٢)] إلى الكاردينال بينيدولي، الذي ترأس أمانة سر اللجنة الخاصة بشؤون الديانات غير المسيحية، فبعد أن يعمم بعض الآراء السياسية ـ التشريعية للنظرية الإسلامية، يؤكد ب. بسيم أن الشكل الوحيد المقبول لدى المسلمين فيما يخص النسق الاجتماعي ـ السياسي هو «الأمة» أي الجماعة الإسلامية الثيوقراطية[(٣)]، التي تضع المسلمين الأغلبية في مرتبة «الحامي» و«الراعي» لديانات الأقليات الأخرى، ولهذا فإنه في حدود العالم الإسلامي لا يمكن الحديث عن أي مساواة، بما في ذلك الحقوق المدنية بين المسلمين وأتباع الديانات الأخرى، وهذا الواقع يحول وحده ـ حسب رأي ب. بسيم ـ دون إقامة أي حوار مفيد بين الديانتين)[(٤)].

---

(١) أين التوحيد في عقيدة التثليث؟!

(٢) بلوس باسيم ـ أو: بسيم ـ النائب الرسولي للاتين.

(٣) الثيوقراطية Theocracy: الحكومة الدينية.. دولة خاضعة لحكم رجال الدين. المورد (٩٦٢).

(٤) الإسلام والمسيحية. (١٥١ ـ ١٥٣).

إن هذه النزعات داخل الكنيسة الكاثوليكية عميقة متجذرة، وتتأثر كل منها قوة وضعفاً بحسب متغيراتٍ شتى، مثل مستوى الاستجابة الإسلامية للحوار، والأحداث العالمية السائدة في العالمين الإسلامي والنصراني، وقبل ذلك وأثناءه وبعده المصلحة العليا للكنيسة ورسالتها التنصيرية.

وحيث إننا لا نترقب مجمعاً مسكونياً وشيكاً ليفصل بين هذه الاتجاهات ويرجح إحدى الكفتين بقانون التصويت المعتمد في تلك المجامع منذ فجر النصرانية، فإننا لا نملك أن نقطع بالرأي السائد المعتمد إلا من خلال زاوية رصدٍ واحدة في نظري، وهي منهجية بابا الفاتيكان الذي يملك سلطات واسعة تصل إلى حد «العصمة» عندهم، ويقوم تباعاً بتوجيه الرسائل لأساقفته في مختلف القضايا في نشاطٍ دائب لا نظير له في تاريخ باباوات روما، وبالتالي فإن موقفه من قضية التقريب يعبر عن الموقف الرسمي الراهن للكنيسة الكاثوليكية. ونحاول في الصفحات التالية استطلاع هذا الموقف.

موقف البابا يوحنا بولس الثاني من التقريب بين الأديان:

يقف على رأس هرم الكنيسة الرومانية الكاثوليكية منذ عام ١٩٧٨م البابا «يوحنا بولس الثاني»، الذي تميز بنشاطه وحيويته، ورحلاته المتعددة لمختلف أقطار العالم لنشر النصرانية، وتفقد أحوال رعيته الكاثوليكية[١].

ويعد بابا روما الرئيس الأعلى لنصارى العالم على اختلاف طوائفهم وتعدد انقساماتهم، ولا يداني منصبه هذا أي منصب ديني نصراني في العالم، ويحمل هذا البابا ألقاباً فخمة، تشي بالمكانة

(١) سيأتي مزيد تفصيل لمحاولات البابا يوحنا بولس الثاني العملية للتقريب بين الأديان في فصل: المحاولات الجماعية من الباب الثاني.

الكبرى التي يتبوؤها بين أتباع ملته. مثل: خليفة القديس بطرس، ونائب يسوع المسيح، والحبر الأعظم للكنيسة العالمية، إلى غير ذلك من الألقاب الدالة على مستوى تمثيله الرفيع للنصارى.

وقد دأب البابا يوحنا بولس الثاني على ترديد نصوص المجمع الفاتيكاني الثاني المتعلقة بالمسلمين في كل مناسبة يحصل بها نوع اتصال أو زيارة تتعلق بالمسلمين، والحوار معهم. وقد كان أيام انعقاد المجمع قد تجاوز الأربعين من عمره وكان من الأعضاء المشاركين الأساسيين بدرجة أسقف[(١)].

وفي فترة بابويته كثر الحديث عن قضية الحوار، والعلاقة بين الحوار والبشارة، واستضاف «الفاتيكان» العديد من اللقاءات الدينية المنوعة، وشارك في الكثير من مؤتمرات التقارب والحوار، وأصدر الوثائق والإرشادات المتعلقة بقضية الحوار والبشارة، وأكد البابا بنفسه على تبني الحوار مع الأديان عموماً، والإسلام خصوصاً، انطلاقاً من مقررات المجمع الفاتيكاني الثاني، ولكنه وضع الحوار في إطار المهمة الأساسية للكنيسة، وهي التبشير. فمع عناية البابا بالحوار واستمراره، كقوله في رسالة الفادي: (المؤمنون جميعهم، والجماعات المسيحية كلها، مدعوون إلى ممارسة الحوار... إن الحوار هو الطريق إلى الملكوت)[(٢)]، إلا إنه في خطابه الموجه إلى أعضاء الجمعية العمومية للمجلس البابوي للحوار بين الأديان المنعقد عام ١٩٧٨م يجعله قسيماً توأماً للتبشير، فيقول: (.. كما أن الحوار بين الأديان هو مادة من مواد رسالة الكنيسة، فإن إعلان عمل الله الخلاصي في سيدنا يسوع

(١) انظر: يوحنا بولس الثاني والإسلام. للدكتورة: زينب عبد العزيز (١٩).
(٢) رسالة الفادي: البابا يوحنا بولس الثاني. اللجنة الأسقفية لوسائل الإعلام. جل الديب ـ لبنان. صدرت في روما ١٩٩٠م. (٩٠).

المسيح هو أيضاً مادة أخرى... وإنه من غير الجائز أن يختار الواحد، ويتجاهل الآخر، أو يطرح)[١].

أما الرحم الجامع لهذين التوأمين فيتبين بقوله: (إن الحوار بين الديانات يشكل جزءاً من رسالة الكنيسة التبشيرية. فهو باعتباره طريقة ووسيلة لمعرفة وإغناءٍ متبادلين، لا يتعارض مع الرسالة إلى الأمم. إنه بالعكس، مرتبط بها، بنوعٍ خاص، وهو تعبير عنها...

إن الخلاص يأتي من المسيح، وإن الحوار لا يعفي من التبشير بالإنجيل...

تعتبر الكنيسة أن ليس ثمة من تناقضٍ بين البشارة بالمسيح، والحوار بين الديانات، ولكنها تشعر بضرورة تنسيقهما في إطار رسالتها إلى الأمم)[٢]، ولعل سر احتفاء البابا يوحنا بولس الثاني بالحوار، هو أنه يرى فيه معبراً ثقافياً ينفذ التبشير من خلاله إلى أعماق الحضارات الأخرى، بعد تأنيسه بالحوار، وذلك ما اصطلح الكنسيون على تسميته بالغرس الثقافي للمسيحية المستنبت في تربة ثقافات أخرى. يقول البابا في الإرشاد الرسولي المعنون بـ«تبليغ التعليم الديني»: (إن رسالة البشارة متضمنة في الثقافة الإنجيلية التي لا يجب أن تنفصل عنها. إنها تنتقل عبر حوار رسولي متضمن بالضرورة في حوار ثقافي بعينه. إن قوة الإنجيل قادرة على التغيير والتجديد، لذلك لا يجب أن يتغير الإنجيل أو يتأثر عند اتصاله بالثقافات، وعندئذٍ فإن التعليم الديني سيتأصل في مختلف الثقافات، ويضفي كمال المسيح على قيمها الشرعية)[٣].

---

(١) عن حوار وبشارة (١٠).

(٢) رسالة الفادي (٨٦ ـ ٨٧).

(٣) نقلاً عن: تنصير العالم. (مناقشة لخطاب البابا يوحنا بولس الثاني): د. زينب عبد العزيز. دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع. المنصورة ـ مصر. الطبعة الأولى (١٤١٥هـ = ١٩٩٥م). (١٠٧).

وفي هذا القدر تفسير وبيان لطبيعة «الحوار» الذي ينشده راعي الكنيسة الكاثوليكية، إنه الحوار المتدسس الذي لا يعني في الحقيقة معنى التبادل، والاستعداد للتغيير، والتجرد، والمجازفة، من طرفي الحوار كما كانت الكنيسة تدعي ذلك عقب المجمع الفاتيكاني الثاني، ولكنه الحوار الذي يشترط مسبقاً أنه: (لا يجب أن يتغير الإنجيل أو يتأثر عند اتصاله بالثقافات).

إن الحوار في نظر البابا عملية نفسية يخضع لها المحاور الآخر، فيتعرض لحالة اهتزاز قيم، وزلزلة ثوابت تنتج «الارتداد» الذي يوصل في نهاية المطاف إلى اعتناق موقفٍ عقدي جديد. ويصف البابا يوحنا بولس الثاني هذه العملية بقوله: (إن الحوار بالنسبة إلى الكنيسة هو ـ نوعاً ما ـ أداة، وعلى الأخص طريقة للقيام بعملها في عالم اليوم... إنارة الكون كله ببشارة الإنجيل، وتوحيد البشر بروحٍ واحد... وفي الواقع إن الكنيسة تستعمل طريقة الحوار لكي تحسن حمل الناس ـ سواء أكانوا يعرفون أنفسهم أنهم أعضاء الجماعة المسيحية بالعماد والاعتراف بالإيمان، أم هم غرباء عنها ـ على الارتداد والتوبة، عن طريق تجديد ضميرهم وحياتهم تجديداً عميقاً في ضوء سر الفداء والخلاص...

إن الحوار الصحيح يرمي إذن، بادئ بدء، إلى تجديد كل الناس بالارتداد الباطني والتوبة مع احترام كل الضمائر)(١). والنص غني عن التعليق.

وإذا تجاوزنا ما بين أقواس التنصيص، والصياغات الرسمية، والجمل ذات الصفة التعميمية الصادرة عن البابا يوحنا بولس الثاني في حاضرة الفاتيكان، وشهِدنا مواقف عملية، وتصريحات ميدانية خاص

---

(١) عن المرجع السابق، (١٠٩).

غمارها في تطوافه في بلاد العالم، تستوقفنا زيارته التاريخية لبلدٍ مسلم بأكمله هو «المغرب»، حيث التقى الشبيبة المغاربة في الملعب الرياضي «الاستاد»، في الدار البيضاء يوم الاثنين ١٩/أغسطس/١٩٨٥م، وخاطب ألوف الشباب المسلم الذين غصت بهم مدرجات الملعب، قائلاً:

(.. أما أنا من جهتي، في الكنيسة الكاثوليكية، فأحمل على عاتقي مهمة خاصة، بصفتي خليفة «بطرس الرسول» الذي اختاره سيدنا يسوع لكي يثبّت قلوب إخوته في الإيمان. فبعد الأحبار العظام الذين تعاقبوا على مر التاريخ دون انقطاع، إنني اليوم أسقف مدينة روما، ومثله مدعوٌ ليكون بين إخوانه في العالم شاهداً للعقيدة المسيحية، وضامناً لحرية جميع أبناء الكنيسة...)(١).

بهذه المقدمة الدعائية يعرف البابا نفسه أمام جموع المسلمين، دون مواربة أو مراعاة لأدبيات الحوار ومجاملاته التي طمست الحقيقة في النداءات الأولى للكنيسة إثر المجمع الفاتيكاني الثاني، وتمخضاته كما في كتابات الأب موريس بورمانس.

ثم يتوجه البابا بالمطالبة التالية للجموع المحتشدة: (... وعلينا أن يحملنا هذا الخضوع لله، وهذه المحبة للإنسان على احترام حقوق الإنسان، تلك الحقوق التي هي تعبير عن مشيئة الله، والتي هي مقتضى الفطرة البشرية كما خلقها الله، فالاحترام والحوار يتطلبان إذاً المعاملة بالمثل في جميع الميادين، ولا سيما في ميدان الحريات الأساسية، وبالأخص، الحرية الدينية، وهما يعززان السلام والوئام بين الشعوب. ويساعدان على الحل المشترك لمشاكل الرجال والنساء في هذه الأيام، وبالأخص لمشاكل الشبان والشابات...)(٢)، ماذا يمكن أن تعني

---

(١) وثائق عصرية في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين: (١٨٨).
(٢) وثائق عصرية في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين: (١٩١).

المطالبة بالحرية الدينية في بلدٍ جميع أهله من المسلمين، سوى طلب الفسح بالردة عن دين أهل ذلك البلد، وقبول النشاط التنصيري تحت شعار الحرية والسلام والمحبة والحوار. الحوار الذي يفترض في الطرف المقابل إخضاع كل شيء للنقاش مهما كانت قداسته، على حد تعبير البابا حين ينادي:

(أيها الشبان والشابات، إنني على يقين من كونكم قادرين جميعاً على هذا الحوار. فأنتم لا ترضون أن تتقيدوا بالأحكام المسبقة. إنكم مستعدون لبناء صرح حضارة قوامها المحبة. وبإمكانكم أن تعملوا على هدم الحواجز التي شيدتها كبرياء الناس في بعض الأحيان، وضعفهم وخوفهم في أغلب الأحيان، وإنكم تريدون أن تحبوا الآخرين بصرف النظر عن أية حدود أمة أو عرق أو دين)(١). ومقابل هذا الخطاب الإملائي الداعي إلى التحرر من الثوابت، وعدم التقيد بالأحكام المسبقة، والدعوة إلى كسر الحواجز، ينبري البابا يوحنا بولس الثاني في ختام كلمته الكنسية في نشر العقيدة النصرانية الكفرية، مستغلاً هذا الاجتماع الحاشد للشبيبة المسلمة في المغرب، لتقرير عقيدة ألوهية المسيح، فيقول: (..ومع ذلك فإن الصراحة تقتضي أيضاً أن نعترف بتبايناتنا، وأن نحترمها. ومن البديهي أن أهم هذه التباينات هي نظرتنا إلى شخص سيدنا يسوع الناصري وعمله. إنكم تعلمون أن سيدنا يسوع في اعتقاد المسيحيين هو الذي يدخلهم في معرفة حميمة للذات الإلهية التي تفوق كل إدراك بشري، وفي نوع من الاتحاد الابنيِّ بعطايا الله ومواهبه، ولذلك فهم يشهدون ويقرون أنه هو الرب والمخلص. إنها لتباينات هامة جداً، يمكننا قبولها بتواضع واحترام، وبروح التسامح المتبادل، ففي ذلك سر من الأسرار، أنا على يقين من أن الله سينيرنا بشأن خفاياه يوماً من الأيام)(٢).

---

(١) المرجع السابق، (١٩٣ ـ ١٩٤).

(٢) وثائق عصرية في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين (١٩٦).

ثم ينهي هذا الخطاب التاريخي بدعاء وابتهال تؤمِّن عليه الجموع المحتشدة. وهكذا يتحول خطاب الاثنين إلى موعظة الأحد. وينقلب أسلوب الحوار واحترام ما لدى الآخر إلى قداس كنسي.

ولنا أن نتساءل: أهذا هو التطبيق العملي لفلسفة الحوار التي تنادي به الكنيسة الكاثوليكية على يد حبرها الأعظم، خليفة بطرس؟ أين ذهبت تلك الاحترازات المشددة، والشروط المؤكدة في بيانات الكنيسة في الستينيات والسبعينيات برفض جميع صور الاجتذاب في عملية الحوار؟

هل آنست الكنيسة الكاثوليكية في هذه العقود الأخيرة، ممثلة بحبرها الأعظم، أن قد آن الأوان لزيادة حصة البشارة على حساب حصة الحوار، بعد أنِ آتى الحوار أكله بكسر الحواجز، وتمييع الحدود لدى الآخرين، فتوصل فقهاء التنصير إلى تغيير نمط الخطاب؟

لقد كانت هذه الزيارة لبلدٍ مسلم عريق، ومخاطبة شبابه الذين يمثلون معظم البنية السكانية فيه، سابقةً خطيرة، ظل البابا يوحنا بولس الثاني يتغنى بذكرها، ويلهج بالإشادة بها، فيقول في عام ١٩٩٤م:

(إن الرحلة التي قمت بها إلى المغرب... يمكن اعتبارها بالتأكيد حدثاً تاريخياً.

إنها لم تكن ببساطة زيارة ودية، بل كانت بحق ذات طابع رعوي.

لقد كان اللقاء مع الشبيبة في ملعب الدار البيضاء عام ١٩٨٥م، غير قابل للنسيان.

إن انفتاح الشباب لكلمات البابا كان مدهشاً عندما تحدث عن الإيمان بالله الواحد. لقد كان بالتأكيد حدثاً لا سابقة له)[(١)].

---

(١) عبور عتبة الرجاء (٩٤) Crossing the thershold of hope.

وثم شاهدٌ عملي صارخ على الأسلوب الذي يتناول به البابا يوحنا بولس الثاني قضية الحوار والعلاقة مع الأديان الأخرى، يتمثل في دعوته إلى الصلاة المشتركة بين أتباع الديانات في بلدة «أسّيزي» الإيطالية عام ١٩٨٦م[١].

وعوضاً من الجلوس على «مائدة مستديرة» كما تقتضي ذلك روح الحوار والتكافؤ لدى المنادين به، فإن (البابا قدم نفسه للعالم بأنه القائد الروحي للأديان جميعاً، وأنه حامل رسالة السلام للبشرية جمعاء)[٢].

لقد ظهر البابا يوحنا بولس الثاني في تلك الخطوة الجريئة بصورة الأب الروحي ليس للكاثوليك، أو حتى النصارى فحسب، بل لجميع أتباع الديانات الأخرى من خلال إدارة ذلك اللقاء، وأسلوب تنظيمه وإخراجه، وضم جميع ممثلي الأديان تحت رداءه البابوي، كما احتواهم بكلماته الفضفاضة التي تجيش بعبارات الإيمان والمحبة والسلام. وأمام مواطنيه، ورجال دينه قدم لهم القاعدة النظرية التي تسوغ مثل هذا العمل المشترك مع أطرافٍ لا تؤمن بألوهية المسيح، وأسرار العقيدة النصرانية، فقد (شدد البابا يوحنا بولس الثاني في الكلمة التي وجهها إلى الكوريا الرومانية، بعد يوم الصلاة في أسيزّي، وكرر التشديد على الحضور الشامل للروح القدس قائلاً: «كل صلاة صحيحة هي من عمل الروح القدس الحاضر سرياً في قلب كل شخص بشري» سواء كان مسيحياً أو غير مسيحي، ثم إنه عاد وتطلع، في هذا الخطاب نفسه، إلى أبعد من الأفراد، وذكر بوضوح أهم العناصر التي تقوم من مجموعها القاعدة اللاهوتية للنظرة الإيجابية التي نقابل بها

(١) سيأتي وصف دقيق لهذه الصلاة المشتركة في الباب الثالث.
(٢) سلسلة تقارير المعلومات، صادر من مركز المعلومات في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت برقم ٨٧/١٥ بتاريخ ١٩٨٧/٨/٥م (١٠٠).

التقاليد الدينية الأخرى، ونمارس معها الحوار بين الأديان)[١].

ونظراً للنجاح الذي حققه البابا في أسّيزي عام ١٩٨٦م على طريق الحوار والتفاهم، حسب الرؤية النصرانية، فقد انبرت جمعية كاثوليكية عريقة في التنصير، هي جمعية «سانت إجيديو»[٢] للعمل على استمرار هذا المشروع الناجح، وتبني الدعوة لمؤتمرات يحضرها ممثلو الأديان الكبرى سنوياً وتختتم بصلاة جماعية، كتلك التي أمَّها البابا في أسيزي عام ١٩٨٦م، وذلك بتوجيه وتأييد منه. فقد (أصر قداسة البابا يوحنا بولس الثاني على ألا تبقى صلاة أسيزي حدثاً منفرداً، وطرح «روح أسيزي»، فشاءت جمعية سانت إجيديو أن ترحب بها، إذ شجعها عدد كبير من الشخصيات المسيحية والإسلامية، والشخصيات المنتمية إلى أديان أخرى. فنشأت هذه اللقاءات السنوية للصلاة من أجل السلام)[٣].

وإذا فحصنا أهم الجوامع المشتركة التي يتذرع المجمع الفاتيكاني الثاني، سابقاً، والبابا يوحنا بولس الثاني، حالياً، لتكون قاعدة للحوار والتقارب بين المسلمين والنصارى، وهي قضية الإيمان بالله، فسنجد اعترافاً صريحاً من البابا بالتباين بين الديانتين في هذا الأصل الأصيل، ليس فقط من جهة عقيدة التثليث، بل حتى بقصر النظر على أقنوم (الأب) الذي يفترض أن يقابل عند المسلمين العقيدة في (الله) سبحانه وتعالى. بل نجد اتهاماً وتنقصاً وطعناً علنياً من داعية الحوار الفاتيكاني في العقيدة الإسلامية.

---

(١) حوار وبشارة (٢٤).

(٢) انظر التعريف بهذه الجمعية في الباب الثاني (١٠٦٦).

(٣) عن نشرة «لجنة الصداقة الإسلامية المسيحية» الصادرة عن جمعية سانت إجيديو ـ روما (٤).

جاء ذلك في ثنايا كتابٍ صدر عام ١٩٩٤م بعنوان: (عبور عتبة الرجاء: Crossing the Threshold of Hope أو كما يترجمه البعض: (ادخلوا في الرجاء)، طبع منه ملايين النسخ بمختلف اللغات. وفي الفصل المعنون بـ«محمد» حسب الطبعة الإنجليزية، نال البابا يوحنا بولس الثاني من المفهوم القرآني لله سبحانه وتعالى، فقال: (إن كائناً من كان يَخْبرُ العهد القديم والجديد ثم يقرأ القرآن، سيرى بوضوح العملية التي تم بواسطتها تماماً اختزال الوحي الإلهي. إنه من المستحيل أن لا يلاحظ الابتعاد عما قاله الله عن نفسه، أولاً في العهد القديم من خلال الأنبياء، وانتهاءً في العهد الجديد من خلال ابنه، أما في الإسلام، فكل هذا الثراء الإلهي الخاص، الذي يُكوِّن ميراث العهدين القديم والجديد، قد ترك جانباً بصورة حاسمة.

بعض أكثر الأسماء جمالاً في اللغة البشرية أطلقت على إله القرآن.

ولكنه في النهاية إله خارج العالم، إله جلالة فحسب، وليس «عمانويل» أي: إله معنا. الإسلام ليس دين فداء. ليس فيه مجال للصليب والقيامة.

لقد ذكر يسوع. ولكن بصفته نبياً مبشراً بالنبي الخاتم محمد فحسب.

هناك ذكرٌ أيضاً لمريم، والدته العذراء، ولكن مأساة الفداء غائبة بالكلية.

ولهذا السبب فليس علم اللاهوت فقط، بل حتى علم الناسوت الإسلامي بعيد جداً عنه في المسيحية)[(١)].

---

(١) عبور عتبة الرجاء (٩٢، ٩٣) Crossing the threshold of hop.

وبصرف النظر عما تضمنه النص من مغالطاتٍ واضحة، وافتراءات كاذبة[١] عن الاعتقاد الإسلامي، في ذات الله وأسمائه وصفاته سبحانه وتعالى، فإن مؤدى كلام البابا يوحنا بولس الثاني إثبات إلهٍ للعهدين القديم والجديد مغاير تماماً لإله القرآن ـ على حد تعبيره ـ. فماذا بقيَ يا ترى لكي يكون أساساً لحوار مشترك مؤسس على جوامع مشتركة بين ديانتين، لا تتفقان، ولا تكادان تقتربان من بعضهما بعضاً في علم اللاهوت ـ كما الاصطلاح الكنسي ـ ولا علم الناسوت؟! لم التحدث بلغتين، والكيل بمكيالين؟ وهل يُظن بقائل هذا الكلام الواعي للفروق الأساسية لمعتقد الديانتين في ذات الله عز وجل، الممتلئ حماسةً وتفانياً لنشر معتقده ذاك في أرجاء المسكونة، أن يُخضع هذه القضية للنقاش والحوار الحر النزيه الذي يطالب به الآخرين؟! أم أنها مناورة قد قُررت أحكامها سلفاً من جانبهم، وينتظرون من أتباع التقاليد الدينية الأخرى ـ كما يعبرون أحياناً ـ أن يعيدوا النظر في مواقفهم وعقائدهم المسبقة، بتوجيه روحهم القدس المهيمن على المصلين في أسيزي؟!

هذا من حيث حقيقة الحوار والتقارب المزعوم، أما من حيث مضمون الادعاءات الواردة فنقول بإجمال: إن أي تراث مزعوم لا يداني ولا يكاد، ما جاء به القرآن الكريم والسنة المطهرة من التعريف بالله سبحانه وتعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله، فقد وصف الله تعالى بصفات الكمال والجلال والجمال، ونزهه عن صفات العجز والنقص والعيب بما تحصل به طمأنينة القلوب، وانشراح الصدور، وجلاء الأفهام وقبول العقول، ونقيض هذه المزايا، مجتمع برمته في العقيدة النصرانية المتوثنة، المليئة بالأسرار الغامضة، والتناقضات الفاضحة، وحسبك بهذا الكتاب الذي تضمن النص السابق دليلاً على ما نقول؛

---

(١) انظر الرد الذي كتبته الدكتورة زينب عبد العزيز بعنوان: (يوحنا بولس الثاني والإسلام).

فقد جاء إجابة على استفسارات مقلقة، وإشكالات مزعجة، جمعها صحفي شهير هو الكاتب: فيتوريو ميسوري من قلب المجتمع الأوربي العريق في نصرانيته، ومع ذلك ظلت هذه الأسئلة تعيش معه حتى الألف الثالثة من ميلاد المسيح، وستظل، ما داموا في غيهم يعمهون، وما دامت الكنيسة تمارس دور الإضلال والتعمية والصد عن سبيل الله، وإليك أيها القارئ مسرداً ببعض عناوين فصول الكتاب ومقدماتها:

- هل الله موجود؟ ـ ألا يزال موجوداً، وما الدليل؟
- إذا كان الله موجوداً فلماذا يختبىء؟
- هل عيسى ابن الله حقاً؟
- ماذا تحصَّل من تاريخ الفداء؟ ـ لماذا هذا الكم من الشرور في العالم؟
- لماذا يحتمل «الرب» المعاناة؟ ـ هل البوذية عوض عن المسيحية؟
- هل ستموت المسيحية؟ ـ هل يمكن للإنسان أن يلعن نفسه إلى الأبد؟

إلى غير ذلك من الأسئلة الموحشة التي تكشف عن فزع الفطرة الإنسانية من العقائد الدينية «البالية» التي تفرضها الكنيسة على أتباعها، وتدندن بها حول الحلول وألوهية المسيح والفداء، بما لم يغن ولم يسمن من جوع. أما الإسلام دين الفطرة، فأتباعه في راحة تامة من هذه التعقيدات، وقد حسم أمرها بمجرد إدراك حقيقة التوحيد المحض السالم من شوائب الشرك والخرافة، التي يعتبرها البابا ثراء دينياً قد تُرك جانباً في الإسلام.

وحسبنا في هذا المقام أن نميط اللثام عن حقيقة عبارات الاحترام والتقدير، ولغة المجاملات والمراوغات التي يتذرع بها أئمة النصارى

وهم ينادون المسلمين إلى الحوار والتقارب، وما تخفي صدورهم أكبر مما يظهر أحياناً على فلتات ألسنتهم، ولحن قولهم.

ونختم الحديث عن حقيقة الحوار في منظور الكنيسة الكاثوليكية بهذا النص الوارد في وثيقة «حوار وبشارة» الآنفة الذكر:

(عندما تقوم الكنيسة برسالتها تتصل بجماعاتٍ من الناس ذوي تقاليد دينية مختلفة جداً. فالبعض منهم يصبحون تلاميذ ليسوع المسيح، في كنيسته، إثر اهتداءٍ عميق، وبقرار من إرادتهم الحرة، وآخرين يجتذبهم شخص يسوع ورسالته، ولكنهم لا يدخلون حظيرته لأسبابٍ مختلفة. وآخرون أيضاً يلبثون على غير اكتراث، أو على اكتراث ضئيل ليسوع. ومهما يكن من أمر فرسالة الكنيسة تتوجه إلى جميع البشر، وإنه ليمكن أن يكون لها في الحوار، دور نبوي بالنظر إلى الديانات التي ينتمي إليها أولئك البشر. وهي عندما تؤدي الشهادة للقيم الإنجيلية تطرح سؤالاً على هذه الديانات، وهي كذلك بقدر ما تتسم بالحدود البشرية! تصبح هدفاً لأن يثار السؤال عنها بالطريقة نفسها، وبتعزيز هذه القيم إذن وفق ذهنية تقوم على التنافس واحترام سر الله، يلتقي أعضاء الكنيسة، ومؤمنو الأديان الأخرى، كرفاقٍ على الطريق المشترك الذي تدعى إلى سلوكه البشرية بأسرها. وذلك ما أشار إليه يوحنا بولس الثاني في إسيزي في ختام نهار الصلاة والصوم والحج! لأجل السلام عندما قال: (لنر في هذا الأمر استباقاً لما قد يريد الله أن يراه متحققاً في تاريخ الإنسانية: سيراً أخوياً نترافق فيه نحو هدفٍ سامٍ يعده لنا)[(١)].

والنص في ضوء ما تقدم غني عن التعليق. ولنا قول الله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ

(١) حوار وبشارة (٦٩).

كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا
لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ
أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى
ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن
يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾
[المائدة].

خلاصة وتحليل:

إن نظرة شاملة لمسيرة الكنيسة الكاثوليكية خلال العقود الثلاثة الأخيرة التالية لمقررات المجمع الفاتيكاني الثاني (١٩٦٢ ـ ١٩٦٥م) حول قضية الحوار مع الإسلام تكشف عن ثلاث مراحل متميزة:

١ ـ **المرحلة الأولى**: وهي التي أعقبت المجمع الفاتيكاني الثاني، الذي قدم المسوغ اللاهوتي للحوار، عن طريق توسيع عقيدة الخلاص، وهجر الدعوى الكنسية القديمة القائلة: «لا خلاص خارج الكنيسة»، والتخفف من لوازم عبارة إنجيل يوحنا القائلة: «أنا الطريق والحق والحياة» (١٤/ ١)[١].

وتميزت هذه المرحلة التي امتدت حتى نهاية السبعينيات تقريباً بـ(الرغبة في المعرفة الموضوعية الهادئة، وفي طلب القربى الروحية، وفي السعي إلى لقاءٍ إنساني عن طريق المشاركة في التربية والمجتمع)[٢]. بل التوق إلى «الحوار الروحي»، و«الوحدة الروحية»،

---

(١) العهد الجديد (٣٣٦).

(٢) المسيحية والإسلام. مرايا متقابلة مجموعة من المؤلفين. مركز الدراسات المسيحية الإسلامية. جامعة البلمند. الطبعة الكاثوليكية. عاريا ـ لبنان. الطبعة الأولى ١٩٩٧م. من فصل: «الحوار المسيحي ـ الإسلامي في الواقع والرؤية» د. طارق متري. (١٧٢).

والتقاط شواهد التراث الروحي المشتركة بين الديانتين، حتى ولو لم تكن تتمتع بالصفة المرجعية المقبولة لدى الجانب الإسلامي، كالاحتفاء بالتراث الصوفي والفلسفي، لإثبات أواصر القربى والتشابه بين الديانتين.

كما سادت في هذه المرحلة التأكيدات المتتالية على نبذ نوايا الاجتذاب، والتحايل والإيحاء، والتزام النزاهة المطلقة في الحوار.

ومما يمثل هذه المرحلة تمثيلاً صادقاً كتاب: «توجيهات في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين» للأب موريس بورمانس، الذي سبق عرض جوانب منه، وطبع طبعة ثانية عام ١٩٨٠م[١].

ولعل روح الانفتاح والجدة التي كانت سائدة ذلك الوقت، بالإضافة إلى الشعور بالخطر الإلحادي الشيوعي، كانا وراء صياغة أدبيات تلك الفترة، ولم تكن الكنيسة الكاثوليكية في أي وقت مضى أقرب إلى مدلول «الحوار»، من الناحية اللفظية على الأقل ـ وأصدق لهجة منها في هذه المرحلة. وقد انتهت بنهاية حياة البابا بولس السادس الذي مهر قرارات المجمع الفاتيكاني الثاني بختمه، وكان مشبعاً بأهدافها، حتى وافاه الأجل في أغسطس ١٩٧٨م. وربما امتد أثرها سنتين إضافيتين، بصفة أقل، حتى وفاة الكاردينال سيرجيو بينيدولي[٢] رئيس الأمانة العامة للعلاقات بغير المسيحيين عام ١٩٨٠م، الذي كان على منهج البابا بولس السادس.

---

(١) مما يصب في هذا الاتجاه أيضاً مقالة بعنوان: (ما هو الاتجاه الديني الذي يجب أن يتبناه المسيحيون) أصدرتها أمانة سر شؤون غير المسيحيين عام ١٩٦٩م ضمن إضمامة من (إرشادات من أجل الحوار بين المسلمين والمسيحيين).

(٢) سيأتي تعريف بالرؤساء الذين تعاقبوا على أمانة السر الفاتيكانية للعلاقات بغير المسيحيين في الباب الثاني.

٢ ـ **المرحلة الثانية**: تمثل هذه المرحلة تنامي ردود الفعل المضادة للانفتاح على الديانات والتقاليد الأخرى، واعتبار أسلوب «الحوار» و«التقارب» خيانة لرسالة الكنيسة وتخلياً عن البشارة. هذا من جانب النقد الذاتي داخل الأسرة الكاثوليكية، لكن صاحب ذلك ما يشبه «خيبة الأمل» و«الإحباط» تجاه التجاوب الإسلامي مع دعوة الحوار، فنصارىٰ الحوار فضلاً عن معارضيه، لم يجدوا بغيتهم التي تلبي طموحاتهم في مسلمي الحوار فضلاً عن معارضيه، وهذه المرحلة واكبت السنوات الأولى من سيامة يوحنا بولس الثاني بابا الفاتيكان، وتولي رئيس الأساقفة جان جادوت الأمانة العامة للعلاقات بغير المسيحيين، الذي لم يكن في مستوى سابقيه رتبة كهنوتية، ولا حماساً ونشاطاً في العمل، مما فسح المجال لنمو الرأي المضاد، حتى استقالته عام ١٩٨٤م.

ويصف الدكتور طارق متري(١) هذا الموقف قائلاً: (وعندما أطلقت الكنيسة الكاثوليكية، ومجلس الكنائس العالمي، وعدد من الكنائس في الغرب خصوصاً، مبادراتها الحوارية تجاه المسلمين، لم تكن مدركة تمام الإدراك عمق التغيير الذي أصاب العقليات والأحاسيس اللاهوتية، ولا واثقة، على نحوٍ كاف، بسرعة التجاوب معها في صفوف المسيحيين، ولم يكن بوسعها، من جهةٍ أخرى أن تستبق كل ما سوف تثيره الحركة التي دفعتها من أفكار تتجاوز النصوص

---

(١) أستاذ جامعي في لبنان، أرثوذكسي. مسؤول العلاقات مع المسلمين في مجلس الكنائس العالمي «جنيف». له أبحاث وكتابات عديدة في مسائل الحوار الإسلامي النصراني، عضو مؤسس لمجلس كنائس الشرق الأوسط، وفريق العمل العربي في الحوار الإسلامي ـ النصراني. له مساهمات عدة، في آخرها الإشراف على تحرير كتاب:
Christian Muslim Discussion Religion, Law and Society. انظر مجلة الاجتهاد (٣١، ٣٢/ ٤٢٢).

العقائدية، أو التوجيهات الرعائية، وسرعان ما وعت أنها، في حقيقة الأمر، اختارت الدخول في ما يشبه المجازفة، وتبيَّن لها أن التجاذب حول مواقفها المعلنة، داخل الجماعة المسيحية واقعٌ لا محال. ولم يقتصر التجاذب هذا على المواقف اللاهوتية الجديدة أو على تسويغ الحوار، بل طال أيضاً اختيار مواضيعه، والشركاء فيه، من المسلمين والمسيحيين، بمن فيهم المسيحيون العرب.

لقد واجه الحوار مقاومةً من هنا وتحفظاً من هناك، ولم يكن يسيراً أن يبدل المسيحيون، نظراتهم إلى ذواتهم، وإلى المسلمين، مفلتين من قبضة التاريخ، ولم يكن سهلاً أن يضرب المسلمون صفحاً عن الماضي المثقل بمشاعر الريبة والعداء، وأن يحلوا الثقة محل الشك بنوايا الكنائس حيالهم. ذلك أن علاقات القوى الاقتصادية والسياسية والثقافية على الصعيد العالمي، ورغم التغيير النسبي الذي سبقت الإشارة إليه، ظلت مفتقرة إلى التوازن الذي يسمح للحوار أن يكون منزهاً عن المصالح، ومقدَّمها ما يخص تثبيت السيطرة الغربية، وإن بأشكال جديدة)[١].

هذا هو المناخ السائد في نهاية السبعينيات ومطالع الثمانينيات، فلا عجب حينئذٍ أن تنشغل الكنيسة بحل المعضلة اللاهوتية الناشئة بين أصالة البشارة، وحداثة الحوار. وحيث لا يمكن التنصل من مقررات المجمع الفاتيكاني الثاني وإعلاناته، فقد اتجهت الكنيسة لفلسفة مفهوم الحوار وفق المعطيات الجديدة. فجاءت وثيقة عام ١٩٨٤م الصادرة عن أمانة السر للعلاقات بغير المسيحيين، المعنونة بـ: «موقف الكنيسة من مؤمني سائر الأديان: تأملات وتوجيهات في شأن الحوار والرسالة» وجرى تطويرها وتنقيحها، حتى أقرها المجلس البابوي للحوار بين

(١) المسيحية والإسلام: مرايا متقابلة (١٧٣ ـ ١٧٤).

الأديان، وصدرت موقعة من رئيسه، ورئيس مجمع تبشير الأمم عام ١٩٩١م بعنوان: «حوار وبشارة: تأملات وتوجيهات في شأن الحوار بين الأديان والتبشير بالإنجيل» كما سبق التعريف بها، ممثلة الهم المسيطر على الكنيسة في هذه المرحلة أصدق تمثيل، وحقيقة الحوار في هذه المرحلة الثانية مساعدة الآخرين على اكتشاف التأثير الجزئي للنعمة الحاصلة بتأثير الروح القدس في تقاليدهم الدينية، والسير بهم إلى اكتشاف كامل الحقيقة. وبذلك يصبح مشروع الحوار مشمولاً بمشروع البشارة لاهوتياً وعملياً. كما أن من معالم هذه المرحلة المراوحة النسبية بين الحوار والبشارة حسب الظروف المحلية المحيطة بشخصٍ ما، أو كنيسةٍ ما.

ويلتقي مع هذا التحليل المستشرق الروسي إليكسي جورافسكي حيث يقول: (يمكن القول بعبارة مقتضبة، إن الحوار الذي أريد به أن يكون أسلوباً جديداً للتبشير المسيحي لم يعد كافياً على الإطلاق، حيث إن التحول الحاصل في توجه الكنيسة بالنسبة لموقفها من العالم، أدى بدوره إلى إعادة النظر في ما يخص مفهوم الرسالة المسيحية ومهام التبشير المسيحي في الشرق. ويفضل اللاهوتيون ـ الكاثوليك المعاصرون استعمال صيغة «الاهتداء إلى المسيح»، بدلاً من الصيغ القديمة «التحول إلى المسيح»، بحيث أن ذلك «التحول» أو «الاهتداء» يجري ليس على حساب القضاء على الديانات الأخرى، وإنما من خلال «نضجها» الطبيعي، فالمبشر المسيحي يتوجب عليه أن يساعد في تسريع ذلك النضج)[1].

لم يعد «الحوار» بصيغته المطروحة في الستينيات يفي بطموحات الكنيسة التنصيرية المتسارعة، بل صار أشبه بمركبة قديمة بطيئة يستعملها

(١) الإسلام والمسيحية. (١٧١).

صاحبها في بعض المناسبات، دون أن يتخلص منها نهائياً، لما استقل مركبة جديدة سريعة.

٣ ـ **المرحلة الثالثة**: وهي الفترة الممتدة من أواسط الثمانينيات وحتى وقتنا الراهن. وتتسم باستمرار التأكيد على أهمية الحوار من الناحية الإعلامية والمظهرية، ولكن باعتبار الحوار جسراً لنقل الثقافة الإنجيلية إلى الآخرين، أو ما صار يسمى «بالغرس الثقافي». وهذه المرحلة أعقبت رحلات البابا يوحنا بولس الثاني لأجزاء من العالم الإسلامي، ولقائه بمسلمين في آسيا وأفريقيا وأوربا على مدى أربع سنوات (١٩٨٠ ـ ١٩٨٤م). وعاد بلا ريب مقتنعاً بعدم كفاءة أمانة السر الفاتيكانية للعلاقات بغير المسيحيين التي كان يشغلها إذ ذاك رئيس الأساقفة جان جادوت، في تفعيل الحوار الهادف إلى نشر النصرانية، فكان أن عين الكاردينال الأفريقي الأصل فرانسيس آرينزي في ذلك المنصب ليرضي طموحه، وفق النظرة الجديدة للحوار. ومن الملاحظ في هذه الفترة تكثيف النشاط التنصيري، واستخدام كافة وسائل التقنية الحديثة لتنصير العالم ومن أخطرها مشروع Lumen 2000، أي نور سنة ٢٠٠٠م، وهو القمر الصناعي المخصص لبث برامج التنصير عبر القنوات الفضائية: تقول الدكتورة زينب عبد العزيز: (ولا يتوقف الدور القيادي للبابا عند حد التدخل في الشؤون السياسية، والعمل على السيطرة عليها فحسب، وإنما يتعداه لفرض النمط الحضاري الغربي على العالم ليتواكب مع النظام العالمي الواحد، والدين العالمي الواحد! فذلك هو ما طالب به حينما أعلن ضرورة «تنصير العالم» في نوفمبر ١٩٨٢م من مدينة «شانت يقب» بشمال غرب أسبانيا... تلك المدينة التي كانت آخر ما وصل إليه الفتح الإسلامي، وأول ما سقط في حرب الاسترداد. ويكفي أنها تحمل اسم حامل الراية أثناء الحروب الصليبية ضد مسلمي الأندلس.

فبعد أن طالب بتنصير العالم أمام حشد مكونٍ من قرابة مليونين من الأتباع، وأغلبهم من الشباب الذي يحاول استرداده من الضياع، راح يردد ذلك النداء الذي جمع فيه بين الكنيسة وأوربا والحضارة الأوربية قائلاً: «يا أوروبا... عودي إلى رشدك، كوني نفسك! استكشفي أصولك! أحيي جذورك! أحيي تلك القيم الأصيلة التي جعلت تاريخك مجيداً، وجعلت وجودك مثمراً على القارات الأخرى»[(١)].

هذه المرحلة أخطر مراحل الحوار الذي تمارسه الكنيسة الكاثوليكية، حيث تمطر الآخرين بعبارات ذات مدلولٍ فارغ تخدرهم فيها، وتصرف أنظارهم عن الاشتغال بما يهمهم حقاً، في الوقت الذي تستنفد فيه كافة السبل والوسائل للتبشير، والغرس الثقافي طويل الأمد، تحت ستار «الحوار» الطعم.

أما المرحلة القادمة فعلمها عند الله، لكن رؤية المنحنى المنحدر يشي بشيءٍ من معالمها الذي سيسفر عن الوجه الكالح للصليبية الجديدة.

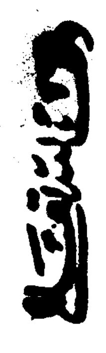


(١) تنصير العالم (٩٤ ـ ٩٥).

رسائل جامعية (٢٠)

دعوة التقريب بين الأديان

دراسة نقدية في ضوء العقيدة الإسلامية



تأليف

الدكتور أحمد بن عبد الرحمن بن عثمان القاضي

المجلد الثاني

دار ابن الجوزي

المبحث الثاني

حقيقة التقريب بين الأديان عند مجلس الكنائس العالمي

يمثل مجلس الكنائس العالمي الطوائف النصرانية غير الكاثوليكية، ويتمتع بنفوذٍ واسع يضاهي نفوذ «الفاتيكان»، وتنضوي تحته جميع الكنائس البروتستانتية[١] والإنجليكانية[٢] والأرثوذكسية[٣]، التي يبلغ عددها ثلاثمائة وست عشرة كنيسة موزعة على أكثر من مائة بلد، ويتبعها قرابة أربعمائة مليون نصراني[٤].

---

(١) الكنائس البروتستانتية: (هي الكنائس المسيحية الغربية التي انفصلت عن الكنيسة الكاثوليكية تحت تأثير لوثر وكالفن، انتشرت في ألمانيا والبلدان السكندنافية وإسكتلندة وسويسرة ثم في أميركا الشمالية. وهي متشعبة إلى كنائس يختلف بعضها عن بعض في عقائدها وقوانينها. أهم فروعها: اللوثرية، والكلفينية والإنكليكانية. وتعرف الفروع الأولى بالكنائس الإنجيلية، وتعتبر هذه الكنائس الكتاب المقدس مصدراً وحيداً للوحي، ولا تعترف بالكهنوت). المنجد في الأعلام (١٢٨).

(٢) مذهب الدولة الرسمي في إنكلترة. أنشأه هنري الثامن الذي كان ملكاً في إنكلترا من (١٥٠٩ ـ ١٥٧٤م)، وانفصل عن الكنيسة الكاثوليكية سنة (١٥٣٥م)، وقد واصل إدوارد السادس تثبيت أركان هذا المذهب، ثم أتمته إليزابيث الأولى سنة (١٥٦٢م) «المترجم» الإسلام والمسيحية. جورافسكي (٩٩).

(٣) هي الكنائس المسيحية الشرقية البيزنطية التي انفصلت عن الكنيسة الكاثوليكية على أيام ميخائيل كيرولارس، بطريرك القسطنطينية (١٠٥٤م). انتشرت في روسيا، وبلاد البلقان واليونان ومختلف بلدان الشرق الأدنى، حيث تؤلف كنائس مستقلة تحت سلطة بطاركتها. المنجد في الأعلام (٣٢).

(٤) انظر نبذة عن المجلس في: تاريخ الكنيسة الشرقية للمطران ميشيل يستيم، والأرشمندريت أغناطيوس ديك. (٣٩٥ ـ ٣٩٧). وانظر: الحوار الإسلامي المسيحي، ضرورة المغامرة لسعود المولى (١٣٠ ـ ١٣١)، (١٥٥ ـ ١٦٨).

وقد ولد المجلس نتيجة لتلاقح عدة اتجاهات في الحركة المسكونية العالمية(١)، منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر، بغية توحيد العمل التبشيري في البلدان غير النصرانية.

وأهم هذه الاتجاهات:

١ ـ اتجاه الحركة الإرسالية العالمية ومجلس التبشير العالمي.

٢ ـ اتجاه المسيحية العملية لتنظيم الحركة الاجتماعية.

٣ ـ اتجاه وتيار الحوار اللاهوتي لتوحيد الكنيسة «إيمان ودستور».

وبعد فترة حملٍ دامت قرناً كاملاً، تمخضت الحركة المسكونية عن ولادة مجلس الكنائس العالمي عام ١٩٤٧م. وقد انضمت الكنائس الأرثوذكسية إلى المجلس في مؤتمر «نيودلهي» عام ١٩٦١م. أما الموقف الكاثوليكي للبابوية الرومانية فظل يصر على أنه ليس هناك سوى كنيسة واحدة، فلا مبرر إذاً لطرح «اتحاد الكنائس»، وأن على المنشقين العودة إلى الكنيسة الأم «حظيرة بطرس». إلا أن البابا يوحنا الثالث والعشرين أرسل وفداً مراقباً إلى مؤتمر نيودلهي(٢).

ولكن هذا التجمع المتعدد الأطراف والاتجاهات، لا يعتمد البناء

---

(١) الحركة المسكونية: يقول الأب روبير كليمان اليسوعي:
(كانت لفظة «مسكونة» تدل على الأرض المسكونة، وكانت هذه الأرض مساحة الإمبراطورية اليونانية الرومانية في القرنين الرابع والخامس... أما في الكنيسة فاستعملوا صفة «مسكوني» للدلالة على لقاءات الأساقفة« مجامع» للبحث في المسائل المختصة بالكنيسة كلها، وفي مطلع القرن العشرين استعمل هذا اللفظ لوصف الجهود المبذولة لجمع شمل المسيحيين كلهم في كنيسة واحدة). تاريخ الحركة المسكونية (١/١٧).

(٢) انظر: الحوار الإسلامي المسحي ضرورة المغامرة (١٣٠ ـ ١٣١). وتاريخ الكنيسة الشرقية (٣٩٥).

التنظيمي الهيكلي الذي تسير عليه الكنيسة الكاثوليكية بدقة وتراتبية وصرامة. بل يكتفي باللقاء حول جوامع مشتركة في العمل التبشيري، وإصدار توصياتٍ ليس لها صفة الإلزام. فـ(ليس مجلس الكنائس سلطة عليا تؤلف بين أعضائها، بل هي حسب تحديده الرسمي: «رابطة أخوية لكنائس تعترف بالرب يسوع إلهاً ومخلصاً وفق ما جاء في الكتب، وتسعى للاستجابة معاً لدعوتها المشتركة لمجد الإله الأوحد، الأب والابن وروح القدس». هناك قاعدة إيمانية مشتركة هي الحد الأدنى المطلوب من الأعضاء المنتسبين إلى المجلس. وهناك برنامج عمل يتابع مهام الحركات الثلاث التي نشأ عنها)[١].

إن قطب رحى هذا المجلس يدور حول هدفين بارزين: توحيد الكنائس النصرانية، وتعزيز العمل التبشيري في العالم أجمع، وقد فرض هذا الأخير على المجلس ضرورة دراسة العلاقة بالديانات العالمية الحية التي يحتك بأتباعها حيثما حلت إرسالياته في أي مكانٍ في العالم. (ولعل أول محاولة بروتستانتية لفهم الإسلام، ودراسة مسألة العلاقة به قد تمثلت في «البرلمان العالمي للأديان» الذي انعقد في إيفانستون بولاية إيللينوس عام ١٨٩٣م، والذي حضره ألكسندر راسل وب ـ أول أمريكي مسلم وهو دبلوماسي سابق، حمل اسم «محمد»)[٢].

أما «الحوار» مع الإسلام فيرجع إلى تاريخ تأسيس المجلس رسمياً عام ١٩٤٧م. وهو ذات التاريخ الذي ظهرت فيه عبارة «الحوار»، وعلى وجه الخصوص الحوار مع الإسلام في المذهب البروتستانتي[٣].

---

(١) تاريخ الكنيسة الشرقية (٣٩٦).

(٢) الحوار الإسلامي المسيحي ـ ضرورة المغامرة. (١٥٥).

(٣) انظر: تصورات بروتستانتية حول الإسلام. جان باسّيه، مجلة الاجتهاد: (٣١/٥٩).

مواقف الجمعيات العمومية لمجلس الكنائس العالمي من قضية التقريب بين الأديان:

وقد واجهت المؤسسات والهيئات البروتستانتية السابقة لتأسيس مجلس الكنائس العالمي، والمكونة له فيما بعد، معضلة موقف النصرانية من الديانات الأخرى وكيفية التعامل مع أتباعها، وحملت بذور الخلاف اللاهوتي العميق إلى ردهات المجلس الجديد. (ونتيجة لهذه المناقشات، شكل مجلس الكنائس مشروعاً دراسياً حمل عنوان «كلمة الله والأديان الحية للبشر» استمر منذ ١٩٥٥م حتى عام ١٩٧١م، حيث عملت المجموعة المكلفة به على إجراء دراسات وتقديم تقارير وأوراق عمل وعقد مؤتمرات استشارية.. ولعل أبرز نتاجات هذه المجموعة يتمثل في كتاب «كنيث كراغ»: «نداء المئذنة». وهو دعوة إلى فهم الإسلام كما هو بنظر أهله أو معتنقيه، وإلى إعادة التفكير في الموقف المسيحي التقليدي في هذا المجال)[(١)].

وفي يونيو ١٩٦٦م عقد المجلس ندوة في «برمانا» ـ لبنان ـ لبحث العلاقة مع الإسلام، أعقبها في مارس من العام الذي يليه دعوة بعض المسلمين إلى جنيف للتمهيد للقاء أشمل تم في «كرتينيه» قرب جنيف في الفترة بين ٢، ٦ مارس ١٩٦٩م جاء في نتائجه ما يلي:

(يرى المشتركون في المؤتمر أن الحوار بين المسيحيين والمسلمين ضروري، وأنه ينبغي التوسع فيه على أصعدة مختلفة. هذه الضرورة تأتي:

أ ـ من القرابة الخاصة والتاريخية بين الديانتين.

ب ـ من النقد الذاتي الذي تمتاز به الديانتان.

ج ـ من الوضع الناجم عن اختلاط السكان...

---

(١) الحوار الإسلامي ـ المسيحي ضرورة المغامرة. (١٦١).

د - من الوضع التاريخي الحالي الخاص.

غاية الحوار الأولى هي حمل الديانتين على تأمين الاحترام المتبادل وتعزيز التفاهم. فعلاقاتهما قد أثقلتها عصورٌ مشحونة بكثير من سوء التفاهم. والغاية الأخرى هي طرح مشترك للأسئلة التي تؤدي إلى التجدد والتعمق الروحي، ويؤدي مثل هذا الحوار إلى تعهد مسؤولياتٍ مشتركة على الصعيد العملي وتحقيقها)[1]. وهذا اللقاء هو أول اتصال بين مجلس الكنائس العالمي وممثلين مسلمين يصدر عنه بيان مشترك، ويمثل حدثاً بارزاً في تاريخ العلاقة بين دعاة التقارب من الجانبين، أعقبه العديد من الاتصالات الثنائية، وتعدد الأطراف.

وفي عام ١٩٧١م تم تأسيس الوحدة الفرعية للحوار مع معتنقي المعتقدات الحية والأيديولوجيات Dialogue With people of Living Faiths and Ideologies (DFI).

(وقد قسمت هذه الدائرة مجالات عملها إلى ٣ هي:

١ - الهندوسية والبوذية. ٢ - الإسلام والديانات التقليدية!! ٣ - اليهودية[2]. وأشار الأب الكاثوليكي «موريس بورمانس» إلى أن هذه الوحدة الفرعية (أخذت تمارس نشاطاتها بالتعاون والتنسيق مع أمانة السر الرومانية)[3]. لقد كان مجلس الكنائس العالمي مدفوعاً في الستينيات إلى الانفتاح والحوار محاكاةً للخطوة الجريئة التي اتخذتها الكنيسة الكاثوليكية، المنافس التقليدي، في المجمع الفاتيكاني الثاني

---

(١) البيانات المسيحية الإسلامية المشتركة. نصوص مختارة: جمع: جولييت حداد. إشراف: الأب أوغسطس دوبره لاتور، د. هشام نشابة. جامعة القديس يوسف. بيروت. معهد الدراسات الإسلامية المسيحية. دار المشرق. بيروت. الطبعة الأولى ١٩٩٥م. (٣٦، ٣٧).

(٢) الحوار الإسلامي المسيحي، ضرورة المغامرة (١٦٢).

(٣) توجيهات في سبيل الحوار. (١٦٣).

(١٩٦٢م ـ ١٩٦٥م). ولكنه انفتاح مشوب بالحذر والترقب، يثير التساؤلات أكثر مما يقرر التوصيات، كما في بيانات لقاء «كارتينيه» عام ١٩٦٩م: (كيف يمكننا تصور التبشير والدعوة، ومحاولة اجتذاب الآخرين؟

هل بالإمكان القيام بصلاة مشتركة بين المسلمين والمسيحيين؟)[١].

في اجتماع اللجنة المركزية للمجلس العالمي للكنائس المنعقد في «أديس أبابا» مطلع عام ١٩٧١م، صدرت إرشادات لشرح سياسة الوحدة الفرعية للمجلس حول الحوار مع معتنقي الأديان والمثل «الأيديولوجيات» الحية، تضمنت الفقرات التالية:

(١ ـ إن المجلس العالمي للكنائس من خلال حياة وواقع كنائسه التأسيسية، ومن خلال النشاطات التي يقوم بها بالنيابة عن هذه الكنائس، يلتزم بعلاقاتٍ مزدوجة مع الناس في مختلف الأقطار، والحوار باعتباره نشاطاً إنسانياً تشترك فيه العناصر الروحية والفكرية والواقعية، وهو جزء من هذه العلاقة، وفي الوقت الحاضر هو أمر مستعجل لا محيد عنه، وهو مملوء بالفرص.

إنه أمرٌ لا محيد عنه، لأن النصارى في كل مكانٍ في العالم يعيشون في مجتمعات تشمل أدياناً عديدة. إنه أمر عاجل، لأن الناس جميعاً واقعين تحت ضغوطٍ مشتركة في البحث عن العدالة والسلام والمستقبل المأمول. وهو مملوء بالفرص، لأن النصارى يستطيعون الآن بأساليب حديثة أن يكشفوا عن مظاهر جديدة من العبودية والسيادة للمسيح، وعن مضامين جديدة من واقع الكنيسة في مجال التحرك نحو مجتمع إنساني مشترك.

---

(١) البيانات المسيحية الإسلامية. (٣٨).

٢ ـ إن إيماننا بعيسى المسيح الذي أصبح إنساناً من أجل جميع البشر في جميع العصور، يؤيدنا في هذا الحوار. إن التعبير عن هذا الإيمان في حياة وواقع الكنيسة يقودنا إلى تطوير علاقات مع البشر من مختلف الأديان والمثل. إن عيسى المسيح الذي حررنا هو الذي يخرجنا من العزلة إلى الحوار الصادق الذي ندخله مؤمنين بوعد عيسى المسيح. أن روح القدس ستقودنا إلى الحقيقة الكلية)[١]. وبعد سرد موجز لبعض لقاءات الحوار بين الكنائس المحلية والإقليمية مع أتباع الديانات والتقاليد الأخرى، بل وبعض اللادينيين كالماركسيين، خلص البيان إلى القول: (إن النصارى في أقطار كثيرة لا يتحدثون عن الحوار فقط، ولكنهم منشغلون به في الوقت الراهن، وعلى مستويات مختلفة، وهم في نقاطٍ كثيرة مضطرون إليه في سياق العلاقات المعيشية مع أهل الأديان والنظريات الأخرى)[٢].

إن هذا المدخل يشعر أن «الحوار» مع الآخرين بالنسبة لمجلس الكنائس العالمي:

١ ـ اضطراري: فرضته أحوال العالم الراهنة، واختلاف النصارى بغيرهم.

٢ ـ مستعجل: فيتحتم الدخول فيه بسبب الضغوط المشتركة التي تواجهها أطراف الحوار.

٣ ـ وأخيراً: مملوء بالفرص للتعبير عن الإيمان النصراني، بمباركة الروح القدس، أي البشارة.

وواضحٌ من المسوغين الأولين أن مجلس الكنائس العالمي لا

---

(١) بيان وإرشادات حول سياسة مؤقتة (١٢) عن وثائق صادرة عن المؤسسة الإسلامية. ليستر.
(٢) المرجع السابق، (١٣).

ينظر إلى الحوار إلا من زاوية «فرض الأمر الواقع»، وأنه ليس مطلباً أصلياً. أما المسوغ الثالث فمحل تجربة ونظر. وقد كشف البيان اختلاف التوجهات في مؤتمر «أديس أبابا» حيال قضية الحوار، فقال: (١١ ـ وقد لمس المجلس العالمي آثاراً صريحة، وأنواعاً كثيرة من الإقناع. لذلك فلا يوجد لديه رأي موحد حول الحوار مع أهل الأديان الأخرى... يجب أن نفهم ممارسة المجلس العالمي للحوار على أنها مغامرة مشتركة للكنائس)[1].

هكذا بدا موقف المجلس العالمي للكنائس في مطلع السبعينيات تجاه قضية الحوار أنه أمر اضطراري مستعجل لا محيد عنه، بل هو مغامرة وبالتالي فهذه الإرشادات «سياسية مؤقتة» كما سماها.

ومرد هذا التردد والحذر إلى إشكالاتٍ حقيقية لدى القوم تتلخص في ثلاثة أسئلة:

١ ـ ما هي المضامين اللاهوتية الأساسية للحوار؟

٢ ـ ما هي العلاقة بين الحوار والبشارة والشهادة؟

٣ ـ كيف يُفهم الحوار ويمارس في مجال تأهيل الأشخاص[2]؟

وكل سؤالٍ له إجابتان متضادتان لدى القوم. والبيان يقول بكل صراحة: (هناك خلافٌ دقيقٌ بيننا وفي كنائسنا، فيما إذا كان التركيز على الحوار سوف يضعف مضاء هذه المهمة التبشيرية أم أن المجتمع الإنساني، والحديث الذي سيوجده الحوار سوف يجعلانها تتقدم)[3].

ولهذا جاءت التوصيات في مؤتمر أديس أبابا منصبةً على قضيتين:

---

(١) المرجع السابق، (١٥).
(٢) انظر هذه التساؤلات في المرجع السابق، (١٦).
(٣) المرجع السابق، (١٦).

الأولى: العناية بتأهيل وتدريب وتهيئة (مجموعاتٍ من الناس قادرين على الاشتغال في حوار موثوق مع أصحاب الأديان والنظريات الأخرى في أقطارهم وأقاليمهم الخاصة. أما في الأماكن التي تم فيها هذا فعلاً فيجب إيجاد الأساليب والوسائل لإشراك الكنائس الأخرى في الآراء التي استخلصت)[١]. وما يستلزم ذلك من تغيير في المناهج التعليمية والبحثية، ووكلت المهمة إلى المعهد المسكوني في «بوسي».

الثانية: التركيز في الحوار على قضايا إنسانية عامة، كالعدالة والسلام والتطور.

هكذا ولدت «اللجنة الفرعية للحوار مع معتنقي الأديان والمثل الحية» عام ١٩٧١م مترددة حذرة متحفظة. وفي المؤتمر العام للمجلس العالمي للكنائس المنعقد في «نيروبي» عام ١٩٧٥م، رأى بعض المشاركين (أن الحوار كان خيانةً للرسالة ـ المسيحية، وباباً مفتوحاً أمام التوليف)[٢].

وقد حملت هذه التجاذبات لجنة الحوار الفرعية على إجراء استفتاء شامل لمختلف الكنائس المعنية بالحوار تحت عنوان: «استشارة لاهوتية بشأن الحوار ضمن الجماعات الدينية». وقد درست نتائجه في مؤتمر «شيانغ ماي» في «تايلند» من ١٨ ـ ٢٧ أبريل ١٩٧٧م[٣]. وتمخض المؤتمر عن تطوير الخطوط المباشرة للحوار، ثم تبناها مجلس الكنائس العالمي عام ١٩٧٩م[٤] بعد صدور كتاب ستانلي سامارثا «الدين وسط الأديان. تأملات على الحوار في المجتمع» عام ١٩٧٧م

---

(١) المرجع السابق، (١٧، ١٨).
(٢) تصورات بروتستانتية حول الإسلام. جان باسيّه. مجلة الاجتهاد (٣١/ ٦٠).
(٣) انظر: توجيهات في سبيل الحوار. موريس بورمانس (١٦٣).
(٤) تصورات بروتستانتية حول الإسلام. مجلة الاجتهاد (٣١/ ٦٠).

Faith in the Midst of Faiths. Reflections on Dialogue in Commuinity. .Cf. S. Samartha. Geneve Wcc 1977

(وأصبحت هذه الوثيقة فيما بعد أساساً لعمل قسم الحوار)[1].

وفي مطلع عام ١٩٧٩م اجتمعت اللجنة العامة لمجلس الكنائس العالمي في «جامايكا»، ونشر المجلس الإرشادات الصادرة عنها، نقتطف منها ما يلي:

■ (.. إن النصارى يؤمنون بالثالوث المقدس؛ الله خالق جميع البشر، المخلص في عيسى المسيح، روح التنزيل والتجديد ـ الذي به ندعى نصارى ـ بالنسبة لعلاقاتنا الإنسانية مع جيراننا الكثيرين، وتشمل هذه العلاقات هذا الحوار الذي نعبر به عن أعمق معتقداتنا، ونستمع لمعتقدات جيراننا. إن إيماننا النصراني هو الذي يحررنا حتى ننفتح على إيمان الآخرين، ونخاطر، ونثق ونكون عرضة للنقد. ففي الحوار يتوازن الاعتقاد والانفتاح.

إن الحوار ليس مجرد نشاط اجتماعات ومؤتمرات في عالم للنصارى فيه جيران كثيرون. إنه أسلوب حياة لإيماننا النصراني مرتبطين ومختلطين بأولئك الجيران الذين نشاركهم في المدن والشعوب والأرض بمجموعها. الحوار أسلوب حياة مرتبطة بالجيران. وهذا لا يحل محل، ولا يحدد واجبنا النصراني في الشهادة، كما أنه يجعل الجميع في حوار مع من يخالطونهم)[2].

لقد تضمنت هذه المقدمة التأكيد على قضية الحوار باعتباره

---

(١) إيمان جاري وإيماني. مقاربات لاهوتية من خلال الحوار بين الأديان. إصدار مجلس الكنائس العالمي. تعريب: طارق متري. (٧ ـ ٨).

(٢) إرشادات توصي بها الكنائس للدراسة والتطبيق. (٢٦) عن مجموعة وثائق من إصدار المؤسسة الإسلامية. ليستر.

أسلوب حياة، يعبر فيه الفرد عن إيمانه النصراني، ويتلقى النقد من مخالفيه، الذين هم في أحيان كثيرة جيران. وقد شاع التعبير بوصف «الجيرة» في بيانات المجلس فترة الثمانينيات للدلالة على حتمية المواجهة والاحتكاك، وما تتطلبه من انفتاح على «الجيران». ومن ثم فقد انصبت الإرشادات على الحديث عن مؤهلات الحوار وشروطه، وتفهم الآخرين واحترامهم. وفوق ذلك التركيز على المجالات التعليمية مثل:

(أ ـ برامج التعليم في المدارس والكليات، وأنظمة تعليم الكبار، لزيادة فهم التعاليم الثقافية والدينية والنظرية للإنسانية...

ب ـ برامج التعليم في الكليات والمعاهد اللاهوتية، لتهيئة كهنة نصارى يملكون التدريب والحساسية الضرورية للحوار بين الأديان.

ج ـ الاتصالات الإيجابية بالبرامج في أقسام الجامعة والمعاهد الأخرى للتعليم العالي والتي تهتم بالدراسة الأكاديمية للدين.

د ـ مراجعة المادة المستعملة، والتعليمات العادية، في مناهج التوجيه لجميع المستويات في الكنائس، بما فيها الكليات والمعاهد اللاهوتية، مع ملاحظة إزالة كل ما يشجع التعصب وتبلد الأحاسيس نحو أهل الأديان والمثل الأخرى.

هـ ـ تطوير مواد مدرسة الكنيسة لأجل دراسة أصحاب الأديان والمثل الأخرى.

و ـ إعداد المناهج المناسبة للأشخاص الذين يمكن أن يرسلوا للعمل في محيط ثقافات أخرى، أو الذين يمكن أن يسافروا كسائحين في مثل هذا المحيط لترقية مفاهيمهم وأحاسيسهم.

ز ـ رد فعل مناسب نحو كتب النصوص المدرسية ووسيلة تقديمها، والتي يمكن أن تتحامل على صورة الجيران.

ح ـ الاستعمال البنّاء لوسائل الدعاية والمذياع والتلفزيون و. . . كلما أمكن ذلك من أجل الوصول إلى مستمعين أوسع، في نطاق الجهود لزيادة تفهم أصحاب الأديان والمثل الأخرى)(١).

إن هذه التوصيات والإرشادات لتكشف رجحان كفة المنادين بالحوار، ولكنها في الوقت نفسه تكشف طبيعة ذلك الحوار في جانبه الثقافي، إنه حوار البشارة والاجتذاب والأنجلة المؤسس على خطط مدروسة، وإدراك ووعي بطبيعة الآخر، وتأهيل للأفراد لاحتراف الحوار. إن النقاط السابقة تدور حول أربعة محاور:

أولاً: دراسة الأديان الأخرى دراسة متعمقة تبلغ أعلى التخصصات العلمية تحت ستار «زيادة تفهم أصحاب الأديان والمثل الأخرى».

ثانياً: تدريب وتأهيل فرسان الحوار علمياً وميدانياً، ولو عن طريق السياحة.

ثالثاً: تخفيف الحساسيات السابقة والمتوقعة التي تستعدي الآخرين، وتثير تعصبهم بمراجعة المواد المستعملة في المناهج التعليمية، وإزالة ما لا يناسب الجيران، أو يبلد أحاسيس الأتباع.

رابعاً: الاستفادة من جميع الوسائل الدعائية والإعلامية الممكنة للوصول إلى المستمعين.

والحوار لدى مجلس الكنائس العالمي في أواخر السبعينيات يتسع وينفتح إلى أقصى الحدود الشكلية؛ فـ«الغاية تبرر الوسيلة» فلا بأس بالمشاركة في المناسبات الدينية للآخرين! يقول البيان: (لا بد أن يثير الحوار مشكلة المساهمة في الاحتفالات والطقوس والعبادة والتأمل:

تتقارب المجتمعات الإنسانية وتعبر عن نفسها وتتجدد في الطقوس

---

(١) المرجع السابق، (٢٨ ـ ٢٩).

والعبادة، والحوار يفسح المجال لتقديم الاحترام لشعائر الجيران في المجتمع. وتتوسع الأمور أحياناً، وتقبل دعوات الزيارة كضيوف ومراقبين في الطقوس العائلية والاجتماعية والمواعظ والاحتفالات. وتهيئ هذه المناسبات فرصاً ممتازة لزيادة الفهم المتبادل بين الجيران. ولا بد أن يثير العمل المشترك في مشاريع ونشاطات عامة، أو الزيارات المنزلية في الأعياد في نهاية المطاف القضية الصعبة، والمهمة جداً، وهي المشاركة الكاملة في صلاة أو عبادة أو تأملاتٍ مشتركة. وهذه إحدى مجالات الحوار التي هي أكثر الأمور جدلاً، أو أكثرها حاجةً للاستكشاف الواسع.

وسواء حدث هذا أم لا، فإن المشاركين في الحوار يرغبون أن يواجهوا القضايا الراهنة باهتمام وحساسية بالنسبة للإخلاص المتبادل، وهم يدركون تماماً دلائل ومقاصد ما فُعِل وما لم يفعل)[١].

لا شك أن مؤشر مؤتمر نيروبي المنعقد عام ١٩٧٥م، الذي قيل فيه إن الحوار خيانة للرسالة النصرانية، قد قفز إلى الجهة المقابلة في جامايكا عام ١٩٧٩م حين يتبنى الحوار إلى درجة المشاركة في المناسبات الدينية وربما الصلاة أيضاً، واعتبار ذلك (فرصاً ممتازة لزيادة الفهم المتبادل بين الجيران)، وإن شئت فقل لأداء الشهادة النصرانية.

أما مادة «الحوار» كما تبدو لمجلس الكنائس العالمي في نهاية السبعينيات فلا تختلف عن ذي قبل: (يجب متابعة الحوار بالمساهمة في الأعمال العامة في المجتمع: النشاطات العامة، والخبرات هي أكثر الأمور مناسبة للحوار حول قضايا: الإيمان والنظريات والسلوك، ومن خلال البحث عن مجتمع عادل للبشر جميعاً)[٢].

---

(١) المرجع السابق، (٣٠ ـ ٣١).

(٢) المرجع السابق، (٢٩).

وأخيراً يرسم المجلس سياسة واضحة حيال منظمات تقارب الأديان التي تتبنى قضايا معينة، ذات صبغة سياسية أو اجتماعية فيقرر: (هناك الآن منظمات كثيرة تربط بين أديان العالم وتبحث في تمكين هذه الأديان من التعاون لأغراضٍ متنوعة مثل الكفاح من أجل السلام، والعدالة في المجتمع الواحد وبين الأمم. ويحتاج النصارى المشاركون في الحوار أن تكون لديهم قدرة انتقائية للمشاركة في الاجتماعات التي ترتبها مثل هذه المنظمات. يجب أن يكون الممثلون النصارى حريصين على الاعتراف المتبادل والاحترام والإخلاص لكل دين. وأحياناً يكون ضرورياً أن يوضحوا أن مشاركتهم لا تدل بالضرورة على قبول المطالب الضمنية لاجتماع أو منظمة معينة. ويتجنب النصارى بشكل عام أن يتحالفوا ضد أديان أخرى، أو مُثل، من حيث كونها أدياناً ومثلاً. إن المجلس العالمي للكنائس يقبل إيفاد ملاحظين استشاريين إلى اجتماعات منتقاة من هذه النوعية، ولكنه في الوقت الحاضر لن يشارك مباشرة بشكل رسمي في التركيب التنظيمي للمنظمات العالمية ذات الأديان المتعددة)[1].

إنه انفتاح مدروس، يعرف أين يضع خطاه، فلا يجر إلى مواقف لا يَرتضيها، أو يتاجر به فيها، معياره المصلحة، فحيث وجدت المهمة الرسولية فهو ثمَّ، وإذا تعذرت بأي شكلٍ من الأشكال فلا مجال للمجاملة وتضييع الوقت.

هذا وقد صاغ المجلس اعتبارات خاصة باليهود عام ١٩٨٢م باسم:

Ecumenical Considerations On Jewish Christian Dialogue.

اعتبارات مسكونية حول الحوار اليهودي النصراني.

---

(١) المرجع السابق، (٣١ ـ ٣٢).

الكتب والبيانات الصادرة عن بعض منسوبي مجلس الكنائس العالمي:

وخارج قباب المؤتمرات، وبعيداً عن نصوص البيانات الرسمية نعرض نماذج مستقلة لطروحات بعض دعاة الحوار والانفتاح من أعضاء المجلس، ونصوصاً مقابلة للرافضين للحوار، لمزيدٍ من استيضاح حقيقة التقريب لدى النصارى غير الكاثوليك.

١ - (إيمان جاري وإيماني):

في عام ١٩٨٤م أوصت اللجنة المركزية لمجلس الكنائس العالمي بإعداد برنامج دراسي يمتد خمسة أعوام لتحديد معنى الهوية النصرانية في عالم تتعدد فيه الثقافات والأديان والأيديولوجيات، فأصدر قسم الحوار كتيباً عام ١٩٨٦م موجهاً إلى كافة النصارى بعنوان: إيمان جاري وإيماني My Neighbour's Faith and Mine.

Theological Discoveries in Interfaith Dialogue A Study Guide.

مقاربات لاهوتية من خلال الحوار بين الأديان. دليل دراسي.

أفصح عن «هدف الدراسة» وبواعثها قائلاً: (الدراسة جواب على الحاجة لوضع تفكيرنا اللاهوتي في سياق التعدّية الدينية المعاصرة، ولكن هذا لا يعني بالطبع الإجابة على كل الأسئلة اللاهوتية المعقدة التي يثيرها الموقف من إيمان الآخرين وشهادتهم. لقد تسببت هذه الأسئلة في خلافات عميقة بين اللاهوتيين المسيحيين، ولم يأت اليوم الذي نصل فيه إلى حلولٍ حاسمة. إن التمييز بين الوحي الطبيعي والوحي الخاص[1] ليس حلاً نهائياً، والنظريات التي تعتبر بعض التراثات الدينية مجرد استعدادٍ لقبول الإنجيل لا تكفي. لكن البحث

(١) لعلهم يريدون بالوحي الطبيعي ما تستلهمه الأديان والتقاليد - سوى النصرانية - من الفطرة والعقل والتجربة، من تجارب صائبة. بينما «الوحي الخاص» هو ما اختصت به النصرانية من الأناجيل.

المتجدد قد يقودنا إلى اكتشاف ـ أو إعادة اكتشاف ـ مؤشرات روحية داخل تراثنا، تقودنا إلى الأمام.

ليست الغاية من هذه الدراسة تقديم معلوماتٍ عن الأديان الأخرى. لكننا ندعو إلى تفهم جيراننا كأهل دينٍ حي، وإلى اعتبار معتقداتهم وممارستهم عنصراً في تفكيرنا اللاهوتي حول العالم والجماعة الإنسانية.

بعبارة أخرى: إن هذه الدراسة نداء إلى المسيحيين كي يكتشفوا معنىً لاهوتياً لإيمان جيرانهم. وهذا أمرٌ لم يفه التفكير المسيحي حقه. ولكن عندما يؤثر دين جيراننا على طريقتنا في ممارسة عقيدتنا ووعيها، نضطر لمواجهة التحدي والسعي لاكتشاف أبعاد جديدة لإيماننا. ننظر، من خلال ذلك، إلى جيراننا على ضوءٍ جديد، ونتعلم العيش معهم في جماعة متقاربة...

ومهما يكن من أمر، تحاول هذه الدراسة أن تتأمل في أفضل مظاهر سعي الإنسانية الديني. ورغم تحفظاتنا المشروعة حول بعض جوانب الأديان، علينا أن نتعامل مع القيم الإيجابية في حياة المؤمنين وشهادتهم. لذلك ليست الدراسة بحثاً في العقائد الأخرى قدر ما تتناول عقيدتنا نحن. موضوعها الأول: كيفية وعي إيماننا على نحوٍ أفضل فيما نعيش مع أصدقاء وجيران يعتنقون عقيدة أخرى)(١).

وقد تألفت الدراسة المذكورة، إيمان جاري وإيماني، من تسعة فصول، يتكون كل فصل من نصوص دينية لأبرز الديانات والتقاليد الحية، فبالإضافة إلى الإسلام واليهودية ثم البوذية والهندوسية والزرادشيتة والكونفوشية وغيرها، يعقب تلك النصوص تعليق يسلط الضوء على المادة المراد إبرازها، ثم جملة من الأسئلة اللاهوتية

(١) إيمان جاري وإيماني. (٨ ـ ٩).

والتطبيقية التي تصب في هدف الدراسة، كما صدر كل فصل بصورةٍ ضوئية «فوتوغرافية» ملتقطة من الممارسات الدينية والاجتماعية للشعوب غير النصرانية. وتقترح الدراسة تأليف مجموعات صغيرة تقوم بتدارس القضايا المطروحة وتأملها، ثم صياغة النتائج وإرسالها إلى قسم الحوار في المجلس[1]، الذي وعد أنه (ستنظم في عام ١٩٨٩ حلقة استشارية دولية لدراسة الأجوبة والملاحظات الواردة من مختلف أنحاء العالم على أن ترفع خلاصات هذه الحلقة إلى الكنائس)[2].

إن هذه الدراسة المعنونة بـ«إيمان جاري وإيماني»، من خلال عنوانها وأهدافها ومضامينها التساؤلية، بل وطريقة إخراجها الفنية لتكشف عن عمق المعضلة التي يواجهها القوم حين تجبههم العقائد والممارسات الأخرى، وتحرجهم أمام ضمائرهم أو على الأقل تزلزل قناعاتهم الدينية. وفي القصة التالية المنتزعة من ثنايا الكتاب ما يصور عمق هذه المعضلة:

(يروي الكاتب «بوتوك» أن حاخاماً شاباً، كان مسافراً في اليابان، وعند زيارة معبد بوذي رأى مسناً يحمل كتاباً ويصلي، وهو يميل إلى الوراء ثم إلى الأمام. سأل الحاخام صديقه: «هل تعتقد أن إلهنا يصغي إليه»؟ أجاب: «لا أعرف لم تخطر المشكلة في بالي قط. فإذا كان لا يصغي، لماذا؟ وإذا كان يصغي، لا بد من التساؤل في ما نحن عليه»...

إن سؤال الحاخام عميق من الناحية اللاهوتية. فإذا كان الله لا يصغي، نتساءل بحق «أي إله هو الذي لا يصغي لصلاة إنسان؟» وإذا كان الله يصغي يصح التساؤل عما يميز الجماعة التي ننتمي إليها؟ من

---

(١) انظر المرجع السابق، (١٠).
(٢) المرجع السابق، (٧).

نحن الذين نعتبر أن لنا امتيازاً في الوصول إلى سمع الله؟)[١].

إن مثل هذه المواقف لتهز الفرد النصراني ـ وإن كان الكاتب ألصق الحادثة بغير نصراني ـ وتحمله على التساؤل فيما هو عليه، وفيما عليه الآخرون سيما في هذا الزمان الذي انعتق فيه الأفراد من التسلط الكنسي على العقول، وسادت فيه معاني الحرية واحترام الضمير، فكيف إذا رأى أولئك الأفراد تعبد المسلمين في صلواتهم ودعائهم وخشوعهم وصومهم وحجهم وغير ذلك من مظاهر العبادة النقية الصادقة؟

إن الاختلاط والتعايش يمثل خطورة حقيقية بالنسبة للكنائس على أتباعها، وهمًّا ضاغطاً يتطلب كشفه تقديم «لاهوت» يستوعب أداء الآخرين، ويختصره ويحتويه، ويظهره ضئيلاً محدوداً بجنب الاعتقاد الكنسي. ومن ثم فإن الأسلوب الأمثل حمل الأتباع على التقدم لاكتشاف «إيمان الجيران» بروح مستعلية مهيمنة، تتواضع لـ(تتأمل في أفضل مظاهر سعي الإنسانية الديني). إن ذلك أجدى، وأقل ضرراً من أسلوب الحجب وتقديم معلومات مغلوطة تستثير في نفوس الأتباع روح البحث الصادق غير الموجه من الخارج. فالتقدم نحو الخصم خيرٌ من مدافعته.

إن الفاحص لعبارات الدراسة ليلمس بوضوح أن المشروع وإن بدا مؤطراً بالموضوعية والانفتاح، فإنه يؤكد بعمق على الانكفاء على الذات، وتوظيف معطيات الآخرين لتعميق الانتماء، تأمل في هذه الجمل الواردة في «هدف الدراسة»:

■ (لكن البحث المتجدد قد يقودنا إلى اكتشاف ـ أو إعادة اكتشاف ـ مؤشرات روحية داخل تراثنا تقودنا إلى الأمام...).

---

(١) المرجع السابق، (٥٤).

■ (لكننا ندعو إلى تفهم جيراننا كأهل دينٍ حي، وإلى اعتبار معتقداتهم وممارساتهم عنصراً في تفكيرنا اللاهوتي حول العالم والجماعة الإنسانية. . .).

■ (عندما يؤثر دين جيراننا على طريقتنا في ممارسة عقيدتنا ووعيها نضطر لمواجهة التحدي والسعي لاكتشاف أبعادٍ جديدة لإيماننا. . .).

■ (ليست الدراسة بحثاً في العقائد الأخرى، قدر ما تتناول عقيدتنا نحن. موضوعها الأول: كيفية وعي إيماننا على نحوٍ أفضل، فيما نعيش مع أصدقاء وجيران يعتنقون عقيدة أخرى).

ولذلك فإن الدراسة استبعدت منذ البداية نظرية (التمييز بين الوحي الطبيعي والوحي الخاص)، ونظرية (اعتبار بعض التراثات الدينية مجرد استعدادٍ لقبول الإنجيل)، ونحوها من النظريات التي تحاول تقديم معنى لاهوتي لممارسات الآخرين، وتنحى الدراسة منحىً جديداً في معالجة التحدي الذي تسبب في إيجاد خلافات عميقة بين اللاهوتيين النصارى باحتواء ما عند الآخرين وإلحاقه بجوانب روحية موجودة أصلاً في اللاهوت النصراني لم يتم اكتشافها، أو يعاد اكتشافها من جديد. ومن ثم لا تمنح الأديان والتقاليد والأيديولوجيات الأخرى صفة القسيم، أو الند أو حتى الفرع إذ هي ـ في جوانبها التي تبدو مشرقة وصائبة ـ مشمولة باللاهوت النصراني.

تلك خطوة إلى الوراء في الحقيقة مقارنة بمفهوم الخلاص الجديد الذي جاء به المجمع الفاتيكاني الثاني، وتداعياته.

وبالفعل فقد أولى مجلس الكنائس العالمي قضية التعددية الدينية اهتماماً خاصاً. فعقد مؤتمراً في «نيودلهي» عام ١٩٨٧ بعنوان «التعددية الدينية»، ثم في «نيو وندسور» ـ ميرلاند بأمريكا في العام التالي ١٩٨٨،

بعنوان: «تحدي التعددية». وفي العام الذي يليه ١٩٨٩م أرَّخ المجلس لمبادراته الحوارية مع المسلمين على مدى عشرين عاماً من تأسيس اللجنة الفرعية للحوار بكتاب:

Meeting in Faith: Twenty Years of Christian Muslin Conversations. Geneve. Wcc 1989.

لقاء في الإيمان. عشرون عاماً من الحوار المسيحي الإسلامي.

وفي عام ١٩٩١م أصدر المجلس كتاباً بعنوان:

Ecumenical Considerations on Christian Muslim Relations.

اعتبارات مسكونية حول العلاقات المسيحية الإسلامية.

٢ - (الكتاب المقدس ومؤمنو الأديان الأخرى):

كتب القس «ويسلي أرياراجا» دراسة في: «الكتاب المقدس ومؤمنو الأديان الأخرى»، تناولت موضوع الحوار وإشكالاته، إجابة لطلب الاتحاد العالمي للطلاب المسيحيين في منطقة البسفيك ـ الآسيوية (عما يساعد المسيحي العادي في تعاطيه مع جيرانٍ له ينتمون إلى أديان أخرى. كيف يمكن مسيحيّ اليوم أن يعيشوا إلى جانب البوذيين والمسلمين والهنود وجماعات دينية أخرى، ويشهدوا لهم من خلال موقفهم الحواري؟ كيف يمكن المسيحي أن يقوم بذلك دون أن يتخلى عن إيمانه، بل دون أن يخفي إيمانه؟ وهل بإمكانه أن يدخل في حوار ويستمر في قناعاته المسيحية)[١].

وقد قدم للدراسة رويدي ويبر، وقرظه قائلاً: (إنني لا أعرف بحثاً آخر تناول هذا الموضوع بمثل الوضوح والاختصار والعمق الذي تحلت

(١) الكتاب المقدس ومؤمنو الأديان الأخرى: القس: ويسلي أرياراجا. تعريب: الخوري بولس الصياح. المكتبة البولسية. بيروت ـ لبنان. الطبعة الأولى ١٩٩٥م. (١١).

به دراسة ويسلي أرياراجا)[١]. وأشار إلى استفادته من سلسلة دراسات جمعت تقاريرها في كتاب بعنوان: «الكتاب المقدس: سلطته وشرحه في الحركة المسكونية» من إصدار مجلس الكنائس العالمي عام ١٩٨٠م.

وقد قام الاتحاد العالمي للطلاب المسيحيين في منطقة البسفيك ـ الآسيوية ومجلس الكنائس العالمي بالتعاون في نشر هذا الكتاب.

ونظراً لهذا الإطراء والاهتمام فإن هذا الكتاب يصلح عيّنة للتعرف على موقف غير الكاثوليك من قضية الحوار.

لقد أسس الكاتب دراسته للرد على منتقدي الحوار من المنطلق التالي:

(الكثير من الانتقادات الموجهة إلى الحوار تزعم أنها ترتكز إلى الكتاب المقدس، هذا ما قاله لي أحد أصدقائي. ففيه أن «يسوع هو الطريق والحق والحياة» ولكي يتابع المسيحي الحوار، عليه أن يتنكر لقول الكتاب المقدس في يسوع وفي السبب الذي من أجله أرسله الآب إلى العالم.

ما مدى صحة هذا القول؟ وهل الكتاب المقدس ينكر على المسيحي إمكانية الحوار مع المؤمنين المنتمين إلى تقاليد دينية أخرى؟ هل فيه تعليم في المسيح ومعنى مجيئه يتنافى ونوايا الحوار الصادق؟)[٢].

ونحن لا نريد أن نمضي مع الكاتب في مجادلاته مع أبناء ملته حول مشروعية «الحوار» إلا بالقدر الذي يكشف عن حقيقته في نظر مؤيديه.

---

(١) مقدمة الكتاب السابق، (٩).

(٢) الكتاب المقدس ومؤمنو الأديان الأخرى (١٢).

يعمد المؤلف إلى إثبات صحة مبدأ الحوار ومشروعيته، وضرورة الانفتاح على أتباع الديانات الأخرى وقبولهم، من خلال عدة محاور، أهمها:

١ ـ التقاط الشواهد الحوارية لأنبياء العهد القديم في دعوتهم لأقوامهم، ومقاطع تتحدث عن الشعوب الأخرى «الأمميين»، ومواقف المسيح ﷺ وتلامذته، التبشيرية ذات الطابع الحواري، مع الوثنيين، لإبراز منزلة الحوار في الكتب المقدسة(١).

٢ ـ الدعوة إلى تنحية الكلام في امتلاك النصرانية للحقيقة المطلقة دون غيرها، وعدم مجابهة الآخرين بالادعاءات الحصرية. (إن التشبث بالحقيقة الموضوعية المطلقة إنما هو وليد تقليد حضاري وفلسفي لا علاقة له بالكتاب المقدس. لأن ما نجده في الكتاب المقدس ليس محاولات لتقديم حقائق موضوعية، إنما هناك صراعٌ في سبيل الفهم والشهادة والإعلان... إن مثل هذا الفهم للشهادة من خلال الكتاب المقدس «لا سيما لتلك الفقرات التي تبدو وكأنها حصرية، والتي غالباً ما اعتبرت وكأنها حقائق مطلقة، واستعملت كمرتكزٍ لرفض إيمان الآخرين» سوف يحررنا كمؤمنين، فنتمكن من الدخول في حوار مع مؤمنين من أديان أخرى. فالحقيقة عندما تفهم على هذا النحو تصبح قابلة للمشاركة. فلا يشعر المرء آنذاك أن عليه أن يدافع عن شيء ما أو يفرض ذلك على الآخرين أو يقنعهم به. فمن المرجح أن يترك الإنسان المتواضع المنفتح على المشاركة في الجهاد الروحي والشهادة أثراً أعمق في نفوس مؤمني الأديان الأخرى، من ذاك الذي يدعي أنه يملك الحقيقة المطلقة، وأن ليس به حاجةٌ إلى النقاش أو الحوار...

إنه غاية في الأهمية إذاً أن يعي المسيحيون طبيعة الإيمان الذي

---

(١) انظر الفصلين الأول والثاني في المرجع السابق.

من الكتاب المقدس، وطريقة التعبير عنه، فيتعاملوا مع الآخرين مقتنعين بأن لدى الآخرين شهادةً يقدمونها. فالادعاءات «الحصرية» التي نشعر وكأنها حقائق مطلقة إنما تقودنا إلى الانعزال. فهي ليست «حجر العثار» إنما هي «حواجز» رفعت في وجه الناس تحول دون تعرفهم إلى المسيح الذي تميزت حياته بالتضحية والعطاء الذاتي.

لا يدعو الكتاب المقدس المسيحيين في الحقيقة إلى إطلاق الادعاءات، إنما إلى الالتزام بالانفتاح على الآخرين. وللآخرين التزاماتهم أيضاً. فالحوار إذاً لقاءٌ بين التزامين. وفي مثل هذا اللقاء يمكن لكل من المحاورين أن يصغي إلى شهادة الآخر ويراها)[1].

إن هذا النص يكشف لنا بوضوح عن الحوار في نظر المؤلف. إنه وسيلة مؤثرة لتحقيق «الجهاد الروحي» و«الشهادة» النصرانية في نفوس مؤمني الأديان الأخرى. إن الكاتب لا يدعو إلى التنصل من عقيدة امتلاك الحقيقة المطلقة، أو التبرؤ من الادعاءات الحصرية التي دأبت الكنيسة على تلقينها لأتباعها، بل غاية ما في الأمر أنه يدعو إلى ترك المجاهرة بهذه الدعاوى، واستفزاز الآخرين بها، لما يترتب على ذلك من الآثار العكسية، وعلى حد تعبيره: (سيأتي أناسٌ يطلقون ادعاءاتٍ مماثلة ترتكز إلى أقوال كُتّابٍ يتخذونهم مراجع لهم. فادعاء المرء بأنه يمتلك الحقيقة المطلقة من شأنه أن يؤول إلى العجرفة والتعصب، ومن ثم إلى الحكم على كل التطلعات الإيمانية للآخرين)[2].

إذاً فالنص عبارة عن معالجة نفسية، وتوجيه «رعوي» لأولئك الذين يرون في «الحوار» خيانةً لرسالة المسيح، لكونه، من منطلق

---

(١) المرجع السابق، (٤٢ ـ ٤٣).

(٢) المرجع السابق، (٤١).

إخلاصهم لمعتقدهم، يتضمن «حجباً» لبعض حقائق الإيمان. بينما الكاتب يهمس في آذانهم أن: لا داعي لكشف الأوراق دفعةً واحدة، فالتدرج في البشارة، ومراعاة قناعات الآخرين لا بد منه. لا سيما إذا نظرنا إلى الفقرة الثانية هذه في ضوء الفقرة الأولى ومكانة الحوار في الكتب المقدسة.

إن اللاهوت البروتستانتي لم يستطع أن يتقدم خطوة حقيقية في نظرته إلى الآخرين، كتلك التي أعلنها المجمع الفاتيكاني «الكاثوليكي» الثاني بتوسيع مفهوم الخلاص. حتى هذا الكاتب الذي يعد من المتحررين، المنادين بالحوار يتحدث عن قضية «الخلاص» لغير النصارى على استحياء، ومن جانب السلب لا الإيجاب: (فالاعتقاد بأن مؤمني الأديان الأخرى هم خارج عمل الله الخلاصي هو كلام لا يبلغ الناس فقط، بل الله أيضاً. فإله الكتاب المقدس، الإله الذي دعاه المسيح أباً، هو سيد الجميع، وهو في صميمنا، وكل شيء فيه كائن.

ما أريد أن أقول، بعبارة أخرى، هو إن رسالة الكتاب المقدس حوارية في صلبها. ومؤسف أن نبني الكثير من مواقفنا تجاه مؤمني الأديان الأخرى على قراءتنا لفقرات «استثنائية» من الكتاب المقدس، وليس على رسالته الأساسية. نحن في حوار لأن إلهنا هو الإله الذي بشرنا به يسوع المسيح، ولأننا نؤمن بعمق بحب الله الذي يشمل البشرية بأسرها. فالله حريتنا، وهو يهبنا الحرية والانفتاح فنتمكن من لقاء جيراننا أو نحكم عليهم فقط، لأن قبولهم وتفهمهم هما حجر الزاوية في رسالة الإنجيل)[١].

إن الكاتب المتحرر المنفتح لا يجرؤ أن يقول: (بيد أن تدبير الخلاص يشمل أيضاً أولئك الذين يؤمنون بالخالق... ثم إن الله نفسه

---

(١) المرجع السابق: (٤٩).

ليس ببعيد عن الذين يتلمسون من خلال الظلال والصور إلهاً مجهولاً... فهؤلاء يمكنهم أن ينالوا الخلاص الأبدي...)(١) كما قاله أساقفة الكاثوليك، بل يكتفي بالنعي على من يعتقدون أن مؤمني الأديان الأخرى خارج عمل الله الخلاصي، بمعنى أنهم يرفضون الإصغاء إليهم والدخول معهم في حوار، حتى مع عدم وجود شرطٍ مسبق أن الخلاص لا يمكن أن يشملهم. فمرةً أخرى لا يلحظ الكاتب في قضية «الحوار» سوى الجانب التبشيري، من جهة أن قبول المدعو وتفهمه هما حجر الزاوية في رسالة الإنجيل، وليس من جهة أن الطرف المقابل يمتلك ـ على الأقل ـ جزءاً من الحقيقة، أو أن الحوار معه يثري محاوره ويقود إلى مزيدٍ من المعرفة والفهم.

أما العلاقة بين «الحوار» و«البشارة» في نظر القس البروتستانتي فواضحة غير معقدة، ولا تحتاج إلى هندسة فلسفية كتلك التي أجهدت الكنيسة الكاثوليكية نفسها في تفسيرها، إن الحوار يعني ببساطة إعلان الشهادة للإيمان المسيحي في المحافل العامة، وهو يقول ذلك دون مواربة، ويستند إلى وثائق مجلس الكنائس العالمي: (هذا لا يعني أن الحوار نهج جديد للشهادة أو أننا نتخذ من الحوار مجالاً للتحايل على الآخرين. بل هو يعني بكل بساطة أنه يمكن المرء أن يشهد من خلال الحوار، وأنه في الحقيقة لكذلك. وقد تحدث مجلس الكنائس العالمي عن هذا الأمر في «توجهات في الحوار» بالعبارات التالية:

«نحن لا نخال أن بين الحوار والشهادة تناقضاً. وما من شك أنه عندما يدخل المسيحي في الحوار وهو ملتزم بيسوع المسيح، غالباً ما يكون الحوار مجالاً لشهادة حقيقية، لذا... يمكننا بكل صدقٍ أن نحسب الحوار كإحدى الوسائل التي من خلالها تتم الشهادة ليسوع

(١) انظر: «المجمع الفاتيكاني الثاني» (٥٢).

المسيح في أيامنا، ويمكننا في الوقت نفسه، وبمقدار الصدق نفسه أن نؤكد لمحاورينا أننا نأتي إليهم، ليس كمن يحاول بمكرٍ اجتذابهم، إنما كرفقاء في مسيرةٍ واحدة، لنتحدث معاً في ما نرى أن الله قد حقق في يسوع المسيح الذي سبقنا، والذي نحاول معاً أن نبحث عنه من خلال الحوار»)[١].

هل يرى القارئ فرقاً بين ما قبل جملة «ويمكننا في الوقت نفسه» وما بعدها؟ إنها الشهادة النصرانية في الحالين.

٣ ـ الدعوة إلى إجراء تطوير لاهوتي «بروتستانتي»: لقد أدرك الكاتب أن آفة الحوار تكمن في صميم المعتقد النصراني نفسه، ولذلك أعلن بجرأة أنه: (. . . قد حان الوقت لكي تجهد الكنائس في سبيل وضع قاعدة لاهوتية جديدة تنير سبيلها في علاقتها مع مؤمني الأديان الأخرى. ومن شأن تلك القاعدة أن تخول المسيحي أن يلتزم بالمسيح ويبقى في الوقت نفسه منفتحاً على شهادة الآخرين. . .)[٢].

ووضع يده على مكمن الداء، حين قال: (لقد ارتفعت أصواتٌ متعددة منتقدة اللاهوت البروتستانتي في تركيزه على المسيح بشكل يكاد يكون كاملاً. وقد قيل إن هذا التوجه مسؤول أساساً عن عجز البروتستانتية في التعاطي مع التعددية الدينية. لقد جاهر الرسل[٣] بإيمانهم بأن الله قد أظهر نفسه للعالم بشكل خاص في يسوع المسيح. فتسلم بعض اللاهوتيين هذا الإيمان، واتخذوا لهم من بعض النصوص

---

(١) الكتاب المقدس ومؤمنو الأديان الأخرى (٧٠ ـ ٧١).

(٢) المرجع السابق، (٨٣).

(٣) الرسل في الاصطلاح الكنسي هم تلامذة المسيح وحواريوه، الذين بشروا بالنصرانية. والعبارة تنطبق على «بولس» فقط الذي أفسد النصرانية وزعم ألوهية المسيح رغم أنه لم يكن من حوارييه، ولا تلاميذه، بل لم يلقه قط. راجع التمهيد.

الكتابية حجةً ليطوروه إلى ادعاء بأن يسوع المسيح هو الوحي الإلهي «الكامل» و«النهائي» و«المطلق» و«الحاسم». وفي مواقف تبشيرية غالباً ما يكون الادعاء بأنه ما من وحي «حقيقي» لله سواه، وإذا ما حصل ذلك، فيكون الوحي جزئياً إلى حدٍ يجعل من يسوع المسيح المصدر الوحيد لمعرفة «حقيقة» الله...

فالعودة إلى لاهوتٍ يتمحور حول الله، يتيح المجال للمسيحيين أن يقفوا إلى جانب مؤمني الأديان الأخرى كأبناء الله الواحد، من دون أن يتنكروا لشهادتهم ليسوع المسيح.

وحدة المفهوم اللاهوتي «المتمحور حول الله» يخولنا احترام إيمان إبراهيم وانصياع موسى لإرادة الله... علينا أن نقر بأن هذا التوجه لا يشكل ابتعاداً عن الرسالة الأساسية للكتاب المقدس، إنما هو تصويب يسهِّل على المسيحي العيش في عالم متعدد الأديان من دون أن يتنكر لدعوته الخاصة، كما يمكِّنه من إعطاء حياة جيرانه وخبرتهم معنىً لاهوتياً)[١].

إن الكاتب هاهنا يحاول أن «يخرج من جلد» اللاهوت البروتستانتي، بل قارب، ولمَّا يبلغ، الأساس اللاهوتي الكاثوليكي لتسويغ الحوار، ولكن مع الهاجس الذي لا يفارقه؛ تحقيق رسالة الكتاب المقدس، بالاستعانة ببعض «التصويبات» الفنية التي تمكنه من إعطاء حياة الآخرين وخبرتهم معنىً لاهوتياً.

٣ ـ (تحديات العلاقات بين الأديان الكبرى):

ألقى «جورج ليونارد كاري» رئيس أساقفة كانتربري، رئيس الكنيسة الإنجليكانية في بريطانيا، محاضرة بعنوان «تحديات العلاقات بين الأديان الكبرى»[٢] في جامعة الأزهر عام ١٩٩٥م. ونظراً للمنزلة

---

(١) المرجع السابق، (٨٤ ـ ٨٥).

(٢) انظر النص الكامل للمحاضرة في مجلة الاجتهاد ٣٠ (٢٠٥ ـ ٢١٥).

الكبيرة التي يتبوأها في العالم غير الكاثوليكي، ولحداثة هذه المحاضرة، فإنها تصلح نموذجاً لاستقراء ما آلت إليه النظرة النصرانية، غير الكاثوليكية، تجاه العلاقة بالمسلمين.

نوَّه المحاضر بأهمية الدين عموماً، والمسيحية والإسلام خصوصاً بوصفهما (أكبر ديانات العالم، وما زالت كلتاهما محتفظة بكامل عنفوانها)[(١)].

وخلص إلى ترديد ما أكده الرائد اللاهوتي الألماني البرفسور هانز كونج عام ١٩٩٤م أنه: (بدون سلامٍ بين الأديان ستكون هناك حرب بين الحضارات. لا سلام بين الأديانٌ بدون حوار بينها، ولا حوار بين الأديان بدون البحث في الأسس)[(٢)].

ثم حدد المحاضر أربعة أسس لبناء علاقة جديدة بين الديانتين:

(١ ـ الصداقة لا العداء: ... الصداقة هي الإطار الذي يحتوي كل الاختلافات في تواصل، والذي يحتضن المعتقدات المخالفة في حب بدون الانزلاق إلى العداوة والبغضاء...

٢ ـ التفهم لا الجهل: إن جهلنا بعضنا بالبعض الآخر هو أمر مريع. فالجهل هو أخطر أمراض الحضارة، وهو ينبع من الخوف وسوء الفهم والتعصب...

سوف يكون بإمكاننا انتزاع التطرف الذي يجنح إلى العنف من جذوره إذا ما وقَّرنا عقائد بعضنا البعض، وأدركنا حقيقة أن الإسلام والمسيحية كلاهما باقٍ بقاء قوة الدين على التفرقة بين الخير والشر...

٣ ـ الانفتاح لا الانغلاق: وإذا كان للحوار أن يستمر من خلال

---

(١) المرجع السابق، (٢٠٥).

(٢) المرجع السابق، (٢٠٧).

الصداقة فلا مناص من أن نتناول مسألة الانفتاح التي تطرح نفسها بإلحاح. فإذا كنا ننشد السلام والتآلف على ظهر هذا الكوكب المزدحم، فيجب أن تكون روح الصداقة والاحترام متبادلة بيننا وبين هؤلاء الذين يخالفوننا في العقيدة. ولكي ننجح في هذا، فإنه علينا أن نواجه المشكلة الأساسية التي تقف عثرة في طريق هذا الانفتاح.

والواقع أن الإسلام والمسيحية ديانتان لهما رسالة يؤديانها. فكلاهما تطرح فرضيات مطلقة، وكلانا لديه الرغبة القوية في نشر دينه. وهذا جزء لا يتجزأ من دياناتنا وهي حقيقة لا تتطلب الاعتذار عنها أو إنكارها، فقد أمر القرآن الكريم المسلمين بهذا في الآية: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ تماماً كما أمر الكتاب المقدس المسيحيين قائلاً: «اذهبوا إلى جميع الأمم وبشروهم بكلمة الله».

ويطرح التساؤل بين الحين والآخر: «هل يمكن للذين يخلصون الإيمان بقلوبهم، ويؤمنون بأن دينهم هو عقيدة ذات رسالة تدعو للحقيقة والقداسة أن يدخلوا في حوار؟» وأجيب: نعم، من الممكن طالما لدينا الاستعداد لسماع الآخرين، وطالما نحن ملتزمون بالسلام والرغبة في الفهم. وكما يعلم الكثيرون في هذا المقام فإنني متمسك لأقصى الحدود بمعتقداتي كمسيحي، ولكن لا يقلل هذا من استعدادي للسماع والتعلم والتزود، ولكن من الضروري بالنسبة لنا أن ندرك أن الطريقة التي نتعصب بها لها انعكاساتها على عقائد الآخرين. فأي من دياناتنا لا يأمرنا بنشر دعوتنا عن طريق الكبر والخداع واللامسؤولية. ولكن هل لدى دياناتنا الاستعداد الصادق لتنمية هذا الانفتاح؟ هل نسعى نحو منح عقائد الآخرين نفس الحقوق التي نمنحها لعقيدتنا؟...

٤ ـ التعاون لا المجابهة: ... نحن لا نستطيع أن نستحمل الانزلاق إلى العداء والمجابهة فنحن في حاجة إلى رسم طرقٍ جديدة للتعاون والسلام المبنيين على الفهم والنوايا الصادقة. فقد ذكرت حتى

الآن الاختلافات بين الأديان. فهذه الاختلافات حقيقة ولا يجب إنكارها كما لا يجب أيضاً أن يفهم منها أنه ليس هناك شيء مشترك بينها. فهناك تفاهم واتفاق أكبر مما نعتقد في بعض الأحيان أو مما تعلمناه...

تفتح هذه الاتفاقات الأخلاقية والدينية الباب واسعاً لمزيد من التقدم بين المسلمين والمسيحيين في محاربة قوى الشر الكبرى التي تهدد العائلة الإنسانية. اسمحوا لي أن ألخص الطرق التي يمكن من خلالها تقوية أواصر التعاون:

١ ـ التعاون في محاربة الفقر والشقاء الإنساني...

٢ ـ السلام والتآلف بين الشعوب...

٣ ـ التسامح والتفهم...

لقد تكلمت كداعية مسيحي مخلص تمام الإخلاص لدعوة السيد المسيح، ولكني تكلمت أيضاً كإنسان تعلم على مدار السنين أن يقدر ويشعر بالإكبار نحو الكثير من معتقدات وتقاليد المجتمعات الدينية المخالفة له في العقيدة... نحن مطالبون بوضع أسس الحوار بين الأديان والعمل المشترك من أجل الأجيال التي لم تولد بعد، لكي تعيش يوماً ما في عالمٍ يسوده السلام...)[(١)].

إن الطرح الذي تقدم به رئيس الكنيسة الإنجليكانية أمام رئيس جامعة الأزهر، يحمل توجهاً معدلاً للغة الخطاب المطروحة في السبعينيات. إن مشروعه يستبعد أحلام «التقارب الروحي» و«الشهادة المشتركة» وغيرها من الشعارات السائدة في العقود الماضية. إنه ينهج منهجاً «واقعياً» نحو التعايش والسلام والتعاون. ويؤكد على ذات

---

(١) باختصار من المرجع السابق (٢٠٨ ـ ٢١٥).

المعاني الأربعة التي كان يُنادى بها سابقاً، ويُحذِّر من أضدادها، كما كان يُحذِّر منها سابقاً، لكن في هذه المرة، من زاوية الآثار الواقعية، المنافية للتعايش السلمي في كوكبٍ مزدحم، كنبذ العنف والتعصب. وحتى حين يقول: (نعم) للحوار فإن ذلك يأتي في سياق المطالبة بالحريات الدينية. وحين يدعو إلى مشاريع تعاونية مشتركة نجدها مفرغةً من أي مضمونٍ دعوي، مقتصرة على الشعارات الإنسانية المجملة.

لعل هذا العرض لمقالة أحد أركان النصرانية غير الكاثوليكية يفصح عن القناعة التي توصل إليها مجلس الكنائس العالمي أخيراً، من إخراج الحوار من أطره الدينية إلى «مفاوضات» في أسلوب العيش المشترك، كما يتحاور سائر البشر على قضايا حياتية مشتركة، إذ لا جدوى من الحوار اللاهوتي - حسب تعبيرهم - بين ديانتين كل منهما (تطرح فرضيات مطلقة)، وتمتلكان (الرغبة القوية في نشر دينها).

ولعل هذه القناعة هي التي آلت بمجلس الكنائس العالمي إلى إلغاء اللجنة الخاصة بالحوار مؤخراً، وجعل اللقاء بالمسلمين يندرج في إطار العلاقات الدولية[1]. وهو إصلاح إداري يتناسب مع القناعة المشار إليها.

بقي أن نشير إلى أن هذه المحاضرة المفعمة بعبارات الصداقة والسلام والتعاون والتفهم والانفتاح، ألقيت في الوقت الذي كان التعصب الصليبي الحاقد يحصد أرواح المسلمين العزل في بلاد البوسنة والهرسك، ويدك المآذن والمنازل على رؤوس المصلين والسكان الأبرياء. هذا لون، ولون آخر يتمثل في ضراوة النشاط التنصيري الذي تمارسه الإرساليات النصرانية على اختلاف طوائفها في أوساط المسلمين المشردين، مستغلين ضعفهم وبؤسهم وحاجتهم، «لتعميدهم»

---

(١) جان باسيّه: (تصورات بروتستانتية حول الإسلام) مجلة الاجتهاد (٣١/ ٦١).

باسم الآب والابن والروح القدس. فأين النزاهة والاحترام وحماية الحريات الدينية يا ترى؟

أم أن لغة المحافل والمؤتمرات تختلف عن لغة الميدان والواقع؟

وصدق الله: ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ۝٨﴾ [التوبة].

تلك لغة دعاة الحوار ومؤيدوه، أما أعداؤه ومعارضوه من القوم، فلا يستهان بهم كثرةً وحجةً ومنطقاً داخل الدوائر الكنسية، مما ينبغي أن يحمل المتهافتين على موائد الحوار من الإسلاميين على التريث، وعدم التوغل في درب يقال لهم فيه بعد حين: ارجعوا أدراجكم، لا حاجة لنا بكم.

يقول أحد مناوئي الحوار: (ليس بإمكاننا أن نكون مجرد مراقبين للأديان الأخرى. فإنجيل يسوع المسيح يصدر حكماً مسبقاً عليها، إنه يمكّننا من الحكم عليها قبل درسها. هؤلاء يعطون للحياة معنى خارج ذاك الذي أعطاه الله في قصة الكتاب المقدس، الذي تتوجت بيسوع المسيح، وينظمون حياتهم بمعزلٍ عن العهد الذي بيسوع المسيح. فبما أن تلك الأديان تفتقر إلى معرفة الله وقدرته، فهي ليست أعجز من أن تقبل بالناس إلى الناس، بل إنها تقودهم بعيداً عنه، وتبقي عليهم محبوسين في غربتهم. فهذا الحكم الصريح والنهائي... لم يأت نتيجة لدراسة تلك الديانات، إنما هو في صلب مضمون الإنجيل نفسه)[1]. لقد اختصر المسافة، وأصّل القضية، وأصدر الحكم الصريح والنهائي قائلاً: دعونا من العبث.

ولئن اكتفى هذا بمجرد الإعراض والصد عن الديانات الأخرى

---

(١) عن: الكتاب المقدس ومؤمنو الأديان الأخرى. (٤٦) The Gospel In Dispute
. Edmond. Perry. P. 83

بحجة أن القضية محسومة مسبقاً بالإنجيل، فإن غيره يذهب إلى أبعد من ذلك فيقول:

(... لقد اقتصر الموقف من الديانات الأخرى على النظر إليها كمجرد كيانات وثنية، غريبة ومنغلقة على عمل الله في التاريخ. إنها مؤسسات مذاهب تناقض المسيحية وليس فيها علامات فداء. الأشخاص فيها فقط مخلّصون، أما هي فلا. فالواجب إذاً أن نواجهها بمواقف إنجيلية من شأنها أن تؤول إلى هدمها كلياً. وبينما نحكم الحصار عليها وندك أسوارها، نحاول أن نخرج من نستطيع ممن هم في داخلها، فننظّفهم، ونعمدهم، ونستعملهم كرأس حربة في عملية الحصار هذه)[١].

بل في أروقة مجلس الكنائس العالمي، نفسه، وأثناء المداولات الداخلية يقول أحد المشاركين: (إن مفهوم «الشهادة المتبادلة» هو من ابتكارات قسم الحوار في مجلس الكنائس العالمي. إنه مفهوم غير كتابي، ولا علاقة له بمفهوم العهد الجديد للشهادة المسيحية)[٢]. وهذه النبرة الإنجيلية الأصولية ترتفع تدريجياً.

خلاصة وتحليل:

لقد لفتت مبادرات مجلس الكنائس العالمي للتقريب بين الأديان الأنظار في أواخر الستينيات، وطوال السبعينيات الميلادية، بتتابعها، وانتشارها في أصقاع متنوعة من قارات العالم القديم. فقد عقد المجلس أكثر من خمسة عشر لقاءً دولياً أو إقليمياً خلال عشر سنوات، موزعة في أوروبا وآسيا وأفريقيا[٣]. ولكن هذا النشاط الدائب لم يكن

(١) المرجع السابق، (٥٠). عن: Sharing Jesus In The Two Thirds World P. 132.

(٢) المرجع السابق، (٥٧).

(٣) سيأتي تفصيل لهذه المبادرات في فصل «المحاولات الجماعية للتقريب بين الأديان» من الباب الثاني.

يخفي وراءه وضوحاً في الرؤية، ومضاءً في العزيمة. بل كان سلسلةً من التجارب المشبعة بروح المغامرة، والرصد لانعكاسات التقارب على الحركة المسكونية.

لقد واجه المجلس بكنائسه البالغة ثلاثمائة وست عشرة كنيسة معضلة العلاقة بين «الحوار» و«البشارة»، وبعبارة أدق: بين «التقارب» و«التنصير»، بصورة أعنف مما واجهته الكنيسة الكاثوليكية. ومرد ذلك إلى أمرين:

١ ـ أن قوام الحركة البروتستانتية والكنائس المتأثرة بها، هو العمل التبشيري، بشقيه العقدي والاجتماعي، ومن ثَمَّ فالحديث عن الحوار، والاقتراب من العقائد الأخرى طعن بأخص خصوصيات الحركة الذي قامت على أساسه، وخيانة لمبادئها. بينما حُلَّت هذه العقدة بالنسبة للكاثوليك بتوسيع قاعدة «الخلاص» وإنْ بصورة جزئية، وربما مؤقتة.

٢ ـ أن مجلس الكنائس العالمي لا يتمتع بالمركزية في صنع «القرار»، كما المجامع الكاثوليكية، فكنائسه المتعددة والمتباينة حرةٌ في اتخاذ ما تراه مناسباً، وليس للمجلس صفة الإلزام. بخلاف الصبغة الكهنوتية لمجامع الأساقفة الكاثوليك، الذي يعتقد الكاثوليك أنفسهم أنها موجهةٌ وملهمة من الروح القدس[1]. ومن ثم فقراراتهم معصومة مقدسة. وبالتالي فالمعارضة داخل الأسرة الكاثوليكية تتعثر بالحرج الديني من جهة، والخوف من النبذ والفصل من سلك الكهنوت، حيث إن «سر السيامة» أصلاً من اختصاص الأساقفة[2]. ومن ثم يحتاج الأمر

---

(١) راجع التمهيد. مبحث «الكتب المقدسة عند النصارى» (٧١ ـ ٧٧).

(٢) راجع التمهيد. مبحث «الطقوس البدعية الكهنوتية عند النصارى». «الأسرار السبعة» (١٠١ ـ ١٠٢).

إلى درجة عالية من الذكاء، والحيل اللفظية، للالتفاف على القرارات المجمعية. بينما يتمكن البروتستانت والإنجليكان والكالفينيون من الصدع بآرائهم، مستندين إلى سلطة الكتاب المقدس مباشرة، دون وسائط كهنوتية.

لقد تبلور داخل أروقة مجلس الكنائس العالمي ثلاثة تيارات:

(١ ـ التيار الحصري الضيق: وهو الأكثر قوة وسيطرة. إذ أنّه يستند إلى القناعة الثابتة بأن يسوع المسيح هو الطريق الوحيد للخلاص...

٢ ـ الاتجاه الاشتمالي الاحتوائي: ... وقد قال أتباع هذا التيار... بتأكيد الوجود والنشاط الخلاصي لله في جميع الأديان. وفي نفس الوقت بالتجلي أو التجسد الكامل والنهائي لله في يسوع المسيح وحده... والمسيحية... فريدة ونهائية، ولكن هذا لا يعني أن أعضاءها وحدهم يستطيعون أو يستحقون الخلاص. إنها الطريق العادية نحو الخلاص، مع وجود طرقٍ «غير عادية» ظاهرة في العالم، وناجمة عن القوة الخلاصية ليسوع المبثوثة في التاريخ البشري.

٣ ـ تيار التعددية: أتباع هذا التيار لا يرون في المسيحية الطريق الوحيد للخلاص، ولا يعتبرون أنها تشتمل وتحتوي وتكمل بقية الديانات. بل يؤمنون بتعدد طرق الخلاص)(١).

وبين قطبي رحى الحصرية Exclusivisme، والاحتوائية Inclusivisme تطاحنت مختلف التيارات. وطوال نصف قرنٍ منذ تأسيس المجلس عام ١٩٤٧م، حتى الآن لم يصدر عن جمعيته العمومية، أو لجنته المركزية،

---

(١) الحوار الإسلامي المسيحي. ضرورة المغامرة (١٦٤ ـ ١٦٧). وانظر: الحوار المسيحي ـ الإسلامي في الواقع والرؤية. د. طارق متري. في كتاب: المسيحية والإسلام مرايا متقابلة (١٨٠ ـ ١٨٢).

أو الوحدة التي أنشأها للحوار مع أصحاب العقائد والمثل الحية، قرار ذو صفةٍ عقدية يؤيد التقارب أو ينفيه، وذلك بسبب التجاذبات المختلفة بين أجنحة المجلس ومنظريه. وإنما ظهر تنوع المواقف حيال قضية الحوار، بصرف النظر عن وجود مسوغٍ عقدي له. ويمكن أن نميز ثلاث مراحل:

١ ـ **المرحلة الأولى:** مرحلة الدراسة، وقد ابتدأت في وقتٍ مبكر إثر انعقاد المجلس عام ١٩٥٥م، حيث شكل مشروعاً دراسياً بعنوان: «كلمة الله والأديان الحية للبشر»، استمر حتى مطلع السبعينيات. وكانت حصيلته الدعوة إلى الانفتاح والحوار مع الإسلام، ومجاراة ما كان سائداً في النصف الثاني من الستينيات إثر المجمع الفاتيكاني الثاني. وكانت ذروة هذه المرحلة مؤتمر «كارتيني» عام ١٩٦٩م، الذي رأىٰ ضرورة الحوار لحمل الديانتين على تأمين الاحترام المتبادل وتعزيز التفاهم. وفي ذات العام أنشئت وحدة الحوار.

٢ ـ **المرحلة الثانية:** مرحلة التجربة العملية: وقد استهلت بإصدار الإرشادات لشرح سياسة وحدة الحوار مع معتنقي الأديان والمثل الحية عام ١٩٧١م وفيها يوصف الحوار بأنه اضطراري ومستعجل ومملؤ بالفرص، ومع ذلك يعترف المجلس أنه لا يوجد لديه رأي موحد، وأن ممارسة المجلس للحوار مغامرة.

وقد استغرقت هذه المرحلة عقد السبعينيات تقريباً، فقد نشط المجلس في تفعيل قضية الحوار على مستويات عالمية وإقليمية، وطرح موضوعاتٍ متنوعة تمس الاعتقاد والعبادة، والدعوة والتبشير، واهتم بتأهيل وتدريب متخصصين في الحوار.

وفي ذات الوقت كان المجلس يقوّم بشكل مستمر تجاربه في كل مؤتمر يضم كنائسه المتعددة، في أديس أبابا عام ١٩٧١م، ونيروبي عام ١٩٧٥م، وشيانغ ماي عام ١٩٧٧م.

٣ ـ **المرحلة الثالثة:** مرحلة حوار البشارة: تبتدئ هذه المرحلة عام ١٩٧٩م، إثر صدور إرشاداتٍ بشأن الحوار في اجتماع اللجنة العامة للمجلس في جامايكا. فقد عُرِّف الحوار بأنه ليس مجرد نشاط اجتماعات ومؤتمرات بل أسلوب حياة للإيمان النصراني، مرتبط بالجيران، يؤدي فيها المحاور الشهادة، ويتذرع بجميع الوسائل الحديثة للوصول إلى مستمعيه.

ومن ثم فقد انحسر عدد المؤتمرات التي يرعاها المجلس بين الأديان بصورة ملحوظة إلى حد إلغاء وحدة الحوار، وإدراجها ضمن إطار العلاقات الدولية للمجلس، فقد استفرغ المجلس وسعه، في السعي لاستغلال الحوار ـ من حيث هو حوار ـ للتنصير، فلم يأت بطائلٍ يرضي طموحه، فاستبقى الاسم ستاراً لمشاريعه، وفرَّغه من المضمون.



المبحث الثالث

حقيقة التقريب بين الأديان عند النصارى العرب

كان بعض الأفراد والقبائل العربية يدين بالنصرانية قبل بعثة النبي ﷺ. ورغم أن معظمهم قد اعتنق الإسلام عبر القرون، إلا أنه قد بقي بقية أصرَّت على عقائدها السابقة إلى يومنا هذا، بالإضافة إلى أعراقٍ أخرى «استعربت» إبان الفتح الإسلامي المحمول باللسان العربي، كالقبط، والأنباط، والبربر، والأكراد، وغيرهم فصاروا جزءاً من المجتمع العربي رغم تمسك بعضهم بدياناتهم، واعتبروا «أهل ذمة» على نحو ما أوضحنا في «التمهيد» من الناحيتين الفقهية والتاريخية.

يقول السيد محمود شكري الألوسي[1] رحمه الله في «بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب»: (وصنفٌ منهم على دين النصارى، فقد كانت النصرانية في ربيعة وغسان وبعض قضاعة، وكأنهم تلقوا ذلك عن الروم. فقد كان العرب يكثرون التردد إلى بلادهم للتجارة. وقد اجتمع على النصرانية في الحيرة قبائل شتى من العرب يقال لهم «العِباد» بكسر العين وتخفيف الباء... وكان بنو تغلب أيضاً من نصارى العرب،

---

(١) محمود شكري بن عبد الله بن شهاب الدين محمود الألوسي الحسيني، أبو المعالي (١٢٧٣ ـ ١٣٤٢هـ): مؤرخ عالم بالأدب والدين، من الدعاة إلى الإصلاح. ولد في رصافة بغداد. وأخذ العلم عن أبيه وعمه وغيرهما. وتصدر للتدريس في داره وفي بعض المساجد. وحمل على أهل البدع في الإسلام، برسائل، فعاداه كثيرون وسعوا به لدى والي بغداد... توفي في بغداد. وله اثنان وخمسون مؤلفاً منها: أخبار بغداد، وتاريخ نجد، وغاية الأماني في الرد على النبهاني. انظر: الأعلام (٧/ ١٧٢ ـ ١٧٣).

وكانت لهم شوكة وقوة يد. وقد صالح عمر بن الخطاب رضي الله عنه[1] في أيام خلافته على ألا يغمسوا أحداً من أولادهم في النصرانية... وكان أهل نجران أيضاً من نصارى العرب)[2].

وقبل الحديث عن حقيقة التقريب بين الأديان لدى النصارى العرب القاطنين بين ظهراني المسلمين العرب، نلقي نظرة سريعة على ما آل إليه حالهم في العصر الحديث:

لقد كان «الرابح الأول» من المتغيرات السياسية مطلع القرن العشرين الميلادي، هم النصارى العرب، فقد شهد اضمحلال الدولة العثمانية الممثلة للرابطة الدينية الإسلامية، التي تعتبر اليهود والنصارى المقيمين تحت ولايتها «أهل ذمة»، على ما اعترى هذه القضية من مساومات وتنازلات في العقود الأخيرة من العهد العثماني. كما أن النصراني العربي كان «الربيب المدلل» للدول الغربية الكبرى التي تبحث عن موطئ قدم في أراضي الإمبراطورية العثمانية الشاسعة، تمهيداً لتقاسمها بعد وفاة الرجل المريض. فحظيت الطوائف النصرانية المختلفة بحماية وعناية الأسياد، الذين قاموا بتعليم أبناء تلك الطوائف العلوم العصرية، وتأهيلهم للأدوار القيادية في المنطقة. وكان لا بد من ملء الفراغ الفكري الذي خلّفه سقوط الخلافة العثمانية بفكرة جديدة مناسبة، فلا غرو أن كان رواد فكرة القومية العربية من النصارى العرب.

ولا ريب أن النصارى العرب في القرن العشرين قد تبوءوا منزلةً

---

(١) هكذا في الأصل. ولعل صواب العبارة: (وقد صالحهم....) أو (وقد صالحوا...).

(٢) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: محمود شكري الألوسي. شرح وتصحيح وضبط: محمد بهجة الأثري. المكتبة الأهلية ـ مصر. الطبعة الثانية (١٣٤٢هـ ـ ١٩٢٤م). (٢/ ٢٤١ ـ ٢٤٢).

ونفوذاً لا يتناسب قطعاً مع تمثيلهم السكاني، الذي أخذ في الازدياد بفعل تمكين الاستعمار الغربي لهم في المنطقة.

(... وتستفيد الديموغرافيا[١] المسيحية من هذا الوضع الملائم، ويصل ثقلها إلى أوج لم تعرفه قط منذ زمن الحملات الصليبية: ٢٦,٤٪ من سكان الشرق الأدنى «سوريا ولبنان وفلسطين في عام ١٩١٤» و٨,٠٪ في مصر، ولكن مجرد ٢,٢٪ في العراق...)[٢]. كان ذلك في مطلع القرن العشرين حيث نعم النصارى بالمزايا السياسية والاقتصادية والصحية التي قدمها الانتداب الفرنسي والإنجليزي لهم، في مقابل التدهور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والصحي الذي عاناه المسلمون في تلك الحقبة، كما تكشف عنه جداول وفيات الأطفال المقارنة إذ ذاك[٣].

ولكن السنن الإلهية في الكون سرعان ما تعيد الأمور إلى نصابها، أو قريباً منه، فتنحسر الجماعات النصرانية و(تهبط نسبتها: ١٠,١٪ في مجمل الشرق الأدنى «لبنان، سوريا، إسرائيل [فلسطين المحتلة]، الأردن» في عام ١٩٩٠، ٥,٨٪ في مصر. ولم يكن ذلك نتيجةً لأي عنف بل نتيجةً للتفاعل الحر للقوى الديموغرافية)[٤].

ويصور الأمير الحسن بن طلال في كتابه الصادر عام ١٩٩٥م بعنوان «المسيحية في العالم العربي» وضع المسيحيين في العالم العربي المعاصر بقوله: (لا يزال للمسيحية، بمختلف طوائفها وجود ملحوظ في العالم العربي اليوم، في مصر والعراق، كما في الأردن ولبنان

---

(١) الديموغرافيا Demography: (الدراسة الإحصائية للسكان من حيث المواليد والوفيات والصحة والزواج.. إلخ) المورد (٢٦٠).

(٢) المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي (٣٦٢).

(٣) انظر: المرجع السابق، الجداول (٥، ٦، ٧، ٨) الملحقة بالفصل الثامن.

(٤) المرجع السابق، (٢٦٢).

وسورية، إضافة إلى العرب المسيحيين في فلسطين، وإسرائيل. ولا يوجد مسيحيون محليون في الجزيرة العربية، ولا في البلاد الأفريقية إلى الغرب من مصر، إذ أن جميع المسيحيين في المناطق المذكورة هم من المغتربين العرب أو الأجانب. وتوجد فئة كبيرة من المسيحيين المحليين في السودان، لكنها ليست من أصلٍ عربي، بل إفريقي، وهي محصورة في أغلبيتها في الأجزاء الجنوبية من البلاد.

والإحصاءات المتاحة لأعداد المسيحيين في العالم العربي المعاصر تتفاوت بين رقمٍ مبالغ فيه، وعددٍ متحفظٍ إلى حد إطلاق النذير بقرب زوال المسيحية من بين العرب. ولعل الرقم التقديري المعقول لمجموع المسيحيين في البلاد العربية هو عشرة ملايين، يتوزعون على الأقطار المختلفة على النحو الآتي «متبوعاً بالنسبة المئوية التقديرية لمجموع السكان في كل قطرٍ بين قوسين»:

١ ـ في مصر، ستة ملايين (١٢,٥ بالمئة)[1].

٢ ـ في لبنان، مليونان (٤٠ بالمئة حسب التقدير الرسمي).

٣ ـ في سورية، نصف مليون تقريباً (ربما ستة بالمئة).

٤ ـ في العراق، نصف مليون (حوالي ٣ بالمئة).

٥ ـ في الأردن وبين عرب فلسطين وإسرائيل نصف مليون مقسم بالتساوي تقريباً بين أردنيين وفلسطينيين (٦ بالمئة في كلا الحالين).

هذه الأعداد الضئيلة نسبياً للمسيحيين في العالم العربي المعاصر لا تعادل إطلاقاً الأهمية التي يتميز بها حضورهم الاجتماعي

---

(١) يلاحظ الفرق الكبير في تقدير نسبة الأقباط مع الإحصاءات التي أوردها فيليب فارج ويوسف كرباج لعام ١٩٨٦م حيث بلغ عددهم ٢،٨٢٩،٣٤ أي بنسبة ٥,٨٧٪ من مجموع السكان!

والاقتصادي والثقافي، وحضورهم السياسي في بعض الحالات، في الأقطار التي ينتمون إليها، بل وفي المجتمع العربي قاطبة)[١].

ومع تراجع الفكر القومي العربي، وتنامي الصحوة الإسلامية في الثلث الأخير من القرن العشرين، وتفعيل قضية الحوار الإسلامي النصراني مع العالم الغربي تعود حالة الشعور بالقلق تجاه المستقبل، ومحاولة البحث عن سياق إلى الجماعة النصرانية العربية. لقد كانت «القومية العربية» توفر لهم الإطار المناسب الذي ينضوون تحته دون أن يلحقهم تمييز بسبب مخالفتهم دين الأغلبية. ولكن أعلام القومية نكست منذ هزيمة القوميين العرب أمام إسرائيل، هزيمة نكراء عام ١٩٦٧م. وسرى في عروق الأمة روح العودة إلى الإسلام، واستنهاض العقيدة الإسلامية، وتنامت الصحوة الإسلامية في الأوساط الشعبية بشكل أثار مخاوف أعداء الإسلام في الداخل والخارج.

وفي نفس الوقت نشطت حركة التقريب بين الأديان عموماً، وبين دين الإسلام والنصرانية خصوصاً، على المستوى الرسمي والأهلي مع الغرب النصراني.

فما هو موقف النصارى العرب من هذه القضية تحديداً؟

سنحاول تبين ذلك من خلال بعض الكتابات الصادرة عن الزعامات الدينية لطائفتي الأرثذوكس والكاثوليك العرب في بلاد الشام، وطائفة القبط في مصر، ثم نختم ببيان حقيقة التقريب لدى بعض الجدليين من النصارى العرب.

❁ ❁ ❁

---

(١) المسيحية في العالم العربي (١٢٩ ـ ١٣٠).

أولاً: الأرثذوكس العرب:

ويعرفون بـ «الروم الأرثذوكس»، ويبلغ مجموعهم في البلاد العربية مليوني نسمة تقريباً، معظمهم في سورية. وهم ثاني أكبر طائفة نصرانية عربية بعد الأقباط في مصر[1].

يقول المطران جورج خضر، رئيس أساقفة جبل لبنان للروم الأرثذوكس: (أنا أفهم بسبب من ظلم التاريخ، أن تتجه أنظار المسلمين إلى مسيحيي الغرب إذا أرادوا مخاطبة المسيحية. فعند أهل الغرب القرار السياسي، وعندهم الثروة التي تستثمر ثروات الشعوب المستضعفة. ولكن الحوار لا يكتمل ما لم يجر مع مسيحيي الشرق الذين ذاقوا القهر إلى جانب المسلمين. ويمتاز حوارهم في أنه غير مرتهن للقوة، وفي أنهم ساهموا إسهاماً فريداً كبيراً بنهضة الشعوب العربية منذ القرن الأخير، واعتبروا الإسلام جزءاً من تراثهم القومي، ولم يكتفوا بتذوق حضارته، ولكنهم أحسوا أنهم منها. إن الإنسان إن لم يكن في موقع القوة، قد يكون أكثر صفاءً إن هو حاور. وما من ريبٍ أن المسيحيين العرب يتحسسون الشدائد الواقعة على المسلمين لأنها واقعة على الناس جميعاً. إن انخراط المسيحيين في القضية العربية بالصدق والزخم اللذين عَرَفنا، عاد بالخير العميم على المسلمين لكونهم غالبية العرب.

المسيحيون العرب يحسون بتهميش، إذا انحصر الحوار المسيحي ـ الإسلامي بالتلاقي بين المسلمين وأهل الغرب)[2].

---

(١) المسيحية في العالم العربي (١٣٠).

(٢) العلاقات الإسلامية المسيحية قراءة في الراهن والمستقبل من كتاب العلاقات الإسلامية ـ المسيحية. قراءات مرجعية في التاريخ والحاضر والمستقبل: مجموعة من المفكرين. المشرف على المشروع: سمير سليمان. مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق ـ بيروت. الطبعة الأولى ١٩٩٤م. (٢١٠ ـ ٢١١).

إن المطران خضر يعرب هنا عن أسفه وعتبه أن يولي المحاورون المسلمون وجوههم شطر الغرب النصراني، غير آبهين بمواطنيهم من النصارى العرب، ويرى أن الحوار بهذه الصيغة لا يكتمل. أما المسوغات التي يمتاز بها المحاور النصراني الشرقي (العربي) ـ من وجهة نظره ـ فهي كالتالي:

١ ـ أنه لا يحاور من موقع القوة، أي قوة القرار السياسي الغربي، وبالتالي فالحوار أكثر صفاءً لكونه غير مرتهن.

٢ ـ الاشتراك في الملمات والشدائد التي حاقت بالمنطقة وألمت بمسلميها ونصرانييها.

٣ ـ الدور المتميز للنصارى العرب في نهضة مواطنيهم المسلمين في هذا القرن.

٤ ـ اعتبار النصارى العرب الإسلام جزءاً من تراثهم القومي، وتفاعلهم معه.

٥ ـ وأخيراً تبنيهم القضية العربية ـ وأحسبه يقصد قضية فلسطين خاصة ـ بصدق.

وهذه الدعاوى متعقبة بما يلي:

أولاً: أن الطرف النصراني العربي طالما اتخذ من موقعه الضعيف مدعاة لتدخل النصراني الغربي في أرض الإسلام قديماً وحديثاً، وتواطأ مع الأجنبي من أبناء ملته ضد مواطنيه المسلمين، بل وحوّل الحوار الذي يصفه المطران جورج خضر بالصفاء وعدم الارتهان إلى ورقة ضغط يلوح بها الأجنبي بإيعاز من حليفه الداخلي.

يقول الدكتور طارق متري ـ وهو أرثذوكسي أيضاً ـ واصفاً موقف بعض النصارى العرب: (.. يأخذ بعض المسيحيين العرب على الحوار «مثاليته»، وابتعاده المفترض عن قضاياهم الحياتية الحرجة. وقد ذهب

نفر منهم، لبناني خصوصاً، إلى حد الامتعاض من النظر إلى بلادهم بوصفها مختبراً للعلاقات المسيحية الإسلامية. غير أنهم، فيما ينتقدون الحوار، يعملون على الإفادة منه، وعلى طريقتهم. فيتوسلون الاهتمام المسيحي العالمي بمحاورة المسلمين ليذكروه بواجبه التضامني مع إخوانهم في الدين. وخير مثل نضربه على ذلك، دعوة توجه إلى المسيحيين الغربيين لكي يصروا، لدى المسلمين على مبدأ المعاملة بالمثل حين يتعلق الأمر بأوضاع الأقليات الدينية)[1].

ثانياً: أما دعوى الشراكة في القهر والشدائد الواقعة على الناس جميعاً، فغير مسلَّمة بإطلاق، لا في تاريخ الحروب الصليبية، ولا الاستعمار الحديث.

ثالثاً: ونختلف مع المطران جورج خضر في مفهوم «النهضة» التي نسبها إلى نصارى العرب في هذا القرن. فإنا نعتقد أن الدور الذي قاموا به كان تغييباً للأمة الإسلامية عن دورها وهويتها ورسالتها التي جاء بها نبيها الكريم ﷺ. وأن القوم كانوا جسراً للغزو الفكري الغربي، وبث الأفكار العلمانية والإلحادية في جميع المرافق التعليمية والإعلامية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ولا تزال الأمة تتجرع غصّات ذلك الأثر السيء، وتجتر عواقبه الوخيمة.

رابعاً: وكثيراً ما يتملق بعض النصارى العرب، المسلمين باعتبار الإسلام تاريخهم الثقافي وحضارتهم، وإن لم يكونوا مسلمين، وربما أعجبت هذه المقولات بعض المسلمين فرددها واستشهد بها، ولعمر الله إنها تحمل في ثناياها من الطعن والإزراء بدين الإسلام، ما يتضاءل ما يبدو إلى جوارها من ثناء وإطراء ظاهري، إذ ما دام الأمر كذلك فما الصارف لهم عن اعتناق الإسلام وقبوله؟ أم هو لحن قولٍ من جنس

---

(١) المسيحية والإسلام: مرايا متقابلة (١٧٧).

قول أسلافهم من أهل الكتاب: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [آل عمران].

وخامساً: أي منّة يُدِلُّ بها النصارى العرب بانخراطهم في القضية العربية حتى عادت بالخير العميم على المسلمين، على حد تعبير المطران خضر؟.

أي فتح مبين، أو نصر مؤزر جلبه هؤلاء إلى الأمة الإسلامية، بتصريحات قومية صحفية في بعض المحافل والمنتديات يدلي بها بعضهم، حتى إذا ما ادلهمَّ الخطب، كما في الحرب الأهلية اللبنانية تنكروا للمبادئ، وحالفوا اليهود وأعداء الأمة العربية ـ كما كانوا يعبرون ـ وركنوا إلى أبناء ملتهم ضاربين عرض الحائط بالشعارات المصلحية الوقتية. فما الذي جنته شعوب المنطقة الإسلامية بتظاهر هؤلاء بنصرة القضية سوى اختلاط الرايات العمية، في قضية إسلامية صِرفة، وعزل الأمة العربية عن عمقها الإسلامي، وتغذية النعرات القومية الإقليمية، وحل الرابطة الإسلامية، ومن ثم عدم توفر أسباب النصر، وتلاحق الهزائم.

تلك مناقشة لدعوى الدور المتميز لنصارى العرب في قضية الحوار الإسلامي النصراني، كما صوَّره المطران الأرثذوكسي جورج خضر، فماذا عن الحوار نفسه والعلاقة بين الديانتين كما يراها هو أيضاً؟.

كتب المطران خضر في جريدة النهار البيروتية، يوم الأربعاء ١٢ تموز ١٩٧٢م، بمناسبة انعقاد مؤتمر «برمَّانا» للحوار الإسلامي النصراني ما نصه:

(كل حديث عن وحدة الديانتين كما نعرفهما حقاً إنما هو حديث

مجاملة، ولا يقول به رصين. فالله الواحد الذي نعبده نختلف في صفاته اختلافاً بيناً، ولا الإنسان، موصوفاً هنا وهناك واحد. ولا العلاقة بين الله والإنسان واحدة. ولا مفهوم الوحي يجمع. وأهم ما في الأمر أن المسيحية التي يصفها القرآن لا يعرفها المسيحيون على أنها دينهم، وعندهم أن الرسالة الإنجيلية نهائية، وأنها جوهرياً قائمة في الكنيسة. فلا الصلب ولا بنوة المسيح لله مقبولة عند المسلم في حال.

ولا ريب أن ما يغري المسيحيين في الإسلام جانبه الروحي، ولا سيما تراث الصوفية، ولكن بعامة لا تنقاد إليها جمهرة المسلمين، ويأباها علماؤهم. زد على ذلك كله أن منهج النقد الأدبي والنقد التاريخي الذي يستعمله اللاهوتيون المسيحيون في دراسة الكتاب المقدس، يرفض علماء الإسلام تطبيقه على القرآن)[١].

بهذا الوضوح يدرك المطران جورج خضر، الذي (ولد بطرابلس الشام، وترعرع فيها بين المسلمين، واكتسب من هذه النشأة، ومن دراساته معرفة حميمة بالإسلام والمسلمين)[٢] يدرك الفرق الجذري بين أصول الديانتين، وأن الحديث عن وحدة الديانتين ضربٌ من المجاملة، ولا يقول به رصين. بل إنه يحرص في كتاباته على إبراز الفروق العقدية بين المسلمين والنصارى، ويتفنن في العرض لكي يمحص بين ما يمكن أن يتناوله الحوار وما لا يقبل الحوار، فيقول:

(.. إن المسيحي يؤمن بأن المسيح في قوله على الصليب: «قد تم» أبان أنه خاتم النبيين جميعاً، من حيث أنه حقق في ذاته، وفي

---

(١) مواقف أحد. (٧٤). إصدار: دار النهار للنشر.

(٢) جورج خضر والحوار الإسلامي ـ المسيحي: مقاربة لاهوتية. جورج مسوح. مجلة الاجتهاد ٣١، ٣٢/٢١٧.

كمال محبته وعودَ الله كافة، وكشف عمق العلاقة القائمة بين الله والإنسان، فلا مكانة لمستزيد أو تنقيح أو توضيح أو رسالة جديدة. والمسيحي يؤمن أننا مع السيد بتنا في «ملء الزمان» (غلاطية ٤ : ٤)، وأنه لا ينتظر إلا حضور المسيح ثانية في اليوم الأخير. وإن امتد بين الحضور الأول في تجسد الكلمة، والحضور الثاني حياة إلهية في الكلية فهي حضرة الباراقليط المعزي «المنبثق من الأب» (يوحنا ١٦ : ١٥)، الذي لا يحتمل الإنجيل في ما يصفه به أن يكون بشراً، لكونه روح الله نفسه. فإذا كانت الرسالة الإنجيلية نهائية، كاملة المضمون فلم الحوار؟.

ما لا يمكن المسلم تجاوزه هو أن محمداً خاتمة النبيين. بمعنى أنه صاحب رسالة جديدة، تقيم الإنجيل وتعتبر نفسها مؤيدة له، ولكنها تأتي بأحكامٍ جديدة وتقول: إن «لكل أمة رسول»، تنقح المسيحية القائمة، ولا تنقح الإنجيل الذي أنزل على عيسى، بل تريد المسيحيين أن يعودوا إليه، والقرآن عودة إليه وهو فحواه الحق، ذلك أن عيسى كان مسلماً حنيفاً كما كان إبراهيم، وهو عبد الله ورسوله، ومخلوق كما خلق آدم. وتنكر إلهية عيسى، وتالياً تنكر التجسد كما تنكر الصلب الذي هو محور المسيحية المعروفة، ولعله مضمونها كلها بما كان التعبير عن المحبة الإلهية، وبما آل إليه من قيامة المخلص. «وإن كان المسيح لم يقم، فتبشيرنا باطل، وإيمانكم أيضاً باطل». (١كورنثوس ١٥ : ١٤).

فكيف التوفيق، وكل توفيق يبدو هنا تلفيقاً. والحوار بادئ ذي بدء، مرفوض بسبب من أصالة المسيحية وأصالة الإسلام؟ فنحن أمام منظومتين، ليست واحدة منهما قابلة للاختراق أو للتكامل. ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. فإذا كانت الرسالة أكملت بآخر التنزيل القرآني يكون هذا مناقضاً

لقول السيد على الجلجلة «قد تم» يوحنا (١٩ : ٣٠)[١].

لقد أفصح المطران خضر عن حقيقة التباين والتقابل بين العقيدة الإسلامية، واللاهوت النصراني المحرف، الذي عليه نصارى اليوم، وكان محقاً في أن أي محاولة للتوفيق لا تعدو أن تكون تلفيقاً. فما هي حقيقة الحوار الذي يدعو إليه المطران بصفته الشخصية، ويحضر مؤتمراته بصفته الكهنوتية؟ إنه يصوغ السؤال ويجيب عليه قائلاً: (غير أن السؤال الذي يفرض نفسه هو كيف يمكن للمؤمن أن يتقبل المسألة في أهم ما عنده في الوجود؟ بعض من جواب عن هذا هو أن ثمة تمييزاً بين دينيّ من جهة وتاريخيّ من جهة أخرى. فالتاريخ مليء بالخطايا ومليء بالظلم. وأنا أتباعد عن تاريخ ديانتي بقدر ما كان قهاراً. أنا تجاه المسلم في حالة استغفار، لأن المسيحيين هدروا دمه واضطهدوه، ويقمعونه هنا وثمة، في احتلال بلاده، وكل احتلال إذلال. وأتمنى إن أنا تواضعت أمامه أن يمتحن هو قلبه ليرى ما إذا فعل مثل هذا. هو يسوق نفسه إلى محاكمة تاريخه)[٢].

هذا ـ بحد ذاته ـ هدف واضح لتسويغ الحوار والتقارب رغم الاختلاف التام في الاعتقاد. إنها دعوة إلى مصالحة تاريخية، واعتذارٌ عن مظالم الماضي فقط دون المساس بالعقائد الخاصة. وهذا مفهوم، غير أن المطران خضر يتمادى فيخلط بين ما هو «تاريخي» بما هو «ديني»، فيقول: (بعضٌ آخر من الجواب أن ثمة بوناً بين الوحي وتفسيره. فالمفسرون كلهم بشر، وبينهم تباين. واللاهوتيون وعلماء

---

(١) العلاقات الإسلامية المسيحية. قراءة في الراهن والمستقبل. من: العلاقات الإسلامية المسيحية قراءة مرجعية في التاريخ والحاضر والمستقبل (٢١٣). والجلجلة: اسم تلة صغيرة قرب أسوار بيت المقدس، جرى عليها الصلب في زعمهم. انظر: العهد الجديد (٣٥٤).

(٢) المرجع السابق، (٢١٢).

الكلام والفقهاء بشر. ما جانب الإلهية في ما أتوا به، وما جانب الناسوتية المعرض للزلل؟)[١].

لقد حام المطران حول الحمى ثم وقع فيه حين قال: (الحوار ليس اختراق الأنظومتين الإسلام والمسيحية، ولكنه اختراق ميراثين تاريخيين بما يتضمنان ما حُسب خلافاً، وما كان بخلاف. فهل صحيح مثلاً أن الإنجيل محرف؟... من هم هؤلاء النصارى الذين يذكرهم القرآن وينسب إليهم ما ينسب من عقائد؟ هل كانوا أسلاف المسيحيين المعروفين اليوم؟... إذا صحت نظريتنا يكون مسيحيو اليوم غير معنيين بما يقوله القرآن عن النصارى إلا بما كان مشتركاً بينهما... ليس هذا مفهوم بنوة المسيح لله عند المسيحيين... الثالوث الذي يرفضه القرآن هو غير الثالوث الذي تقول به الكنيسة، ونرى أنفسنا بالتالي في حربٍ لا مسوغ لها...

لقد أتيت مستفيضاً على كل ذلك ليس مناظراً للمسلمين، ولكن استدلالاً على أن البحث التفسيري في القرآن ممكن وروده على غير الطرق المألوفة دون تخطئة القرآن. ولعل المسلمين مدعوون للحديث عن المسيحية كما تتحدث هي عن نفسها، وقد أخذت تعي كتبها من منظار نقدي تاريخي منذ ثلاثة قرون، غير خارجة بذا عن تاريخ آبائها الذين قاربوها هم أيضاً من منظار تاريخي فيه الكثير من النقد التاريخي والحضاري. ولعل المسلمين مدعوون أيضاً أن يبحثوا في القرآن من هذا المنظار، بعد أن تعلموا منهج العلوم النقدية وطبقوها على الكتاب المقدس. فإذا ما سوغوا لأنفسهم البحث في العهدين القديم والجديد، كما يبحث في ذلك الألمان ومن اتبعهم من أهل الغرب والشرق فلماذا

(١) المرجع السابق، (٢١٢).

لا يسوغون لأنفسهم استعمال الأسلوب نفسه في الأبحاث القرآنية دون أن ينكروا الوحي القرآني؟)[١].

• وعلى هذه الدعاوى السابقة التعقيبات التالية:

أولاً: لقد وقع المطران خضر في تناقض فاضح. فبينما يقرر مراراً أن (كل حديث عن وحدة الديانتين كما نعرفهما حقاً، إنما هو حديث مجاملة ولا يقول به رصين)[٢]، ويتساءل بصدق: (كيف التوفيق وكل توفيق يبدو هنا تلفيقاً. والحوار بادئ ذي بدء مرفوض بسبب من أصالة المسيحية وأصالة الإسلام؟ فنحن أمام منظومتين ليست واحدة منهما قابلة للاختراق أو قابلة للتكامل)[٣]. نجد أن المطران الرصين قد شرع في محاولة الاختراق لأمهات القضايا التي نصبها بنفسه أمثلةً للتقابل والمناعة، وهي إنكار القرآن لعقائد التثليث والبنوة والصلب وختم النبوة بالمسيح.

ثانياً: حاول المطران خضر أن يسلخ المعتقدات الإسلامية الآنفة الذكر من أصولها القرآنية، ويلبسها ثوب التراث التاريخي الذي شَكَّلَهُ في زعمه المفسرون والفقهاء، ببساطة متناهية، وتأويلات متهافتة[٤]، ولكنه لم يلتفت للتراث التاريخي الذي خلفه اللاهوتيون وآباء الكنيسة، ولم يشرع في اختراقه ـ على الأقل، من باب المعاملة بالمثل ـ وقصارى الأمر أن اكتفى بالاعتذار عن المظالم التاريخية فقط، وتمنى أن يعامل بالمثل.

ثالثاً: كيف يطالب المطران خضر المسلمين ـ وحاشاهم ـ بإخضاع

---

(١) المرجع السابق، (٢١٢ ـ ٢١٨).
(٢) مواقف أحد (٧٤). تقدم النص كاملاً (٤٣٤).
(٣) العلاقات الإسلامية المسيحية. (٢١٣) تقدم النص كاملاً (٤٣٦).
(٤) المرجع السابق، (٢١٥).

القرآن الكريم لمعاول النقد التاريخي التي أهوى بها المستشرقون والملحدون والزنادقة على كتاب الله العزيز الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت]. بل ويعتبر ذلك من مقتضيات الحوار فيقول في مقالة نشرتها جريدة النهار البيروتية في ١١/١/١٩٩٢م، تحت عنوان «هل من حوار إسلامي مسيحي؟»: (الحوار يقتضي منهجاً أكاديمياً صارماً، ولست أرى أسلوباً له سوى النقد التاريخي الذي يقرأ كل كتاب ـ بما في ذلك الكتب المقدسة ـ على الخلفية التي ظهر منها)(١).

ولئن ارتضى نصارى اليوم، ومنهم أسقف جبل لبنان للروم الأرثذوكس نقد ما يزعمونه كتباً مقدسة إلهية عندهم، لإدراكهم التام أن أيدي العبث والتحريف نالت منها، ولا أدل على ذلك من تباين نسخها وتعددها بل واضطرابها وتناقضها(٢)، لئن سوغوا لأنفسهم ذلك فإن المسلمين ـ بحمد الله ـ لم ولن تهتز ثقتهم وإيمانهم بسلامة القرآن من الزيادة والنقصان والتحريف والتبديل، لما تحقق له من أسباب السلامة والصيانة والحفظ التي يستحيل معها وقوع تغيير أو تحريف تحقيقاً لوعد الله القاطع بحفظ الذكر: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر].

والمطران خضر يدرك هذه الحقيقة جيداً، فقد قطع الله طمع كل مغرضٍ يطمح إلى التشكيك في سلامة النص القرآني. ولكنه يحتال على ذلك بدعوى البحث التفسيري على غير الطرق المألوفة دون تخطئة القرآن، على حد تعبيره، ولا يخفى على مسلم يقرأ القرآن أن المسائل التي ينازع فيها المطران خضر قد وردت في القرآن في عدة مواضع

---

(١) عن مجلة الاجتهاد (٣١، ٣٢/٢٢١).
(٢) راجع مبحث الكتب المقدسة عند اليهود (٣٦ ـ ٤٤)، والكتب المقدسة عند النصارى (٧١ ـ ٨١).

صريحة واضحة لا تحتاج إلى تفسير مفسر أو تفصيل فقيه. كما أن من لا ينطق عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾ [النجم]. قد أكد ما جاء به القرآن في سنته القولية والعملية[١].

وحسب المطران خضر وأمثاله من نصارى العرب، المنادين بالحوار أن يكتفوا بالدعوة إلى الاعتذار عن مظالم التاريخ، وأن لا يستزلهم الشيطان ـ وقد فعل ـ إلى المساس بالعقيدة الإسلامية المتينة. وخير لهم أن يمعنوا بإخلاص في نقد كتبهم المقدسة علَّه يتبين لهم ما داخلها من وثنية الرومان واليونان، ويعودوا إلى التوحيد الحق الخالص الذي كان عليه عيسى عليه السلام، وجاء به عبد الله ورسوله محمد ﷺ: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

تلك نظرات كبير من أساقفة الأرثذوكس العرب، المطران جورج خضر، في قضية الحوار والتقارب، وهو يتمتع بحضور قوي في المنتديات الدينية والسياسية والثقافية، ويعلن آراءه في الصحف السيارة وغيرها من القنوات الإعلامية، وهو يؤسس مشروعه في التقريب بين النصرانية والإسلام على دعوى التمييز بين ما هو ديني وما هو تاريخي، بحسبان أن الاختلافات العقدية الكبرى بين الإسلام والنصرانية مردها إلى خطأ المفسرين في فهم موجبات تكفير النصارى، وفي تنزيلهم تلك الموجبات على من يسميهم «المسيحيين».

أولاً: التثليث:

يزعم المطران جورج خضر أن التثليث المذموم في القرآن غير التثليث الذي يقول به النصارى!.

فيقول: (الثالوث المنسوب إلى المسيحيين تسوده الآية الـ١١٦ من

---

(١) راجع مبحث أهل الكتاب في التمهيد.

المائدة. وهذا ما فهمه تفسير الجلالين بوضوح. فعندما يورد: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٧١] يوضح أن الثالوث هو الله وعيسى وأمه. ويورد في تفسير سورة المائدة الآية الـ(٧٣): ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ إن الثلاثة هي آلهة أي «أحدها الله، والآخر[1] عيسى وأمه، وهم فرقة من النصارى». وزعم الإمام البيضاوي أن النصارى عبدوا عيسى وأمه إلهين يتوصلون بها إلى عبادة الله، ويكون هذا شركاً. ومن الواضح أنه اختلط عليه قضية شفاعة مريم أو توسلها إلى الله، وهذا ليس فيه عبادة أو تأليه. وفسر الإمام الرازي الآية بقوله إن النصارى يقولون إن خالق المعجزات التي ظهرت على يد عيسى ومريم، هو عيسى عليه السلام ومريم، والله تعالى ما خلقهما[2]، وبالتالي يكون عيسى وأمه إلهين، ومن الواضح أن هذا ينافي كل ما ورد عند المسيحيين، فالمسيح ما كان ينسب إلى ناسوته قدرة عمل مستقلة عن الله: «أنا لا أستطيع أن أعمل من نفسي شيئاً» يوحنا ٣٠: ٥. ومن الواضح أن الكنيسة لا تنسب إلى مريم، أو أولياء الله قدرة قائمة فيهم. «إلهين من دون الله» تبقى مصطلحاً من الشرك العربي، أطلق على الثالوث المسيحي.

نحن لا نعرف إلا فرقة ذكرها القديس أبيفانيوس القبرصي في القرن الرابع، كانت تقدم قرابين لمريم، ونشتم بكثير من الغموض عند هذه الفرقة تأليهها لمريم. ولكن بعد ذلك لم يوثق استمرار هذه الفرقة في الجزيرة. ومهما يكن من أمر، فالكنيسة الرسمية لم تعرف شيئاً من هذا. فيكون إن الثالوث الذي يرفضه القرآن هو غير الثالوث الذي تقول

---

(١) هكذا. والذي في الجلالين: (والآخران).

(٢) هكذا. والذي في التفسير الكبير: (ماخلقها).

به الكنيسة، ونرى أنفسنا بالتالي في حربٍ لا مسوغ لها)[1].

ويبدو للوهلة الأولى أن الخلاف غير مؤثر على النتيجة، فظاهر السياق يشعر أن المطران خضر ينازع في تعيين أحد أركان الثالوث أهو مريم أم الروح القدس؟ - بصرف النظر عما تضمنه النقل من ملاحظات أخرى - إلا إنا نجده يؤسس دفاعه على فكرة غريبة مفادها أن العرب: (كانوا يؤلهون القمر ويزوجونه الشمس فتنتج الزهرة من هذه المجانسة. إنها العقيدة الوثنية المعروفة بالثالوث الكوكبي. هذا هو الشرك الذي على خلفيته يفهم العرب أن مقولة «ابن الله» مقولة جنسية: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]. والشرك في أن العرب القدامى جعلوا لله بنات. النحل (٥٧) والقرآن يرفض هذا النوع من البنوة)[2].

ونجيب قائلين إن القرآن أبطل جميع أنواع الشرك سواءً ما كان منها مؤسساً على فكرة جنسية وثنية، أو ما كان سوى ذلك. وهذا إن دل على شيء: فإنما يدل على تأثر النصرانية المحرفة بالوثنية. كما أن هذا التخريج الذي زعمه المطران لا يغير من أصل الحقيقة شيئاً، سواءً كان الأقنوم الثالث مريم فتتبادر فكرة الزيجة - تعالى الله عن ذلك - أو كان الروح القدس، فالكل شرك.

---

(١) العلاقات الإسلامية المسيحية - قراءة مرجعية في التاريخ الحاضر والمستقبل (٢١٦ - ٢١٧).
وليس أمر اعتبار مريم أحد أركان الثالوث عند النصارى بهذه الدرجة من التجاهل التي يبديها المطران جورج خضر، يقول روجيه جارودي: عندما نُبذت... فكرة أن مريم هي الشخص الثالث في الثالوث لدى المسيحيين، فإن إدانة هذه العبادة «عبادة مريم» كان لها على وجه الدقة تاريخها، كان أوريجين قد هاجم هذه البدعة لدى الكوليريديين، ولدى شعب الأورفيت، الذي كان لا يميز مريم العذراء من روح القدس) الإسلام (١١٢).

(٢) مقالة: «هل من حوار إسلامي مسيحي؟» جريدة النهار ١١/١/١٩٩٢م.

بقي أن نستدرك على المطران خضر ما استدركه على الإمام البيضاوي ﷺ حين رماه بالخلط بين قضية طلب الشفاعة من مريم، ودعائها، والتوسط بها إلى الله، وبين العبادة، حيث لا يرى المطران في ذلك عبادةً وتأليهاً. لكن المسلمين الموحدين يعتقدون أن الدعاء حق خالصٌ لله كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝١٨﴾ [الجن]. وأن الشفاعة لله جميعاً، كما قال: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤]، فالشفاعة تطلب من الله تعالى. وهو سبحانه يهبها من شاء من عباده، فمن صرف الدعاء والشفاعة لغير الله فقد وقع في الشرك الأكبر المخرج عن التوحيد. وبالتالي فاتخاذ النصارى مريم ﷺ إلهاً، حاصل عملياً وإن لم يعتبروها أقنوماً كما شدد على ذلك المطران خضر، واعتبره قولاً شاذاً لفرقة مندثرة.

ثانياً: بنوة المسيح:

يجهد المطران جورج خضر نفسه ـ مرة أخرى ـ في صرف دلالة القرآن عن معتقد نصارى اليوم، وما يتبع ذلك من لوازم التكفير والتضليل. فيقول: (فإذا قرأنا: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝٨٨﴾ [مريم] ومثيلاتها من الآيات، وكان لنا شيءٌ من قراءة التاريخ الكنسي، لا نستطيع أن نرى هذه الآيات طاعنة بالمسيحية كما نعرفها، فهي ترفض هذا الاتخاذ، أي رفع مخلوقٍ إلى مصاف الألوهية. ولكن الاتخاذ كان بدعة معروفة بالتبنوية، وقالت بها الغنوصية التي ذهبت إلى أن الله جعل المسيح ابنه عند اصطباغه في نهر الأردن. المسيحيون ليسوا معنيين بهذا التكفير. وإذا قالت سورة الإخلاص عن الله إنه لم يلد ولم يولد، فالمسيحية تقول: إن الله من حيث هو جوهر إلهي لا يتجزأ، ولم يلد ولا يولد من سواه. وإذا أخذنا الولادة أفلا ينفيها القرآن صراحة عن الملائكة، ويكفر القائلين بأنهم بنات الله، ويكون هذا رداً على الجاهلية.

ينزه القرآن الله عن أن يكون له ولد. ذلك لأن هذه المفردة «ولد» ذات معنى حسي ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]. ليس هذا مفهوم بنوة المسيح لله عند المسيحيين الذين ينزهون الإله غير الحسي أن يكون ذا صلة بمريم حسية. إنه مفهوم العلاقة الأزلية بين الله والكلمة. قبل اتخاذه صورة بشرية. وهذا في زعمي غير مكفر في القرآن لمجرد غيابه عنه)[١].

غير خافٍ من السياق أن المطران خضر في سبيل رفع وصمة التكفير يحاول التفريق بين مادة «الولادة» ومادة «البنوة»، في حين إن اللغة لا تفرق بينهما. قال الفيروزآبادي[٢]: (الابن: الولد... وألحقوا ابناً الهاء فقالوا: ابنة)[٣]. وجعل الله الأولاد شاملاً للبنين والبنات، فقال: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١]. ها هو ذا المطران خضر في كلامه السابق يثبت نفي القرآن للولادة بنفي مقالة القائلين الملائكة بنات الله. فكذلك نقول نحن فيمن قال عيسى ابن الله. ثم إن القرآن لم يقتصر على النكير على من زعم اتخاذ الله للولد، بل عبر صراحة بلفظ «الابن» الذي يلتزمه سائر النصارى فقال:

---

(١) العلاقات الإسلامية المسيحية. قراءة مرجعية في التاريخ والحاضر والمستقبل (٢١٦).

(٢) الفيروزآبادي: محمد بن يعقوب بن محمد بن محمد بن إبراهيم، أبو طاهر، مجد الدين الفيروزآبادي، إمام اللغة والأدب، ولد سنة ٧٢٩هـ، بشيراز، وتنقل في البلدان حتى ذاع صيته، وتوفي في زبيد سنة ٨١٧هـ، أشهر كتبه «القاموس المحيط»، «المفاهيم المطابة في معالم طابة»، وينسب إليه «تنوير المقباس في تفسير ابن عباس»، «بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز».
الأعلام (١٤٦/٧)، البدر الطالع (٢/ ٢٨٠)، الضوء اللامع (١٠/ ٧٩)، التاج (٦٧/٤)، العقود اللؤلؤية (٢/ ٢٦٤، ٢٧٨، ٢٩٧)، أزهار الرياض (٣/ ٣٨).

(٣) القاموس المحيط: الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب. دار إحياء التراث العربي. بيروت. الطبعة الأولى (١٤١٢هـ - ١٩٩١م). (٤/ ٤٤٢).

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة].

وهكذا لا نرى فرقاً بين نصارى الأمس ومسيحيي اليوم ـ كما يسمون أنفسهم ـ في هذه القضية أيضاً.

ثالثاً: ألوهية المسيح وعقيدة «التجسد»:

يقول المطران جورج خضر: (أليس التجسد شبيهاً بالقرآن، «لوحاً محفوظاً»، كلاماً غير مخلوق، اتخذ شكل كلمات قابلة للإعراب، ومتصلة بتاريخ العرب وحضارتهم، ولها أسباب نزول متعلقة بحياة الرسول، ومنها بعض كلمات أعجمية متصلة بحضارة الفرس. نحن نقول عن المسيح ما يقوله المسلمون عن القرآن، المسيح هو قرآننا... لو اتخذنا بشراً اسمه «عيسى»، وأقمناه في الألوهية لكنا مشركين، ولكنا نتخذ كلمة الله «وإلهاً كان الكلمة» يوحنا: ١٠١، ونقيمه في البشر «والكلمة صار جسداً» يوحنا ١٤:١. هذا التوضيح ضروري لكي يصحح المسلمون نظرتهم إلى الأحداث التاريخية وتسلسلها في ما يخص حياة يسوع المسيح. فالمسلمون يعتقدون، مستندين في ذلك على الآيتين القرآنيتين: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾﴾ [مريم]، ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ [مريم] وغيرهما من الآيات، أن المسيحيين قد رفعوا ولداً إلى مرتبة الألوهية. وهذا خطأ، لأنهم يؤمنون أن كلمة الله الذي هو إله منذ الأزل، قد صار إنساناً في التاريخ، من دون أن يتخلى عن ألوهيته)[1]. ويقول أيضاً: (إن القائلين بأن كلام الله غير مخلوق كانوا على حق. السؤال المطروح هو معرفة ما إذا كان عند الله كلام أو كلمة واحدة تنحدر منه الكلمات، كل الكلمات التي

---

(١) هل من حوار إسلامي مسيحي. جريدة النهار. ١١/١/١٩٩٢م.

كانت قبله أو جاءت بعده؛ وهل هذه الكلمة المعيار الوحيد لحقيقة الكلمات؟ بعد هذا ليس من صعوبةٍ أن يسكن الكلمة جسداً، أن يظهر بشراً، لماذا يعقل أن يلبس الله لباس كلمات في كتاب، ولا يعقل أن يلبس جسداً؟ أليست الألفاظ واللغة والكتب جسداً؟ أن نقول إن كلام الله في هذا الكتاب أو ذاك، غير مخلوق، وأن نقول إن الكلمة الذي حل فينا غير مخلوق، قولان في معقولية واحدة)[(١)].

إن المطران يستشفع لعقيدة الحلول الوثنية بفهم خاطئ لعقيدة أهل السنة والجماعة في كون القرآن غير مخلوق. لقد توهم أن دلالة هذه الجملة: أن كلام الله الذي هو صفة من صفاته استحال ألفاظاً وألواحاً وكتباً مخلوقة، أو سكن أو تلبس أو تجسد فيها، ليسلم له بالتالي أن تكون كلمة الله حلت جسد المسيح وتلبست به وسكنته فصار إلهاً بالكلمة.

إن المسلمين المتبعين للكتاب والسنة، لا يعتقدون مطلقاً أن صفة من صفات الله حلت في مخلوق كالمداد والأوراق، أو تلبست بالأصوات والأدوات، أو سكنت في الألسن أو الآذان. ولهذا يفرقون بين القراءة والمقروء، والكتابة والمكتوب. فالصوت صوت القارئ والكلام كلام البارئ. والكتابة خط الكاتب، والمكتوب كلام الخالق سبحانه. قال الإمام البخاري ﷺ: (سمعت عبيد الله بن سعيد يقول: سمعت يحيى بن سعيد يقول: ما زلت أسمع من أصحابنا يقولون: إن أفعال العباد مخلوقة. قال أبو عبد الله: حركاتهم وأصواتهم واكتسابهم مخلوقة. فأما القرآن المتلو المبين، المثبت في المصحف، المسطور، المكتوب، الموعى في القلوب، فهو كلام الله ليس بمخلوق. قال الله: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]. وقال

(١) الكلمة والجسد. عن مجلة الاجتهاد. العددان (٣١، ٣٢) (٢٢٢).

إسحاق بن إبراهيم: فأما الأوعية فمن يشك في خلقها؟ قال الله تعالى: ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسۡطُورٍ ۝٢ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣﴾ [الطور]، وقال: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِي لَوۡحٍ مَّحۡفُوظٍۭ ۝٢٢﴾ [البروج] فذكر أنه يحفظ ويسطر، قال: «وما يسطرون»)[1].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بعد ذكر اضطراب الناس في مسألة اللفظ: (.. إذا رجع أحدهم إلى فطرته، وجد الفرق بين أن يشير إلى الكلام المسموع، فيقال: هذا كلام زيد، وبين أن يقول: هذا صوت زيد. ويجد فطرته تصدق بالأول وتكذب بالثاني. قال الله تعالى: ﴿وَإِنۡ أَحَدٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، وقال النبي ﷺ: «زينوا القرآن بأصواتكم»، وكل أحد يعلم بفطرته ما دل عليه الكتاب والسنة من أن الكلام كلام الباري والصوت صوت القاري...)[2]. ثم ذكر بدعة «اللفظية المثبتة» فقال: (وكذلك أنكر بدعة «اللفظية المثبتة» ـ الذين يقولون: إن لفظ العباد، أو صوت العباد به غير مخلوق، أو يقولون: إن التلاوة التي هي في فعل العبد وصوته غير مخلوقة ـ الأئمةُ الذين بلغتهم هذه البدعة مثل الإمام أحمد بن حنبل، وأبي عبد الله البخاري صاحب الصحيح ـ وسرد بعدهما اثنين وعشرين إماماً ثم قال: ـ ومن شاء الله تعالى من أئمة أهل السنة وأهل الحديث، من أصحاب الإمام أحمد بن حنبل وغيرهم، ينكرون على من يجعل لفظ العبد بالقرآن، أو صوته به، أو غير ذلك من صفات العباد المتعلقة بالقرآن غير مخلوقة. ويأمرون بعقوبته بالهجر وغيره)[3].

---

(١) خلق أفعال العباد: البخاري، محمد بن إسماعيل. تحقيق: محمد السعيد بسيوني. مكتبة التراث الإسلامي. القاهرة. (٣٤). رقم (٩٧) وقال: إسناده صحيح.

(٢) مجموع الفتاوى (١٢/٤٠٨ ـ ٤٠٩).

(٣) مجموع الفتاوى (١٢/٤٢١ ـ ٤٢٢).

إن محاولة المطران خضر تأنيس القول بألوهية المسيح، وتجسد الكلمة، للمسلمين بقياس ذلك على كون كلام الله «القرآن» غير مخلوق محاولة فاشلة، وقياس فاسد مرفوض، قد تنبه لمثله الأئمة من قبل فأنكروه. ومن ثم فليس المسلمون بحاجة لأن يصححوا نظرتهم، فما نطق به القرآن قبل أربعة عشر قرناً عن عقائد النصارى، وما يعتقده نصارى اليوم سواء.

ثانياً: الكاثوليك العرب:

في شهر أغسطس من عام ١٩٩١م تأسس «مجلس بطاركة الشرق الكاثوليك». وهو مكون من الكنائس الشرقية التي اتحدت مع الكنيسة الكاثوليكية، في روما وخضعت لها، مع محافظتها على طقوسها الخاصة. وعرفت باسم الكنائس الكاثوليكية الاتحادية. وأقدمها اتحاداً وتبعية لكرسي روما الكنيسة المارونية في لبنان (ق١٢م)، ثم الكنيسة الآشورية «الكلدانية» (ق١٦م) في العراق، وأخيراً كنائس «الروم الكاثوليك»، و«الأرمن الكاثوليك»، و«السريان الكاثوليك» (ق١٧م) في بلاد الشام، بالإضافة إلى الكنائس اللاتينية التي أنشأها المبشرون الكاثوليك في المنطقة، واجتذبت بعض السكان المحليين[(١)].

وقد أصدر المجلس الذي يضم بطاركة هذه الكنائس[(٢)] بضع رسائل إلى رعاياهم، ومعظمهم من النصارى العرب، لبيان مواقف كنائسهم الموحدة من الأحداث الراهنة، وتوجيههم. ولا يعزب عن

(١) انظر: الفصل التاسع من: (المسيحية في العالم العربي). (١٠٧ ـ ١١٥).

(٢) وهم: (بطريرك الإسكندرية للأقباط الكاثوليك. ٢ ـ بطريرك أنطاكية وسائر المشرق والإسكندرية وأورشليم للروم الملكيين الكاثوليك. ٣ ـ بطريرك أنطاكية للسريان الكاثوليك. ٤ ـ بطريرك أنطاكية وسائر المشرق للموارنة. ٥ ـ بطريرك بابل للكلدان. ٦ ـ البطريرك الأورشليمي للاتين. ٧ ـ بطريرك الأرمن الكاثوليك.

البال أن إنشاء هذا المجلس جاء في أعقاب الحرب الأهلية اللبنانية ذات الطابع «العقدي» و«الطائفي»، التي استمرت زهاء خمسة عشر عاماً (١٩٧٥ ـ ١٩٩٠م)، وأثارت المخاوف الكبيرة حول مستقبل النصارى في المشرق العربي[١]. كما أن هاجس «الصحوة الإسلامية» المتنامية في المنطقة العربية، والعالم بأسره كان ماثلاً.

جاء في رسالة بطاركة الشرق الكاثوليك، الأولى، الصادرة عام ١٩٩١م ما نصه: (إن عيشنا المشترك الذي يمتد على قرون طويلة يشكل، بالرغم من كل الصعوبات، الأرضية الصلبة التي نبني عليها عملنا المشترك حاضراً ومستقبلاً، في سبيل مجتمع متساو ومتكافئ لا يشعر فيه أحد، أياً كان، أنه غريب أو منبوذ. إننا ننهل من تراثٍ حضاري واحد نتقاسمه، وقد أسهم كل منا في صياغته انطلاقاً من عبقريته الخاصة. إن قرابتنا الحضارية هي إرثنا التاريخي الذي نصر على المحافظة عليه، وتطويره، وتجذيره، وتفعيله كي يكون أساس عيشنا المشترك وتعاوننا الأخوي. إن المسيحيين في الشرق هم جزء لا ينفصل عن الهوية الحضارية للمسلمين، كما أن المسلمين في الشرق هم جزء لا ينفصل عن الهوية الحضارية للمسيحيين. ومن هذا المنطلق فنحن مسؤولون بعضنا عن بعض أمام الله والتاريخ. ولذا يتحتم علينا أن نبحث، بشكل مستمر، عن صيغة، لا للتعايش فحسب، بل للتواصل الخلاق والمثمر الذي يضمن الاستقرار والأمان لكل مؤمن بالله في أوطاننا، بعيداً عن آلية الحقد والتعصب والفئوية ورفض الآخر)[٢].

وفي السنة التالية ١٩٩٢م أصدر المجلس الرسالة الثانية بعنوان:

---

(١) انظر على سبيل المثال مقدمة كتاب: (حياة مسيحيي الشرق وموتهم. من البدايات حتى أيامنا) للفرنسي المتعصب: جان ـ بيار فالونيو.

(٢) رسالة بطاركة الشرق الكاثوليك الأولى.

(الحضور المسيحي في الشرق: شهادة ورسالة. رسالة راعوية مشتركة يوجهها بطاركة الشرق الكاثوليك إلى مؤمنيهم في شتى أماكن وجودهم). خصص الفصل السادس منها للحديث عن «حضور الحوار» جاء فيه: (.. الحوار موقف روحي قبل كل شيء، يقف فيه المرء أمام ربه محاوراً، فتسمو نفسه، ويطهر قلبه ووجدانه، فينعكس ذلك على حواره مع نفسه وعلى حواره مع الآخرين، أفراداً وجماعات...

ويعني الحوار مع الآخر معرفته والتعرف عليه والاعتراف به، معرفته كما يعرف هو نفسه، والتعرف عليه بكامل شخصيته، والاعتراف به كمكمل لنا أكثر منه خصماً أو منافساً أو عدواً. وذلك بعيداً عن الأفكار المسبقة من أي نوعٍ كانت، والمصالح والأنانيات. في مثل هذه الأجواء يتحول الحوار إلى غنى متبادل من غير أن يتنازل أي من الطرفين عن ذاته أو عن تراثه أو عن شخصيته أو عن كيانه. ولا ريب أن التعصب بكافة أشكاله ـ باسم الله أو الدين أو القومية أو الطائفة أو الأرض أو العرق أو اللغة أو باسم الانتماء الحضاريّ أو الثقافي أو الاجتماعي ـ هو عدو الحوار الأول)[١].

ثم يتوجه الحديث إلى الحوار مع المسلمين خاصة، فتقول الرسالة: (إن حوارنا هو حوار مع إخوتنا المسلمين قبل كل شيء. إن العيش المشترك بيننا على مدى قرونٍ طويلة، يشكل خبرة أساسية لا عودة فيها، وجزءاً من مشيئة الله علينا وعليهم. وفي الوقت الذي فيه تبحث المسيحية والإسلام معاً في عالمنا عن صيغة للتواصل والحوار والتلاقي، يجدر أن تستجوب خبرة كنائسنا في هذا المضمار، علماً بأن هذه الكنائس تود أن تكوّن جسراً من الحوار بين الشرق والغرب، بين

---

(١) الحضور المسيحي في الشرق. شهادة ورسالة: مجلس بطاركة الشرق الكاثوليك. المطبعة البولسية. الطبعة الثانية ١٩٩٥م. (٤٢، ٤٣).

المسيحية والإسلام، لما لنا من قرابة إيمانية مع الغرب المسيحي، وما لنا من قرابة حضارية مع الشرق المسلم)[١].

ثم تفصح الرسالة عن الهم الدائم لدى نصارى الشرق، فتقول تحت عنوان مسؤولية متبادلة: (في زمن المخاض الحالي الذي يجتاح عالمنا العربي، يبقى أن إحدى المشاكل الكبرى التي يواجهها، هي علاقته مع مختلف الفئات الوطنية على اختلاف معتقداتها. إن المسيحيين والمسلمين تشاركوا في «العيش والملح» قروناً طويلة. وهذا ما يلقي على الطرفين مسؤولية متبادلة. فالإسلام يتحمل مسؤولية كبرى في هذا المجال، إذ أنه مدعوٌّ إلى تطمين المؤمنين المسيحيين الذين يعيشون معه في الوطن الواحد. إن المسلم في الشرق لا يستطيع أن يطور أيَّ مشروعٍ لنظام اجتماعيٍ وسياسيٍ من غير أن يأخذ بالحسبان الجماعة المسيحية بشكلٍ يعطيها الثقة، لا بأن حقوقها الدينية محفوظة فحسب، بل أيضاً بأنها جزءٌ لا ينفصل عن حياة المجتمع، وكاملة العضوية في الجماعة الوطنية، بما فيها من حقوقٍ وواجبات. والمسيحيون من جانبهم يتحملون مسؤولية مماثلة تدعوهم إلى التخلص من العقد الاجتماعية والنفسية، التي خلفها لهم التاريخ... وحبذا لو تشكلت منابر أو مؤسسات حوارية، فيها نلتقي بشكل دوري كي نبلور ونطور معاً نمط تواصل وتبادل وتعاون يعود بالخير على الجميع)[٢].

أما مخلفات التاريخ التي تدعو الرسالة إلى التخلص من آثارها الاجتماعية والنفسية فيكشف عنها النص التالي: (إن الظروف التاريخية التي عاشتها المنطقة والمسيحيون في بلادنا، منذ أكثر من قرن من

(١) الحضور المسيحي في الشرق شهادة ورسالة (٤٣).

(٢) المرجع السابق، (٤٥، ٤٦). وقد وجه المجلس رسالة مماثلة إلى اليهود (٤٦، ٤٧).

الزمان[١]، أعطت الانطباع بأن المسيحيين يتطلعون إلى الغير طالبين منهم ضمان وجودهم وحمايتهم. أضف إلى ذلك الرغبة الأجنبية في الهيمنة على الشرق، مما حمل إلى الظن أن الرهان المسيحي هو الطريق السهل في بعض الأحيان للوصول إلى هذه الغاية. وهذا ما أدى إلى الاعتقاد السائد أن المسيحيين في الشرق فئة غريبة عن المنطقة، مع العلم بما قامت به شخصيات مسيحية، رائدة وفريدة وشجاعة، من نضال في سبيل التحرر القومي، والاستقلال الوطني، والتطور الثقافي. مهما يكن من أمر، فإن كنائسنا ترفض أي تغريب ثقافي أو سياسي، وتؤكد تضامنها واندماجها الملتزم بمجتمعاتها، من منطلق إيمانها وهويتها ودعوتها ورسالتها، في هذا المنعطف الخطير من تاريخ المنطقة)[٢]. وفي الوقت نفسه يعلن البطاركة قائلين: (وفي هذه المناسبة نود أن نعلن ما يربط كنائسنا الكاثوليكية في الشرق من شركة الإيمان والمحبة مع كرسي روما)[٣].

وفي عام ١٩٩٤م أصدر مجلس بطاركة الشرق الكاثوليك رسالته الثالثة المعنونة بالعبارة التالية: (معاً أمام الله. في سبيل الإنسان والمجتمع. «العيش المشترك بين المسلمين والمسيحيين في العالم العربي»)، جاء في مقدمتها: (نود في هذه الرسالة الجديدة أن نخص العلاقة الأخوية والبنّاءة، التي يجب أن تربط بين المسيحيين والمسلمين؛ بمزيد من التعمق والتفكير، علماً بأن هذه العلاقة كانت موضع مداولات مطولة بيننا في اجتماعات الدورة الثالثة لمجلسنا، التي

---

(١) المراد بذلك: الاستعمار الأوربي الذي تقاسم ولايات الدولة العثمانية، واتخذ من دعوى حماية الأقليات النصرانية ستاراً له. انظر المرحلة الخامسة في نبذة تاريخية من التمهيد.
(٢) المرجع السابق، (٥١).
(٣) المرجع السابق، (٥٥).

عقدت في عمّان في أيار (مايو) سنة ١٩٩٣)[١]. وعظم المجتمعون شأن هذه العلاقة فقالوا: (لعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن العيش المشترك بين البشر في الألف الثالث من تاريخنا، يقرره التلاقي الإيجابي والبناء بين أبناء الديانات المختلفة على وجه العموم، وبين أبناء الديانتين المسيحية والإسلامية على وجه الخصوص)[٢].

لقد خصصت هذه الرسالة لقضية «العيش المشترك» تحت غطاء من الشعارات العاطفية من أمثال: «الحوار والتلاقي»، «العيش والملح المشترك». . . إلخ.

ولكنها جاءت كعريضة مطالب للطائفة النصرانية، لتحسين وضعها في المجتمعات الإسلامية، يتضح ذلك في الفقرات التالية من الرسالة:

• تحت عنوان: «المشاركة في الحياة العامة»: (. . من حق كل فئة وطنية أن تسهم في بناء المجتمع بجميع مجالات الحياة الوطنية فيه «أجهزة الدولة والمؤسسات العامة والخاصة والوظائف والمصالح الاقتصادية وغيرها»، وهذا يعني ألا يهمش أحد لسبب انتمائه الديني، أو لأي سبب من الأسباب، بل تتاح الفرص لكل مواطن، أياً كان، ومهما كانت عقيدته، لكي يجد موقعه في الحياة بعيداً عن الحدود والحساسيات الطائفية)[٣].

• وتحت عنوان: «الأسرة»: (والمجال الثاني هو الأسرة وكل ما يتصل بها، ولا سيما الزيجات المختلطة بين المسلمين والمسيحيين والتي قد تحدث المآسي في البيت والمجتمع. . وقد يحصل أحياناً أن

---

(١) معاً أمام الله. في سبيل الإنسان والمجتمع: مجلس بطاركة الشرق الكاثوليك. نشر الأمانة العامة ـ بكركي ـ لبنان. طبعة ١٩٩٥م. (٧، ٨).
(٢) المرجع السابق، (٩).
(٣) معاً أمام الله. (٢٢).

بعض المسيحيين أنفسهم لافتقارهم إلى العمق الديني، يستغلون حماية القوانين الدينية الإسلامية، ليتهربوا من واجباتهم الزوجية والأسرية. ومهما كانت القوانين الدينية في الإسلام والمسيحية مختلفة، ومهما كان من الصعب التوفيق بينها، فإن هذا لا يعفي المسؤولين وأولي الأمر في كلا الديانتين من تنظيم الأمور، وتلافي ما يعكر صفو المجتمع الواحد. ومن الملاحظ أيضاً أن المتهربين من واجباتهم الزوجية، واللاجئين إلى قوانين الدين الإسلامي[١]، قد لا يهمهم غالباً أمر الدين في شيء، وإنما هم فقط مستغلون للدين، وأصحاب أغراض أنانية)[٢].

• وتحت عنوان: «التربية الدينية» تقول الرسالة: (يظل الطالب المسيحي في المدارس الحكومية موضع قلقٍ لنا في بعض البلدان العربية، حيث لا تُوَفَّر له، بخلاف زملائه المسلمين، التربية اللازمة في مدرسته الحكومية نفسها. وفي بعض البلدان لا يتاح له ذلك حتى في المدرسة المسيحية الخاصة...

ويشمل هذا المجال أيضاً الكتب المدرسية التي لا تأخذ بعين الاعتبار الطالب المسيحي وواقع تعدد الأديان والثقافات في وطننا العربي. وهذا ما يسبب لدى الطالب المسيحي اضطراباً في عقيدته، فيصبح في تردد بين العقيدة المسيحية التي يؤمن بها ويتشربها في الأسرة والكنيسة، وبين ما عليه استيعابه منذ نعومة أظفاره في المدرسة من خلال الكتب المقررة)[٣].

---

(١) في هذا الكلام طعن في الشريعة الإسلامية بأنها ملاذ للمتلاعبين المضيعين للواجبات الزوجية، وكأن البطاركة يتوجعون من ترافع بعض أبناء طوائفهم إلى المحاكم الشرعية في قضايا الطلاق والنفقات والعشرة، حيث لم يجدوا في شرائعهم المحرفة حلاً لمشاكلهم الأسرية.
(٢) المرجع السابق، (٢٢، ٢٣).
(٣) المرجع السابق، (٢٣، ٢٤).

وفي القسم الثاني من الرسالة يتساءل بطاركة الشرق الكاثوليك: «كيف نبني المستقبل؟» وتأتي الإجابات دائرة حول نبذ الطائفية والتعصب الديني، والتحرر من الأفكار المسبقة، وقبول التعددية والتنوع، وتطوير الخطاب الديني بإحلال الاحترام المتبادل محل التشويه والجدل، ونحو ذلك من الشعارات التي لا تخدم في الحقيقة سوى الطرف الأضعف، الذي يعاني من عقدة «الأقلية». وتطالب الرسالة المراجع التربوية ممثلةً بالبيت والمدرسة والجامع والكنيسة والمؤسسات الفكرية والإعلامية، بترسيخ المبادئ السابقة في نفوس الناشئة والناس(١).

وفي القسم الثالث الذي يحمل عنوان: ـ (من أجل مجتمع عربي متكافئ» يتحدث البطاركة عن المجتمع والمواطنة والمشاركة المتكافئة في مختلف المناشط، ثم يصلون إلى «بيت القصيد»، وهي قضية الدين والسياسة، في وقتٍ تتعالى فيه مطالبات المسلمين بالعودة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية. فيقولون: (... يعلمنا تاريخ المجتمعات البشرية المختلفة أن خلط الدين والسياسة ما يلبث أن ينتج عنه ضرر عميق على الدين والسياسة معاً. فعندما يتحول الدين إلى أيديولوجية سياسية، فإنه يبتعد عن هدفه الأساسي، ويصبح أداة وصول إلى السلطة، وأحياناً أداة قمع وتسلط. وإذا تحولت السياسة إلى أيديولوجية دينية، فإنها تستغل الدين وتوظفه كوسيلة لتثبيت مصالحها الخاصة. وفي كلتا الحالتين تفسد السياسة، ويشوه المعنى الحقيقي للدين. والتاريخ شاهد على هذا الفساد وهذا التشويه شرقاً وغرباً.

إن ربط الدين بالسياسة يثير الكثير من الأسئلة الملحة: كيف يستطيع الدين أن يؤثر في الحياة العامة تأثيراً حقيقياً، مع الحفاظ على

---

(١) انظر: «معاً أمام الله» من (٢٧ ـ ٣٧).

استقلاليته واستقلاليتها؟ كيف يمكن التمييز بين المؤسسات السياسية والدينية دون الفصل بينهما، فلا يسخر الدين للسياسة، ولا تكون السياسة استغلالاً للدين؟ كيف يمكن أن يظل الدين عامل وحدة وتقريب بين جميع فئات المجتمع من غير تمييز أو تهميش أو استثناء؟ الأسئلة كثيرة والموضوع شديد الحساسية، ويستحق أن يستمر النقاش حوله والحوار بشأنه بين التيارات المختلفة، للوصول إلى صيغة يطمئن إليها الجميع)[١].

وتكرر الرسالة الثالثة ما جاء في سابقتيها عن الدور المميز للنصارى العرب كجسر للتواصل بين الإسلام والغرب المسيحي[٢].

استناداً إلى الرسائل الثلاث التي وجهها بطاركة الشرق الكاثوليك «إلى مؤمنيهم في شتى أماكن وجودهم»، نحدد أبعاد قضية «التقريب» و«الحوار» في نظر النصارى الكاثوليك العرب، مع استدعاء بعض الإيضاحات التي لا تقدمها البيانات الرسمية المحترزة، من أحد أساقفتهم المعروفين، وهو المطران كيرلس سليم بسترس، رئيس أساقفة بعلبك للروم الملكيين الكاثوليك.

أولاً: الحوار الذي ينادي به الكاثوليك العرب مع الآخر يعني: (معرفته والتعرف عليه والاعتراف به، معرفته كما يعرف هو نفسه، والتعرف عليه بكامل شخصيته والاعتراف به كمكمل لنا أكثر منه خصماً أو منافساً أو عدواً... بعيداً عن الأفكار المسبقة)[٣]. هذا هو حَدُّ الحوار وتعريفه لديهم، فعلام ينطوي هذا الكلام. يقول المطران كيرلس: (إن العلاقات بين المسيحية والإسلام، لا يمكن أن تبنى اليوم

(١) المرجع السابق، (٤٣ ـ ٤٤).
(٢) انظر: المرجع السابق، (٥٢ ـ ٥٣).
(٣) تقدم.

وفي المستقبل على أساس ما ورد في القرآن. فالمسيحية اليوم ليست النصرانية التي التقاها القرآن، والمسيحيون اليوم ليسوا «أهل الكتاب» وحسب، كما يرد ذكرهم في مختلف سور القرآن، وتعاليمهم ليست التعاليم التي يكفرها القرآن. هذا ما يجب تأكيده بكل جرأة وصراحة، وذلك ليس من باب المساومة بل من باب الأمانة للحقيقة. فإني أنا اللاهوتي المسيحي عندما أقرأ ما يقوله القرآن عن التثليث، وعن ألوهية السيد المسيح، أخلص إلى أن هذه الأوصاف لا تعبر عن إيماني المسيحي بالتثليث وبألوهية السيد المسيح، وبالتالي فإن تكفيرها لا يطالني. وهذا في رأيي هو الحل الوحيد للخروج من المأزق الذي يقع فيه المسيحيون والمسلمون على السواء.

فالمسيحيون يتساءلون كيف يدخلون في حوار مع مسلمين يعتبرونهم كفرة؟.

والمسلمون يؤمنون من جهة بأن القرآن كلام الله، ويريدون من جهة أخرى الدخول في حوار ديني مع المسيحيين، ولا يعرفون السبيل إلى ذلك. الطريق الوحيد لتخطي هذه المشكلة هو الإقرار بأن ما ورد في القرآن حول إيمان «أهل الكتاب النصارى» لا يعتبر التعبير الصحيح عن الإيمان المسيحي الذي يعتنقه المسيحيون اليوم.

انطلاقاً من هذه المقولة التمهيدية يمكن المسيحية والإسلام الدخول في حوار ديني يبنون عليه علاقاتهم في الحياة والعيش المشترك)[1].

بهذه البساطة المتناهية حسم المطران المشكلة وأخرج الطرفين من

---

(١) العلاقات المسيحية ـ الإسلامية تاريخاً وحاضراً ورؤية مستقبلية. من كتاب العلاقات الإسلامية المسيحية: قراءات مرجعية في التاريخ والحاضر والمستقبل. (٢٢٥).

المأزق! إنه باختصار يطالب المسلمين برفع الأحكام الربانية، والمعتقدات القرآنية المعلومة بالضرورة من دين الإسلام عن نصارى اليوم، دون أن يتزحزح هو وملته قيد أنملة عن موقفه العقدي، وبذلك يكون الطرفان مهيئَين للحوار، وتحل المشكلة! وهو يردد في هذا ذات المقولة التي قالها المطران جورج خضر من أن نصارى اليوم ليسوا نصارى الأمس الذين واجههم القرآن، ويزيد عليها تخريجاً متهافتاً لفرية التثليث، فيقول: (وهنا لا بد لنا من التأكيد أن إيماننا هذا بالله الواحد، لا يناقض إيماننا بالتثليث. ذلك أن الآب وكلمته وروحه ليست في اعتقادنا ثلاثة آلهة منفصلة أحدها عن الآخر. بل إله نميز فيه ثلاثة أقانيم، أي صفات ذاتية غير منفصلة أحدها عن الآخر. فكما نميز بين الإنسان وعقله وروحه دون أن نفصل بين هذه الثلاثة، كذلك، وإن ميزنا في الله الواحد بين الله وعقله وكلمته وروحه، إلا إننا لا نفصل بين الثلاثة. لذلك نعلن في صلاتنا إيماننا «بالثالوث الواحد في الجوهر وغير المنفصل».

لذلك نؤكد أن المسيحية ديانة توحيدية، وقولها بالتثليث هو تعمق في سر الله، وتفسير لتجلي الله في عالم البشر. فلا تكتفي بالقول أن الله أرسل إلينا أنبياءه، بل إنه أتى إلينا في شخص كلمته يسوع المسيح، وفي روحه القدس. فكلمة الله وروحه حضرا في ما بيننا. أما التثليث الذي يكفره القرآن فهو عبادة كائنين من دون الله أي لا علاقة لهما بالله. وهذا التثليث نحن منه براء، لأن كلمة الله وروح الله ليسا كائنين من دون الله، إنما هما صفات ذاتية في الله الواحد نفسه)(١).

وقبل أن نحلل ما قاله المطران، نستدعي بداهة العقل والفطرة

(١) العلاقات الإسلامية المسيحية، قراءات مرجعية في التاريخ والحاضر والمستقبل (٢٣٢).

حيال نص القرآن: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١﴾ [النساء].

ترى! هل قال القرآن عن النصارى سوى ما يقوله النصارى اليوم عن أنفسهم؟ هل ظلمهم القرآن، أو لنقل ـ تنزلاً ـ مفسرو القرآن؟ أم إنها حقيقة واحدة، ومقالة واحدة، رغم حركات الالتفاف اللفظية؟.

إنها عقدة النصارى الأبدية؛ محاولة التوفيق القسري بين التوحيد والتثليث، وأنى لهم. إن مدار خطاب المطران كيرلس حول اعتبار الكلمة، وروح القدس بمثابة الصفات الذاتية للآب، وبالتالي فالله وصفاته الذاتية شيءٌ واحد.

والجواب عن ذلك ببساطة، أن صفات الله الذاتية ملازمة لذاته سبحانه، غير منفصلة عنه بحالٍ من الأحوال، كحياته، وسمعه، وبصره، وعلمه... إلخ أما ما أضيف إليه سبحانه مما يستقل بنفسه فهو من باب إضافة المخلوق إلى خالقه، وقد يكون في بعض الأحوال إضافة تشريف لذلك المخلوق، كوصفه تعالى لعيسى عليه السلام بأنه رسول الله، وكلمته، وروح منه. و«من» هنا ليست للتبعيض قطعاً. إذ لا يعقل ولا يمكن أن يكون «بعض» من الله منفصل عنه. سبحانه وبحمده.

ولنا أن نلزم المطران كيرلس من منطلق هذه الدعوى باعتبار الكلمة والروح صفات ذاتية تكمل مع الآب «الثالوث الأقدس»، لنا أن نقول: فاجعلوا الأقانيم أربعة بل خمسة بل أكثر بقدر ما نعلمه من صفاته الذاتية سبحانه. أو لستم تقولون صبحاً ومساءً في صلاتكم: «أؤمن بإله واحد آب ضابط الكل، خالق السموات والأرض، كل ما

يرى وما لا يرى» فلم لا تجعلون ـ طرداً للقاعدة ـ الخالق، الضابط، من الأقانيم فيكون اعتقادكم بـ «خاموس» لا «ثالوث»؟!.

والعجب كيف يزعم المطران المذكور عدم اعتقاد القوم بآلهة منفصلة، وهو يؤكد في نفس السياق: (إنه أتى إلينا في شخص كلمته يسوع المسيح، وفي روحه القدوس) إذاً فثم آتٍ هو الله ـ في زعمهم ـ وثم شخص يمشي على وجه الأرض وهو يسوع، وثم روح القدس.

وأخيراً فلنا وقفة مع قول المطران: (أما التثليث الذي يكفره القرآن فهو عبادة كائنين «من دون الله» أي لا علاقة لهما بالله، وهذا التثليث نحن منه براء، لأن كلمة الله وروح الله ليسا كائنين من دون الله) فينبغي أن يعلم أن تكفير القرآن لأهل التثليث هو من جهة شركهم في الربوبية، قبل أن يكون شركاً في العبادة. إنكم معشر النصارى لم تحرروا توحيد الربوبية فضلاً عن أن تخلصوا توحيد الألوهية[(١)].

بقي أن نجيب على تساؤل المطران كيرلس سليم بسترس: (فالمسيحيون يتساءلون: كيف يدخلون في حوار ديني مع مسلمين يعتبرونهم كفرة؟)[(٢)].

والجواب: تماماً كما يدخل النصارى مع مسلمين يعتبرهم النصارى كفرة. إن الكنائس النصرانية لم تزل تصدر قرارات الحرمان والكفران والهرطقة ضد مخالفيها من الكنائس الأخرى والأفراد. فكيف بمن هم خارج دائرتهم أصلاً. وحتى هذا اليوم ورغم بيانات المجاملة من بعض الدوائر الكنسية تجاه المسلمين لم ترتق لغة الخطاب إلى الاعتراف بنبوة نبينا محمد ﷺ، فكيف يطالبون محاوريهم من المسلمين

---

(١) انظر: العقائد النصرانية في التمهيد (٨١ ـ ٩٥).

(٢) العلاقات الإسلامية المسيحية ـ قراءة مرجعية في التاريخ والحاضر والمستقبل (٢٢٥).

بالاعتراف بإيمان النصارى، ورفع صفة الكفر التي حققها القرآن عليهم في مواضع متعددة!.

لقد سبق بيان تهافت هذه الدعوى، وبيان أن لا فرق بين الأولين والآخرين(١). ولكن رئيس أساقفة بعلبك للروم الملكيين الكاثوليك، يتخطى هذا القدر حين يشارط المسلمين قبل الدخول في حوار أن يرفعوا وصف الكفر والشرك الذي وضعه القرآن على رقاب عباد الصليب، ولا يكلف نفسه أن يفترض سؤالاً مقابلاً يمكن أن يطرحه المسلمون الموافقون على مشروع الحوار: كيف ندخل في حوارٍ ديني مع نصارىٰ ينكرون نبوة محمد ﷺ، وأن القرآن كلام الله، وأن الدين عند الله الإسلام؟ وحسبك من حوارٍ هذه عتبة بابه! فماذا في ثنايا الدار؟.

إن الحقيقة تضيع وسط حشدٍ من العبارات العاطفية السلمية التي يطلقها هؤلاء المماحكون، من جنس قوله: (الهدف من الحوار العقائدي هو إزالة الالتباسات والأفكار الخاطئة لدى كل من الطرفين حول عقائد الطرف الآخر. وذلك بغية التوصل إلى تعايش أخوي واحترام متبادل)(٢). وقد تبين نوع الالتباسات والأفكار الخاطئة التي يهدف المحاور النصراني إلى إزالتها من جانبٍ واحد.

ثانياً: والحوار لدى الكاثوليك العرب فرصة للتخلص من العقد الاجتماعية والنفسية التي خلّفها التاريخ القديم والحديث لهم. فهم يعانون من عقدة الشعور بالذنب والخيانة والتواطؤ مع الغزاة والمستعمرين من أبناء طائفتهم، الصليبيين الغربيين، وهذا يورثهم الشعور بعقدة «النبذ» و«الغربة» و«الأقلية»، في الوسط الذي يعيشون

---

(١) انظر ما سبق في الرد على المطران جورج خضر.

(٢) المرجع السابق، (٢٢٧).

فيه، وبالتالي يكثرون الحديث عن الإرث الحضاري المشترك، ودور نصارى الشرق في بناء الحضارة الإسلامية، رغم اختلاف المعتقد، ورفع العقيرة بالانتماء إلى الوطن إلخ، مع التأكيد المستمر على الارتباط بكرسي روما.

وها هنا ملحظ لافت للانتباه في مجال المقارنة بين الأرثذوكس والكاثوليك في نظرتهم إلى الحملات الصليبية، فالأولون يشجبونها لكونهم كانوا إلى حدٍ ما من ضحاياها، كما يردد ذلك المطران جورج خضر كثيراً، ويعتذرون للمسلمين عما تسبب به أبناء ديانتهم المخالفين لهم في المعتقد. أما الكاثوليك فلا يزيدون عما أطره لهم بيان المجمع الفاتيكاني الثاني من الدعوة إلى نسيان الماضي فقط، دون أن يتضمن اعترافاً صريحاً بالمظالم التي أوقعوها بالمسلمين.

والمقصود أن الحوار والتقارب مركب يمتطيه هؤلاء للوصول إلى مصالح خاصة، هم المستفيد الأول والأخير فيه، فيعلنون براءتهم من وصمة الخيانة والتواطوء مع الأجنبي، والتأكيد على الأصالة والتجذر في المنطقة الإسلامية مهما ضؤل تمثيلهم العددي.

ثالثاً: أن الحوار في نظرهم ـ كما هو الحال لدى الأرثذوكس العرب ـ بديلٌ مناسب يملأ الفراغ الذي أحدثه تراجع فكرة القومية العربية، ويعطيهم دوراً مميزاً في المنطقة، بوصفهم «وسطاء» مناسبين للحوار بين الشرق المسلم والغرب النصراني. ويلح هؤلاء على فكرة «خبرة الكنائس الشرقية» ودورها في إقامة الجسور بين الحضارتين الإسلامية والنصرانية.

رابعاً: وأخطر وأهم الأمور في مناداتهم بالحوار والتقارب والتواصل، قضية «العيش المشترك» الذي يحمل بؤس الماضي، ومعاناة الحاضر، وهم المستقبل، في زعمهم.

إن الحوار بالنسبة لنصارى العرب منبرٌ للمطالبة بتحقيق مكاسب جديدة، فضلاً عن المكاسب التي تحققت بانتقالهم من حال «أهل ذمة» إلى «مواطنين» من الدرجة الأولى. فهم يريدون استئصال جميع صور التمييز ورواسبه في العقل المسلم، والكتاب المدرسي، والإنتاج الفكري، والخطاب الإعلامي، بل وحتى الخطاب الديني الذي يشير أو يذكِّر بالوضعية الخاصة لأهل الكتاب في المجتمع المسلم. وينبغي أن نتذكر أن كل هذه المطالبات لحساب طرفٍ على طرف، دون أن يكسب الطرف الآخر شيئاً، وذلك خلاف العدل والإنصاف، لو كان ذلك الطرف نداً مساوياً للآخر في مشروع الحوار، والقوم أقلية ضئيلة؟.

والطامة الكبرى لدى هؤلاء النصارى، هي الخوف من «تطوير أي مشروع لنظام اجتماعي وسياسي من غير أن يأخذ بالحسبان الجماعة المسيحية» كما تقدم، والمطالبة بإقصاء الدين عن السياسة، وبعبارة أخرى فالقوم يريدون «علمنة المجتمع الإسلامي». ويشرح المطران كيرلس سليم هذه الجملة بعباراتٍ أصرح وأجرأ من الرسائل السابقة فيقول: (إن الكلام على «دولة إسلامية ـ أو «دولة مسيحية» نعتبره نحن المسيحيين من مخلفات العصور الوسطى...

نسمع اليوم بعض المسلمين يقولون بسذاجة: المسيحية ليس لها نظامٌ سياسي واقتصادي خاص. فالإنجيل يكتفي بمبادئ عامة في الأخلاق والحياة الاجتماعية، ويطلب من المسيحيين الخضوع للسلطات المنصَّبة. أما الإسلام فله نظام سياسي واقتصادي واجتماعي يشمل جميع مرافق الحياة. فليقبل المسيحيون هذا النظام الإسلامي الذي هو نظام إنساني عام وتحل المشكلة.

نحن المسيحيين نعجب من طرحٍ كهذا، ونرفضه جملةً وتفصيلاً...

فكيف يطلب منا بعض المسلمين أن نقبل دولة إسلامية، ونظاماً إسلامياً نعتبرهما من مخلفات العصور الوسطى؟.

إن وجود المسيحيين والمسلمين في دولةٍ واحدة، لا يمكن أن يثبت في سلام إلا إذا كان الجميع متساوين في نقطة الانطلاق. فلا يمكن أن يكون تعايش في دولةٍ واحدة بين مسيحيةٍ تحمل في ذاتها إمكانية التطور في الأنظمة السياسية والاقتصادية، وإسلام يحمل في عقيدته نظاماً جامداً يعتبره منزلاً من الله، وفي نيته أن يفرضه على المسيحيين عاجلاً أم آجلاً)[(١)]. الأمر جد واضحٌ. فالحوار الذي يغلفه هؤلاء بأغلفة التفاهم، واكتشاف الآخر، والتعاون... إلخ محسوم النتائج سلفاً، وقضاياه غير قابلة للنقاش أصلاً. إن من يقف على هذا الكلام ولديه أدنى ذرة من إدراك طبيعة الدين الإسلامي ورسالته إلى البشرية، يعلم يقيناً أن القوم يدعون محاوريهم المسلمين إلى الانسلاخ من دينهم، ونقلهم إلى الفهم الكنسي الضيق لمهمة الدين في الحياة، التي لا تختلف عن الطقوس الوثنية التي ورثوها عن اليونان والرومان. أما الشرع الإسلامي المطهر فإنه رباني المصدر صالح لكل زمانٍ ومكانٍ وأمة، والفقه الإسلامي ـ كما يشهد التاريخ والواقع ـ يتسع لجميع الوقائع والنوازل، ولا يضيق بها ذرعاً كما ضاقت بها الكنيسة في العصور الوسطى التي يدندن المطران حولها. وقد أوجد الفقه الإسلامي مكاناً «لأهل الذمة» يحفظ حقوقهم، ويحميهم، في إطار المجتمع المسلم، لم تصل إليه أي أقلية على مدار التاريخ. وصدق الله إذ يقول: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة].

❊ ❊ ❊

(١) المرجع السابق، (٢٤٣ ـ ٢٤٤).

ثالثاً: القبط:

يمثل الأقباط أكبر طائفة نصرانية في العالم العربي، من الناحية العددية، وتتراوح نسبتهم التقديرية إلى مجموع السكان في مصر ما بين ٥,٨٧٪ إلى ضعف هذه النسبة. ويتبعون كنيسة الإسكندرية التي انفصلت عن سائر الكنائس إبان الانشطارات المبكرة في تاريخ الديانة النصرانية، وعلى وجه التحديد إثر مجمع «خلقيدونية» المنعقد سنة ٤٥١م لمناقشة معضلة «طبيعة المسيح» عندهم. وقد كان بطريرك الإسكندرية يتبنى مذهب «الطبيعة الواحدة»، ولكن المجمع المذكور أسفر عن انتصار القائلين بالطبيعتين، وتبع ذلك حوادث شغب واضطهاد أدت إلى انفصال الكنيسة المصرية انفصالاً تاماً عن الكنيسة الغربية[١]. وهناك شبه إجماع بين المؤرخين على أن الأقباط استقبلوا الفتح الإسلامي بالترحاب، وربما بالمساعدة[٢]. ولعل مرد ذلك إلى سوء المعاملة، والاضطهاد الذي كانوا يرزحون تحت وطأته من قبل النصارى الرومان الذين يخالفونهم في المعتقد. كما أن المؤرخين يسجلون ظاهرةً تاريخية ملفتة، وهي سرعة انقياد الأقباط للدخول في الإسلام في العقود الأولى من الفتوح الإسلامية. يقول الكاتبان فيليب فارج، ويوسف كرباج تحت عنوان: الانتشار السريع للإسلام في مصر: (كان مصير مصر فريداً. فهذا البلد الذي تم فتحه بسهولة منذ الساعة الأولى، يبدو أنه كان موعوداً بأسلمة سريعة وتامة. لكن هذا البلد الأقل تمرداً والأقرب، خلافاً للمغرب، سوف يكون مع ذلك البلد الوحيد في أفريقيا الذي لا

---

(١) انظر: في هذا: تاريخ الكنيسة المسيحية. أفغراف سميرنوف (٢٦٢ ـ ٢٧٠)، محاضرات في النصرانية. محمد أبو زهرة (١٣٧ ـ ١٤١) المسيحية في العالم العربي. الحسن بن طلال (٥٧ ـ ٦٩).

(٢) انظر: الأقباط في مصر في العصر العثماني: د. محمد عفيفي. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة ـ مصر. طبعة ١٩٩٢م. (١٩ ـ ٢٠).

يفقد أبداً جميع مسيحييه. . . إن أكثر من نصف الأقباط سوف يتحولون إلى اعتناق الإسلام في أقل من أربعين سنة؛ ٢٦٪ بين عام ٦٤٤، ٦٦١، ثم ٣٣٪ في عهد معاوية وحده بين عام ٦٦١، ٦٨٠)[1]. ولم تخل الأمور بطبيعة الحال من استثناءات، فقد وقع العديد من حركات التمرد والانتقاض لأسباب متعددة، ويرى المقريزي[2] ﷺ إن خاتمتها كانت في عهد الخليفة العباسي المأمون سنة ٢١٦هـ. قال: (ومن حينئذٍ أذل الله القبط في جميع أرض مصر، وخذل شوكتهم، فلم يقدر أحدٌ منهم على الخروج ولا القيام على السلطان، وغلب المسلمون على القرى، فعاد القبط من بعد ذلك إلى كيد الإسلام وأهله بأعمال الحيلة واستعمال المكر، وتمكنوا من النكاية بوضع أيديهم في كتاب الخراج. وكان للمسلمين فيهم وقائع. . .)[3] وقد تقدم في النبذة التاريخية إلماحات إلى بعض الأحداث التي جرت أثناء الحملات الصليبية، ثم إبان الاستعمار الأوربي الحديث[4].

أخذ النفوذ القبطي بالظهور مجدداً منذ عهد «محمد علي وخلفائه»، وألغيت الجزية عنهم عام ١٨٥٥م، ونالوا عدداً من المناصب الإدارية والقضائية، كما امتلكوا مساحات كبيرة من الأطيان الزراعية، وصار عددٌ منهم من كبار الملاك. وفي عهد الاحتلال البريطاني عين

---

(١) المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي (٣٢).

(٢) أحمد بن علي بن عبد القادر، تقي الدين المقريزي، مؤرخ الديار المصرية. ولد ونشأ في القاهرة، وولي فيها الحسبة والخطابة والإمامة مرات، من تآليفه: كتاب «المواعظ»، «السلوك في معرفة دول الملوك»، «تاريخ الأقباط» وغيرها. وقد زادت مؤلفاته على مائتي مجلد كبار. مات سنة ٨٤٥هـ.
الأعلام (١/ ١٧٧)، خطط مبارك (٩/ ٦٩)، آداب اللغة (٣/ ١٧٥)، البدر الطالع (١/ ٧٩)، مجلة الكتاب (١/ ٨٨٦)، المجمع العراقي (١٣/ ٣٠١).

(٣) الخطط المقريزية (١/ ١٤٣).

(٤) انظر: (١٩٨) من التمهيد.

«بطرس غالي باشا»[1] رئيساً للوزراء عام ١٩٠٨م. وقد قاوم الأقباط الحركة الوطنية ذات الطابع الإسلامي العام الممثلة في «الحزب الوطني» بقيادة مصطفى كامل[2]، لتعاطفها مع الخلافة العثمانية ومناوأتها للاستعمار الإنجليزي فأنشأوا «حزب مصر» عام ١٩٠٨م.

وبعد اغتيال بطرس غالي باشا عام ١٩١٠م بلغ الخلاف والتوتر بين المسلمين والأقباط ذروته. وعقد الأقباط مؤتمراً كبيراً في مركز ثقلهم بمدينة أسيوط بصعيد مصر عام ١٩١١م، ضمنوه مطالبهم الاجتماعية والسياسية والدينية. وقد قابلهم المسلمون بعقد مؤتمر إسلامي أسموه «المؤتمر المصري» لمناقشة المسألة القبطية، تمخض عن رفض بعض المطالب القبطية، وأذكى روح الانتماء الإسلامي للمجتمع المصري. ثم ألقىٰ الأقباط بكامل ثقلهم في ثورة عام ١٩١٩م التي تزعمها سعد زغلول[3]، ورفعت شعاراتٍ وطنية مثل «وحدة الهلال

---

(١) بطرس «باشا» ابن غالي نيروز (١٢٦٢ ـ ١٣٢٨هـ) ـ (١٨٤٦ ـ ١٩١٠م): وزير مصري من الأقباط الأرثذوكس... ولد بالميمون «من قرى بني سويف»، وتعلم بمصر وأوربا، وحذق بضع لغات. وتقلب في المناصب. وولي نظارة المالية فالخارجية فرئاسة مجلس النظار. ونقم عليه الوطنيون المصريون إمضاء اتفاقية السودان، وترؤسه محكمة دنشواي، وإعادته قانون المطبوعات، ومقاومته الجمعية العمومية، ورضاه بمشروع قناة السويس. فانبرى له «إبراهيم ناصف الورداني» «شاب من أقباط مصر» فقتله وقتل به. الأعلام (٢/ ٥٩).

(٢) مصطفى كامل (١٢٩١ ـ ١٣٢٦هـ): مصطفى كامل باشا، ابن علي محمد، أحد مؤسسي الوطنية المصرية. نال شهادة الحقوق من فرنسا. كان فصيحاً، بليغ اللسان. قاوم الاحتلال الإنجليزي بقلمه ولسانه. أنشأ جريدة «اللواء» بالعربية والإنجليزية والفرنسية لنشر دعوته. ودعا إلىٰ إنشاء «الحزب الوطني»، وانتخب رئيساً له مدىٰ الحياة سنة ١٩٠٧م توفي شاباً، فرثاه شعراء مصر وكتّابها. من مؤلفاته: المسألة الشرقية، مصر والاحتلال الإنجليزي، دفاع مصري عن بلاده. انظر: الأعلام (٧/ ٢٣٨).

(٣) سعد زغلول (١٢٧٣ ـ ١٣٤٦هـ): سعد باشا بن إبراهيم زغلول. زعيم وطني=

والصليب» و«الدين لله والوطن للجميع». ومع تنامي حركة «الإخوان المسلمون» وانتشار مبادئها الداعية لأسلمة المجتمع المصري تنامى القلق القبطي من المستقبل، ووقفوا منها موقفاً عدائياً. ورغم حل الجماعة رسمياً سنة ١٩٥٤م، فقد ظلت روح العداء الشعبي لدى الفريقين في ازدياد، وأسفرت عن مواجهات دامية، وفتن متلاحقة، وظهور متطرفين من الجانبين، لا سيما في عقدي السبعينيات والثمانينيات الميلادية. ومن الطبيعي في هذه الأحوال المتقلبة أن تظهر معالجات متنوعة لطبيعة العلاقات الإسلامية ـ النصرانية في المجتمع المصري، تتراوح بين الرفض والتنديد بالآخر، والمجاملة والوفاق الظاهري على الأقل. ونحاول أدناه استطلاع الموقف القبطي من قضية التقريب والحوار من زوايا رصدٍ متنوعة.

١ ـ الكنيسة القبطية:

ظلت الكنيسة القبطية «كنيسة الإسكندرية» تمارس مهامها الدينية التقليدية بين رعاياها في مصر والسودان والحبشة وغيرها منذ تأسيسها، وتنأى بنفسها وأتباعها عن الدخول في صدامات سياسية أو اجتماعية، أو تحالفات خارجية صريحة مع الغزاة والمستعمرين، محافظة على وضع الأقلية النصرانية في وسط إسلامي عريقٍ وكثيف. وظل هذا التوجه سائداً حتى انقضاء ولاية البابا «كيرلس السادس» بطريرك

= مصري. تعلم في الأزهر أربع سنين. واتصل بجمال الدين الأفغاني، ولازمه. اشترك في الثورة العرابية سنة ١٢٩٨هـ ـ ١٨٨١م، وقبض عليه وسجن سنة ١٢٩٩هـ بتهمة الاشتراك في جمعية سرية تسعىٰ لقلب نظام الحكم، بضعة أشهر. تزعّم حزب الوفد المصري المطالب بالاستقلال، فنفاه الإنجليز إلىٰ مالطة سنة ١٩١٩م، ثم عاد، ثم نفوه إلىٰ جزيرة سيشل سنة ١٩٢٢م، وتولىٰ رئاسة مجلس الوزراء ومجلس النواب. وتوفي بالقاهرة. انظر: الأعلام (٣/ ٨٣).

الإسكندرية والكرازة المرقسية ١٩٥٩ ـ ١٩٧١م، فـ (قد كانت فترة رئاسته للكنيسة المصرية فترة استقرار حميم للعلاقات بين الدولة والكنيسة)[١]. ورغم توافق الكنيسة مع مواقف الحكومات المتعاقبة على مصر من الأحداث السياسية في المنطقة، وصدور بيانات رسمية مؤيدة من قبل الكنيسة القبطية على الدوام، ورغم المجاملات المتبادلة بين رجال الدين النصارى، ومشيخة الأزهر في المناسبات الدينية للفريقين، إلا إن المتتبع لا يلاحظ تطوير أي مشروع للتقارب والحوار الديني ـ باعتباره دينياً ـ على النحو السائد في لبنان والغرب النصراني، الذي شرع في تفعيل قضية «التقريب» في مطالع الستينيات. وقد حضر وفدٌ من الكنيسة القبطية ـ بصفة مراقب ـ إلى المجمع الفاتيكاني الثاني عام ١٩٦٣م، برئاسة القمص بأخوم عطا الله المحرقي (الأنبا غريغريوس فيما بعد) وأعلن أن: (نقط الالتقاء بين الإسلام والمسيحية أعظم من نقط الالتقاء بين اليهودية والمسيحية)[٢]. كما أصدرت الكنيسة القبطية منفردة، ومتحدة مع كنيسة أنطاكية وثيقة، بإدانة مشروع تبرئة اليهود والاعتذار إليهم، من قبل المؤتمر الثالث لمجلس الكنائس العالمي المنعقد في نيودلهي عام ١٩٦١م، والمجمع الفاتيكاني الثاني عام ١٩٦٤م[٣]. وكان لها موقف مماثل من دولة إسرائيل والصهيونية العالمية.

ولعل عدم حماس الكنيسة القبطية لقضايا الحوار الإسلامي النصراني في هذه الفترة الهادئة نسبياً راجعٌ إلى أمرين:

---

(١) الأقباط في وطنٍ متغير: د. غالي شكري. دار الشروق. القاهرة ـ مصر. طبعة (١٤١١هـ ـ ١٩٩١م). (٢٠).

(٢) عن: المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية: طارق البشري. دار الشروق ـ القاهرة. الطبعة الثانية (١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م). (٦٩٤).

(٣) انظر: نص الوثيقة «الأقباط في وطن متغير» د. غالي شكري (٦٤ ـ ٦٦).

أحدهما: الطبيعة الانعزالية التاريخية للكنيسة تجاه الكنائس الأخرى، وعدم تجاوبها مع خطط التطوير والتحديث التي تبنتها الكاثوليكية الرومانية، ومجلس الكنائس العالمي ذو الأغلبية البروتستانتية، مما قد يشكل اختراقاً فكرياً للوضعية العقدية والنمطية التي سارت عليها الكنيسة القبطية طوال القرون السالفة.

الثاني: الإدراك الأفضل لطبيعة الدين الإسلامي بحكم المعايشة التاريخية على أرضٍ واحدة، والاختلاط المستمر الذي أورث الكنيسة القبطية خبرة بأصول الدين الإسلامي، تفتقدها الكنائس الغربية القائمة خارج دار الإسلام، أو حتى بعض الكنائس الشرقية التي يتكتل أبناؤها في تجمعات خاصة، ويرتبطون إدارياً بالكنائس الغربية. أما الأقباط فهم منتشرون بين ظهراني المسلمين في مصر، وليس لهم مناطق خاصة أو ارتباطاتٍ خارجية. وبالتالي فليس ثمَّ جديد يسوغ مبادرتهم إلى الحوار الديني بعد هذه العشرة الطويلة سوى التعرض للتهمة.

وقد لا يكون هذان السببان كافيين لتعليل هذه الملاحظة، لكن السبب الذي جاء لاحقاً منذ أن تقلد البابا شنودة[1] الثالث منصب بابا الاسكندرية عام ١٩٧١م قطع الطريق على جميع الفرص الممكنة لطرح فكرة التقريب. ذلك أن فترة السبعينيات وما تلاها، تميزت بتصعيد قبطي خطير تجاه الطروحات ذات الصبغة الإسلامية، مثل إضافة عبارة «والشريعة الإسلامية مصدر رئيسي من مصادر التشريع» إلى المادة الثانية من دستور ١٩٧١م «الإسلام دين الدولة»، ثم عدلت عام ١٩٧٩م لتصبح «والشريعة المصدر الرئيسي للتشريع»، ثم شروع لجان من الأزهر

(١) البابا شنودة الثالث: بطريرك الأقباط الأرثذوكس، المائة وسبعة عشر واسمه: نظير جيّد. ولد في مركز (أسيوط) ١٩٢٣م. تخرج من الكلية الأكليريكية عام ١٩٤٩م ثم درس فيها. ترهب في دير السريان عام ١٩٥٤م. أسقف التعليم الكنسي ١٩٥٤م. بطريرك عام ١٩٧١م. انظر: المنجد في الأعلام (٣٩٣).

بإعداد قوانين الحدود، ومنها قانون حد الشرب، وقانون حد الردة، والنص في اعتبار الشهادات على المسلم دون غيره.. وغير ذلك[١]. وقد قابلت الكنيسة القبطية هذه التوجهات بالاعتراض. وعقد المؤتمر القبطي بالإسكندرية في مطلع عام ١٩٧٧م. ومما جاء في مذكرةٍ قدمها «المجمع المقدس» للأقباط إلى مجلس الشعب حول مشروع قانون الردة: (إننا لن نستطيع أن نقبل مشروع هذا القانون، ولن نخضع له إذا نفذ. وبحكم ضمائرنا سنسعى وراء كل مسيحي ترك مسيحيته لكي نرده من جديد، مهما حكمت مواد هذا القانون بالقتل على هذا التحريض، ومستعدون أن ندخل في عصر استشهاد جديد من أجل ديننا والثبات فيه)[٢]. وقد رد الأزهر على المؤتمر القبطي بالدعوة إلى (مؤتمر الهيئات والجماعات الإسلامية) في نفس العام، جاء في توصياته:

* (إن كل تشريع أو حكم مخالف لما جاء به الإسلام باطل. ويجب على المسلمين رده، والاحتكام إلى شريعة الله التي لا يتحقق إيمانهم إلا بالاحتكام إليها.

* الأمر بتطبيق الشريعة الإسلامية. فليس لأحد أن يبدي رأياً في وجوب ذلك ، ولا تقبل مشورة بالتمهل أو التدرج. وإن التسويف في إقرار القوانين الإسلامية معصية لله ورسوله واتباع لغير سبيل المؤمنين...)[٣]. وتمادى البابا شنودة في تصلبه، وجعل من الكنيسة القبطية منبراً سياسياً، خلافاً لعادة أسلافه، وصدرت منه (تصريحات وتعليمات لأبناء طائفته تتضمن زيادة نسلهم، انطلاقاً من أن مصر أساساً دولة قبطية استعمرها المسلمون، وناشدهم بالاهتمام بالتبشير

---

(١) انظر: الأقباط والقومية العربية: أبو سيف يوسف. مركز دراسات الوحدة العربية. (١٧٠ ـ ١٧٥).

(٢) عن: الأقباط والقومية العربية (١٧٥).

(٣) عن: الأقباط والقومية العربية (١٧٥).

بالدين المسيحي، وتعبئة الرأي العام المسيحي بالخارج ضد السلطات والنظام في مصر للتدخل والضغط على المسؤولين لمنع تطبيق الشريعة الإسلامية. . . واتخاذه (شنودة) قراراً بإعلان الصوم الانقطاعي تعبيراً عن رفض أبناء الطائفة لمشروع قانون الردة، وتشكيل لجنة للرد على نشاط لجنة المطبوعات الإسلامية، ونقدها لبعض المعتقدات المسيحية، وإيعازه بعقد مؤتمر عام لمناقشة موضوع تعديل المادة الثانية من الدستور للضغط على المسؤولين، وإشعارهم برفض الشعب المسيحي ذلك التعديل معترضاً على تطبيق الشريعة الإسلامية، وتهديده بأنه في حالة عدم موافقة المسؤولين على الضمانات التي طلب إدخالها على تعديل المادة الثانية من الدستور: سيجعلها دماً للركب من الإسكندرية إلى أسوان)[(١)].

في مثل هذه الأجواء المحمومة، وإفرازاتها الميدانية تتلاشى فكرة الحوار والتقارب المؤطر بشعارات التواصل والتعاون، والقيم المشتركة، والشراكة الإيمانية الإبراهيمية، التي يدندن حولها الآخرون خارج مصر. وفي محاولة للتعرف على الخطاب القبطي حشد د. غالي شكري كماً من الأسئلة المتنوعة، ألقاها على البابا شنودة الثالث في حوار طويل استغرق عدة أيام عام ١٩٨٨م، وضم أجوبته بين دفتي كتاب في قرابة مائتين وخمسين صفحة أسماه: (الأقباط في وطنٍ متغير). ومع ذلك لا يجد القارئ إشارة إلى أدنى توجه لتبني قضية الحوار والتقريب الديني مع المسلمين، كما تطرح في مواقع أخرى من العالم. وفي ثنايا الكتاب يجد الحديث عن الحوار مع المذاهب الأخرى في أخطر القضايا التي تفصل بين الكنيسة القبطية والكنائس الغربية، وهي مسألة

---

(١) العلاقات الاجتماعية الدينية في المجتمع المصري المعاصر: د. عبد الوهاب إبراهيم. مكتبة نهضة الشرق. جامعة القاهرة ـ القاهرة. الطبعة الأولى ١٩٨٧م. (٤١).

«طبيعة المسيح». وهو حوار بدأه البابا شنوده الثالث مع بابا روما حينما زاره عام ١٩٧٣م[١]. ونخلص من هذا العرض إلى أن الكنيسة القبطية لم ترفع شعار التقريب بين الأديان للأسباب الثلاثة الآنفة الذكر.

٢ ـ أقباط المهجر:

إثر ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م التي قام بها مجموعة أطلقت على نفسها لقب «الضباط الأحرار»، اتجهت الإصلاحات الاقتصادية والزراعية نحو «التأميم» للشركات الكبرى والأراضي الزراعية، وقد تضرر من هذه الإجراءات كبار ملاك الأراضي من الأقباط، فحدث في أواخر الخمسينيات وطوال الستينيات موجات من الهجرة القبطية نحو العالم الغربي؛ أوربا وأمريكا، وكندا وكذلك إستراليا، واستقرت هناك[٢]. وقد حقق هؤلاء قدراً من النجاح المهني، وأتاحت لهم أجواء الحرية الغربية التعبير عن مكنونات صدورهم، ورصد ما يجري داخل مصر لطائفتهم، وكونوا هيئاتٍ سياسية في المهجر لهذا الغرض، لعل أبرزها: «الهيئة القبطية الأمريكية».

يعرفها أبو سيف يوسف بأنها (حركة سياسية انعزالية في صفوف أقباط المهجر... تأسست عام ١٩٧٤م، في نيوجرسي بالولايات المتحدة الأمريكية، ولها مجلة ناطقة باسمها هي «الأقباط»، وتصدر باللغتين الإنكليزية والعربية. وأهداف الهيئة المعلنة هي: خلق مجتمع دولي قبطي متحد، والمساهمة في دعم كيان الأقباط بمصر، والمطالبة برفع الظلم الواقع عليهم، وإشعار المجتمع الدولي بقوة الفكر القبطي، والتراث المصري، وتأسيس معهد للدراسات القبطية.

---

(١) الأقباط في وطن متغير (١٨٠).

(٢) انظر: الأقباط والقومية العربية ص١٥٣ ـ ١٥٤ ومقالة: الكنيسة القبطية بين المحافظة والتحديث. ميلاد حنا. مجلة الاجتهاد ٣٠ ـ ١٤٢.

وتنطلق كتابات المجلة ـ وعلى الأخص تلك التي تعبر عن قيادات «الهيئة» من منطلقات رئيسة تُحكِم رؤيتها لمجمل الأوضاع الراهنة لقبط مصر، ولعلاقاتهم بالمسلمين، ولتاريخ مصر تحت الحكم العربي الإسلامي، ومؤدى ما تذهب إليه هو أن هناك مخططاً يستهدف إبادة المسيحيين في مصر. وهذه المؤامرة جزء من مؤامرة أكبر. فالحكومات المتعاقبة الإسلامية في الشرق الأدنى تستهدف تحطيم المسيحيين اجتماعياً وسياسياً وتعليمياً وتحويلهم إلى الإسلام. وتتوسع المجلة دائماً في عرض اعتداءات الجماعات الإسلامية على أرواح القبط وحرق الكنائس، ومحاولة فرض الشريعة على غير المسلمين...

وعندهم أن العرب لم يقيموا في مصر حضارة، فقد زحفت عليها قبائل من البدو المتخلفين لم يكن لهم همّ سوى نهب البلاد. وأنهم قوضوا الحضارة المصرية فضاعت المدنية والمعرفة...)[1] فأمر هذه العيّنة القبطية من قضايا التقارب والحوار واضح لا يحتاج إلى تعليق.

٣ ـ الوطنيون الأقباط:

لم تكن الكنيسة القبطية في جميع الأدوار هي الصوت الأعلى لأبناء الطائفة. ولم يكن «البابا» الإسكندراني هو «الرمز» الذي يلتفون حوله عند كل أزمة. بل ربما كان هذا هو الاستثناء، والأصل خلافه. يقول الكاتب القبطي ميلاد حنا[2]: (طوال تاريخ الأقباط كان التمثيل يتركز في طبقتي الباشوات الإقطاعيين والأفندية، وكان رجال الدين في كنفهم، فكنا نرى العمدة أو الصراف أو الرجل الثري في القرية، ثم القسيس الذي يتبعه ويحصل منه على مرتب وبعض المكاييل من الغلة كل عام)[3].

---

(١) الأقباط والقومية العربية. (١٨٣ ـ ١٨٤).

(٢) محام وأستاذ مصري... له مقالات في أوضاع الأقباط المصريين في العصر الحديث. مجلة الاجتهاد (٣٠/ ٢٩٠).

(٣) الكنيسة القبطية بين المحافظة والتحديث. ميلاد حنا. مجلة الاجتهاد (٣٠/ ١٤٠).

هكذا كان الأمر في القرن التاسع عشر وحتى السبعينيات من القرن العشرين. كان ممثلو الأقباط من الوجهاء وأصحاب الأموال، أما رجال الدين (الإكليروس) فكانوا منكفئين على أنفسهم في أديرتهم. وربما نشأ صراع بين «المجلس الملّي» ذي الصبغة الوطنية، و«الإكليروس» الديني المحافظ[1]. فما الذي حدث، وعكس الأمر في الثلث الأخير من هذا القرن الميلادي؟ وما آثاره؟ يجيب عن هذا التساؤل الكاتب القبطي «رفيق حبيب» في كتابه الاحتجاج الديني في مصر قائلاً: (مع وصول البابا شنودة الثالث إلى الكرسي البابوي في عام ١٩٧١م، وصل العديد من الرهبان إلى مناصب الأساقفة، ومعظمهم من جيل البابا شنودة، الأمر الذي أتاح أحد أهم الأهداف التي أرادها هذا الجيل، لجهة إنهاء عصر القيادات التقليدية الكنسية، والاهتمام بالقضايا السياسية التي فتحت باب الصراع السياسي بين الدولة والكنيسة، من خلال الكشف عن مضمون الموقف السياسي للكنيسة. ورغم أن الصراع بينهما لم يكن مقصوداً بحد ذاته، فإن اعتلاء البابا شنودة الثالث الكرسي البابوي، وهو مقتنع بأن هذه المكانة القيادية هي الطريق لتحقيق آمال الطبقة الوسطى، والمطالبة بحقوق الشعب القبطي، جعل النبرة السياسية أعلى من النبرة الاجتماعية، وأصبح الصراع حتمياً. وقد اتخذت قيادات الكنيسة طريقاً خاصاً بها في هذا المجال كان أقرب إلى أساليب الاحتجاج والاعتراض، هذه الأساليب التي كانت ترمي لعدة أهداف:

١ ـ قيام الكنيسة بدور الممثل للشعب القبطي، بدلاً من الصفوة القبطية.

٢ ـ فرض سلطة الكنيسة على الصفوة القبطية.

---

(١) انظر: الأقباط في إطار الجماعة الوطنية.

٣ ـ تحقيق آمال الطبقة الوسطى القبطية التي تسعى لتحقيق مكانة مقبولة في المجتمع والحياة.

٤ ـ كسر حالة السلبية التي ميزت الكنيسة والأقباط لفترات طويلة.

ولكن مواقف الكنيسة لم تستطع تحقيق كل هذه الأهداف، وكان الصدام بين الدولة والكنيسة عاملاً مهماً في إحباط هذه الأهداف. هذا الصدام كان نتيجة لاستخدام أساليب الاحتجاج، والتي تمثلت في البيان القبطي لعام ١٩٧٧م، والامتناع عن إقامة شعائر العيد في عام ١٩٨٠م وسواها. والتي كانت سبباً في خلق العديد من المشكلات التي جعلت المجتمع القبطي يعيش في عزلةٍ إعلامية؛ اختيارية أحياناً، وإجبارية أحياناً أخرى، حيث إن الشعب المصري لا يعرف الكثير عن الكنيسة واتجاهها، ولا يستطيع بسهولة معرفة أهدافها، وهذا الأمر يبرز مأزق النجاح عند البابا شنوده وجيله الذين استطاعوا الوصول إلى الكنيسة، لكنهم لم يستطيعوا تحقيق أحلامهم وأهدافهم التي نشدوها)[1].

إن نبرة التململ في صفوف المثقفين من الأقباط آخذة في التصاعد حيال مواقف الكنيسة، أو على التحديد مواقف البابا المجازفة، مما حمل أحدهم، ميلاد حنا، أن يتساءل: (إلى أين تتجه الكنيسة القبطية؟ خصوصاً أن البابا قد تجاوز السبعين، ويشكو بعض المتاعب الصحية)[2].

وينتظم في الاتجاه الوطني عامة المثقفين الأقباط، باعتباره الخيار الأصلح للطائفة، كما أنه الأسلوب المتعقل لمواجهة الفتن الطائفية. ويركز هؤلاء على شعارات الوطنية والتآخي بين مكوني المجتمع

(١) عن عرض للكتاب المذكور لـ: ياسر زغيب في مجلة الاجتهاد (٣٠/ ٢٤٨ ـ ٢٤٩).

(٢) الكنيسة القبطية بين المحافظة والتحديث. مجلة الاجتهاد (٣٠/ ١٤٧).

المصري؛ المسلمين والأقباط، بل والحديث عن «القومية المصرية» أكثر من «القومية العربية»، ونبذ التعصب من الجانبين، وإبراز الرموز الوطنية. ومن أبرز هؤلاء الكتاب: وليم سليمان قلادة. فقد كتب فصلاً مطولاً في الكتاب الذي أصدره مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق، بعنوان: «العلاقات الإسلامية ـ المسيحية في الواقع المصري: المفهوم الأساسي في الماضي والحاضر والمستقبل» من (ص٢٤٩ إلى ص٣٦٧) عرض فيه مجمل العلاقات التاريخية والراهنة بلغة تصالحية ودية، استعمل فيه مصطلح «الحوار العلائقي الإسلامي المسيحي»، وقسمه إلى عشرة مراحل، تتراوح بين الجدال إلى اللقاء إلى الردة حسب الرؤية الوطنية البحتة. وفي المرحلة السابعة التي أسماها «الحوار العلائقي» لا يجد الكاتب ما يستشهد به سوى سياق قرارات المجمع الفاتيكاني الثاني، وجهود مجلس الكنائس العالمي فقط، ولا شيء من الشواهد المحلية، ويكتفي بالتعقيب قائلاً: (هذان الموقعان ـ نسيان الماضي، والاعتراف بالذنب[1] لا محل لهما في الحوار الإسلامي المسيحي على الأرض العربية، خصوصاً في «اللقاء» الذي يجري في مصر. فالعدوان على الأرض العربية من مختلف مراحل التاريخ لم يكن على الإسلام والمسلمين وحسب. ثم إن مقاومة هذه الهجمات اشتركت فيها جميع مكونات الجماعة العربية ـ خصوصاً المصرية. بل إن الخاصية المميزة للِّقاء هنا، هي الاشتراك في الحركة الوطنية والدستورية في مختلف مراحلها، ثم إن «الماضي» في اللقاء العربي، خصوصاً المصري، معطى يتعين التمسك به وتذكره، لا نسيانه، فمن خلال هذا الماضي قامت العلاقة الحميمة بين المسيحيين والمسلمين المصريين. إنه الركيزة المأمونة التي يجري الاستناد إليها لصياغة مفهوم نظري لهذا

---

(١) الإشارة إلى ما تضمنه بيان المجمع الفاتيكاني الثاني من الدعوة إلى نسيان الماضي والاعتراف بالمظالم.

«اللقاء»، وممارسته، والتقدم به إلى آفاق أوسع وأكثر فاعلية)[١].

وهكذا لم يجد الكاتب في تتبعه لمراحل العلاقات بين المسلمين والأقباط في المجتمع المصري مادة يساهم بها في قضية «التقارب» و«الحوار» الذي نشط منذ أوائل الستينيات الميلادية، سوى حواشٍ واستدراكات على متن مقررات المجمع الفاتيكاني الثاني، تصب في الفكرة الوطنية التي يتبناها الكاتب، مما يدل على خلو الساحة المصرية من أي أثر لمشروع حوار أو تقارب من هذا النمط. وقد ألف الكاتب في صميم الموضوع كتاب (الحوار بين الأديان) عام ١٩٧٦م وضع فيه أربع قواعد للحوار هي:

(**القاعدة الأولى:** فهم الآخر كما يريد أن يكون مفهوماً: الحوار هو اللقاء مع الآخر الحقيقي الحي وليس مع فكرتي عنه. الحوار هو منهج الحياة في المجتمع التعددي وهو يفترض الخلاف بين أطرافه. وهو لا يهدف إلى أن يحتوي الطرف الآخر وعقيدته.

القاعدة الثانية: عن عقيدة الشخص: الحوار دعوة لأن يزداد الشخص تفهماً لدينه، كي يستطيع عرضه للآخر بأسلوبٍ مقبول ومقنع، فليس الهدف من الحوار الوصول إلى موقف وسط بين العقائد.

القاعدة الثالثة: عن المطلق: إن ارتباط الإنسان بالمطلق في المسيحية والإسلام واليهودية أيضاً يجعله موضوعاً نموذجياً للحوار بين الأديان.

القاعدة الرابعة: عن الممارسة: لأن هدف الدين ليس مجرد المعرفة. ولكن الممارسة والحوار الناجح هو الذي يؤدي إلى اتخاذ

---

(١) العلاقات الإسلامية ـ المسيحية في الواقع المصري. من: العلاقات الإسلامية ـ المسيحية قراءات مرجعية في التاريخ والحاضر والمستقبل. (ص٣٤٥ ـ ٣٤٦).

الطرفين موقفاً عملياً. لأن الحوار النظري هو وسيلة للهروب وللمهادنة. والحوار عملية متطورة، تراكمية، والتزام الممارسة يؤثر في الطرفين ويقارب في اتجاهاتهما الفكرية)[١]. ولكن هذا الكتاب ليس نتاج حوار ديني محلي، بل هو باعتراف مؤلفه: (متابعة للندوات التي عقدت بين المفكرين المنتمين إلى مختلف أديان العالم ـ ومن بينها ندوات الحوار المسيحي ـ الإسلامي)[٢]. ولذلك لا يجد القارئ فرقاً بين هذه القواعد وما كتبه موريس بورمانس وغيره من الكتاب الغربيين.

● **خلاصة وتحليل**: تبين مما سبق أن الأقلية النصرانية في مصر ـ وعامتها من الطائفة القبطية ـ لم تَتَبَنَّ قضية التقريب والحوار بالصيغة السائدة عالمياً في النصف الأخير من القرن العشرين الميلادي. وهي في أحسن الأحوال تلوذ بعباءة الوطنية لإيجاد موقعٍ لها في نسيج المجتمع المصري الحديث. وهي بذلك توافق الأقلية المسيحية في بلاد الشام حين تعبر عن ذلك بمصطلح «العيش المشترك»، وتفارقها من جهة أن نصارى الشام عروبيون، يرفعون شعار القومية العربية بقوةٍ وحماسة، كرمز للرابطة البديلة عن الإسلام. ولكن «العروبة» وصف لا يسوغ أن يلجأ إليه نصارى مصر، حيث أنهم عرقياً سلالة أجنبية تماماً عن العرق العربي.

ومن جهة أخرى يقدم نصارى الشام من أرثذوكس وكاثوليك أنفسهم كوسيط حواري بين الإسلام والغرب النصراني، بينما لا يدعي ذلك أقباط مصر، ولا يُدِلُّون به، نظراً للشروخ العميقة التي تفصلهم عن النصرانية الرومانية والبروتستانتية، التي تحتاج إلى وقتٍ طويل لترميمها.

---

(١) الحوار بين الأديان. نقلاً عن مقالة «الحوار المسيحي الإسلامي» لعفيف عثمان. مجلة الاجتهاد عدد (٣١ ـ ٣٢/١١٨).

(٢) العلاقات الإسلامية المسيحية في الواقع المصري. من: العلاقات الإسلامية المسيحية. قراءات مرجعية في التاريخ والحاضر والمستقبل (٣٥٢).

ولا ريب أن للأحداث الطائفية، والتعصب من الجانبين الذي تستفزه طبيعة التغلغل الاجتماعي، والضغوط المعيشية، دورٌ كبير في إقصاء فكرة التقريب بالحوار، والاستعاضة عنها بعرائض الشكاوى والمطالبات باسم الوطنية. فهل تفلح الوطنية لتكون عروةً يستمسك بها أقباط مصر في مزدحم المحيط الإسلامي؟ أم تكون قشةً يتعلق بها الغريق ولا تغني عنه شيئاً؟ كالقومية العربية لنصارى الشام، الذين سرعان ما شرعوا في البحث عن بديل مناسب عنها كالحوار والتقريب. يقدم الكاتب محمد عفيفي، المعني بشؤون الأقباط إجابة تقريبية على هذا السؤال فيقول: (.. جاءت المحاولات في القرن التاسع عشر لتقديم الوطنية كصيغة بديلة للعلاقة بين المسلمين والأقباط، وإنهاء عهد الذمة. ولكن في رأينا ـ للأسف[1] لم يرس القرن التاسع عشر ولا القرن العشرين أسساً متينة لمفهوم «المواطنية»، ولم يترجم هذا المفهوم بصورة واقعية ملموسة. وبقي مفهوم الوطنية مفهوماً هلامياً إلى حد كبير، يردده البعض دون محاولة الاقتراب منه ووضعه في صيغة عملية. ولا يأتي كلامنا هذا جزافاً، ولكن نتيجة لمحاولتنا في قراءة التاريخ المصري الحديث. فنحن نزعم أن مفهوم الوطنية مفهوم من مستحدثات القرن التاسع عشر، وهو مفهوم غربي حدّت منه إلى حدٍ كبير الرابطة الدينية، والجامعة الإسلامية، ثم بعد ذلك «القومية»، وما زالت مصر تبحث عن الطريق منذ دعوة «مصر للمصريين» في الثورة العرابية، وتعريفات لطفي السيد[2] للوطنية المصرية في مطلع القرن العشرين،

---

(١) كان الأجدر بالكاتب المسلم أن يتأسف على انفراط عقد الذمة الذي جاء به الشرع الحنيف، وليس على عدم تحقيق مكاسب للأقلية النصرانية على حساب الأصول العقدية والتشريعية للمجتمع المسلم، الذي يحفظ حق الذميين ويصونهم من العدوان على أنفسهم وأموالهم.

(٢) أحمد لطفي السيد (١٢٨٨ ـ ١٣٨٢هـ) (١٨٧٠ ـ ١٩٦٣م): رئيس مجمع اللغة=

وتيار الوعي الوطني الذي أحدثته ثورة ١٩١٩م، ودعاوى طه حسين[١] ولويس عوض[٢] بإحياء مصر القديمة ذات العلاقات المتوسطية، ودعاوى الفرعونية؛ أو التيار الإسلامي، والجامعة الإسلامية على يد مصطفى كامل، ثم الأممية الإسلامية على يد الإخوان المسلمين في أربعينيات هذا القرن، ثم الجماعات الإسلامية في السبعينيات، أو التيار القومي العربي لا سيما في الحقبة الناصرية. فأين الأقباط من كل ذلك؟)[٣].

= العربية بالقاهرة، ينعت بأستاذ الجيل، عمل في المحاماة وشارك في تأسيس حزب الأمة سنة ١٩٠٨م، وكان من أعضاء الحزب الوطني القدماء، ومن أعضاء حزب الوفد، وتحول إلىٰ حزب الأحرار الدستوريين. عُيّن مديراً لدار الكتب المصرية، فمديراً للجامعة عدة مرات، فوزيراً للمعارف والداخلية والخارجية. تأثر بالأفغاني، وتأثر به طه حسين. وكان ذو توجه تغريبي في الفكر والاجتماع والسياسة. من آثاره: علم الطبيعة، السياسة، الكون والفساد. انظر: الأعلام (١/ ٢٠٠).

(١) طه حسين (١٣٠٧ ـ ١٣٩٣هـ): طه بن حسين بن علي بن سلامة. دكتور في الأدب. أصيب بالجدري في الثالثة من عمره، فكف بصره. درس في الأزهر، ثم بالجامعة المصرية القديمة. سافر في بعثة إلىٰ باريس، فتخرج بالسوربون، وعاد إلىٰ مصر عام ١٩١٨م، فعين محاضراً في كلية الآداب، ثم عميداً لها، فوزيراً للمعارف. تأثر بالمستشرقين، وضمن كتبه بعض آرائهم الضالة. ترك مؤلفات عديدة، منها: في الشعر الجاهلي، الأيام، قادة الفكر. انظر: الأعلام (٣/ ٢٣١).

(٢) لويس عوض (١٣٣٣ ـ ١٤١٠هـ): لويس بن حنا عوض. كاتب مصري. وقف من الحضارة العربية وإسهاماتها موقفاً معادياً، لا يراها شيئاً، وأن دورها قد انتهىٰ. والعرب عنده إما جهلة أو ناقلون. تخرّج بجامعة القاهرة عام ١٩٣٧م، وأوفده أساتذته الإنكليز إلىٰ جامعة كمبردج البريطانية فعاد بالماجستير، ثم إلىٰ جامعة برنستون بأمريكا ونال الدكتوراه. وعمل أستاذاً في جامعة القاهرة، وتولىٰ تحرير صحيفة الأدب والفن، ومن دعاة إحلال اللغة العامية محل الفصحى وكسر عمود الشعر. نال جائزة الدولة التقديرية في الآداب عام ١٩٨٨، وقد سامه سوء العذاب شيخ العربية محمود محمد شاكر في كتابه الدامغ: أباطيل وأسمار. انظر: ذيل الأعلام ١٦٠.

(٣) الأقباط بين عهد الذمة والوطنية. محمد عفيفي. مجلة الاجتهاد (٣٠/ ٩٨).

إنها إجابة مختومة بسؤال يوحي بالإجابة. لقد ضاع الأقباط بين دعاوى القوميين، ولم يفلح الوطنيون في إرساء مبادئهم في الخضم الإسلامي المتجدد.

رابعاً: حقيقة التقريب عند بعض الجدليين من النصارى العرب:

لم يزل السجال العقدي، ومجادلة أهل الكتاب ظاهرة متصلةً بين المسلمين الذين أمرهم ربهم بمجادلة مخالفيهم بالتي هي أحسن: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وعدم مجادلة أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن؛ إلا من ظلم: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾[1] [العنكبوت: ٤٦]، وبين خصومهم من اليهود والنصارى الذين وصفهم الله بقوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا﴾ [البقرة: ١٠٩].

كما لم تزل حجة الله بالغة، ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ﴾ [الشورى: ١٦]، والقرآن يعلو ولا يعلى عليه، وقد تكفل الله بإظهار دينه، وإعلاء كلمته: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الصف: ٩]. ولم يكن يجرؤ عباد الصليب ممن عاشوا بين ظهراني المسلمين، وخبروا متانة دينهم، على محاجة أهل الإسلام علناً، طوال القرون الخالية حتى دب إليهم إخوانهم من نصارى الغرب في فترة ضعفٍ وانحلال، وغلبة هوىً وجهل، في القرنين الأخيرين من تاريخ الإسلام، فأوحوا إليهم بعض الشبهات ليجادلوا المسلمين. ومن أقدم شبهات المستشرقين، من يهودٍ ونصارى، دعوى أن الإسلام خليطٌ ملفق من الثقافات اليهودية والنصرانية، تمت إعادة كتابتها بلسانٍ عربي، على يد رجلٍ ذكي ألمعي موهوب، وليس

---

(١) انظر فصل: المنهج الشرعي في دعوة أهل الكتاب، من الباب الثالث.

نبياً يوحى إليه من الله، هو محمد ﷺ، ضمها بين دفتي كتابٍ، هو «القرآن»(١).

وقد اقتات نفرٌ من النصارى العرب على هذا الفتات، واجترّوه برهة من الدهر، حتى ملَّه عقلاؤهم واستهجنوه. ولسنا بصدد نقض هذه الشبهة البائدة، وإنما نلفت النظر إلى أن بعض هؤلاء النصارى نقلها من ميدان الطعن المجرد، إلى ساحة الحوار الإسلامي النصراني، في محاولةٍ «احتوائية» للإسلام، باسم التقريب بين الأديان.

ولعل أول من سبق إلى هذا الاستدراج المفضوح، الماروني اللبناني الأب «خليل إدّة» بكتابين صدرا عام ١٩٣٩م بعنوان: «المسيحية في الإسلام». فقد أراد أن يتخذ من أوجه التشابه العامة بين الإسلام والنصرانية ـ في نظره ـ ذريعة للقول: إن الإسلام مسيحية مقنعة. وهو حين يدعي ذلك، لا يفعله لأغراضٍ جدالية، بل سعياً للتقارب مع المسلمين، عن طريق اكتشاف أرضية مشتركة(٢).

وقد طُويت فكرة الأب إدة، باعتبارها نوعاً من محاولة الالتقاء

---

(١) ممن زعم ذلك من المستشرقين اليهود: جايجر، وهوروفيتز، وتري، وكاتشر. ومن النصارى: مير، وزويمر، وردولف، ولامنس، وأندريه، وستاركي. انظر مقالة: جدال مسيحي مع الإسلام في الحرب الأهلية اللبنانية (٣) د.رضوان السيد. وقد حكى الله هذه الفرية عن مشركي العرب، فقال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل].

(٢) يقول د. رضوان السيد: (أما المحاولة التي تحولت إلى نهج أفاد منه سائر المجادلين المسيحيين العرب في مواجهتهم للإسلام؛ فهي المغامرة الحياتية للأستاذ يوسف درة الحداد، التي تعتبر من وجهة نظري أهم الجدليات الحديثة ضد الإسلام، بعد كتاب «ميزان الحق» للقس البروتستانتي Pfander. ويرجح أن تكون صدرت مؤلفاته بين عامي (١٩٥٦ ـ ١٩٧٠م). جدال مسيحي مع الإسلام في الحرب الأهلية اللبنانية (٣).

في منتصف الطريق ـ على الأقل ـ في ظل مناخٍ اجتماعي وسياسي معين. تلقّف هذه الفكرة البسيطة الأب الكاثوليكي «يوسف درة الحداد (١٩١٣ ـ ١٩٧٩م)»، فشرَّق بها وغرب، وغاص وحلَّق، وجعل منها مشروع العمر، فسوّد آلاف الصفحات في تقريرها، والاستشهاد بما قرب وبعد من الأخبار والأشعار والقصص والأساطير المتصلة بوجود النصارى في بلاد العرب، فنظم سلك هذا المتناثر في عقدٍ خيالي مبهرج. ساعده في ذلك قلم سيال، لا يكل ولا يمل من تكرار الفكرة الواحدة في عشرات المواضع من الكتاب الواحد. وكأنما يلقّن قارئه كما يلقن معلم الصبيان. وقد سلّط فكره الضال على آي الكتاب العزيز فصار يهرف بما لا يعرف، ويفسر القرآن بهواه وما يتفق مع أسطورته التاريخية[١].

فأصدر مجموعةً من الكتب تحت مسمى: «في سبيل الحوار الإسلامي المسيحي» تضمنت:

١ ـ مدخل إلى الحوار الإسلامي المسيحي.

٢ ـ القرآن دعوة «نصرانية».

٣ ـ القرآن والمسيحية.

وقد أتى بالعجب العجاب الذي لا يتفق مع لغة العصر، بل شحنها بمقدمات مرفوضة نصاً وروحاً لدى أدنى مسلم، بل لدى أدنى عاقل منصف، استظهر فيها شبهات المستشرقين البائدة في القرآن ونبي الإسلام ﷺ، وصاغها في نظرية موغلة في الغرابة تبعث على السخرية والاستهجان. ولولا أنه قدم هذه الأفكار بوصفها أساساً للحوار الإسلامي النصراني في نظره، وإلا لما استحقت الإشارة والمناقشة، وكان موضعها الصحيح في حقل التصنيف مع شبهات النصارى والمستشرقين المتهافتة أمام الدين الحق.

---

(١) المرجع السابق.

ويظهر لي أيضاً أن تلك الأفكار المغربة موجودة لدى المؤلف سلفاً، وليس الباعث لها مشروع حوار طارئ. فقد قرر المؤلف هذه الدعاوى ورددها في مجموعة أخرى من كتبه أسماها «دروس قرآنية»! تضمنت ثلاثة كتب أيضاً، هي:

١ ـ الإنجيل في القرآن.

٢ ـ القرآن والكتاب، في جزئين: بيئة القرآن الكتابية وأطوار الدعوة القرآنية.

٣ ـ نظم القرآن والكتاب، في جزئين: إعجاز القرآن، ومعجزة القرآن.

ثم وجد المؤلف بغيته في قضية «الحوار»، فصنع لها إطاراً ضم تلك الأفكار المسبقة، وسماه «مدخلاً»، وختم بها باعتبارها محور ذلك الحوار. وبين المدخل والخاتمة يجتر الكاتب دعاويه المزيفة التي سوّد بها مئات الصفحات، وحشد فيها مئات الشبهات التي تحتاج لدحضها وبيان عوارها لمؤلفات موازية في ضخامتها للأصل الفاسد المراد نقضه[(١)]، مما يخرج بنا عن خصوصية البحث، ونكتفي بإشارات جامعة للافتراءات التي يدندن حولها المؤلف مقدماً إياها أساساً للحوار الصحيح ـ في نظره ـ بين الإسلام والنصرانية.

يؤسس الأب يوسف الحداد مشروعه التقاربي بين الإسلام والنصرانية على دعوى مفادها أن الإسلام ونبيه ﷺ وكتابه القرآن ما هو إلا ثمرة جهود طائفة النصارى، وهم الذين آمنوا بالمسيح عليه السلام من بني إسرائيل بوصفه بشراً يوحى إليه لا إلهاً، وبقوا مستمسكين بالتوراة والإنجيل معاً، بخلاف أتباع بولس الذين هم عامة النصارى اليوم.

---

(١) ألف المحامي أحمد عمران عام ١٩٩٥م كتاباً ضخماً بعنوان «القرآن والمسيحية في الميزان»، نقض فيه دعاوى الحداد في كتابه: «القرآن والمسيحية».

ويحلو للأب الحداد أن يُنظِّر افتراق القوم على النحو التالي: (هذا السلوك المختلف في الجماعة الواحدة، شق المسيحية منذ تأسيسها إلى سنة وشيعة: سنة المسيحيين الذي يتبعون شرعة الرسل في مجمع أورشليم[(١)]؛ وشيعة النصارى اليهود الذين ظلوا يقيمون التوراة والإنجيل معاً بزعامة آل بيت المسيح أسقف أورشليم)[(٢)].

وقد احتدم النزاع العقدي بين الفريقين وآل إلى اعتبار «النصارى» مبتدعة وهراطقة ومرتدين. (فالردة «النصرانية» موضوعها: الكفر بإلهية المسيح، والكفر بالفداء في صلبه. وينتج عن ذلك الكفر بالتثليث، والكفر بالتجسد. هذه هي عقيدة «النصارى» في المسيح. وسيقومون عليها طوال عهد الفترة ما بين الإنجيل والقرآن»[(٣)].

ونصل مع المؤلف إلى مبتغاه من إبراز هذا الانقسام وما تلاه من أحداثٍ تاريخية أدت إلى نمو المسيحيين أتباع بولس وضمور النصارى، فيقول:

(بعد أن أصبحت المسيحية دين الدولة عند الروم، هاجر اليهود إلى دولة الفرس يعتصمون بها، ويعملون لها بين العرب. ووقع النصارى من بني إسرائيل بين نارين، نار بني قومهم اليهود، ونار بني دينهم المسيحيين؛ فلم يبق لهم من ملجأٍ سوى الحجاز الذي تحميه صحاريه من استعمار الدولتين)[(٤)].

وهنا يحلق الأب الحداد في أجواز الخيال، فيضخم دور النصارى، الذي يجمع مؤرخو النصرانية على انقراضهم، فيجعل منهم

(١) راجع التمهيد: المبحث الثاني.
(٢) القرآن دعوة نصرانية: الأب: يوسف درة الحداد. (٥٦).
(٣) القرآن دعوة نصرانية. (٦٦).
(٤) القرآن دعوة نصرانية. (٢٢٩).

(أساس النهضة الجاهلية في السياسة والتجارة والثقافة والديانة. ومن القرائن القرآنية نرى أن النصارى من بني إسرائيل أطلقوا في مكة والحجاز لنشر دعوتهم ثلاثة حركات:

أولاً: الحركة الحنيفية:... وربطوها باسم إبراهيم، جد إسرائيل وإسماعيل، وأسموها «ملة إبراهيم»... وزعيمها «ورقة بن نوفل» قس مكة...

ثانياً: الحركة الإسلامية: ثم سمى النصارى من بني إسرائيل دعوتهم «الإسلام» وذلك قبل القرآن... وذلك في محاولة منهم لتعريب «النصرانية» باسم الإسلام، وتأليف العرب إليها بحجة أنها ليست اليهودية ولا المسيحية؛ فلا يتعرضون فيها لغضب الفرس مع اليهود، ولا لغضب الروم مع المسيحيين. فالحنيفية والإسلام صيغتان «للنصرانية».

ثالثاً: الدعوة القرآنية:... الدعوة القرآنية هي دعوة النصارى من بني إسرائيل، ومن «تنصر» معهم من العرب؛ فهم أُوْلُوا ﴿ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨] الذين يشهدون مع الله وملائكته ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]. والدعوة القرآنية «تأييد» للطائفة من بني إسرائيل التي آمنت بالمسيح، على ﴿عَدُوِّهِمْ﴾، الطائفة اليهودية التي كفرت به: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤][1].

وبعد هذا التحليق الشاهق يهبط الكاتب ليرسم التفاصيل، ويضع النقاط على الحروف، فيعقد بحثاً بعنوان: «محمد على درب «النصرانية» من وحي السيرة، يتفنن فيه بكل ما أوتي من حيلة، وسيولة قلم، في جمع متناثر الأخبار، فيلوي أعناقها، ويخطم آنافها، ليثبت أن محمداً ﷺ ربيب النصرانية، وابن بجدتها ـ حاشاه ـ. (فيكون جد

(١) القرآن دعوة نصرانية. (٢٣٠ ـ ٣٢١).

محمد، عبد المطلب، أول من «تنصر» من قريش... ويكون محمد قد ولد في بيت «نصراني» في زعامة الدين والدنيا) بل إن كرمه يسع أبوي نبينا محمد ﷺ، وعمه أبا طالب، فيمنحهم صكاً باعتناق النصرانية، (وكان أول عمل للكفيل الكبير، أنه ختن حفيده في اليوم الثامن على عادة النصارى من بني إسرائيل... كان العمل الثاني أنه وجد له حاضنةً نصرانية اسمها «بركة الحبشية»... فكان محمد طفلاً في حضانة مسيحية... فجاءت الحاضنة المسيحية بمحمد الصبي إلى ورقة بن نوفل، قس مكة، وهو بمعبده ومنسكه في حراء، فعمده بماء زمزم. وهذا معنى أسطورة «شق الصدر»)[(١)].

أما قصة (بحيرا) الواهية سنداً ومتناً عند المحققين[(٢)]، فليست أسطورة عند الأب الحداد، بل هي (برهان على انتساب أبي طالب ومحمد إلى مذهب بحيرى «النصراني»، واعتماد الإمام الأكبر في «علم النصرانية» الذي ينتهي إليه ـ كأنه بابا تلك الأيام، في الفاتيكان «على كتاب يتوارثونه كابراً عن كابر»، هو إشارة واضحة إلى «إنجيل النصارى»... فزيارة محمد الفتى له كانت حجاً إلى الإمام الأكبر «للنصرانية»؛ وفي هذه الحجة تقرر مصير محمد، في قول بحيرى عنه: «سيكون نبي هذه الأمة»... وسترى بعد اثنتي عشرة سنة أخرى قس مكة يقول لابنة عمه خديجة التي تستفتيه في زواجها من محمد، أن افعلي لأنه: «سيكون نبي هذه الأمة»، فذهبت كلمة السر في مصير محمد)[(٣)].

---

(١) القرآن دعوة نصرانية. (٢٩٨ ـ ٣٠٢). وحادثة شق الصدر في صحيح مسلم (١/١٤٧). وليس فيها على تنوع سياقاتها ذكر لورقة بن نوفل.

(٢) انظر: دراسة الدكتور أكرم ضياء العمري للقصة في كتابه: السيرة النبوية الصحيحة (١/١٠٦ ـ ١١١).

(٣) القرآن دعوة نصرانية. (٣٠٤ ـ ٣٠٦). والكاتب يستقي خيالاته من روايات=

وخديجة رضي الله عنها، في زعم الكاتب، كانت على النصرانية، وزواجها من محمد ﷺ كان بمشورة ورقة بن نوفل لاطلاعه على كلمة السر[(١)] من مرجعه الأعلى بحيرا. ولهذا (أقام محمد خمسة عشر عاماً في بيت خديجة، يتمتع بالجمال والمال والسيطرة التجارية على قريش والجزيرة، ويتدرب في كنف القس ورقة على الرسالة «النصرانية» بين العرب، ويَحْضُر ترجمة ورقة لإنجيل النصارى من العبرانية إلى العربية؛ ويتعلم «المِثل» القرآني)[(٢)] (الأحقاف: ١٠) الذي فيه «علم الكتاب» (الرعد: ٤٥)؛ ويستعد لأن يكون «أول المسلمين» (الأنعام: ١٦٣)، (الزمر: ١٢) متى دقت ساعة الله.

وحبب إليه الخلاء فكان يختلي مع قس مكة شهراً من السنة، شهر رمضان، في الصيام والنسك والتعبد، على طريقة الرهبان، يتأمل

= نصرانية شرقية حكيت حول شخصية الراهب «بحيرا»، طورت، وجمعت في كتابٍ عرف باسم «سفر بحيرا» (وهو كتاب مسيحي من المحتمل أن يكون قد وضع في صورته الحالية في القرن الحادي عشر أو الثاني عشر... يتألف من ثلاثة أجزاء... وقد ورد في الجزء الثاني، الذي يكوّن أسطورة بحيرا المنحولة كيف لقَّن سرجيوس محمداً ﷺ عقيدته وشرائعه وأجزاء من القرآن. وذلك بقصد أن يجعل العرب يعترفون بإلهٍ واحد، ومن الواضح أن هذا الجزء من الكتاب يراد به إظهار محمد أنه نبي كاذب تلقى وحيه من راهب منشق هرطقي). انظر حاشية مترجم الإسلام والمسيحية. (٧٢). وهكذا انتهت سلسلة الكذب بالأب يوسف الحداد.

(١) لعله يقصد «سر السيامة» ـ أحد الأسرار السبعة ـ الذي يزعم النصارى أنه يحصل به انتقال السلطة الروحية من المسيح إلى الرسل الأساقفة. انظر مبحث النصرانية في التمهيد.

(٢) يشير إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ والآية تدل على عكس مراده، فالإسرائيلي المؤمن في الآية شاهد على صدق ما جاء به النبي ﷺ وليس معلماً له.

في الوجود، ويستذكر ما تعلمه من أستاذه القس، وهو مجاور بجواره)[١].

هكذا يعبث الأب الحداد بالتاريخ، وينسج خيوط روايته الوهمية، بلا مستند أو أثارة من علم.

وماذا بعد نزول الوحي على نبينا محمد ﷺ، هل انتهت فترة الحضانة النصرانية للدين الوليد؟ يقول القاصّ: (توسم زعماء «النصرانية» بمكة، في ابن قرابتهم محمد بن عبد الله، الكفاءة لخلافة أئمتهم في الدعوة إلى «النصرانية» وفرضها بالدعوة، وبالجهاد إذا اقتضى الأمر، على مكة والحجاز والجزيرة، «أمة وسطاً» بين اليهودية والمسيحية، ودولة وسطاً بين الفرس والروم. فكان لهم بعد خمسة عشر عاماً من الاستعداد الديني والنفسي والفكري، في تلك «الليلة المباركة»، «ليلة القدر» من شهر رمضان، بتلك ـ «الرؤيا الصالحة»[٢]، الصادقة. وكان الله نفسه من وراء قصدهم، و﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤])[٣].

ولكن إلام يقودنا الأب الحداد في هذه الرحلة المضنية المليئة بالأكاذيب والمغالطات، وما علاقة هذا الهراء بقضية «الحوار الإسلامي المسيحي» وكيف كان مدخلاً له؟.

---

(١) القرآن دعوة نصرانية (٣٤٢).

(٢) يعرّض الكاتب بإنكار الوحي، وأن ما حصل للنبي ﷺ في غار حراء كان مجرد رؤيا. ويعمي على القارئ المسلم بالاستشهاد بالآية الدالة على الرسالة، ومن المعلوم أن الرسالة عند النصارى وظيفة كبار الدعاة وليست وصفاً لأنبياء الله، ولهذا يقولون: الرسول بطرس، وبولس... ولا يقولون الرسول عيسى. كما أنهم يثبتون نزول الروح القدس على الرسل، بل وغير الرسل، دون أن يكون ذلك مستلزماً للنبوة. راجع التمهيد. مبحث النصرانية.

(٣) القرآن دعوة نصرانية. (٣٤٣).

على القارئ أن يحبس أنفاسه، لأن الأب الحداد سيعلن مفاجأةً تاريخية في ختام كتابه: (سأفاجئ المسلمين والمسيحيين، في هذا الكتاب، بأنهم إخوة على دين واحد، وهم لا يشعرون، وإن افترقوا إلى سنة وشيعة، ما بين مسيحية وإسلام.

لا أقصد فقط وحدة التوحيد بينهم، وهي على حرفٍ واحد في التوراة والإنجيل والقرآن: «قل هو الله أحد». إنما أقصد الوحدة المصدرية التي تجمع الإسلام والمسيحية في الإيمان بالإنجيل، ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ. . . وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ من العرب [المائدة: ٤٩]؛ وفي الإيمان بالمسيح، ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]؛ في جامع واحد مشترك هو «النصرانية» القرآنية.

أبدأ بتبديد وهم شائع، يقع فيه الجميع حتى اليوم، وهو أن النصرانية والمسيحية شيء واحد؛ فهما في الرأي العام الموهوم اسمان لعقيدة واحدة. مع أن الحقيقة والواقع غير ذلك.

وهذا الوهم المتواتر يستند إلى واقعٍ قرآني. فالقرآن لا يذكر اسم «مسيحيين» على الإطلاق، بل يشملهم باسم «نصارى» مما يخلق تعارضاً في تصاريحه، تزيله القرائن. . ، وتلك الظاهرة القرآنية الكبرى ليست مسألة لغة فحسب، إنما هي مسألة عقيدة. والخلط بين اللغة والعقيدة كانت سبب تواتر الفهم الخاطئ للقرآن والإسلام. وهذا الفهم المشبوه كان سبب سوء التفاهم المتواتر ما بين الإسلام والمسيحية، ومصدر الصراع الأليم الأثيم فيما بينهما عبر التاريخ.

وقد آن لنا أن نعرف الحقيقة القرآنية التي تجمع بين الإسلام والمسيحية في أصلٍ واحد هو «نصرانية» محمد والقرآن، لتقييم المفاهيم، وتحسين الصلات الأخوية لفتح حوار أخوي جديد ما بين الإسلام والمسيحية، طليعة عهد جديد من الإخاء الأصيل، والولاء النبيل، لأمد طويل)[(١)].

---

(١) القرآن دعوة نصرانية. (٦٧١ ـ ٦٧٢).

هكذا أسس الأب الحداد بنيان مشروعه الحواري على شفا جرفين هاريين:

أحدهما: اعتبار الدين الإسلامي ونبيه وكتابه مرحلةً من المراحل التاريخية للنصرانية المنشقة ـ في نظره ـ عن المسيحية القويمة. كما انشقت الشيعة عن أهل السنة في الإسلام. وبناءً عليه فحوار الإسلام مع المسيحية ـ حسب اصطلاحه ـ هو حوار الفرع مع الأصل. فالإسلام كله نسخة عربية من «النصرانية»، والقرآن «دعوة نصرانية» بحروفٍ عربية تم استنساخها من نصارى مكة، الذين مهدوا لظهور الإسلام، وربوا نبيه وعلموه عقيدتهم. (فهذه «النصرانية» الشيعة، هي التي هاجرت من دولة الروم، لما أعلنت المسيحية فيها دين الدولة، إلى مكة والحجاز. وهذه «النصرانية» هي التي تبناها القرآن باسم الإسلام في دعوته. فكان القرآن دعوة نصرانية. وبما أن الإسلام القرآني هو «النصرانية» عينها، فالإسلام في نسبه الشيعة إلى المسيحية السنة: فهما فرعان لأصل واحد. وهذا ما يجهله أو يتجاهله المسلمون والمسيحيون)[1].

فالمطلوب إذاً أن يرجع الفرع إلى الأصل، وينضوي الإسلام تحت المسيحية ليتحقق الحوار والوئام في نظر الأب الحداد، الذي يُذكِّر أهل ملته قائلاً: (فلا ينس أهل الإنجيل قول السيد المسيح: «ولي خراف أخر ليست من هذه الحظيرة؛ فهي أيضاً ينبغي لي أن أجيء بها، وستسمع صوتي، فيكون القطيع واحداً، والراعي واحداً» «يوحنا ١٠:١٦». فالمسلمون هم أيضاً مثال المسيحيين، خراف المسيح، لإيمانهم به على هذه الشهادة ﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء])[2].

---

(١) القرآن دعوة نصرانية. (٦٧١ ـ ٦٧٢).

(٢) القرآن دعوة نصرانية (٧٨٣). ونحن نعكس الأمر على الحداد وندعوه وأهل=

الثاني: التفريق بين «النصرانية المذمومة في القرآن» و«المسيحية التي يتسمى بها نصارى اليوم». يقول الكاتب:

(.. يجب التميز بين النصارى من بني إسرائيل، والمسيحيين من الأمميين. ومن الظلم والخيانة للقرآن إطلاق اسم «نصارى» الوارد في القرآن، على المسيحيين المنتشرين في العالم. لم يتعرض القرآن للمسيحية الرسمية على الإطلاق، ولم يتصل النبي العربي إلا بوفد نجران[1]، وقد وزعوا حوار القرآن معهم على السور المدنية. وإجماع المفسرين أن وفد نجران كان من أهل البدعة اليعقوبية في المسيحية: فمن الظلم والخيانة للقرآن إطلاق أحكام القرآن في بدعة مسيحية، على المسيحية جمعاء. فالقرآن دعوة «نصرانية» في «أمة وسط» بين اليهودية والمسيحية. و«نصرانية» القرآن هي صلة الوصل بين الإسلام والمسيحية، وسبيل الحوار الصحيح بينهما، متى زالت الأوهام وبانت الحقائق في الدعوة القرآنية)[2].

= ملته ممن يسميهم مسيحيين وهم في الحقيقة بولسيون، إلى الرجوع إلى نصرانية أتباع المسيح ﷺ وحوارييه الذين قالوا: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ [الصف: ١٤]، ونصرانية من سار على نهجهم من الذين قالوا إنا نصارى وكانوا أقرب الناس مودة للذين آمنوا، فحينئذٍ يحصل الاتحاد بقولهم: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة].

(١) يتعامى الكاتب عن كتاب رسول الله ﷺ لهرقل عظيم الروم، سدنة الكنيسة النصرانية الرسمية.

(٢) القرآن دعوة نصرانية. (٧١١)، وقد تشبث بهذه الدعوى؛ دعوى أن نصارى اليوم غير معنيين بتكفير القرآن وذمه، دعاة الحوار من نصارى العرب من أمثال جورج خضر، وكيرلس سليم بسترس وأضرابهم. فضلاً عن الجداليين العدوانيين من أمثال الأب الدكتور جوزيف القزي، المتستر بلقب أبي موسى الحريري في كتابه «قس ونبي»، وإلياس المر في كتابه «الإسلام بدعة نصرانية». انظر بحث الدكتور رضوان السيد: جدال مسيحي مع الإسلام في الحرب الأهلية اللبنانية.

ويقرر الأب الحداد ـ بكل جرأة ـ ضابطاً في فهم القرآن فيقول:

(كل تأييد أو استشهاد بأهل الكتاب أو ببني إسرائيل هو للنصارى من بني إسرائيل. وكل تكفير لأهل الكتاب أو لبني إسرائيل هو لليهود. أما المسيحيون فليسوا من بني إسرائيل، وهم أهل «الغلو» في شأن المسيح بلغة القرآن، وإن سماهم أيضاً أهل الكتاب)[١].

لقد أخرج الكاتب المسيحية التي ينتمي إليها من حلبة الصراع، وبرأها من جميع صور النقد والتخطئة والتكفير التي صرح بها القرآن، ووجه هذه الحملة على «اليهودية» فقط. وفي الحالات التي لا يسعفه المقام بليّ أعناق النصوص بما يتفق ونظرته التي فاجأ بها العالمين، يحمل تلك النصوص على من يسميهم «بعض جهال نصارى الحجاز»، أو بعض البدع المسيحية، الخارجة عن المسيحية الرسمية كاليعاقبة والنساطرة[٢]. ثم يختم بحثه بصياغة شهادة جامعة بين أهل الإنجيل وأهل القرآن نصها: (أشهد أن لا إلا الله، وأن المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه)[٣].

بعد هذا نتساءل: هل يظن الأب الحداد ـ في نفسه ـ أنه يسعى في طريق الحوار فعلاً؟ أم هي محاولة للتغرير بالبسطاء والسذج من المنتسبين إلى الإسلام؟ لا إخال مسلماً لديه أدنى مسكة من دينه يرضى أن يقال له إن دين الإسلام هو النصرانية عينها. وهذا ما أدى بالكاتب تركي علي الربيعو أن يستنتج العكس، وأن المراد إلغاء الحوار، فيقول معلقاً على كتاب «القرآن دعوة نصرانية»: (إن هذا النوع من الخطابات، والمسكون بها جنس الصياغة التبشيرية بدين المسيح كما تعبر عنه

(١) القرآن دعوة نصرانية. (١٠٣).
(٢) انظر: القرآن دعوة نصرانية. (٢٨٥ ـ ٢٨٨).
(٣) القرآن دعوة نصرانية. (٤٥٧).

ألفاظه وتراكيبه، والذي يقوم على احتقار الآخر ورده إلى باب الخراف الضالة، والمسكون بشبح الدراسات الاستشراقية لا يهدف فعلاً إلى إقامة الحوار بل إلى إلغائه. لأن الحوار يحميه الاختلاف، وتعززه الخصوصية، في حين أن الضم بالقسر والإلحاق والتبعية تقوم على إلغائه، وتقود إلى فوضى وعشوائية يزخر بها الكتاب)(١).

ويرى الربيعو أن هذا اللون من الخطاب «المستتر» في الحوار الإسلامي المسيحي يعكس «المأزق البنيوي» للأقلية المسيحية في الأكثرية المسلمة، لكون (الحوار المسيحي ـ الإسلامي، هو حوار متعدي بمعنى أنه مضمر بما هو سياسي. فالبعد السياسي في الحوار هو الحاضر/ الغائب دائماً، والغائب/ الحاضر ابتداءً...

البعد السياسي للحوار المسيحي ـ الإسلامي يدفع بالمؤرخ أو الفيلسوف أو الهاوي للتاريخ، أو رجل الدين المؤرخ إلى تغليب أحد أبعاد الزمان على الأخرى، إنه البعد المستقبلي. وفي هذه الحالة يندفع إلى الوقوع في الاحتمالية، يبني احتمالاً على احتمال، فينتهي إلى تغليب الظن والوقوع في العشوائية... ليس هذا فحسب، بل إنه سرعان ما ينزلق إلى ساحة الأدلوجة(٢)، لينتهي إلى تضخيم تاريخ الأقلية على حساب الأكثرية، وإظهارها على أنها المبدأ والمعاد، والفرع الذي يريد أن يكون أصلاً. بهذا تصبح كل قراءة لتاريخ العلاقة الإسلامية المسيحية قفزاً جديداً على التاريخ، وهروباً إلى الأمام، وقفزاً فوق مستوى الحوار، بهدف إلغائه وتأجيله إلى أجل غير مسمى)(٣).

---

(١) الخطاب المستتر في الحوار المسيحي الإسلامي. مجلة الاجتهاد (٣١، ٣٢/ ١٣٩).

(٢) الأدلوجة: يعدها بعض الكتاب تعريباً لكلمة «أيدلوجي» Ideology أي فكري.

(٣) الخطاب المستتر في الحوار المسيحي الإسلامي. مجلة الاجتهاد (٣١، ٣٢/ ١٣٢ ـ ١٣٣).

وأياً كان هدف الأب الحداد في قرارة نفسه؛ إقامة الحوار أم إلغاؤه، وأياً كانت البواعث وراء هذه الصياغة المُغرِبة، فإن النتيجة النهائية لفكرته أنه لم يأت بجديد في مجال الحوار. ذلك أننا لو سلمنا جدلاً بوجود تطابق كامل بين العقيدة القرآنية، وعقيدة النصارى، شيعة المسيح، حسب اصطلاح المؤلف، الذين انشقوا على المسيحيين، فغاية ما في الأمر أننا أعدنا الأمر جذعاً ونصبنا الخلاف على قواعده الأولى، التي أفرزت قرارات الحجب والحرمان، والوصم بالكفر والبدعة والهرطقة للمخالف. فأي ثمرة يجنيها الأب الحداد «في سبيل الحوار الإسلامي ـ المسيحي» مؤسسةٍ على نبش أحقاد الماضي، وبعث معضلات عقدية عميقة فشلت الكنائس في تجاوزها طوال القرون.

كما أن فكرة التفريق بين «المسيحية» والانحرافات «النصرانية» المذكورة في القرآن، بهدف تبرئة «المسيحية» من «الكفر» و«الغلو» لم تأت بجديدٍ أيضاً، ولم تحل إشكالاً أصلاً. فالكاتب مع براعته في التلفيق وتحريف الكلم عن مواضعه، حين يصل هذه المباحث يعترف أنه خلافٌ أكبر فيقول: (إن الخلاف الأكبر، في الحوار بين الإسلام والمسيحية يقوم على صلة التثليث المسيحي بالتوحيد الإسلامي)(١). ثم يُعمل الحيلة لإثبات أن التثليث الذي يكفره القرآن ليس بالتثليث الذي يؤمن به المسيحيون! في الوقت الذي يردد فيه قانون الإيمان النصراني: (أومن بالله الواحد الآب... والرب الواحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد،... وبالروح القدس، الرب المحيي، المنبثق من الأب، (بالابن)، الذي هو مع الأب والابن معبود ومحمود..)(٢).

عجباً لهاتيك العقول المغيَّبة في عماء التعصب والتقليد، كيف تسمي

---

(١) مدخل إلى الحوار الإسلامي المسيحي: الأب يوسف درة الحداد. (٢١٧).
(٢) مدخل إلى الحوار الإسلامي المسيحي. (٣٠٥ ـ ٣٠٦).

هذا التثليث الشركي «توحيداً». لقد جمع قانون إيمانهم شِركَيْ الربوبية والألوهية، فكان مشركو الأمم من الوثنيين أحسن حالاً منهم لوقوعهم في شرك الألوهية دون الربوبية.

وتذهب محاولات الأب الحداد سدى وهو يحاول أن «يفلسف» القضية ويجمع النقيضين؛ التوحيد والتثليث، فيقول: (فالتثليث المسيحي هو الله وكلمته وروحه، في وحدة الكيان الإلهي. إنه تثليث في التوحيد الخالص)[1].

فليقض القارئ عجباً من «وحدة الكيان الإلهي»، والتوحيد الخالص، وهو يقرأ في نص قانون الإيمان النيقاوي الذي يردده النصارى في جميع الأرض: (.. وبالرب الواحد، يسوع المسيح، ابن الله الوحيد، المولود من الأب قبل كل الدهور، النور من النور، الإله الحقيقي من الإله الحقيقي، مولود غير مخلوق، في جوهر واحد مع الأب. وهو الذي به كان كل شيء، الذي من أجلنا ومن أجل خلاصنا نزل من السماء، وتجسد بالروح القدس من مريم العذراء، وتأنس وصلب لأجلنا على عهد بنطيوس بيلاطس، وتألم وقبر وقام في اليوم الثالث على ما في الكتب. وارتفع إلى السماء وجلس على يمين الأب)[2].

إله مولود من إله، نزل، وتجسد، وتأنس، وصلب، وتألم، وقبر، وقام، وارتفع، وجلس على يمين الإله الأول! ومع ذلك فهما إله واحد!!

إن الأب الحداد ينعي على المسلمين جهلهم بهذا التوحيد الخالص، ويدعوهم إلى حوار قاعدته الأساسية (صحة التوحيد الخالص

(١) مدخل إلى الحوار الإسلامي (٣٠٨).
(٢) المرجع السابق، (٣٠٥).

المنزل ما بين الإنجيل ـ الذي يعتقده ـ والقرآن)[١].

هل داعية الحوار المسيحي يتعامل بوجهين، فيقول لمحاوريه من المسلمين ما يوهم التوحيد، فإذا خلا إلى بني ملته أبحر في التثليث؟.

إننا نجده في كتابه الحواري يقول متنصلاً من مقالة لـ «اليعقوبية»: (إن مقالة اليعقوبية قد كفرتها المسيحية قبل القرآن والإسلام. والمليار من المسيحيين يكفرونها اليوم. فمن الجهل والظلم المتاجرة بها في الحوار الإسلامي المسيحي)[٢]، ثم يعلق في الحاشية مستدركاً قائلاً: (نعتذر إلى الإخوان الذين يسميهم التاريخ الإسلامي «يعاقبة». ونحن على يقين بأن خلافهم مع جميع المسيحيين شكلي: إنه خلاف في التعبير، لا في العقيدة والتفكير)[٣]! مع أن السبب الذي حمل المجمع المسكوني الرابع عام ٤٥١م على تكفير اليعاقبة ـ وتمثلهم إذ ذاك كنيسة الإسكندرية ـ هو قولهم أن المسيح إله اتحد فيه اللاهوت والناسوت وصارا طبيعة واحدة، بينما يقول المجمع المذكور أنه إله بطبيعتين[٤]. أما السبب الذي لأجله كفرهم القرآن فهو القول بألوهية عيسى عليه السلام قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة].

وهو قول تشترك فيه سائر طوائف النصارى المعاصرين، مهما تحذلقت في التعبير عنه، على نحو قول الأب الحداد: (فالمسيح في عقيدة المسيحيين إلهٌ من حيث هو «كلمته ألقاها إلى مريم»، وكلمة الله ليس الله على الإطلاق، لأن الله هو الآب والكلمة والروح في وحدة

(١) المرجع السابق، (٢٨٦).
(٢) مدخل إلى الحوار الإسلامي (٢٨٨).
(٣) المرجع السابق، (٢٨٨).
(٤) انظر: محاضرات في النصرانية. محمد أبو زهرة (١٣٧)، المسيحية في العالم العربي (٥٧ ـ ٦٩).

الطبيعة الإلهية، فتكفير القرآن لا يطال المسيحية مطلقاً)[١].

ونرى أن لا فرق في الحقيقة بين مقالة اليعقوبية، ومقالة الملكانية «النصرانية الرسمية» من حيث إثبات كلٍ منهما ألوهية المسيح كما في النص أعلاه، وإنما اختلفوا في تفاصيل الباطل[٢]. ولنا في هذا المقام قول الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]. قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: (فإن الشبهة التي عرضت لمن اتخذه إلهاً، شبهة باطلة، فلو كان لها وجه صحيح، لكان آدم أحق منه، فإنه خلق من دون أمٍ ولا أب، ومع ذلك، فاتفق البشر كلهم على أنه عبدٌ من عباد الله. فدعوى إلهية عيسى بكونه خلق من أمٍ بلا أب دعوى من أبطل الدعاوى[٣]. . .

وأنه «كلمته ألقاها إلى مريم» أي تكلم الله بها فكان بها عيسى، ولم يكن تلك الكلمة، وإنما كان بها. وهذا من إضافة التشريف والتكريم. وكذلك قوله: «وروح منه» أي من الأرواح التي خلقها، وكملها بالصفات الفاضلة، والأخلاق الكاملة)[٤].

لقد كانت محاولة الأب يوسف درة الحداد في مجال التقريب بين الإسلام والنصرانية ضرباً من الاحتواء المكشوف الذي تأباه لغة العصر، فضلاً عن الحقائق الثابتة.

---

(١) مدخل إلى الحوار الإسلامي المسيحي. (٣٠٢).

(٢) يقول الأب الحداد، نفسه: (كل الفرق المسيحية في مطلع القرن السابع م، كانت مسيحية لا نصرانية، فالملكية، واليعقوبية، والنسطورية كلها تؤمن بإلهية المسيح من حيث هو كلمة الله ألقاها إلى مريم، مهما اختلفت في التفكير والتعبير على صيغة تلك العقيدة) القرآن دعوة نصرانية (١٠٧).

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/ ٣٨٧).

(٤) المرجع السابق: (٢/ ٢٢٥).

يقول الدكتور رضوان السيد[1]: (أراد الأستاذ الحداد من المسلمين الاقتناع بأنهم نصارى/ مسيحيون في الأصل. وبالتالي فلا حاجة للاستقلالية الدينية، «فالاجتماعية والسياسية». إذ أن هذه الاستقلالية الموهومة بالذات هي علة النزاع بينهم وبين المسيحيين)[2].

وتلك صفاقة ما بعدها صفاقة! وهو لا يقتصر على نفث مكنون صدره من الحسد متخفياً خلف صفحات الكتب، غاضاً صوته تحت هدير المطابع، بل يبلغ به النزق أن يرتجل خطاباً في دار «الفتوى اللبنانية» ببيروت، أمام الشيخ حسن خالد[3] مفتي الجمهورية، في

---

(١) د. رضوان السيد: حصل على الدكتوراه في الفلسفة (قسم الإسلاميات) من جامعة توبنغن بألمانيا الغربية عام (١٩٧٧م)، أستاذ الدراسات الإسلامية بالجامعة اللبنانية، ومدير المعهد العالي للدراسات الإسلامية في بيروت منذ ١/ ١١/ ١٩٩٤م، درس في جامعات هارفارد وشيكاغو بالولايات المتحدة الأميريكية، أستاذ زائر لعددٍ من الجامعات ومراكز البحوث، له حضور قوي في المؤتمرات والندوات الفكرية، يشغل منصب رئيس تحرير مجلة «الاجتهاد» منذ عام ١٩٨٨م. من مؤلفاته: «الأمة والجماعة والسلطة»، «دراسات في الفكر السياسي العربي والإسلامي ١٩٨٤م»، «مفاهيم الجماعات في الإسلام ١٩٨٥م»، «الإسلام المعاصر ١٩٨٧» وغيرها بالإضافة إلى تحقيق بعض كتب التراث. انظر ملاحق مجلة الاجتهاد (٢٩ ـ ٣٢)، وكتيب: «حركات الإسلام السياسي والمستقبل» (٣١).

(٢) جدالٌ مسيحي مع الإسلام في الحرب الأهلية اللبنانية (٧).

(٣) حسن خالد (١٣٤٠ ـ ١٤٠٩هـ): مفتي لبنان. ولد في بيروت وتعلم في مدارس المقاصد الإسلامية بها. ثم انتقل إلىٰ مصر، وتخرّج في كلية أصول الدين بالأزهر عام ١٩٤٦م. وتقلّد مناصب عديدة في القضاء، حتى عُيّن مفتياً للجمهورية اللبنانية عام ١٩٦٦م. له حضور سياسي وعلمي، كان عضواً في رابطة العالم الإسلامي، ومجمع البحوث الإسلامية في الأزهر. توفي إثر انفجار سيارة ملغومة، إبّان الحرب الأهلية اللبنانية. من مؤلفاته: آراء ومواقف، الإسلام والتكامل المادي في المجتمع، المسلمون في لبنان والحرب الأهلية. انظر: تتمة الأعلام (١/ ١٣٠).

أواخر الستينيات الميلادية، حين جاء مرافقاً البطريرك مكسيموس حكيم، بطريرك أنطاكية وسائر المشرق والإسكندرية وأورشليم للروم الملكيين الكاثوليك - في إطار زيارات المجاملة والتهاني بين الجانبين - ويؤكد فيه على الوحدة الدينية الجذرية، وينادي في محفل الخزي والعار متكلماً بلسان الجميع: (أيها الحفل الكريم، تسمحون لي بهذه الشهادة الجامعة، وهي عنوان إيماننا جميعاً بالسيد المسيح: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن المسيح عيسى ابن مريم رسول الله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه. فحرف إيماننا جميعاً بالسيد المسيح واحد: إنه لكلمة الله، ولكن قد نختلف في تأويله. ومهما اختلفنا في تأويل هذا الاسم الكريم، فلا يصح أن نفسر «كلمة الله» بمعزلٍ عن «روح منه». إنهما مترادفان يفسر بعضهما بعضاً. فليس «كلمة الله» مجرد كلام الله، أو أمر الله؛ إنما هو «روح منه» تعالى: فهو ذات قائمة «منه» و«فيه» قبل إلقائه إلى مريم. فنحن على وحدة لنا جذرية في إيماننا نفسه بالسيد المسيح. وهذا محور إيماننا، وحوارنا بالحسنى والحكمة، في «أمةٍ واحدة»)[(١)].

ولم يحفظ أن أحداً في ذلك المقام، في دار الفتوى، موئل علماء المسلمين في ذلك البلد، رد عليه كفره وشركه وتحريفه لشهادة المسلمين بإسقاط شهادة أن محمداً رسول الله بل إنه ليفتخر بشهادته هذه قائلاً: (وقد أعلناها على رؤوس الأشهاد، بحضور أئمة رجال الدين، من المسيحيين والمسلمين، في دار الإفتاء ببيروت، وسط عاصفة مدوِّية من التصفيق)[(٢)].

ولم تستطع هذه التلفيقات والمداهنات أن تبنيَ وحدةً وطنية،

---

(١) مدخل إلى الحوار الإسلامي المسيحي (٤٦٣).
(٢) مدخل إلى الحوار الإسلامي المسيحي (٤٥٧).

فضلاً عن وحدةٍ دينية كما طرق الحداد، وأطرق له مستمعوه، وتحولت عاصفة التصفيق الفاجر بعد سنيَّات معدودة، إلى فرقعة قنابل، ودويّ انفجارات، وإطلاق مدافع، واستبدلت زيارات التهاني بالمناصب الدينية، إلى اغتيالات أثيمة، كان من بين ضحاياها الشيخ حسن خالد ـ رحمه الله وعفا عنه ـ وصدق الله إذ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [آل عمران]، ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [هود].



المبحث الرابع

حقيقة التقريب بين الأديان عند اليهود

إن موقف اليهود من التقارب بين الأديان، بل وبين أهل الأديان، مرتبط ارتباطاً وثيقاً باعتقادهم أنهم شعب الله المختار. إذ يعتقد «اليهود» على اختلاف طوائفهم واتجاهاتهم القديمة والحديثة أنهم عنصر متميز، وشعب مختار يفوق سائر الأعراق والأجناس البشرية. وليس هذا الاعتقاد لوناً من الأدبيات القومية التي تنشؤها الأقليات بغرض تعزيز تماسكها الداخلي، خوفاً من الذوبان في المجتمعات المغايرة، ولكنه عقيدة راسخة تمثل جزءاً من الدين اليهودي. فنصوص التوراة، بل الأسفار الخمسة المنسوبة إلى موسى عليه السلام تتضمن أصول هذا الاعتقاد، مثل:

• ما جاء في سفر التكوين في عهد الله لإبراهيم عليه السلام: (سأجعل عهدي بيني وبينك... فاحفظ عهدي أنت ونسلك من بعدك مدى أجيالهم (١٧/ ٢، ٩))[١].

• وما جاء في سفر الخروج: (وأتخذكم لي شعباً. وأكون لكم إلهاً (٦/ ٧))[٢].

• وفي سفر التثنية: (لأنك شعب مقدس للرب إلهك، وإياك اختار الرب إلهك، لتكون له شعب خاصته من جميع الشعوب التي على وجه الأرض، لا لأنكم أكثر من جميع الشعوب تعلق الرب

---

(١) العهد القديم (٩١).

(٢) العهد القديم (١٦١).

بحبكم واختاركم، فأنتم أقل من جميع الشعوب، بل لمحبة الرب لكم ومحافظته على القسم الذي أقسم به لآبائكم)[(١)] (٦/٧ ـ ٨).

ولا نبادر بدوافع عاطفية أو عصبية برد هذه الخصيصة لذرية إبراهيم، وأصحاب موسى عليه السلام، مجاراة للشعارات العالمية السائدة التي تنكر أصل التفضيل والاصطفاء الإلهي، ولكننا نضع هذه المعاني في موضعها الصحيح كما قررها القرآن الكريم بعدل وحكمة:

فالاصطفاء والاختيار حاصل ولا ريب بمشيئة الله وحكمته: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ۝٧٥﴾ [الحج].

﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٦٨﴾ [القصص]. وقد نص الله على اصطفاء أشخاصٍ وبيوتٍ كريمة متميزة فقال: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٣٣﴾ [آل عمران].

وخلافاً لنص سفر التكوين السابق المتضمن طلاقة العهد لذرية إبراهيم، يثبت القرآن ذلك العهد ويقيده بالقيود الإيمانية، لا الاعتبارات الوراثية العرقية: ﴿۞وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٢٤﴾ [البقرة]. قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: (أي لا ينال الإمامة في الدين، من ظلم نفسه وضرَّها وحط قدرها لمنافاة الظلم لهذا المقام، فإنه مقام آلته الصبر واليقين. ونتيجته أن يكون صاحبه على جانبٍ عظيم من الإيمان، والأعمال الصالحة، والأخلاق الجميلة، والشمائل السديدة، والمحبة التامة، والخشية والإنابة. فأين الظلم وهذا المقام؟

---

(١) العهد القديم (٣٧٠).

ودل مفهوم الآية، أن غير الظالم سينال الإمامة، ولكن مع إتيانه بأسبابها)[١].

وقد أثبت الله في كتابه، وعلى لسان عبده ونبيه موسى عليه السلام هذا التفضيل لبني إسرائيل في مواضع متعددة، في سبيل تذكيرهم بنعمه، وإقامة الحجة عليهم، ومطالبتهم بالوفاء بالعهود والمواثيق المفروضة عليهم، فمن ذلك: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٢﴾ [البقرة: ٤٧، ١٢٢]، ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦﴾ [الجاثية]، ﴿قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٤٠﴾ [الأعراف]، ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٠﴾ [المائدة]. فلا ريب إذاً (أنهم ـ في ذلك الزمان ـ خيرة الخلق، وأكرمهم على الله)[٢].

ولكن القوم تنكبوا الطريق، وبدلوا نعمة الله كفراً، وأحلوا قومهم دار البوار. فبدر منهم الكفر وسوء الأدب مع الله، والتطاول على أنبيائه بالقتل وصنوف الأذى، ونقض العهود والمواثيق، ما أوجب أن يرفع الله به عنهم هذه المزية والفضل، ويبدلهم بها خزي الدنيا وعذاب الآخرة. فصاروا مذمة للخلق يسومونهم سوء العذاب، وغلظت طباعهم، وساءت أخلاقهم، وفرقهم الله في الأرض شذر مذر، ومزقهم شر ممزق[٣].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (١/ ١٣٦).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٢٧٣).
(٣) يعرف ذلك في التاريخ اليهودي باسم «الشتات» أو «الدياسبورا». ويرجع ابتداؤه إلى سنة ٧٠م حين دمر القائد الروماني «تيتوس» بيت المقدس فتفرقوا في أنحاء الأرض. وإثر ثورة فاشلة قام بها اليهود ضد الرومان سنة ١٣٥م أمر الامبراطور الروماني «هدريان» بعدم السماح لأي يهودي في الإقامة في=

كما قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾﴾ [النساء]. ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ﴾ [المائدة: ١٣] ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [آل عمران].

فماذا بقي لشذاذ الآفاق، وقتلة الأنبياء من دعوى الاصطفاء والاختيار، بعد أن أحلَّ الله عليهم غضبه ولعنته، وأوقع بهم المثلات؟

موقف الحركات اليهودية من «الأغيار»:

١ ـ الحركة الأرثذوكسية (المحافظون):

يصر عامة اليهود على أنهم «شعب الله المختار»، ويحاولون تفسير هذه الدعوى بشتى التفسيرات (ولكن أكثر التفسيرات تواتراً... هو أن الاختيار غير مشروط ولا سبب له، فهو من إرادة الله التي لا ينبغي أن يتساءل عنها أي بشر، فهو قد اختار الشعب ووعده بالأرض، وليس لأي إنسان أن يتدخل في هذا.

ويبدو أن الاختيار لا علاقة له بالخير والشر، ولا بالطاعة أو المعصية، فهو لا يَسْقُط عن الشعب اليهودي حتى ولو أتى هذا الشعب بالمعصية، إذ أن حب الله للشعب المختار يغلب على عدالته، ولذلك لن يرفض الله شعبه كلية في أي وقتٍ من الأوقات، مهما بلغت شرور هذا الشعب، بل إن أحد المفسرين يدعي أن الله هو الذي اختار «الشعب اليهودي»، فالاختيار ملزمٌ له وحده[1] وليس ملزماً للشعب.

= فلسطين. انظر: الشخصية الإسرائيلية: د. حسن ظاظا. دار القلم ـ دمشق. الطبعة الأولى (١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م). (٦٨ ـ ٦٩).

(١) تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. وليس هذا التقول البذيء غريباً على أمة=

هذا على عكس المفهوم الإسلامي للاختيار، حيث جعل الاختيار مشروطاً بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر(١)، كما أنه ليس اختياراً عنصرياً أو عرقياً بل هو اختيار أخلاقي، غير مقصور على أمة بالذات بالمعنى العرقي للكلمة)(٢).

والوجه الآخر للمشكلة يكمن في أن الشعور بالفوقية يستلزم بطبيعة الحال نظرة دونية تجاه «الأغيار»، أي من ليسوا من اليهود. وقد طفح التراث اليهودي الذي كتبه الحاخامات عبر القرون بأبشع عبارات الحط والترذيل والاحتقار لمن سوى اليهود، وهم «الأغيار»، وتعني (بالعبرية «غوييم»، وهي صيغة للكلمة العبرية «جوى» والتي تعني «شعب» أو «توم». وقد كانت الكلمة تنطبق في بادئ الأمر على اليهود وغير اليهود، ولكنها بعد ذلك استخدمت للإشارة للأمم غير اليهودية دون سواها... وقد اكتسبت الكلمة فيما بعد إيحاءات بالذم والقدح، وأصبح معناها «الغريب» والأغيار درجات أدناها الأكوام، أو عبدة الأوثان والأصنام، وأعلاها أولئك الذين تركوا عبادة الأوثان)(٣).

على أن نصوص العهد القديم(٤) لا تسعف اليهود في رسم الصورة المنحطة الوضيعة للأغيار، ولا تمدهم بالأحكام المتعسفة الجائرة في التعامل معهم بالدرجة التي يمنحها لهم «التلمود». فقد لعب «التلمود» دوراً خطيراً طوال القرون في تشكيل العقلية اليهودية في

= قالت: «يد الله مغلولة» و«إن الله فقير ونحن أغنياء» و«إن الله استراح يوم السبت» إلخ.

(١) والإيمان بالله كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

(٢) الأعياد والمناسبات والطقوس لدى اليهود. غازي السعدي (٩٩).

(٣) المرجع السابق، (٣٤).

(٤) راجع مبحث الكتب المقدسة عند اليهود في التمهيد.

نظرتها تجاه ذاتها، وفي نظرتها تجاه الآخرين، ونصوصه تنضح بالكراهة والنبذ للآخرين. وقد قام الدكتور «روهلنج» عضو هيئة التدريس بجامعة «براغ» بتشيكلوسوفاكيا بجمع معتقدات اليهود من التلمود في مؤلف باللغة الفرنسية أسماه «اليهودي حسب التلمود»، نقتطف بعض ما ورد فيه حسب ترجمة الدكتور يوسف نصر الله لكشف خبيئة الضمير اليهودي تجاه الآخرين:

• (الإسرائيلي معتبر عند الله أكثر من الملائكة، فإذا ضرب «أمّي» إسرائيلياً فكأنما ضرب العزة الإلهية).

• (إذا ضرب أمّي إسرائيلياً فالأمّي يستحق الموت. . . وأنه لو لم يخلق اليهود لانعدمت البركة من الأرض، ولما خلقت الأمطار والشمس، ولما أمكن باقي المخلوقات أن تعيش. والفرق بين درجة الإنسان والحيوان هو بقدر الفرق الموجود بين اليهود وباقي الشعوب).

• (النطفة المخلوق منها باقي الشعوب الخارجين عن الديانة اليهودية هي نطفة حصان).

• (مسموح غش الأمي، وأخذ ماله بواسطة الربا الفاحش. لكن إذا بعت أو اشتريت من أخيك اليهودي شيئاً فلا تخدعه ولا تغشه).

• (إن الله لا يغفر ذنباً ليهودي يرد للأمي ماله المفقود. وغير جائز رد الأشياء المفقودة من الأجانب).

• (إن لحم الأميين لحم حمير، ونطفتهم نطفة حيوانات غير ناطقة. أما اليهود فإنهم تطهروا على طور سيناء. والأجانب تلازمهم النجاسة لثالث درجة من نسلهم ولذلك أمرنا بإهلاك من كان غير يهودي).

• (إذا وقع أحد الوثنيين في حفرة يلزمك أن تسدها بحجر)[1].

---

(١) انظر الكنز المرصود في قواعد التلمود. (٧٣ ـ ١١٢)، وانظر: المسيح=

بهذه الروح العدائية الإجرامية ربى أحبار السوء من الحاخامات أتباعهم عبر القرون زاعمين قداسة هذه التعاليم، محرفين للكلم عن مواضعه، ﴿يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٧٩].

ومن جراء هذه التعاليم عاش اليهود في تجمعات خاصة مغلقة، منعزلين عن سائر البشر في جميع مناطق العالم التي تشردوا فيها. فالتلمود، كما يقول غازي السعدي: (تعبير عن محاولة اليهودية الحاخامية التلمودية للسيطرة على جماهير اليهود وعزلهم عن بقية الشعوب)[1]. ويصف إسرائيل شاحاك[2] مبلغ هذه السيطرة على الفرد اليهودي: (.. العقلية الدينية كانت تحكم تفاصيل السلوك اليهودي اليومي في كل مناحي الحياة، سواءً كان ذلك بين اليهود أنفسهم أو في ما يتعلق بعلاقتهم مع غير اليهود. ولذلك كان صحيحاً تماماً، أن

= المنتظر وتعاليم التلمود لمحمد علي البار وانظر على سبيل التفصيل والربط بالواقع التشريعي لدولة إسرائيل حسب تعاليم التلمود الفصل الخامس «القوانين ضد غير اليهود» من كتاب إسرائيل شاحاك (١١٩ ـ ١٥٠).

(١) الأعياد والمناسبات والطقوس لدى اليهود. (٤١).

(٢) إسرائيل شاحاك: كاتب يهودي متحرر، ولد في «وارسو» عام ١٩٣٣م، وقضى طفولته في معتقل بيلسين. وهاجر إلى إسرائيل عام ١٩٤٥م، وأمضى صباه في مستوطنة للمتدينين اليهود. وخدم في الجيش، ويتمتع بثقافة موسوعية عميقة بالديانة والتاريخ اليهودي، وقد اطلع على مصادر عبرية محدودة التداول لغير اليهود، رغم أن مهنته «أستاذ كيمياء». ويهاجم شاحاك التقاليد الحاخامية المستمدة من التلمود، وينتقد سياسات إسرائيل العنصرية، مما يجعل كتاباته محل استنكار المؤسستين الدينية والحكومية في إسرائيل.
انظر تقديم «غور فيدال» لكتابه: التاريخ اليهودي. الديانة اليهودية وطأة ثلاثة آلاف سنة (٧). مقدمة حسن خضر الذي ترجم الكتاب بعنوان: الديانة اليهودية وموقفها من غير اليهود (٨). وانظر أيضاً: تحليل «باروخ كيم لينج» للكتاب في مجلة الدراسات الفلسطينية (٣١/ ١٨٥ ـ ١٨٨).

اليهودي لا يستطيع أن يشرب حتى كوب ماء في بيت غير يهودي. وقواعد السلوك الأساسية تجاه غير اليهود كانت مطبقة من اليمن حتى نيويورك)[١].

ونتيجة لهذه المعادلة الصعبة. أعني الرفض الداخلي للآخرين في الضمير اليهودي، واضطرارهم للعيش بين ظهرانيهم، عانى اليهود الذلة والمسكنة والاضطهاد في المجتمعات الأوروبية والروسية، سيما بعد أن اكتشف الأخيرون وعامتهم من النصارى ما تحفل به الكتب الدينية اليهودية من بذاءة تجاه المسيح ﷺ وأتباعه[٢]، فكانوا لقمة سائغة لأعمال الهياج الشعبي في عموم أوروبا وروسيا القيصرية[٣]. وهكذا بقي اليهود بين شقي رحى طاحنين؛ القبضة الحديدية للحاخامات وقوانينهم الصارمة، والمجتمعات والحكومات المتربصة بهم. وهو جزء من العقوبة الإلهية التي تأذن الله بها لبني إسرائيل.

والآن ونحن في سياق معرفة الموقف اليهودي من «الأمميين» عقيدة وتاريخاً، لنصل من بعده إلى معرفة موقفهم من قضية التقريب بين الأديان المطروحة حالياً، نتساءل عن موقفهم من الديانتين «النصرانية» و«الإسلامية» تحديداً. يلخص إسرائيل شاحاك هذا الموقف بما يلي:

(اليهودية تكن كراهية عميقة للمسيحية مقرونةً بجهلها. وهذا الموقف تعزز بالاضطهاد المسيحي لليهود، ولكنه مستقل عنه إلى حدٍ بعيد. فالحقيقة هي أنه يعود إلى الوقت الذي كانت فيه المسيحية ضعيفة ومضطهدة «من قِبَل اليهود في الأقل»...، وقد شارك فيه اليهود الذين لم يضطهدهم المسيحيون... ويقوم هذا الموقف السلبي المتشدد على عنصرين أساسيين:

---

(١) التاريخ اليهودي، الديانة اليهودية. وطأة ثلاثة آلاف سنة. (٢٧).
(٢) انظر المرجع السابق (٢٨ ـ ٤٠). وانظر ما تقدم في التمهيد.
(٣) انظر الكنز المرصود (١٠٣ ـ ١٠٧).

الأول: الكراهية والافتراء البشع ضد المسيح... وفق ما ورد في التلمود، فقد أعدم المسيح تنفيذاً لحكم محكمة دينية سليمة، بتهمة الوثنية وتحريض اليهود على عبادة الأوثان(١)، واحتقار السلطات الحاخامية. وكل المصادر اليهودية الكلاسيكية التي تذكر إعدامه، سعيدة تماماً بتحمل مسؤولية ذلك، وفي القصص التلمودية لا يرد ذكر الرومان أبداً(٢)...

الثاني: ولأسباب لاهوتية تجد جذورها في الجهل، تعتبر المسيحية، في رأي التعليم الديني، ديانة وثنية. وهذا يقوم على أساس التفسير الساذج للعقيدة المسيحية حول الثالوث والتجسد(٣)...

موقف اليهودية تجاه الإسلام، هو على العكس، ألطف نسبياً. ورغم أن النعت التقليدي الذي يطلق على محمد هو «مجنون»، فلم يكن له الوقع السيئ الذي يبدو أنه يوقعه اليوم، وهو في أي حال يشحب حيال الألقاب الشنيعة التي تطلق على المسيح. وبالمثل، فالقرآن ليس محكوماً بالحرق كالعهد الجديد، ولكنه ليس مكرماً كما تكرم الشريعة الإسلامية المخطوطات المسيحية المقدسة(٤). بل يعامل

---

(١) قد أكذبهم الله تعالى بقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧]. وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة] قاتلهم الله أنى يؤفكون.

(٢) يريد الكاتب أن اليهود يتشرفون بمسؤولية قتل المسيح ـ بزعمهم ـ منفردين، دون الإشارة إلى «بيلاطس» الحاكم الروماني الذي وجه بصلبه بإغراء اليهود.

(٣) الواقع أن عقيدة التثليث والتجسد لون من الشرك والوثنية المنافي للتوحيد الخالص تسربت إلى النصارى من وثنية الإغريق والرومان حين اعتنقوا النصرانية. راجع العقائد النصرانية في التمهيد.

(٤) الإسلام يكرم «الإنجيل» من حيث هو كتاب الله، ويجعل الإيمان به وسائر كتب الله أحد أركان الإيمان الستة. أما الأناجيل المزعومة وأعمال الرسل=

ككتاب عادي. ومعظم المراجع الدينية توافق على أن الإسلام ليس وثنياً... ولذلك تأمر الهالاخاه(١) بوجوب عدم معاملة المسلمين بطريقة أسوأ من معاملة غير اليهود «العاديين»، ولكن ليس بأفضل منها كذلك)(٢).

تلك وجهة نظر كاتب يهودي، ذي ثقافة موسوعية، لا ينتمي إلى المؤسسة الدينية الحاخامية، بل إنها تناصبه العداء. أما الموقف الحقيقي لليهود من الإسلام فقد سبق بسطه في التمهيد لهذا البحث بما أغنى عن إعادته هنا(٣).

ولا نتفق مع شاحاك في تقديره لموقف اليهودية من الإسلام بأنه «ألطف» نسبياً من موقفها من المسيحية، إذ أن مجرد الفارق الكمي في حجم السباب والتهم البذيئة التي تسك المسامع، وتقذي العيون في الكتب اليهودية بين المسيح ومحمد ﷺ، مرده إلى أنها دونت غالباً قبل ظهور الإسلام. كما أن اليهود نعموا بالإقامة المطمئنة بين ظهراني المسلمين في المشرق الإسلامي والأندلس، بوصفهم أهل ذمة، في حين قاسوا الأمرين، وعانوا الاضطهاد في المجتمعات النصرانية في: أوروبا وروسيا، فلا عجب أن تحفل الأدبيات اليهودية بهذا اللون من

= ورسائل بولس وغيره التي يضمها ما يسمونه «العهد الجديد» فقد دخلها التحريف والكفر والشرك، فليست محل تكريم، بل محل ذم.

(١) الهالاخاه «Halakhah» كلمة من أصل آرامي، معناها الحرفي هو «الطريق القويم» ويعرفها المؤلف: (النظام القانوني لليهودية الكلاسيكية، كما مارسه كل اليهود تقريباً منذ القرن التاسع وحتى نهاية القرن الثامن عشر، وكما يحافظ عليه حتى اليوم بشكل «اليهودية الأرثوذكسية») (١١٩) فهي تشير إلى (الجانب التشريعي لليهودية) المستمد من التلمود. انظر أيضاً الأعياد والمناسبات والطقوس لدى اليهود. (٩١).

(٢) التاريخ اليهودي، الديانة اليهودية، وطأة ثلاثة آلاف سنة. (١٤٨ ـ ١٥٠).

(٣) راجع مبحث «موقف أهل الكتاب من الإسلام» في التمهيد.

«التنفيس». والحقيقة القرآنية الثابتة أن عاطفة اليهود والنصارى تجاه بعضهم، بعضاً مقدمة عند المشاحة، على عاطفة أي منهم تجاه المسلمين. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة].

وأكبر شاهد ماثل على ذلك في العصر الحديث، قيام دولة إسرائيل بإعدادٍ وإمدادٍ من الأمم النصرانية. ولو كانوا «ألطف» ـ كما زعم شاحاك ـ ما اتخذوهم وغيرهم من أمم الكفر الوثنية أولياء، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ [المائدة]. ومما يدل على أن موقف اليهودية من الإسلام «أغلظ» من موقفها من المسيحية، أن الاتفاق بين الدينين في أصل الإيمان بالله الواحد ـ خلافاً لتثليث النصارى ـ، والاتفاق في كثير من الجوانب التشريعية[1]، لم يحملهم على قبول الإسلام والفرح به، بل على العكس كما قال الله: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [المائدة: ٨٢].

٢ ـ الحركة اليهودية الإصلاحية:

والسؤال الآن: كيف تحرر اليهود في القرنين الأخيرين (١٩، ٢٠م) من ربقة الانعزال الاجتماعي والثقافي، وانخرطوا في المجتمع العالمي؟ وهل كان ذلك نابعاً عن تغيير عقدي في نظرتهم لأنفسهم وللآخرين؟

---

(١) تبدي الكاتبة اليهودية هافا لازاروس عجبها من (التشابه المذهل بين هذين الدينين الموحدين، واللذين يعبران عن ذاتيهما عن طريق نصوص وشرع مكتوب وقانون شفوي «هالاخا والشريعة») وتسوق أمثلة متعددة لأوجه الشبه في مقالتها: الفكر الإسلامي والفكر اليهودي. مجلة الاجتهاد (٢٨/١٧٩ ـ ٢٠٩).

يرى شاحاك أن ذلك تم عبر مسارين متوازيين: أحدهما نشوء فكرة الدولة المدنية الحديثة وظهورها في أوروبا على أنقاض إمبراطوريات العصور الوسطى، والثاني تدمير السلطة القانونية للجاليات اليهودية، التي يمارسها الحاخامات بصرامة على أتباعهم، ثم يتابع قائلاً: (ما أن برزت الدولة الحديثة إلى الوجود، حتى فقدت الجالية اليهودية سلطة معاقبة أو تخويف اليهودي الفرد. وهكذا انهارت روابط مجتمع محكم الانغلاق، أحد أكثر المجتمعات شمولية في التاريخ البشري. فعل التحرير جاء في الغالب من الخارج، ورغم وجود بعض اليهود الذين ساعدوا عليه من الداخل، فقد كانوا في البداية قلائل جداً...

ولكن النتائج الاجتماعية لمسار التحرر هذا تمثلت في أن اليهودي، ولأول مرة منذ حوالي ٢٠٠م، أصبح حراً يفعل ما يشاء ضمن حدود القانون المدني للدولة، من دون أن يتحول إلى ديانة أخرى ثمناً لهذا التحرر. حرية التعليم وقراءة الكتب باللغات الحديثة، وتأليف وقراءة الكتب العبرية غير المجازة من الحاخامات، «وكان هذا شرطاً لأي كتاب بالعبرية أو اليديش»، حرية أكل الطعام غير المعد حسب طقوس الشريعة اليهودية «Kosher non»، حرية تجاهل المحرمات السخيفة العديدة المتعلق بالحياة الجنسية، وحتى حرية التفكير ـ لأن الأفكار الممنوعة من الآثام الخطيرة ـ كل ذلك منحته أنظمة الحكم المطلق في أوروبا رغم قساوتها ولاساميتها(١)، لليهود في أوروبا)(٢).

(١) اللاسامية: ترجمة غير دقيقة للكلمة الأوروبية Antisemitisme التي تعني حرفياً: المذهب المعادي للسامية. أما من حيث المقصود الفعلي منها فهو «معاداة اليهود» أو «نبذ اليهود من المجتمع» أو مناهضة اليهود»، لأنهم الممثلون الوحيدون للجنس السامي في أوروبا. انظر: الشخصية الإسرائيلية. د. حسن ظاظا (٧٧ ـ ٨٣).

(٢) التاريخ اليهودي. الديانة اليهودية. وطأة ثلاثة آلاف سنة. ص٢٧ ـ ٣٠.

والقلائل الذين ساعدوا على «التحرر» من داخل الأمة اليهودية هم رواد «الحركة اليهودية الإصلاحية»، الذين تمردوا على «اليهودية الكلاسيكية المحافظة» التي ظلت متحكمة في حياة اليهود حتى القرن التاسع عشر تقريباً. و(يمكن اعتبار مذهب اليهودية الإصلاحية ثمرة مباشرة لحركة الاستنارة اليهودية، ولفكر «مندلسون» على وجه الخصوص. فقد حاول مؤسسو هذا المذهب أن يصلوا إلى صيغة معاصرة لليهودية تلائم العصر، وتتخلص من آثار المطلقات التاريخية التي كانت تدور في فلكها هذه الديانة... وقد جاء في قرارات مؤتمر بتسبرج الإصلاحي ١٨٨٥م: أن الكتاب المقدس ليس من صنع الله، بل هو وثيقة من صنع الإنسان. أي أنه نتاج وعي الإنسان التاريخي، وليس مطلقاً خالصاً، لا علاقة له بالتاريخ، وينوء الإنسان بحمله... وعلى المستوى الفكري أعاد الإصلاحيون تفسير اليهودية على أساس عقلي، وأعادوا دراسة «العهد القديم» على أسس علمية، ونادوا بأن الدين اليهودي أو العقيدة الموسوية، وهي التسمية الأثيرة لديهم، تستند إلى قيم أخلاقية تشابه قيم الأديان الأخرى، كما ركز الإصلاحيون على الجوهر الأخلاقي للتلمود، مهملين التحريمات المختلفة التي ينص عليها القانون اليهودي، وخاصة القوانين الخاصة بالطعام. وقد عدل الإصلاحيون بعض الأفكار الرئيسية في الديانة اليهودية، فنادى «جايجر» بحذف جميع الإشارات إلى خصوصية «الشعب اليهودي» من كل طقوس الدين وعقيدته وأخلاقه وأدبه. أي أنه طالب بالتخلي عن فكرة الشعب المختار كلية. وقد حاول بعض الإصلاحيين الإبقاء على هذه الفكرة مع إعطائها دلالة أخلاقية عالمية جديدة، فجعلوا الشعب شعباً مختاراً يحمل رسالته الأخلاقية لينشرها في العالم، ويمكن لمن يشاء أن يمنى بها. كما يؤكد الإصلاحيون أيضاً أن اليهود إنما شردوا ليحققوا رسالتهم بين البشر، وأن النفي هو وسيلة لتقريبهم من الآخرين وليس لعزلهم عنهم.

وأضفى الإصلاحيون على فكرة العودة والمسيح طابعاً إنسانياً. إذ رفض ممثلوهم في «بتسبرج» فكرة العودة الشخصية للمسيح المخلص، وأحلوا محلها فكرة العصر الماسيحاني[١]، أي عصر يحل فيه السلام والكمال. هذا العصر سيأتي من خلال التقدم العلمي والحضاري، سيؤدي إلى خلاص كل الجنس البشري، وإلى انتشار العمران والإصلاح... ويصل البرنامج الإصلاحي بتقديمه وتاريخيته وإنسانيته الذروة في المبدأ الخامس الذي أعلنه مؤتمر بتسبرج: نحن في العصر الحديث، عصر حضارة العقل والقلب الجامعة، اقتراباً لتحقيق أمل إسرائيل «الماسيحاني» العظيم، لأجل إقامة مملكة الحقيقة والعدالة والسلام بين جميع البشر. نحن لا نعتبر أنفسنا أمة بعد اليوم، بل جماعة دينية، ولذا فنحن لا نتوقع عودة إلى فلسطين، أو عبادة قربانية في ظل أبناء هارون، ولا استرجاعاً لأي من القوانين المتعلقة بالدولة اليهودية)[٢].

واضحٌ أن الاتجاه الإصلاحي التحرري يعني التخلي عن الثوابت العقدية، والسمات التاريخية، للشخصية اليهودية، بدءاً من تحطيم أسطورة «شعب الله المختار» بالمعنى التلمودي، وانتهاءً بتأويل «باطني»

---

(١) المسيحانية: Messianisme، أصلٌ من أصول العقيدة اليهودية، تقوم على فكرة بعثة مسيح مخلص من اليهود يؤتى الملك والبركة والمعجزات، يكون بمبعثه ارتفاع غضب الرب على اليهود، وتجديد العهد معهم، وسيادتهم على جميع الشعوب، وأن عصره الماسيحاني عصر اضمحلال العداوات والبغضاء بين بني إسرائيل، وبين الذئب والحمل، والنمر والجدي، والإنسان والثعبان... إلخ. انظر: الفكر الديني اليهودي. أطواره ومذاهبه: د. حسن ظاظا. دار القلم ـ دمشق، دار العلوم والثقافة ـ بيروت. الطبعة الثانية (١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م). (٩٥ ـ ١٢٨). والمسيح المنتظر وتعاليم اليهود. د. محمد علي البار.

(٢) الأعياد والمناسبات والطقوس لدى اليهود (١١٢ ـ ١١٦).

لعقيدة المسيح المخلص، التي داعبت مخيلة اليهود طوال قرون الشتات، وما يستتبع ذلك من مشاريع «الدولة اليهودية»، وحلم العودة إلى أرض الميعاد «فلسطين».

٣ ـ الحركة الصهيونية العنصرية:

وأياً كانت مبررات ظهور هذا الاتجاه، فقد خفت صوته أمام النبرة العالية لحركة قومية دينية عنصرية مضادة، عرفت باسم الحركة الصهيونية، سعت سعياً حثيثاً على المستويين السياسي والشعبي لإنشاء وطن قومي لليهود فوق أرض فلسطين، وعقدت أول مؤتمرٍ لها في «بال» بسويسرا عام ١٨٩٧م. وأمام النجاحات التي حققتها «الحركة الصهيونية» المدعومة من الأصولية اليهودية من جهة، والدول الاستعمارية الغربية من جهة أخرى، قلص ظل اليهودية الإصلاحية بأفكارها الليبرالية[١] الطارئة على الحس اليهودي، واضطرت إلى إجراء تعديلات توفيقية بين الاتجاهين القومي والإنساني[٢].

قطفت الحركة الصهيونية الثمرة بإعلان قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨م. وكان أول وصف لها، كما تعرف نفسها، أنها «دولة يهودية». يقول شاحاك: (كان مبدأ كون إسرائيل «دولة يهودية» ذا أهمية فائقة لدى السياسيين الإسرائيليين منذ قيام الدولة، وقد غرس في أذهان السكان اليهود بكل الوسائل التي يمكن تصورها. وعندما ظهرت، أوائل الثمانينيات، أقلية يهودية تعارض هذا المفهوم، صدر قانون دستوري «قانون له الأولوية على أحكام القوانين الأخرى، ولا يمكن

---

(١) الليبرالية: Liberalism و«ليبرالي» Liberal. متحرر من التزام السنن والأشكال التقليدية إلخ. وتستعمل في الفكر والسياسة والاقتصاد والدين النصراني. «ليبرالية بروتستانتية». انظر: المورد (٥٢٥).

(٢) انظر المرجع السابق، (١١٥ ـ ١١٦).

إلغاؤه إلا وفق أصول خاصة» عام ١٩٨٥م، أقرته أغلبية كبيرة في الكنيست، وبموجب هذا القانون لا يجوز لأي حزب يعارض برنامجه مبدأ «الدولة اليهودية»، أو يعلن عن عزمه على تغيير هذا المبدأ بالوسائل الديموقراطية، أن يشارك في انتخابات الكنيست)[(١)].

ويمضي الكاتب اليهودي بعرض الممارسات القانونية للدولة اليهودية ضد غير اليهود[(٢)]، كقانون «حق المساواة أمام القانون»، وقانون الهجرة ومنح الجنسية... إلخ[(٣)].

والأخطر من ذلك ونحن نرصد موقف اليهود من «الأغيار» وبالتالي من قضايا «التقريب» و«الحوار»، هو السماح للحركات الدينية المتطرفة بالنمو والتنفيس عن أحقادها التلمودية في حدودٍ قومية آمنة، بعد أن عانت مرارة «الحرمان» من ممارسة هذه المتعة الخبيثة طوال قرون الشتات.

٤ ـ الحركة الأصولية الدينية:

ومن أبرز هذه الحركات الأصولية اليهودية حركة: «غوش إيمونيم Gush Emunim»، أي جماعة المؤمنين. فبالرغم من انتشار جماعات

---

(١) التاريخ اليهودي، والديانة اليهودية، وطأة ثلاثة آلاف سنة (١١).

(٢) (وفق القانون الإسرائيلي، يعتبر الشخص يهودياً إذا كانت أمه يهودية أو جدته لأمه، أو جدة أمه يهودية، أو إذا تحول الشخص إلى اليهودية بأسلوبٍ ترضى عنه السلطات الإسرائيلية، وبشرط أن لا يكون هذا الشخص قد تحول عن اليهودية إلى أية ديانة أخرى... ويعترف التلمود والقانون الديني اللاحق للتلمود بتحول غير اليهودي إلى اليهودية... شريطة أن يتم التحول على يد رجال دين مفوضين بذلك وبالأسلوب الصحيح) المرجع السابق، (١٣، ١٤). وانظر أيضاً: الأعياد والمناسبات والطقوس لدى اليهود (١٠١ ـ ١٠٩).

(٣) انظر المرجع السابق، (١٤ ـ ١٦)، (١٣٩ ـ ١٤٨). وانظر أيضاً: أبحاث في الفكر اليهودي: د. حسن ظاظا. دار القلم ـ دمشق، دارة العلوم والثقافة ـ بيروت. الطبعة الأولى (١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م). (١١٥ ـ ١١٦).

«الحريديم»[١] في المجتمع الإسرائيلي وعنايتهم بإقامة الصلوات والطقوس الدينية، وتمسكهم الشديد بتعاليم «الهالاخا»، إلا أنهم لا يمثلون قوة سياسية منظمة ذات أهداف استراتيجية، ولا ينخرطون في العمل السياسي الديموقراطي.

لكن الحركات الدينية الأصولية[٢] ـ وعلى رأسها غوش إيمونيم، تفارق سائر المتدينين بتوظيف الجوانب العقدية، التوراتية والتلمودية، لصالح مشروعها السياسي. وفي الدراسة الجادة التي كتبها إيان لوستك[٣] بعنوان: «الأصولية اليهودية في إسرائيل من أجل الأرض والرب»[٤]، يعتبر الكاتب «غوش إيمونيم» نواة الأصولية اليهودية المنظمة، ويعرفها قائلاً: (.. إن التعبير الأوضح والأقوى عن الميول الأصولية في المجتمع الإسرائيلي يتركز في «غوش إيمونيم». وهي منظمة تنطوي على خليطٍ من العناصر وتضم ١٠,٠٠٠ ـ ٢٠,٠٠٠ داعية. أما شعارها فهو: «أرض إسرائيل لشعب إسرائيل بحسب توراة إسرائيل». وتعتبر هذه المنظمة، بلا شك، أنجح حركة غير برلمانية نشأت في إسرائيل منذ تأسيس الدولة سنة ١٩٤٨م. يعزى قدر كبير من نجاحها إلى علاقة التكافل الحيوي التي أقامتها مع «الليكود»، أكبر أحزاب اليمين السياسية في إسرائيل...

---

(١) الحريديم: هم غلاة اليهود، وهي كلمة عبرية تعني «الأتقياء».
(٢) يعتبر إيان لوستك الأصولية (نمطاً من العمل السياسي يتم بعلاقة وثيقة جداً بين عقائد المرء الأساسية وبين السلوك السياسي المصمم على تحقيق تغير جذري في المجتمع). الأصولية في إسرائيل (١٠).
(٣) باحث أمريكي متخصص بشؤون إسرائيل والشرق الأوسط.
(٤) صدر هذا الكتاب سنة ١٩٨٨م باللغة الإنجليزية بعنوان:
Jewish Fundamentalism in Israel For the Land and the Lord
وترجمه إلى العربية حسني زينة سنة ١٩٩١م عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

ويجب ألا يستهان أيضاً بأهمية التفاني الذي أظهره أعضاء الحركة الأصولية عند تقويم عوامل نجاحها. فرجال غوش إيمونيم ونساؤها قد آلوا على أنفسهم أن ينفقوا حياتهم من أجل ضمان ضم الضفة الغربية وقطاع غزة المحتلين إلى دولة إسرائيل بصورة نهائية... وهدفهم العملاني، استعجال الوتيرة التي يتمم الشعب اليهودي فيها قدره. وهذا يشتمل، في نظر معظم هؤلاء الدعاة، على بسط السيادة اليهودية على أرض إسرائيل الكاملة، وفق ما جاء وصفها في التوراة، والاستعاضة من أشكال الحكم الليبرالية الديموقراطية الغربية النمط، بأشكال «يهودية أصيلة» وإعادة بناء الهيكل في القدس تنفيذاً للخلاص المسيحاني الذي قضاه الله، وإن جاء هذا التنفيذ بعد تأخير طويل. وهم يشددون على أن العمل السياسي هو الوسيلة لتحقيق التغيير السريع في المجتمع الإسرائيلي بحسب مقتضيات يهودية أصيلة إلهية المنشأ، وغير قابلةٍ للمساومة)[١]. ويرجع تأسيس هذه الحركة إلى (مدرسة دينية يترأسها صهيوني متحمس، وهي مدرسة «مركاز هراب» في القدس، وهي المدرسة التي تخرج منها زعماء حركة غوش إيمونيم... وكانت المدرسة برئاسة الحاخام «تسفي يهودا كوك» النجل الأوحد للحاخام الرئيسي السابق[٢]... إن أوائل أصحاب «القبعات الدينية المنسوجة» من خريجي مدارس «بني عكيبا»[٣] الذين أنهوا خدمتهم العسكرية في

---

(١) الأصولية اليهودية في إسرائيل من أجل الرب والأرض: إيان لوستك. ترجمة: حسني زينة. مؤسسة الدراسات الفلسطينية ـ بيروت. الطبعة الأولى ١٩٩١م. (١٤ ـ ١٥).

(٢) إبراهام يتسحاق كوك ـ (أول كبير حاخامي فلسطين «١٩٢١ ـ ١٩٣٥» أول من قدم نظريات الصهيونية الدينية التي تشكل الأساس الأيديولوجي للأصولية اليهودية العصرية) الأصولية اليهودية (٢٠٥).

(٣) بني عكيفا أو عكيبا: حركة شبابية تابعة للحزب الديني القومي، اعتنت ببناء المدارس الدينية.

منتصف سنوات الخمسين، قد بحثوا عن مدرسة دينية ليتمكنوا فيها من مواصلة دراستهم العليا، وكانت مدرسة «مركاز هراب» هي المكان الذي يناسب خلفيتهم الثقافية والسياسية... لقد نشأت علاقة عميقة وفريدة من نوعها بين الحاخام تسفي يهودا كوك والشبيبة الدينية الوطنية)[١].

إن هذا الحاخام يعتبر بحق (زعيم دعاة غوش إيمونيم، ومرشدهم الروحي، ذو الجاذبية الشخصية؛ مدير مركاز هاراب حتى وفاته في سنة ١٩٨٢)[٢].

وقد غرس في نفوس أتباعه فكرة التعصب الأعمى لأرض إسرائيل الكاملة.

ومع احتدام الجدل حول مصير الأراضي العربية المحتلة إثر حرب الأيام الستة في حزيران ١٩٦٧ «قطاع غزة، والضفة الغربية وهضبة الجولان»، أطلق الحاخام تسفي يهودا كوك بياناً صدره بالعبارة التالية «لن تقيموا»، جاء فيه: (إن هذه البلاد لنا، ولا توجد هنا أية مناطق عربية وأراضٍ عربية، بل أراضي إسرائيل تراث الآباء الخالد، وهي في جميع حدودها الواردة في التوراة تابعة للحكم الإسرائيلي)[٣].

وقد قام الكاتب الأميركي «إيان لوستك»، في دراسته المشار إليها آنفاً، بتحليل «النظرة الأصولية اليهودية إلى العالم» من خلال تأمل أفكار الحاخام تسفي يهودا كوك واثنين من كبار تلامذته في قيادة «غوش

(١) غوش أمونيم: الوجه الحقيقي للصهيونية: تأليف داني روبنشتاين. ترجمة غازي السعدي دار الجليل. ط١٩٨٣ (١٣).

(٢) الأصولية اليهودية (٢٠٥).

(٣) انظر: «غوش أمونيم، الوجه الحقيقي للصهيونية» (١٨).

إيمونيم» وهما: الحاخام مناحم كاشر(١)، وهارولد فيش(٢)، وخلص إلى أن الفكر الأصولي اليهودي يقوم على عقائد سبع أساسية، تدور حول المسائل التالية:

أولاً: خروج الشعب اليهودي عن المألوف: خلافاً للحركة الصهيونية التي رأت أن حل المشكلة اليهودية، يستند إلى القناعة الجريئة بأن العداء لليهود يمكن أن يزال نهائياً إذا ما منح اليهود فرصةً لأن يكونوا شعباً سوياً»... عبر «فيش» بعبارات فريدة في صراحتها عن قلب غوش إيمونيم هذه المسلمات الصهيونية الأساسية رأساً على عقب. فيقول: إن فكرة (أن الأمة اليهودية أمة سوية، وأنه ينبغي لما يسمى بالمجتمع الدولي أن يعاملها من حيث هي كذلك... هي الوهم الأصلي الذي توهمته الصهيونية العلمانية).

فاليهود ليسوا شعباً سوياً، ولا يمكن أن يكونوا كذلك، بل إنهم في الحقيقة شعبٌ غير سوي بصورة لا رجعة عنها. وإن فرادة اليهود الأبدية، ناتجة عن العهد الذي أقامه الله معهم في جبل سيناء...

فالأصوليون يتبنون فكرة أن اليهود «عم سغولا» شعب مختار، أو شعب عزيز... ويترتب على كونهم مختارين أن المقتضيات المتعالية التي يجب على اليهود الاستجابة لها تلغي القوانين الخلقية التي تقيد سلوك الأمم السوية... يقول شلومو أفينر(٣): (لقد كنا على خطأ، من

---

(١) حاخام، عالم في الدين. مؤلف The Great Period «الحقبة العظمى»، معروف في دوائر الأصوليين بتحليله للحقبة المعاصرة، واعتبارها حقبة الخلاص. الأصولية اليهودية (٢٠٥).

(٢) مؤلف، رئيس جامعة بار ـ إيلان سابقاً ـ الجامعة الدينية الوحيدة في إسرائيل الأصولية اليهودية (٢٠٥).

(٣) حاخام مستعمرة بيت إيل في جوار رام الله؛ محرر دورية «أتوري كاهانيم» التي تصدرها يشيفا تاج الكهنة في مدينة القدس القديمة. الأصولية اليهودية (٢٠٣).

وجهة نظر الأخلاق الإنسانية، في «انتزاعنا الأرض» من الكنعانيين[١]. إن هناك سراً واحداً فقط. لقد أمرتنا مشيئة الله أن نكون شعب أرض إسرائيل). هكذا، إذاً ترفض الأصولية اليهودية نهائياً الصورة التقليدية التي روجتها الصهيونية عن اليهود كشعب سوي يتقيد ويكافأ بحسب القوانين، ومبادئ تقرير المصير القومي عينها المطبقة على الأمم الأخرى.

ثانياً: معنى المقاومة العربية لإسرائيل: إن صورة الفلسطينيين من حيث هم هالكون في مقاومتهم الانتحارية للحكم اليهودي في أرض إسرائيل، تقابل تصنيفاً أعمق جذوراً لهم. فحاخامو غوش إيمونيم ومنظروها ينظرون إلى المواطنين العرب عادة باعتبارهم «كنعانيين» أو «بني إسماعيل»، ويسترجعون الشروط التي عرضها «يشوع بن نون»[٢] على الكنعانيين قبل غزوه بلادهم، أو الأوضاع التي دعت إبراهيم إلى طرد إسماعيل[٣]، عندما يفكرون في تقرير السياسة الملائمة للأوضاع الحالية. فمن ذلك أن الحاخام تسفي يهودا استشهد بابن ميمون[٤] على

---

(١) يعبر اليهود عن الفلسطينيين بـ«الكنعانيين» أو «أولاد إسماعيل».

(٢) أول أنبياء بني إسرائيل بعد موسى ﷺ. تولى قيادة بني إسرائيل، وحصلت على يديه الفتوحات والملاحم القتالية. ويعرف في المصادر العربية باسم «يوشع»، انظر أخباره في العهد القديم، سفر يشوع (٤١٧ ـ ٤٦٢).

(٣) يزعم اليهود في العهد القديم أن إبراهيم طرد هاجر وابنها بناءً على رغبة سارة. والنص القرآني يدل على عكس ذلك، وأن إبراهيم ﷺ استجابة لأمر الله أسكن هذا الفرع من ذريته مكة تكريماً له: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم].

(٤) موسى بن ميمون: القرطبي (٥٢٩ ـ ٦٠١هـ ـ ١١٣٥ ـ ١٢٠٤م) طبيب، فيلسوف يهودي رحل إلى مصر إبان حكم الأيوبيين، وكان رئيساً لليهود، وطبيباً لصلاح الدين. ويعد من عظماء علماء اليهود. وله مؤلفات كثيرة في الملة اليهودية. انظر: الأعلام للزركلي (٣٢٩/٧ ـ ٣٣٠).

أن الكنعانيين خيروا بين ثلاثة: الفرار، أو القبول بالحكم اليهودي، أو القتال. وهذه هي الخيارات التي يقترح أن يختار منها اليهود في اتخاذ موقفهم من العرب الفلسطينيين. لقد أدى اختيار معظم الكنعانيين القتال طبعاً، إلى القضاء عليهم. والمصير نفسه ينتظر السكان غير اليهود الذين يختارون الوقوف في وجه إقامة السيادة اليهودية على الأرض كلها...

ثالثاً: عزلة إسرائيل الدولية كدليل على اختصاص الشعب اليهودي بكونه مختاراً:

إن الوصف التوراتي لعلاقة الشعب اليهودي بشعوب الأمم، والذي يستشهد أنصار غوش إيمونيم به في معظم الأحيان، هو ذاك الوارد في العهد القديم في سفر العدد «الإصحاح ٢٣: ٩»: «هو ذا شعب يسكن وحده، وبين الشعوب لا يحسب». وهذا يعبر عن اعتقاد راسخ بأن التمييز، الوحيد تقريباً، الذي يستحق الذكر بين الجماعات البشرية هو ذاك القائم بين اليهود والأمم. ولذلك يؤول الأصوليون ما ترمي جماعة أمم الأرض به دولة إسرائيل من ازدراء متهور، بأنه بيّنة إضافية على مصير الشعب اليهودي الإلهي الخاص ـ وهذه في مذهب فيش «علامة لاهوتية على انتقائه»... إن مفهوم التضاد الجوهري بين اليهود والأمم يحتل مركز الصدارة في الفكر الأصولي. يقول أفينر: (لقد خبرنا معارضة الغوييم لدولة إسرائيل حتى من قبل قيامها. والعداء الذي تبديه شعوب الأرض للشعب اليهودي لم يزل موجوداً على مدى التاريخ. ومثل هذا العداء لم يبد إزاء أي شعبٍ آخر... وأصل هذا النوع من العداء هو، في التحليل الأخير، أن قيمنا الخلقية تتعارض والأساس الذي تبني شعوب الأرض حيواتها عليه. فنحن في جوهرنا ننفي مُثُلَها. ولئن كنا على حق فهذا يعني أن أسس حيواتها قد قوضت. نحن لا نية لنا في إيذائها، إلا أننا ننفي طرائق حيواتها، وهذا ما يحملها على معاداتنا)...

بينما كانت الصهيونية الكلاسيكية ترى أن معاداة السامية ستتلاشى شيئاً فشيئاً مع إنشاء دولة سوية لأمة يهودية سوية، تجد أن الأصولية اليهودية تتوقع أن يستمر اضطهاد اليهود والدولة اليهودية استمراراً لا يقبله العقل، حتى بلوغ عملية الخلاص ذروتها.

رابعاً: استحالة التوصل إلى السلام بالمفاوضات: ... ثمة نوعان من السلام ممكنان في هذا المنظور: الأول: سلامٌ عابر يستند إلى إدراك العرب والعالم قوة إسرائيل. وهذا النوع من السلام لا يستطيع أن يدوم إلى الأبد لأنه لا يعني أن العرب قد تخلوا عن تدمير إسرائيل، إلا أنه يمكن أن يصان من دون مفاوضات تنطوي على تنازلات إقليمية أو سياسية... أما النوع الثاني من السلام، «السلام الحقيقي»، فهو الذي سيصاحب إتمام إسرائيل وراثة أرضها بالكامل، ويسبق مجيء المسيح ليسود شعبُ إسرائيل المجتمعُ شملُه. ومن جملة عملية الخلاص هذه أن الأمم كلها «ستعترف، اعترافاً عجائبياً بالحقيقة التي تقع على إسرائيل مهمة نشرها في العالم، رسالة العدل والسلام التي يكون الجبل المقدس[1] رمزها الظاهر» كما يقول فيش...

خامساً: الأهمية الأساسية لأرض إسرائيل: إن شعار غوش إيمونيم شبه الرسمي هو: «أرض إسرائيل لشعب إسرائيل بحسب توراة إسرائيل»... فالعهد بين الله واليهود، فيما يرى فيش هو عهد بين أطرافٍ ثلاثة: «والعهد قائم على علاقات ثلاثية: الله والأرض والشعب. فالأرض مقدسة لأن الله اختارها مقاماً له، واختار أن نقيم معه عليها»... لذلك يعلق منتقدو غوش إيمونيم من اليهود الأرثوذكس[2] غالباً على نزوع الأصوليين إلى «الوثنية» في اعتبارهم

---

(١) الجبل المقدس أو جبل الهيكل، يريدون به موقع المسجد الأقصى ومسجد الصخرة.

(٢) اليهودية الأرثوذكسية: (من أهم المذاهب اليهودية في العصر الحديث، وهي=

إرتس يسرائيل «أرض إسرائيل» القيمة الأسمى في الحياة اليهودية.

سادساً: التاريخ الحاضر من حيث هو تحقيق لعملية الخلاص: التاريخ عند الأصوليين اليهود، هو وسيلة اتصال الله بشعبه. والحوادث والاتجاهات السياسية تنطوي على رسائل تمدهم بالتعليمات والتأنيبات والثوابات...

وتتجلى هذه المقاربة العامة للعلاقات التي تربط التاريخ والعمل السياسي بالفهم المتميز المتاح للنخبة الأصولية تجلياً واضحاً في المغازي التي يستبينونها من ثلاثة حوادث أساسية: المجزرة الجماعية، وحرب الأيام الستة، وحرب يوم الغفران.

يصف هارولد فيش المجزرة التي لقي ستة ملايين يهودي فيها حتفهم، على أيدي النظام النازي في ألمانيا، في إبان الحرب العالمية الثانية[1] بأنها تأديب من الله ـ «أمر كتب بالدم على تراب أوروبا»، وقد

= تعد رد فعل للتيارات الاستنارية والإصلاحية بين اليهود. وتزعم هذه الحركة الحاخام «سمسون هيرش» الذي انتقد اليهودية الإصلاحية لأنها تأخذ نقطة ارتكازها خارج اليهودية في مبادئ مستعارة من غير اليهود تطبقها على الإنسان وحريته... وتدافع اليهودية الأرثوذكسية عن كل المقولات اليهودية التقليدية والأساطير القديمة بكل بساطتها ومجافاتها لحقائق التاريخ والواقع...
وتسيطر اليهودية الأرثوذكسية على الحياة الدينية في إسرائيل؛ فهي تسيطر على دار الحاخامية الرئيسية، وعلى وزارة الشؤون الدينية، وأيضاً على الأحزاب الدينية).
نقلاً عن: الأعياد والمناسبات والطقوس لدى اليهود. (١١١ ـ ١١٢).

(١) تعرف هذه الحادثة باسم «الهولوكوست» وتعني الإبادة الجماعية أي ـ حسب قاموس لاروس: «الإبادة المنظمة لمجموعة عرقية بالقضاء على أفرادها». وقد دأب اليهود على النياح والتباكي على ضحايا هذه الحادثة، واستدرار عطف الرأي العام العالمي تجاه اليهود في المحافل الدولية. ويعتبر الكاتب الفرنسي=

علم الله بها شعبه أن التحرر الذي علّق كثيرون من اليهود عليه آمالهم بمستقبل من المساواة في أحضان أوروبا الديموقراطية الليبرالية، لا يمكن أن ينيح لهم مهرباً من أعباء العهد المأخوذ عليهم... ولهذا ينظر إلى المجزرة على أنها طريقة الله لإكراه شعبه المختار على العودة إلى أرض الميعاد...

ويدمج كاشر التفسيرات المتطورة للمصادر التوراتية والتلمودية في التأويلات المفصّلة لحروب إسرائيل، سعياً لتحديد المرحلة التي بلغتها عملية الخلاص تحديداً دقيقاً. فهو يميز بين المسيح ابن يوسف الذي سوف يستوطن الأرض ويحقق الانتصارات، ثم يخفق في سعيه للخلاص، إذ يهزم بحرب يأجوج ومأجوج، وبين المسيح بن داود الذي سوف يقود من بعده إسرائيل والعالم، وبصورة معجزة، إلى الخلاص الكامل(١). لذلك كان كاشر، ومثله معظم الأصوليين، ينظرون إلى الحروب العربية ـ الإسرائيلية جزءاً من فترة المسيح ابن يوسف التي «تتبرقع المعجزات فيها ببرقع الحوادث الطبيعية» كما يقول كاشر... وقد كان كاشر يأمل بأن تكون خسائر اليهود من الأرواح في حروب

= «روجيه جارودي» هذه الدعوة أسطورة كاذبة أو مبالغاً فيها نسجتها خيالات اليهود دون أدلة حقيقية، مما أدى به إلى المثول أمام القضاء الفرنسي بسبب آرائه الجريئة هذه، بتهمة معاداة السامية. انظر كتابه: الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية (١٣٩ ـ ١٥١).

(١) الحقيقة التي دلت عليها الأحاديث النبوية في الفتن والملاحم آخر الزمان أن اليهود يتبعون ـ المسيح الدجال ـ الذي يأتي بالخوارق، ويكون هلاكه، على يد المسيح عيسى ﷺ الذي ينزل في آخر الزمان، ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية ولا يقبل إلا دين الإسلام. وفي عهده أيضاً يكون هلاك يأجوج ومأجوج. انظر الأحاديث في صحيح مسلم كتاب الفتن وأشراط الساعة من ٢٢٤٧ إلى ٢٢٦٨. وانظر: المسيح المنتظر وتعاليم التلمود. د. محمد علي البار (١٠٣ ـ ١٥٢).

١٩٤٨، ١٩٦٧، ١٩٧٣ كافية من أجل اعتبار حرب يوم الغفران، الحرب الثالثة والأخيرة من حروب يأجوج ومأجوج، وإلا فإنها ستكون، فيما زعم، أولى الحروب الثلاث، وعليه فقد توقع أن تنشب حروبٌ أشد هولاً قبل ظهور المسيح ابن داود...

وأياً تكن دلالة حرب الأيام الستة وحرب الغفران بالنسبة إلى جدول الخلاص، فالمسلمة الغالبة هي أن الحوادث كلها تنم عن إرادة الله، وأن مركز اهتمامه في العالم هو تدبير خلاص إسرائيل أرضاً وشعباً، وتحقيق ذلك الخلاص...

سابعاً: إيمان اليهود وتفانيهم، كعامِلَين حاسِمَين: ليس الأصوليون اليهود قدريين(١)، على الرغم من الدور الغالب الذي يبدو أن الله يقوم به في تشكيل التاريخ البشري، فدعوتهم إلى التعبئة السياسية المتواصلة تستند إلى نظرة تعدُّ الشعب اليهودي عوناً لله(٢) في عملية «تكون عُولام» «إصلاح العالم». وهي عملية ستبلغ ذروتها في الخلاص التام، وإقامة المملكة المسيحانية...

إن من شأن «الصهيونية الأوفى، تلك التي تنطوي على سر القداسة وحلم الخلاص»، أن توفر ليهود إسرائيل ما يحتاجون إليه من قوة للبقاء في وجه عالمٍ معادٍ وغير مخلَّص. ويستلزم تجديد هذا

---

(١) قدريين هنا بمعنى جبريين، خلافاً للاستعمال الاصطلاحي الأشهر في إطلاق لفظ «قدرية» على نفاة القدر. على أنه يستعمل بقلة لدى الإسلاميين في غلاة المثبتة «الجبرية» كما استعملها الكاتب هنا، نافياً هذا الوصف عن الأصوليين اليهود.

(٢) يكثر استعمال مثل هذه التعبيرات النابية في حقه سبحانه وتعالى في كتابات اليهود والنصارى. ولا غرابة فإن القوم ما قدروا الله حق قدره. ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [سبأ].

الإيمان خروج يهود إسرائيل العلمانيين من «الأزمة الروحية المعقدة» التي ما زالت تلم بهم، وعودتهم إلى فهم لاهوتي ملهم لمهمة الصهيونية، هذا إن لم يعودوا إلى اليهودية الأرثوذكسية. ولا بد من النأي عن الحسابات السياسية ذات العمق التحليلي الزائف، والإقبال على إيمانٍ أنقى وأبسط، بما قُدِّر للشعب اليهودي من قَدَر السيادة على أرض إسرائيل كلها، والوفاء، عبر ذلك، بشروط عهده مع الله. وهذا يستلزم التخلي عن «التشبه الرخيص بثقافة الغرب»، وتجاهل «الرأي العام العالمي». وما من زعيم أصولي يهودي كان أوضح من الحاخام تسفي يهودا في التشديد على أهمية العمل والإيمان اليهوديين، وعلى ضرورة التصدي لأي نفوذ أو تأثير أجنبي من قبل الأمم في صوغ السياسة القومية اليهودية أو تطبيقها...

وهكذا فإن دعوات الأصوليين اليهود إلى بذل المزيد من الجهود والتضحيات تختتم، في معظمها، بالتذكير بأن تحقيق كلمة الله «أو مقتضيات القدر اليهودي» بنجاح هو «تالوي بَنُو» «متوقف علينا».

إن هذا الربط الوثيق، كما بينا في البداية، بين ما يُعدُّ من المقتضيات المتعالية، وبين ما يدرك على أنه من الواجبات السياسية الشخصية، هو الإمارة المميزة للنظرة السياسية الأصولية)[1].

تلك نتائج دراسة جادة، وليست تغطية صحفية، لباحث أكاديمي أمريكي، وليس لمؤلف عربي مسلم يمكن أن يوصف بالتحامل، استغرقت عدة أعوام، وليست وصفاً مستعجلاً، مبنية على معاينة على أرض الواقع المعاصر، وليست دعاوى يحلو لبعض الناس اعتبارها «تهويلات» خيالية من صنع اليهود، وأخيراً فـ(هذا الكتاب أصلاً دراسة

(١) الأصولية اليهودية في إسرائيل. الفصل الرابع (٨٥ ـ ١٠٤). باختصار وتصرف يسير.

أعدَّت، بموجب عقد، لبرنامج دعم البحث الأكاديمي في مجال الدفاع التابع لوزارة الدفاع في الولايات المتحدة)[١] كما جاء في مقدمته، فهو قد كتب لجهة مسؤولة تعتمد الدقة والتحري في رصد الاتجاهات المختلفة.

والذي دعانا لهذا الاستطراد هو الرغبة في استكمال جوانب الموقف الأصولي اليهودي المتنامي في المجتمع الإسرائيلي، وجذوره أو فروعه في بلدان الشتات «الدياسبورا». وهو يمنحنا تصوراً جازماً عن رفض هذا الضرب من اليهود مجرد التفكير في دعوة التقريب بين الأديان، سواءً من الإسلام أو من النصرانية. فاليهود يملكون «الحق المطلق»، في نظرهم، والآخرون من الأمميين لا يملكون حتى الحق النسبي، لأن القضية عند هؤلاء الأصوليين مبنية على الاختيار الإلهي لشعب إسرائيل، موثق بعهدٍ أزلي وأبدي لهذا الشعب الفريد، غير السوي، وخصومه يسيرون نحو الفناء، ولا مجال للمفاوضات السلمية لتحقيق السلام، بل هي ضربٌ من العبث ومصادمة القدر الواعد بمجيء المسيح المخلص ومملكته التي تنشر السلام الحقيقي، حيث تعترف الأمم كلها اعترافاً عجائبياً بمكانة إسرائيل. والتاريخ بأكمله ومجرياته المتنوعة والمتضادة، هو ستار لعلاقة إله إسرائيل بشعب إسرائيل. وسائر شعوب الأرض لا تعدوا أن تكون أدوات مجردة، أو هوامش وتعليقات على النص اليهودي التاريخي. وهذه النظرات يجب أن تثمر في ضمير الفرد اليهودي المزيد من الإيمان والتفاني، وعدم الاكتراث بآراء الأغيار ومصالحهم، في سبيل التهيؤ للمخاض المنتظر الذي سيجلب المسيح المخلص.

إن هذا النمط من التفكير الأهوج، ينفي ويستبعد أدنى خاطرة

---

(١) المرجع السابق، (٢).

للحوار مع المخالف في المسائل العقدية، أو محاولة البحث عن القيم المشتركة كما تصنع النصرانية المعاصرة. بل إن الأمر يتجاوز ذلك عند هؤلاء المتزمتين إلى إجراءات عملية تمثلت في:

١ ـ إقامة مستوطنات في مناطق الضفة الغربية وقطاع غزة وهضبة الجولان، دون موافقة السلطات الرسمية. وقد تجاوز عددها حتى مطلع التسعينيات مائة وثلاثين مستعمرة[١].

٢ ـ القيام بأعمال إرهابية لترويع السكان المسلمين بهدف تهجيرهم. ففي الفترة من سنة ١٩٨٠ إلى سنة ١٩٨٤ على سبيل المثال (أوردت الصحف الإسرائيلية في تلك الفترة أنباء ٣٨٠ اعتداء على الأفراد قتل فيها ٢٣، وأصيب ١٩١ إصابات بليغة، وخطف ٣٨. وقد شنت مئات الاعتداءات الأخرى على الممتلكات ـ سيارات ومنازل ومتاجر ـ كما أحصي واحد وأربعون اعتداء على المؤسسات الإسلامية والمسيحية)[٢].

هذا فضلاً عن التهديدات العلنية التي يطلقها هؤلاء المتعصبون بطرد العرب واحتقارهم، من جنس: «العربي الجيد هو العربي الميت»، «لا ثقة بالعرب حتى بعد موتهم بمائة عام»، ووصفهم بأنهم كلاب وقتلة ومحتلين... إلخ[٣].

٣ ـ المحاولات المتكررة لنسف المسجد الأقصى بالمتفجرات: في: مايو ١٩٨٠، مارس ١٩٨٣، يناير ١٩٨٤. وأخطر هذه المحاولات المؤامرة التي أعدتها جماعة من دعاة غوش إيمونيم بين سنتي ١٩٧٨ ـ ١٩٨٢م[٤].

---

(١) الأصولية اليهودية: (١٥).

(٢) الأصولية اليهودية: (٧٨).

(٣) غوش إمونيم: الوجه الحقيقي للصهيونية (٤٩ ـ ٥١).

(٤) انظر تفاصيل ذلك في الأصولية اليهودية (٧٩ ـ ٨٢).

٥ ـ الحركة اليهودية التقاربية:

أما على الجانب الآخر، جانب الداعين إلى الحوار والتقارب من اليهود، فلا نكاد نعثر على شيءٍ يذكر، خلافاً للنصارى، سوى كتابٍ مهم نشره اتحاد الجمعيات اليهودية (UAHC) بنيويورك، في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٩٣ عنوانه:

(شالوم/السلام أسس مشتركة للحوار بين اليهود والمسلمين بالولايات المتحدة الأمريكية):

(SHALOM = SALAAM A Resource For Jewish - Muslim Dialogue).

قام على إخراجه كل من: الحاخام جاري م. بريتون ـ جرانيتور، مدير قسم شؤون ما بين الأديان، ومدير مشارك لجنة العمل الاجتماعي لليهودية الإصلاحية باتحاد الجمعيات الأمريكية اليهودية UAHC، والحاخام أندريال. ويس في القسم المذكور. والكتاب يتكون من قسمين:

أحدهما: قاعدة نظرية في قضية الحوار، تضم سبع مقالات، خمسة منها ليهود، والباقيين لمسلم ونصراني.

الثاني: برامج عملية ثمانية مقترحة لتطبيق عملية الحوار، من خلال لقاءات أفرادٍ من الطائفتين.

ففي مقدمة الكتاب تحدد الأهداف، وتشرح طريقة التنفيذ:

أ ـ الأهداف: يقرب هذا الكتاب العلاقات بين اليهود والمسلمين، من ناحيتين: التربية والمشاركة. والمقالات تمثل تمهيداً للحوار بين اليهود والمسلمين وتوضح جذور العلاقات اليهودية المسلمة... وأما البرامج، فالمقصود منها تحقيق عدة أهدافٍ أساسية، ألا وهي تلقين المشتركين معلومات حول الإسلام وحول الديانة اليهودية، وإقامة علاقات بينهم على المستوى الفردي والجماعي.

ويستهدف شكل مستوى البرنامج إنجاز هذه الأهداف بإتاحة الفرص العديدة للمشتركين كي يتبادلوا معرفة الأعراف الدينية لكلٍ منهم، كي يسهل عليهم أن يشارك بعضهم بعضاً في المصاعب، وفي الأعياد الخاصة بحياتهم الدينية... ويرسي كل برنامج الاحترام والثقة والصداقة، ويحقق فهماً أوسع، وإحساساً أعمق لما ينطوي عليه معنى أن يكون الإنسان أمريكياً مسلماً، أو أمريكياً يهودياً.

ب ـ الانطلاق: الخطوة الأولى من أجل إقامة الحوار، واضحة كل الوضوح؛ ألا وهي تجميع فريقٍ من المهتمين بالحوار من المسلمين واليهود. بالإضافة إلى الاتصال بالمنظمات الدينية المواتية في منطقتكم...

ولقد حرصنا عند وضع هذا الدليل أن يجري الحوار بأيسر الطرق الممكنة. فلا يتحتم أن يكون اليهودي أو المسلم عالماً من علماء الدين لكي يعمل بالبرامج. ولا أن يكون البحث المطلوب على نطاقٍ يتجاوز الحدود. وإنما يكفي لإنجاز البرامج أن يكون مستوى إعداد المسلم واليهودي معتدلاً.

وعلى المسؤولين قبل الحلقة الأولى أن يحددوا تواريخ اللقاءات، وأن يعدوا عدة جداول توضح تاريخ وموضوع ومكان كل حلقة، «لتوزيعها في أول لقاء»، وإن أمكن أن يكون مكان اللقاءات متبادلاً بين المعبد والمسجد.

وينبغي قبل البرنامج الأول أن يحصل المشتركون على نسخٍ من هذا الكتاب، وأن يقرءوا المقالات الأربعة[1] الأولى لكي تساعد في إعداد المشتركين للحوار. (بينما تدخل المقالات الأخرى في البرامج الأخيرة)[2] ثم أشار إلى أن البرنامج الثاني يتطلب عرض شريط فيديو

(١) هكذا في الأصل. والصواب: «الأربع».
(٢) مقدمة شالوم/السلام. أسس مشتركة للحوار بين اليهود والمسلمين بالولايات=

بعنوان «إبراهيم وذريته»، من إنتاج جهة يهودية بنيويورك.

نحن أمام مشروعٍ حواري يتسم بالفاعلية والبساطة، يخاطب الطبقة المتوسطة من المُنتمين للديانتين، وهي الطبقة الأكثر عدداً، في الولايات المتحدة الأمريكية، فليس حوار النخب المتخصصة، ولا الجهات الدينية ذات الصفة المرجعية. والوصف المشترك بين الجانبين أنهم مواطنون أمريكيون. أما الجهة المشرفة على المشروع فهي يهودية صرفة: (اتحاد الجمعيات الأمريكية اليهودية) UAHC Union Of American Hebrew Congregation.

ويمثل خطةً قابلة للتنفيذ في أي موقع، مما يكفل له الانتشار عند توفر المتحمسين للفكرة من الطرفين.

ولما كان هدفه المعلن تقريب العلاقات بين اليهود والمسلمين، في التربية والمشاركة، جاءت برامجه العملية طافحة بصور المجاملات والمشاركات وإبراز أوجه التماثل كما سنعرض لاحقاً. وفي سبيل التعرف على الأهداف الحقيقية غير المعلنة سنقوم بتحليل المقالات اليهودية في هذا الكتاب.

١ ـ «الحاجة إلى حوار بين المسلمين واليهود»: عنوان مقالة الحاخام جاري م. بريتون ـ جراناتور، أحد معدي الكتاب، ومدير قسم شؤون ما بين الأديان في اتحاد الجمعيات الأمريكية اليهودية. وقد استهله بالاعتراف بعيش الطائفة اليهودية زمناً طويلاً جداً، ١٣٠٠ عام، في ظل مفاهيم خاطئة، ومعلومات غير صحيحة، عن طائفة المسلمين.

= المتحدة الأمريكية: الحاخام: جاري م. بريتون جرانتور، والحاخام أندريا ل. ويس. ترجمة: محمد عبد العظيم علي، تعليق: أحمد علي الكردي، تقديم: فتحي محمد حجازي. دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع. الاسكندرية ـ مصر. الطبعة الأولى ١٩٩٥م. (٤٨ ـ ٤٩).

بالإضافة إلى نسيان ما بينها من تاريخ مليء بالمشاركة الإيجابية والعميقة(١).

ومن بين صور الجهل والخطأ، كما مثل الكاتب «أننا نسمع كثيراً عبارة «مسلم» وعبارة «عربي» ونستخدمها بمعنى واحد، إلا إنه من الجدير بالذكر أن العرب لا يمثلون سوى عشرين في المائة من العالم الإسلامي. وبالفعل كم نعرف نحن اليهود عن العالم الإسلامي؟ إننا نسمع كلمات مثل «الجهاد» و«رمضان»، ولكن هل نعرف معناها الحقيقي؟ وإلى أي مدى تقتحم المناورات السياسية الخاصة بالشرق الأوسط علاقات كان في الإمكان أن تتوثق وأن تثمر؟ هذه هي المفاهيم الخاطئة التي ينبغي أن نبدأ اليوم في تبديدها. إن هذا النقص في المعرفة هو الذي يتعين علينا أن نستكمله بالتربية والحوار. هنا، واليوم، يجب إزالة القضايا السياسية التي تقف عقبةً في طريق علاقاتٍ جديدة مع إخوتنا المسلمين والمسلمات. إنه يجب أن نلزم أنفسنا بالمضي معاً في هذا الطريق. ألسنا كلنا ذرية أبٍ واحد لإلهٍ واحد؟)(٢). ويعنى الكاتب بإبراز صور التشابه بين الديانتين على أنها لون من التأثير المتبادل، في العقيدة والشريعة، لا على أنها دليلٌ على وحدة المصدر. وبالتالي فالدين المتأخر زمناً لا بد أن يكون نصيبه من التأثر ـ لا سيما في الأصول ـ أعظم من نصيبه في التأثير ـ وسيكون بطبيعة الحال في الفروع ـ وهو ما يجنح إليه الحاخام.

والحق الذي لا مرية فيه أن ما يوجد من نقاط تشابه أو تطابق مرده إلى أن القرآن نزل مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

(١) انظر شالوم ـ السلام، (٥٠).
(٢) المرجع السابق، (٥٠، ٥١).

ويختم مدير قسم شؤون ما بين الأديان في اتحاد الجمعيات اليهودية الأمريكية مقالته بالقول: (إن خطوتنا الأولى من أبسط ما يكون، هي أن نفتح أبوابنا، وأن نمد أيدينا، وأن نستقبل إخوتنا المسلمين والمسلمات بالترحاب. وعندئذٍ علينا أن نتعلم ما يتعلق بالعالم الإسلامي، والعقيدة الإسلامية، وأن ندخلها إلى تراثنا الغني. ومعنى هذا أن نتعلم أعيادهم وتقويمهم وتعاليمهم الأولية وآمالهم الدينية، وأن نطلعهم كيف نمارس عقيدتنا وأعيادنا وتقويمنا وتراثنا. وكلما تفحصنا أوجه التشابه، وأدركنا وقدرنا أوجه الخلاف، كلما وجدنا اهتماماتنا المشتركة، وتعرفنا على ما يؤذي به بعضنا البعض. وبعد أن تكون هذه المهام قد وضعتنا بكل معناها على الطريق فعندئذٍ فقط يمكننا أن ندخل المسائل السياسية في الحوار. إذ بدون هذا الشرط الأساسي ـ ألا وهو الفهم المتبادل لتراث كلٍ منا ـ فإن المناقشات السياسية قد تنتهي إلى كلامٍ منمق وغوغائية.

يحدونا الأمل أن يؤدي استخدام هذا الكتاب إلى قيام الحوار بين الأمريكان المسلمين والأمريكان اليهود. ونصلي من أجل أن يقرب هذا المشروع بيننا وبين إخوتنا المسلمين والمسلمات، وبالتالي يؤدي إلى إيجاد عالم أكثر سلاماً وانسجاماً، وهو العالم الذي أمرنا الله الواحد بأن نحققه)[(١)].

ونظراً للصفة الدينية التي يمثلها الحاخام جاري م. بريتون ـ جرانتور نبادر باستخلاص النتائج التالية التي ربما تكون أساساً لتوجه معين لدى بعض الاتجاهات اليهودية في الولايات المتحدة الأمريكية ودول الشتات:

١ ـ اللغة التي يتحدث بها لغة مسالمة، ذات أبعاد إنسانية تختلف

---

(١) المرجع السابق، (٥٤).

تماماً عن لغة الأصوليين السياسيين في إسرائيل، والأصوليين الأرثذوكس المتعصبين لتعاليم التلمود. ويمكن تصنيف هذا الطرح ضمن المدرسة اليهودية الإصلاحية ذات الأصول التنويرية، التي سبق الحديث عنها.

٢ ـ الاستعداد للحوار الديني وفق الأطر التي أرساها النصارى بعد المجمع الفاتيكاني الثاني، وتحت شعارات اكتشاف الآخر، والتعرف على تراثه، بل ومشاركته فيه، والتخلص من أحقاد الماضي وأخطائه، والسعي نحو السلام... إلخ.

٣ ـ هيمنة الهاجس السياسي المتعلق بإقامة دولة إسرائيل، على مشروع الحوار، فرغم المحاولات الذكية بالحيدة عنه، والتعبير عنه بـ«القضايا السياسية في الشرق الأوسط»، واعتبارها عقبة في طريق بناء العلاقات مع المسلمين، إلا إنّ الحاخام يعجبه أن يكتشف أن العرب لا يمثلون سوى عشرين في المائة من العالم الإسلامي. ومع أنه في بادئ الأمر يرغب في تنحية هذه العقبة وتجاهلها لكنه بعد أن يتأهل الجانبان بالفهم المتبادل، وبعد أن تكون هذه المهام قد وضعتهما على الطريق ـ على حد تعبيره ـ يستدعي المسائل السياسية إلى الحوار حينذاك.

٢ ـ أما الحاخام أندريا. ل. ويس المشارك في قسم شؤون ما بين الأديان في اتحاد الجمعيات اليهودية الأمريكية، والمشارك في مشروع الكتاب أيضاً، فقد كتب مقالة بعنوان: «من المرض إلى الحوار ـ مدخل إلى الحوار بين اليهود والمسلمين»، وكان أكثر صراحة وواقعية من سابقه، وركز على خصوصية الوجود الإسلامي واليهودي في الولايات المتحدة الأمريكية، ومدلولات ذلك الواقعية والمستقبلية. ويبتدئُ بذكر العقبات فيقول: (إن قائمة العقبات الكامنة قائمة طويلة منها العقبات السياسية والعقائدية والتاريخية، والخوف من غيرها، ومن

غير المعلوم منها. وكثير من العقبات يمكن أن يكون مصدر مواجهة ودمار محتملين.

العقبة الأولى: طاعون عالم السياسة. فطبقاً لما يقرره الدكتور عظيم ننجي من جامعة فلوريدا، فإن القضايا المحلية بالشرق الأوسط قد أصبحت عالمية. ونتيجة لذلك، فإن يهود ومسلمي البلاد البعيدة عن الشرق الأوسط يتقابلون «وفوق رؤوسهم سحابة سياسية تهدد بتعتيم كل المظاهر الأخرى للعلاقات». ورغم أن العرب يمثلون فقط عشرين في المائة من الشعوب الإسلامية، فإن هذه السحابة الرمادية المشؤومة تظلم رؤيتنا، وتجعل الكثيرين يعتقدون أن الشرق الأوسط هو كل ما يمكننا أن نتحدث فيه، وأن الحوار بين اليهود والمسلمين، والنزاع العربي الإسرائيلي هما شيءٌ واحد، ونفس الشيء. ولذلك فإن الذين حاولوا بناء الجسور بين المسلمين الأمريكيين، واليهود الأمريكيين كادوا أن يجمعوا على أن الحوار لا يمكن أن يبدأ بالسياسات العالمية. وإذا أردنا لجهودنا أن تكلل بالنجاح فما علينا إلا أن نوجه أنظارنا إلى الغرب لا إلى الشرق الأوسط.

والعقبة التالية: هي عقبة طاعون سوء التفاهم. فالبعض يظن أن المسلمين كلهم إرهابيون أو أصوليون. والبعض الآخر يعتقد أن الإسلام عتيق وغير متغير. ويقولون: «إنهم سوف لا يتكلمون معنا»، «إنهم لا يستطيعون أن يفهمونا»، «إنهم ببساطة لا يهتمون»)[1].

إن الحاخام «ويس» يدرك تماماً عمق المشكلة المترتبة على اقتطاع أرض فلسطين من قبل اليهود، واستيلائهم على المقدسات الإسلامية، وأثر ذلك على مشروع الحوار. ومن ثم فهو يطمح إلى حصر المشكلة بالمسلمين العرب الذين لا يمثلون سوى عشرين في المائة فقط من

(١) المرجع السابق، (٥٦، ٥٧).

المسلمين، لكونهم طرفاً مباشراً في النزاع. ويحاول تجنيب بقية المسلمين وتنحيتهم عن القضية باعتبارها نزاعاً عربياً ـ إسرائيلياً ذي صفة سياسية وحسب. وبالتالي فأمام هؤلاء المسلمين المهاجرين إلى الولايات المتحدة الأمريكية الكثير من القضايا الأخرى ليتحدثوا فيها مع مواطنيهم اليهود الأمريكان، بعد أن تنقشع السحابة السياسية عن رؤوسهم. كما يأمل!

والعجب من هؤلاء اليهود الأفاكين كيف يقلبون الحقائق، فالحاخام «ويس» يحكي ظنون بعض بني ملته الذين يتهمون المسلمين بالإرهاب والأصولية والانغلاق واللامبالاة، ويصمون دين الإسلام بالجمود، ويتعامون عن جرائمهم الإرهابية الفظيعة في حق المسلمين! ألم يحتلوا أرضاً إسلامية ويهجِّروا فريقاً من أهلها، ويقتلون فريقاً؟ ومن بقي من أهلها ساموه سوء العذاب، ألم يستولوا على مقدسات المسلمين، ويحيكوا المؤامرات لنسف المسجد الأقصى بالمتفجرات؟ ألم يصل «أصوليوهم» إلى درجة الاحتراق في الغلو والتعصب وازدراء الآخرين من أبناء الأمم «الجوييم»؟

ولكن هذه الأساليب الملتوية غير مستنكرة على إخوان القردة والخنازير الذين ينقضون عهد الله وميثاقه، ويفترون على الله الكذب، ويقتلون النبيين بغير الحق.

ثم يفصح الحاخام أندريا. ل. ويس عن حقيقة البواعث، أو المخاوف، التي ألجأت أمثاله من اليهود إلى الرضوخ للأمر الواقع وفتح باب الحوار مع المسلمين، فيقول: (يجب أولاً أن نعترف أننا كأمريكيين، فإننا نعيش ببعض الأساطير عن أنفسنا. فحتى في عصر تعدد الثقافات، يتحدث المشرعون وزعماء الطوائف عن القيم اليهودية المسيحية التي قادت بلادنا. ويعلن الساسة ورجال الدين أن الولايات المتحدة وطنٌ ثلاثي الأطراف. أي مجتمع يشتمل على البروتستانت

والكاثوليك واليهود. إننا نقسم فطيرة التفاح المنزلية إلى ثلاث قطع متساوية، زاعمين أن الأديان الثلاثة تتمتع كل منها بنفس النفوذ والتمثيل، ومدعين أن تراث عقيدتنا وحده هو الذي صنع الفطيرة. والحقيقة أنه إذا قدرنا عدد البروتستانت بحوالي ثمانين مليوناً، وعدد الكاثوليك الرومان بخمسةٍ وخمسين مليوناً، وعدد اليهود بستة ملايين، فإنه يوجد الآن أربعة ونصف مليون مسلم بالولايات المتحدة الأمريكية. ولقد تضاعف عدد المساجد والمراكز الإسلامية في هذه البلاد أربعة مرات[1] خلال العشر سنوات الأخيرة. وأنه حتى عام ٢٠١٥ أي بعد اثنين وعشرين عاماً من الآن، يقدر الخبراء أن عدد المسلمين سوف يتجاوز عدد اليهود، وسوف يمارس تأثيراً متزايداً على الفكر الأمريكي. إن الإسلام اليوم هو ثاني أكثر الأديان انتشاراً بالولايات المتحدة. إن علم الحساب وحده يلزمنا بأن نعيد تقدير كيفية تقسيم الفطيرة. وتطالبنا الإحصائيات بأن نتساءل كيف ستتغير أولوياتنا وهويتنا في ظل تشكيل العالم الجديد. وما معنى أن لا نعد نرى أنفسنا أقلية منعزلة وموزعة داخل مجتمع مسيحي؟ وبدلاً من ذلك أن نكون جزءاً من أصغر الأجزاء الكثيرة التي تتكون منها الحياة الدينية الأمريكية؟ وهل سيتعرض وضع اليهود السياسي والنفسي للهبوط؟ طالما أن صورة الوطن ذي الهيمنة اليهودية المسيحية سوف تنزوي تدريجياً ـ أم سوف يزداد اليهود قوةً في الشعور الانتمائي، وفي النفوذ؟

إن المسح السكاني، والتنبؤات الديموغرافية تجبرنا على أن نطرح أسئلةً صعبة، وأن نواجه الخوف وقابلية الجراح التي تصاحب التغيير في الغالب. إلا أنها أيضاً تذكرنا أننا كأقلية دينية في أمريكا لسنا وحدنا. إنه في عام ١٩٩٣ وليس عام ٢٠١٥ يجب علينا أن نتحرى

---

(١) هكذا في الأصل، والصواب: أربع مرات.

ماذا يعني لنا نحن اليهود تزايد نمو الإسلام. إنه اليوم وليس بعد اثنين وعشرين عاماً من الآن، يجب أن نبدأ رحلة الحوار والالتحام)[١].

ولعل الحاخام ويس شعر أنه كان صريحاً أكثر مما يجب في الكشف عن دوافع الحوار فأراد أن يستدرك، ويبدد ما سبق إلى الأذهان من استنتاجات، فقال: (وعلى أحسن الفروض فإن الحوار بين الأديان هو إثراء للحياة، وهو فرصة للتطور والتسامي الذاتي. ولتحقيق هذه الأهداف فعلى أطراف الحوار أن يتصلوا ببعض، لا بسبب الخوف من الدراسات الديموغرافية، ولكن من أجل أهمية التربية والتفاهم، وفوائد الاتصال والترابط، وما يمكن أن تحققه العلاقات الطيبة من وعود)[٢] وهو استدراك يزيد التهمة تأكيداً.

٣ ـ ويقدم جوناثان د. سرنا في مقالته المعنونة بـ«الهوية اليهودية في العالم المتغير للديانة بأمريكا» سبراً تاريخياً مفصلاً لفكرة الوطن ثلاثي الأطراف، أو النموذج البروتستانتي الكاثوليكي اليهودي في النظام الديني بأمريكا. فحتى عام ١٨٨٢ كانت المحكمة العليا تقرر: (إن هذا الوطن وطن نصراني)[٣]. وقد قوبلت هذه المقولة بمعارضة اليهود، وتمكنوا من فرض أنفسهم في المعادلة الدينية، رغم قلة عددهم بالنسبة للمحيط المسيحي الذي يعيشون فيه، واستبدلت الفكرة السابقة بفكرة أن أمريكا وطن يهودي نصراني. يقول جوناثان د. سرنا: (إن الاستخدام المعاصر لهذا اللفظ كان عام ١٩٣٠)[٤]. وبلغ الأمر ذروته في منتصف هذا القرن الميلادي، حتى صار الحديث عن «الميراث اليهودي المسيحي» و«مفهوم اليهودية المسيحية» و«الثالوث العائلي للبروتستانت

---

(١) شالوم ـ السلام، (٥٨ ـ ٥٩).
(٢) المرجع السابق، (٦٠).
(٣) المرجع السابق، (٧٦).
(٤) المرجع السابق، (٧٦).

والكاثوليك واليهود» و«قدرة الانصهار الثلاثية» ونحوها من الشعارات، على ألسنة الساسة والمفكرين والقادة الدينيين[١].

وقد أدى تأسيس «المؤتمر الوطني لليهود والنصارى (NCCJ)، ومزار كنيسة القساوسة الأربعة[٢]، وبرنامج Equal Time الإذاعي، أي الوقت المتساوي لكل طائفة، وتأليف الكتب في هذا الشأن، إلى تعميق فكرة الجماعات الثقافية المتساوية حتى قال أحد الكتاب عام ١٩٥٥: (إذا لم يكن الشخص بروتستانتياً أو كاثوليكياً أو يهودياً، فإنه بطريقة أو بأخرى لا يكون أمريكياً)[٣].

لقد حقق اليهود هذه المكاسب رغم أن عددهم كان لا يزيد عن خمسة ملايين من بين مجموع الشعب الأمريكي البالغ عدده إذ ذاك مائة وستين مليوناً. ومرد ذلك إلى العمل الدؤوب، والتغلغل المدروس في البنى السياسية والاجتماعية، الذي يتقن اليهود أداءه في كل عصر ومصر بالأساليب الملتوية وشراء الذمم. ولكنهم أمام ضغط الواقع على الأرض، ووهج الحقيقة شعروا بخطر الفضيحة وآثارها المستقبلية، فأعدوا موقفاً جديداً يكافئ المتغيرات الجديدة على أرض الواقع. ويعبر جوناثان د. سرنا عن الشعور بقوله: (.. كان مكمن الخطر الذي أظن أننا بدأنا ندركه، هو أن هناك تفرقة واسعة وحقيقية ومتزايدة بين الأسطورة والحقيقة. فلا التراث اليهودي المسيحي، ولا قدرة الانصهار الثلاثية، قد عبرا على نحو مناسب وصحيح عن المدى الكامل لتعددية الحياة الدينية الأمريكية في كامل مظاهرها المركبة. ولقد عاش الأمريكان زمناً طويلاً في ظل هذه التفرقة، وبرغم هذا التنافر في

---

(١) انظر المرجع السابق، (٧٦ ـ ٧٨).
(٢) أنشئ إحياء لذكرى وفاة أربعة قساوسة غرقاً ـ كاثوليكي ويهودي وبروتستانتيين ـ عام ١٩٤٣.
(٣) شالوم ـ السلام، (٧٨).

المعارف وجد اليهود وضعهم المبالغ فيه مناسباً جداً. كما اعتقد عدد ساحق من الأمريكان أن اليهود يمثل تعدادهم نسبة أكثر بكثير من التعداد الشعبي على غير الحقيقة، وتعاملوا مع اليهود تبعاً لذلك. ولكن هذه الأساطير قد تبددت. ومن الأوفق لنا أن نعرف لماذا تبددت، وما هي متطلبات الهوية اليهودية في السنوات القادمة...

اليوم يواجه الطابع الأمريكي اليهودي المسيحي، والبنية البروتستانتية الكاثوليكية اليهودية مشكلة أشد خطراً، ألا وهي النمو السريع للديانات الأمريكية التي لا تنتمي إلى البروتستانتية أو الكاثوليكية أو اليهودية، وإنما هي خارج نطاق كل من اليهودية والمسيحية تماماً. وأقصد بصفة خاصة الإسلام من بين أسرع الديانات نمواً في الولايات المتحدة...

ومن وجهة نظر اليهود الأمريكان، يستحق نمو الإسلام في أمريكا عنايةً خاصة، ولا سيما العداوة التي تكنها الطائفة المسلمة المنظمة تجاه إسرائيل)[1].

ثم يقدم إيجازاً تاريخياً للوجود الإسلامي في أمريكا، ونموه المطرد لا سيما في العقود الثلاثة الأخيرة[2]. وينقل خلاصة دراسة وضعت لهذا الشأن تقول: (نظراً لارتفاع معدلات المواليد، وتزايد عدد معتنقي الإسلام الجدد، واستمرار تدفق المهاجرين، فإنه من المحتمل أن نتنبأ أنه مع بداية العقد الأول من القرن الواحد والعشرين، سيكون الإسلام ثاني أكبر الأديان بالولايات المتحدة)[3] مما حمل بعض

---

(١) شالوم ـ السلام، (٧٩ ـ ٨١).

(٢) حتى ما يقرب من عام ١٩٦٠ كان عدد المسلمين أكثر قليلاً من ١٠٠ ألف نسمة فقط. (٨٢).

(٣) شالوم ـ السلام، (٨٣).

المسلمين الأمريكان على القول: (إننا نود أن يبدأ الشعب فيفكر في أن المجتمع الأمريكي هو مجتمع يهودي مسيحي مسلم. وقال مسلم آخر للباحثين: إنه يتطلع إلى اليوم حين يقول الجميع: كاثوليك وبروتستانت ويهود ومسلمون. وبينما هذا التغيير لن يلبي القدر الكافي لرغبات هؤلاء المسلمين، الذين هدفهم الأخير هو إيجاد ولاية إسلامية في أمريكا)[١].

هذه هي المعطيات التي أيقظت «أجهزة الإنذار المبكر» لدى يهود أمريكا، وحملت بعضهم على التنازل عن كبريائه وغروره، والاضطرار لمحاورة المسلمين، كما عبر جوناثان د. سرنا: (إن الصورة الحالية للديانة الأمريكية سوف يتحتم أن تتغير لكي تنسجم ـ أكثر مما هي عليه الآن ـ مع الحقائق الإحصائية. وبناءً عليه يمكن أن يجد اليهود أنفسهم موضوعين على قدم المساواة لا مع البروتستانت والكاثوليك، ولكن بسخرية مع المسلمين)[٢]. ومن ثم جاءت تنبؤاته متشائمة بشأن مستقبل اليهود في أمريكا، ومستقبل الدعم الأمريكي لإسرائيل، بل ومستقبل الحوار بين الأديان، ويقصد الحوار مع المسلمين على وجه الخصوص: (سوف يظل الحوار بين العقائد المختلفة محفوفاً بالصعوبات المتزايدة. وفي الماضي أرسى زعماء اليهود والبروتستانت والكاثوليك بعض قواعد آداب المجتمع، أتاحت لهم العمل المشترك المتبادل... غير أن العقائد التي سبق في الماضي أن استبعدت من التيار الديني السائد لا تؤيد بالضرورة قواعد الآداب هذه، ويمكنها في بعض الحالات أن تهون من شأنها صراحة. والشاهد على ذلك النزعة البلاغية المفرطة لبعض الوعاظ المتزمتين، أو لزعماء السود المسلمين... وما لم يأت،

---

(١) المرجع السابق، (٨٣).
(٢) المرجع السابق، (٨٤). ونقول لهم: ﴿مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١١٩].

أو إلى أن يأتي جيل جديد من الزعماء الدينيين من نطاق عقيدةٍ أكثر رحابةً، لهم القدرة على الدخول في دقائق الحوار الديني، فسوف يكون من الصعوبة بمكان إحراز أي تقدم. كما أن المناقشة سوف تثبت ما إذا كانت عاجزةً عن أن يكون لها معنى أو هدف، أو أنها سوف تتسم بالقسوة إلى درجة العجز عن تحقيق النفع والمصلحة)(١).

هل يدعي جوناثان د. سرنا أن عقيدة التلمود المحترقة في أتون التعصب والنبذ للأغيار من الأمميين أكثر رحابةً من عقيدة الإسلام السمحة التي فيها: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦﴾ [العنكبوت]. أم أن الرجل عرف أن قومه هم المستثنون في الآية؟

وبعد، فما الذي يريده اليهود من وراء الحوار مع المسلمين؟

ثَمَّ لونان من الإجابة على هذا السؤال يبديها المشاركون في تأليف كتاب شالوم/ السلام؛ أحدهما يتناول أوجه التعاون في الحياة الاجتماعية الأمريكية، والثاني يتسامى في محاولة للوصول إلى تقارب موضوعي في العقائد.

فنظراً لوجود الجانب التشريعي التطبيقي في الديانة اليهودية بشكل مفصل، وربما معقد، يجد اليهود عناءً في العيش في الأوساط النصرانية، المتحررة من قديم الدهر من ضوابط الشريعة(٢)، ويخشون

---

(١) المرجع السابق، (٨٧).

(٢) كان ذلك بسبب إفساد «بولس» وأشياعه لدين المسيح ﷺ. فالمسيح لم يأت مبطلاً لما تضمنته التوراة من أحكام، بل مصدقاً، ومخففاً. ﴿وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ٥٠﴾ [آل عمران]. راجع: الشريعة عند النصارى، (٩٨).

من الذوبان في مجتمع الأكثرية. ومن ثم يتحسس اليهود أكثر من غيرهم هذه المعاناة التي يجدها المسلمون حين يعيشون أقليات في مجتمعات متحررة من الدين، كما في الولايات المتحدة الأمريكية. ويعتبر دعاة الحوار والتقارب منهم مواجهة هذه المعاناة المشتركة في سبيل الحفاظ على الشخصية الدينية هدفاً جامعاً من أهداف الحوار. يقول الحاخام أندريا ل. ويس: (إننا في ظل رابطة وصحبة مشجعة، نتذكر أنفسنا ونشعر أننا لسنا وحدنا في معركة للمحافظة على هويتنا الدينية والعرقية وسط عالم فيه الغالبية غير المتدينة. إننا نبحث في معامل المعبد أو المسجد، في معسكر الصيف، أو في المركز الطائفي، عن الصيغة السحرية التي تمكننا من المحافظة على التراث الثقافي من تحول القيم والممارسات الدينية، ومن حماية أنفسنا من إغراء التماثل مع المجتمع.

ورغم أننا لا نستطيع أن ننسى أو نتجاهل الفروق التي تفرق بين الأمريكي المسلم والأمريكي اليهودي، فإن المشاركة في المعارف والملاحظات يمكن أن تحقق نتائج طيبة. وطالما أن بعضنا يعلم البعض الآخر ممارستنا واهتماماتنا الدينية، فإن الحوار سوف يؤدي إلى سبل كثيرة لإمكانات إسداء العون والترابط)[1].

ثم ضرب أمثلة للتعاون المشترك في القضايا الغذائية المتعلقة بالامتناع عن لحم الخنزير والزيوت الحيوانية المشتقة منه، ويتابع قائلاً: (وفضلاً عن القضايا الغذائية، فإن قوائم المسائل المشتركة، ومجالات إمكانات التعاون، سوف تستمر في الزيادة بنمو العلاقات، من الصلاة في المدارس والعمل، من أجل استعادة الحرية الدينية Religion Freedom Restoration Act، إلى قضايا تتعلق بالأسرة والعدالة

---

(١) شالوم ـ السلام، (٦٢ ـ ٦٣).

الاجتماعية. وكلما زادت معرفتنا حول بعضنا بعضاً، كان وضعنا أفضل في بناء الجسور والعمل المشترك من أجل الخير للجميع)[(١)].

هذا لونٌ من التعاون لا غبار عليه ـ في نظري ـ ما لم يتعد إلى مجالات واستدراجاتٍ أخرى. فهو بحد ذاته يحقق للمسلمين المقيمين في بلاد الكفار بعض المطالب الشرعية، بضم أصواتهم إلى أصوات اليهود، أو العكس. ولكن الخطورة تكمن في اللون الآخر من الحوار الذي يُزَجُّ فيه من لا عِلم له ولا بصيرة من أبناء الجاليات المسلمة، أو المتمسلمين الذين يمنحون أنفسهم تفويضاً بالحديث عن الإسلام عن جهلٍ وهوى وضعف، وهو ما يتصل بالجوانب العقدية ـ خصوصاً ـ:

٤ ـ كتب «روفن فايرستون» مقالته بعنوان: (إبراهيم: أهو اليهودي الأول أم المسلم الأول؟ نصٌ وتراثٌ وحقيقة في الحوار والأديان). أراد من خلال عرض الموقفين المتعارضين الوصول إلى أن المناظرة المؤسسة على التراث الديني لكلٍ من الديانتين لا يمكن أن توصل إلى وفاق، بل (إنها لا تشجع على الحوار والتفاهم، وإنما تدعو إلى الجدل والنزاع. وعلى زعماء الدين تجاوزها، وسرعة إثناء أتباعهم وأنفسهم عن الاقتناع بأنهم وحدهم الذين لديهم الحقيقة المطلقة الفريدة، وأن يتحركوا قدماً إلى قضايا أخرى)[(٢)].

هذا هو مفتاح الحوار في مجال العقائد كما يراه «فايرستون»؛ التنازل عن فكرة الحقيقة المطلقة في العقيدة الدينية، وتمييع ذلك في خضم دعاوى أخلاقية فضفاضة من جنس ما يعبر به نظراؤه من النصارى: (علينا أن نسلم بأن الدعوة إلى الاقتراب من تراث نظام ديني آخر وادعاءاته، مع توافر الاحترام العميق والانفتاح الرحب هي دعوة

(١) المرجع السابق.
(٢) المرجع السابق، (١٠٩).

مثيرة للخوف. إذ أن الشخص إذا كان على استعدادٍ لقبول شرعية ديانة أخرى، ألا يحتمل ذلك أن يضع الأسس الجوهرية في عقيدته موضع الشك آخر الأمر؟ هذا ممكن... غير أن المشكلة تبدو خطيرةً تماماً إذا قبل هذا الشخص تعريفاً لحقيقة دينية على أنها مطلقة وثابتة وتنتمي إلى تراثٍ ديني واحد...

وقضية أي من ابني إبراهيم هو الذي يجب أن ننظر إليه على أنه وحده الذي تلقى بركات الله العظمى، هذه القضية لا يمكن أن نجد لها حلاً بمعرفتنا. والسؤال الأكثر فائدة هو: هل يمكننا التسليم بحقيقة أن لدينا ادعاءات وعقائد مختلفة، وأننا ما زلنا نعيش معاً؟ عبارة «الاحترام المتبادل» هي المفتاح في عالم الحوار. وليست عبارة «حق» أو «باطل». ومع أخذ ذلك في اعتبارنا، فإننا جميعاً أبناء إسماعيل وأبناء إسرائيل ـ كلنا أبناء إبراهيم. فهل في مقدورنا أن نعمل معاً هنا، وفي خارج البلاد على أمل بناء مستقبل أكثر فائدةٍ لنا جميعاً)[1].

إن مثل هذه المقدمات المؤطرة بأطرٍ براقة من عبارات الود والاحترام والانفتاح يمكن أن تؤدي إلى طور من الانسلاخ والشك وهز الثوابت، وقد تؤول إلى «كفر الإعراض» الذي يحمل صاحبه على تجويز الشيء ونقيضه حين لا يعود ذلك الشيء ـ مهما كان عظيماً وخطيراً ـ يعنيه ويهمه. وفي الوقت الذي تضعف قناعة المرء بدينه وعقيدته تحت مطارق هذه الشعارات الخادعة، تقوى نظرته وإعجابه بالطرف المقابل والعياذ بالله. وحين يصاحب ترويج هذه الأفكار برنامج عملي مدروس بعناية، ومخطط له من قبل أصحاب المشروع من اليهود، ويغرق المسلم الغِر بأمواج المجاملات والمداهنة وعرض الأفلام اليهودية، والإحالة على مراجع كتبها يهود فقط، كما هو واضحٌ

(١) المرجع السابق، (١١٠، ١١٢).

في آخر الكتاب(١)، يدرك الناظر المزلق الخطير الذي يجر إليه المسلمون الطارئون على الحياة الأمريكية، من قبل دهاقنة الدهاء والخديعة والمكر والحِيل، أصحاب السبت، إخوان القردة والخنازير.

خلاصة وتحليل:

تبين من خلال ما سبق أن لليهود في العصر الحديث موقفين متضادين من قضية التقريب والحوار بين الأديان:

أحدهما: موقف الرفض، والنبذ للآخرين المتمثل في اليهودية الأرثوذكسية بشقيها: التقليدي، كطائفة «الحريديم»، والأصولي السياسي، مثل «غوش إيمونيم»، وحزب كاخ.. وغيرهما ممن يستظهر تعاليم «التلمود» عقدياً، ويفسر الأحداث السياسية المعاصرة وفق «النبوءات» التي تضمنها العهد القديم. وهذا الاتجاه ينشط في دولة إسرائيل محط آماله، وأرض ميعاده الموهوم. وهو آخذ في النمو والانتشار وزيادة النفوذ، كما تشهد بذلك موازين القوى السياسية في إسرائيل، برجحان كفة الأحزاب الدينية المتعصبة التي قادت حزب «الليكود» إلى السلطة في العقد الأخير من القرن العشرين الميلادي.

ويظهر ـ والله أعلم ـ أن هذا الخط العقدي المتعصب سيظل في تنامٍ مستمر حتى يتمحض اليهود ليهوديتهم، والمسلمون لإسلامهم، وتقَع الملحمة التي يترنم بها اليهود، والنصارى الإنجيليون(٢)،

---

(١) انظر مسرد البرامج العملية، (١٤٥) وما بعدها.

(٢) الإنجيليون النصارى: حركة أصولية تنصيرية، تعتقد بعصمة العهدين القديم والجديد، والإيمان برجعة المسيح. وهي تؤيد وتدعم دولة إسرائيل لكون ظهورها يصدق النبوءات التي تضمنها العهد القديم. انظر: الأصولية الإنجيلية، صالح الهذلول؛ الصهيونية المسيحية، محمد السماك؛ المنظمات الصهيونية المسيحية. أحمد تهامي سلطان.

ويسمونها «هرمجدون»[(١)]، ويتطلع لها المسلمون، لبشارة النبي ﷺ بها، كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً: (لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود)[(٢)].

الثاني: موقف القبول، وربما المبادرة الذي تتبناه اتجاهات ذات أصولٍ مرتبطة بالحركة اليهودية الإصلاحية. وتنشط هذه الاتجاهات بين يهود الشتات «الدياسبورا»، بغرض تحقيق بعض المكاسب المحلية، واستغلال الأقليات الأخرى للوصول إلى بعض المطالب الاجتماعية، دون أن تبدي أدنى تنازلٍ عن الأصول العقدية المتزمتة التي تؤمن بها الطائفة. وبواعثها مصلحية صرفة.

والموقف الأول لا يمكن أن يعيش خارج دولة إسرائيل لما يحمله من مبادئ عنصرية يرفضها المجتمع الدولي، ذو الفكر الإنساني الليبرالي. كما أن الموقف الثاني يضعف داخل المجتمع الإسرائيلي المتمحور على رابطة الدين، والذي يعاني العداء من المحيط الإسلامي حوله. وهذا ما يفسر دعوة أصحاب مشروع شالوم/السلام إلى تجنب الحديث عن قضايا الشرق الأوسط، ومحاولتهم التركيز على أن العرب لا يمثلون سوى ٢٠٪ من العالم الإسلامي، وتصوير قضية فلسطين على أنها مشكلة إسرائيلية ـ عربية، لا يهودية ـ إسلامية. ومن ثم الالتفاف على الأكثرية المسلمة غير العربية الوافدة للولايات المتحدة الأمريكية، وغيرها من دول العالم.

---

(١) انظر: العهد القديم. سفر حزقيال ٣٨، (١٨٣٢). في النبوءات القديمة للمعركة، والأصولية الإنجيلية. صالح بن عبد الله الهذلول، (٥٩). في التفسير الحديث لها.

(٢) صحيح مسلم: (٤/ ٢٢٣٩).

ومع ذلك فإن محاولات إسرائيل لتطبيع العلاقات مع جيرانها لم تقتصر على الجانب السياسي، بل امتدت إلى الجوانب الثقافية والاجتماعية. ولعل من أبرزها على الصعيد الديني زيارة الحاخام الأكبر لليهود الأشكيناز[1] «إسرائيل لاو» لشيخ الأزهر في ١٥ ديسمبر ١٩٩٧م، ولم يسفر اللقاء عن بيانٍ مشترك.

كما أوردت هيئة الإذاعة البريطانية ـ BBC ـ القسم العربي في نشراتها الإخبارية ليلة الخميس الموافق ٢١/١١/١٩٩٨ الخبر التالي:

(قال الحاخام اليهودي مناحيم كرومان أنه حصل على تأشيرة دخول لإيران التي سيزورها الشهر القادم في إطار بعثة لتعزيز التفاهم بين اليهود والمسلمين...

وأنه يأمل في الاجتماع بقادة إيران ورجال الدين فيها سعياً إلى تغيير الانطباع الإيراني عن إسرائيل بأنها دولة كافرة).

وفي مطلع عام ١٩٩٨ شارك اليهود في ندوة الحوار بين الأديان المنعقدة في الرباط، يمثلهم الحاخام الأكبر لليهود السفارديم بإسرائيل «إلياهو باكشي». وقد أجرت معه جريدة الشرق الأوسط حواراً صحفياً قال فيه رداً على سؤالٍ عن النتائج التي يمكن أن تتحقق من حوار الأديان:

(**أولاً**: أعتقد أن انعقاد ندوة الرباط التي جمعت ممثلي الديانات السماوية الثلاث، اليهودية والإسلامية والمسيحية، في بلدٍ إسلامي كالمغرب يعتبر كسباً في حد ذاته.

---

(١) الأشكيناز هم أساساً يهود شرق أوروبا... وقد اتسعت دلالته بحيث أصبح يتضمن كل يهود الغرب بما في ذلك الولايات المتحدة الأمريكية، وذلك في مقابل «السفارديم» أي اليهود الشرقيين. ويشكل الأشكناز غالبية يهود العالم حوالي ١٤ مليوناً أي ٨٨,١٪ من يهود العالم. انظر: الأعياد والمناسبات والطقوس لدى اليهود. (٣٢ ـ ٣٤)، (٥٦ ـ ٥٧).

وثانياً: استبعاد بعض الأفكار الخاطئة مثل: الصراع بين الأديان. ويتعين تجنيب الأديان الصراعات أو النزاعات التي يمكن أن تقع بين الدول لاعتبارات سياسية، لأن الدين هو رمز التفاهم والتوحد، وهو فوق الاختلافات. وفي رأيي فإن أهم رسالة في ندوة حوار الأديان هي الدعوة للصبر والتعايش والسلام، وأن يتمسك السياسيون بمنطق السلام، وأبعد من ذلك فإن السلام ينبغي أن يكون بين الشعوب وليس بين الدول وحسب. ويمكن لرجال الدين أن يلعبوا دوراً أساسياً في إرساء السلام لأن رجال الدين لهم مكانة خاصة لدى شعوبهم)[(١)].

إن هذا اللون من التصريحات الوقتية، غير مستنكر على الشخصية اليهودية المخادعة المتلونة حسب مقتضيات المصلحة الراهنة على نمط ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ [المائدة: ٤١]، وأسلوب ﴿ءَامِنُوا بِالَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوٓا ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران]، وإلا فإنه غير خافٍ على أحد أن دولة «إسرائيل» إنما ولدت وترعرعت باسم «الدين»، على ما يعتقدونه «أرض الميعاد». وأحبار السوء الذين يتشدقون اليوم بعبارات السلام والتعايش والتفاهم هم الذين غذوا بالأمس، ويغذون اليوم، وسيغذون غداً روح التعصب للشعب المختار، واحتقار الأمميين من غير اليهود، حتى هجّروا شعباً مسلماً عن أراضيه، ووضعوا أيديهم القذرة على مقدساته، ويتحينون الفرصة التاريخية المناسبة لنسف المسجد الأقصى، وإقامة هيكل سليمان. وفي الوقت نفسه يلبسون مسوح الرهبان، ويطلقون مثل هذه التصاريح ذراً للرماد على العيون، للوصول إلى أهدافٍ مصلحية آنية. وقد كشف الحاخام السالف الذكر عن طرفٍ من هذه الأهداف قائلاً: (قمنا منذ مدة، وبطريقة سرية باتصالات مع قضاة، وشخصياتٍ دينيةٍ مسلمة

---

(١) جريدة الشرق الأوسط. عدد (٧٠٢٣) في ١٩/٢/١٩٩٨م.

ومسيحية، وكان ذلك برعاية الحكومة السويدية. وقد بدأت الاتصالات في مستوى أكاديمي، وبدأت تتعمق لتشمل رجال الدين، وتهدف للتقارب بين ممثلي الديانات الثلاث. وشخصياً أسعى للالتقاء قريباً وبصفة مباشرة مع المفتي الأكبر في سورية، كما أسعى من خلال اتصالات مع أوساطٍ دينية إيرانية لترتيب وضعية حاخام أكبر بإيران، لأن الجالية اليهودية هناك ليس لديها حاخام أكبر. . .)[١].



(١) جريدة الشرق الأوسط. عدد (٧٠٢٣) في ١٩/٢/١٩٩٨م.

المبحث الخامس

حقيقة التقريب بين الأديان عند الإسلاميين العصرانيين

تولى كِبْر الدعوة إلى التقريب بين الأديان في العصر الحديث من جانب المسلمين طائفة من المنسوبين إلى العلم والفكر والدعوة، اصطلح على تسميتهم بالعصريين أو «العصرانيين». ولعل مصدر هذه التسمية راجع إلى التشابه بينهم وبين الحركة العصرانية في الديانة المسيحية (Modernism)، وهي:

(حركة دينية كاثوليكية، تطورت في أواخر القرن التاسع عشر... وكانت غايتها تحديث الفكر الديني، والتوفيق بين التراث والآراء العصرية في الفلسفة والتاريخ والسياسة والاجتماع والعلم)(١). ففي نفس الفترة ظهر في نواح من العالم الإسلامي الذي كان يرزح تحت وطأة الاستعمار الأوروبي دعاة مشبوهون، حملوا لواء «التحريف» باسم «التجديد»، ورفعوا مبادئ «التغريب باسم «الاستنارة»، وخلعوا على أنفسهم لقب «أصحاب الفكر الديني المستنير»(٢)، وسمى تلاميذهم عصرهم ذاك بـ «عصر النهضة»(٣)، وطريقتهم بـ «المدرسة الإصلاحية».

وقد استحيا رواد هذه المدرسة رفات الفكر الاعتزالي الذي اندرس أو كاد(٤)، يضاهئون به الاتجاهات العقلانية المنتصرة في أوروبا

---

(١) الموسوعة الفلسفية. د. عبد المنعم الحفني (٢٨٢).

(٢) انظر: العصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التغريب. محمد حامد الناصر (١٧٥).

(٣) انظر: سلسلة موسوعة عصر النهضة. سمير أبو حمدان.

(٤) الواقع أن الفكر الاعتزالي اختفى اسمه، وبقي مضمونه لدى بعض الفرق والطوائف كالإمامية والزيدية.

على الكنيسة حينذاك، ويخيل إليهم - على أحسن المحامل - أنهم يجددون أمر الدين، ويصلحون فساد المجتمعات الإسلامية المنحطة في دركات الجهل والهزيمة والتخلف.

ومن أبرز معالم تأثرهم بالمعتزلة ما يلي:

أ - الغلو في تقديس العقل، وتقديمه على النقل مطلقاً عند التعارض الظاهري[1]. فإن كان المنقول ظني الثبوت عندهم - وهي أحاديث الآحاد - ردوه وأبطلوه. وإن كان قطعي الثبوت - وهو القرآن الكريم والسنة المتواترة - تأولوه بما يوافق معقولهم، ولو بتكلف أو تعسف. فمنهجهم في النظر والاستدلال هو «العقل»، وآلته «المنطق» و«علم الكلام».

ومن فروع هذا الأصل الفاسد:

١ - محاولة تأويل الغيبيات والمعجزات تأويلاً عقلياً حسياً، مجاراة للفكر السائد في أوروبا الذي يقوم على الإيمان بالماديات، وإنكار الغيبيات. كتأويل بعضهم للملائكة والجن والطير الأبابيل ونحو ذلك.

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية كَلَّلهُ: (كل ما يدل عليه الكتاب والسنة فإنه موافق لصريح المعقول، وإن العقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح. ولكن كثيراً من الناس يغلطون إما في هذا وإما في هذا، فمن عرف قول الرسول ومراده كان عارفاً بالأدلة الشرعية، وليس في المعقول ما يخالف المنقول... وكذلك «العقليات الصريحة» إذا كانت مقدماتها وترتيبها صحيحاً، لم تكن إلا حقاً، لا تناقض شيئاً مما قاله الرسول) مجموع الفتاوى (١٢/ ٨٠ - ٨١).
وقال أيضاً: (إن الرسول لا يجوز عليه أن يخالف شيئاً من الحق، ولا يخبر بما تحيله العقول وتنفيه، لكن يخبر بما تعجز العقول عن معرفته. فيخبر بمحارات العقول لا بمحالات العقول) درء تعارض العقل والنقل (٥/ ٢٩٧).

٢ ـ رد النصوص الثابتة التي تخالف في نظرهم معطيات العلم الحديث، كحديث الذباب[(١)].

٣ ـ القول على الله بغير علم في حمل بعض نصوص القرآن على ما استجد من كشوفٍ علمية، أو حتى ما كان في طور النظرية.

ب ـ النيل من مكانة السنة النبوية إما بإنكار حجيتها، أو بإبطال الاستدلال بأحاديث الآحاد في مسائل الاعتقاد، والطعن في منهج المحدثين، والتشكيك في سلامة مقاييسهم، ومدوناتهم التي تلقتها الأمة بالقبول، كالصحيحين، والقدح في عدالة بعض الصحابة والرواة الأثبات.

ج ـ تمجيد أئمة الاعتزال والمبتدعة، بل وبعض الفلاسفة المارقين من الدين، أحياناً، وتصويرهم بصورة المتحررين والشجعان والشهداء، في مقابل الحط من بعض أئمة السنة، ونبزهم بألقاب السوء، كما صنع المعتزلة.

كما استظهر هؤلاء العصرانيون بعض أفكار المستشرقين ودعاة التغريب، وركنوا إليهم، وحجُّوا العواصم الأوربية، وأووا إلى كنف المستعمرين، واستظلوا بظلهم، فأورثهم ذلك رقة في الدين، وجرأة على التلاعب بأحكامه، والخروج على إجماع الأمة، باسم «الاجتهاد» و«التجديد» و«التطوير»، ولكن دونما ضوابط ولا أهلية، وإنما أرادوا تطويع المجتمعات الإسلامية لمقتضيات الحياة الغربية العلمانية.

---

(١) وهو ما رواه أبو هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه، ثم لينزعه، فإن في أحد جناحيه داءً، وفي الآخر شفاءً». أخرجه البخاري: (٦/ ٣٥٩)، وزاد أبو داود: (وإنه يتقي بجناحه الذي فيه الداء) رقم (٣٨٤٤).

ومن مفردات هذه الأفكار والدعوات، في مجال التطبيق والسلوك ما يلي:

١ ـ الدعوة إلى إلغاء الجهاد في سبيل الله.

٢ ـ مهاجمة «الحكومة الدينية»، والاستعاضة عنها بالحكومة المدنية العلمانية.

٣ ـ التشكيك في ثبوت بعض الحدود الشرعية كحد الردة، وحد الرجم للزاني المحصن.

٤ ـ إلغاء أحكام أهل الذمة، واستبدالها بقيم «المواطنة» و«القومية».

٥ ـ الدعوة لتحرير المرأة على النمط الغربي، والمناداة بإلغاء الطلاق، وتعدد الزوجات، والمساواة في الميراث.

٦ ـ تأنيس الربا، والتوسع في المعاملات المحرمة.

٧ ـ موادة أهل الكتاب، وتوليهم، والدعوة إلى تقارب الأديان.

وقد حظي هؤلاء بعطف المستعمرين ودعمهم، فمكنوا لهم في الأرض ينشرون فكرهم المنحرف، وفتاويهم الشاذة تحت ستار التجديد والاجتهاد.

ويعرّف الأستاذ يوسف كمال هذا الاتجاه بقوله: (مذهبٌ جديد بدأ في مطلع هذا القرن، قرن الهزيمة والضياع، وهو في جوهره إحياءٌ لآراء الخوارج والمعتزلة. تولى أمره رجالٌ أريد لهم الصدارة في المكان والرواج في الفكر. يندر أن تعرف أحدهم دون أن تحس منه بشعور من يظن أنه مجدد، وأنه لم يسبق إلى فكره»[1].

وكل فقرة من مفردات فكر هؤلاء العصرانيين، إن في منهج النظر

---

(١) العصريون، معتزلة اليوم: يوسف كمال. دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ـ المنصورة ـ مصر. الطبعة الثانية (١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م). (٧).

والاستدلال، أو في مجال التطبيق والسلوك تحتاج إلى بحثٍ مستقل لا تتسع له صفحات هذا المبحث المتخصص[1]، وحسبنا أن نعنى بموقفهم من «قضية التقريب بين الأديان»، وإماطة اللثام عن أبعاده العقدية والعملية عندهم.

وبين يدي هذا العرض لمقولات العصرانيين واتجاهاتهم، نلفت الانتباه إلى أن أفراد هذه المدرسة والمتأثرين بها ليسوا على درجة واحدة من الانحراف الفكري، ففيهم الفقيه الذي طغت عليه ثقلة المتغيرات الحديثة، وأخذته حمى دفع الشبهات عن الإسلام، ودُفِع به أمام أجهزة الإعلام المختلفة فزلت به قدم في قضية أو قضيتين أو أكثر، باسم «مصلحة الدعوة».

وفيهم الصحفي الذي يفتقر إلى العلوم الشرعية، ويقتات على الموائد الفكرية المتاحة، فلا يستنير بنور الله، ولا ينهل من منبع الكتاب والسنة، بل محض الآراء والأذواق، ويتحدث باسم الإسلام، ويُعرَّف بوصفه «كاتب إسلامي» لدى عامة القراء.

وفيهم العقلاني المغرق في عقلانيته، الذي لا يرى في الكتاب والسنة مرجعية عند الاختلاف، بل يحكم فكره وتصوره اتجاهات المدارس الغربية الحديثة.

---

(١) انظر في ذلك: الإسلام والحضارة الغربية، والاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر. كلاهما للدكتور محمد محمد حسين، العصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التغريب. محمد حامد الناصر، العصريون معتزلة اليوم. يوسف كمال، المعتزلة بين القديم والحديث. الفصل الرابع (١٢٩ ـ ١٣٩). محمد العبدة، طارق عبد الحليم، الفكر الإسلامي المعاصر. دراسة وتقويم: غازي التوبة. دار القلم. بيروت ـ لبنان. الطبعة الثانية ١٩٧٧م، جذور الانحراف في الفكر الإسلامي الحديث. جمال سلطان، مفهوم التجديد بين السنة النبوية وبين أدعياء التجديد المعاصرين. د. محمود الطحان.

وقد أشار إلى هذا التنوع أحدهم ـ وصاحب الدار أدرى بما فيها ـ فقال:

(. . . فريقٌ يفهم «العصرية» على أنها التحاق كامل بالموقف الغربي في مختلف القيم الدينية والاجتماعية السائدة. وفريق ثانٍ يرى فيها تحديثاً للأحكام الفقهية بحيث تصبح أكثر ملائمة لروح العصر، مع التزام بالأصول والكليات في الرسالة الإلهية. وطرف ثالث يفهمها باعتبارها «تجديداً» في الدين ذاته، يحتمل الانخلاع من الأصول ـ بعضها أو كلها ـ ولا يمانع من أن ينتقي من الخطاب الإلهي ما يوافق تصوره للمصلحة، متبيناً بعض النصوص والمواقف، ومعارضاً أو متحفظاً تجاه نصوص ومواقف أخرى»[(١)].

وبالتالي فإن هؤلاء العصرانيين يقفون على درجات متفاوتة في سلم الانحراف.

وتتفاوت مقالاتهم ما بين «البدعة» و«الكفر»، بصرف النظر عن قائليها، فذلك لا يعنينا هاهنا، وإنما يعنينا كشف خطر هذه المقالات على عقيدة الأمة.

كما أن قول بعضهم ليس بملزمٍ للآخرين. يقول الأستاذ محمد حامد الناصر في بحثه القيم «العصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التغريب»: (والحقيقة أن العصرانيين يمثلون تياراً عاماً لم تكتمل ملامحه بعد، ولم تكن اجتهادات رجاله واحدة، وإنما يشتركون في ملامح عامة، وخصائص مشتركة عموماً. والعصرانيون ليسوا سواء في منطلقاتهم وأهدافهم، وقد يلتقي معهم في بعض المسائل من ليس منهم، ولا يوافقهم على كثيرٍ من غلوهم وجموحهم)[(٢)].

---

(١) التدين المنقوص. فهمي هويدي. مقالة: «ليبراليون وسلفيون» (٢٥٩).
(٢) مقدمة: العصرانيون بين مزاعم التجديد، وميادين الغريب (٧).

وقد تقدم في مبحث «الأصول التاريخية لدعوة التقريب»، أن أول من نادى بالتقريب بين الأديان في أوساط المسلمين بصورته الأخيرة جمال الدين الأفغاني، ثم تلميذه محمد عبده. ولم يزل دعاة التقريب من العصرانيين يمجدونهما، ويشيدون بمآثرهما في هذا المضمار، وينسجون على منوالهما.

وسوف نعرض «حقيقة التقريب» عند هؤلاء الإسلاميين العصرانيين من خلال ثلاثة محاور:

الأول: الشبهات العقدية لدعوة التقريب.

الثاني: التطبيقات العملية في معاملة أهل الكتاب.

الثالث: مفهوم التقريب ومنهجيته عندهم.

أولاً: الشبهات العقدية لدعوة التقريب عند الإسلاميين العصرانيين:

كان لا بد لدعاة التقريب بين الأديان، بله التوحيد، من مقدماتٍ عقدية يسوِّغون بها مشروعهم البدعي، تماماً كما احتاجت الكنيسة الكاثوليكية في المجمع الفاتيكاني الثاني (١٩٦٢ ـ ١٩٦٥م) إلى استحداث فكرة تعدد سبل الخلاص لأتباع الديانات الأخرى لتمرير مشروع التقارب، والخروج من أسر الإطلاقية الدينية: «لا خلاص خارج الكنيسة»[(١)].

ولكن الأمر يختلف بالنسبة للإسلام، فعقيدته محفوظة مصونة، وحدوده بيِّنة واضحة، لا مجال فيها لتلاعب المتلاعبين، وتحريف المحرفين. ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر]، بخلاف دين النصارى الذي اتخذه أهله هزواً ولعباً، منذ مجمع نيقية سنة ٣٢٥م حتى مجمع الفاتيكان الثاني المذكور آنفاً. قال شيخ الإسلام ابن

---

(١) انظر: المبحث الأول من هذا الفصل.

تيمية ﷺ: (وكل عاقل يعلم أن النصارى أعظم الملل جهلاً وضلالة، وأبعدهم عن معرفة المعقول والمنقول، وأكثر اشتغالاً بالملاهي، وتعبداً بها»[(١)].

ومن ثم صُدِم هؤلاء العصرانيون بصراحة النصوص القرآنية، وخطف أبصارهم ضوؤها، فحيل بينهم وبين ما يشتهون، فلجأوا إلى باب التحريف الذي سموه «تأويلاً»، كما فعل أشياعهم من قبل، من المعتزلة وغيرهم، بل قد سلكوا مسلكاً أبشع منهم، وأكثر جرأة وعدواناً على النصوص القرآنية، حيث مالئوا كفرة أهل الكتاب على فكرة إخضاع النص القرآني لمعاول النقد التاريخي، واعتضدوا في سبيل بلوغ هذا الهدف الخبيث بالدعوة إلى إحياء عقيدة القول بخلق القرآن عند المعتزلة، لينزعوا عن الكتاب العزيز صفة القداسة والعصمة الإلهية، بوصفه مخلوقاً، ثم يشرعوا بإعمال مباضعهم في تجريح النصوص، وفق أهوائهم. فبئس الهدف، وبئست الوسيلة. يقول أحدهم، طريف الخالدي: (أرى من بين تلك المشكلات التي يجب الخوض فيها من جديد مسألة «خلق القرآن». فالقول بخلق القرآن يعني أن القرآن تاريخي. وهذا أمرٌ هامٌ جداً يتيح لنا أن ننظر من خلاله إلى الإسلام كظاهرة تاريخية، لا كنظام أزلي. كنصٍ ينبغي أن نعيد فهمه باستمرار على ضوء آخر ما استجد من العلوم البشرية، وآخر ما وصلنا إليه من فهم لتاريخ الحضارة الإسلامية»[(٢)].

وقبل أن يفيق المؤمن من هول هذه الكلمات الفجة الجريئة، يعاجله الكاتب بالنتائج التي يرجوها من تطبيق هذا المبدأ الخطير،

---

(١) مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٨٧).

(٢) اللاهوت المسيحي وعلم الكلام الإسلامي. طريف الخالدي. من: المسيحيون العرب. دراسات ومناقشات: تحرير: إلياس الخوري. مؤسسة الأبحاث العربية. بيروت ـ لبنان. (١٤٥).

فيقول متابعاً: (وهنا نعود فنلتقي مع اللاهوت المسيحي لنؤكد ونشهد: إذا كان الإسلام بالفعل خاتم الأديان، فهو لا يختتم حقاً إلا بالمسيحية، أي أن كماله مشتق من كمالها، كما تجلى ذلك في تاريخ الحضارة العربية.

وإذا ألقينا نحن المسلمين نظراً على اللاهوت المسيحي لنرى ماذا يفرقنا عن بعضنا البعض، نرى أن التثليث، على عكس ما قد يتصوره البعض، هو أهون العوائق بيننا. أما أصعب العوائق فيما بيننا فهو على عكس ما قد يظنه البعض، مسألة صلب المسيح، فالصليب طريق الخلاص في المسيحية جمعاء، عربية كانت أم غربية. ونفي الصلب واضحٌ وصريحٌ في القرآن، ولكني أرى أن حتى هذا العائق لا يشكل في الواقع عائقاً حقيقياً. فالمسلم أيضاً يحمل معه «صليبه» الذي يؤدي به إلى الخلاص كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الإسراء](١)).

هذا ما تثمره منهجية «النقد التاريخي» التي يطالب بها هؤلاء المداهنون لأهل الكتاب، فينكرون ختم الرسالات الإلهية بدين الإسلام، فهو كما زعم الكاتب (لا يختتم حقاً إلا بالمسيحية، أي أن كماله مشتق من كمالها). ويخلط التاريخي بالعقدي تمويهاً وتلبيساً. فأين هو من قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾ [المائدة: ٣]؟!

مقاييس النقد عنده توصله إلى أن (التثليث... هو أهون العوائق)!

كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً. فأين الذي

---

(١) المرجع السابق.

يستهل مقالته الفاجرة بقوله (نحن المسلمين) من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾﴾ [النساء].

وحتى ما يراه أصعب العوائق، مسألة صلب المسيح، لا يراه في الواقع عائقاً حقيقياً، ولا يكرثه أن يؤوله تأويلاً باطنياً بأسهل ما يكون.

ألا يكف هؤلاء عن الاستشهاد بآيات الكتاب، ويعلنوها صريحة: أن قرآنهم: عقولُهم الفاسدة وآراؤهم الشاذة، إلا فيما وافق أهواءهم.

وما يقوله هذا العصراني المتحرر ببجاحة، يردده بعض أصحاب العمائم السود على استحياء. يقول داعية التقريب الملقب بـ (آية الله) محمد حسين فضل الله[١]: (ويتساءلون[٢] ـ بعد ذلك ـ هل يمكن أن نطبق النقد التاريخي على القرآن الكريم كما نطبقه على الكتاب المقدس ليكون الحوار حراً في الدائرة العلمية الدقيقة؟.

---

(١) محمد حسين فضل الله: ولد في النجف سنة (١٣٥٤هـ ـ ١٩٣٣م)، ودرس فيها على كبار علماء الشيعة إذ ذاك. هاجر إلى لبنان سنة (١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م)، أسس في بيروت «المعهد الشرعي الإسلامي»، وهو حوزة شيعية خرجت العديد من علماء الشيعة في لبنان، وقف مع الثورة الإيرانية بقيادة الخميني، وانخرط في دوامة الحرب الأهلية في لبنان، ويعد المرجع الروحي لحزب الله في لبنان. من مؤلفاته: «أسلوب الدعوة في القرآن»، «قضايا على ضوء الإسلام»، «الحوار في القرآن»، «الإسلام ومنطق القوة»، «في خطى كربلاء». انظر كتاب: آية الله السيد محمد حسين فضل الله. داعية حوار... أم ذمية. عماد شمعون (١٥ ـ ٢٥).

(٢) يريد: علماء النصارى.

نلاحظ في ذلك أن علماء المسلمين دخلوا في مناقشاتٍ علمية في مفاهيم القرآن، أكثر حدةً وقساوة على الإيمان من المناقشة في الجانب التاريخي فيه. وذلك في المسائل المتعلقة بالإيمان، كالتجسيم والجبر ونحو ذلك، فانطلقوا في خط التأويل للظواهر في المسائل التي تختلف مع العقل القطعي، أو الحجة الفكرية، مما يجعل مناقشة التاريخ القرآني ممكنةً في المنهج العقلي الإسلامي، الذي يعمد إلى التأويل المنسجم مع السياق المجازي للقرآن، على أساس القواعد العربية البلاغية العامة)[1].

فلننظر إذاً إلى أي مدى تمتد إمكانية مناقشة التاريخ القرآني في نظر الكاتب، وإلى أي حدٍ يتسع التأويل المنسجم مع السياق المجازي للقرآن - بزعمه - ليكون الحوار حراً في الدائرة العلمية الدقيقة، وعلى أساس القواعد العربية البلاغية العامة، كما شرط. يقول آية الله! : (إن الحوار لا بد أن يرتكز على مواجهة العقيدة المعاصرة للإسلام والمسيحية، وباعتبار أن الكثير من مفاهيم العقيدة لكلٍ منهما ربما تجاوزها الواقع الفكري لهذا أو ذاك، مما يجعل الدخول في مناقشتها حركة في الفراغ. كما نلاحظه في بعض الأفكار التي يثيرها القرآن عن التفكير النصراني في عصر النزول، مثل «الإبنية المتجسدة» أو «التثليث المادي المتعدد»، أو نحو ذلك مما يقول بعض المسيحيين عنه بأنه لا يمثل العقيدة المعاصرة لهم، بل يمثل لوناً من ألوان التفكير البائد لبعض فرقهم التي يرفضون خطها العقيدي، كما يرفضه المسلمون، فلا يجوز لهم أن يلزموهم به، كما لو كان يمثل

(١) في آفاق الحوار الإسلامي المسيحي: آية الله السيد محمد حسين فضل الله. دار الملاك - لبنان. الطبعة الأولى (١٤١٤هـ - ١٩٩٤م) (١٠٩) أو: العلاقات الإسلامية المسيحية: قراءات مرجعية في التاريخ والحاضر والمستقبل (٥٠ - ٥١).

الحقيقة الإيمانية للمسيحية في بعدها الفكري العقيدي)[١].

ونسائل الكاتب **أولاً**: هل في الإسلام عقيدة معاصرة وعقيدة بائدة تجاوزها الواقع؟ لئن كان ذلك موجوداً في بعض الفرق المنتسبة إلى الإسلام التي تعتمد «التقية» والظهور بوجهين مختلفين، فإن ذلك لا وجود له البتة في الإسلام الذي كان عليه النبي ﷺ وأصحابه الصادقون الطاهرون، رضوان الله عليهم.

ونسائله **ثانياً**: من قيَّد (الإبنية) التي أنكرها القرآن على اليهود والنصارى والمشركين بقيد (المتجسدة)؟ ومن قيّد (التثليث) الذي شنع الله به على النصارى بقيد (المادي المتعدد)؟

هلَّا أتيتنا بكتابٍ من قبل هذا أو أثارة من علمٍ إن كنت من الصادقين؟

وكيف تساق هذه الشبهات سوقاً بارداً على خبر الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ويُعتزى بمراوغات ومغالطات (بعض النصارى) المبهمين، من أمثال الأب يوسف درة الحداد، والمطران جورج خضر، والمطران كيرلس سليم بسترس[٢]، وأمثالهم من بلديّيه، فيروج الكاتب آراءهم ومزاعمهم، ويدع شهادة القرآن والواقع متذرعاً بمنهج التأويل المزعوم، الذي يرفع عن نصارى اليوم القول بالتثليث وبنوة المسيح، مع أنهم لم يقولوه، ولكن لتمرير مشروع التقريب، يتمحل لهم الأعذار باسم منهج النقد التاريخي للقرآن.

بقي أن نقول إن المعتزلة رغم قولهم بخلق القرآن، لم يقصدوا بذلك ما قصده هؤلاء العصرانيون من إنكار عصمته، وإمكانية نقده،

---

(١) في الآفاق الحوار الإسلامي المسيحي. المقدمة (٣).

(٢) انظر: مناقشة شبهات هؤلاء في مبحث «النصارى العرب» (٤٣١ ـ ٤٤٨)، (٤٥٦ ـ ٤٦٠)، (٤٧٨ ـ ٤٩٥).

على ما وقعوا فيه من تحريف، بل إنهم يعدونه أعظم الدلائل على صدق نبوة محمد ﷺ لكونه معجزاً للعالمين[1]، ولم ينحطوا إلى ما انحط إليه هؤلاء مداهنةً وتملقاً لأعداء الله.

هذان المثالان السابقان يكشفان عن منهج القوم تجاه التعامل مع النصوص القرآنية المتعلقة بأهل الكتاب، فإذا ما دلفنا إلى تفاصيل مسعاهم إلى «التقريب» و«التوحيد» بين الأديان، نجده يتجه إلى محاولة إثبات إيمان اليهود والنصارى اليوم، وأنهم ناجون يوم القيامة. وقد سلكوا في سبيل هذه الغاية مسالك شتى يتداخل بعضها مع بعض، نحاول تمييزها فيما يلي:

أولاً: التلبيس بأن أهل الكتاب اليوم مشمولون بـ«الإسلام» بمعناه العام:

مما لا شك فيه أن الإسلام بمعناه العام، يعني الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك. وهو بهذا المعنى دين الله للأولين والآخرين، لا تختلف هذه المعاني في أي رسالة من رسالات الله، بل هي أصلها الذي تدور عليه[2]. كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء]. قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀: (ولهذا كان رأس الإسلام «شهادة أن لا إله إلا الله»، وهي متضمنة عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه. وهو الإسلام العام الذي لا يقبل الله من الأولين والآخرين ديناً سواه. كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى

---

(١) انظر: على سبيل المثال: «المختصر في أصول الدين» للقاضي عبد الجبار المعتزلي من مجموعة رسائل العدل والتوحيد. دراسة وتحقيق د. محمد عمارة (١/ ٢٦٦). وانظر: في الرد على محاولات نقد النص القرآني: «هجمة علمانية جديدة ومحاكمة النص القرآني» د. كامل سعفان.

(٢) راجع مبحث: «دين الإسلام» في التمهيد.

ٱلْأَخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [آل عمران][(١)]. ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران]

فهل بقي هذا الوصف مستحقاً لهاتين الطائفتين، أم زال عنهما؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀: (فابتدعت اليهود والنصارى ما ابتدعوه مما خرج بهم عن دين الله الذي أمروا به، وهو الإسلام العام. ولهذا أمرنا أن نقول: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ ﴾ [الفاتحة]. وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «اليهود مغضوبٌ عليهم والنصارى ضالون»[(٢)]. وكل من هاتين الأمتين خرجت عن الإسلام وغلب عليها أحد ضديه، فاليهود يغلب عليهم الكبر ويقل فيهم الشرك. والنصارى يغلب عليهم الشرك ويقل فيهم الكبر)[(٣)].

وعلى هذا فكل ما جاء في القرآن من الثناء على مؤمني الأديان السابقة، اليهود والنصارى وغيرهم، فإنما يراد به من اتصف بوصف الإسلام العام، وربما أضيف إلى ذلك وصف الإيمان باليوم الآخر، ووصف العمل الصالح، ممن لم يدرك رسالة نبينا محمد ﷺ، أو

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٥). قال الطبري ﵀ في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ ﴾: (إن الطاعة التي هي الطاعة عنده: الطاعة له، وإقرار الألسن والقلوب له بالعبودية والذلة، وانقيادها له بالطاعة فيما أمر ونهى. وتذللها له بذلك من غير استكبار عليه ولا انحراف عنه دون إشراك غيره من خلقه معه في العبودية والألوهية) جامع البيان (٣/ ٢١٢).

(٢) رواه الترمذي (١١/ ٧٣ ـ ٧٥)، وأحمد (٤/ ٣٧٨). وغيرهما. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: (رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير عباد بن حبيش. وهو ثقة) (٥/ ٣٣٧ ـ ٣٣٨).

(٣) مجموع الفتاوى (٧/ ٦٢٤).

أدركها وآمن به. وكل ما جاء من الذم والوعيد في شأن اليهود والنصارى، فالمراد به من خالف ذلك وحرّف وابتدع.

وهذا أمرٌ معلومٌ بالضرورة من دين الإسلام، ولله الحمد. ولكن دعاة التقريب أرادوا التلبيس على العامة، بحمل نصوص الإسلام العام على أهل التثليث والكِبر من كفرة أهل الكتاب، وإيهام الناس بأنهم مشمولون بذلك الوصف الحميد، الذي رتب عليه الجزاء الأخروي بالفوز بالجنة والنجاة من النار، وإليك أيها القارئ أمثلة من مغالطات القوم في هذا الباب.

١ ـ محمود أبو رية:

قال: «إن النجاة من الخوف والفزع، ونيل المثوبة والأجر، أمران منعقدان بأن يؤمن الإنسان بالله وباليوم الآخر، وأن يأتي من الأعمال ما هو لصلاح الدنيا والآخرة. فمن فعل هذا فله أجره عند ربه ولا خوفٌ عليه ولا حزن. لا فرق في ذلك بين من كانوا على ملة إبراهيم، ومن كانوا على دين غيره من الأنبياء كموسى وعيسى، بل وغيرهم ممن لم يدينوا بشيء من تلك الأديان»[١].

فهذا الكاتب الذي اشتهر بالتجني على السنة النبوية، وعلى شخص الصحابي الجليل أبي هريرة ﷺ[٢]، قد تجنى على الكتاب

(١) دين الله واحد: محمود أبو رية. عالم الكتب. (٥٢).

(٢) انظر كتابه: أضواء على السنة المحمدية. وكتابه: شيخ المضيرة أبو هريرة. وقد ألّف في الرد عليه أكثر من خمسة عشر كتاباً، منها: ظلمات أبي رية أمام أضواء السنّة النبوية، للشيخ محمد عبد الرزاق حمزة، وكتاب: الأنوار الكاشفة لما في كتاب أضواء السنّة من الزلل والتضليل والمجازفة. للعلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي، وكتاب: السنّة ومكانتها من التشريع. للدكتور مصطفى السباعي. وغيرها. ويكفيه رداً ما رواه أبو هريرة ﷺ نفسه، أن رسول الله ﷺ دعا له فقال: «اللهم حبّب عبيدك هذا وأمه إلى=

العزيز، في تأويل قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة]، فحمله على إيمانٍ مطلق، وعمل مطلق، دون مراعاة دين الله وشرعه في زمان معين[١]. وهو لا يكتفي بالخلط والتلبيس، وعدم التمييز بين مؤمني أهل الكتاب قبل بعثة النبي ﷺ، ومشركيهم الذين أبوا واستكبروا عن قبول ما جاء به محمد ﷺ، بل يحشد معهم من لم يدن بشيء من الأديان، ويفرق بين ملة إبراهيم ودين موسى وعيسى، وهم جميعاً على ملة إبراهيم، التي وصاهم الله بها جميعاً كما في قوله: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى].

وقد حكى عنه فهمي هويدي حكاية تكشف عن مقاييسه الطائشة في أحكام الآخرة، من أنه حضر مجلساً لبعض المشايخ، وسألهم عن «أديسون» مخترع المصباح الكهربائي، فأخبروه أنه حيث لم ينطق بالشهادتين فهو من أهل النار، فخاطبهم قائلاً: (إذا كان مثل هذا الرجل العظيم، وغيره من الذين وقفوا حياتهم على ما ينفع البشرية جمعاء بعلومهم ومخترعاتهم، لا يمكن ـ حسب فهمكم ـ أن يدخلوا الجنة شرعاً، لأنهم لا ينطقون بالشهادتين، أفلا يمكن أن يدخلوها عقلاً بفضل الله ورحمته، ما داموا يؤمنون بخالق السموات والأرض)[٢].

= عبادك المؤمنين، وحبِّب إليهم المؤمنين». قال: فما خلق مؤمن يسمع بي ولا يراني إلا أحبّني. رواه مسلم (١٩٣٩/٤).

(١) راجع مبحث «أهل الكتاب» في التمهيد لبيان معنى الآية الكريمة.

(٢) مجلة العربي الكويتية عدد (٢٦٧) (٥٠) ربيع الأول ١٤٠١هـ. فبراير (١٩٨١م).

ألم يقرأ قول الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الزخرف] بل وأكثر مما ذكر، قال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المؤمنون]. وهذه إقرارات لمشركي العرب أعظم مما أثبته أبو رية مؤهلاً لأديسون وأمثاله لاستحقاق الجنة، ومع ذلك لم ينفعهم ـ مشركي العرب ـ إقرارهم بتوحيد الربوبية دون إقرارهم بتوحيد الألوهية وتصديق محمد ﷺ.

أما إن كان يرى استحقاقهم الجنة بما قدموا من أعمال نافعة للبشرية فتلك ظلمات بعضها فوق بعض، فقد قال الله عن المشركين الذي يطعمون الحجيج، ويفكون العاني ونحو ذلك من صور الإحسان: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان]. والخلق إما كافرٌ وإما مؤمن: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، فمن لم نعلم اعتناقه لدين الإسلام بعد بعثة محمدٍ ﷺ حكمنا بكفره في الدنيا. والحكم بالنار على كل كافر هو صريح الكتاب والسنّة، وأما استحقاق معين للنار فمتوقف على ثبوت شروط، وانتفاء موانع، كقيام الحجة الرسالية، ونحو ذلك.

٢ ـ محمد سعيد عشماوي:

قال: (المقصود بالآية: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران]، ومن يبتغ غير دين الإسلام الذي دعا إليه كل الأنبياء والرسل، والذي اعتنقه أتباعه، والقرآن الكريم يفرق بين المشركين والكفار الذين لا يؤمنون بالله ولا بالرسل، ولا يعملون صالحاً، وبين أهل الكتاب من اليهود والنصارى.

من هؤلاء مَنْ يؤمن بالله ويعمل الصالحات. وهو المقصود بالآية الكريمة التي تبشر بألا خوفٌ عليهم ولا حزن)[١].

إن هذا السياق المجمل الذي لا يراعي التفريق بين من سبق بعثة النبي محمد ﷺ ومن أدركها من أهل الكتاب، ويجري الحكم فيهم مجرى واحداً، يوقع في اللبس والإيهام، وتصحيح ما عليه عامة اليهود والنصارى اليوم. وحتى مع القول أن الآية السابقة تعني الإسلام بمعناه العام، فهل اليهود والنصارى مؤمنون حقاً بالله، وبرسله، ويعملون الصالحات؟! هل التثليث وادعاء بنوة المسيح وعزير لله إيمان؟ وهل التفريق بين رسل الله، والكفر برسالة النبي محمد ﷺ إيمان بالرسل؟ وهل ما أحدثه اليهود والنصارى من البدع والشركيات يعد من العمل الصالح؟ سبحانك هذا بهتانٌ عظيم.

٣ ـ عبد اللطيف غزالي:

قال: (الإسلام الذي لا يقبل غيْره الله هو أن تسلم وجهك لله وأنت محسن. وأي امرئ كان هذا حاله، فإنه مسلم سواءٌ كان مؤمناً بمحمدٍ، أو كان من اليهود أو النصارى، أو الصابئين، وإذن فله أجره عند ربه ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون... والركوع والسجود وما إليهما في الصلاة، وصيام نهار رمضان، وشعائر الحج إلى بيت الله في مكة، ليست هي ذات الإسلام، ولا تفيد بذاتها إسلام)[٢].

ماذا يصنع هذا القائل بقوله ﷺ: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان»[٣]، وفي حديث جبريل: «يا

---

(١) جريدة الأخبار (٩/ ١٢/ ١٩٧٩م) عن: العصريون معتزلة اليوم. يوسف كمال (٣٢).

(٢) نظرات في الدين. عبد اللطيف غزالي (١٦).

(٣) رواه البخاري (١/ ٨)، ومسلم (١/ ٤٥).

محمد أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً. قال: صدقت»(١).

وقد سمى الله ﷻ الصلاة بحد ذاتها إيماناً، فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣] أي: صلاتكم.

فإذا كانت أركان الإسلام، ومبانيه العظام، كما عدها وحدها محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، وصدّقه عليها أفضل الملائكة الكرام ليست هي ذات الإسلام، ولا تفيد الإسلام، فماذا يكون الإسلام إذاً؟! لم يبق سوى الزندقة والتأويلات الباطنية التي لا ترى الإيمان بمحمدٍ ﷺ شرطاً في الإيمان، ليسهل تلاقي إخوان الصفا وخلان الوفا من كفرة أهل الكتاب والمنتسبين إلى الإسلام.

٤ ـ محمد عمارة(٢):

حشا الكاتب كتيبه «الإسلام والوحدة القومية» بهذه الدعاوى الزائفة، وردها بصورة مملة، نقتطف منها ما يلي: (الفوز بأجر الله

---

(١) رواه مسلم (١/ ٣٧).

(٢) محمد عمارة مصطفى عمارة: ولد بريف مصر سنة (١٣٥٠هـ ـ ١٩٣١م)، وتعلم في المدارس والمعاهد الأزهرية، تخرج من كلية «دار العلوم» ونال درجة الليسانس في اللغة العربية والعلوم الإنسانية، اشتغل بدراسة الأعمال الكاملة لعددٍ من أعلام المعاصرين مثل جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، ورفاعة الطهطاوي وغيرهم. حصل على الماجستير سنة ١٩٧٠م بأطروحة عن «المعتزلة مشكلة الحرية الإنسانية»، والدكتوراه سنة ١٩٧٥م عن «الإسلام وفلسفة الحكم». يكتب في العديد من الدوريات الفكرية والمجلات، ويشارك في العديد من المؤتمرات والندوات، وعضوية المؤسسات والمجالس العلمية. مؤلفاته تربو على المائة منها: «معالم المنهج الإسلامي»، «الإسلام والسياسية»، «الإسلام والتعددية». انظر كتيب: التعددية: الرؤية الإسلامية والتحديات الغربية (٥٣) سيرة ذاتية.

سبحانه وثوابه، والنجاة من العذاب الذي تحدث عنه القرآن في وعيده الذي توعد به العصاة، والسعادة الإلهية التي تنفي الحزن... كل ذلك حقٌ وعد به الله سبحانه، لا المسلمين المؤمنين بالشريعة المحمدية فقط، وإنما مطلق المتدينين بالدين الإلهي، الذين جمعوا إلى إيمانهم بالألوهية، الإيمان بالجزاء والحساب، وعملوا لذلك عملاً صالحاً... جميع هؤلاء قد صدق الله لهم الوعد بالنجاة والسعادة والأمن، سواءٌ منهم الذين آمنوا بشريعة محمد أو موسى، أو عيسى، وكذلك الصابئة «ولعلهم الحنفاء»)[١]. ثم يستدل بآيتي البقرة (٦٢)، والمائدة (٦٩) كمن سلف. ثم لا يدعنا الكاتب نحاول حمل كلامه في «المتدينين بالدين الإلهي» على من سبق بعثة نبينا محمد ﷺ بل يتتبع مسارب الأفكار، ووجوه الاحتمالات، فيبادر بنفيها، وتأكيد العكس فيقول: (ولقد يحسب البعض ـ وتلك قضية هامة ـ أن هؤلاء المبشَّرين بالنجاة، من أتباع الشرائع السماوية غير المحمدية، هم من عاشوا وماتوا قبل البعثة المحمدية، أما من أدرك هذه البعثة، أو جاء بعدها فلن ينجيه الإيمان بالله والآخرة والعمل الصالح، إلا إذا هو آمن بشريعة محمد، عليه الصلاة والسلام، قد يحسب البعض هذا، ولكننا نجد في القرآن ما يقطع بأن اختلاف الشرائع السماوية حتى بعد البعثة المحمدية، لن يحول بين فرقائها الذين توزعتهم، وبين النجاة...)[٢].

ثم شرع في عرض قطعياته الدالة بزعمه على أن الإصرار على شريعة سوى الإسلام بعد بعثة محمدٍ ﷺ لن يحول بينهم وبين النجاة.

فيستدل أولاً بثناء الله تعالى على طائفة من النصارى: ﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ

---

(١) الإسلام والوحدة القومية: د. محمد عمارة. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت ـ لبنان. الطبعة الثانية ١٩٧٩م. (١٤١).

(٢) المرجع السابق (١٤٢).

أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [المائدة].

ويُعلِق قائلاً: (فالحديث عن طائفة نصرانية، ظلوا على نصرانيتهم، كانوا، أو كان فيها قسيسون ورهبان، آمنوا بالله وبشريعة عيسى التي جاءتهم - ﴿وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ - وانطبعت علاقاتهم بالمسلمين بطابع المودة والموالاة، وكانوا لذلك كله، وفي مقدمته تدينهم بشريعة سماوية، من أهل المثوبة بالخلود في الجنات التي تجري من تحتها الأنهار)[1].

لقد وقع الكاتب في سبيل تأييد باطله في تحريف الكلم عن مواضعه، والقول على الله بغير علم، حيث زعم أن هؤلاء المؤمنين (ظلوا على نصرانيتهم)، وتعامى عن قول الله تعالى عنهم: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المائدة]. فأي عبارة أصرح من هذه العبارة على إيمانهم بالرسول ﷺ وما جاء به من عند الله؟! وأي وصفٍ أدل من هذا الوصف القولي والفعلي على قبول هذه الطائفة دين الإسلام؟! ولكن الهوى يعمي ويصم ويحجب نور الهدى عن صاحبه، نعوذ بالله من الخذلان.

وهكذا فهم سلف الأمة هذه الآيات وأمثالها، فقد حكى إمام المفسرين محمد بن جرير الطبري رحمه الله قولين في المراد بهذه الطائفة فقال: (قيل إن هذه الآية والتي بعدها نزلت في نفرٍ قدموا على

(١) الإسلام والوحدة القومية (١٤٣).

رسول الله ﷺ من نصارى الحبشة، فلما سمعوا القرآن أسلموا، واتبعوا رسول الله ﷺ وقيل: إنها نزلت في النجاشي ملك الحبشة وأصحابٌ له أسلموا معه. ثم ساق الروايات في ذكر من قال ذلك، ثم قال:

وقال آخرون: بل هذه صفة قومٍ كانوا على شريعة عيسى من أهل الإيمان، فلما بعث الله تعالى ذكره نَبيه محمداً ﷺ آمنوا به)[(١)]. وذكر من قال ذلك.

هذه تفاسير السلف المعتبرة، لا تخرج عن إثبات إيمان هؤلاء النصارى برسالة محمدٍ ﷺ والدخول في دين الإسلام، إما حضورياً بالهجرة كما القول الأول، وإما غيابياً كما القول الثاني. أما القول الذي تقوّله محمد عمارة فيندرج في التفسير بالرأي والهوى.

والعجب أن يفسر أيضاً قولهم ﴿وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ بالإيمان بشريعة عيسى عليه السلام، وإن كان الإيمان بها يقتضي الإيمان برسالة محمدٍ ﷺ واتباعه لبشارته به، ولكن المقام والسياق يقتضيان أن «الحق» ها هنا هو «الحق» المذكور آنفاً بقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ فلذلك قالوا: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ﴾. قال ابن جرير رحمه الله في تفسيرها: (هذا خبرٌ من الله تعالى ذكره عن هؤلاء القوم الذين وصف صفتهم في هذه الآيات، أنهم إذا سمعوا ما أنزل إلى رسوله محمد ﷺ من كتابه آمنوا به وصدّقوا كتاب الله، وقالوا: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾، يقول: لا نقر بوحدانية الله، ﴿وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ﴾. يقول: وما جاءنا من عند الله من كتابه وآي تنزيله)[(٢)].

وأي مناسبة لحمل «الحق» على شريعة عيسى، والمقام مقام فرحٍ

---

(١) جامع البيان (٧/١ ـ ٣).
(٢) جامع البيان (٧/٧).

بما أنزل على محمد؟ وحتى على هذا المحمل البعيد فإن الآية لا تسعف الكاتب على ما أراده من تقرير صحة التدين لله بأي شريعة سابقة، فإن ما جاء به عيسى عليه السلام وغيره من أنبياء الله يقتضي أمرين: وجوب الإيمان بالنبي الخاتم ﷺ، ووجوب اتباعه أيضاً. وليس الأول فقط كما يزعم الكاتب وأمثاله، ومع ذلك لم يسلِّم لهم الأول ولا الثاني من يداهنون من اليهود والنصارى. وقد قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران] فإذا كان هذا حال الأنبياء مع نبينا محمد ﷺ، فأتباعهم من باب أولى. وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف] وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل.

ثم كيف يقبل عقلٌ أن يكون قومٌ فيهم العلم «قسيسين»، والعبادة «رهباناً»، والتواضع «لا يستكبرون»، ويخشون لسماع الحق ويفرحون به حتى تذرف دموعهم تصديقاً وفرحاً وعرفاناً، وتلهج ألسنتهم بالشهادة بالإيمان، وامتناع رد الحق الذي جاء من عند الله مُنزلاً على رسول الله، أنهم «ظلوا على نصرانيتهم»!!

تلك ثمار العقلانية الضالة، العصرانية الهوجاء، التي تحطم

العقائد، وتُحرِّف الكلم عن مواضعه، في سبيل «الوحدة القومية» و«الإخاء الديني»(١).

وقد عجم الكاتب أعواد شبهاته فكانت هذه أصلبها، وشحذ سلاح رأيه وعقله فكانت أمضاها وأذكاها، فإذا هي كما قيل:

حجج تهافت كالزجاج تخالها حقاً وكل كاسر مكسور

وما استدل به بعد ذلك من الآيات فمن هذا الباب(٢)، فلا نصرف الجهد بإعادة رده، ونكتفي بقول ابن كثير رحمه الله إثر تفسير الآيات السابقة: (وهذا الصنف من النصارى هم المذكورون في قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾ [آل عمران]، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [القصص].

ويتسع كرم الكاتب لغير أهل الكتاب، فيستضيف «المجوس» في مشروعه الإنساني، فيقول: (... هذا هو موقف الإسلام كدين: دين الله واحد، وشرائعه متعددة. والنجاة ليست وقفاً على أبناء شريعة واحدة،

---

(١) يقول محمد عمارة معلقاً على كلمة إمامه جمال الدين الأفغاني: «لقد لاح لي بارق أمل كبير: أن تتحد أهل الأديان الثلاثة... إلخ»: (فإذا عزّت «وحدة» أبناء الأديان المختلفة... فليس بالمستحيل أن يتحقق بينهم الإخاء والوفاق والاتفاق) الإسلام والوحدة القومية (١١).

(٢) انظر: الإسلام والوحدة القومية (١٤٣ ـ ١٥٠).

وإنما هي جزاء من آمن بالله الواحد، وباليوم الآخر وعمل صالحاً، يستوي في ذلك المسلمون والنصارى والصابئة واليهود... بل والمجوس)[١].

مع أن «المجوس» لم يذكروا موصوفين بالصفات الثلاث التي يكتفي بها الكاتب دون الإيمان برسالة محمد ﷺ، وهي الإيمان بالله واليوم الآخر وعمل الصالحات. وإنما ذكروا هم والمشركين مقرونين بباقي الطوائف في مقام آخر. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحج].

فكيف صاروا مشمولين أيضاً بوصف الإسلام؟! أم هي نفحة عصرانية؟ وهل ننتظر أن تغمر الرحمات العصرانية، والتسامح الديني «الذين أشركوا»؟ أم أن الوقت لا يزال مبكراً على هذه الخطوة؟

٥ ـ فهمي هويدي:

يسهم في هذا التلبيس، فَتَحْتَ عنوانٍ فَجٍّ: «الله ليس منحازاً لأحد» يقول: (... ثمة آيات قرآنية أخرى من رب الناس، تطل على كل الناس، من منظور أكثر اتساعاً وشمولاً، وتعطي قيمة العدل عند الله سبحانه، أبعاداً وآفاقاً بغير حدود. والآيات الثلاث هي:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [المائدة].

---

(١) الإسلام والوحدة القومية (١٧٩).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١٧﴾ [الحج].

والآيتان الأوليان تُسويان بين الجميع أمام الله سبحانه، وتشترطان فقط الإيمان بالله والعمل الصالح ليثاب الخيِّرون عما فعلوا، وليطمئن الجميع إلى عدالة الله «ولموازين القسط» يوم القيامة... وفي الآية الثالثة إضافة للمجوس والمشركين، وتذكير بأن حسابهم على الله يوم القيامة، وليس على أحدٍ من الناس في هذه الدنيا)[1].

ونناقش الكاتب الذي طرح أفكاره في باب «للمناقشة» في مجلة العربي، واكتفى بتوفر هذه الشروط الثلاثة، بل الشرطين؛ الإيمان بالله والعمل الصالح ـ ولا أدري لِمَ أسقط شرط الإيمان باليوم الآخر ـ ليصل إلى أن الإيمان بمحمدٍ ﷺ ليس شرطاً للنجاة في الآخرة، فنسائله:

أرأيت لو أن شخصاً في الأولين أو الآخرين لم يؤمن برسالة إبراهيم أو موسى أو عيسى عليهم الصلاة والسلام أفلا يكون مؤمناً على شرطك وحَدِّك؟ تماماً كما يكشف «منظورك الأكثر اتساعاً وشمولاً» إمكان ذلك مع كفر اليهود والنصارى بمحمدٍ ﷺ، أم يختلف الحكم حينئذٍ؟

وهل يكون إيمان بالله تعالى دون إيمان بأنبيائه جميعاً دون تفريق بين أحدٍ منهم؟ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٥١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٥٢﴾ [النساء].

---

(١) مجلة العربي الكويتية. العدد (٢٥٩) رجب (١٤٠٠هـ). يونيو (١٩٨٠م) (٣٦ ـ ٣٧).

ثم ينصب الكاتب خلافاً بين المفسرين في شأن نسخ هذه الآيات بآية: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران] فيقول: (ومن المفسرين من يخالف هذا الرأي، ويرى أن هذه الآية منسوخة بقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران] من هؤلاء الطبري وابن كثير وسيد قطب الذي يشير في «الظلال» إلى أن «العبرة بحقيقة العقيدة، لا بعصبية جنسٍ أو قوم، وذلك طبعاً قبل البعثة المحمدية، أما بعدها فقد تحدد شكلُ الإيمان الأخير». غير أن محمد عبده ورشيد رضا والشيخ دراز مثلاً، يرون أن الإسلام المقصود في الآية، والذي لا يقبل الله سبحانه سواه هو «الإيمان بالله، وإسلام القلوب له، والإيمان بالآخرة، والعمل الصالح، مع الإخلاص» بتعبير الإمام محمد عبده)[1].

وعند الرجوع إلى تفاسير الطبري وابن كثير وسيد قطب ـ رحمهم الله ـ لا نجد ذكراً للنسخ عند كلامهم على الآية المذكورة[2]. وذلك لأن القضية من الوضوح بمكان. والأخبار لا يدخلها النسخ أصلاً، فمن آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً، وقد أتى بمقتضيات الإيمان، ومنها الإيمان بالرسول الذي بعثه الله في ذلك الزمان واتباعه، فهو موعود بالفوز والنجاة. ورسالة محمدٍ ﷺ للناس كافة، فآية آل عمران لا تعارض آيتي البقرة والمائدة، بل تبينهما وحسب. ولكن فهمي هويدي يمنع النسخ لغرضٍ آخر توهمه وأوهمه، وهو شرعية تعدد الأديان وصوابها، واعتبارها طرقاً موصلة إلى الله، ويستشفع لذلك بكل قولٍ مجمل، وزلة عالم أو مبتدع، ويرصف هذه التقوّلات ليقول هو

---

(١) المرجع السابق (٣٧).

(٢) انظر: جامع البيان (٣/ ٣٣٩)، وتفسير القرآن العظيم (٢/ ٧٠)، وظلال القرآن (٣/ ٤٢٣).

بعد ذلك: (وقيمة هذه الإشارات أنها تعكس مدى الحذر الذي ينبغي أن يتحلى به الدعاة، وهم يستخدمون كلمات الشرك والكفر والإيمان. كما أنها تعكس مدى سماحة التصور الإسلامي الحق في التعامل مع الآخرين. وقبل هذا وذلك فإن هذه الإشارة تعبر بوضوح عن مدى رحابة أبواب السماء، واتساعها لكل بادرة خير، وتلّمس الأعذار للآخرين، ليس فقط من أصحاب الأديان الأخرى، بل أيضاً من الذين يبقون على شركهم لأن رسالة الإسلام لم تبلغهم على الإطلاق، أو بلغتهم على غير وجهها الصحيح، أو حتى بلغتهم على وجهها الصحيح «ولم يكونوا من أهل النظر»)[1].

ونحن ندعو الكاتب إلى الحذر من القول على الله بغير علم بهذا اللون من الأسلوب الخطابي العاطفي، وضرورة تحرير المقالات وفق الضوابط الشرعية، فإن الذي أطلق وصف الكفر، وحكم بالخلود بالنار على مشركي أهل الكتاب، منكري نبوة محمد ﷺ نصوص الوحيين، وليس الدعاة.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧، ٧٢] وقال ﷺ: «والذي نفس محمدٍ بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»[2].

كما أن على الكاتب أن يفرق بين إطلاق الحكم الدنيوي من ألفاظ الدين والإيمان على فئةٍ أو طائفة أو ملة، وبين الحكم على معينٍ بجنة أو نار، وتحرير مسألة «العذر بالجهل» وفق الأدلة والضوابط الشرعية، مما لا يتسع المجال لبسطها[3]. أما تمييع حدود الدين،

(١) مجلة العربي: العدد (٢٥٩) رجب (١٤٠٠) يونيو (١٩٨٠م) (٣٩).
(٢) رواه مسلم (١/ ١٣٤).
(٣) انظر: في هذه المسألة الكتب التالية: =

فخلاف العدل الإلهي الذي يدندن حوله الكاتب. قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [القلم].

٦ ـ محمد الطالبي(١):

يكشف دعاة التقريب عن سر تلهفهم على إدراج أهل الكتاب اليوم في قائمة المؤمنين، والحكم لهم بالنجاة في الآخرة، خلافاً للنصوص المحكمة، والإجماع المستقر المنضبط، من أن المقصود هو التأهيل والإعداد لمشروع الحوار التقريب كما تقدم في أول هذا المبحث، فيقول محمد الطالبي: (ولكن موقفاً كهذا(٢)، لكي يكون مبنياً

= * ضوابط التكفير عند أهل السنة والجماعة. عبد الله بن محمد القرني.
* حكم تكفير المعين والفرق بين قيام الحجة وفهم الحجة. إسحاق بن عبد الرحمن آل الشيخ.
* نواقض الإيمان القولية والعملية. د. عبد العزيز بن محمد العبد اللطيف.
* نواقض الإيمان الاعتقادية. د. محمد بن عبد الله الوهيبي.
* منهج ابن تيمية في مسألة التكفير. د. عبد المجيد بن سالم المشبعي.

(١) محمد الطالبي: ولد في تونس عام ١٩٢١م. عمل أستاذ كرسي اللغة العربية باريس عام ١٩٥٢م، تخصص في الدراسات اللغوية والأدبية، ونال شهادة الدكتوراه في أطروحته عن الإمارة الأغلبية (١٨٤ ـ ٢٩٦هـ ـ ٨٠٠ ـ ٩٠٩م) من جامعة السربون عام ١٩٦٨م، شغل منصب عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة تونس (١٩٦٦ ـ ١٩٧٠م)، عضو مجلس الثقافة العالي في تونس، ورئيس المجلس (١٩٨٣م ـ ١٩٩٣م)، وحصل على جائزة الاستحقاق المدني من أسبانية عام ١٩٦٩م. كتب مؤلفات عديدة ومقالات حول تاريخ أسبانيا المسلمة والعلوم الإسلامية، وحول الحوار الإسلامي المسيحي عام ١٩٧٣م. انظر: من أنا في قولكم أنتم. المؤتمر الدولي الثالث بالمراسلة. تنظيم كريسلام (١٠١)، انظر وثائق عصرية في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين (٤٣).

(٢) يريد موقف «الحوار» بدلاً من الجدل أو الجهاد.

على أسس متينة، يجعل لزاماً علينا أن نقبل شرعية تعدد الطرق المؤدية إلى الخلاص...

إذ كيف يتسنى الحوار في جوٍ من التفتح والثقة المتبادلة، إذا شدّ كل من الطرفين صاحبه مسبقاً ومنذ البداية إلى عمودٍ من أعمدة جهنم، دون أن يسمح له بأمل الخروج منها، وما ذلك إلا لأجل معتقداته الخاصة)(١) ثم ذكر قرارات المجمع الفاتيكاني الثاني بشأن المسلمين، ودعوتهم إلى الحوار، ونسيان الماضي(٢).

وصدق الله: ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧](٣). إن الكاتب مبهورٌ بقررات المجامع الكنسية، متشربٌ تعبيراتها واصطلاحاتها الخاصة، حتى إنه يستعمل ذات الكلمات، كقوله: تعدد الطرق المؤدية إلى الخلاص Salvation، وهو تعبير كنسي عتيق. ويظن أن العقائد الإيمانية في الإسلام شأنها شأن العقائد النصرانية الخاضعة لقوانين العرض والطلب، واختلاف المكان والزمان، وأهواء القسس والبابوات، وأكثرية الأصوات... إلخ مما صاحب مجامعهم من قديم الزمان. ولهذا يستكثر الكاتب أن يتخذ المرء موقفاً مخالفاً (لأجل معتقداته الخاصة). ألا تستأهل العقيدة ذلك؟!

إن العقيدة الإسلامية ليست من صنع البشر ونتاج أفكارهم، بل هي من لدن حكيم خبير. وليس المسلم هو الذي يزج بالناس في النار، أو يشدهم إلى أعمدة جهنم، بل الحكم بين العباد خالص حق الله ومقتضى عدله.

---

(١) الإسلام والحوار. أفكار حول موضوع يشغل بال العصر الحديث. مقالة ضمن: «وثائق عصرية في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين» (٥٦).

(٢) انظر: مبحث الكنيسة الكاثوليكية من هذا الفصل.

(٣) قال ابن كثير ﷺ: (أي مطيعون لهم، ومستحسنون لحديثهم وكلامهم)، تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٦٠).

وكيف يتغنى الكاتب بالحوار وجو التفتح، وهو يضع شروطاً مسبقة لها صفة الإلزام؟ وما الذي يمنع عقلاً ـ فضلاً عن شرعاً ـ أن يجادل المسلمون أهل الكتاب، وكل من الطرفين يختزن معتقداته الخاصة، كما جادل رسول الله ﷺ نصارى نجران؟

ولكن الكاتب يذلل الصعاب، فبعد أن يستشهد بأقوال أمثاله من دعاة التقريب، يخلص إلى القول: (فليس إذن من المستحيل على الإسلام، ولا على الدين المسيحي، ولا على بقية الأديان الكبيرة الأخرى بلا شك أن تستخلص بالاعتماد على النصوص المقدسة، وحتى بالاعتماد على بعض السنن الدينية القديمة، علم لاهوت يوفر المجال لإمكانية تعدد سبل الخلاص)[1].

أو بعبارة أخرى: القضية محسوسة، فعلى كل دين أن يبحث له عن صيغة مناسبة بالاعتماد على أي شيء؛ نصوص مقدسة، أو سنن دينية قديمة. بقي أن يقول: حتى بالاعتماد على علم الجيولوجيا والهندسة لشق طرق الخلاص.

ويقدم توجيهاً عجيباً للتخلص من لوازم آية ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران] فيقول:

(إنها تتضح كذلك بالآيات التابعة لها. فالإسلام يصرِّح في غير لبس بأن سبيله إلى الخلاص هي السبيل التي ينبغي لكل الناس اتباعها. وهو لذلك يدعو إليه كل الناس. فمن آمن إيماناً راسخاً بصحة الرسالة «وابتغى غير الإسلام ديناً» فتقمص الأديان كلها في آن واحدٍ، أو بالتداول وذلك لأسبابٍ مختلفة ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾. وكيف يمكن أن لا نكذّب صدق إيمانهم إذا ما ﴿كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ

(١) وثائق عصرية في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين (٥٧ ـ ٥٨).

ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران]، أولئك الذين لا يخلصون لمبادئهم، والذين عرفوا بتنكرهم المتكرر لأديانٍ اعتنقوها، فكشفوا بذلك عن سطحية معتقداتهم وضعف إيمانهم، وانعدام الصدق فيهم انعداماً كاملاً، هؤلاء ليس لهم تعلق حقيقي لا بمعتقداتهم القديمة، والكتب المنزلة سابقاً، ولا بالإسلام، وبإيجاز ليس لهم أي عقيدة وليس لهم من شغل شاغل سوى مصلحتهم القريبة. أما الذين لم يكتشفوا طريق الإسلام، مع صدقهم وحسن نواياهم، فاتبعوا سبلاً أخرى للخلاص، هؤلاء يجزون رغم ذلك حسب اجتهاداتهم ـ انظر (سورة البقرة: ٦٢)(١) ـ فليس هناك إذن من تناقض بين الآية (٦٢) من سورة البقرة، والآية (٨٥) من سورة آل عمران إذا وضعناهما في سياقهما، وفي إطار الدعوة الإسلامية العام. وحصيلة القول: أنه لا يضل سبيله إلا من لم يسع إلى الله كما ينبغي)(٢).

ونحن نعلم قطعاً أنه ليس بين آيات القرآن تناقض. وإنما اصطنع التناقض المزعوم مَنْ حملوا آياته على غير وجهها، ثم شرعوا يتحذلقون في توجيهها وفق ما يشتهون. والأمر واضحٌ جداً، فآية البقرة تتعلق بالإيمان بالمعنى العام الذي يتناول جميع أفراده على اختلاف الشرائع المتعاقبة، وآية آل عمران تتعلق بالإسلام الخاص الذي هو الصورة الأخيرة والخاتمة التي لا يقبل الله ديناً وإيماناً سواها(٣).

والكاتب في هذا التوجيه العجيب لآية آل عمران يحاصر الدعوة

(١) قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة].

(٢) المرجع السابق. (٧٢) «حاشية».

(٣) راجع مبحث: أهل الكتاب في التمهيد في بيان معاني هذه الآيات. (٢٥ ـ ٢٨).

الإسلامية، فيلتفع بمرط من الصدق والنزاهة، ويلمز أولئك الذين لا يخلصون لمبادئهم القديمة وكتبهم السابقة! ويربت على أكتاف الذين لم يكتشفوا طريق الإسلام واتبعوا سبلاً أخرى إلى الخلاص ـ كما يقول ـ ويبشرهم بالجزاء الموعود في آية البقرة.

فكيف يعتنق الناس الإسلام؟ أم أن ذلك لا يعنيه بسبب تعدد طرق «الخلاص»!؟

وهذا مَعْلَمٌ بارز عند دعاة التقريب، وهو الزهد في الدعوة إلى دين الإسلام، في سبيل صنم «الحوار» كما يتضح من المثال التالي:

٧ ـ سعد غراب(١):

قال: (ولئن كان كل حوار مخلص ينزع في الأساس إلى إقناع الغير وجلبه إلى الصف، فإن ذلك لا يجب أن يمثل الهدف الأساسي لحوار معاصر. إن هدف الحوار في عصرنا هذا، يجب أن يكون معرفياً صرفاً، يعترف بإمكانية تعدد سبل الخلاص إذا ما توفرت النية الصادقة، والسعي الحقيقي إلى معرفة الخالق). ثم استشهد كأسلافه بآية البقرة.

ونختم هذه الدعاوي المتهافتة بتعدد طرق الخلاض، بهذا الرد المحكم من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀: (وقول القائل: المعبود واحد، وإن كانت الطرق مختلفة، ونحو ذلك من الأقوال والأفعال التي تتضمن: إما كون الشريعة النصرانية أو اليهودية المبدلين المنسوخين موصلة إلى الله، وإما استحسان بعض ما فيها مما يخالف دين الله، أو

---

(١) سعد غراب: ولد في «غمراسان» من أعمال تونس عام ١٩٤٠م. نال إجازة في الأدب من جامعة تونس عام ١٩٦٥م، وأطروحة دولة عام ١٩٨٤م في باريس. عمل عميداً بكلية الآداب في جامعة تونس. عضو ناشط في حقل الأبحاث والحوار الإسلامي المسيحي. انظر: وثائق عصرية في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين (١٥).

التدين بذلك، أو غير ذلك مما هو كفر بالله ورسوله وبالقرآن وبالإسلام، بلا خلافٍ بين الأمة. وأصل ذلك المشابهة والمشاركة)(١).

ثانياً: التهوين من شأن الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ:

لما تذرع العصرانيون بدعوى الإسلام العام، ليحشدوا تحت شعاره كل مشرك وكافر، كان من لازم ذلك ومقتضاه محاولة التهوين من شأن الإسلام الخاص الذي جاء به محمد ﷺ، وعدم اشتراط الإيمان برسالته لاستحقاق وصف «الإيمان» في الدنيا، و«النجاة» في الآخرة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀: (إن الإسلام الخاص الذي بعث به محمداً ﷺ، المتضمن لشريعة القرآن: ليس عليه إلا أمة محمد ﷺ. والإسلام اليوم عند الإطلاق يتناول هذا)(٢).

وقال: (ومن حين بعث الله محمداً ﷺ، ما يقبل من أحدٍ بلغته الدعوة إلا الدين الذي بعثه به؛ فإن دعوته عامة لجميع الخلائق، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال ﷺ: «لا يسمع بي من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار»)(٣).

وقال: (فكل من لم يعبد الله بعد مبعث محمد ﷺ بما شرعه الله من واجب ومستحب فليس بمسلم)(٤). وقال أيضاً: (والإيمان بالرسل، هو «الأصل الثاني» من أصلي الإسلام، فمن لم يؤمن بأن محمداً رسول الله إلى جميع العالمين، وأنه يجب على جميع الخلق متابعته،

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٥/ ٣٢٣).
(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ٩٤).
(٣) مجموع الفتاوى (١١/ ٥٢٢ ـ ٥٢٣) والحديث رواه مسلم، تقدم.
(٤) مجموع الفتاوى (١/ ١٩٠).

وأن الحلال ما أحله الله، والحرام ما حرمه الله، والدين ما شرعه الله، فهو كافر: مثل هؤلاء المنافقين ونحوهم ممن يجوز الخروج عن دينه وشرعته وطاعته؛ إما عموماً وإما خصوصاً. ويجوز إعانة الكفار والفجار على إفساد دينه وشرعه)[1].

هذا منطق أهل الإسلام في قديم الدهر وحديثه، عليه ينشأ الصبيان، ويهرم الشيوخ، ولا يخالج مسلماً شك في هذه العقيدة الراسخة. فلنستمع الآن إلى «لحن القول» من دعاة التقريب بين الأديان:

١ ـ محمد عبده:

قال: (إن الكتابية ليس بينها وبين المؤمن كبير مباينة. فإنها تؤمن بالله وتعبده، وتؤمن بالأنبياء، وبالحياة الأخرى، وما فيها من الجزاء، وتدين بوجوب عمل الخير وتحريم الشر. والفرق الجوهري العظيم بينهما هو الإيمان بنبوة محمد ﷺ، ومزاياها في التوحيد والتعبد والتهذيب. والذي يؤمن بالنبوة العامة لا يمنعه من الإيمان بنبوة خاتم النبيين إلا الجهل بما جاء به، وكونه قد جاء بمثل ما جاء به النبيون، وزيادة اقتضتها حال الزمان في ترقيه واستعداده، لأكثر مما هو فيه، أو المعاندة والجحود في الظاهر، مع الاعتقاد في الباطن، وهذا قليل، والكثيرُ الأول.

فإذا كان الفرق بيننا وبين أهل الكتاب يشبه الفرق بين الموحدين المخلصين العاملين بالكتاب والسنة، وبين المبتدعة الذين انحرفوا عنهما، فكيف يكون أهل الكتاب كالمشركين في حكمه تعالى؟)[2].

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٥٢).

(٢) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده. نقلاً عن: الإسلام والوحدة القومية (٦٥).

هكذا يؤول «الفرق الجوهري العظيم» بين المؤمن الحنيف، والكتابية المثلثة إلى ما يشبه الفرق بين الموحد المخلص العامل بالكتاب والسنة، والمبتدع الذي تجمعه مع الموحد دائرة الدين الواحد!! ويقال لمن جحد نبوة محمد ﷺ ما أنت إلا مبتدع معذور بالجهل، أو الجحود الظاهري مع سلامة اعتقادك الباطني، كما يصور «الأستاذ الإمام».

٢ ـ محمد حسين فضل الله:

قال: (إن كل المفردات المسيحية اليهودية ـ مع التحفظ في بعض التفاصيل ـ هي مفردات إسلامية، مع الفارق في مسألة الإيمان بنبوة النبي محمد ﷺ. إذاً في مثل هذه الدوائر ليس هناك مشكلة كبيرة إلا في تفاصيل الإيمان بالله الواحد، ومسألة الرسالة، وهذا أمرٌ قابلٌ للحوار)[(١)].

كل هذا وليس ثم مشكلة كبيرة! إذا كان الفارق هو في مسألة الإيمان بالله ونبوة محمد ﷺ فماذا أبقيت؟ وإذا كان هذان الأصلان محلاً للحوار والتنازلات والمساومات مع أهل التثليث ومنكري النبوة، فما الذي لا يقبل الحوار، ولا يطاله النقاش عندك يا ترى؟ لعلها عقيدة الإمامة، أو الرجعة، أو صاحب السرداب، أو نصوص الرقاع!

٣ ـ محمد عمارة:

قال: «إذا ما وقف أهل الكتاب، من أتباع شرائع الرسل الذين سبقوا محمداً ﷺ عند التصديق برسالة رسلهم، وأبوا التصديق برسالة محمد ونبوته ـ مع توحيدهم وعملهم الطاعات ـ فإن ذلك الوقوف، وهذا التوقف لا يخرجهم من إطار الدين الواحد، ولا حظيرة التدين

---

(١) في آفاق الحوار الإسلامي المسيحي (٤٤).

بالإسلام فموقفهم هذا هو انحراف. والفرق بين من يؤمن بمحمد، وبكل الرسل، وبين الذين يجحدون نبوة محمدٍ ورسالته ـ مع توحيدهم وطاعتهم ـ كمثل الفرق بين إيمان المؤمن الخالي من «البدع» وبين إيمان من تشوب «البدع» إيمانه)[1].

تلك أصداء دعوة محمد عبده، يرددها تلاميذه من بعده في سابقة ليس لها مثيل في تاريخ العقيدة الإسلامية. فإنكار الشق الثاني من الشهادتين لا يعدو في نظر الكاتب «انحرافاً بدعياً» يشوب الإيمان الأصيل فقط!

وهل سلم لكفرة أهل الكتاب الشق الأول «شهادة أن لا إله إلا الله» حتى يماكس محمد عمارة في إسقاط الشق الثاني عنهم؟ بل إن شق الشهادة الأول لا يتم ولا يتحقق إلا بشقها الثاني. أين من يقول الأب والابن وروح القدس إله واحد من حقيقة التوحيد؟ وأي طاعات شركية بدعية تصح لهم، حتى يلوّح الكاتب بالتوحيد والطاعة كلما رام الغض من «شهادة أن محمداً رسول الله».

ثالثاً: التلاعب بألفاظ الدين والإيمان:

خاض دعاة التقريب من أتباع المدرسة العصرانية في إطلاق أسماء الدين والإيمان بغير نور من الله ولا برهان، وتقحموا في هذه المسالك الوعرة بحسب ما زينته لهم الأهواء، مع خطورة هذه الإطلاقات سلباً وإيجاباً، وإن كانوا ينزعون بطبيعة الحال إلى الإرجاء والتهاون وتمييع الحدود بين الكفر والإيمان وهو أمرٌ لا يقل خطورة عن التكفير، ونزع وصف الإيمان عن مستحقه نسأل الله العصمة، ونعوذ به من الزلل. قال الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ـ

---

(١) الإسلام والوحدة القومية (٦٤).

رحمهما الله ـ: (... يجب على من نصح نفسه ألا يتكلم في هذه المسألة إلا بعلمٍ وبرهانٍ من الله، وليحذر من إخراج رجلٍ من الإسلام بمجرد فهمه واستحسان عقله، فإن إخراج رجل من الإسلام، أو إدخاله فيه من أعظم أمور الدين، وقد استزل الشيطان أكثر الناس في هذه المسألة، فقصر بطائفةٍ فحكموا بإسلام من دلت نصوص الكتاب والسنة والإجماع على كفره، وتعدى بآخرين فكفّروا من حكم الكتاب والسنة والإجماع بأنه مسلم)[١].

وابتدع هؤلاء العصريون أسماءً وألقاباً وتقسيمات ما أنزل الله بها من سلطان، ولا قال بها أحدٌ من أهل الإسلام، كما فعل أشياعهم من قبل أهل الاعتزال حين ابتدعوا لقب «المنزلة بين المنزلتين»[٢] ومن أمثلة ذلك:

١ ـ محمد عمارة:

قال: «(... من يؤمن، كأتباع محمد، بكل ما نزّل الله، قرآناً فما سبقه، وبكل الرسل، منذ بدأت الرسالة فهو «المهتدي». ومن يترك الإيمان بشيءٍ مما سوى التوحيد والطاعة فهو في شقاق. وهو «كافر» أي «جاحد» بهذا الذي لم يؤمن به، ولكنه غير «مشرك» لأنه متدين وموحد، بل ومسلم)[٣].

---

(١) الدرر السنية (٨/ ٢١٧).

(٢) المقصود بها أن صاحب الكبيرة خرج من الإيمان ولم يدخل في الكفر، بل صار في منزلةٍ بين منزلتين. وأول من أطلقها على مرتكب الكبيرة مؤسس نحلتهم «واصل بن عطاء» حين سأل سائل الحسن البصري رحمه الله عن حال أصحاب الكبائر، فابتدر واصل بن عطاء الجواب وقال: (أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقاً، ولا كافر مطلقاً، بل هو في منزلة بين المنزلتين، لا مؤمن ولا كافر). الملل والنحل (١/ ٤٨).

(٣) الإسلام والوحدة القومية (٦٣).

تُرى ما ثمرة هذا التفريق بين «الكافر» و«المشرك» في حكم الله في الدنيا والآخرة؟ وهل الشرك إلا ضربٌ من ضروب الكفر؟

لكن الكاتب، بناءً على أصله الفاسد في عدم اشتراط الإيمان بنبوة محمد ﷺ يجعل كفر اليهود كفراً مقيداً بهذا الذي لم يؤمنوا به على حد تعبيره، ولا يجسر على إطلاق ما أطلقه الله من تكفيرهم مراعاة للوحدة القومية، ويخلع عليهم جزافاً ثلاثة ألقاب: «متدين» و«موحد» بل و«مسلم». والله تعالى قد كفّر النصارى في ثلاثة مواضع صريحة: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧، ٢٧]، ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣] وهي آخر ما نزل من سور القرآن.

٢ ـ محمد حسين فضل الله:

قال: (إن كلمة الكفر لا تنطلق من نفي إيمان المسيحيين بالله، لأن القرآن يؤكد هذا الإيمان عندما يتحدث عن «الكلمة السواء»، وعن توحيد الله في مضمون هذه الكلمة، بل تنطلق من الكفر بالرسول محمد، باعتبار أن المسيحيين لا يؤمنون به كرسول من قبل الله. مع ملاحظة أن الكفر بالرسول يجعل الإنسان كافراً من هذه الناحية، لأن الكفر والإيمان عنوانان نسبيان فهناك كفر وإيمان يتنوع حسب تنوع موارده. فقد يكون الإنسان كافراً بالنسبة إلى شيء، ومؤمناً بالنسبة إلى شيء آخر. فنحن نؤمن بالله ونكفر بالطاغوت...

إن القرآن ينفي عنهم الشرك بالصراحة من حيث يثبت لهم الكفر بالرسالة والرسول وذلك هو قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝١﴾ [البينة][(١)].

إن مما يلفت الانتباه تطابق رأي الكاتبيْن في نفي الشرك عن أهل

(١) في آفاق الحوار الإسلامي المسيحي (١٠٠ ـ ١٠١).

الكتاب، والإقرار بإطلاق لفظ «كفر» مقيد أو نسبي عليهم، من جهة إنكارهم نبوة محمدٍ ﷺ رغم اختلاف انتماء الكاتبيْن لمدرسة الاعتزال ومدرسة الرفض، وما ذاك إلا أنهما تلميذان نجيبان لسلفيْهما مؤسسيْ جمعية التقريب بين الأديان، محمد عبده، وميرزا باقر. تشابهت قلوبهم.

ويقول أيضاً: (إن القرآن الكريم يؤكد في الكثير من آياته على ضرورة الوقوف مع أهل الكتاب على «الكلمة السواء» وهي كلمة التوحيد، لأنه يعتبرهم «موحدين». كما وأن القرآن الكريم لا يعتبر اليهود، كما لا يعتبر النصارى مشركين؛ بل يعتبر المشركين فريقاً آخر غير أهل الكتاب، وهذا ما عبّر الله ﷻ عنه في سورة البينة عندما قال: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾﴾ فكلا الفريقين كافريْن، لأن المشرك يكفر بالتوحيد، بينما يكفر أهل الكتاب بالرسالة. فهم لا يكفرون بالله، ولكنهم يكفرون برسالة رسول الله ﷺ. ومع أن إنكار الرسالة كفر، لكن المسألة التي لا بد من استيعابها أن الإسلام لا يعتبر أهل الكتاب مشركين، وإنما يعتبرهم «موحدين»)(١).

كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً! فليس في القرآن العظيم كلمة تصف «أهل الكتاب» المنكرين لنبوة محمدٍ ﷺ بالتوحيد والإيمان، فضلاً أن تؤكده، بل القرآن مليء ببيان كفرهم وشركهم بالله العظيم كما تقدم، وكيف يوصف بالتوحيد من فرق بين جملتي شهادة التوحيد اللتين جعلهما ﷺ ركناً واحداً؟ وأما دعوتهم إلى «الكلمة السواء»: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ

---

(١) في آفاق الحوار الإسلامي المسيحي (٥٩ ـ ٦٠).

ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران] فلأنهم كانوا مفارقين لهذه الخصال الثلاث المذكورة في الآية، لا لاتصافهم بها كما أوهم الكاتب، ولو كان كما زعم، لما احتاج الأمر إلى دعوتهم إلى ما هم عليه ولما ختم الآية بقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران]. فلا يقوم احتمال التولي مع الموافقة، وإنما مع المخالفة. وهذا أمر بيِّنٌ ولله الحمد. وقد دمغهم الله بهذا الكفر والشرك في غير ما موضع كقوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة].

ألا تكفي هذه الآية المحكمة لوصف اليهود والنصارى بالكفر والشرك معاً، وتبرئة «التوحيد» و«الإيمان» منهم؟

ثم أي ثمرة يجنيها الكاتب وأمثاله من الرضا بوصف أهل الكتاب بالكفر دون الشرك(١)، مستدلين في كل مناسبة بصدر سورة البينة؟ هلا

---

(١) وقد ذكر فضيلة الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد ـ حفظه الله ـ في معجم المناهي اللفظية جملة: (المشرك لا تشمل الكتابي) وقال: (هذا غلطٌ قبيح. وقد دعت إليه في عصرنا «منظمة مجمع الأديان السماوية» ـ رد الله كيدهم عليهم ـ والأدلة على شركهم وكفرهم، أكثر من أن تُحصر، منها: (قوله ﷺ: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب...» الحديث: دلالة على إطلاق لفظ «المشرك» على أهل الكتاب فإنهم هم المعنيون بهذا الحديث). ثم نقل عن شيخه العلامة المفسر محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي فتوى محررة جاء فيها: (ما ذكرتم من أن القرآن فرَّق بين المشركين وبين أهل الكتاب واستشهدتم لذلك بآية المائدة: ﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [المائدة] فهو كما ذكرتم؛ لأن العطف يقتضي بظاهره الفرق بين المعطوف والمعطوف عليه، وقد تكرر في القرآن عطف بعضهم على بعض كالآية التي تفضلتم=

= بذكرها، وكقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ﴾ [البينة: ١]. وقوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٥] وقوله تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ [آل عمران: ١٨٦]، إلى غير ذلك من الآيات. وظاهر العطف يقتضي المغايرة بين المتعاطفين، لأن عطف الشيء على نفسه يحتاج إلى دليل خاص يجب الرجوع إليه، مع بيان المسوغ لذلك كما هو معلوم في محله، وما تفضلتم بذكره من أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أمر بإلحاق أهل الكتاب بالمشركين في عدم دخول المسجد الحرام فمستنده المسوغ له: أن الله جلا وعلا صرَّح في سورة التوبة أن أهل الكتاب من يهود ونصارى من جملة المشركين، وإذا جاء التصريح في القرآن العظيم بأنهم من المشركين، فدخولهم في عموم قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨] لا إشكال فيه، وآية التوبة التي بين الله فيها أنهم من جملة المشركين هي قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة]. فتأمل قوله تعالى في اليهود والنصارى ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يظهر لك صدق اسم الشرك عليهم فيتضح إدخالهم في عموم ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾. ووجه الفرق بينهم بعطف بعضهم على بعض: هو أنهم جميعاً مشركون، والمغايرة التي سوغت عطف بعض المشركين على بعض هي اختلافهم في نوع الشرك، فشرك المشركين غير أهل الكتاب كان شركاً في العبادة لأنهم يعبدون الأوثان، وأهل الكتاب لا يعبدون الأوثان، فلا يشركون هذا النوع من الشرك، ولكنهم يشركون شرك ربوبية كما أشار له تعالى بقوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] ومن اتخذ أرباباً من دون الله فهو مشرك به في ربوبيته، وادعاء أن عزيراً ابن الله والمسيح ابن الله: من الشرك في الربوبية، ولما كان الشرك في الربوبية يستلزم الشرك في العبادة قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة] انتهى. (معجم المناهي اللفظية (٥٠٩ ـ ٥١١).

أتم قراءتها ليجد في أثناءها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦﴾ [البينة].

ونجده في موضعٍ آخر لا يكاد يثبت على وصفهم بالكفر، فيقول: (هناك انطباع لدى بعض المسلمين أن النصارى كافرون أو مشركون...)[1]، فهل تحولت عقائد القرآن إلى مجرد «انطباعات»؟! ولكن القوم هان عليهم دينهم فهانوا لعدوهم، فطفقوا يعبثون بهذه المعاني الجليلة، ويتلاعبون بها كما يلعب أحدهم بأحجار رقعة الشطرنج. وفي المثال التالي شاهدٌ جلي على هذه الممارسات العبثية في أسماء الدين والإيمان:

٣ ـ عبد اللطيف غزالي:

قال: (أما اليوم فلم يعد هناك شركٌ ولا وثنية ولقد أصبح الدين لله وحده في وعي الدينين، ولا شك أن إله المسلمين وإله المسيحيين وإله الناس جميعاً هو إله واحد...

إن حرية العقيدة السائدة في العالم المتحضر، والتي تنص عليها مواثيق الدول هذه الحرية هي المرادة الآن للتوحيد. أما العداء بين الأديان فهو... الذي يعتبر شركاً. لأن كل فريقٍ من المتعادين يعتقد أنه وحده على الحق، وأن له وحده على الله حق النصر. ومؤدى هذا بالضرورة أن يكون مفهوم كل فريقٍ عن الله مختلفاً مع مفهوم الآخر، أو بعبارة موجزة: أن آلهة عدة يختص كل منهم فريقاً من الناس بعقابه دون الآخر. وهذا هو الشرك الحديث)[2]. وهذا غثاءٌ لا يستحق التعليق.

---

(١) في آفاق الحوار الإسلامي المسيحي (٣٤).

(٢) نظرات في الدين (٣٦) عن العصريون معتزلة اليوم (٣٣).

رابعاً: الاعتذار عن كفر «أهل الكتاب» بالتأويلات الباطلة:

لقد حكم الله سبحانه وتعالى بكفر أهل الكتاب كفراً عقدياً بسبب وقوعهم في شرك الربوبية، وشرك العبادة، من بعد ما جاءهم العلم. ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾ [الشورى].

﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الجاثية]، ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾﴾ [البينة].

فقطع الله معاذيرهم، وأقام عليهم الحجة، وكان من آخر البينات التي أظهرها الله لهم بعثة محمدٍ ﷺ ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف] وهي أوصاف منطبقة غاية الانطباق على نبينا محمد ﷺ، فمن سبقت له من الله الحسنى آمن به وعزره ونصره واتبع النور الذي أنزل معه، ومن ﴿حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس].

وكان من جملة ما أكفرهم الله به بالإضافة إلى جحودهم وتكذيبهم نبيه الخاتم ﷺ ـ النصارى خاصة ـ ثلاث مسائل: ادعاء ألوهية المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، وقولهم إن الله ثالث ثلاثة، ودعوى بنوة المسيح لله تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. ولم يزل أهل الإسلام يصيحون بهم من كل جانب، وفي كل جيل وقبيل،

يسفهون عقولهم، ويفضحون باطلهم بالمناظرات والتأليف، والمجادلة بالتي هي أحسن دون عدوانٍ أو إكراه، حتى هدى الله منهم خلقاً كثيراً. ولم يخامر أهل الإسلام الشك في أن ما أخبر الله به هو عين ما عليه القوم اعتقاداً وعملاً، حتى انبرى في هذه الأزمنة الأخيرة رجال من بني جلدتنا يتكلمون بألسنتنا ينافحون عنهم، ويعتذرون لهم، ويركبون الصعب والذلول للدفاع عنهم، يلوون أعناق النصوص التي تستهدفهم، ويتكلفون، بل يتعسفون تأويلها تأويلاً مستكرهاً مذموماً في سبيل صون ما استباحت النصوص من بيضتهم. وهم في ذلك يرددون كالببغاوات، مقالات نفرٍ من النصارى مردوا على الجدال والمغالطة، وتزويق الكلام دون حيدة عما هم عليه قيد أنملة.

١ ـ عبد العزيز كامل:

قال: (ونحن في منطقة الشرق الأوسط نؤمن بالتوحيد بطريقة أو بأخرى. وأقولها واضحة: يستوي في هذا الإسلام والمسيحية واليهودية، حتى الإيمان بالأقانيم الثلاثة في الفكر المسيحي يختم بإلهٍ واحد. هذه منطقة توحيد، والصور تختلف، وتفسيرها الفلسفي يختلف. حتى في مصر القديمة مع التعدد الظاهري كان للآلهة كبير هو أوزير)[(١)].

سبحان الله! ألم يكن قانون الإيمان النيقاوي هو الإيمان الرسمي السائد لجمهور النصارى وقت تنزل القرآن، ومع ذلك قيلت لهم واضحة: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ﴾ [النساء: ١٧١].

(١) الإسلام والعصر (١٩٤). عن: العصريون معتزلة اليوم (٣١).

٢ ـ د. يوسف الحسن[١]:

قال: (عاش المسلمون والمسيحيون العرب فهماً مشتركاً للمبادئ الإيمانية السماوية، وإسلام النفس لله، فكانوا جميعاً أبناء حضارة واحدة، معتمدين العقل ووحدة العيش، وشراكة المصير، ورابطة الثقافة والفكرة الوطنية سبيلاً للتفاهم والتقارب في شؤون الدين والدنيا على حدٍ سواء)[٢].

٣ ـ محمد حسين فضل الله:

ممن تولى كبر الاعتذار لكفريات أهل الكتاب في العصر الحديث داعية التقريب بين الأديان، محمد حسين فضل الله، فنسوق جُملاً من تأويلاته:

(... إن القرآن الكريم قد تحدث عن ربوبية السيد المسيح على أساس نظرية «التجسد» أو «التجلي» أو نحو ذلك، بحيث يختزن الإنسان في وعيه صورة الله في صورة السيد المسيح، واعتبر ذلك كفراً، لأنه يخالف الحقيقة التوحيدية، من وجه المفهوم القرآني الذي ينكر التجسد الإلهي، أو التجلي في بعض خلقه. وبذلك فإن هذه

---

(١) يوسف الحسن: ماجستير في العلاقات الدولية من الجامعة الأميركية في واشنطن، دكتوراه في العلوم السياسية من كلية الاقتصاد والعلوم السياسية في جامعة القاهرة. يعمل في السلك الدبلوماسي في دولة الإمارات العربية المتحدة منذ عام ١٩٧٢م. له مؤلفات منها: البعد الديني في السياسة الأميركية، تجاه الصراع العربي ـ الصهيوني، دراسات في الإدارة والحكم المحلي. انظر: التعريف به في كتابه(البعد الديني في السياسة الأميركية) إصدار: مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٩٩٠م.

(٢) الحوار الإسلامي المسيحي ـ الفرص والتحديات: د. يوسف الحسن. المجمع الثقافي ـ أبو ظبي ـ الإمارات العربية المتحدة. الطبعة الأولى ١٩٩٧م. (٢٠).

العقيدة تخالف بساطة المفهوم العقيدي للتوحيد، مما يجعله كفراً فلسفياً في التفاصيل بلحاظ الصفات. تماماً كما هو الرأي الكلامي أو الفقهي الذي يرى المجسمة في الدائرة الإسلامية كافرين بالمعنى العميق. وهذا هو ما تحرك فيه الجدل الكلامي بين القائلين بخلق القرآن، والقائلين بقدمه، وأنه غير مخلوق، إذ استند القائلون بالحدوث إلى أن القدم يستلزم تعدد القدماء من خلال طبيعة الاثنينية مما يتنافى مع الحدوث. وفي ضوء ذلك فإن الكفر لا يتصل بالمبدأ. تماماً كما هي نسبة الصفة للكافرين بالله المنكرين وجوده، ولكنه كفر فلسفي أو نسبي بالمعنى الذي يفقد الإيمان بالمعنى التوحيدي في حقيقته بحسب المفهوم القرآني. وهذا هو ما توحي به كلمة الشرك في ضوء التعددية في تثليث الأقانيم على أساس لوازمها الخفية بالمعنى الفلسفي، لا بالمعنى المباشر في الطبيعة الإيمانية)[1].

(... نحن نلاحظ مثلاً في الوجدان المسيحي الشعبي، في قضية السيد المسيح أنها تختلف عن الجانب الفلسفي الذي يتحدث عن علاقة الأب بالابن فيما هي المسألة الفكرية التي تجعل الابن سر الكلمة الإلهية تماماً، كما هو الكلام في صفات الله لدى الذين يقولون بقدم القرآن، من دون أن يكون ذلك أساساً في التعددية التي تنفصل عن الوحدة)[2].

(... المسألة التي لا بد من استيعابها: أن الإسلام لا يعتبر أهل الكتاب مشركين، وإنما يعتبرهم موحدين. وإن كانوا يفهمون التوحيد بطريقة أو بأخرى... إذ يوحدون الله، ولكنهم يعتبرون أن عيسى عليه السلام

---

(١) العلاقات الإسلامية المسيحية، قراءة في الراهن والمستقبل. من العلاقات الإسلامية المسيحية قراءات مرجعية في التاريخ والحاضر والمستقبل (١٤٣ - ١٤٤) أو: آفاق الحوار الإسلامي المسيحي (١٠٠ - ١٠١).

(٢) أحد المرجعين السابقين (٣٠٥) أو (٩١) حسب الترتيب السابق.

تجسيدٌ لله. بمعنى أن عيسى ليس شيئاً منفصلاً عن الله، بل الله أراد أن يتجسد في عيسى ليتحمل آلام البشرية)(١).

(... إن الحوار لا بد أن يرتكز على مواجهة العقيدة المعاصرة للإسلام والمسيحية، وباعتبار أن الكثير من مفاهيم العقيدة لكلٍ منهما ربما تجاوزها الواقع الفكري لهذا أو ذاك، مما يجعل الدخول في مناقشتها حركة في الفراغ. كما نلاحظه في بعض الأفكار التي يثيرها القرآن في عصر النزول في مثل: «الابنية المتجسدة» أو «التثليث المادي المتعدد» أو نحو ذلك مما يقول بعض المسيحيين عنه أنه لا يمثل العقيدة المعاصرة لهم، بل يمثل لوناً من ألوان التفكير البائد لبعض فرقهم التي يرفضون خطها العقيدي، كما يرفضه المسلمون، فلا يجوز لهم أن يلزموهم به كما لو كان يمثل الحقيقة الإيمانية للمسيحية في بعدها الفكري العقدي)(٢).

إن الكاتب ينطلق في الاعتذار عن كفر النصارى من منطلقات، يقوم هو بنفيها في مواضع أخرى في تناقضٍ صريح:

أولاً: يصور الكاتب أن الأساس القرآني لتكفير النصارى هو نظرية التجسد أو التجلي الإلهي في شخص المسيح، الذي لا يمثل الحقيقة الإيمانية النصرانية، وبالتالي فلا يجوز إلزامهم بما لا يلتزمونه، بل ويرفضونه.

وفي جملة أخرى يقول: (ولكنهم ـ أي المسيحيين ـ يعتبرون أن عيسى تجسيد لله، بمعنى أن عيسى ليس شيئاً منفصلاً عن الله، بل الله أراد أن يتجسد في عيسى لتحمل آلام البشرية). ما الفرق بين ما أثبته وما نفاه يا ترى؟!

---

(١) في آفاق الحوار الإسلامي المسيحي (٦٠).

(٢) في آفاق الحوار الإسلامي ـ مقدمة. وقد تقدم الاستشهاد بهذا النص في أول هذا المبحث لبيان تطبيق منهج النقد التاريخي الذي ينادي به دعاة التقريب.

ثانياً: ينادي الكاتب بأن يرتكز الحوار على مواجهة العقيدة المعاصرة للنصرانية دون ما تجاوزه الواقع الفكري لها، ويمثل لذلك بـ (الأفكار التي يثيرها القرآن عن التفكير النصراني في عصر النزول في مثل: «الابنية المتجسدة» أو «التثليث المادي المتعدد». ثم يعترف في موضعٍ آخر أن الوجدان الشعبي للنصارى في قضية ألوهية المسيح يختلفُ عن الجانب الفلسفي.

فأيهما يعتمد في المواجهة باعتباره عقيدة معاصرة؛ الوجدان الشعبي أو الفكر الفلسفي؟

ثالثاً: حاول الكاتب تلطيف شرك النصارى القائلين بألوهية المسيح، وأن الله ثالث ثلاثة، بتنظيره بمذهب أهل السنة القائلين بإثبات الصفات، وخصوصاً كون القرآن كلام الله غير مخلوق، وأن ذلك لا يقتضي التعددية المنافية للتوحيد فيجعل (المسألة الفكرية التي تجعل الابن سر الكلمة الإلهية تماماً كما هو الكلام في صفات الله لدى الذين يقولون بقدم القرآن، ومن دون أن يكون ذلك أساساً في التعددية التي تنفصل عن الوحدة) ليعود في موضعٍ آخر متدرعاً بمذهب المعتزلة، نفاة الصفات لتأكيد ما نفاه أو حاول تخفيفه، فيقول: (وهذا هو ما تحرك فيه الجدل الكلامي بين القائلين بخلق القرآن، والقائلين بقدمه، وأنه غير مخلوق، إذ استند القائلون بالحدوث إلى أن القدم يستلزم تعدد القدماء، من خلال طبيعة الاثنينية، مما يتنافى مع الحدوث).

ثم يعتضد برأي مفسر رافضي معتزلي في تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧] فيقول: (وهذا هو ما جاء في تفسير الميزان للعلامة الطباطبائي(١)،

(١) محمد حسين الطباطبائي الحسني، التبريزي. هاجر إلى النجف، وتوفي في تبريز عام ١٢٩٣هـ ـ ١٨٧٦م. له: الميزان في تفسير القرآن. انظر: معجم المؤلفين (٩/ ٢٤٦).

حيث قال في تفسير الآية ما لفظه: «ثالث ثلاثة» أي: أحد الثلاثة: الأب والابن والروح القدس، أي هو ينطبق على كل واحدٍ من الثلاثة وهذا لازم قولهم: إن الأب إله، والابن إله، والروح إله، وهو ثلاثة، وهو واحد، يضاهئون بذلك نظير قولنا: إن زيداً بن عمرو إنسان. وهناك أمرٌ واحدٌ وهو المنعوت بهذه النعوت. وقد غفلوا عن أن هذه الكثرة إن كانت حقيقية غير اعتبارية، أوجبت الكثرة في المنعوت حقيقة، وأن المنعوت إن كان واحداً حقيقة أوجب ذلك أن تكون الكثرة اعتبارية غير حقيقية. فالجمع بين هذه الكثرة العددية والوحدة العددية، في زيدٍ المنعوت بحسب الحقيقة، مما يستنكف العقل عن تعقله)[1].

وقد تناقض محمد حسين فضل الله أولاً، وأخطأ ثانياً؛ تناقض حين نفى أن تكون البنوة والتثليث (أساساً في التعددية التي تنفصل عن الوحدة)، ثم ينتصر في موضع آخر للقائلين بـ (أن القدم يستلزم تعدد القدماء، من خلال الطبيعة الاثنينية، مما يتنافى مع الحدوث)، وأن ذلك (مما يستنكف العقل عن تعقله) كما قرر علّامته الطباطبائي.

وأخطأ كما أخطأ سلفه المعتزلي في إطلاق القول أن إثبات القدم يستلزم تعدد القدماء. وهذه المقالة أصل من أصول أهل الاعتزال، التي يلبسون بها على الناس. وفيها إجمال يحتاج إلى تفصيل:

■ فإن كان الموصوف بالقدم قائماً بنفسه، مستقلاً بذاته عما أضيف إليه فهذا ممتنع، لأنه ليس ثم متصف بذلك إلا الله ﷻ، لأنه «الأول» الذي ليس قبله شيء.

■ وإن كان الموصوف بالقدم لا يقوم بنفسه، ولا يتصور انفكاكه عمن أضيف إليه فهو صفته، والصفة تابعة للموصوف، فليس في إثبات

---

(١) العلاقات الإسلامية المسيحية. قراءة في الراهن والمستقبل. من: العلاقات الإسلامية قراءات مرجعية في التاريخ والحاضر والمستقبل (٤٣).

قدمها إثباتٌ لقديمٍ آخر كما توهم المعتزلة، بل إثباتُ قديمٍ وصفتِهِ[١] أو صفاتِه.

وعليه فالقرآن كلامه ﷻ، وكلامه صفة من صفاته، فلا اثنينية هنا، بل صفة قائمة بموصوف. فإذا قيل محمد متكلم، فإن ذلك يتضمن إثبات أمرين: ذات محمد، وكلامه، ولا يقول عاقل أنه دل على إثبات ذاتين منفصلتين. ولكن الأمر يختلف تماماً في دعوى ألوهية المسيح. فالمسيح عليه السلام ذات مستقلة، قائم بنفسه، ليس عرضاً ولا صفة، فمهما فلسف القوم ألوهيته فلا مفر لهم من القول بالحلول أو التعدد. وكذلك الحال في عقيدة التثليث، أو ما يسمونه بالأقانيم الثلاثة، لا يمكن تنظيرها بحال على إثبات الصفات الإلهية كالسمع والبصر والعلم وغيرها، فليس ثم إلا التعدد الشركي، الذي أكفرهم الله به، ويحاول هؤلاء العصرانيون تبرئتهم منه.

وبناءً على هذا الأصل الفاسد فقد شهر محمد حسين فضل الله، ومن قبله الطباطبائي، ومن قبله سائر أهل الاعتزال، سيفاً مفلولاً على النصارى لا ينكأ ولا يقتل - فلا نسلم للطباطبائي أن معنى «ثالث ثلاثة» (أي هو ينطبق على كل واحدٍ من الثلاثة) فإن الله تعالى قال عن نبيه محمد ﷺ: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ﴾ [التوبة: ٤٠] وليس معناه أنه ﷺ ينطبق على

---

(١) جرى التعبير بلفظ «القديم» و«القدم» تنزلاً مع هؤلاء المتكلمين في اصطلاحاتهم، وإلا فليس «القديم» من أسماء الله الحسنى، ولا القدم من صفاته إذ لا يعطي لفظ «القديم» دلالة اسم الله «الأول» الذي ليس قبله شيء، فكل قديم فله ابتداء. ولكن مقام المناظرة والمجادلة أوسع من مقام التقرير. وربما ورد «القديم» بمعنى الأزلي، كما في حديث دعاء دخول المسجد عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه كان إذا دخل المسجد قال: (أعوذ بالله العظيم، وبوجهه الكريم، وسلطانه القديم، من الشيطان الرجيم). رواه أبو داود (٣١٨/١)، وصححه الألباني. انظر: صحيح الجامع الصغير (٢١٧/٤).

كل واحدٍ من الاثنين، بل هو أحدهما. فقول النصارى: «إن الله ثالث ثلاثة» يريدون به الأب، والاثنان الباقيان شريكان له، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

ولا نسلم له أن قولهم: (الأب والابن وروح القدس إله واحد) نظير قول القائل (إن زيداً بن عمرو إنسان) لا مبنىً ولا معنى. فالمعنيُّ في الجملة الأخيرة بالاسم والبدل والصفة ذات واحدة، عبّر عنها تارة بالاسم العلم، وأخرى بالكنية، وثالثة بالوصف، وكل من هذه الاستعمالات الثلاثة منطبق على ذات زيد.

أما الأقانيم الثلاثة فكل واحدٍ منها ذات مستقلة، بائنة عن الأخرى يوجب اجتماعها كثرة حقيقة تمنع الوحدة. وليت أهل الاعتزال اكتفوا بطريقة القرآن الموافقة للعقل والفطرة، وأراحوا العباد من تكلفهم، فضلاً عن أن يناظروا به الخصوم.

ثانياً: التطبيقات العملية في معاملة أهل الكتاب عند الإسلاميين العصرانيين:

ظهرت الانحرافات العقدية السابقة في مرحلة الانحطاط التي منيت بها الأمة الإسلامية في أواخر القرن الهجري الثالث عشر، وخضوع الممالك الإسلامية المختلفة للغزاة النصارى المصاحب لانفراط عقد الخلافة الإسلامية العثمانية.

فلا عجب أن نجد رواد المدرسة العصرانية في شبه القارة الهندية، والبلاد العربية، ذوي ولاءات صريحة أو مشبوهة مع المستعمر النصراني، يروجون ما يروق له من أفكار، ويحظون من قِبله بالدعم والتمكين، كما يتضح ذلك من السيرة الذاتية لكلٍ من السيد أحمد خان(١)، وجمال الدين

---

(١) السيد أحمد خان: ولد في دهلي (الهند) أثناء الاستعمار الإنجليزي لشبه القارة الهندية، ودعا مسلميها إلى تعلم العلوم الحديثة باللغة الإنجليزية، وأسس في بلدة «عليكرة» عام ١٨٧٥م نواة جامعة إسلامية تنشر الثقافة الغربية=

الأفغاني، ومحمد عبده[1].

وقد انعكست آثار هذه الشذوذات العقدية على الواقع الميداني، والتطبيق العملي في معاملة أهل الكتاب للوصول إلى صيغة فكرية واجتماعية مغايرةٍ تماماً لما درج عليه المسلمون منذ عهد النبوة، تتماشى في نظرهم مع متطلبات المرحلة.

والفقه الإسلامي، والسياسة الشرعية يتسعان لمواجهة الأوضاع المختلفة لحال الأمة الإسلامية ضعفاً وقوة، دون المساس بالأصول العقدية، ومحاولة تكييفها أو تحريفها لتسويغ وضع ما، فالعجز مانع من موانع التكليف على المستوى الفردي وعلى المستوى الجماعي، وعذر شرعي لتخلف القيام ببعض الواجبات والشعائر الظاهرة. وتاريخ الأمة الإسلامية في العهد المكي ثم المدني، وما تلاه من العهود المتقلبة، حافل بألوان الاجتهادات والممارسات العملية التي اقتضتها طبيعة المرحلة. وفرقٌ بين تأجيل واجب معين لحين توفر الأسباب اللازمة له مع اعتقاد وجوبه، وتعطيل ذلك الواجب وهجره بتأويلاتٍ باطلة، وتحريفٍ للكلم عن مواضعه. وهذا مكمن الخطر في فكر المدرسة العصرانية فهي لا تقدم اجتهادات «مرحلية» لمعالجة أزمة طارئة، أو وضعٍ مؤقت مع إحلال الحلال وتحريم الحرام، بل تسعى لاجتثاث بعضِ الثوابت العقدية والتشريعية المعلومة من الدين بالضرورة وفق

= بين المسلمين. وقد عورض من علماء المسلمين في الهند، ووصمت حركته، بلقب «النيتشرية» نسبة إلى كلمة Nature أي الطبيعة، وكان موالياً للإنجليز، وتعرض للاغتيال ولكنه نجا. من مؤلفاته: «تفسير القرآن العظيم»، «عن طريق العلم والعقل وآثار الصناديد»، «في تاريخ دهلي وأسباب سقوط الحكم الإسلامي». انظر: المنجد في الأعلام (٢٥).

(١) انظر: العصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التغريب (٣٤٣ ـ ٣٦٥)، والفكر الإسلامي المعاصر دراسة وتقويم. (٣٣ ـ ٤٥).

أسس مصلحية عقلانية، وإحلال تصورات وتطبيقات جديدة باسم «الاجتهاد»، و«التنوير»، و«الإصلاح»، و«التجديد»، وما شابه ذلك من اصطلاحات مزوقة. كما سنرى في الصفحات التالية:

أولاً: موادة أهل الكتاب وموالاتهم:

١ ـ محمد عبده:

تبلغ الجرأة بمحمد عبده في كتابه «الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية» الذي سرد فيه أصول الإسلام ـ كما يراها ـ أن يرسم العنوان التالي:

(الأصل السابع للإسلام: مودة المخالفين في العقيدة)(١) هكذا!

سبحانك هذا بهتان عظيم! كيف وقد قال الله تعالى:

■ ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥١﴾ [المائدة].

■ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٥٧﴾ [المائدة].

■ ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٢٢﴾ [المجادلة].

---

(١) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية: محمد عبده. مطبعة المنار. القاهرة ـ مصر. (٧٣).

والآيات والأحاديث الصحيحة في هذا المعنى كثيرة وفيرة[١]. أما هذا الأصل الفاسد الذي أصّله محمد عبده، ونسبه إلى الإسلام، والإسلام منه براء، فلم يجد ما يستدل له سوى مسألة «حل نكاح الكتابية». فقد نفخ في صورتها وأطال أذيالها بعباراتٍ عاطفية، وحمّل الأمر ما لا يحتمل من جنس قوله: (أين أنت من صلة المصاهرة التي تحدث بين أقارب الزوج، وأقارب الزوجة وما يكون بين الفريقين من الموالاة والمناصرة على ما عهد في طبيعة البشر؟ وما أجلى ما يظهر ذلك بين الأولاد وأخوالهم، وذوي القربى لوالدتهم، أيغيب عنك ما يستحكم من ربط الإلفة بين المسلم وغير المسلم...)[٢].

وهو حشوٌ لا يغني من الحق شيئاً. وغاية ما في الأمر من شبهة يتذرع بها، هو ما يحصل بين الزوجين من محبة وانجذاب. والجواب عن ذلك أن تلكم المحبة محبة غريزية طبعية، كمحبة الإنسان للطعام والشراب، وليس الوصف المؤثر فيها هو «المخالفة في العقيدة»، كما صور محمد عبده بقوله: «مودة المخالفين في العقيدة»، فضلاً عن أن توجب تلك المودة الآثار العملية من الموالاة والمناصرة كما زعم. فهو يخلط بين المحبة الطبيعية الجِبِلِّيَّة، كمحبة الزوجة والوالد والولد، والمحبة الإيمانية التي هي من أوثق عرى الإيمان، ولا يميز بينهما. ويخلط أيضاً بين العدل والإحسان اللذين هما من صميم الأخلاق

---

(١) انظر في هذا: اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم. لشيخ الإسلام ابن تيمية، ومن الكتب الحديثة: الولاء والبراء في الإسلام لـ محمد سعيد القحطاني.
وانظر: مبحث (حكم بغض الكافرين) من كتاب أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية، والرد على الطوائف الضالة فيه: د. علي بن نفيع العلياني. دار طيبة. الرياض ـ السعودية. الطبعة الأولى (١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م). (٣٥٠ ـ ٣٦١).

(٢) الإسلام والنصرانية مع العلم والدين (٧٤).

الإسلامية في معاملة البشر، كل البشر ـ سوى الحربيين ـ والموالاة والمناصرة الخاصتين بالمؤمنين ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة] ويجعلهما من بابٍ واحد. ونتيجة لهذا اللبس والتخليط لم تتضح له آي الكتاب، كطريقة أهل البدع الذين يُعمِلون جزءاً من النصوص، ويهملون جزءاً آخر، ولا يهتدون سبيلاً، ويرون من أعمل ما أهملوه ضالاً منحرفاً. ولهذا يقول محمد عبده معلقاً على آيات الولاء:

(إن بعض الجهلة المتشدقين ربما تعرض لهم الشبهة في فهم هذه الآيات... على أنه لا شبهة فيها لهؤلاء الجهلة تسوغ لهم تفسيق إخوانهم أو تكفيرهم بعد ما جاء في الآية المحكمة من قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الممتحنة]، وبعد ما جاء في القصص الذي قصه الله علينا لتكون لنا فيهم أسوة، إذ قال: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [لقمان] وبعد ما أباح الله لنا في آخر ما أنزل على نبيه ﷺ نكاح الكتابيات، ولا يكون نكاح قوم حتى تكون فيهم قرابة المصاهرة، ولا تكون تلك القرابة حتى تكون المودة. وحقيقة ما جاء في الآيات الدالة على النهي عن موالاة غير المؤمنين، أو موادة الفاسقين والمحادين لله تعالى أنه نهى عن الموالاة في الدين ونصرة غير المؤمن على المؤمن فيما هو من دينه، وإمداد الفاسق بالمعونة على فسقه، وعن اتخاذ بطانة من غير المؤمنين، يكون من صفتها أن تبذل وسعها في خذلانهم وإيصال الضرر إليهم. أما إذا

أمن الضرر وغلب الظن بالمنفعة، ولم يكن في المودة معونة على تعدي حدود الله ومخالفة شرعه، فلا خطر في الاستعانة بمن لم يكن من المسلمين، أو لم يكن من الموفقين الصالحين ممن يسمونهم: أهل الأهواء، فإن طالب الخير يباح له، بل ينبغي له أن يتوسل إليه بأي وسيلة توصل إليه ما لم يخالطها ضررٌ للدين والدنيا)(١). وقد تقدم من كلام الإمام القرافي المالكي في الجمع بين آيات النهي عن موالاة اليهود والنصارى وآيتي المجادلة ما أغنى عن إعادته هنا(٢).

إن محمد عبده يقصر صور موالاة أهل الكتاب على صورة واحدة، هي نصرة غير المؤمن على المؤمن فيما هو من دينه، ويقيد البطانة المنهي عن اتخاذها من دون المؤمنين فيما كان من شأنها الخذلان وإيصال الضرر، وما لا فلا. وما كان سوى ذلك فهم «إخوان» للمسلمين، لا يجوز تفسيقهم أو تكفيرهم. ومن فعل ذلك فهو من الجهلة المتشدقين!

هذا فهم أصحاب المدرسة الإصلاحية التجديدية، فلننظر في فهم سلف الأمة:

يقول إمام المفسرين محمد بن جرير الطبري ﷺ في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [آل عمران]، يعني بذلك تعالى ذكره: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله، وأقروا بما جاءهم به نبيهم من عند ربهم، لا تتخذوا بطانةً من دونكم، يقول: لاتتخذوا أولياء وأصدقاء

---

(١) الأعمال الكاملة (٧٠٨ ـ ٧١٤) عن: الإسلام والوحدة القومية (١٢٧ ـ ١٢٩).

(٢) راجع مبحث: «حكم الإسلام في أهل الكتاب» من التمهيد.

لأنفسكم من دونكم، يقول من دون أهل دينكم وملتكم، يعني من غير المؤمنين... فنهى الله المؤمنين به أن يتخذوا من الكفار به، أخلاء وأصفياء، ثم عرَّفهم ما هم عليه لهم منطوون من الغش والخيانة، وبغيهم إياهم الغوائل، فحذرهم بذلك منهم عن مخالَّتهم...)[١]، ثم بيّن مَن المراد تحديداً بهؤلاء، فقال: (إن الذين نهى الله المؤمنين عن اتخاذهم لأنفسهم بطانةً دونهم، هم الذين قد ظهرت لهم بغضاؤهم بألسنتهم على ما وصفهم الله عز وجل به، فعرفهم المؤمنون بالصفة التي نعتهم الله بها، وأنهم هم الذين وصفهم تعالى ذكره بأنهم أصحاب النار هم فيها خالدون، ممن كان له ذمة وعهد من رسول الله ﷺ وأصحابه من أهل الكتاب، لأنهم لو كانوا المنافقين لكان الأمر فيهم على ما قد بيّنا[٢]، ولو كان الكفار ممن قد ناصب المؤمنين الحرب، لم يكن المؤمنون متخذيهم لأنفسهم بطانة من دون المؤمنين مع اختلاف بلادهم، وافتراق أمصارهم، ولكنهم الذين كانوا بين أظهر المؤمنين من أهل الكتاب، أيام رسول الله ﷺ ممن كان له من رسول الله ﷺ عهد وعقد من يهود بني إسرائيل)[٣].

هذا فهم السلف وذاك فهم الخلف، وما بين محمد بن جرير الطبري، ومحمد عبده يتضح الفرق بين المنهجين:

---

(١) جامع البيان (٤/ ٦٠).
(٢) قال رحمه الله قبل ذلك في رد من عنى بهذه الآية أهل النفاق: (وهذا القول الذي ذكرناه عن قتادة لا معنى له... فغير جائز أن يكونوا نهوا عن مخالته ومصادقته إلا بعد تعريفهم إياهم، إما بأعيانهم وأسمائهم، وإما بصفاتٍ قد عرفوهم بها، وإذ كان ذلك كذلك، وكان إبداء المنافقين بألسنتهم ما في قلوبهم من بغضاء المؤمنين إلى إخوانهم من الكفار غير مدرك به المؤمنون معرفة ما هم عليه لهم، مع إظهارهم الإيمان بألسنتهم لهم، والتودد إليهم...)، ثم ساق الكلام أعلاه. جامع البيان (٤/ ٦٣).
(٣) جامع البيان (٤/ ٦٣ ـ ٦٤).

■ فهم السلف: لا تتخذوا أولياء وأصدقاء لأنفسكم من دون أهل دينكم وملتكم، ولا توادُّوهم.

■ وفهم الخلف: لا تتخذوا مَن ناصَرَ غير المؤمنين على المؤمنين أولياء. فقط، وما سوى ذلك فإخوانكم لا يجوز تكفيرهم ولا تفسيقهم، بل إن مودتهم من أصول الإسلام.

■ فهم السلف: الأصل في غير المؤمنين أنهم منطوون على الغش والخيانة، وبغي الغوائل للمؤمنين، فلذا حذرهم الله من اتخاذهم بطانة.

■ وفهم الخلف: الأصل سلامتهم من ذلك، وجواز اتخاذهم بطانة، إلا أن يثبت في حقهم بذل الوسع في خذلان المؤمنين، وإيصال الضرر إليهم.

■ فهم السلف: المعنيون بذلك التحذير، والمتصفون بتلك الأوصاف الثابتة هم أهل الكتاب الذين لهم ذمة وعهد، أي يعيشون مع المؤمنين، أما من سواهم من الكفار ممن قد ناصب المؤمنين الحرب، فلم يكن المؤمنون ليتخذونهم بطانةً، بداهة.

■ وفهم الخلف: المعنيون بذلك هم من صدر منهم فعلاً خذلان المؤمنين وإيصال الضرر إليهم، وأما قبل ذلك فأصفياء وأخلاء، لا يتوجه إليهم الحذر والريبة.

هذا منهج القوم من الناحية النظرية، أما من الناحية العملية فالأمر أوسع بكثير، والقدر الذي يسلمون به من دلالة آيات النهي عن الموالاة واتخاذ البطانة يتلاشى ويضمحل. فهذا محمد عبده يركن إلى المستعمر الإنكليزي في مصر، ويعيش في كنف اللورد كرومر(١)، المندوب

---

(١) كرومر، أفلين بارينغ، ولد عام ١٨٤١م، لورد إنكليزي، شغل منصب المندوب السامي في مصر من عام ١٨٨٣م إلى ١٩٠٧م، وتوفي عام ١٩١٧م. انظر: المنجد في اللغة والأعلام (٥٨٨).

السامي لبريطانيا في مصر، ويواليه ضد الخديوي عباس الثاني[١] الذي كان يحاول التحرر من سلطة المحتل. وتبلغ المصافاة بين محمد عبده واللورد كرومر، أن كانت تلتقط له الصور الشمسية مع الليدي كرومر وبعض نساء الإفرنج[٢]، وحتى يقول اللورد كرومر للخديوي عباس: (إنه ما دام لبريطانية العظمى نفوذٌ في مصر، فإن الشيخ محمد عبده يكون هو المفتي حتى يموت)[٣].

كما قامت السفارة الإنكليزية في الآستانة بحمايته من السلطان أثناء زيارته لها، لما سعى البعض في حبسه وإيذائه، كما صرح رشيد رضا في تاريخ أستاذه[٤].

ويتساءل الأستاذ غازي التوبة متعجباً من تقديم محمد عبده لائحة إلى اللورد كرومر، فيقول: (كيف يتوجه محمد عبده بهذه اللائحة إلى الثعلب الإنجليزي اللورد كرومر؟! كيف يرجو منه نصرة الدين؟! كيف يأمل منه إصلاح أمر المسلمين؟! كيف يرشده إلى مداخل هذا الشعب؟! كيف يتمنى على المسلمين أن يكونوا آلة صالحة في يده؟! كيف يقترح الثناء على الوضع الحالي، ومقارنته بالوضع الماضي في البرامج الدراسية؟!

نحن لن نحاسب محمد عبده... بحقيقة عصرنا التي أبانت حقد الإنجليز الصميم على الإسلام، وتخريبهم الدقيق لعقلية المسلمين،

---

(١) الخديوي عباس حلمي بن توفيق بن إسماعيل، حفيد محمد علي، ولد في القاهرة عام ١٢٩١هـ، وتولى الخديوية عام ١٣٠٩هـ، كان فيه دهاءٌ وذكاء ينقصه الحزم والكتمان. توفي في سويسرا عام ١٣٦٣هـ. انظر: الأعلام (٣/ ٢٦٠).

(٢) انظر: تاريخ الأستاذ الإمام (١/ ٨٥٨).

(٣) انظر: تاريخ الأستاذ الإمام (١/ ٥٠١، ٥٦٤).

(٤) انظر: تاريخ الأستاذ الإمام (١/ ٥٩٦، ٨٦٠).

وتمزيقهم الحاد لبلادهم. لن نحاسبه بحقيقة عصرنا التي كشفت خطط الإنجليز البعيدة في إنفاذ السم إلى كل أبعاد المجتمع الإسلامي، وخطواتهم المنظمة التي ساروا عليها لتحقيق هدفهم ذاك. لن نحاسبه بهذه الحقائق، لكننا سنحاسبه بحقيقة الإسلام التي تحذر من الاطمئنان إلى أهل الكتاب، وعدم التسليم لهم بنصوصٍ قاطعة...)[1] ثم ساق آيات النهي عن موالاة اليهود والنصارى.

ونقول للأستاذ غازي التوبة إن تعجب فعجبٌ قول محمد عبده: (الأصل الثاني للإسلام: تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض)[2] فما تراه ـ رحمك الله ـ من نصوصٍ قاطعة، يراها العصريون بمنظار العقل والهوى، فلا عجب أن ينتج هذا التأصيل تحريف النصوص إلى الحد الذي يصبح (الأصل السابع للإسلام: مودة المخالفين في العقيدة)[3].

وعلى هذا المنوال نسج خريجو هذه المدرسة:

٢ ـ محمد عمارة:

□ فقد أسس محمد عمارة كتابه «الإسلام والوحدة القومية» على شفا هذا الجرف الهاري، متأثراً بالأحداث الطائفية التى عصفت بمصر في أواخر السبعينيات، فحمل جميع النصوص الواردة في تحريم موالاة اليهود والنصارى على محملٍ واحد، وهو أن يكونوا أعداء محاربين، ولعمر الله إن العدو المحارب فعلاً، لا يحتاج عاقلٌ أن يقال له: لا تتخذه ولياً.

فيقول عند قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة] (... المنهي عنه هو نصرة الأعداء في حالة

---

(١) الفكر الإسلامي المعاصر، دراسة وتقويم غازي التوبة (٢٦ ـ ٢٧).
(٢) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية (٥٦).
(٣) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية (٧٣).

الحرب. ولا علاقة لهذا المعنى المراد بما قام ويقوم بين أبناء الأمة الواحدة، والقومية الواحدة، من أواصر وروابط، وهم جميعٌ على من عداهم وعاداهم... فنحن إذاً أمام آية كريمةٍ تنهى عن الخيانة الوطنية، والخيانة الوطنية في حالة الحرب... وليس فيها ما يتصل من قريبٍ أو من بعيد، بالدعوة إلى حجب النصرة والموالاة عن المخالفين لنا في الشريعة، وخاصة إذا كانوا إخوة لنا في القومية والوطن)[1].

إن هؤلاء يُحِلُّون الرابطة الوطنية محل الرابطة الدينية جهاراً ونهاراً، وينقضون أوثق عرى الإيمان؛ الحب في الله والبغض في الله، والموالاة في الله والمعاداة في الله. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [المائدة].

٣ ـ عبده سلام[2]:

■ ويقول د. عبده سلّام، رئيس جمعية الإخاء الديني[3] في القاهرة في محاضرة ألقاها في روما أمام جمع من النصارى عام ١٩٨١م في معرض بيان ما يريده كرجل مسلم من الإخوة المسيحيين ـ

---

(١) الإسلام والوحدة القومية (١٣١).

(٢) عبده سلّام: ولد في المنصورة عام ١٩١٦م. (مصر). حاز شهادة الدكتوراه في الطب من القاهرة، ثم من ليفربول (إنكلترا)، انتخب نائباً عام ١٩٥٠م، ثم عين وزيراً للصحة (١٩٦٨م ـ ١٩٧٢م)، أسهم في تأسيس جمعية «الإخاء الديني» التي تضم مسيحيين ومسلمين، مصريين ورأسها عدة سنوات. انظر: وثائق عصرية في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين (١٤٧).

(٣) جماعة الإخاء الديني: حركة حوارية أسسها في القاهرة المستشرق الشهير «لويس ماسينيون» والأب «جورج قنواتي» عام ١٩٤١م، تدعو إلى التقريب بين الأديان. انظر التعريف بها في الباب الثاني.

على حد تعبيره ـ ومن الآباء المسيحيين ومن الكنيسة: (... أن يتوقفوا عن اعتبار الإسلام والمسلمين قوة مضادة أو منافسة. بل يجب أن ينظروا إلى الإسلام والمسلمين بصفتهم قوة حليفة تحارب مع المسيحية من أجل الإيمان بالله، وضد نفس الأعداء، أي ضد الإلحاد، وضد المادية، وضد كل «الدنيويات» التي يعبدها الناس في هذه الحياة)(١).

وتلك رتبة أحط مما طالب بها سلفه. ومن عجيب فقهه واستنباطه قوله معلقاً على حديث: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

(لم يقل لأخيه في الإسلام فقط... ولكن قال لأخيه... أي لأخيه عموماً... أي لأخيه في الإنسانية... أياً كان جنسه أو دينه)(٢).

٤ ـ يوسف القرضاوي:

ومما يؤسف له أن ينجر الدكتور يوسف القرضاوي خلف هذه الشعارات، فيقول تحت عنوان: «نصوصٌ فهمت على غير وجهها» بعد أن ساق جملةً من الآيات القرآنية التي تنهى عن موالاة اليهود والنصارى وموادتهم:

(فهم بعض الناس من هذه الآيات وأمثالها أنها تدعو إلى الجفوة والقطيعة والكراهية لغير المسلمين، وإن كانوا من أهل دار الإسلام، والموالين للمسلمين المخلصين لجماعتهم. والحق أن الذي يتأمل الآيات المذكورة تأملاً فاحصاً، ويدرس تواريخ نزولها، وأسبابه، وملابساته، يتبين ما يأتي:

---

(١) الإسلام دين السلام. من: وثائق عصرية في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين (١٥٩).

(٢) المرجع السابق (١٥٦).

أولاً: أن النبي إنما نهى عن اتخاذ المخالفين أولياء بوصفهم جماعة متميزة بدياناتها وعقائدها وأفكارها وشعائرها، أي بوصفهم يهوداً أو نصارى أو مجوساً، أو نحو ذلك، لا بوصفهم جيراناً أو زملاء أو مواطنين. والمفروض أن يكون ولاء المسلم للأمة المسلمة وحدها. ومن هنا جاء التحذير في عددٍ من الآيات من اتخاذهم أولياء «من دون المؤمنين»، أي يتودد إليهم ويتقرب على حساب جماعته... ولو كان سلماً للمسلمين وذمةً لهم. إنما هي موادة من آذى المسلمين وحاد الله ورسوله. ومما يدل لذلك:

أ ـ قوله تعالى في سورة المجادلة: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢]، ومحادة الله ورسوله ليس مجرد الكفر بهما، بل محاربته دعوتهما، والوقوف في وجهها، وإيذاء أهلها.

ب ـ قوله تعالى في مستهل سورة الممتحنة: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [الممتحنة: ١] فالآية تعلل تحريم الموالاة أو الإلقاء بالمودة إلى المشركين بأمرين مجتمعين: كفرهم بالإسلام، وإخراجهم للرسول والمؤمنين من ديارهم بغير حق.

ج ـ قوله تعالى في نفس السورة: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الممتحنة]، فقسم المخالفين إلى فريقين: فريق كان سلماً للمسلمين لم يقاتلهم في الدين ولم يخرجهم من ديارهم، فهؤلاء لهم حق البر والإقساط إليهم، وفريق اتخذ موقف العداوة والمحادة للمسلمين بالقتال أو الإخراج من الديار أو المظاهرة والمعاونة على ذلك، فهؤلاء يحرم

موالاتهم مثل مشركي مكة الذين ذاق المسلمون على أيديهم الويلات. ومفهوم هذا النص أن الفريق الآخر لا تحرم موالاته)[١].

إن الدكتور يوسف القرضاوي لا يعتبر علة النهي عن موادة أهل الكتاب وتحريم موالاتهم هي الكفر بالله العظيم، وإنما محاربة المسلمين وإيذائهم فقط. فما داموا مسالمين ساكنين فهم أهل للمودة والولاء. وبعبارة أخرى يفرق بين «أهل الذمة» المقيمين في «دار الإسلام»، وسائر أهل الكتاب المحاربين.

ولا ريب أن بينهما فرقاً في المعاملة الظاهرة، فالأولون لهم ذمة المسلمين وعهدهم بحمايتهم، وعدم إكراههم في الدين، وعدم أذيتهم، وحفظهم في أنفسهم وأهليهم وأموالهم ما وفوا للمسلمين، وعليهم الخضوع لإمام المسلمين، وبذل الجزية، وعدم مواطأة أعداء الإسلام عليهم ظاهراً أو باطناً[٢]. وأما الحربيون فأمرهم ظاهر.

لكن الأمر الذي نستدركه على الدكتور يوسف القرضاوي، أنه فرق بين الصنفين في مسألة الموادة والموالاة، فكلاهما كافرٌ بالله تعالى، والكفر يستلزم العداوة والبغضاء كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤]، وقال تعالى في شأن الموالاة: ﴿لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ [آل عمران]. والدكتور يوسف القرضاوي لا ينازع ـ وحاشاه ـ في كفر اليهود والنصارى[٣]، فمن أين جاء بهذا التفريق بين المتماثِلَين، من كتاب الله

(١) غير المسلمين في المجتمع الإسلامي (٦٥ ـ ٦٨).
(٢) راجع مبحث «حكم الإسلام في أهل الكتاب» من التمهيد.
(٣) قال د. يوسف القرضاوي في محاضرة بعنوان: «الحوار الإسلامي المسيحي»=

أو سنة رسوله ﷺ في مسألة الموادة والموالاة؟! وهل كون أحدهم أو بعضهم جيراناً أو زملاء أو مواطنين يرفع عنهم وصف «اليهودية» أو «النصرانية»، وهل كونهم (جماعة متميزة بديانتها وعقائدها وأفكارها وشعائرها) يضيف شيئاً في قضية الكفر يميزهم عن أمثالهم من أهل الذمة؟

وما استدل به القرضاوي من الآيات لا يسعفه فيما ذهب إليه؛

فقوله في آية المجادلة: (ومحادة الله ورسوله ليس مجرد الكفر بهما، بل محاربته دعوتهما، والوقوف في وجهها، وإيذاء أهلها). زلة لا تليق به، فأي محادة لله ورسوله أعظم من الكفر بهما؟! حتى أن ابن عمر رضي الله عنهما كان (لا يرى التزويج بالنصرانية، ويقول: لا أعلم شركاً أعظم من أن تقول: إن ربها عيسى، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢١](١).

والمقصود أن الكفر بذاته هو موجب نفرة المؤمنين من غير المؤمنين. وهل محاربة الدعوة والوقوف في وجهها وإيذاء أهلها إلا أثر من آثار الكفر؟

ولم يجعل الله ولا رسوله ﷺ الحرب والإيذاء شرطاً في عدم الموالاة وحصول البغضاء، قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٢٨]. وأما قول الدكتور القرضاوي في آية

= في نوفمبر ١٩٩٥م: (ويسأل بعض الناس: هل النصارى كفار؟ وهل اليهود كفار؟ ونحن نقولها صريحة: إنه من لم يؤمن برسالة محمد ﷺ فهو كافر) مجلة المسلم المعاصر (٨٦/ ١٤)، ونضيف ما أكفرهم الله به في كتابه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المائدة: ١٧، ٧٢]، ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣].

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٢).

الممتحنة الأولى: (فالآية تعلل تحريم الموالاة أو الإلقاء بالمودة إلى المشركين بأمرين مجتمعين: كفرهم بالإسلام، وإخراجهم للرسول والمؤمنين من ديارهم بغير حق) فهل تَخَلُّف إحدى العلتين موجبٌ لانتفاء الحكم؟ قال أهل الأصول إذا تعددت العلل الشرعية لم يلزم من ضرورة انتفاء البعض انتفاء الحكم، بل عند انتفاء جميعها[1]. أيَرى الدكتور القرضاوي أنهم لو كفروا بالإسلام، ولم يخرجوا الرسول ﷺ والمؤمنين من مكة أنه تجوز موادتهم وموالاتهم، لعدم اجتماع العلتين؟! وأين هذه العلة في قوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [التوبة]. ولو كان مجرد الإقامة في دار الإسلام، وموالاة المسلمين، والإخلاص لجماعتهم، من قبل أهل الكتاب كافياً لمبادلتهم الولاء بولاء والمودة بمودة ـ كما صور الكاتب ـ لما كان لفرض الجزية عليهم معنى. وقبل أن يصبح أهل الكتاب أهل ذمة قيل في حقهم: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة]. وكلها تعليلات متصلة بقضية العقيدة لا بمحاربة الدعوة وإيذاء أهلها.

---

(١) انظر: روضة الناظر وجنة المناظر «لابن قدامة»، من كتاب ابن قدامة وآثاره الأصولية، إعداد د. عبد العزيز السعيد (٢/ ٣٣٤).

وأما استدلاله بمفهوم المخالفة في آية الممتحنة الأخرى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٩﴾ [الممتحنة]، حيث يقول: (ومفهوم هذا النص أن الفريق الآخر لا تحرم موالاته). فبصرف النظر عن اختلاف الأصوليين في الاحتجاج بمفهوم المخالفة[(١)]، فإن هذا المفهوم المتوهم مردود بمنطوق الآية المتعلق بالفريق الآخر، الذي قال الله فيه: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾ [الممتحنة]، فعين الله سبحانه المأذون فيه لهؤلاء وهو برهم والإقساط إليهم، ولم يقل (أن تولوهم) كما أوهم القرضاوي ـ عفا الله عنه ـ ومن أحسن من الله حديثاً. ولا يلزم من البر والإقساط مودة وموالاة، فالبر والقسط متعلقان بالأخلاق، والمودة والموالاة متعلقان بالاعتقاد.

قال ابن الجوزي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ﴾: (قال المفسرون: وهذه الآية رخصة في صلة الذين لم ينصبوا الحرب للمسلمين، وجواز برهم، وإن كانت الموالاة منقطعة بينهم)[(٢)].

ومن المواقف الإيمانية المبكرة التي تجلي هذه المعادلة الدقيقة بين بغض الكفار ـ ولو كانوا أهل عهدٍ وذمة، ومعاملتهم بالعدل والإنصاف ـ ما نقل ابن كثيرٍ رحمه الله عن الحافظ البيهقي[(٣)] في قصة طويلة

---

(١) انظر: علم أصول الفقه. عبد الوهاب خلاف (١٥٦ ـ ١٥٧).

(٢) زاد المسير (٨/ ٢٣٧).

(٣) البيهقي: أحمد بن الحسين بن علي، أبو بكر البيهقي الشافعي. ولد سنة ٣٨٤هـ. من أئمة الحديث قال إمام الحرمين: ما من شافعي إلا وللشافعي فضل عليه غير البيهقي فإن له المنة والفضل على الشافعي، لكثرة تصانيفه في نصرة مذهبه، وبسط موجزه، وتأييد آرائه ا.هـ من مصنفاته: «السنن الكبرى»، و«الصغرى»، و«الأسماء والصفات»، و«دلائل النبوة»، و«مناقب الإمام=

من حديث ابن عمر رضي الله عنهما في فتح خيبر، وفيها: (وكان عبد الله بن رواحة يأتيهم كل عامٍ فيخرجها عليهم، ثم يضمنهم الشطر، فشكوا إلى رسول الله ﷺ شدة خرصه، وأرادوا أن يرشوه، فقال: يا أعداء الله تطعموني السحت، والله لقد جئتكم من أحب الناس إلي، ولأنتم أبغض إليَّ من عدتكم من القردة والخنازير، ولا يحملني بغضي إياكم وحبي إياه على ألا أعدل عليكم. فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض)[(١)].

ونقلها الحافظ الذهبي[(٢)] رحمه الله من حديث الزهري[(٣)] عن سليمان بن يسار[(٤)] أن النبي ﷺ كان يبعث ابن رواحة إلى خيبر فيخرص بينه وبين يهود. فجمعوا حلياً من نسائهم، فقالوا: هذا لك، وخفف عنا. قال:

= الشافعي»، وغيرها، توفي سنة ٤٥٨هـ. انظر: الأعلام (١/ ١١٦)، شذرات الذهب (٣/ ٣٠٤)، طبقات الشافعية (٣/ ٣)، اللباب (١/ ١٦٥)، دائرة المعارف الإسلامية (٤/ ٤٢٩)، معجم البلدان (٢/ ٣٤٦).

(١) البداية والنهاية (٤/ ١٩٩).

(٢) الذهبي: محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي شمس الدين أبو عبد الله، حافظ مؤرخ، علّامة محقق، ولد سنة ٦٧٣هـ بدمشق، ورحل إلى القاهرة وطاف كثيراً من البلدان، تصانيفه كثيرة تقارب المائة، منها: «تاريخ الإسلام الكبير»، و«سير أعلام النبلاء» و«ميزان الاعتدال» و«تذكرة الحفاظ» واختصر كثيراً من الكتب، توفي سنة ٧٤٨هـ. الأعلام (٥/ ٣٢٦)، فوات الوفيات (٢/ ١٨٣)، طبقات السبكي (٥/ ٢١٦)، الشذرات (٦/ ١٥٣)، غاية النهاية (٢/ ٧١)، الدرر الكامنة (٣/ ٣٣٦).

(٣) الزهري: محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهري، أبو بكر، إمام حافظ حجة ثقة ثبت، ولد سنة ٥٨هـ، وتوفي سنة ١٢٤هـ. الأعلام (٧/ ٩٧)، تذكرة الحفاظ (١/ ١٠٢)، وفيات الأعيان (١/ ٤٥١)، تهذيب التهذيب (٩/ ٤٤٥)، تاريخ الإسلام (٥/ ١٣٦).

(٤) سليمان بن يسار: سليمان بن يسار الهلالي، المدني، مولىٰ ميمون، وقيل أم سلمة، ثقة فاضل، أحد الفقهاء السبعة. مات بعد المائة، وقيل قبلها. انظر: تقريب التهذيب (١/ ٣٣١).

يا معشر يهود، والله إنكم أبغض خلق الله إليّ، وما ذاك بحاملي أن أحيف عليكم، والرشوة سحت. فقالوا بهذا قامت السماء والأرض)[(١)].

ثانياً: التنصل من أحكام أهل الذمة والاعتذار عنها:

فإذا ما انتقلنا إلى الفقه العصراني التشريعي في معاملة أهل الكتاب، وعلى وجه الخصوص القاطنين اليوم بين ظهراني المسلمين، نجد محاولاتٍ تحريفية للأصول الشرعية المستقرة طوال القرون، بغرض إلغائها نظرياً - وإن كانت قد ألغيت عملياً منذ عقودٍ بعيدة بسبب الضعف الذي لحق بالمسلمين - وإحلال صيغ مبتدعة محلها. يتضح ذلك عند حديثهم عن الجزية:

١ - محمد حسين فضل الله:

قال: (ربما تحفّظ بعض المفسرين في هذه الآية[(٢)] على أساس شمولها أهل الكتاب جميعاً. لأن الصفات المذكورة في الآية لا تنطبق عليهم جميعاً، وهي عدم الإيمان بالله واليوم الآخر، وعدم تحريم ما حرم الله ورسوله، وعدم التزامهم بالدين الحق. فقد لاحظ البعض أن الكثيرين من أهل الكتاب يؤمنون بالله واليوم الآخر، ويحرمون الحرام الوارد في شرائعهم مما جاء تحريمه من الله ورسوله «إذا كان المراد من الرسول رسولهم الذي يلتزمون رسالته، لا النبي محمد ﷺ» فقد يكون المراد بها طائفة معينة منهم، من الذين أتوا الكتاب فانتسبوا إليها اسماً، ولكنهم لم يلتزموا به إيماناً وشريعة ومنهجاً للحياة. وبالتالي فهو لا يشمل من خلال وجهة النظر هذه الذين يلتزمون الإيمان والشريعة

---

(١) سير أعلام النبلاء (١/٢٣٧).

(٢) قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة].

الواردة عليهم. وهكذا يمنح الإسلام المنتسبين لأهل الكتاب هذا الامتياز حتى لو لم يلتزموا به عملياً)(١).

وهكذا يمنح محمد حسين فضل الله كفرة أهل الكتاب عفواً عاماً، ويسقط عنهم الجزية ـ وإن نظرياً ـ باعتبارهم كما لاحظ الكثيرون بزعمه، يؤمنون بالله واليوم الآخر، رغم عقيدة التثليث والقول بألوهية المسيح وبنوته، ويحرمون الحرام الوارد في شرائعهم، وليس في شريعة محمد ﷺ، لأن الرسول ـ كما شبَّه ولبَّس ـ ليس جزماً هو خاتم النبيين محمد ﷺ الذي قال الله فيه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٩﴾ [الصف]، فلم يبق سوى طائفة مجهولة تنتسب إلى أهل الكتاب اسماً، ولا تلتزم الشروط السابقة المتوافرة في عامة أهل الكتاب فإلى هذه الطائفة الخفية النكرة يتوجه السياق، ومع ذلك، ورغم تفريطهم يمنحهم الكاتب امتيازاً خاصاً ـ كما أسماه في تفسير «الجزية» قائلاً: (المقصود بها الضريبة التي يؤدونها في مقابل حماية الدولة أموالهم وأنفسهم وأعراضهم ودينهم، من دون أن يتكلفوا حرباً، أو يدفعوا لها زكاة، الأمر الذي يجعل لهم امتيازاً ضرائبياً، وحقاً خاصاً على بقية المواطنين من المسلمين)(٢).

وإذا شققنا طريقنا خلال هذه الغابة من المُعميات والأسماء المبهمة؛ (بعض المفسرين)، (لاحظ البعض)، وتجاوزنا ذلك فإنا نسائل الكاتب:

أليس يعلم، ويعلم الناس، أن الفاتحين المسلمين من الصحابة

---

(١) العلاقات الإسلامية المسيحية قراءات مرجعية في التاريخ والحاضر والمستقبل (٤٩).

(٢) المرجع السابق (٤٨). قال ابن القيم ﷺ: (وسر المسألة أن الجزية من باب العقوبات، لا أنها كرامةٌ لأهل الكتاب، فلا يستحقها سواهم) أحكام أهل الذمة (١/١٧).

والتابعين ومن بعدهم، حتى الفتوحات العثمانية في أوروبا، كانوا يعرضون على أهل الكتاب إحدى ثلاث: الإسلام، أو الجزية، أو السيف، كما أمر بذلك نبي الإسلام ﷺ؟ وهل يزعم محمد حسين فضل الله أن المسلمين كانوا يميزون بين فريقين من أهل الكتاب، أحدهما مؤمن مصر على يهوديته أو نصرانيته فيعرضوا عنه، وآخر منتسب بالاسم فقط فيضعوا عليه الجزية؟ أم يزعم أن المسلمين الفاتحين كانوا يجاهدون أهل الكتاب ليلتزموا شرع رسولهم السابق، دون الدخول في الإسلام، وقبول ما جاء به محمد ﷺ؟

٢ ـ محمد عمارة:

ومرة أخرى نلحظ اتفاق المشرب بين دعاة التقريب العصرانيين، رغم اختلاف الانتماء الطائفي العام، فنجد محمد عمارة يردد عبارات محمد حسين فضل الله، أو هو العكس، فيقول معلقاً على آية الجزية:

(عندما نتأمل هذه الآية نجدها تتحدث عن قوم جمعوا مجموعة من الصفات... فهم لا يؤمنون بالله، ولا يؤمنون باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله من الخير والشر، والحلال والحرام، ولا يتدينون بالدين الحق، أي بدين التوحيد، وفي ذات الوقت هم من «أهل الكتاب». فهم طائفة من أهل الكتاب، وليسوا هم صنف أهل الكتاب وجنسهم. وهم قد اجتمعت فيهم كل هذه الصفات التي عطفت بحرف العطف «الواو»، ولا نعتقد أن جنس أهل الكتاب الذين جمعوا إلى التوحيد في الألوهية، الطاعة والإسلام لله، تنطبق عليهم جميع هذه الصفات التي ذكرها القرآن لمن تجب عليهم الجزية)[١] سبحان الله! تشابهت قلوبهم، وإن كان هذا الأخير أحذق في صنعة التحريف، حيث اشترط اجتماع الأوصاف.

---

(١) الإسلام والوحدة القومية (١٠٤ ـ ١٠٥).

هذا لونٌ من التلاعب بالنصوص المحكمة، وثم لونٌ آخر في هذه القضية:

يقول محمد عمارة: (لم تكن الجزية إذاً ضريبة «دينية»، علة وجوبها هي «المخالفة في الدين»، بل كانت بدلاً من الجندية عندما اقتضت ضرورات الأمن قصر الجندية على المسلمين، فلما زالت هذه الضرورة، وكلما تخلفت سقطت هذه الضريبة، وقامت المساواة الحقة والحقيقية بين المواطنين على اختلاف الشرائع والمذاهب و«الأديان». واليوم... وبعد التطور الذي بلغته الأمة، والذي ساوى بين أبنائها جميعاً في شرف الجندية وتأدية ضريبة الدم، والذود عن الوطن، هل هناك مبررٌ لبقايا فكرٍ أو حديث ـ مجرد فكر أو حديث ـ عن هذه الجزية تظل معشعشة في عقولٍ متخلفة، ظانة أو زاعمة أن سقوط هذه الضريبة هو تعطيل لحكم من أحكام الله؟!...

فهي إذاً سياسة وحرب وجندية واقتصاد، وليست ديناً ولا شريعة دينية. فما بال البعض يتوهمونها حكماً إلهياً ثابتاً لا تبديل فيه؟!... وما بال البعض يتعلق بثباتها سبيلاً للشقاق الديني وتمزيق وحدة الأمة تحت ستار زائف من الدين؟!)[(١)].

ونحن بدورنا نتساءل: ما بال بعض العلمانيين يرتدون «عباءة» علماء الأزهر، ويقَدمون بصفة «الكاتب الإسلامي»، وهم يفصلون بين السياسة والحرب والجندية والاقتصاد من جهة، والدين والشريعة من جهة أخرى؟ لم لا يُسقطون الأقنعة المصطنعة، ويعلنونها علمانية صريحة، تنحي شعار الدين ورسومه، وتشهر أعلام الوطنية وأصنامها.

ألا يحترم الكاتب عقول قرائه وهو ينفي عن «الجزية» الصفة الدينية، والكل يقرأ قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة]. فمتى تُكتَسَب الصفة الدينية يا ترى إن لم تكتسب من القرآن؟!

---

(١) الإسلام والوحدة القومية (٩٥ ـ ٩٦).

وكيف يلمز الكاتب «الإسلامي» الشريعة الإسلامية الربانية بالظلم، وبعبارته هو «عدم المساواة الحقة والحقيقية» بسبب هذه الجزية؟!

وهلا أتانا - هو وغيره(١) ممن يعتذرون للإسلام من وصمة الجزية - بآية محكمة، أو سنة صحيحة، أو قول صاحب، أن الجزية «بدل الجندية»؟

وأين هذه الدعوى العريضة من نص الآية وروحها: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ١٩].

إن القرآن العظيم أعز وأمنع من أن تناله تحريفات الغالين، وتأويلات الجاهلين، والإسلام أكرم وأجل من أن يعتذر له عن شيءٍ من شرائعه المحكمة إن بحسن نية أو سوء طوية. ومن نماذج ذلك أيضاً:

٣ - سعود المولى(٢):

قال: (إن ما يسمى أحكام الذمة، والمستأمنين، والمعاهدين، كما وردت في النصوص الفقهية، فهي أحكامٌ تدبيرية اقتضاها الواقع التنظيمي الإسلامي والدولي حين كانت الدولة الإسلامية دولة جامعة.

---

(١) ممن يعلل الجزية بأنها «بدل جندية» د. يوسف القرضاوي، ولم يذكر دليلاً واحداً أو أثراً يؤيد ما ذهب إليه. انظر: غير المسلمين في المجتمع المسلم (٣٢ - ٣٤).

(٢) سعود نعمة المولى: ولد في بيروت سنة ١٩٥٣م، حصل على درجة الدكتوراه في علم «الاجتماع السياسي للبلدان العربية» من جامعة السربون - فرنسا - عام ١٩٨٤م، يعمل أستاذاً في معهد العلوم الاجتماعية - الجامعة اللبنانية منذ ١٩٨٦م، رئيس تحرير مجلة الغدير الصادرة عن المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى في لبنان، بالإضافة إلى المشاركة في تحرير العديد من المجلات. شارك في العديد من مؤتمرات الحوار الإسلامي المسيحي محلياً ودولياً. عضو في لجان حوار لبنانية وعربية. انظر ذيل كتابه: الحوار الإسلامي المسيحي. ضرورة المغامرة.

وكان هناك تطابقٌ بين مشروع الدولة وواقع الأمة... ومصطلح «أهل الذمة» أنتجه مناخ فقهي كان سائداً في تلك المرحلة، وهو كان نتيجة لعرفٍ سائدٍ في العالم، فليس في القرآن ولا في السنة مصطلح أهل الذمة، بما هم جماعة سياسية تنظيمية منفصلة عن موجبات الالتزام التنظيمي في المجتمع)[(١)].

٤ ـ فهمي هويدي:

قال متحدثاً عن «أهل الذمة» تحت عنوانٍ من عناوينه الفَجَّة: (هم أصحاب حق. ولسنا أصحاب فضل!) ما يلي: (كل هذه الآراء، سواء منها ما يتعلق بتصنيف الخلق، أو قسمة الأرض والديار، لا تستند إلى نصوصٍ شرعية من كتابٍ أو سنة، وإنما هي اجتهاداتٌ طرحها الفقهاء والباحثون في ضوء قراءاتهم للواقع الذي عايشوه)[(٢)].

هذه مرحلة ما بعد إسقاط الجزية، مرحلة إسقاط جملة أحكام «أهل الذمة»، ونزع الصفة الشرعية الدينية عنها. فقد دأب كثيرٌ من المستشرقين وتلاميذهم على تحميل الفقهاء «وزر» أحكام أهل الذمة باعتبارها نتاج «مناخ فقهي» أو «اجتهادات فقهاء» ونحو ذلك[(٣)].

ولفظ «الذمة» ليس موجوداً في القرآن، ولكن أحكام الذمة موجودة قطعاً. وأما السنة، فيقول ابن الأثير[(٤)] رَحِمَهُ اللَّهُ: (قد تكرر في

---

(١) الحوار الإسلامي المسيحي ـ ضرورة المغامرة (١٩٨).

(٢) مجلة العربي الكويتية عدد (١٦٩) جمادي الأولى ١٤٠١هـ أبريل ١٩٨١م (٤١).

(٣) انظر: الجزية والإسلام ـ دانييل دينيت. ترجمة د. فوزي فهيم جاد الله، أهل الذمة في الإسلام د.ا.س.ترتون. ترجمة د. حسن حبشي، أحوال النصارى في خلافة بني العباس ـ جان موريس فييه. ترجمة حسني زيني، (انظر: عرضاً له في مجلة الاجتهاد (٢٨/٢١٣ ـ ٢٣٠) مراجعة: عائدة مازح.

(٤) ابن الأثير الجزري: المبارك بن محمد بن محمد الجزري، أبو السعادات، =

الحديث ذكر «الذمة» و«الذِّمام» وهما بمعنى العهد، والأمان، والضمان، والحرمة، والحق. وسمي أهل الذمة لدخولهم في عهد المسلمين وأمانهم)[١]. ومن شواهد ذلك:

■ ما رواه البخاري عن أبي هريرة في قصة اليهودي الذي فضل موسى عليه السلام على محمدٍ ﷺ، فلطمه أنصاري فاشتكى إلى رسول الله ﷺ قائلاً: «يا أبا القاسم: إن لي ذمةً وعهداً»[٢].

■ وما رواه مسلم والترمذي[٣] وابن ماجه[٤] وأحمد والدارمي[٥]

= مجد الدين، المحدث اللغوي الأصولي، ولد سنة ٥٤٤هـ، من كتبه: «النهاية في غريب الحديث والأثر»، و«جامع الأصول في أحاديث الرسول»، وهو أخو ابن الأثير المؤرخ، وابن الأثير الكاتب، مات سنة ٦٠٦هـ. الأعلام (٥/ ٢٧٢)، وفيات الأعيان (١/ ٤٤١)، الكامل (١٢/ ١١٣)، إرشاد الأريب (٦/ ٢٣٨)، طبقات الشافعية (٥/ ١٥٣)، دار الكتب (١/ ١٢٤).

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ١٦٨).

(٢) صحيح البخاري (٤/ ١٣٣).

(٣) محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، أبو عيسى، إمام حافظ متقن، ولد سنة ٢٠٩هـ، له «الجامع الكبير» وهو سنن الترمذي و«الشمائل النبوية» و«العلل»، توفي سنة ٢٧٩هـ. انظر: الأعلام (٦/ ٣٢٢)، تهذيب التهذيب (٩/ ٣٨٧)، تذكرة الحفاظ (٢/ ١٨٧)، نكت الهميان (٢٦٤)، ميزان الاعتدال (٣/ ١١٧)، اللباب (١/ ١٧٤).

(٤) ابن ماجه: محمد بن يزيد القزويني، أبو عبد الله، ابن ماجه، حافظ متقن، ولد سنة ٢٠٩هـ، له: «السنن» و«التفسير» و«تاريخ قزوين» توفي سنة ٢٧٣هـ. الأعلام (٧/ ١٤٤)، وفيات الأعيان (١/ ٤٨٤)، تهذيب التهذيب (٩/ ٥٣٠)، تذكرة الحفاظ (٢/ ١٨٩)، المنتظم (٥/ ٩٠)، كشف الظنون (٣٠٠).

(٥) الدارمي: عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام السمرقندي، أبو محمد التميمي، الدارمي، الحافظ. صاحب المسند. ولد سنة ١٨١هـ. رحل في طلب العلم إلىٰ مصر والشام والعراق والحرمين. ثقة، فاضل، متقن، مات سنة ٢٥٥هـ رحمه الله. انظر: تقريب التهذيب (١/ ٤٢٩)، ومقدمة سنن الدارمي.

في وصية رسول الله ﷺ إذا أمَّر أميراً على جيشٍ أو سرية، وفيه: «وإذا حاصرت أهل حصنٍ فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك. فإنكم أن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم، أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله...»(١).

■ وما رواه البخاري وأحمد من وصية عمر بن الخطاب رضي الله عنه، بعد طعنه: «أوصيكم بذمة الله، فإنهم ذمة نبيكم»(٢).

فأصول أحكام أهل الذمة، وتصنيفهم، ثابتة بالكتاب والسنة، وهدي الخلفاء الراشدين المهديين، لا سيما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الذي اتسعت في عهده الفتوحات، ولذا كتب عمر بن عبد العزيز إلى ولاته: «أن من سأل عن مواضع الفيء، فهو ما حكم فيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فرآه المؤمنون عدلاً موافقاً لقول النبي ﷺ، جعل الله الحق على لسان عمر وقلبه. فرض الأعطية للمسلمين، وعقد لأهل الأديان ذمةً بما فرض عليهم من الجزية، لم يضرب فيها بخمسٍ ولا مغنم)(٣).

وإنما يقع الاجتهاد من الفقهاء والولاة بحسب ما يقتضيه المقام والحال والسياسة الشرعية للدولة الإسلامية، في حدود الأصول الشرعية، لا الأعراف الدولية، كما زعم سعود المولى، ولا طروحات الفقهاء والباحثين، كما زعم فهمي هويدي. وقد يتعذر تطبيق أحكام أهل الذمة ـ كما في زمننا هذا ـ لكن هذا لا يعود على أصلها بالإبطال، كما يحاول أهل العصرنة.

---

(١) صحيح مسلم (٣/ ١٣٧٥ ـ ١٣٥٨).
(٢) صحيح البخاري (٤/ ٦٤).
(٣) سنن أبي داود (٣/ ٣٦٤ ـ ٣٦٥).

إن ضغط الواقع المتخلف للمسلمين، وشراسة الحملة ضدهم، لا يسوغان بحال لأي فقيه اليوم أن يقدم تنازلات، لأن الدين لله، والحكم له سبحانه، كما أن هذا الواقع المر لا يجوّز للفقيه أن يتملق الكفار، بدعوى سماحة الإسلام ويسره، كما في النص التالي:

(لم يفرض الإسلام على غير المسلم، مَن يعيش في داره، أن يحرّم الخنزير الذي يحرّمه الإسلام، أو يحرم الخمر الذي يحرمه الإسلام، ما دام دينه يبيح له أن يأكل الخنزير، ويشرب الخمر. قال له: كل الخنزير، واشرب الخمر، ورَبِ الخنزير، واعصر الخمر، بشرط ألا تروّج ذلك بين المسلمين في مناطقهم الخاصة... إلى هذا الحد احترم الإسلام ثقافات الآخرين، كما احترم دياناتهم وعقائدهم، وترك كنائسهم وعباداتهم، فالإسلام يحترم الثقافات المتعددة)[1].

ولا يخفى ما في هذا الكلام من الخضوع في القول، والتجاوز في التعبير إلى درجة الإسفاف. ففرقٌ بين أن يقرهم الإسلام على ما يعتقدون حله، وبين أن يقال: إن الإسلام قال له ـ لغير المسلم ـ كل الخنزير وربه، واعصر الخمر واشربه!

وتأمل الشرط والقيد في قوله: (بشرط ألا تروج ذلك بين المسلمين في مناطقهم الخاصة)! فالممنوع إذاً هو «الترويج» الذي يعني التسويق والتداول والنشر، لا مجرد إظهاره. والمحظور أن يقع في مناطق مسلمة خاصة، فللنصارى إذاً في أحيائهم السكنية في بلاد المسلمين فتح البارات والخمارات!

أهذه هي الثقافة التي زعم الكاتب أن الإسلام يحترمها؛ ثقافة الخمر والخنزير؟!

---

(١) الإسلام والغرب مع د. يوسف القرضاوي. حسن علي دبا (٢٢).

ثالثاً: المناداة بـ«الرابطة الوطنية» و«الحرية الدينية»، وإنكار تميز المسلمين:

لكن دعاة العصرانية، والتقريب، وإزالة الفوارق بين المؤمنين والكافرين، لا يكتفون بهذا الخضوع والتساهل، إنهم يريدونها خليطاً ممتزجاً، (بعضهم من بعض) لا (بعضهم أولياء بعض). ولذلك يجاهرون بكل قحة بالمساواة بين المسلم وغير المسلم، وإنكار تميز المؤمنين وخيريتهم، كما في النقول التالية:

١ ـ د. عبده سلاّم:

قال: في مستهل محاضرة له أمام حشد من النصارى في روما: (والمحاضر يعترف بالقرآن والسنة، وبتأثره بقدوة الخلفاء الراشدين، وبأن هذه المصادر تنادي بالمساواة بين المسلم وغير المسلم)[١].

٢ ـ فهمي هويدي:

قال: (ليس صحيحاً أن المسلمين في هذه الدنيا صنفٌ متميز ومتفوق من البشر لمجرد كونهم مسلمين. وليس صحيحاً أن الإسلام يعطي أفضلية للمسلمين، ويخص الآخرين بالدونية. وليس صحيحاً أن ما كتبه أكثر الفقهاء في هذا الصدد هو دينٌ ملزم، وحجج لا ترد، إنما هو اجتهاد يصيب ويخطئ.

إن دعاوى التميز على الآخرين، وتكريس هذا التميز من جانب أكثر الفقهاء، إنما تستخدم لغةً ليست مقبولة ديناً، فضلاً عن أنها لغة باتت محل إدانة هذا العصر... إن خصومته مع الآخرين، بسبب من توهم التميز أو الفوقية، فهو ما لا يمكن فهمه ولا قبوله بأي حالٍ ولا بأي معيار)[٢].

---

(١) الإسلام والسلام. من وثائق عصرية في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين (١٤٧).

(٢) المسلمون والآخرون. أشواك وعقد على الطريق. مجلة العربي عدد (٢٦٧) ربيع الأول ١٤٠١هـ فبراير ١٩٨١م (٤٩).

إن الكاتب لا ينعى على بعض المغرورين بالألقاب والأسماء ـ دون تصديقٍ من عمل ـ ولو كان كذلك لوافقناه، كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ [النساء]. ولكنه ينقض أصلاً عقدياً عاماً في خيرية هذه الأمة، وتميزها على سائر الأمم، بجراءة منقطعة النظير، وقذائف متوالية، تحمل عبارة (ليس صحيحاً)! ونقول لهذا المتجرئ: دعك من الفقهاء ـ رحمهم الله ـ فقد أوسعتهم شتماً وتنقصاً في كثير من كتاباتك، فما تصنع بقول الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران]، وقوله ﷺ فيما رواه مسلم: (إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة، ما أنتم في سواكم من الأمم إلا كالشعرة السوداء في الثور الأبيض، أو كالشعرة البيضاء في الثور الأسود»[1].

ألا يكفي «الإيمان» الصحيح، و«العقيدة» النقية معياراً للتميز؟!!

ويجيب الكاتب بما يكشف عن معيار التميز والتفوق في نظره، ونظر أمثاله، من خلال القصة المتكلفة التالية: «لقد سمعت واحداً من خطباء الجمعة، اعتلى المنبر ليحدثنا في أن المسلمين «خير أمة أخرجت للناس». وذهب به الحماس حداً دفعه إلى أن يسفه غير المسلمين جميعاً، ويتهمهم بمختلف النواقص والمثالب، ثم يدعو الله في الختام ـ وحوله مئات من المصلين يؤمنون ـ أن يدك بيوتهم، ويزلزل عروشهم، ويفرق شملهم، ويهلك نسلهم وحرثهم!

كنت جالساً في الصف الأول، في مسجدٍ فرش بسجادٍ مصنوعٍ في ألمانيا الغربية، وترطب حراراته مكيفات أمريكية، وتضيئه لمباتٍ

---

(١) صحيح مسلم (١/٢٠١).

«تونجسرام» الهنغارية، بينما كلمات الخطيب تجلجل في المكان عبر مكبر للصوت هولندي الصنع. وعندما هبط شيخنا ليؤمنا في الصلاة، تفرست في طلعته جيداً، لأجد أن عباءته من القماش الإنجليزي، وجلبابه من الحرير الياباني، وساعته «زودياك» السويسرية، وقد وضع إلى جوار المنبر حذاءً إيطالياً لامع السواد»(١).

هذا هو معيار الخيرية والتفاضل بين الأمم عند هؤلاء العصرانيين، المعيار المادي الدنيوي، وليس الإيمان، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، كما أخبر الله تعالى.

وحين ابتعث الله نبيه ﷺ، وأخرج أمته للناس، لم يكونوا هم أرباب الصناعات والاختراعات، بل كانت بأيدي أمم الأعاجم الذين يشدو الكاتب بمآثرهم. وليت الكاتب ترك العلم والرأي والفتيا لأهلها، وتخصص فيما برع فيه من معرفة السلع والبضائع من أول نظرة، وتخلى عن لقب «كاتب إسلامي»، ليصبح «مدير مبيعات»، إذاً لأراح واستراح.

٣ ـ سعود المولى:

قال: (... إن «الأغيار» في العقيدة، غير المسلمين، لهم مكانهم الطبيعي، وليس مكانهم المقرون بالمنة... فليس في الاجتماع السياسي الإسلامي مواطنون درجة أولى، ومواطنون درجة ثانية. المواطنون درجة واحدة وانتسابهم إلى الدولة انتسابٌ واحد)(٢).

ونجيب بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ

(١) المسلمون والآخرون. أشواك وعقد على الطريق. مجلة العربي عدد (٢٦٧) (٤٩).

(٢) الحوار الإسلامي المسيحي، ضرورة المغامرة (٢٠٠).

فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ [الأنفال].

إنَّ هذا المسلك الذي يسلكه إسلاميون عصريون، باسم تجديد الدين، أشد خطورة على الأمة من مسلك بعض الكتاب الليبراليين ـ المتحررين ـ الذين يهاجمون الدين صراحة، وينتقدون بعض جوانبه علناً، من جهة أن الاغترار بالصنف الأول أكبر، لما يمارسه من تلبيس وحجب للحقائق على العامة، تلطفاً في الوصول إلى مقاصده، في حين يبدو الليبراليون المتحررون من الضوابط والاعتبارات، أكثر مصداقية مع أنفسهم وأشد وضوحاً، فحينئذٍ يهلك من هلك عن بيّنة، ويحيى من حي عن بيّنة.

وثمَّ مثالٌ لهذا النوع، يعالج فيه كاتبٌ ليبرالي وضعية أهل الذمة بطريقة تختلف عن السابقين.

٤ ـ د. رضوان السيد:

قال تحت عنوان: «الفكر الإسلامي والحريات الدينية»: (إن النصوص القرآنية في المرحلة المدنية الوسطى ثم الأخيرة تؤكد ضرورة تمايز المسلمين في جماعة خاصة بهم، وعدم إقامة علاقات موالاة أو مباطنة مع أهل الكتاب: أفلا يؤسس ذلك لإصرار الدولة الإسلامية اللاحق على التمايز في اللباس والمركوب؟ وألا يؤسس ذلك للجدل حول استعمال أهل الذمة في دواوين الدولة؟ فإذا أضفنا لذلك عدم قبول الشهادة، والخلاف حول قتل المسلم بالذمي، ومنع التزاوج، يكون معنى المساواة في القيمة الإنسانية الوارد في القرآن قد انتفى، كما ينتفي معنى العبارة المأثورة الواردة في كل المصادر: «فإن أدوا الجزية فلهم مالنا وعليهم ما علينا». ويكون هذا كله دونما حاجة لنقاشٍ كثير، حول ما إذا كان العهد المنسوب لعمر بن الخطاب

صحيحاً أو منحولاً[(١)]، فحتى لو كان ذلك العهد منحولاً ـ وهو الراجح نصيًّا ـ فالواقع أن هناك تأسيساً نصيًّا وتاريخياً مبكراً لتمايز المسلمين عن أتباع الديانات الكتابية)[(٢)].

والواقع أن ما انتهى إليه الكاتب قضية بدهية، حاول الفريق الآخر من أمثال محمد عمارة طمسها، والتشويش عليها. وأما انتفاء المساواة في القيمة الإنسانية فمرده إلى حط غير المسلم نفسه بالكفر بالله، مع أن الأصل فيه البراءة الأصلية، وسلامة الفطرة. قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾ [التين]، وقال: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس]. وحين يقوِّم د. رضوان السيد ما يسمى بـ «الحرية الدينية» لا ينزلق إلى المغالاة التي يتملق بها الفريق الآخر من العصرانيين أهل الكتاب، من أن الإسلام كرَّمهم، ومنحهم امتيازات خاصة، أو قال لهم، اشربوا الخمر، وكلوا الخنزير... إلخ مما تقدم ذكر نماذج منه، بل يكون تقويمه أكثر دقة من حيث الجملة، فيقول: (الآخرون موجودون، ومعترف بهم كمجموعاتٍ دينية. لكن المعترف به من الدين هو الجانب الشعائري، وليس العقائدي أو الاجتماعي/ السياسي. ولذا فقد كانت المشكلات تظهر عندما يبدو المسيحي خارج الكنيسة في دواوين الدولة، أو في الشارع، أو في الحياة العامة: فهل القول إن المسيحي مسموحٌ له أن يوجد كمسيحي، بشرط أن لا يلحظ اجتماعياً، أو سياسياً أو رمزياً ـ هل يعتبر ذلك حرية دينية؟! وبخاصة أنه ملاحق بالوصم بالكفر والشرك، واتباع الآية الممحوة؟!)[(٣)].

(١) انظر الكلام على «العهدة العمرية» في مبحث حكم الإسلام في أهل الكتاب.

(٢) مجلة الاجتهاد (٣٠/ ٤٠).

(٣) مجلة الاجتهاد (٣٠/ ٤٤ ـ ٤٥).

وهي أسئلة ملزمة محرجة للذين يحاولون إمساك العصا من منتصفها. أما بالنسبة للتصور الإسلامي الأصيل للقضية فلا إشكال البتة.

فأهل الذمة في المجتمع الإسلامي ليس لهم حق التحزب السياسي، أو التكتل الاجتماعي، أو التظاهر العقائدي في دار الإسلام. بل هم مشمولون بالمظلة العامة لإمام المسلمين، مكفولون من النواحي الاجتماعية بما يحفظ لهم الخدمات الحيوية كسائر المسلمين، ممكنون من العمل والاتجار والتنقل حيث شاءوا من دار الإسلام ـ باستثناء مكة ومناطق أخرى مختلفٌ فيها(١) ـ محميون من العدوان الداخلي والخارجي بضمانات دينية عليا ـ ذمة الله وذمة نبيه ﷺ ـ وليست ضمانات مدنية أو خلقية فحسب. ومع ذلك كله فهم في نظر أهل الإسلام كفار مشركون.

ولا غرابة فهم يعتقدون أن المسلمين كذلك، ولولا ذلك لاتبعوهم، فممَّ الجزع؟

إننا ابتداءً لا نسلم بهذا التعبير «الحرية الدينية»، ولا نعده مصطلحاً شرعياً، بل هو تعبير وافد من بلاد الغرب له مدلولاته ومقتضياته الخاصة. والقاعدة الشرعية المقابلة: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. ولكن هذا المصطلح العصري «الحرية الدينية» أوهم بعض الناس أن الإسلام يبيح سائر أنواع الممارسات الدينية التي تروق لصاحبها، وحرية التنقل بين الأديان كيفما شاء، ولم يقل بذلك أحدٌ من علماء الإسلام، ومن ثم استشكلوا حد الردة ورأوا فيه مصادمة للحرية الدينية، وحرية الضمير كما يعبرون. يقول د. رضوان السيد منبئاً عن هذا اللبس الحاصل بين دلالة «الحرية الدينية»، ودلالة ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾: (. . . الغريب أنه لا أحد بين الفقهاء القدامى خطر

---

(١) انظر: مبحث «حكم الإسلام في أهل الكتاب» من التمهيد.

باله أن يسأل نفسه عن كيفية التوفيق بين قتل من يَدَع الإسلام، وقول القرآن الكريم: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾. إذا كان الأمر كذلك فكيف يمكن أن يقال لمن ترك الإسلام: إما أن تعود إليه أو تقتل: أليس هذا هو الإكراه؟

يجيب الفقهاء المُحدَثون: بل الإكراه هو أن ترغم إنساناً على الإسلام بداية. أما وقد اعتنق الإسلام باختياره، فإن إعراضه عنه ليس تحدياً لله عز وجل فحسب، بل وللجماعة الاجتماعية/ السياسية التي تلحق بها أضرار فادحة إذا فشا فيها ذلك... لكن أياً كان الأمر، فإن باب الردة في الحقيقة عطل الآية القرآنية التي تصر على مبدأ الاختيار في الإيمان)[(١)].

واستغراب د. رضوان السيد ليس في مكانه، إذ أنه مؤسسٌ على فهم خاطئ لمعنى الآية، حيث ظن أنها تفيد العموم، وهو ما لم يقل به أحدٌ من العلماء. فقد ذكر القرطبي[(٢)] رحمه الله في معناها ستة أقوال لأهل العلم ليس فيها قولٌ بالعموم[(٣)]. وقال ابن كثير رحمه الله: (وقد ذهب طائفة كثيرةٌ من العلماء أن هذه الآية محمولة على أهل الكتاب، ومن دخل في دينهم قبل النسخ والتبديل إذا بذلوا الجزية. وقال آخرون: بل هي منسوخة بآية القتال، فإنه يجب أن يدعى جميع الأمم إلى الدخول

---

(١) مجلة الاجتهاد (٣٠/ ٤٧ - ٤٨).

(٢) القرطبي: محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الأندلسي، أبو عبد الله القرطبي، من كبار المفسرين، من أهل قرطبة، ورحل إلى المشرق واستقر بمصر وتوفي فيها سنة ٦٧١هـ، من كتبه: «الجامع لأحكام القرآن»، و«الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» و«التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة» وغيرها. الأعلام (٥/ ٣٢٢)، نفح الطيب (١/ ٤٢٨)، الديباج (٣١٧).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٢٨٠ - ٢٨١).

في الدين الحنيف، دين الإسلام، فإن أبى أحدٌ منهم الدخول فيه ولم ينقد له، ويبذل الجزية، قوتل حتى يقتل. وهذا معنى الإكراه. قال تعالى: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾ [التحريم]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [التوبة]. وفي الصحيح: «عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة في السلاسل»[(١)] يعني: الأسارى الذين يقدم بهم بلاد الإسلام في الوثاق والأغلال والقيود والأكبال، ثم بعد ذلك يسلمون وتصلح أعمالهم وسرائرهم، فيكونون من أهل الجنة)[(٢)]. وقال إمام المفسرين ابن جرير الطبري: (وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال: نزلت هذه الآية في خاصٍ من الناس، وقال: عني بقوله تعالى ذكره: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ أهل الكتابين والمجوس، وكل من جاء إقراره على دينه المخالف دين الحق، وأخذ الجزية منه، وأنكروا أن يكون شيءٌ منها منسوخاً... ـ ثم وجه ترجيحه ـ:

إن الناسخ غير كائنٍ ناسخاً إلا ما نفى حكم المنسوخ، فلم يجز اجتماعهما. فأما ما كان ظاهره العموم من الأمر والنهي، وباطنه الخصوص، فهو من الناسخ والمنسوخ بمعزل، وإذا كان ذلك كذلك، وكان غير مستحيل أن يقال: لا إكراه لأحدٍ ممن أخذت منه الجزية في الدين، ولم يكن في الآية دليل على أن تأويلها بخلاف ذلك، وكان المسلمون جميعاً قد نقلوا عن نبيهم ﷺ أنه أكره على الإسلام قوماً،

---

(١) صحيح البخاري (٤/ ٢٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٦٨٣).

فأبى أن يقبل منهم إلا الإسلام، وحكم بقتلهم إن امتنعوا منه، وذلك كعبدة الأوثان من مشركي العرب، وكالمرتد عن دينه، دين الحق إلى الكفر، ومن أشبههم، وأنه ترك إكراه آخرين على الإسلام بقبوله الجزية منه، وإقراره على دينه الباطل، وذلك كأهل الكتابين، ومن أشبههم، كان بيناً بذلك أن معنى قوله: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ إنما هو لا إكراه في الدين لأحدٍ ممن حل قبول الجزية منه بأدائه الجزية، ولا معنى لقول من زعم أن الآية منسوخة الحكم بالإذن بالمحاربة)[١].

فتبين أن معنى الآية لا يتناول المرتد أصلاً، وأن الصورة التى ذكرها د. رضوان السيد غير داخلة في دلالة الآية، فلا حاجة إلى تكلف الإجابة في استثناء المرتد لاعتبارات معينة، مع صواب تلك الاعتبارات من حيث هي.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ في شأن من ارتد من الناس عند قدوم التتار سنة تسعٍ وتسعين وستمائة إلى حلب: (وهؤلاء أعظم جرماً عند الله، وعند رسوله والمؤمنين من الكافر الأصلي من وجوهٍ كثيرة. فإن هؤلاء يجب قتلهم حتماً ما لم يرجعوا إلى ما خرجوا عنه، لا يجوز أن يعقد لهم ذمة، ولا هدنة، ولا أمان، ولا يطلق أسيرهم، ولا يفادى بمالٍ ولا رجال، ولا تؤكل ذبائحهم، ولا تنكح نساؤهم، ولا يسترقون: مع بقائهم على الردة، بالاتفاق. ويقتل من قاتل منهم، ومن لم يقاتل؛ كالشيخ الهرم، والأعمى، والزمن، باتفاق العلماء. وكذا نساؤهم عن الجمهور.

والكافر الأصلي يجوز أن يعقد له أمانٌ وهدنة، ويجوز المن عليه، والمفاداة به إذا كان أسيراً عند الجمهور. ويجوز إذا كان كتابياً أن يعقد له ذمة، ويؤكل طعامهم وتنكح نساؤهم، ولا تقتل نساؤهم إلا

---

(١) جامع البيان (١٧/٣).

أن يقاتلن بقولٍ أو عمل، باتفاق العلماء، وكذلك لا يقتل منهم إلا من كان من أهل القتال عند جمهور العلماء، كما دلت عليه السنة.

فالكافر المرتد أسوأ حالاً في الدين والدنيا من الكافر المستمر على كفره(١).

وأياً كان الأمر فإن باب الردة في الحقيقة لم يعطل آية: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ خلافاً لما توهمه د.رضوان السيد.

والمقصود أن ما يسمونه بالحرية الدينية مثار قلق أصحاب الاتجاه العصراني على اختلاف طبقاتهم، لأنها تمثل جبهة صِدَام صريحة بين قواعد الشريعة الثابتة بنصوص الوحيين، ومستلزمات التقارب والاندماج، وإلا بتنا (محل إدانة العصر) كما يعبر فهمي هويدي.

إن دين الله بيِّن، ودين الله متين لا يسهل اختراقه بالشبهات والإثارات العاطفية، ولن يشاد الدين أحدٌ إلا غلبه. فإن كان كبُر عليكم أيها العصرانيون مقام التذكير بآيات الله، فأجمعوا أمركم وشركاءكم، ثم لا يكن أمركم عليكم غمة، واختاروا إحدى سبيلين لا ثالث لهما: إما دين الله كما يريد الله، أو الهوى، ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص].

ثالثاً: مفهوم «التقريب» ومنهجيته عند الإسلاميين العصرانيين:

إن ما مضى من بيان الموقف العقدي للعصرانيين تجاه أهل الكتاب، وما تلاه من بيان الموقف العملي التطبيقي، في حسبانهم والمسلمين على حدٍ سواء، واستهجانهم الأحكام الشرعية المتعلقة بأهل الذمة، ينبئُ عن تطلعات هؤلاء، وما تستشرفه نفوسهم من وراء قضية التقريب، والحوار بين الأديان.

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤١٣ ـ ٤١٤).

ونلحظ بادئ ذي بدء، أن القوم يهجرون المصطلح الشرعي للقرآن في شأن دعوة أهل الكتاب، كما ورد في الآية: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، ويستعيضون عن لفظ «المجادلة بالتي هي أحسن» بألفاظٍ واصطلاحات مولدة مثل: «التقريب» و«الحوار».

وكما هجروا المصطلح الشرعي، هجروا المنهج الشرعي الذي سارت عليه الأمة من لدن نبيها ﷺ حين جادل يهود المدينة، ونصارى نجران، وملوك الأرض، القائم على الدعوة الصريحة لتوحيد الله تعالى، والدخول في دينه والبراءة من الشرك، واتخاذ الأرباب من دون الله، كما في الآية العمدة في دعوة أهل الكتاب: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٦٤﴾ [آل عمران].

وسنكشف عن مفهوم التقريب ومنهجيته في نظر هؤلاء العصرانيين من خلال معالجتهم لهذه القضية، فندرك إلى أين تهوي أفئدة القوم، وإن كان بعض من يجري في هذا المضمار، لا يبلغ منتهاه.

أولاً: الغلو في تمجيد الحوار:

لا يكاد يكتب أحدٌ في قضايا الحوار الإسلامي النصراني، أو الحوار بين الأديان بشكلٍ عام، إلا ويغدق عليه من ألفاظ التمجيد، وبهرج القول، ما يحمل القارئ المنصف على التساؤل: أين الأمة في ماضيها المتطاول عن هذه المحمدة العظيمة التي تقصر دونها سائر الأمجاد والفضائل؟ وثم بعض الشواهد:

١ ـ د. يوسف الحسن:

قال: في كتابه «الحوار الإسلامي المسيحي. الفرص والتحديات»، المطبوع عام ١٩٩٧م: (الحوار هو جوهر حياة البشر،

. . . وهو أحد مقاصد الشرع الكبرى، والله ﷻ هو أعظم المتحاورين، والديانات السماوية هي التعبير الأكمل عن هذا الحوار. . .

وكانت رسالة الأديان موجهة للخلاص الجماعي الذي يتم به عمران الدنيا، ونماء ثمراتها بإبداعٍ للعقول، وعمل جادٍ للسواعد، واكتشافٍ للمجهول، عبر مسيرة إنسانيةٍ من القيم الحافظة لجوهر الخير، والتعاون في علاقات الناس بالناس، وفي حوار الإنسان مع أخيه الإنسان. وهذا جوهر الهداية التي بعث بها الرسل، ونزلت لإعلانها وتثبيتها الكتب السماوية)(١).

هكذا، وبهذا الزخم الهائل من الألفاظ الفضفاضة ينفخ في صورة الحوار. ويبين الهدف من تأليف الكتاب:

(ولا شك أن من بين غايات هذا الكتاب التأكيد على ضرورة هذا الحوار. . . وبلورة مفاهيم فكرية وروحية كفيلة بتوسيع دائرة المؤمنين بهذا الحوار، وبدوره المنتظر في تعميم ثقافة القيم العليا، وتصحيح صورة الآخر، والتعاون على البر والتقوى، ومقاومة الفساد والقبح والطغيان والظلم، وإشاعة المودة وروح المسالمة بين المسلمين والمسيحيين، وإثراء ثقافة حوار الكلمة السواء، وإبراز الجوامع المشتركة وقيم الاعتدال، والتعددية، وتعميق المصالح المشتركة بين دائرتي الحضارتين الإسلامية والمسيحية)(٢).

وهذه لغة تستبعد الدور المتميز للإسلام، وتنفيه، ولا تتصوره إلا شريكاً في مشروع، لا يستقل بنفسه ولا يجزئ بمفرده. ولا ريب أنه خطابٌ دخيل على الحس الإيماني الأصيل، الذي يرى الخير والشر والصلاح والفساد من زاوية رصدٍ واحدة، وهي النظرة الإسلامية فقط.

---

(١) الحوار الإسلامي المسيحي. الفرص والتحديات (١١، ١٢).

(٢) المرجع السابق (٦).

٢ ـ محمد الطالبي:

ينعى على الإسلام المعاصر تأخره في اعتناق الحوار، في حين يرمق بإعجاب «النصرانية» على انتهاج هذا السبيل، فيقول: (إن الحوار بالنسبة للإسلام إذن هو مبدئياً ومسبَّقاً، اتصال بالعالم من جديد، اتصالٌ ضروري وحيوي. والإسلام في حاجةٍ إليه آكد، والنفع الذي يعود عليه منه أكبر من بقية الديانات الأخرى، كالدين المسيحي مثلاً، الذي لم يقطع قط هذا الاتصال قطعاً حقيقياً، فيكون له بذلك مكانة ممتازة نسبياً)(١).

وحين يقدم «الحوار» بديلاً عن الدعوة والمجادلة بالتي هي أحسن، يلتبس الأمر، وتوظف النصوص الشرعية، الواردة في شأن الدعوة والمناظرة وإقامة الحجة لخدمة هدفٍ غير واضح المعالم.

٣ ـ د. يوسف القرضاوي:

قال: (... إذا نظرنا إلى القرآن الكريم نجد أنه كتاب حوار من الطراز الأول. وقد حاور الأنبياء أقوامهم ـ وذكر أمثلة ـ ومن أعجب الحوارات في القرآن الكريم، حوار الله تعالى مع بعض خلقه في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠] وحوار الله تعالى مع أعدى أعدائه، وأبغض خلقه، وهو الشيطان الذي لعنه الله.

لذلك لا عجب في أن نقتدي بالقرآن الكريم، في أن نتحاور مع من خالفنا)(٢).

---

(١) الإسلام والحوار. أفكار حول موضوع يشغل بال العصر الحديث. من وثائق عصرية في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين. (٤٤).

(٢) الحوار الإسلامي المسيحي، محاضرة منشورة في مجلة المسلم المعاصر عدد ٨٦. (١٤٤).

ولا شك أنه ـ كما قيل: (لا مشاحة في الاصطلاح) إلا في الألفاظ الشرعية فإنها ذات دلالات خاصة، وحتى إذا عدل عنها إلى غيرها فيجب أن تكون مقرونةً بما يعين المراد، ويقطع اللبس. فلو ساغ لنا أن نعبر بالحوار، فيجب أن نضمنه معنى الدعوة وإقامة الحجة، وقطع الشبهة، وأن لا نطلق أعِنَّة الكلام تجري في مسارح الأفكار المتباينة، والمفاهيم المختلفة.

والنتيجة الحاصلة لهذا اللون من التمجيد لمشروع «الحوار» أن تحول «الحوار» إلى غاية بحد ذاته، وليس وسيلة إلى غاية، كما وصفه د. يوسف الحسن ـ آنفاً ـ بأنه (أحد مقاصد الشرع الكبرى).

كما أن هذا المديح المطلق للحوار، من حيث هو حوار، يجعله «طُعماً» لاصطياد ذوي النوايا الحسنة، والحماس العاطفي، ويستدرجهم للولوج في هذا الدهليز المضيء أوله، المظلم آخره.

ثانياً: تضخيم أهمية (معرفة الآخر):

هذه خطوة تالية مستفادة من الجانب النصراني، على نحو ما يكتب الأب موريس بورمانس وأمثاله، من أهمية معرفة الآخر، واكتشاف ما لديه من خبراتٍ دينية... إلخ[١].

والحق: أن معرفة المسلمين بالنصارى واليهود وعقائدهم وتاريخهم أفضل وأدق من معرفة أولئك بالمسلمين[٢]، ذلك أن القرآن الكريم، والسنّة النبوية قد ضما قاعدة عريضة من المعلومات العقدية والتاريخية القطعية، بخلاف أهل الكتاب الذين، حتى عهدٍ قريب، لا

---

(١) انظر في مبحث الكنيسة الكاثوليكية (٣٥٤ ـ ٣٦٤).

(٢) يقول: د. رضوان السيد: (والملاحظ أن معرفة الجدليين المسلمين بالمسيحية كانت أفضل بكثير من معرفة جداليي المسيحية بالإسلام. مجلة الاجتهاد (١٢/٢٨). ونضيف: وكذلك معرفة عوام المسلمين بالنصرانية.

يعرفون عن الإسلام ونبيه وكتابه إلا الخرافات والأكاذيب السمجة التي افترتها الكنيسة لتضليل رعيتها[(١)].

وقد دأب دعاة التقارب من العصريين على الطرق على هذا الوتر. باعتبار أن «المعرفة» قيمة محترمة، ولا يجرؤ أحدٌ على رفضها، فرددوا كلمات دعاة التقارب من النصارى بالتعرف على الآخر كما هو وكما يريد أن يعرف، ومن شواهد ذلك:

١ ـ د. مصطفى عثمان إسماعيل[(٢)]:

قال: (إخوة الإيمان... إن هذا اللقاء يسعى لتأسيس حوار حقيقي بين الإسلام والمسيحية، يبدأه الطرفان، وكل منهما مقتنع ومستعد أن يتعلم شيئاً من الآخر، ليس فقط حديث عن التسامح، وتبادل مهذب لوجهات النظر، وهذا بالضرورة يدعو كلاً منا لمعرفة ديانة الآخر)[(٣)].

٢ ـ سعد غراب:

قال: (إن هدف الحوار في عصرنا هذا يجب أن يكون معرفياً صرفاً)[(٤)].

---

(١) انظر: كتاب: «المسيحية والإسلام» للباحث الروسي إليكسي جورافسكي ترجمة د. خلف الجراد، الفصل الأول والثالث والرابع.

(٢) الأمين العام لمجلس الصداقة الشعبية العالمية، ورئيس اللجنة التحضيرية لمؤتمر حوار الأديان، المنعقد في الخرطوم في أكتوبر عام ١٩٩٤م، ووزير الخارجية لاحقاً.

(٣) من كلمة اللجنة التحضيرية لمؤتمر الحوار بين الأديان: د. مصطفى عثمان إسماعيل. المنعقد في الخرطوم عام ١٩٩٤م.

(٤) الإسلام والنصرانية من الصدام إلى الحوار من: وثائق عصرية في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين (٢٥).

٣ ـ محمد حسين فضل الله:

قال: (علينا الاعتراف بوجود غربة فكرية للمسلمين عن ماهية المسيحية، وغربة فكرية للمسيحيين عن ماهية الإسلام. هناك قضايا عالقة تتصل بطبيعة اللاهوت، لا بد من بحثها في النطاق العلمي الفكري الموضوعي بين علماء الفريقين، لأنها تتصل بنظرة المسلم إلى المسيحي:

هل هو مؤمن؟... كافر؟... مشرك... وما إلى ذلك من كلمات...

ما هي الرابطة بين توحيد المسيحيين في طقوسهم الدينية، والتثليث الذي يضعونه إلى جانب التوحيد ذاته؟... إن مثل هذه التساؤلات ربما أوجدت حالة من القلق الفكري النفسي في نظرة المسلمين إلى المسيحيين، أو في نظرة المسيحيين إلى المسألة التوحيدية)(١)، وبالتالي فالكاتب من خلال تعريف المسلمين بالنصرانية يسعى لطمأنتهم وإزالة القلق الفكري النفسي في قلوبهم تجاه النصارى. ولكنه لم يطرح القضايا التي تثير حالة من القلق في نفوس النصارى تجاه المسلمين، ليزيح عنهم كابوس الشبهات التي تحول بينهم وبين اعتناق الإسلام. أم أنه هدفٌ معرفي أحادي الجانب؟ ويقول أيضاً: (وقد يكون من الضروري في هذا الاتجاه، أن ينشأ في الدائرة الثقافية الإسلامية أو المسيحية برنامجٌ علميٌ فكري للدراسات المشتركة التي تمنح كل فريق معرفة أصول فكر الفريق الآخر وفروعه. وذلك من خلال المصادر التي يرتضيها حتى يحتفظ للفكرة بنقائها، وبأصالتها في الجانب الآخر... وباعتبار أن الناس قد يتصورون مفاهيمهم بطريقة مختلفة عن التصور الفكري للمفردات المرتبطة بالمضمون الانتمائي له)(٢).

(١) في آفاق الحوار الإسلامي المسيحي (٢٤).

(٢) العلاقات الإسلامية المسيحية. قراءة إسلامية في الراهن والمستقبل. من: العلاقات الإسلامية المسيحية قراءات مرجعية في التاريخ الحاضر والمستقبل. (٣٤).

هل المسلمون في شكٍ من معرفة أصول فكر الفريق الآخر وفروعه، بعد أن جلاها القرآن الكريم والسنة الصحيحة؟

وهل من شرط نقاء الفكرة وأصالتها أن يتلقاها المسلمون من المصادر التي يرتضيها النصارى(١)؟ وهل سيقبل النصارى بالمصادر التي يرتضيها المسلمون لدينهم؟

ويقول أيضاً: (إننا نعتقد أن من الضروري العمل على إدارة الحوار في المسألة اللاهوتية على مستوى دراسة كل المفردات التي يختلف فيها أحدهما عن الآخر، ومحاولة كل منهما التعمق فيما لديهما من المصادر الثقافية الأصيلة، من الكتب المقدسة، والتراث الفكري، للدخول في عملية مقارنة فيما يلتقيان فيه، وحوار فيما يختلفان فيه)(٢).

إن الحوار بهذا المضمون بدعة ما أنزل الله بها من سلطان، وليس من علوم أهل الإسلام، ولا من مناهجهم في إبلاغ دين الله، بل هو ضربٌ من الزندقة والتلفيق، وإقرار الكافر على كفره، دون دعوته والإنكار عليه.

٤ ـ د. يوسف الحسن:

قال: (إن الحوار بين الإسلام والمسيحية هو سعي يتوخى معرفة الآخرين الصادقة، ويتفهم المغايرة الدينية، وما تمثله من قربٍ أو بعد، ويتفاعل بشكل مباشر أو غير مباشر في مجالات الفكر الإنساني المتنوعة، ويتعاون في سياق العيش المشترك معتمداً العقل سبيلاً للتفاهم والتقارب في شؤون الدين والدنيا على حدٍ سواء.

---

(١) راجع في مبحث «حكم الإسلام في أهل الكتاب»: (الحذر من كتبهم ومروياتهم).

(٢) من مقدمة كتابه: في آفاق الحوار الإسلامي المسيحي. «غير مرقمة بأعداد أو حروف».

إذاً الحوار الذي نعنيه في هذا البحث هو أن يتبادل المتحاورون من أهل الديانتين الأفكار والحقائق والمعلومات والخبرات التي تزيد من معرفة كل فريق بالآخر، بطريقة موضوعية تبين ما قد يكون بينهما من تلاقٍ أو اختلاف، مع احتفاظ كل طرفٍ بمعتقداته، في جوٍ من الاحترام المتبادل، والمعاملة بالتي هي أحسن...

والحوار لا بد أن ينطلق من استعداد كل حضارة لفهم الأخرى، وتجنب إصدار أحكام مسبقة عليها، والاتفاق على إعادة صياغة صورة الآخر، في إطار من التفهم والتسامح والرغبة المشتركة في بلورة قيم إنسانية لإحداث التفاعل الحضاري)[١].

إن المتأمل في هذا النص يستخرج من بين عباراته الخطابية الرنانة معاني خطيرة، ويثير أسئلة حادة:

١ ـ ثمَّ معرفة صادقة للآخر النصراني، وأخرى غير صادقة. فأين موقع العقيدة الإسلامية من هذا التصنيف المريب؟!

٢ ـ المغايرة الدينية، قضية مُتفهمة، ماذا يعني هذا التفهم أهو الإقرار أم الإنكار؟

٣ ـ تبادل الأفكار والحقائق والمعلومات والخبرات بين طرفي الحوار، أهو في المجال الدنيوي أم في المجال العقدي؟

٤ ـ احتفاظ كل طرفٍ بمعتقداته، يعني استبعاد قضية الدعوة ابتداءاً.

٥ ـ تجنب إصدار أحكام مسبقة، يعني التنصل ـ والعياذ بالله ـ من أحكام الله المسبقة في أهل الكتاب.

٦ ـ إعادة صياغة صورة الآخر، تعني أن الصورة المرسومة بنصوص الكتاب والسنة خاطئة ـ والعياذ بالله ـ وإلا فَلِمَ تعاد صياغتها؟

---

(١) الحوار الإسلامي المسحي. الفرص والتحديات (١٢ ـ ١٥).

تلك هي مفردات مفهوم الحوار المغلفة بالغلاف المعرفي البراق، المنطوية على التحلل من العقائد الإيمانية

ثالثاً: تحريف معنى الدعوة إلى «كلمة سواء» عن مدلولها العقدي إلى مضامين أخرى:

إن الأصل في باب مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن، هو آية آل عمران: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران]. قال ابن جرير رحمه الله في تفسيرها: (قل يا محمد لأهل الكتاب، وهم أهل التوراة والإنجيل: تعالوا: هلموا إلى كلمة سواء، يعني إلى كلمة عدلٍ بيننا وبينكم، والكلمة العدل: هي أن نوحد الله فلا نعبد غيره، ونبرأ من كل معبودٍ سواه، فلا نشرك به شيئاً... ولا يدين بعضنا لبعضٍ بالطاعة فيما أمر به من معاصي الله، ويعظمه بالسجود له كما يسجد لربه)(١).

وهو معنىً واضح بيِّن بحمد الله، بل هو تفسير القرآن بالقرآن، حيث فسر الكلمة السواء بما بعدها. ولكن الذين في قلوبهم زيغ يحرفون الكلم عن مواضعه، ويخرجون النص عن مقاصده، ويزعمون معاني مدعاة ليست مراد الله في هذه الآية. فقد عطلوا النص أولاً عن دلالته الصحيحة، وحرفوه ثانياً إلى دلالات مزعومة.

وأولى صور التحريف لمعنى الآية المحكمة: الإيهام أن الكلمة السواء هي القدر الجامع المشترك، المتحقق وجوده فعلاً، لا أنه يُطلب الالتقاء عليه، كما هو صريح النداء والدعوة في قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ﴾، فيفسرون «سواء» أي نحن وإياكم متساوون في هذه القضايا، لا فرق بيننا وبينكم! ومن شواهد ذلك:

---

(١) جامع البيان (٣/ ٣٠١ - ٣٠٢).

١ ـ محمد حسين فضل الله:

قال: (وقد نلاحظ أن هناك أكثر من قضية مشتركة يلتقي فيها المسلمون والمسيحيون في كل الساحات، وهي الكلمة السواء في التوحيد ورفض الشرك، ووحدة الإنسانية، ورفض الاستكبار والاستعباد الإنساني، وهو الذي طرحه القرآن الكريم على أهل الكتاب في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران]. فيتحرك الجميع لمواجهة المادية الملحدة، والشرك العبادي، والاستكبار العالمي، لينطلق الإيمان بالدين بشكلٍ عام قوياً في ساحة الفكر، ويتحرك المستضعفون في مواقع القوة في مواجهة المستكبرين؛ الأمر الذي قد يتيح للشعوب المستضعفة أن تكتشف في الدين الحركي معنى الحرية والعدالة، فتلتقي بالإيمان به من خلال جهاده السياسي في خط المواجهة للظلم العالمي كله، ليقف المسلم ضد المستكبر حتى لو كان مسلماً، ويقف المسيحي ضده حتى لو كان مسيحياً)(١).

وفي موضع آخر يقول: (... إن القرآن الكريم عندما أطلق الجو الحواري مع أهل الكتاب، تمسك بالكلمة السواء التي تنفتح على خطين لا يبتعدان عن حركة الواقع:

الخط الأول: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ٦٤]. أن نوحد الله تعالى، ولا نعبد كل القوى الظالمة والمستكبرة والطاغية، لتكون في موقع الشريك لله تعالى.

الخط الثاني: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟

---

(١) في آفاق الحوار الإسلامي المسيحي. المقدمة.

فَقُولُوا ٱشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران] الرفض القاطع لأن يكون الإنسان مستعلياً ومستكبراً على أخيه الإنسان، فيكون في موضع الرب لهذا الإنسان)[1].

إن من يقارن هذا التفسير الحادث لمعنى الكلمة السواء، بالتفسير القرآني الأثري الذي ذكره الطبري، يدرك بعد الشقة، وطول النقلة التي يتجشمها هؤلاء العصرانيون في تعطيل آي الكتاب عما نزلت فيه، وحملها على محامل متعسفة مستكرهة. فإذا بالنداء التوحيدي الصريح الذي يدعو القوم إلى نبذ عقيدة التثليث، ودعوى ربوبية المسيح، واتخاذ أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، يتحول إلى خطابٍ ثوري مسكونٍ بشعارات سياسية خاصة، ويُفَرَّغ من محتواه العقدي الأصيل، ليُضَمَّن دعواتٍ إنسانية عامة يتشدق بها كل أحد، ولا يتميز بها أحدٌ عن أحد.

٢ ـ د. يوسف الحسن:

قال: (وهدف الحوار مع المسيحية هو الوصول إلى «كلمة سواء» لعمل الصالحات والنافعات للبشرية، ولمواجهة الطغيان، وتحقيق معرفة كل طرفٍ بالآخر، وإزالة سوء الفهم، والتعاون على البر والتقوى.

وتنادي الرؤية الإسلامية، بضرورة الجهر بالحق في المسائل التي تهم الناس، والدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة... وتحرص على ألا ينشغل الحوار بمسائل الاعتقاد، بل ينطلق من احترام كل طرفٍ لعقيدة الآخر، والتسليم بمبدأ الاختلاف، ومبدأ حرية الاختيار، «لكم دينكم ولي دين»)[2].

إن المرء ليعجب أشد العجب من تخوّض هؤلاء الكتاب في

(١) في آفاق الحوار الإسلامي المسيحي (٤٦ ـ ٤٧).
(٢) الحوار الإسلامي المسيحي. الفرص والتحديات. (٤٣ ـ ٤٤).

آيات الله دون رادع من تقوى، أو حياء من الله أو من الناس، أن يقولوا على الله ما لا يعلمون، بل ما يعلم أدنى من له معرفة باللغة أنه خلاف مراد الله. فمضمون الكلمة السواء مضمون عقدي خالص؛ عبادة الله وحده، ونبذ الشرك، وعدم اتخاذ الأرباب من دون الله، ثم يزعم الكاتب أن الرؤية الإسلامية تحرص على ألا ينشغل الحوار بمسائل الاعتقاد!! ليس هذا فقط، بل ينطلق من احترام كل طرفٍ لعقيدة الآخر والتسليم بمبدأ الاختيار، وكأن ذلك معنى ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤] أو معنى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون].

إن في هذا الطرح استهتاراً بعقول القراء، وتغييباً للأمة عن الحقيقة الجلية واستدراجها إلى سبيل غير سبيل المؤمنين.

٣ ـ د. يوسف القرضاوي:

ومن صور حجب الحقيقة الكاملة في تفسير ﴿كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾ ما فسر به د. يوسف القرضاوي آية آل عمران السابقة بقوله: (لست رباً لي، ولست عبداً لك، كلنا عبيد لربٍ واحد، وينبغي أن نوحد الله ولا نشرك به، فهذه الجوامع التي يدعو الإسلام إلى أن تكون هي ملاك الحوار، وأساس الحوار بين الأطراف المختلفة)(١).

ونبادر فنطمئن الكاتب أن النصارى لن يرفضوا هذه الجوامع، بل إنهم يزعمون أنهم أصحاب ديانةٍ توحيدية. والمطلوب أن نواجههم بما واجههم الله به بقوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ [النساء: ١٧١] وقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧، ٧٢].

وهل يظن الكاتب أن نصارى نجران الذين نكصوا عن المباهلة،

---

(١) الإسلام والغرب مع د. يوسف القرضاوي (١٦، ١٧).

ورضخوا للجزية كانوا رافضين للجمل العامة التي فسر بها الكاتب «الكلمة السواء»؟ أم كانوا رافضين لما تستلزمه هذه الآية بداهةً من إنكار التثليث، ودعوى ألوهية المسيح، وبنوته، واتخاذ الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله؟

يجب أن تذكر الحقيقة كاملة صريحة واضحة دون غمغمة أو تلجلج، مقرونة بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، ليحيى من حي عن بينة ويهلك من هلك عن بينة. فلا يحل للعلماء ولا للدعاة أن يحجبوا أو يجتزئوا دلالة النصوص لأي اعتبار من الاعتبارات، أو مصلحةٍ مظنونة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران]. فالحذر من هذا المزلق، فالدين دين الله، والهدي هدي رسول الله ﷺ.

٤ ـ محمد عمارة:

ومن صور التحريف الخطيرة لمعنى ﴿كَلِمَةٍ سَوَآءٍ﴾ ما انتهى إليه محمد عمارة بعد ركضه المتواصل في مضمار قلب الحقائق، وإنكار المعلوم من الدين بالضرورة، في كتيبه «الإسلام والوحدة القومية» حيث يقدم في صفحاته الأخيرة عرضاً فاجراً أسماه «كلمة سواء» يستجدي به أهل الكتاب، ويسخط به رب الأرباب، ننقله بطوله لخطورته:

(ولقد كان الفكر الشائع لدى مختلف الفرقاء، وهو ما كانوا يحذرونه جميعاً، هو أن المسلمين إذا اعترفوا بنجاة غيرهم، وهم على شرائعهم، فإن ذلك يعني التخلي عن ضرورة الاعتراف بنبوة محمد ورسالته، الأمر الذي يقدح في صدقه وصدق رسالته... وأيضاً فإن اعتراف غير المسلمين بنبوة محمدٍ ورسالته يستوجب ترك الشرائع غير الإسلامية، والدخول في شريعة المسلمين.

وهذا الفكر الشائع هو الذي يقف ـ إذا نحن تأملنا واقع الاعتقادات الدينية لدى الجميع ـ خلف إنكار المسلمين النجاة على من لا يؤمن بمحمد، ورفض غيرهم التصديق بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام. لكن... الآن... وبعد هذا العرض الذي قدّمته صفحات هذا الكتاب لقضية «وحدة الدين الإلهي وتعدد شرائعه». هل يستطيع جميع الفرقاء أن يتفقوا على كلمة سواء:

أن يتخذ أبناء كل شريعة شريعتهم طريقاً ونهجاً خاصاً لتدينهم بالعقائد الأصلية للدين الإلهي الواحد، وأن يعترف الجميع بصدق النبوة والرسالة، وألوهية الشريعة كما هي لدى الآخرين، وأن تكون للشرائع المختلفة، ولأنبيائها الاحترام والقدسية اللائقان بتراث الإنسانية، من الفكر الديني ووحي السماء إلى الإنسان؟

فكما أن اعتراف المسلم بشريعة عيسى أو موسى، وبرسالتيهما، لا يلزم منه ترك شريعة محمد، واتخاذ العيسوية أو الموسوية طريقاً للتدين بالدين الإلهي الواحد، فكذلك الحال مع اعتراف المسيحي واليهودي بشريعة محمد ورسالته، لا يستلزم منه أن يدع شريعته ويستبدلها بشريعة الإسلام.

فليحتفظ كل بشريعته... وليعترف الجميع بكل الشرائع وجميع الأنبياء... ولكن التنافس في سلوك كل فريقٍ طريقه ونهجه للاقتراب أكثر فأكثر من الإيمان الحق بالأصول الحقة للدين الإلهي الواحد. تلك هي القضية التي نطرحها منطلقاً للإخاء الديني الذي يمثل بالنسبة لأمتنا ما هو أكثر من «بندٍ في برنامجٍ مرحلي» أو قضية «تسامح واستنارة فكرية للصفوة»[1].

بعد اللهاث الطويل في تحريف النصوص والقول على الله بغير

---

(١) الإسلام والوحدة القومية. (٢١٧ ـ ٢١٨).

علم، يقدم محمد عمارة العقيدة الإسلامية التي سماها فكراً شائعاً، قرباناً على مذبح الإخاء الديني لصنم الوحدة القومية والوطنية. وصاغ البيان الختامي الذي أُعِد من قِبَل طرفٍ واحد، بل فردٍ واحد هو: هو، دون أن يمنحه أحدٌ من أهل الأديان حق التمثيل، وطفق يعبث بعقيدة الأمة ويفاوض عليها، وكأنه يفاوض إحدى دور النشر على صفقة طباعة أحد كتبه، ثم «يرتجل» إعلان فقرات «كلمة سواء»:

- يتخذ أبناء كل شريعة شريعتهم طريقاً، ونهجاً خاصاً، والإسلام ليس ملزماً لليهود والنصارى.

- يعترف الجميع بصدق النبوة والرسالة، وألوهية الشريعة، كما هي لدى الآخرين.

ويحبس الكاتب أنفاسه، فلا يكاد يطلب من اليهود والنصارى الإيمان بالنبي محمد ﷺ طلباً صريحاً جازماً، لقاءَ ما قدم لهم من تنازلاتٍ ضخمة، بل تأتي عبارة متدسسة تمشي على استحياء، حتى لا تخدش مشاعر القوم، وتجرح عقيدتهم: «مع اعتراف المسيحي واليهودي بشريعة محمد ورسالته». فلينتظر محمد عمارة أن يتزاحم اليهود والنصارى على بابه لتقديم الاعتراف بنبوة محمد ﷺ، بعد أن مرغ عقيدته في الرغام مداهنةً لهم، وطلباً لرضاهم، ولن يفعلوا. فصار المسكين كالشاة العائرة بين قطيعين.

ومن صور التحريف لمعنى: ﴿كَلِمَةٍ سَوَآءٍ﴾ تهويناً، واعتبارها «تحصيل حاصل».

٥ ـ كامل الشريف:

قال: (إن الحوار يقنع باللقاء على الحد الأدنى، بافتراض أن الاتفاق مهما كان صغيراً في البداية إلا أنه يخلق «ديناميكية»[1] خاصة

---

(١) ديناميكي Dynamic، وديناميكا Dynamism: القوة الفعالة، المتحركة، النشيطة.

ترتاد به آفاقاً جديدة في طريق الوفاق. ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٤][(١)].

إن الكلمة السواء في نظره «حد أدنى»، و«اتفاق صغير»، ومجرد معبر «ديناميكي» لارتياد آفاقٍ جديدة. ترى أين يريد أن يذهب، سوى مذهب التوحيد والإيمان الخالص ونبذ الشرك؟!

إن المرء ليأسف أشد الأسف حين يرى هرقل، ونصارى نجران، أعلم بمراد الله من بعض المسلمين. فتعظم الكلمة السواء في نفوس أئمة الكفر، ويستنكفون عن الإذعان لها وقبولها، حتى تحيص بطارقة هرقل وعظماء الروم حيصة حمر الوحش[(٢)]، وتبلغ المحاجة من نصارى نجران إلى حد الوصول إلى المباهلة، وبعض المسلمين لا يرفع بها رأساً.

٦ ـ د. حسن الترابي[(٣)]:

وفي خطوة متقدمة، يتقدم د. حسن بن عبد الله الترابي بمشروع علمي لم تتفتق عنه أفكار الأولين، مؤسسٍ على تحريفٍ جديد لمعنى «الكلمة السواء» فيقول:

---

(١) مستقبل الحوار الإسلامي المسيحي. بحث مقدم للندوة العامة للحوار الإسلامي المسيحي. عن مجلة أرض الإسراء عدد ١١٥ رجب ١٤٠٨ آذار (١٩٨٨م) (٣٣).

(٢) صحيح البخاري (١/٧).

(٣) ولد في كسلا شرقي السودان عام ١٩٣٢م. تخرج من كلية الحقوق بجامعة الخرطوم عام ١٩٥٥م، نال شهادة الماجستير في القانون في لندن عام ١٩٥٧م، والدكتوراه من السربون عام ١٩٦٤م. انخرط في العمل السياسي منذ نهايةِ الستينيات. وشغل منصب النائب العام من (١٩٧٩ ـ ١٩٨٢م)، ثم عين مستشاراً رئاسياً حتى ١٩٨٥م. ثم سجن في آخر عهد النميري. أسس الجبهة الإسلامية القومية التي حكمت السودان. تولىٰ منصب الأمين العام للمؤتمر الشعبي العربي الإسلامي. من مؤلفاته: «المرأة في الإسلام»، «الصلاة»، «الحركة الإسلامية في السودان ١٩٨٩م». انظر: حوارات في الإسلام الديموقراطية، الدولة، الغرب (١٩) بقلم بشير نافع.

(... هذه هي دعوتنا اليوم: أن نقيم جبهة «أهل الكتاب». والكتاب عندما يطلق في القرآن يقصد به كل كتابٍ جاء من عند الله. وميثاق هذه الجبهة: ألا نعبد إلا الله، ولا يتخذ بعضُنا بعضاً أرباباً من دون الله[(١)]. ونفهم من ذلك: ألا نقبل أي فكرٍ وضعي ينقض الهدي الإلهي، وأن لا نقبل الدعوات اللادينية التي ترمي إلى هدم المثل والأخلاق الدينية...

ونحن اليوم مواجهون بتحدي الدفاع عن أصل التدين في الأرض. وهذا التحديث ينبغي أن يدفعنا نحو تجاوز الشكوك والتوجسات، لنتعاون على البر المشترك بين الأديان، ولنبدأ صفحة جديدة من الحوار الذي يحيى مثالاً دينياً في كيفية التعامل مع الآخر بالبر والحسنى. فقد ظلت الأمراض ملازمة لحركة المتدينين، تعيبهم بالعجز عن الحوار مع الآخر، والعجز عن التعايش مع الآخر)[(٢)].

• **ونعقب على هذا الكلام بما يلي:**

١ ـ لأول مرةٍ في تاريخ المسلمين يُحشر المسلمون مع اليهود والنصارى تحت مسمى أهل الكتاب. وقد علم القاصي والداني، والصغير والكبير، أن مصطلح أهل الكتاب يستعمل في الكتاب والسنة باطراد، ويراد به اليهود والنصارى[(٣)]، بل كان ذلك مستقراً حتى عند المشركين كما قال تعالى عنهم: ﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَـٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَـٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأنعام]، وليس كما أوهم الترابي، أن الكتاب عندما يطلق في القرآن يقصد به كل كتابٍ جاء من

---

(١) لا أدري لم أسقط الجملة القرآنية ﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ من سياق الآية هل كان ذلك سهواً، أم أنها لا تتفق وميثاق جبهة أهل الكتاب المقترح؟

(٢) الحوار بين الأديان، التحديات والآفاق (٥).

(٣) راجع مبحث «أهل الكتاب» في التمهيد.

عند الله، إذ الحديث عن مصطلح «أهل الكتاب» وليس عن كلمة «الكتاب»[(١)]. وإنما يخاطب الله أتباع نبيه محمد ﷺ بقوله: (يا أيها الذين آمنوا)، ولا يشك أحد أن قوله: (يا أهل الكتاب) لا يتناول المسلمين.

فماذا يريد الترابي بهذه البدعة الجديدة التي خرج بها على الأمة باسم «جبهة أهل الكتاب» التي تضم اليهود والنصارى والمسلمين، وربما غيرهم.

وأين رسول الله ﷺ، وحاشاه، عن تكوين هذه الجبهة؟

لقد كتب إلى هرقل، ملك الروم، وأسقف النصرانية، يقول له: (بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم. سلامٌ على من اتبع الهدى. أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم اليريسيين. ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواءٍ بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)[(٢)]. أليس لك أيها الترابي في رسول الله أسوة حسنة؟!

٢ ـ حول مفهوم «التدين» الذي يتمسح به الدكتور الترابي، ويراه جامعاً مشتركاً لجبهة أهل الكتاب، هل يعتقد أن أهل الكتاب على دينٍ حق، وأن ما يمارسون من شركيات تديُّن لله رب العالمين؟

نعلم أن أهل الكتاب خيرٌ من سائر أصناف الوثنيين، ولكن هذا

(١) على أن كلمة «كتاب» ترد في القرآن باستعمالات شتى مثل: القَدَر، واللوح المحفوظ، والأجل... إلخ، انظر: مادة (كتاب) في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (٥٩٢ ـ ٥٩٥).

(٢) صحيح البخاري (١/٦).

لا ينقلهم أيضاً إلى دائرة المؤمنين، ولا يدفعنا ـ كما قال الترابي ـ: (نحو تجاوز الشكوك والتوجسات لنتعاون على البر المشترك بين الأديان)، كيف وقد قال الله تعالى:

﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾ [البقرة].

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [آل عمران].

﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

﴿۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة].

ألا يوجب ذلك ما هو أعظم من الشك والتوجس؟

٣ ـ يتطبب الدكتور الترابي، ويشخص أمراض المتدينين، فيجد من بينها العجز عن الحوار مع الآخر والتعايش مع الآخر. وهي كلمات مجملة تثير التساؤلات، فهل يدخل في هؤلاء «المرضى» رسول الله ﷺ وصحابته الكرام وسلف هذه الأمة؟ أم هو عموم أريد به الخصوص؟ نرجو ذلك.

وماذا يعني «الحوار» و«التعايش» الذي عيب أولئك المتدينون بالعجز عنه؟

أهو من قبيل: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾ [القلم] وإلغاء الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا. فهنيئاً لهم ما عيبوا به.

إن العقيدة الإسلامية، والشريعة الإسلامية، تملكان من فرص التواصل مع البشرية، وآفاق التعاون ما لا تملكه أيديولوجية أخرى، ولكن وفق معاييرهما لا معايير الآخرين. إن الإسلام انفتاح واتصال وحركة دؤوب، وهو أبعد ما يكون عن الانغلاق والانكفاء والعنصرية. قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران]، ولكن لنأت البيوت من أبوابها، ولنفتح القلوب بمفاتيحها.

٧ ـ سعود المولى:

ويتجاوب مع دعوة الترابي لقيام «جبهة أهل الكتاب» كاتبٌ ذو انتماء طائفي مغاير، بالدعوة إلى قيام «حلفٍ إبراهيمي» جديد، لإحياء ما اندثر من ملة إبراهيم ولكن لمواجهة الفقر والجوع... إلخ، يقول سعود المولى: (في مواجهة النظام العالمي الجديد القائم على القوة المادية المستلطة (كذا) والعمياء، وفي مواجهة الفقر والجوع والتخلف والانهيارات الكبرى، المادية والمعنوية، في الدول والأمم، وفي الشعوب والأجناس والأعراق، لا بد من قيام حلفٍ جديد، كتلة تاريخية صاعدة، جبهة إيمانية مشتركة، تضم المؤمنين، على قواعد وأصول التوحيد الإبراهيمي، وفي سعي مشترك لبناء عالمٍ أفضل تسوده قيم الحق والعدل والكرامة)[١].

وهذا الحلف المقترح ليس له من المضمون الديني سوى الانتماء الاسمي فقط، ولا يمت لإبراهيم عليه السلام بصلة سوى دعوى جميع الفرقاء أنهم منه، أو أنه منهم، وقد حسم القرآن هذا الخلاف بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ

(١) الحوار الإسلامي المسيحي ـ ضرورة المغامرة (٤١ ـ ٤٢).

ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [آل عمران].

ولكن دعاة التقريب بين الأديان يصرون في مشروعهم البدعي على تنحية أخص أوصاف أطراف الحوار، وهو «الصفة الدينية» فيكاد ينعقد إجماعهم على تنحية «الحوار الديني» وإحلال البدائل المعاشية الدنيوية محله، وتلك ـ لعمر الله ـ ليست سبيل المؤمنين. ومن شواهد ذلك:

١ ـ محمد مهدي شمس الدين:

قال: (إن الحوار تارة يراد منه أن يتناول العقائد، وهذا أمرٌ نراه فاشلاً، يعني لا قيمة له، لأنه نعتقد أن حواراً من هذا القبيل نهايته الفشل... الحقل المنتج والناجع للحوار الإسلامي المسيحي هو حقل المفاهيم الأخرى الحياتية خارج العقائد. الموقف من قضايا الحرية، الموقف من قضايا الاقتصاد الدولي، الموقف من قضايا القمع السياسي، الموقف من الأزمة الأخلاقية للبشر، الموقف من المواد المضرة مثل قضايا المخدرات، الموقف من قضايا البيئة، هذه الأمور التي يمكن أن نجد فيها قواسم مشتركة. أما في المسألة الاعتقادية يوجد قاسم مشترك موجود، وهو الحقائق الكبرى الثلاث للإيمان الإبراهيمي؛ وهي التوحيد، والنبوة العامة، والإيمان باليوم الآخر، وهذه أمور لا تحتاج إلى حوار لأنها متفق عليها)(١).

لقد اتسع حقل الحوار المنتج الناجع لمناقشة جميع القضايا ـ لدى دعاة التقريب ـ وضاق عن العقيدة، فالحوار فيها محكوم عليه بالفشل مسبقاً، أو هو متفقٌ عليه ـ بزعمه ـ لا مبرر له. اللهم إنا نبرأ إليك من موافقة كفرة أهل الكتاب في قضايا التوحيد والنبوة والمعاد.

---

(١) مجلة المعارج البيروتية. مقابلة. العددان (٦، ٧) ذو القعدة، وذو الحجة ١٤١١هـ حزيران، تموز ١٩٩١.

قال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَـٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ [الشورى].

٢ ـ سعود المولى:

وهكذا يتجه تلميذه سعود المولى حين يشرح فكرة مشروع الحلف الإبراهيمي ـ المذكور آنفاً ـ ويبين موقع «النظرية الدينية» و«الحوار الديني» في ذلك المشروع قائلاً: (إن الانطلاق من النظرية الدينية، ومن الأصول الكبرى للتوحيد الإبراهيمي لصوغ مشروع حضاري جديد، هو الذي يسمح للحوار أن يكون ولوداً خلاقاً، فيستنطق الخبرات والتجارب، ويضع التفكير الديني في سياقٍ مجتمعي تعددي. ويعيد اكتشاف القيم والمبادئ الروحية والأخلاقية المشتركة، داخل خبرة وتراث الجميع، ومن أجل الجميع...

إن الدين وقيمه ومبادئه يصبح منطلقاً للحوار، لا موضوعاً له)[١].

وفي موضعٍ آخر: (إن المطلوب من الحوار هو توليد قيمة جديدة نابعة من الإيمان الديني الإبراهيمي، واكتشاف المساحات المشتركة التي توحد بين الدينين في قضايا الإنسان والمجتمع. فيكون الدين في نطاق الأصول الإيمانية المشتركة منطلقاً للحوار، لا موضوعاً له، ويكون الحوار هادفاً لاستنباط صيغٍ جديدة في الإدارة والتنظيم السياسي والمجتمعي، ووسائل جديدةٍ في الثقافة والاقتصاد والإنتاج، تجعل

(١) الحوار الإسلامي المسيحي ـ ضرورة المغامرة (٤٥).

الإنسان يحتفظ برقيه المادي، ويستعيد في الوقت نفسه ذاته وإنسانيته)[١].

إن دور الدين في مشروعهم دورٌ صوري، وهو ليس مادة للحوار ولا موضوعاً له، بل مجرد لافتة فارغة تمارس باسمها المناشط الحياتية المادية في الإدارة والتنظيم والاقتصاد والإنتاج. أما «التفكير الديني» فسيحشر في سياق مجتمعي تعددي.

لِمَ لا يمارس هؤلاء ما تصبو إليه نفوسهم وتطلعاتهم المادية بعيداً عن مظلة التقريب بين الأديان، حيث كل شيءٍ يناقش ويبحث، سوى الدين ذاته؟!

٣ ـ د. حسن الترابي:

قال: (لا بد من تكثيف الحوار وتأسيس المنابر المشتركة لا لمناقشة القضايا اللاهوتية، ولكن لمناقشة ما يمكن أن نفعله سوياً لإشاعة المثل والقيم الدينية في عالمٍ ينزلق يوماً بعد الآخر في مستنقع الجاهلية الآسن)[٢].

إن استبعاد الحوار العقدي هاجس حاضر لدى دعاة التقريب، مع أن المسلمين هم أسعد الأطراف بنتائجه، فأي ديانة تستطيع أن تصمد اليوم أمام صلابة وعمق وشمول وتوازن العقيدة الإسلامية، وكل ما سواها فخليطٌ من المتناقضات والخرافات والفلسفات الباهتة. ودعاة التقريب من العصرانيين ـ أو بعضهم ـ يدركون هذا، ولكنهم لا يريدون نقل الحوار إلى هذه الأصعدة مداهنة لأهل الكتاب الذين يرونهم يمسكون بزمام الحضارة المادية اليوم.

---

(١) المرجع السابق (٢١١).

(٢) الحوار بين الأديان: التحديات والآفاق (٦).

فمما يؤسف له أن يصدر هذا الاحتراز، استبعاد الحوار العقدي، من الدوائر الإسلامية، أو التي تدعي تمثيل الإسلام، ولا يصدر مثله أو قريباً منه من الطرف الآخر. إن هذا يحمل في طياته مغمزاً لهذا الدين ـ وحاشاه ـ الذي يحرص دعاة التقريب من المنتسبين إليه على مواراة هذا الجانب العظيم منه.

٤ ـ الفضل شلق[١]:

يفسر عدم صلاحية الدين «مادة للحوار» بما يلي:

(تعود جذور هذه المشكلة إلى الطبيعة الإطلاقية لأديان التوحيد، بحيث يفقد أحدها مبرر وجوده إذا تخلى عن رؤيته في فهم الحقيقة والوصول إليها. ففي عالمٍ تحكمه المطلقات لا يمكن التراجع وتستحيل التسوية...

إن النتيجة المنطقية لذلك هي أن الدين لا يصلح كي يكون مادة للحوار. رغم ذلك يصر البعض على استخدام مصطلح الحوار بين المسيحية والإسلام. والواقع هو أنه حوارٌ بين مسيحيين ومسلمين حول مواضيع لا تتعلق مباشرة بالحقيقة الدينية الإلهية لدى كلٍ من الدينين، ورجال الدين الذين يشاركون في هذه الحوارات يفعلون ذلك لا بوصفهم رجال دين مهمتهم نشر المعرفة الدينية المتمحورة حول الحقيقة المطلقة للدين، بل بوصفهم أشخاصاً على درجةٍ عالية من المعرفة الدينية. وبالتالي فإنهم يعرفون كيف يبقون الحوار بعيداً عن الأمور الجوهرية التي تمس الحقيقة الدينية التي يعتقدونها.

---

(١) الفضل شلق: وزير البريد والمواصلات السلكية واللاسلكية في لبنان، ورئيس مجلس الإنماء والإعمار سابقاً، رئيس تحرير مشارك لمجلة «الاجتهاد». من مؤلفاته: «الطائفية والحرب الأهلية في لبنان ١٩٧٧م»، «إشكاليات التوحد والانقسام. ودراسات في الوعي التاريخي العربي ١٩٨٦م»، «الأمة والدولة: جدليات الجماعة والسلطة في المجال العربي الإسلامي ١٩٩٣م». انظر تعريفاً مقتضباً في مجلة الاجتهاد في ملحق الأعداد (٢٩ ـ ٣٢).

لكي يكون الحوار جدياً يفترض أن ينحصر الأمر بالشؤون التي تعتبر معرفتها نسبية، وهي مجمل المعرفة البشرية، ما عدا المبني منها على المطلقات الدينية، أي الوحي الإلهي. وهذا لا يعني أن الحوار يبقى معزولاً عن المسائل الدينية جميعها، فهناك كثير من المسائل التي يعالجها الدين، لكن تعتبر مسائل دنيوية يصح فيها تعدد الآراء، وبالتالي يمكن تقديم تنازلات بشأنها)[١].

ومن هذا العرض يتكشف مفهوم الحوار لدى العصرانيين؛ هدفه، ومهمة المتحاورين، ومادة الحوار:

■ فالحوار أولاً ليس وسيلة للدعوة إلى الدين الحق، وكشف الشبهات، وإقامة الحجة؛ لأن الطبيعة الإطلاقية للأديان الثلاثة تحول دون ذلك، في نظر الكاتب.

لكن سؤالاً يفرض نفسه ها هنا: كيف اعتنق فئام من الناس، وشعوبٌ بأكملها دين الإسلام، وقد كانوا يهوداً أو نصارى، كما يشهد التاريخ والواقع؟

إن الطبيعة الإطلاقية للأديان الثلاثة، وربما وجدت في غيرها، لا تمنع قبول الحق والانقياد له. وبالتالي فثم خلل في هدف حوار التقريب ومنهجيته.

■ أما مهمة المتحاورين فليست (نشر المعرفة الدينية المتمحورة حول الحقيقة المطلقة للدين)، بل قد أحضروا لكي (يبقون الحوار بعيداً عن الأمور الجوهرية التي تمس الحقيقة الدينية التي يعتقدونها). يا للسخرية! أن تكون مهمة صاحب الاختصاص ليست الإفادة من اختصاصه، بل (الإنذار المبكر) عند الاقتراب من مجال الاختصاص.

---

(١) الحوار الذي لم يبدأ. مجلة الاجتهاد (٣١، ٣٢/٧ ـ ٨).

وثَمَّ مهمة أخرى أشد دناءة، وهي القدرة على تقديم تنازلات، بحكم تخصصهم.

■ أما مادة الحوار الجدي فتنحصر بالشؤون التي تعتبر معرفتها نسبية، وهي مجمل المعرفة البشرية، سوى الحقائق الدينية.

تُرى لم يُدعى «رجال الدين» ـ على حد تعبيره ـ إذاً، والدين كله مستبعد من الحوار؟! إن دعاة التقريب يرون في الحقيقة الدينية الصادقة، المؤسسة على التوحيد الخالص، والاتباع المحض الذي لا تشوبه شائبة البدع، يرون في ذلك «عائقاً» أمام طروحاتهم الليبرالية المتحللة، و«سداً منيعاً» في وجه إذابة التميز الحقيقي للأمة أمام تيارات التغريب والمسخ العلماني. فمن ثم يؤطرون مشاريعهم الاندماجية مع الأعداء الدائمين للأمة الإسلامية بإطار الدين، مدركين بعمق أن الحقيقة الدينية عميقةٌ لا يمكن اجتثاثها، شاهقة لا يمكن القفز من فوقها، صلبة لا يمكن اختراقها.

وهم يعترفون بهذا الحضور الديني، ويصطدمون به، ويضطرون إلى أخذه بعين الاعتبار.

٥ ـ كامل الشريف:

قال: (بالرغم من اقتناعنا أن الحوار يجب أن ينأى عن الجدل الديني كلما أمكن ذلك، وأن يكتفي في هذه المرحلة بارتياد حقول التعاون في الأمور العامة التي تؤثر في حياة الأفراد والجماعات... إلا إننا رأينا مع استمرار هذا البحث أن الفكر الديني لم يقف عند الحيز النظري، وإنما فرض نفسه على الواقع السياسي والاجتماعي أيضاً، كما أن من الصعوبة أن نتجاهل الأثر الذي يحدثه هذا الفكر في نظرة كل فريقٍ للآخر)[1].

---

(١) مستقبل الحوار الإسلامي المسيحي على ضوء التجارب السابقة. عن مجلة أرض الإسراء عدد ١١٥ رجب ١٤٠٨هـ آذار ١٩٨٨م.

إن حقائق الفطرة لا يمكن طمسها، ولا تجاوزها بشعارات عاطفية، وحملاتٍ إعلامية، وخير للمشتغلين بقضايا التقارب والحوار من الإسلاميين أن يتجهوا بصدقٍ وإخلاص إلى دراسة المنهج الحق القويم، والاسترشاد بنور الله حتى يضعوا خطاهم على الطريق القاصد المستقيم.

ولا يغني عن ذلك أن تكون قضية العقيدة والتوحيد لجنة فرعية، أو دائرة ثقافية محدودة، ملحقة بمشروع الحوار والتقارب، من قبيل «الترضية»، أو مجرد «الترف الذهني»، كما يحاول سعود المولى أن يقنّنه على النحو التالي:

(هناك تحفظٌ إسلامي عن حوار اللاهوت وعلم الكلام. إن هذا الحوار مرغوبٌ ومطلوب، لكن مجاله هو العلماء والمحافل العلمية، وليس الصحف والمجلات والمنتديات العامة. والحاجة ماسة اليوم إلى حوار الحياة، والعيش المشترك، حوار قضايا المجتمع والإنسان لاستنطاق قيم الأديان، واستنباط صيغٍ مجتمعية، ومواجهة ظروف وتعقيدات عالم اليوم)(١).

لقد أثبت تاريخ الدعوة الإسلامية أن خطاب العامة والجمهور، أجدى من خطاب النخب من ذوي الرياسات والمقامات الدينية، لحرص الأخيرين على دنياهم ونفوذهم. وليس لدى أهل الإسلام ما يخفونه، أو يستحون من نشره في الصحف والمجلات والمنتديات العامة، إلى جانب المحافل العلمية المتخصصة، وهم أوثق الملل في صدق ما هم عليه، وأنه من عند الله حقاً. وقد كان رسول الله ﷺ يغشى المجالس، ويدخل على اليهود في محل عبادتهم، وفي يوم مدراسهم، وفي بيوتهم، ويجادل النصارى، ويكاتب ملوك الأرض منهم. فمن رغب عن سنته فليس منه.

(١) الحوار الإسلامي المسيحي. ضرورة المغامرة (٤١).

ويلتحق بهذا الباب أيضاً، قصر الحديث على مواضع الاتفاق في القيم والأخلاق، وإرجاء الحديث عن مسائل الاعتقاد، وهو ملحظٌ بارز في منهجية دعاة التقريب، يخالف المنهج القرآني المنصوص عليه في آية آل عمران. ومن شواهد ذلك:

١ ـ د. يوسف القرضاوي:

قال: (نرى القرآن... يذكر مواضع الاتفاق وليس نقاط الاختلاف... ولذلك في حوار أهل الكتاب قال: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ۝٤٦﴾ [العنكبوت]. وفي الآية الأخرى: ﴿قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ ۝١٣٩﴾ [البقرة: ١٣٩]. يذكر الأشياء المتفق عليها، وهذا مبدأ مهم جداً: إذا أردت أن تحاور الآخرين فابدأ بالمتفق عليه ليكون ذلك سبيلاً إلى أن نصل إلى قاسم مشترك بين الفريقين. لا نأتي إلى الشيء المختلف فيه، ونقول به، فلا يمكن أن نلتقي... نقول: نبحث ماذا يجمع بيننا؟

نحن معاً نؤمن بالله، ولو إيماناً إجمالياً، نؤمن بالآخرة والجزاء الأخروي، نؤمن بعبادة الله، وبالقيم الأخلاقية، وبثبات هذه القيم، نؤمن بوحدة الإنسانية، وبأن الإنسان مخلوقٌ مكرم، نؤمن... نأتي بأشياء يمكن أن تجمع بين المختلفين. فإذا وضعنا هذه الأشياء المتفق عليها، يمكن أن نقرِّب بين المختلفين بعضهم بعضاً. من جهتنا نحن المسلمين مستعدون للتقارب. والمهم أيضاً أن يكون عند الآخرين مثل هذه الروح... فيعاملوننا بمثل ما نعاملهم به، ويقتربون منا بقدر ما نقترب منهم)(١).

---

(١) الإسلام والغرب مع د. يوسف القرضاوي (١٥ ـ ١٧).

• **ونسجل على هذا النص الملاحظات التالية:**

١ ـ قوله عن القرآن أنه (يذكر مواضع الاتفاق وليس نقاط الاختلاف) غير مُسَلَّم البتة. فكل من يقرأ القرآن، ولو كان عامياً، يدرك بوضوح كثرة الآيات التي تنكر على أهل الكتاب ما وقعوا فيه من انحرافاتٍ عقدية وعبادية وخلقية، وهذا من مقاصد القرآن أصلاً: قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [النمل].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة]، والسور الكريمة: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، ملأى بشواهد ذلك.

أما ما أسماه الدكتور القرضاوي مواضع اتفاق، فالواقع أنه اتفاقٌ من طرفٍ واحد، فالمسلمون يقولون ما أمرهم الله به: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ [البقرة]. ونسائل الدكتور القرضاوي الآن: هل جرى اتفاق أم ظلوا في شقاق؟ قال تعالى مبيناً حال بعضنا وحالهم: ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [آل عمران: ١١٩].

فلا يَغُرنَّ المسلمين ما يبديه لهم دعاة التقريب من النصارى من البشاشة والترحيب، والتظاهر بالموضوعية، وحب الحوار، في المؤتمرات التي يدعون إليها ويُصَدِّرون فيها بعض المسلمين، فما هو إلا فخ لاصطيادهم واستنطاقهم واستدراجهم إلى مواقف وتصريحات

يرضونهم بها، ويسخطون بها ربهم، دون أن يقابلوا المسلمين طوال القرون بالإيمان بنبيِّهم وكتابه، أو التزحزح قيد أنملة عن شركهم وضلالهم. فالحذر الحذر من مكائدهم فقد نبأنا الله من أخبارهم.

٢ ـ قوله: (إذا أردت أن تحاور الآخرين فابدأ بالمتفق عليه، ليكون ذلك سبيلاً إلى أن نصل إلى قاسم مشترك بين الفريقين. ولا نأتي إلى الشيء المختلف فيه فنقول به، فلا يمكن أن نلتقي... إلخ).

إن هذا الكلام يوحي بأن يقتصر المحاور المسلم على القدر المتفق عليه في البداية، ولا يتعرض للقدر المختلف فيه. ولم يحدد الكاتب مدىً زمنياً لهذه المرحلة. فهل هذا منهج شرعي؟

إن المتأمل في النصوص القرآنية لا يجد أثراً للفصل بين ذكر المتفق عليه والمختلف فيه ـ إن صح أن يوصف بالمتفق عليه ـ بل يجد النوعين في سياقٍ واحد، ومقامٍ واحد.

وشاهد ذلك ما استدل به القرضاوي نفسه:

ففي آية العنكبوت، نجد أن الله تعالى أتبعها بخمس آيات بينات في إثبات تنزيل القرآن على عبده ونبيه محمد ﷺ، والإنكار على الجاحدين لذلك، كما أن آية البقرة جاءت وسط حشد من الآيات المتعلقة بالرد على أهل الكتاب. ولم يكن النبي ﷺ يسلك هذا المسلك الذي يقرره الدكتور القرضاوي، ويصفه بأنه «مبدأ مهم جداً»، بل يبادؤهم بالدعوة إلى توحيد الله ونبذ الشرك، حتى بلغ الأمر مع وفد نصارى نجران إلى «المباهلة»، ولم يرَ النبي ﷺ ما يراه المتأخرون من تأجيل البحث في مسائل الخلاف. بل الواقع يشهد بكثرة الحديث والتأليف فيما يسمونه بـ «المساحات المشتركة» بين الأديان، وعدم التعرض لمسائل الاعتقاد الكبرى[1].

---

(١) انظر: على سبيل المثال إصدارات مركز الأبحاث في الحوار المسيحي=

يقول كامل الشريف: (بالرغم من اقتناعي بوجوب الابتعاد عن الجدل الديني، وخصوصاً في اللقاءات المعلنة في هذه المرحلة، إلا إنني أرى تشجيع حركة الكتابة والتأليف التي تتجه للبحث في القواعد المشتركة للديانتين، أو تعمل على تحقيق الاعتراف المتبادل بينهما، وتبني نشر ما يصدر عنها من إنتاج)(١).

إن هذا المنهج ليس منهجاً شرعياً، ولا يندرج تحت مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن، لأنه لا يستهدف أصلاً دعوتهم إلى الإسلام، بل يستهدف مجرد التقريب، وإقرار الغير على كفره وباطله، وعدم النكير عليه، بل الاعتراف به، وتبني ما يصدر من إنتاجه، فأين هذا من منهج القرآن، وهدي نبي الإسلام ﷺ؟!

بل إن هذا المنهج لا يتفق وفلسفة الحوار التي يتغنون بأنها تقوم على عنصر التنوع والاختلاف، وإلا لما كان للحوار مسوغٌ أصلاً. فتصبح تلك المداولات التي تلهث في إبراز نقاط التشابه، وطمس نقاط الخلاف مجرد صدى، ورجع الصدى فحسب.

يقول د. محمد هلال: (... يغدو من الواضح أن التركيز على إبراز نواحي الالتقاء والتشابه، وإغفال نواحي الاختلاف بين الأديان، أمرٌ مخالفٌ للمقصود من الحوار وهو: فهم المخالِف من حيث هو مخالِف. كما أن من الغباء محاولة التظاهر بمسح الاختلافات بين نظريات أصبحت معروفة، ولا يمكن بحال طمس معالمها من الفكر

= الإسلامي في حريصا ـ لبنان، مثل: العدل في المسيحية والإسلام؛ الرحمة الإلهية في المسيحية والإسلام؛ السلام، الإصغاء إلى كلمة الله في المسيحية والإسلام؛ من سلسلة: المسيحية والإسلام في الحوار والتعاون. المكتبة البولسية. جونية ـ لبنان. الطبعة الأولى ١٩٩٧م.

(١) مستقبل الحوار الإسلامي المسيحي على ضوء التجارب السابقة (٤٠). العدد (١١٥) رجب (١٤٠٨هـ) آذار (١٩٨٨م).

والتاريخ البشري. فالإسلام والمسيحية ـ كما تُعرض وتُعَلَّم اليوم ـ يختلفان في أساسهما العقيدي، ونظرية كل منهما أصبحت واضحة معروفة. ومحاولة مزجهما، أو الخلط بينهما على هذا المستوى، تعني الخوض في عملٍ بلا طائل)[١].

وحتى لو قَبله المحاور المسلم لمسوغاتٍ مصلحية موهومة، فإن المحاور النصراني يستنكف عن قبوله، ويعده ضرباً من خيانة الضمير، وخرقاً لشرط الحوار الجاد.

رابعاً: الدعوة إلى إيقاف الدعوة إلى الله تعالى:

إن من لازم حرف مسار العلاقة بأهل الكتاب عن الجانب العقدي، وإشغالها بأمور جانبية، ومسائل ثانوية، الزهد بأمر الدعوة إلى الله، بل السعي نحو إيقافها وتجميدها، باعتبارها لا تتفق ونزاهة الحوار. وقد صرح بإبطال هذا الأصل العظيم بعض دعاة الحوار والتقريب:

يقول د. يوسف الحسن:

(إن الحوار الذي نفهم ليس دعوة مبطنةً. فمن التزم الحوار وقبله نهجاً، يكف عن الدعوة والتبشير في الوقت الذي فيه يحاور. فالحوار الذي نقصد، له مصالح أخرى مشتركة، لا يدخل التبشير أو الدعوة ضمنها)[٢].

بمثل هذه الصراحة المخزية ينحط دعاة التقريب المفتونون بالحوار إلى هذه الدركات، ويهدرون مقاصد الشرع، ومنهج الأنبياء في سبيل مصالح موهومة. فما هي تلك المصالح التي تفوق مصلحة

---

(١) مفاهيم معاصرة في ضوء الإسلام (٧٩ ـ ٨٠).

(٢) الحوار الإسلامي المسيحي. الفرص والتحديات (١٢).

تعبيد الناس لرب العالمين، وغاية سعي الأنبياء والعلماء والدعاة والمجاهدين، وسر خيرية هذه الأمة؟ لا شك أنها كسرابٍ بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، ووجد الله عنده فوفاه حسابه.

٢ ـ د. حسن إسماعيل عبيد:

قال: (إن الحوار يرفض مبدأ أي توجه إحلالي يسعى إلى نسخ الديانات القائمة، وتمثلها، واستيعابها في دينٍ ما، بحسبان أنه الأقوم أو الأفضل أو الأحسن. إن الحوار يدعو إلى التعايش السلمي كعملية ممكنة في ظل معطيات واقع الأديان القائمة باختلاف منطلقاتها العقائدية، ورؤيتها للكون والإنسان وللحياة)[(١)].

لقد استزل الشيطان هؤلاء المفتونين بطاغوت الحوار حتى أنكروا ما هو معلومٌ من الدين بالضرورة، وهو نسخ دين الإسلام لجميع الأديان، وأنه الأقوم والأفضل والأحسن، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الإسراء]، وقال ممتناً على عباده في ختام حياة نبيه ﷺ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [آل عمران:٣]. والكاتب يرفض أي توجه إحلالي، الذي هو حقيقة الدعوة إلى الله، والطامة الكبرى إنكاره أن الإسلام هو الأقوم والأفضل والأحسن، أي من الأديان الأخرى، وتلك لعمر الله قاصمة الظهر، ومن شك في كفر اليهود والنصارى فهو كافر[(٢)].

---

(١) سوسيولوجيا الأديان. بحث مقدم لمؤتمر الحوار بين الأديان في الخرطوم عام ١٩٩٤م (١٠).

(٢) انظر: فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٢/ ٣٦٨).

٣ ـ صبحي الصالح[١]:

أعلن في محاضرة بعنوان «المسيحية والإسلام في لبنان أضواء وتأملات» عام ١٩٦٥م، أعلن فيها أمام الملأ من النصارى والمسلمين أن (الإسلام قد أقر مبدأ الحوار مع الأديان منذ زمنٍ بعيد، وما دام قد خص المسيحية والمسيحيين بالمودة والحنان، فلا ريب أنّا ـ باسم هذا الدين ـ نرحب بكل تقاربٍ إسلامي ـ مسيحي، ولا سيما إذا أيدته الأوساط الكنسية الرسمية في مجامعها المسكونية)[٢]، ويقول مطمئناً مستمعيه: (إنّا لا نطمع ـ في الشرق العربي ـ بزيادة عددية تنشأ عن النشاط في الدعوة إلى اعتناق الإسلام، بل الذي نصبوا إليه في حوارنا ليكون مجدياً مفيداً ـ أن يحترم بعضنا بعضاً، وأن يفهم أحدنا الآخر، وأن يطلع كل منا على تعاليم أخيه، وأن نتناسى مآسي الماضي، وما افتعل فيه من ظروف سيئة لتوهين روابطنا، وأن نبني تعاوننا على أساس كرامة الإنسان بوصفه إنساناً. . .)[٣].

---

(١) صبحي الصالح: (١٣٤٥ ـ ١٤٠٧هـ/١٩٢٦ ـ ١٩٨٦م) ولد في طرابلس، وتعلم فيها. حصل على الشهادة العالية (الإجازة) من كلية أصول الدين عام ١٩٤٧م، كما نال الشهادة العالمية عام ١٩٤٩م، ثم شهادة دكتوراه الدولة في الآداب من فرنسا عام ١٩٥٤م. عمل أستاذاً للإسلاميات وفقه اللغة في الجامعة اللبنانية، وتولى عدة مناصب شرعية منها: نائب رئيس المجلس الشرعي الإسلامي الأعلى، والأمين العام لرابطة علماء لبنان، كما كان عضواً في مجمع اللغة العربية في القاهرة. أغتيل في السابع من أكتوبر في بيروت. من مؤلفاته: «الإسلام والمجتمع العصري»، «النظم الإسلامية»، «علوم الحديث ومصطلحاته». انظر: تتمة الأعلام (١/٢٤١ ـ ٢٤٢) ذيل الأعلام (١٠٣).

(٢) عهد (الندوة اللبنانية) خمسون سنة من المحاضرة: دار النهار ـ بيروت. الطبعة الأولى ١٩٩٧م. (٤٩٠).

(٣) المرجع السابق (٤٩٣).

فلا تخطئ العين، ولا يعزب عن البال التلازم الوثيق بين الدعوة إلى التقارب، والزهد في الدعوة إلى الله. وما أبشع ذلك حين يعلن دعاة التقريب تلك الفرية (باسم الإسلام).

٤ ـ محمد الطالبي:

ويتدسس كاتب رابع، مغرقٌ في الإعجاب بالنصارى، بكلماتٍ مفضوحة مرتدياً لبوس الرهبان، ليهدم جانب الدين فيقول: (أن لفظة «الجهاد» في مدلولها اللغوي ومضمونها الأساسي لا تفيد الحرب مهما كانت قداسة هذه الحروب... فلا يفيد الجهاد الحرب، وهو إذن غير ذلك. إنه أصلاً وأساساً ـ مجهود أعظم وأكمل يبذله الإنسان في سبيل الله. ويدقق الحديث النبوي الشريف أن أصفى أنواع الجهاد وأعسره وأخصبه، في آنٍ واحد، هو الجهاد الأكبر، الذي يقع داخل ميادين النفس البشرية. وهذا يعني أن أحسن أشكال الدعوة إلى الإيمان هو شهادة نفسٍ فازت في معركة الكمال الأخلاقي. فالدعوة بواسطة مثل هذه الشهادة هي أخصب دعوة، وهي بالإضافة إلى ذلك الدعوة الوحيدة التي تتماشى مع عصرنا، ويمكن لها أن تكون في غنىً عن الدعاية الدينية. ألم يذكِّر الله رسوله نفسه في القرآن أنه لا يستطيع أن يهدي إلى سبيل الله ما شاء من الناس، وأن الله في نهاية الأمر هو الذي يهدي إلى سبيله من أراد: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص].

فواجب الدعوة إذاً يتمثل لدينا في تقديم شهادة، ولله أن يدخل في دينه من يشاء.

ونجد في القرآن أيضاً: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. لذلك ليس من المستحيل أن نكوّن نظرية إسلامية للدعوة تتماشى واحترام الغير احتراماً

كاملاً. ومن البديهي أن يكون ذلك ممكناً بالنسبة للدين المسيحي، وهو دين الشهادة بعذاب الموت. وهو ممكن أيضاً بالنسبة للديانات الأخرى)[١].

هنيئاً للمستشرقين والمنصرين بأمثال هؤلاء «السمَّاعِين» لهم، المرددين بوعي، أو غير وعي، شبهاتهم، اللاهثين في تنفيذ مخططاتهم، وخدمة مصالحهم.

فالكاتب يؤول فريضة «الجهاد» تأويلاً باطنياً بارداً، بقصرها على الجهاد الصوفي الذي يفصل بين جهاد النفس وجهاد الأعداء. ويتبجح بالجزم بأن لفظة «الجهاد» لا تفيد الحرب مهما كانت قداسة الحرب. فأين قول الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وقوله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ٢٩]، وقوله: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأنفال]، وقوله: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤]، والآيات في هذا الباب كثيرة جداً، لم يختلف في دلالة «الجهاد» على القتال وحرب الكفار اثنان من المسلمين، حتى نبغ ربائب المستعمرين في البلاد الإسلامية في هذ العقود المتأخرة. وكان ينبغي أن يقول: إن لفظة الجهاد في مدلولها اللغوي أعم من الحرب، فتشمل الجهاد بالنفس والمال والعلم والبيان.

ويلوح الكاتب في تخشع وتنسك، بحديثٍ ضعيفٍ لا تقوم به حجة، رواه الخطيب البغدادي[٢]، والبيهقي وضعفه عن جابرٍ مرفوعاً:

---

(١) الإسلام والحوار. أفكار حول موضوع يشغل بال العصر الحديث. عن: وثائق عصرية في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين (٥٤).

(٢) أحمد بن علي بن ثابت البغدادي، ولد سنة ٣٩٢هـ، وقيل سنة ٣٩١هـ، واشتهر وذاع صيته في حياته، توفي سنة ٤٦٣هـ، من تصانيفه وهي كثيرة=

«قدمتم خير مقدم، قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، مجاهدة العبد هواه»[1]. وهو ضعيف السند، منكر المتن. فلو كان القعود عن الجهاد القتالي، خيراً من النفرة في سبيل الله لاختاره النبي ﷺ لأمته، ولما جشمهم عنت القتال، فإنه بالمؤمنين رؤوف رحيم. والحق أنه لا انفصال بين الجهادين، ولكن البطالين والمخذلين يحلو لهم ترديده، والاستدلال به على تهوين ما عظمه الله ورسوله ﷺ من أمر الجهاد. قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﷫: (أما الحديث الذي يرويه بعضهم، أنه قال في غزوة تبوك «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» فلا أصل له، ولم يروه أحد من أهل المعرفة بأقوال النبي ﷺ وأفعاله. وجهاد الكفار من أعظم الأعمال؛ بل هو أفضل ما تطوع به الإنسان»[2]، ثم ساق النصوص في ذلك.

ولكن الكاتب لا يكتفي بإبطال الجهاد، بل يتجارى به الهوى كما يتجارى الكَلَب بصاحبه، فيدعو إلى إيقاف الدعوة إلى الإسلام، والاكتفاء بالقدوة الشخصية. فكما حَجَّر الجهاد في مجاهدة الهوى، حجَّر الدعوة إلى الله، التي هي عنوان خيرية الأمة، ليحصرها في الالتزام الخلقي الشخصي.

ويخرج الله ما يكتمون، فإذا به يعلل دعواه لوقف الدعوة بما يلي:

= وغزيرة: «تاريخ بغداد»، و«الكفاية في علم الرواية»، و«تقييد العلم»، و«الفقيه والمتفقه»، وغيرها. الأعلام (١/ ١٧٢)، معجم الأدباء (١/ ٢٤٨)، طبقات الشافعية (٣/ ١٢)، النجوم الزاهرة (٥/ ٨٧)، وفيات الأعيان (١/ ٢٧).

(١) انظر: الجامع الصغير (٢/ ٢١١) رقم (٦١٠٧) ورمز له بالضعف، وضعيف الجامع (٤/ ١١٨) وانظر: ما كتبه الدكتور محمد أمين المصري ﷫ في كتابه القيم: المسؤولية (٨١).

(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ١٩٧).

١ ـ أنها لا تتماشى مع عصرنا

٢ ـ الحاجة إلى الدعاية الدينية.

٣ ـ أن الهداية بيد الله.

٤ ـ أنها لا تتماشى مع احترام الغير احتراماً كاملاً.

وبالتالي فإن نظريته الإسلامية للدعوة بالاكتفاء بـ «تقديم شهادة»، يقضي على كل تلك السلبيات.

أفلا يلتفت هذا المفتون إلى أوليائه من النصارى الذين يصف دينهم بأنه «دين الشهادة بعذاب الموت» لينظر ما يصنعون، وما يبذلون في سبيل الدعاية الدينية في أوساط المسلمين، وغير المسلمين، الفقيرة والمضطرة، من أعمال التنصير، وسرقة الأطفال، والتهديد بالحرمان... إلخ من صور الممارسات المنحطة لعبّاد الصليب، ثم لا يرى هذا المغيَّب وأمثاله في ذلك عدم احترامٍ للغير، أو عدم تماشٍ مع عصرنا. وفوق هذا يستدل على صده عن سبيل الله بآية من كتاب الله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص].

ولا أحسب الكاتب يفقه الفرق بين هداية التوفيق والإلهام، التي هي من خصائص الله ﷻ، ولا يستطيعها مخلوق، كما دلت هذه الآية، وهداية الدلالة والإرشاد، التي هي وظيفة الرسل وأتباعهم من العلماء والدعاة، كما دل عليها قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى]. وإنما يفقه جيداً التعبيرات الكنسية، ويهجر دلالاتها الإسلامية، كما يتضح في استعماله لفظ «الشهادة».

وهذه اللوثة العقدية، الاحتجاج بالقدر على الشرع، يروجها كثير من دعاة الحوار والتقريب بين الأديان، لتهوين أمر الدعوة إلى الله

تعالى، وكبح جماح المتحمسين لنشر الإسلام، مما لا يتماشى وأدبيات الحوار في نظرهم، فيحيلون على نصوص القدر في سبق مشيئة الله، بتنوع البشر إلى أديان وطوائف، ويواجهون بها الدعاة.

وهي حجة المشركين قديماً، كما حكى الله عنهم: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام]. فلا يجوز إسقاط الواجبات الشرعية بالاحتجاج بالقدر. فالقدر علم الرب سبحانه وكتابته ومشيئته وخلقه، والشرع وظيفة العبد، ما دام من أهل التكليف.

وإليك أيها القارئ مسرداً بمقولات بعض دعاة التقريب في تقرير هذه الشبهة:

١ ـ محمد عمارة:

قال: (إن توهم إمكان توحد أهل الأديان السماوية، أو بالأحرى أهل الشرائع السماوية على شريعةٍ واحدةٍ، وملةٍ واحدةٍ، وتحولهم من أممٍ مؤمنةٍ ومتعددة، إلى أمةٍ مؤمنةٍ واحدة، إن توهم إمكانية ذلك، ومن ثمَّ السعي إلى تحقيقه، خصوصاً إذا كان هذا السعي بغير المجادلة بالحكمة والموعظة الحسنة، هو معاندة لإرادة الله سبحانه. وسعي ضد سننه التي لا سبيل إلى تبديلها أو تغييرها... فإرادة الله وسنته، مع تعدد الأمم والملل والشرائع، وما نسميه تجاوزاً «الأديان» وليس مع وحدتها وتوحيدها... إنها مع التعدد والاختلاف لا مع الوحدة والاتحاد!...)[1].

لقد اضطرب ميزان الشرع والقدر عند هؤلاء، فصاروا إلى مذهب الجبرية، مع إطراء الكاتب لمذهب المعتزلة، وخدمته تراثهم، وهم على

---

(١) الإسلام والوحدة القومية. (٧٠).

النقيض في هذا الباب ـ باب أفعال الله ـ مع الجبرية. لكن حيث اقتضت مصلحة التقارب مع أهل الكتاب الاحتجاج بالقدر، فالكاتب يسمح لنفسه أن يتخلى عن أصوله الاعتزالية، ويضحي بها لخدمة الهدف الراهن.

ونسأل الكاتب العقلاني: إذا كان السعي لتوحيد أهل الأديان، بل وغير أهل الأديان تحت راية الإسلام معاندة لإرادة الله سبحانه، وسعي ضد سننه التي لا سبيل إلى تبديلها أو تغييرها فَلِم إذاً: ﴿أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف]، ولم كانت هذه الأمة ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ [آل عمران: ١١٠].

٢ ـ جمال البنا:

قال: (قد أصبح الدين من مقومات الشخصية، ومن وراثات الأبناء عن الآباء، وأصبح لكل دينٍ سدنة يدافعون عنه ويتشبثون به.. إلخ مما اقتضى وجود عددٍ من الأديان جنباً إلى جنب. وهو وضعٌ أقره الإسلام تماماً، ليس فحسب على أساس الضرورة، ولكن على أساس الأصول والسنة التي وضعها الله للمجتمع الإنساني، فالتعدد والتفاوت... إلخ يثري القضية، ويفيد في إبراز أبعادها، ويكفل لها نوعاً من الفعالية فهو خيرٌ لا شر...

ومن هنا فإن القرآن يكثر من إبراز هذه القضية، ويحث على تقبلها، ويوضح للرسول في أكثر من مرة أن هذه الظاهرة هي إرادة الله)(١).

لم يكتف الكاتب بتقرير الاختلاف بوصفه قدراً من أقدار الله، لا

---

(١) الحساسية الدينية: جمال البنا. الزهراء للإعلام العربي. (٦٥، ٦٦).

تنبغي مقاومته، بل ذهب إلى أبعد من ذلك، فطفق يبرز مزايا الاختلاف وفوائده ليصل بعد ذلك إلى أنه خيرٌ لا شر. إن الخلاف والاختلاف لا يأتي في القرآن الكريم إلا في مقام الذم والتحذير، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأنعام].

٣ ـ د. يوسف القرضاوي:

قال: (جرت سنة الله أن الناس لا يمكن أن يلتقوا على ثقافةٍ واحدة، لأنهم لا يمكن أن يلتقوا على دينٍ واحد، هذا سنةٌ من سنن الله. وقد ذكر القرآن هذا: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [هود]، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس]. فلا يمكن أن يجتمع الناس على دينٍ واحد. إنما اختلاف الناس هذا واقعٌ بمشيئة الله، ومشيئته معبرةٌ عن حكمته... وهذا من أسباب التسامح الذي جاء به الإسلام؛ أنه اعتبر اختلاف الناس ناشئاً عن مشيئةٍ إلهية من ناحية، ومن ناحية أخرى أن هذا الاختلاف، الحساب عليه إن كان هدىً أو ضلالة، صواباً أو خطأ، ليس في هذه الدار، إنما في الدار الآخرة. ﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الحج] . وهذا مما يخفف مسألة الاختلاف بين الناس، إن اختلافنا واقعٌ بمشيئة الله)[1].

هذا خلطٌ خطير بين الموقف الشرعي والموقف القدري. إن تسليمنا بهذه السنة الإلهية قَدَراً لا يسوغ ترك الواجب وفعل المحرم، وليس من ثمرة الإيمان بالقدر حصول «التسامح» كما عبر القرضاوي.

---

(١) الإسلام والغرب مع د. يوسف القرضاوي (٢٣ ـ ٢٤).

ألم يقل الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝٩﴾ [التحريم]، وقال آمراً أولياءه المؤمنين: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ۝٢٩﴾ [التوبة].

وهل يزعم الدكتور القرضاوي ـ عفا الله عنه ـ أن من مقتضى كون الحساب على الله تعالى في الدار الآخرة إبطال الأحكام الشرعية في هذه الدار؟! يكرر القرضاوي ذكر آرائه هذه فيقول في ندوةٍ عام ١٩٩٥م: (المبدأ الثاني: أن المسلم ليس مسؤولاً عن معاقبة الكافر على كفره، أو الضال على ضلاله. فعقاب الكافر لا يعود إلى المسلم وإنما هو أمرٌ يتولاه الله ـ ليس في الدار الدنيا، ولكن في دار الجزاء والحساب؛ لذلك يقول تعالى: ﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٦٨ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝٦٩﴾ [الحج]، ولعل ما يطفئ جذوة الغضب والكراهية بين المختلفين، أن الحساب ليس في هذه الدنيا، وإنما هو في الآخرة، وأن الله هو الذي يحاسب الجميع يوم القيامة)[1].

٤ ـ سعد غراب:

قال: (الله هو الذي له الحق وحده في نهاية المطاف في الحكم على مخلوقاته، وليس للبشر تعويضه في هذه المهمة: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ۝٥٦﴾ [القصص]. يجب الاعتراف بأن الكثير من المسائل «الماورائية» لا يمكن للعقل الإنساني أن يبت فيها، ولعل النصوص المقدسة أبقتها في شيءٍ من

---

(١) مجلة المسلم المعاصر. العدد (٨٦) رجب، شعبان ـ رمضان ١٤١٨هـ (١٤٩).

الغموض عمداً، حتى يسعى الفكر البشري إلى حلها، ولكن ليس من الحتمي أن نصل إلى نفس الحلول، ولعل الله أراد لنا أن نختلف في ذلك إذ قال: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة][1].

ونطمئن الكاتب أن الله سبحانه لم يبق شيئاً مما يحتاجه عباده غامضاً، بل أوضحه على لسان خاتم رسله غاية البيان. قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل] .

٥ ـ د. يوسف الحسن:

قال: (في إطار المنطلق الإسلامي إلى هذا الحوار، نجد من الضروري توضيح مدى ما توفره العقيدة الإسلامية من أساسٍ قوي للحوار مع الأديان، حيث تعتبر «أن الاختلاف بين الناس هو إحدى سنن الله في خلقه، وهو واقعٌ بمشيئته سبحانه»[2].

إن هذه النصوص وأمثالها التي تؤكد على مشيئة الله، وسابق قدره في خلقه، تساق لا في مقام تلمس الحكمة الإلهية من تنوع البشرية، واختلاف مشاربها، واستجلاء آثار معاني أسماء الله وصفاته وأفعاله في خلقه، حين يتأملها المؤمن بعين القدر، ولكنها تأتي في سياق تأنيس الحوار، وتلطيف بشاعة التقريب بين الأديان، ثم تُشهر سيفاً مصلتاً في وجه الدعوة إلى الله تعالى، والسعي لنشر دينه، واستنقاذ الخلق من الظلمات إلى النور، حتى أصبحت هذه النزعة معلماً من معالم الفكر العصراني في قضية التقريب بين الأديان.

---

(١) الإسلام والنصرانية من الصدام إلى الحوار. من: وثائق عصرية في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين (٢٥).

(٢) الحوار الإسلامي المسيحي. الفرص والتحديات (٤٢).

خامساً: الدعوة إلى الانخراط في العالم الغربي، والأخذ بثقافته:

هذه نهاية الدهليز المظلم، وربما قصر بعض دعاة التقارب والحوار دونها. ولكن طائفة من المفكرين الليبراليين، درجوا على الافتتان بالحضارة الغربية المعاصرة، ونتاجها الفكري والعلمي يعلنونها صريحة مدوية، أن الحل هناك. فَوَلوا وجوههم شطر مغيب الشمس، ودعوا الأمة إلى اللحاق بهم، والانخلاع من جذورهم، بكل جرأة. فلنستمع إذاً:

١ ـ الفضل شَلَق:

قال: (لكي يدخل العرب والمسلمون في حوار مع الغرب المسيحي، يتوجب عليهم أن يأخذوا بخياراتٍ ثقافية ومصيرية غير تلك المطروحة راهناً، أو التي طرحوها على أنفسهم خلال العقود الماضية من السنين. إن الخيار الأساسي المطروح الآن على يد حركات الإسلام السياسي المتطرف والمعتدل، وعلى يد التيارات القومية واليسارية قبل ذلك، هو خيار مواجهة الغرب، ورفض ثقافته، وأساليب عمله، وصولاً إلى الانعزال عنه بحجة الحفاظ على الهوية حيناً، أو إحقاق الحق في فلسطين وغيرها، أو لمجرد الرفض لثقافة الغرب وسياسته اللاأخلاقية حيناً آخر.

وقد كانت نتائج هذا الخيار مدمرة بالنسبة لنا. إذ لم يقتصر الأمر على وصولنا إلى حالةٍ من «حوار الطرشان» مع الغرب، بل فشلنا في مواجهة الغرب، وتراكمت هزائمنا، مما أدى إلى أعمالٍ يصفها العالم بالإرهاب؛ وهي في الحقيقة نوعٌ من أنواع تدمير الذات...

نقول مرة أخرى: إن علينا أن نعترف بالأمر الواقع، ونعمل كي نتجاوزه. ولن يكون هذا التجاوز ممكناً دون الأخذ بثقافة الغرب،

والانخراط بالعالم، والعمل في الوقت نفسه لتجاوز هذه الثقافة، ولتجاوز ثقافتنا الموروثة، كي نصل إلى ثقافةٍ جديدة لعالمٍ جديد، يكون الإنسان محوره وهدفه ومبتغاه. وهذا يعني تجديد مشروعنا التاريخي دون تكراره، ودمج العالم في ذاتنا، مقلعين عن تقسيم العالم إلى دار إسلام ودار حرب، إلى ذاتٍ وآخر.

إن دمج العالم في ذاتنا، هو الوجه الآخر لانخراطنا في العالم، واندماجنا فيه دون الخوف من ضياع الهوية أو التراث. وعندما يكون مشروعنا إنتاج عالمٍ جديد، يصبح ممكناً أن نجدد أنفسنا، وأن نجدد المشروع، الأمر الذي لن يتم بالمنهجية الانتقائية أو التلفيقية. الحوار إذاً شأن ثقافي يجانب المسائل الدينية الصرفة، لأنها تتعلق بفرضياتٍ ومواقف إيمانية، يعتبرها أصحابها مسلماتٍ مطلقة... ومن غير الممكن الدخول في حوار مثمر يصل إلى نتائج إيجابية إلا إذا أبدى كلٌ من الطرفين المسيحي والإسلامي، الغربي والشرقي، الاستعداد لبعض التنازلات)[١].

وفي موضعٍ آخر يقول: (إن الشرط الأساسي لكل حوار، هو الاستعداد الدائم لدى الأطراف المتحاورة للتنازل عن جزءٍ من مطالب كل منهما، كي تتمكن، في النهاية من الالتقاء حول تسوية من نوعٍ ما. دون ذلك ينقلب الحوار إلى محاولةٍ لاستيعاب الطرف، أو الأطراف الأخرى عن طريق التبشير أو القسر)[٢].

٢ ـ د. رضوان السيد:

• ويقول رصيفه في رئاسة تحرير مجلة الاجتهاد البيروتية د. رضوان السيد:

---

(١) مجلة الاجتهاد (٣١، ٣٢/ ١٠ ـ ١١).

(٢) مجلة الاجتهاد (٣١، ٣٢/ ٧).

(نواجه نحن المسلمين في فكر فئات من شبابنا وسلوكهم انكماشاً وتوتراً، أطلق عليه الدارسون اسم «الأصولية الإسلامية». وهناك هذا الانكماش في المسيحية العربية الذي يتسم، مثل أصولياتنا، بالخوف على الهوية والعدوانية. وهذا الانكماش المتوتر ـ الذي يشكل الطرف الإسلامي فيه الجانب الأخطر في المدى البعيد ـ لا يعالج إلا بالانفتاح المشترك والمتبادل في الداخل، والانفتاح على الخارج العالمي المسيحي والكوني...

ما نحتاج إليه ليس التكنولوجيا وحسب كما يُظن، ذلك أن أصوليينا المسلمين والمسيحيين هم في مقدمة متقنيها ومستخدميها. بل ما نحتاج إليه جميعاً: الانخراط في العالم المعاصر، والتعلم منه في مجالات القيم الإنسانية الرحبة، ونمو الذات في الآخر، والتعرف عليها فيه، ومشاركة العالم في آفاقه تأثراً وتأثيراً)[1].

وفي مقدمة العددين (٣١، ٣٢)، وتحت عنوان: الحوار الإسلامي المسيحي، والعلاقات الإسلامية المسيحية، بقلم (التحرير) تُقرِّر نفس الفكرة: (لا سبيل للخروج من المأزق بالمعنى التاريخي إلا بالانخراط في هذا العالم توصلاً لإزالة انكماشنا الحضاري والثقافي، والمضي في التحول إلى جهات فاعلة في ثقافة العالم ومصائره)[2].

هذه نهاية المطاف في دعوة التقريب والحوار... تكشف عن تقريب باتجاهٍ واحد. إنه تقريب المسلمين إلى النصارى ليصبحوا ذيلاً لهم، منخرطين في ثقافتهم، مقتنعين أنه لا سبيل للخروج من مأزقهم إلا بتسليم قيادهم لهم. إننا أمام فكرٍ موحش غريب، فكرٍ لا يرعى إلّا

---

(١) مجلة الاجتهاد (٣١، ٣٢/ ٣٣).

(٢) مجلة الاجتهاد (٣١، ٣٢/ ٥).

ولا ذمة، ولا يتورع عن تحطيم الثوابت العقدية والحضارية للأمة الإسلامية، ويزفها أسيرة ذليلة لعلوج الروم.

لقد انطلق الكاتبان من حالة الدمار والضياع التي منيت بها الأمة العربية والإسلامية أمام الغرب المتنامي القوي، فأورثت حالة الهزيمة والإحباط هذه مزيداً من الارتماء في حضن المنتصر، وفراراً إليه. وفات الكاتبين أن التجارب التي خاضتها الأمة، سواءً على يد التيارات القومية واليسارية السائدة في الخمسينيات والستينيات، أو حركات الإسلام السياسي السائدة بعد ذلك، كانت تفتقر إلى النضج والترشيد، وتعتمد في كلا الحالين على الشعارات العاطفية، والبهرجة الإعلامية. دون رصيدٍ حقيقي من البناء الداخلي للأمة. هذا من حيث التشخيص.

أما من حيث العلاج فيبدو مشروع الكاتبين ضرباً في التيه، وقفزاً في العماء، عبر الحواجز التالية:

١ ـ الأخذ بثقافة الغرب، والانخراط في العالم!

٢ ـ تجاوز ثقافة الغرب، وتجاوز ثقافتنا الموروثة!

٣ ـ الوصول إلى ثقافة جديدة لعالمٍ جديد، يكون الإنسان محوره وهدفه ومبتغاه.

إنها مضامين مبهمة، لا تقل خطورة عن النماذج التي انتقدها من قبل. إنها مسخٌ للأمة، وتضييع تام لهويتها وعقيدتها، وإلقاءٌ بها إلى الضياع السرمدي. ويتساءل المرء ما هو موقع الإسلام في مشروع هؤلاء الليبراليين؟ وكيف يخصصون خمسة أعداد من مجلتهم لملف العلاقات الإسلامية النصرانية، والحوار الإسلامي النصراني، والإسلام ذاته خارج مجال رؤيتهمْ المستقبلية؟!

٣ ـ محمد أركون[١]:

ونختم بثالثة الأثافي، ليعلم المنخدعون بشعارات الحوار إلى أين يتجه بهم رواد الطريق من أصحاب الفكر العصراني، بهذه المقولة العجيبة للكاتب العقلاني المتحرر «محمد أركون»، تحت عنوان: «مطلبٌ يتقدم به مسلمٌ إلى المسيحيين»:

(يمكن للمسيحيين في مثل هذه الحالة، أن يقطعوا شوطاً في طريق الحوار. بأن يأخذوا على عاتقهم مستقبل الدين الإسلامي، فيخدموه بنفس العزيمة وكامل الالتزام، وقوة الاقتناع التي يخدمون بها الدين المسيحي. وهي أحسن طريقة حسب ما يبدو لنا لإعداد حوار مقبل. إذ من يعمل لتحرير غيره، يحرر بذلك نفسه)[٢].

وهو كلام يثير الاشمئزاز والغثيان، ولكنها النتيجة الحتمية للركون إلى أعداء الله وموالاتهم، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف]. إن هذه الفئة العصرانية تمثل خطراً مضاعفاً على المسلمين، لكونها تقدم نفسها للأمة باعتبارها إسلامية التوجه، وأنها تمارس الإصلاح والتجديد من الداخل، في الوقت الذي تنشر أفكار

---

(١) محمد أركون: ولد في «توريات ميموم» ـ الجزائر ـ عام ١٩٢٨م. درس في وهران، وفي باريس، دكتوراه في الآداب، أستاذ ملحق للغة العربية، ورئيس قسم العلوم الإنسانية في جامعات باريس. نشر من بين مؤلفات أخرى: «مقالة حول الفكر الإسلامي»، «الفكر العربي ط ١٩٧٥، ١٩٧٩»، الإسلام؛ الأمس والغد ط ١٩٨٢»، «الإسلام دين ومجتمع ط ١٩٨٢»، قراءات القرآن ط ١٩٨٢»، «في سبيل نقدٍ للعقل الإسلامي ط ١٩٨٤»، «الإسلام أخلاقياته وسياساته ط ١٩٨٦»، انظر: «العقيدة للأمام» (٢٩).

(٢) نقلاً عن: الإسلام والحوار. أفكار حول موضوع يشغل بال العصر الحديث. محمد الطالبي. وثائق عصرية في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين (٥٠). وانظر كتاب محمد أركون: العلمنة والدين. (٣٩ ـ ٤٠) ط دار الساقي.

التغريب، وشبهات المستشرقين، فلا عجب أن صارت محل رضا دعاة التقريب من النصارى وثنائهم، ومحط آمالهم، من بين فئات الأمة المختلفة. ونثبت أدناه وصفاً دقيقاً لهذه الفئة على لسان أحد كبار دعاة التقريب الكاثوليك، وهو الأب الفرنسي «موريس بورمانس»، حين أراد تصنيف المسلمين اليوم من زاوية موقفهم من الحوار الإسلامي النصراني، فقال:

(المسلمون العصريون ذوو الثقافتين: هناك كثير من المسلمين الذين حملتهم أسبابٌ سياسية واقتصادية أو تقنية أن يضيفوا إلى ثقافتهم الوطنية وعلمهم الإسلامي ثقافة أخرى تمكنوا منها «سواءٌ أكانت أوربية أم أمريكية، شرقية أم غربية»، ورأوا أن بإمكانهم تبني قيمها وأساليبها وتعابيرها، دون أن يؤدي ذلك إلى إنكار أصالتهم القومية أو الإسلامية، هؤلاء الآخذون بالعلمنة على غير تعصب، أو المتشددون فيها، أو الماركسيون، العقلانيون أحياناً، أو اللاأدريون، قد يظهرون بمظهر «المتجردين من الإسلام»، على كونهم لا يزالون يبدون «حساً إسلامياً» رهيفاً جداً. إنهم يؤيدون بقوة وجود حرية واسعة في مجال الاجتهاد، ويعززون المفهوم العصري لحقوق الرجل والمرأة، ويحملهم ذلك على تحويل الرسالة القرآنية إلى مبادئ عامة. وليس التراث الإسلامي عندهم بأكثر من عاداتٍ ينبغي تجديد تطبيقها، والتعبير عنها، تبعاً للعصور والظروف. وهم سواء أكانوا رجال دولةٍ أم مثقفين أم تقنيين، يرون أنفسهم مرغمين على المزاوجة بين القيم الموروثة، والقيم الحديثة، فيختارون هذه أو تلك بحسب خبرتهم الشخصية، والإيديولوجية القومية، وإمكانات شعبهم الحقيقية.

إنهم يعلمون أن لهم ضميراً عليهم مراعاته، ومجتمعاً عليهم تغييره، فيشعرون أكثر من الجميع شعوراً مأساوياً بالتفاوت الثقافي بين التعبير الموروث عن الإيمان وشعائر العبادة، ومتطلبات العالم

الحديث. وهم لا يحجمون عن إجراء بعض الفصل بين ما هو زمني وما هو روحي، ويتجرأون على القيام بإصلاحاتٍ كثيرة، حتى في شرع الأسرة، ولو سمحت لهم الظروف لتوجهوا بارتياح شطر التعددية المذهبية، والشخصانية الديموقراطية. وهذا يعني أنهم يفضلون الحكم على الإيمان، بالأعمال، وتقويم الدين بحسب القيم التي يعلّمها ويعرضها على المؤمنين من الجماهير الشعبية.

هؤلاء المسلمين «العصريون»، الآخذون بالنهج الإنساني على طريقتهم، مدعوّون أكثر من غيرهم إلى ملاقاة المسيحيين، وجميع الناس ذوي النية الصادقة على صعيد التزاماتهم الواحدة، حيال المجتمع الدنيوي في ما يتعلق بحقوق الأشخاص، وحرية الفكر والإيمان والتعبير، وتنظيم النسل، ودعم الأسرة، ومحاربة التخلف، والسعي إلى التقدم التقني... إنهم يشهدون على طريقتهم، بأن الإسلام هو أيضاً عمل وعطاء وبذلٌ للذات بلا كلال، كما هو إقامة مدنية أكثر عدالة، وأشد تضامناً)[١].

وقد نقلنا هذا النص بطوله، رغم ما فيه من لمزٍ وتخبيب، لدقة توصيفه منطلقات هؤلاء العصريين، وأساليبهم وطموحاتهم، ولا غرو فهم ربائبهم الذين في حجورهم، ويعرفونهم كما يعرفون أبناءهم. وربما انطبق كلام موريس بورمانس انطباقاً تاماً على طائفة ممن تقدم ذكرهم، وبقيت طوائف أخرى على مراحل متفاوتة من الطريق، ولكن خطرهم ـ جميعاً ـ بحسب مواقعهم يكمن في الخلط والتلبيس الناشئ من دعواهم تجديد الدين.

فإما أن تكون أخي بصدق ... فأعرف منك غثي من سميني
وإما فاطّرحني واتخذني ... عدواً أتقيك وتتقيني

(١) توجيهات في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين. (٣٨، ٣٩).

الفصل الرابع

بواعث الدعوة إلى التقريب بين الأديان

تضمن الحديث عن مفهوم التقريب لدى دعاته من سائر الأديان بعض الإشارات إلى الأهداف المعلنة، والبواعث الخفية المتصلة بدعوة التقريب. ذلك أن الوحدة الموضوعية لقضية ما تأبى فصل حقيقة الشيء عن هدفه وباعثه. إلا إننا نسعى في هذا الفصل إلى محاولة تحديد البواعث الحقيقية، والدوافع المحركة المستترة خلف الأهداف المعلنة من قبل أطراف التقارب.

ونظراً لوجود تمايزٍ في تلك البواعث فسنلجأ - أيضاً - إلى تقسيمها إلى عدة مباحث:

١ ـ المبحث الأول: بواعث التقريب لدى النصارى الغربيين.

٢ ـ المبحث الثاني: بواعث التقريب لدى النصارى العرب.

٣ ـ المبحث الثالث: بواعث التقريب لدى اليهود.

٤ ـ المبحث الرابع: بواعث التقريب لدى الإسلاميين العصرانيين.

المبحث الأول
بواعث التقريب لدى النصارى الغربيين

في مقام الحديث عن البواعث لا تظهر الحاجة إلى التمييز بين الكنيسة الكاثوليكية من جهة، والكنائس البروتستانتية والإنجليكانية، التي تمثل أغلبية مجلس الكنائس العالمي، والقسم النشط في الحركة المسكونية، من جهة أخرى، بخلاف الحال عند الحديث عن المفهوم والأساس اللاهوتي للتقارب والحوار، لاختلاف المنطلقات العقدية بين الجهتين.

والجامع المشترك المميز للكنائس الغربية عن الكنائس الشرقية، والعربية على وجه الخصوص، هو انتماؤها إلى مجتمعات ودول متقدمة ومتفوقة من حيث القوة المادية، والآلة العسكرية، وفن الإدارة والتخطيط، مما يؤثر تأثيراً عميقاً على توجهات الحوار، رغم ما تبذله أساليب الحنكة والدهاء الغربي من ممارساتٍ شكلية في سبيل الظهور بمظهر «المساواة»، و«تكافؤ الفرص» عند صياغة البيانات الختامية لمؤتمرات التقارب.

ويمكن أن نميز البواعث التالية الكامنة خلف دعوة التقريب في العصر الحديث لدى النصارى الغربيين:

١ ـ الباعث العالمي:

ونقصد به الوضع العالمي المتغير، الذي اتسم بالانفتاح بين أمم الأرض، واحتكاك الأديان والثقافات المتنوعة، وسيادة الأفكار العلمانية والتحررية العقلانية، التي وضعت الكنائس النصرانية التقليدية في وضعٍ

محرج، غير قادر على مواكبة التطورات الفلسفية والاجتماعية المتسارعة. ويتضح حجم هذا التحدي في انعكاساته على الكنيسة الكاثوليكية بالدرجة الأولى، بوصفها مؤسسة ذات تنظيم هرمي عريقٍ ودقيق، فقد ألجأها هذا الضغط العالمي إلى عقد المجمع الفاتيكاني الثاني.

يقول الأب غابي هاشم البولسي: (لم يعقد المجمع الفاتيكاني الثاني لمعالجة هرطقةٍ أو أمرٍ شديد الخطورة، وهو المجمع الذي واجهت الكنيسة فيه حقيقتها في العمق أكثر من أي مجمعٍ آخر...

شهد العالم في خلال قرنٍ واحد تغييرات عجزت عن تغييرها عشرات القرون السالفة، ولا سيما في مجالي العلم والتقنية. ولم يخف على أحدٍ ما خلفته هذه الثورة العلمية في نفوس الأشخاص على أكثر من صعيد، والتساؤلات التي طرحتها على أكثر من مستوى. فكان لا بد أن تخرج الكنيسة من عزلتها، وتستجيب لانتظار الكثيرين الذين راحوا يتطلعون إليها، علّها تمدهم بالحل الشافي)[1].

لقد كانت الكنيسة تضرب عزلةً على مخالفيها، وتصدر قرارات الحجب والحرمان على مناوئيها، وتمد ذراعها الطولى لقمع الملوك والأباطرة الأوروبيين في العصور الميلادية الوسطى، فإذا بها تجد نفسها في النصف الأول من القرن العشرين منكمشة معزولة مهجورة، بفعل الانفجارات الثقافية والاجتماعية التي عصفت بأوروبا، وجعلت الكنيسة وتعاليمها موضع السخرية والتندر.

(... هذا العالم طرح على الكنيسة قبل المجمع مجموعة من الأسئلة، أبت هي الاعتراف بها وإحاطتها بالأهمية، فوجدت نفسها أمام عالمٍ مختلف، وحقيقةٍ جديدة: لقد تطور العالم وفق أنظمة وقوانين

---

(١) من مقدمة المجمع الفاتيكاني الثاني (٩، ١٠).

تتخطى تخطياً قصياً إمكانات الكنيسة وتتفوق عليها، مما يعني خروجه من فلكها الذي دار فيه أثناء القرون الوسطى، حتى إنه استولى على المؤسسات التي انفردت طويلاً بحيازتها كالمستشفيات، ودور التعليم والتربية، وبيوت العجزة والمياتم...

استقل العالم من الكنيسة في جوٍ من التصادم والنفور، وذلك بتأثير الإلحاد وانعكاساته، فكان لا بد من خلق الحوار بينهما لإزالة التباعد، وإحلال التعاون البناء)[١].

لقد أرادت الكنيسة من خلال المجمع الفاتيكاني الثاني إعادة تأهيل نفسها للحفاظ على موقعها العالمي، ولو على حساب معتقداتها العتيدة البالية، التي كانت تعدها «وحياً» و«نصوصاً مقدسة». بل لقد اضطرت إلى تقديم الاعتذار عن بعض مواقفها التاريخية المشينة، ملصقةً التهمة بتصرفات بعض أعضائها، فقد جاء في الدستور الرابع من دساتير المجمع المعنون بـ «الكنيسة في عالم اليوم» ما نصه: (... فهي ـ أي الكنيسة ـ تعلم كل العلم أن صفوف أعضائها من إكليريكيين وعلمانيين، في سلسلة تاريخها الطويلة لا تخلو من أناسٍ كفروا بروح الله، وفي هذه الأيام أيضاً لا يفوت الكنيسة ما هنالك من بونٍ شاسع بين البشارة التي تحملها والضعف البشري الذي ينتاب من أوكل إليهم هذا الإنجيل. وأياً كان حكم التاريخ على هذه الهفوات فلا بد لنا من التنبه لها، ومن مقاومتها بشدة لئلا تكون عقبةً في طريق انتشار الإنجيل)[٢].

وقد تبدَّى رضوخ الكنيسة أمام ضغط المتغيرات العالمية في دستور عقدي أساسي، هو «الكنيسة»، ودستور راعوي، هو «الكنيسة في

(١) المرجع السابق (١٩٧).
(٢) الكنيسة في عالم اليوم. المرجع السابق (٢٤٩).

عالم اليوم»، وبيانين مجمعيين، هما: «الحرية الدينية» و«علاقة الكنيسة بالأديان غير المسيحية»، رفعت فيها الشعارات الإنسانية السائدة في تلك الحقبة، ولا تزال، من المناداة بحقوق الإنسان، والسلام العالمي، والحرية، والتعايش السلمي، والتعاون الدولي. وهي مصطلحات غريبة على القاموس الكنسي التاريخي.

لقد أرادت الكنيسة أن تجد لها موطئ قدم في كل بقعة من بقاع العالم المفتوح، الذي تحول بفعل وسائل الاتصال الآخذة في النمو ذلك الوقت، إلى «قرية كونية». وكان لا بد لتَقَبُّل الكنيسة، وتمكينها، أن تنسلخ من جلد القرون الوسطى، وتلبس حلة براقة تلائم أصول الضيافة والاستضافة في عالمٍ تسوده شعارات الحرية والعدالة وحقوق الإنسان.

ففي دستور (الكنيسة)، أول وأهم دساتير المجمع الفاتيكاني الثاني: (بيد أن تدبير الخلاص يشمل أيضاً أولئك الذين يؤمنون بالخالق، وأولهم المسلمون الذين يعلنون أنهم على إيمان إبراهيم، ويعبدون معنا الله الواحد، الرحمن الرحيم، الذي يدين الناس في اليوم الآخر)[١].

وفي ختام دستور «الكنيسة في عالم اليوم» يطلق المجمع هذا النداء:

(... إننا نتوجه بالفكر أيضاً إلى جميع الذين يعرفون الله، ويحافظون في تقاليدهم على عناصر دينية وإنسانية ثمينة، آملين أن يقودنا جميعاً حوار جلي إلى تقبل صريح لنداءات الروح وإلى تلبيتها في اندفاع)[٢].

---

(١) المجمع الفاتيكاني الثاني (٥٢).
(٢) المرجع السابق (٣١٣).

كما تمخض المجمع عن ولادة متعسرة لمشروع بيان «الحرية الدينية»، إذ (لم يسبق لمجمع مسكوني أن تطرق إلى شأن «الحرية»، أو سعى إلى إرساء الأسس العقدية للحرية الدينية. لكن هذه الوثيقة ارتدت في تاريخ المجمع الفاتيكاني الثاني أهمية بالغة، وأصبحت رمزاً لسبيل الحوار والانفتاح الشامل الذي انتهجه المجمع منذ افتتاحه، وتثبيتاً لدعائمه. فالحرية شرطٌ أساسي لكل حوار متوازن...)(١). وقد جاء في البيان:

(أصبح الناس، في عصرنا هذا، يعون أكثر فأكثر ما للشخص البشري من كرامة. وإنه ليزداد عدد الذين يطالبون بأن يتمتع الناس بحرية القرار والمسؤولية، وبأن يتمكنوا من العمل بهما، لا يحركهم عامل الإكراه بل ضمير الواجب...

يعلن هذا المجمع الفاتيكاني أن الحرية الدينية حق للشخص الإنساني، وهذه الحرية تقوم بأن يكون جميع الناس بمعزلٍ عن الضغط سواء أتى من الأفراد أو من الهيئات الاجتماعية، أو أتى من أي سلطةٍ بشرية، وهكذا ففي أمور الدين، لا يجوز لأحدٍ أن يكره على عمل يخالف ضميره، ولا أن يمنع من العمل في نطاق المعقول وفاقاً لضميره. سواء كان عمله في السر أو العلانية، وسواء كان فردياً أو جماعياً)(٢).

إن القوم يلبسون لكل زمانٍ لبوسه لتبقى لهم كراسيهم البابوية، وسلطاتهم الراعوية ـ كما يعبرون ـ، وإلا فأين هذا الكلام المنمق من ممارسات محاكم التفتيش الكاثوليكية، وما فعلته بالمسلمين في الأندلس، بل وما يفعلونه حالياً بضحايا الكوارث والحروب والمجاعات

---

(١) من مقدمة البيان للأب غابي هاشم البولسي. المجمع الفاتيكاني (٦٠٥).
(٢) بيان «الحرية الدينية» من المرج السابق (٦٠٨).

من أبناء المسلمين وغيرهم من الإكراه المنظم، والإلجاء «المهذب»، على اعتناق النصرانية، لدفع غائلة الفقر والمرض والموت. والمقصود أن لغة الكنيسة ـ بصرف النظر عن ممارستها ـ تحولت تحت الضغط العالمي ـ إلى ما يشبه لغة الإعلان العام لحقوق الإنسان الصادر من هيئة الأمم المتحدة.

وهكذا جاء بيان «علاقة الكنيسة بالأديان غير المسيحية» (نتيجةً حتمية لروح الانفتاح الشامل الذي نادى به المجمع)[١]. وفيه:

(والكنيسة الكاثوليكية لا تنبذ شيئاً مما هو في هذه الديانات حق ومقدس... ومن أجل ذلك تحرض أبناءها على الاعتراف بالقيم الروحية والأدبية والاجتماعية والثقافية التي توجد عند أتباع الديانات الأخرى، والمحافظة عليها وإنمائها، وذلك بطريق الحوار والتعاون معهم...

وتنظر الكنيسة أيضاً بتقدير إلى المسلمين الذين يعبدون الله الواحد الحي القيوم، الرحمان القدير، الذي خلق السماء والأرض، وكلم الناس. إنهم يسعون بكل نفوسهم إلى التسليم بأحكام الله وإن خفيت مقاصده، كما سلم لله إبراهيم الذي يفخر الدين الإسلامي بالانتساب إليه...

ولئن كان قد وقع في غضون الزمن، كثير من المنازعات والعداوات بين المسيحيين والمسلمين، فإن المجمع يحرضهم جميعاً على نسيان الماضي، والعمل باجتهاد صادق في سبيل التفاهم في ما بينهم، وأن يحموا ويعززوا كلهم معاً، من أجل جميع الناس، العدالة الاجتماعية، والقيم الروحية، والسلام والحرية)[٢].

---

(١) من مقدمة البيان للأب غابي هاشم البولسي. المجمع الفاتيكاني الثاني (٦٢٥).

(٢) المجمع الفاتيكاني الثاني (٦٢٨ ـ ٦٢٩).

وفي مقارنة بين هذا المجمع، والمجمع التريدنيتني (١٥٤٥ ـ ١٥٦٣) والمجمع الفاتيكاني الأول (١٨٦٩ ـ ١٨٧٠)، في هذه القضية بالذات يسجل المطران كيرلس سليم بسترس في تحليله لقرارات المجمع الفاتيكاني الثاني الملاحظة التالية:

(بالنسبة إلى علاقة الكنيسة بسائر المسيحيين وبالعالم، فقد وقف المجمعان السابقان وقفة حذر من الكنائس المسيحية الأخرى، ومن التيارات اللاهوتية والفكرية والثقافية المعاصرة. تميز موقع المجمع الفاتيكاني الثاني بانفتاح على مختلف الثقافات المعاصرة، وعلى تاريخ البشر بمجمله)[١].

ولم تكن الكنائس الغربية الأخرى بمعزلٍ عن التأثير العالمي السائد، بل ربما كانت أشد شعوراً بضرورة إيجاد صيغة توفيقية مناسبة، بحكم انخراط الكنائس البروتستانتية والانجليكانية في الحركة المسكونية الناشطة في التنصير في أماكن متعددة في العالم، وبين شعوبٍ ذات ديانات وتقاليد شتى. ولم يكن من قبيل الصدفة أن يتوافق الإعلان العالمي لحقوق الإنسان مع تأسيس مجلس الكنائس العالمي سنة ١٩٤٨م، حتى قال روبرت نلسون: (يستنتج فوراً قارئ إعلان ٤٨ أنها وثيقة بروتستانتية)[٢] إشارة إلى وحدة الأفكار والصيغ والتعابير بينهما.

وقد ظهر الأثر الناجم عن الانفتاح العالمي على البيانات المشتركة لمؤتمرات الحوار الإسلامي النصراني التي رعاها مجلس الكنائس العالمي؛ فقد جاء في أول لقاءٍ من نوعه عام ١٩٦٨م، عقد في كرتييني قرب جنيف، حيث مقر المجلس، أن من ضرورات الحوار: (الوضع الناجم عن اختلاط السكان، فهو يضطرهم إلى تلاقٍ

(١) من مقدمة «المجمع الفاتيكاني الثاني» (٢٢)
(٢) انظر: الحوار الإسلامي المسيحي: ضرورة المغامرة (١٥٨ ـ ١٦٠).

متنامٍ يزيد في مسؤوليات الديانتين لجهة الحياة المشتركة المثمرة)[١].

وفي ندوة «برمانا» في لبنان التي عقدت عام ١٩٧٢م برعاية المجلس جاء في دوافع اللقاء: (يمكن القول إننا اجتمعنا لأن ماضينا التاريخي، وأوضاعنا الحالية أسهما في عقد اللقاء في مناسبات عدة، وبمناطق مختلفة من العالم. إننا نعمل معاً في حقل التنمية على الصعيد الدولي والوطني، ونعيش معاً في التجمعات السكانية ذاتها، وفي العائلات ذاتها. فإن كنا في السابق قد تجابهنا في صراعاتٍ عدائية، ولم نكن أمناء تجاه مبادئنا حول الحرية الدينية، إلا أن شعورنا الحالي بالصلات المتداخلة في ما بيننا يدفعنا إلى السعي بإلحاح لإيجاد سبل جديدة للحوار)[٢]. وعند الحديث عن الجماعة العالمية يقول البيان: (المسلمون والمسيحيون مدعوون لتكوين نظرة أوسع عن الجماعة على صعيد التلاقي العنصري والثقافي والدولي. وهذا يجب أولاً أن يُجرَّب وأن يُنَفَّذ على الصعيد المحلي، حيث التعددية الدينية تشكل عالماً مصغراً يجسد التنوع العالمي. وإن جودة الانفتاح والتعاون في مثل هذه الحالات على الصعيد المحلي تشكل مساهمة حيوية لنشر التناغم الروحي والعدالة العالمية)[٣]. ويقول اللاهوتي الألماني هانس كونج: (لن يكون هناك سلامٌ بين الأمم ما لم يكن هناك سلامٌ بين الأديان، ولن يكون هناك سلام بين الأديان، ما لم يكن هناك حوار بين الأديان)[٤].

إن ضغط العالم المعاصر بشقيه، الفكري والاجتماعي، قد حفز الكنائس الغربية، المنتمية إلى دول العالم الأول، المتقدمة مادياً، إلى

---

(١) البيانات المسيحية الإسلامية المشتركة (٣٧).
(٢) البيانات المسيحية الإسلامية المشتركة (٤٧).
(٣) البيانات المسيحية الإسلامية المشتركة (٥٠).
(٤) عن مقدمة «الإسلام والمسيحية» (٨).

الأخذ بزمام المبادرة ومبادأة الطرف المقابل، ودعوته للحوار، كما هو الواقع في جميع ـ أو معظم ـ اللقاءات المعقودة، فيقوم الطرف النصراني بالتخطيط لها، وتحديد موادها، واختيار المشاركين من الطرف الإسلامي، ثم إدارة الحوار، ورسم برنامج العمل.

إنهم يفعلون ذلك استجابةً لروح العصر وقيمه السائدة، كما عبر عن ذلك الكاتب الروسي المعاصر «أليكسي جورافسكي» في كتابه المهم: «الإسلام والمسيحية» الصادر في ١٩٩٠م، حيث يقول: (إن عولمة الحياة الاجتماعية تدحض في واقع الأمر أي تصورات وهمية حول الثقافة «الخاصة» المضادة «لثقافة الآخرين». ففي عصرٍ تتعاظم فيه أكثر فأكثر التفاعلات الاقتصادية، والاجتماعية، والمعلوماتية بين الشعوب، فإن مسألة وحدة الإنسانية في تلاوينها المختلفة، وأشكالها المتعددة، وبكل خبراتها الثقافية ـ التاريخية، تتطلب ليس حلولاً نظرية فحسب، بل حلولاً عملية ـ واقعية أيضاً. والحضارة الكونية «العالمية» الناشئة في عصرنا الحاضر، والتي تتميز خصوصاً بالتعددية العقائدية «دينياً وسياسياً وفكرياً وفلسفياً. . . إلخ»، تضع الناس أمام حقيقة ساطعة، تتمثل في ضرورة البحث عن مؤسسات وهيئات جديدة، من أجل التقارب والاتفاق والتفاهم المتبادل. . . فالمجتمع البشري أصبح في هذا العصر «مسكناً واحداً»، ولهذا فإن الحوار، كما يعتقد الآن كثير من اللاهوتيين، وممثلي الجماعات الدينية المختلفة، أصبح ضرورياً للغاية، إضافة إلى أنه أكثر ملائمة وتوافقاً مع روح العصر، التي تتسم بالتسامح والتعايش بين الأديان)[1].

إن الباعث العالمي يحس به الجانب الأقوى ـ ولو مادياً فقط ـ

---

(١) الإسلام والمسيحية. أليكسي جورافسكي. ترجمة د. خلف محمد الجراد (٢٠ ـ ٢١).

لأنه يملك «خطة»، و«فريق عمل»، و«إمكانات ضخمة»، لبلوغ أهدافه واهتبال الفرص، بينما الجانب الضعيف غارقٌ في مشاكله العقدية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وتداعياتها المختلفة. ومن ثم يكون دوره في لقاءات الحوار ينحصر في «الحضور»، و«المجاملات»، ثم «التوقيع» على البيانات الختامية، وذلك آخر عهده بالأمر!لأنه لا يملك مشروعاً يفرض عليه إيجاد دراسات متنوعة، ورسم خطط، ومفاوضات متكافئة. أما الجانب القوي فإنه يواصل البحث والتحليل إثر كل لقاء ليرسم «استراتيجية» قادمة على ضوء المعطيات الجديدة. وهذا ما يفسر للمراقب كون المبادرة تأتي غالباً من الطرف النصراني الذي يعي طبيعة المرحلة، ويحاول كسبها إلى أقصى درجة ممكنة. وهكذا كان الحال حين كان الإسلام في أوج قوته العقدية في عهد النبوة، فقد كان الباعث العالمي الذي يخاطب الناس كافة ماثلاً لا يغيب؛ في دعوة ملوك الأرض، واستقبال وفودهم، وأخذ زمام المبادرة قبل غيره.

٢ ـ الباعث التنصيري:

لا ريب أن التنصير، أو «البشارة» كما يسمونه يحتل موقعاً مميزاً في الديانة النصرانية، ولطالما رددوا في مواعظهم وتعاليمهم عبارة ينسبونها إلى المسيح ﷺ بعد قيامته من موته إثر صلبه ـ كما يزعمون ـ: (اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس) متى (١٩/٢٨)[١].

ولقد بذل المنصرون جهوداً مضنية، وطوَّفوا الأرض ينشرون دينهم المحرف، وأنفقوا أموالاً طائلة لاجتذاب الناس وتعميدهم باسم الأب والابن والروح القدس. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن

---

(١) العهد الجديد (١١٩).

سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ [الأنفال].

ويرددون كلمة بولس في رسالته الأولى إلى أهل قورنتس: (إذا بشرتُ فليس في ذلك لي مفخرة. لأنها فريضة لا بد لي منها. والويل لي إن لم أبشر)[1] (٩/ ١٦)، فيقول البابا يوحنا بولس الثاني: (أشعر بشدة، بواجب تكرار نداء القديس بولس، باسم الكنيسة كلها. منذ بداية حبريتي، اخترت السفر إلى أقاصي الأرض لأظهر هذه الغيرة الرسولية، وبالتحديد بعد احتكاكي المباشر مع الشعوب التي تجهل المسيح، زادت لدي القناعة بالحاجة الماسة إلى النشاط الرسولي)[2].

إن مهمة التنصير لم تكن يوماً من الأيام مهمة ثانوية لدى النصارى، فضلاً عن أن تكون محل مساومة في سوق الحوار، أو مقايضة في مقابل الدعوة الإسلامية.

وحين تبنت الكنائس الغربية على تنوعها خيار الحوار والتقارب، قَفَّت شعور بعض المتحمسين منهم، واصفين الحوار بأنه خيانة للكنيسة ورسالتها التبشيرية، فطفق دهاتهم يطمئنونهم أن الحوار ما هو إلا «شهادة عصرية للمسيح»، تُنتحل تحت ظروفٍ معينة للقيام بواجب البشارة. وهكذا حين وسعت الكنيسة الكاثوليكية، وبعض الاتجاهات البروتستانتية مفهوم الخلاص، أعقبتها بالاحتراز الأكيد أن الخلاص الحقيقي لا يتم إلا بالإيمان بيسوع المخلص، وكان هذا واضحاً منذ البداية.

---

(١) العهد الجديد (٥٢٣ ـ ٥٢٤).

(٢) رسالة الفادي يوحنا بولس الثاني (٥)، وجدير بالذكر أن رحلات البابا يوحنا بولس الثاني تجاوزت مائتين وعشر رحلات في الدعوة إلى النصرانية، وتدعيم وجودها في مختلف أقطار العالم.
انظر هذا في مجلة المجلة عدد ٩٤٠ في ٢١/ ٢/ ١٩٩٨م تحت عنوان: «لماذا البابا في كوبا، وشيخ الأزهر ليس في الجزائر» لفهمي هويدي.

ففي البيان المجمعي: «الحرية الدينية» ورد ما يلي:

(المجمع المقدس يعلن أولاً أن الله نفسه بيّن للجنس البشري الطريق التي إذا سلكها الناس في خدمته تعالى، يتمكنون من الخلاص والسعادة في المسيح يسوع. ونحن نؤمن أن الديانة الحقيقية الوحيدة قائمةٌ في الكنيسة الكاثوليكية والرسولية التي وكل إليها السيد المسيح أمر نشرها بين جميع الناس، عندما قال للرسل: «فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم، وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس، وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به» (متى ٢٨: ١٩ ـ ٢٠). فعلى جميع الناس إذن أن يطلبوا الحقيقة، ولا سيما في ما يتعلق بالله وكنيسته، حتى إذا ما عرفوها اعتنقوها، وكانوا عليها محافظين)[١].

وفي الدستور الرعوي: «الكنيسة في عالم اليوم»:

(تبدو الكنيسة رمز هذه الأخوة التي تنتج الحوار الصادق وتشجعه، وذلك بفعل رسالتها التي تهدف إلى إنارة المسكونة كلها بنور البشارة الإنجيلية، وجمع جميع البشر في الروح الواحد، إلى أي أمةٍ وعرقٍ أو ثقافة انتموا)[٢].

وفي البيان المجمعي: «علاقة الكنيسة بالأديان غير المسيحية»:

(والكنيسة الكاثوليكية لا تنبذ شيئاً مما هو في هذه الديانات حقٌّ ومقدس... غير أنها تبشر، ويجب أن تبشر بلا انقطاع، بالمسيح الذي هو «الصراط والحقيقة والحياة» (يوحنا ١٤: ٦)، وفيه يجب على الناس أن يجدوا ملء الحياة الدينية، وبه صالح الله مع نفسه جميع الأشياء)[٣].

---

(١) المجمع الفاتيكاني الثاني (٦٠٧ ـ ٦٠٨).
(٢) المرجع السابق (٣١٢).
(٣) المجمع الفاتيكاني الثاني (٦٢٨).

هذه منزلة التبشير في كل مقام آنس بعض الناس فيه انفتاحاً من الكنيسة، وتغيراً في مواقفها. فالخلاص الممنوح للآخرين بنسبةٍ معينة لا يسقط هذه الفريضة عندهم، والحوار المفتوح مع الجميع لا يعفي منها. بل إن التنصير باعث أصيل من بواعث الدعوة إلى التقارب، ونحن لا نفشي بذلك سراً، أو نوجه تهمة، ولكنه اعتراف القوم بأنفسهم وفي بياناتهم ووثائقهم المعتمدة، وعلى لسان حبرهم الأعظم، بابا الكنيسة الكاثوليكية كما يتضح ذلك بجلاء من خلال النصوص التالية:

جاء في وثيقة «حوار وبشارة: تأملات وتوجيهات في شأن الحوار بين الأديان والتبشير بالإنجيل»، الصادرة عن المجلس البابوي للحوار بين الأديان عام ١٩٩١م ما يلي:

(إن المسيحيين وهم يعتمدون الحوار بروح منفتح مع أتباع التقاليد الدينية الأخرى، يستطيعون أن يحثوهم سلمياً على التفكير في محتوى معتقدهم)[(١)].

(نظراً إلى هذا الهدف، أي قيام الجميع بارتداد أعمق إلى الله يكون للحوار بين الأديان قيمته الخاصة. وفي أثناء هذا الارتداد، «قد يولد القرار بالتخلي عن موقفٍ روحي أو ديني سابق لاعتناق آخر» موقف الكنيسة ٣٧)[(٢)].

هذان النصان يدلان على أن خطاب المحاور النصراني مسكون بروح التبشير، وأنه لا ينفك عنه أبداً، وأن الحوار أسلوب محدث من أساليب التبشير، وليس مشروعاً مستقلاً يهدف إلى البحث عن الحقيقة، بل هو مشمول بالمشروع الأساسي والدائم للكنيسة، وهو التنصير. كما

---

(١) حوار وبشارة (٢٥).

(٢) حوار وبشارة (٣٠).

أنه في ظروفٍ معينة يمثل «أضعف الإيمان» حين لا يتمكن المنصرون من الجهر بالحقيقة كاملة. تقول الوثيقة آنفة الذكر:

(من البديهي إذن أن تكون الكنيسة لأسبابٍ سياسية أو غير سياسية في أوضاعٍ يستحيل فيها عملياً إعلان البشرى، فتقوم برسالتها التبشيرية ليس فقط بحضورها وشهادتها، بل بنشاطاتها، كالالتزام بالإنماء البشري وبالحوار نفسه، وأما في الأوضاع التي تتوافر فيها للناس الاستعدادات لسماع رسالة الإنجيل، والإمكانات للاستجابة لها، فينبغي للكنيسة أن تبادر إلى تطلعات هؤلاء الناس وتحقيق آمالهم)(١).

(جميع المسيحيين مدعوون شخصياً ليكونوا شركاء بهاتين الطريقتين لإتمام هذه الرسالة الوحيدة للكنيسة، أي إعلان البشرى والحوار. أما شكل مشاركتهم فيرتبط بالظروف، وبدرجة إعدادهم لها. ولكن عليهم أن يتذكروا بأن الحوار كما قيل في السابق لا يكوّن كل رسالة للكنيسة، وهو لا يستطيع أن يحل مكان إعلان البشرى، إلا أنه يبقى متجهاً نحو إعلانها)(٢).

وفي «رسالة الفادي» للبابا يوحنا بولس الثاني، الممهورة بختمه في السابع من ديسمبر عام ١٩٩٠م، وتحت عنوان: «الحوار مع الإخوة والأخوات من ديانات أخرى» يقول:

(إن الحوار بين الديانات يشكل جزءاً من رسالة الكنيسة التبشيرية... تريد الكنيسة من خلال الحوار أن تكتشف «بذور الكلمة»، وأشعة الحقيقة التي تنير الناس أجمعين)(٣).

لقد استفادت الكنيسة من منابر الحوار ومنتدياته في نشر

(١) حوار وبشارة (٦٤).
(٢) حوار وبشارة (٧٣).
(٣) رسالة الفادي (٨٦، ٨٨).

النصرانية، فلا عجب أن يتفاءل البابا في ختام رسالته السابقة قائلاً: (لم تحظ الكنيسة، بمناسبة، كما تحظى به اليوم، لإبلاغ الإنجيل بالشهادة والكلمة إلى البشر كافة، والشعوب قاطبة، وإنني أرى انبلاج فجرٍ لعصر رسالة جديد... وفي عشية الألف الثالث، الكنيسة كلها مدعوة إلى أن تعزز عيشها سر المسيح، بإسهامها بفعل النعمة في عمل الخلاص)(١).

أما مجلس الكنائس العالمي الذي تأسس أصلاً لتوحيد العمل التنصيري للكنائس غير الكاثوليكية في العالم، فقد حمل بذور الخلاف حول قضية «الحوار» والعلاقة مع الديانات غير المسيحية في بنيته الأساسية. وتقاذفت حركة المد والجزر فكرة الحوار في مؤتمراته المتعاقبة(٢). وحتى لدى أولئك الأكثر انفتاحاً وحماساً للحوار، أمثال القس ويسلي أريا راجا(٣)، فإن الحوار إطارٌ جديد للشهادة. وفي كتاب «توجيهات في الحوار» الصادر عن مجلس الكنائس العالمي جاء ما يلي:

(نحن لا نخال أن بين الحوار والشهادة تناقضاً. وما من شك أنه عندما يدخل المسيحي في الحوار، وهو ملتزم بيسوع المسيح، غالباً ما يكون الحوار مجالاً لشهادة حقيقية، لذا... يمكننا بكل صدق أن نحسب الحوار كإحدى الوسائل التي من خلالها تتم الشهادة ليسوع المسيح في أيامنا)(٤).

---

(١) رسالة الفادي (١٤٠).

(٢) انظر: مبحث مجلس الكنائس العالمي (٤٦٣).

(٣) انظر عرضاً لكتابه: (الكتاب المقدس، ومؤمنو الأديان الأخرىٰ) في مبحث حقيقة التقريب عند مجلس الكنائس العالمي، في الفصل الثالث من هذا الباب.

(٤) انظر الكتاب المقدس ومؤمنو الأديان الأخرى (٧٠).

وقد عقد المنصرون البروتستانت في أمريكا الشمالية مؤتمراً عالمياً لتنصير المسلمين في مدينة «جلين آيري» بولاية كولورادو في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٧٨م، وُصف بكونه (واحداً من هذه المؤتمرات القادرة على تغيير مجرى التاريخ. ويرجع السبب في نجاح هذا المؤتمر إلى أن الـ «١٥٠» مُؤتمِراً الذين وفدوا من شتى أنحاء المعمورة، والذين يمثلون العديد من الشعوب والتقاليد الكنسية المختلفة، والتجارب الواسعة، قد اجتمعوا على صعيدٍ واحد، يربطهم هدفٌ واحد، وهو البحث عن أنجع السبل لتنصير الـ «٧٢٠» مليون مسلم... فالعالم الإسلامي يمر اليوم بحالة من التمزق الاجتماعي والسياسي، ولذلك يوجد لدى المسلمين استعداد قلبي وعقلي لتقبل رسالة المسيح)[(١)].

ومن بين أربعين بحثاً قدمت في المؤتمر، كتب دانيل آر بروستر بحثاً بعنوان: (الحوار بين النصارى والمسلمين وصلته الوثيقة بالتنصير) ناقش فيه الأسلوب الذي استخدمه مجلس الكنائس العالمي في حوار المسلمين، وذكر تحفظاتهم على هذا الأسلوب، وتساؤلاتهم عما (إذا كان الحوار حسب ما استخدمه مجلس الكنائس العالمي قد تغير فعلاً، أو أن نظرتهم للمحاورة «كأسلوب مفيد للتنصير» في مؤتمر نيودلهي[(٢)] كانت ببساطة غير ملائمة من البداية)[(٣)]. وقد كشفت المقالة، وتعقيبات

---

(١) من تصدير كتاب «الإنجيل والإسلام» The Gospel and Islam المترجم للعربية بعنوان: التنصير: خطة لغزو العالم الإسلامي: ترجمة كتاب: الإنجيل والإسلام. إعداد: دون ماكري. نشر دار مارك MARC الطبعة الأولى ١٩٧٨م. وقد رد الله كيدهم في نحورهم، فبعد هذا المؤتمر الذي علقوا عليه الآمال العريضة، عمت الصحوة الإسلامية أرجاء العالم الإسلامي.

(٢) عقد عام ١٩٦١م، واعتبر الحوار وسيلة مفيدة للتنصير.

(٣) المرجع السابق (٧٧٠).

المشاركين في المؤتمر من المنصرين عن انقسام وتردد في جدوى أسلوب الحوار بغرض التنصير، مما حدا بالكاتب إلى تطبيق «مقياس إينكل»(١) على القضية، وخلص إلى القول: (استناداً إلى المقياس السابق، فسوف يتضح أن الحوار قد يكون مفيداً في جعل الناس يدركون مبادئ الكتاب المقدس الأساسية. وفي جعل الرجال والنساء يفهمون التضمينات الشخصية، وحتى في جعل الناس يدركون الحاجة الشخصية. ولكن بما أن مصطلح حوار يعني الأخذ والعطاء معاً، فهل يمكن أن يتم التحدي الحقيقي للشخص ليقبل المسيح في المحيط الذي نسميه الآن «الحوار»، أو أنه يجب أن يتم في محيطٍ يتبعه؟ هل يمكن أن يكون الحوار بديلاً عن الإعلان والدعوة المباشرة الصريحة، أو أن فائدته مقصورة على فترة «ما قبل التنصير»، أي أنه أداة لتحريك الناس ليكونوا أقرب إلى النقطة التي تكون فيها النصرانية هي الخيار الحقيقي... ومن جانب آخر إذا شعرنا بأن شكلاً ما من أشكال الحوار يمكن أن يكون مفيداً لكسب المسلمين فعندئذٍ يكون مهماً أن نبدأ الآن في تخطيط كيفية القيام بذلك)(٢).

هذه خبيئة نفوس النصارى تجاه مؤتمرات التقارب والحوار، أما مواقفهم المعلنة في البيانات الختامية فإنها تندرج في باب المجاملات أو المراوغات للوصول إلى أهدافٍ مبيتة.

وقد حكى الكاتب عن أحد المعقبين على طرحه، قوله: (إن أعضاء مجلس الكنائس العالمي غير ملتزمين بالتقيد بهذه البيانات. وأن الاشتراك في الحوار لا يعني على الإطلاق إيقاف المرامي التنصيرية)(٣).

---

(١) هو جملة من الأسئلة المجردة يستخلص من الإجابات عليها اتخاذ قرار ما، بحساب نقاطٍ إيجابية وأخرى سلبية، ثم حساب المحصلة النهائية.

(٢) المرجع السابق (٧٧٥ ـ ٥٧٧).

(٣) المرجع السابق (٧٨٣).

٣ ـ باعث الصد عن سبيل الله:

لقد راع الكنائس الغربية في العصر الحديث انفتاح شعوبها على الدين الإسلامي، واعتناق ألوفٍ منهم إياه، حين أتيح لهم بصورة أفضل من ذي قبل سماع كلمة الحق، والانعتاق من التشويه الكنسي لدين الإسلام عبر القرون، عقيدته، ونبيه، وكتابه، وتاريخه.

لقد مارست الكنائس النصرانية تأثيراً كبيراً على رعاياها في صرفهم عن النظر إلى دعوة الحق، واعتمدت أساليب منحطة قائمة على الكذب والتزوير في تنفير الفرد النصراني من لفظة «الإسلام»، و«محمد» ﷺ، ينشأ عليها الصغير، ويهرم عليها الكبير.

وحين انعتقت أوروبا من نير الكنيسة، وساد الفكر الإنساني، واتصلت الشعوب بعضها ببعض عبر قنواتٍ عدة، تحسس الناس حجم التضليل والتشويه الذي كان يقع عليهم، فمنهم من تحسنت صورة الإسلام لديه نسبياً، ومنهم من شرح الله صدره للإسلام(١).

لقد خطف بريق الإسلام أبصار الغربيين الذين اعتمدوا منهج التفكير المنطقي الموضوعي، فلم تعد تسيرهم التعاليم الكنسية العقيمة، وآلمهم الخواء الروحي، فلم تعد مواعظ الأحد تسد جوعتهم، وتروي ظمأهم، فصوبوا أنظارهم نحو النور الذي يلوح في الأفق الشرقي، وتنقشع أمام سناه سحب ضبابٍ تراكمت عبر القرون. فرأت مراكز القوى النصرانية أن الأسلوب القديم القائم على المجابهة والتشويه الإعلامي، والشحن النفسي، غير مجدٍ في «الصد» في عالمٍ ذابت فيه الحواجز والحدود، وبات كل شيءٍ قابلاً للنقاش. ويصف القس أريا

---

(١) تراجع في ذلك قصص المهتدين من الأوروبيين وغيرهم. مثل سلسلة رجال ونساء أسلموا. لعرفات كامل العشي. وحوارات مع مسلمين أوربيين لعبد الله أحمد قادر الأهدل.

راجا هذا الوضع الجديد بقوله: (تواجه الكنيسة اليوم واقعاً يتسم بالجدّة. ففي الماضي كانت العلاقات بالأديان الأخرى تساعد الكنيسة على إغناء ذاتها وتطوير إيمانها[١]...

أما اليوم فقد تبدلت الأوضاع تماماً، ومن المهم أن نشير إلى بعض خصائص هذه الحقبة من تاريخ البشرية:

أولاً: لقد تحررت الأديان الأخرى من وطأة الاستعمار، وهي تطرح نفسها اليوم كبديل عن الإيمان المسيحي له شموليته. ولقد حدث في تلك الأديان ما يشبه النهضة خلال السنوات الأخيرة[٢]، فظهرت فيه حيوية جديدة، واندفاع رسولي جديد...

ثانياً: لقد توغلت تلك الديانات إلى حدٍ بعيد، حتى في الغرب المسيحي، مما جعل من التعددية الدينية واقعاً في كل المجتمعات تقريباً. فعدد المسلمين في فرنسا يفوق عدد المسيحيين المصلَحين، ومسلمو بريطانيا أكثر من «الميتوديين»[٣] فيها. فالأديان الأخرى لم تعد متواجدة في البلدان البعيدة فقط. والأقليات التي تعيش بين الأديان الأخرى تجد نفسها مرغمةً على إعادة النظر في مواقفها من تلك الأديان، وعلاقاتها مع جيرانها...

---

(١) يريد أن الكنيسة كانت تعتمد على العلاقات العدائية مع الديانات الأخرى في تعزيز موقفها السياسي العقدي والاجتماعي. بينما أفرزت حالة الوفاق الدولي وشيوع الفكر الإنساني التصالحي نضوب هذا المصدر.

(٢) لم تشر الترجمة العربية للكتاب إلى تاريخ تأليفه، ويظهر من خلال التمهيد والمقدمة والإحالة على بعض المراجع المؤرخة إلى أنه ألف في أواسط الثمانينيات ١٩٨٥م تقريباً أما الطبعة العربية الأولىٰ ففي عام ١٩٩٥م.

(٣) الميتوديين أو الميتوديست: فرقة متفرعة عن الكنيسة الإنكليكانية، ظهرت في النصف الأول من القرن الثامن عشر، على يد جون فيسلي ت ١٧٩١م في أكسفورد، بغرض الإصلاح في حياة الكنيسة دون المساس بعقائدها الإيمانية، بإدخال مبادئ تَقَوية صارمة جداً من التعبد والتكلف في الزهد. وظلت تنتشر في عموم بريطانيا وشمال أمريكا. انظر: تاريخ الكنيسة المسيحية (٦٦٠).

ثالثاً: وربما كان هذا هو الأهم، هنالك وعي متزايد لغنى الأديان الأخرى... كان المسلمون في الماضي يحسبون منافسين، أما اليوم فنشهد اهتماماً متزايداً في مفهوم الإسلام للجماعة وللصلاة... وبعبارة أخرى، فإنه لا العدائية اللاهوتية، ولا اللامبالاة تجاه الأديان الأخرى مسموح بهما بعد اليوم. فالطرق التي انتهجها المسيحيون قديماً في تعاملهم مع الأديان الأخرى لم تعد تكفي)[(١)].

إنه وصف دقيق، وتحليل بارع للوضع الذي آلت إليه النصرانية في مقابل الإسلام. لقد انتهى عصر الوصاية على العقول، والحجر على التفكير. والنصرانية المهلهلة لا تملك أن تصمد أمام زحف الإسلام الكاسح، وعقيدته المتينة الموافقة للعقل والفطرة. ومن ثم فقد تفتقت عقول القوم عن فكرة التقريب والحوار بين الأديان للظهور أمام مواطنيهم ورعاياهم بمظهر التآلف لا الندية، والوفاق لا المجابهة، والحوار لا القطيعة. وبذلك يطفئون نار التشوق والترقب التي تضطرم في قلوب رعاياهم بحثاً عن الأمل المنشود، والأمن المفقود، حين يرون ما يأملون يعانق ما يألمون، ويسمعون عبارات المداهنة والاعتراف تصدر مِمن كانوا يظنونهم رسل هدى، وحملة حقيقة.

وقد عبر الدكتور علي بن نفيع العلياني عن هذا الباعث الخفي بقوله: (الدعوة إلى زمالة الأديان في هذا العصر دعوة خبيثة تظهر أحياناً بهذا الاسم، وأحياناً باسم التقريب بين الأديان، وأحياناً باسم جمعيات الصداقة بين الأديان ونحو هذه المسميات. وجوهرها وهدفها في الحقيقة هو أن يكسب اليهود والنصارى في هذا العصر اعترافاً من المسلمين بصحة دينهم. وهذا له دورٌ كبير في صد النصارى واليهود عن الدخول في الإسلام. وذلك لأن كثيراً من النصارى وبعض اليهود

---

(١) الكتاب المقدس ومؤمنو الأديان الأخرى (٨١ ـ ٨٢).

متعطشون إلى دينٍ شامل كامل كالإسلام. وقد سئموا مما يسمى عندهم بالمسيحية أو اليهودية التي هي من صنع الأحبار والرهبان، وليستا الدين الصحيح الذي أنزله الله على موسى وعيسى عليهما السلام. فإذا سمع هؤلاء تلك الشنشنة التي تصدر من أشخاصٍ يطلق عليهم ألقابٌ علمية ودينية كبيرة، المتضمنة لاعترافهم بالدين النصراني والدين اليهودي المحرفين، وسمعوا حرص أولئك العلماء الأكابر إلى مد أيديهم إلى دين النصارى واليهود، والبحث عن مزاملته بأي ثمن، ومحاولة تقريبه من الإسلام، خاب ظنهم وقالوا: لماذا ننتقل إلى الإسلام وهو كديننا الذي نشعر فيه بالتعاسة، بل إن ديننا أفضل منه بدلالة حرص أصحابه على تقريبنا إليهم ليكسبوا بذلك شرفاً وعزاً)[١].

ومن أعظم الصد عن سبيل الله، وأشنع صوره التي تقشعر منها الأبدان، ويفتن بها فئام من الناس عن الإيمان، ما استحدثه دعاة التقريب من عبّاد الصلبان، واستزلوا به بعض المنتسبين إلى الإسلام، من «الصلاة المشتركة» والعياذ بالله، التي دعا إليها البابا يوحنا بولس الثاني في ٢٧/ ١٠/ ١٩٨٦م في بلدة أسيزي الإيطالية، وقدم نفسه للعالم بوصفه القائد الروحي للأديان جميعاً، وأنه حامل رسالة السلام للبشر، ولبى الدعوة عددٌ من المسلمين[٢].

فيا له من موقف خزي وعار، ومسبة وشنار، أن يصطف أهل «لا إله إلا الله» خاضعين ذليلين يؤمهم كبير أهل التثليث ويدعو بهم.

---

(١) أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية والرد على الطوائف الضالة فيه (٤٤٩).

(٢) انظر سلسلة تقارير المعلومات الصادرة عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت. رقم (١٥/ ٨٧) في ٥/ ٨/ ١٩٨٧م. وانظر الباب الثاني فصل المحاولات الجماعية «جمعية سانت إيجديو» في بيان اللقاءات المتابعة لهذه الصلاة المزعومة، وموضوعات تلك الملتقيات.

ويا لها من فتنة عظيمة لكل من حدّثته نفسه باعتناق الإسلام، وهو يرى ممثليه ـ حسب علمه ـ ينضوون تحت عباءة البابا، وفي ظل صليبه.

وهذا التأثير السيء في الصد عن سبيل الله، يحصل بمجرد اللقاء ومراسم الاستقبال والوداع، وما يصاحب ذلك من تغطية إعلامية موجهة.

أما ما يحصل من صدٍ عن سبيل الله فيما يعلن في البيانات الختامية، وبحوث المؤتمرات فأعم وأطم.

٤ ـ الباعث السياسي:

لقد ولدت دعوة التقريب في العصر الحديث، وولدت معها تهمة الباعث السياسي، وذلك حينما دعت جمعية الأصدقاء الأميركان للشرق الأوسط في بادرة هي الأولى من نوعها، في العصر الحديث، إلى لقاء بين المسلمين والنصارى، فانعقد المؤتمر الإسلامي المسيحي في «بحمدون» في لبنان عام ١٩٥٤م تحت شعار «القيم الروحية للديانتين المسيحية والإسلامية». وقد كان العالم في تلك الفترة يشهد مداً شيوعياً، وكانت منطقة الشرق الأوسط العربية الإسلامية ساحة خالية أمام ذلك المد، ساعد ذلك مساندة العالم الغربي الرأسمالي، وعلى رأسه الولايات المتحدة الأميركية، لقيام دولة إسرائيل وحمايتها، من جهة، ومن جهة أخرى غياب الإسلام الصحيح عن الساحة، فسرعان ما صوبت أصابع الاتهام إلى النوايا السياسية المبيتة لتلك الجمعية، وافتضح أمرها، بل كان بعض أقطابها يصرحون بذلك الباعث السياسي، كما قال أحدهم حينذاك: (إن العالم الحر اليوم، أكثر من أي زمنٍ آخر، يحسب الحساب للتطورات العالمية، وازدياد خطر الشيوعية، وإن الولايات المتحدة الأمريكية تنظر بعين القلق إلى

التطورات والأحداث الجارية في الشرق الأوسط، وترى من واجبها أن تقوم بكل ما في وسعها، كقائدة للدول الخارجة عن الستار الحديدي الشيوعي، للقضاء على الشيوعية التي أخذت تتفشى في الشرق الأوسط خصوصاً، بشكل مريع.

وإن أمثال هذا المؤتمر هي من الضرورة بمكان لتوطيد العلاقات بين دول الشرق الأوسط والولايات المتحدة، وللحؤول دون نجاح الحركات الشيوعية في هذه البقعة الحساسة من العالم التي يعتبرها العالم الحر قطعة يجب أنه تظل في جوٍ مليء بالاستقرار)[١].

وقد تناولته مختلف الاتجاهات في المنطقة من قومية، ويسارية، وإسلامية بالنقد والاتهام[٢]. وصار هذا الهاجس مصاحباً لأمثاله من المؤتمرات اللاحقة، حيث تفسر تفسيراً سياسياً بحتاً.

والحق أن «الباعث السياسي» هو أحد البواعث الكامنة خلف عملية التقريب. وتتفاوت حصته قلةً وكثرة بحسب الظروف المحلية، والأحداث العالمية المصاحبة أو السابقة لعقد مؤتمر ما. ومقتضى العدل والإنصاف أن نوافق الكاتب الروسي «أليكسي جورافسكي» إذ يقول: (في عدد من المؤلفات في «ميدان علم الأديان» غير المكرسة لإشكالية الحوار الديني، نجد أن هذه المسألة تناقش كظاهرة سياسية وحسب، مثل الدعوة إلى إقامة جبهة المؤمنين في العالم ضد الوثنيين والملاحدة. صحيح أن الدوافع السياسية... الأيديولوجية من المحركات المهمة لهذه الظاهرة، ولكن أن يعزى إليها مضمون الحوار

(١) انظر: هرطقات فِريّسية... تأليف د. جورج حنا عام ١٩٥٤م، وقد نقل النص السابق عن مقابلة مع مدير الأبحاث والنشر في جمعية الأصدقاء الأمريكان للشرق الأوسط مع مجلة الإصلاح عدد (٢٤) نيسان ١٩٥٤م.

(٢) المرجع السابق. حيث ساق تصريحات مناهضة للمؤتمر من قبل زعامات دينية واجتماعية.

كله فهذا يظل أمراً غير موضوعي، ولا يكشف الحقائق كاملة)[١].

والكنائس الغربية لا تألو جهداً في استثمار لقاءات التقارب لتحقيق بعض المكاسب السياسية المتعلقة بالأقليات النصرانية في البلاد الإسلامية، وقضايا «الحريات الدينية»، ومفهوم «الدين والدولة» ونحوها. ويراد من ورائها تعزيز النفوذ السياسي والاجتماعي لتلك الأقليات، وتمكينها من بناء المزيد من الكنائس والمؤسسات الخاصة. ومهاجمة «حد الردة»، وحرية تغيير الدين، ومشروع الدولة الإسلامية[٢].

وفي الوقت نفسه تتم عمليات الإبادة والتطهير العرقي، والتهجير الجماعي، والإلجاء إلى اعتناق النصرانية، في مواقع متعددة من العالم، وتكتفي البيانات بعبارات عامة تعرب عن أسفٍ مطلق لما يجري هنا أو هناك.

---

(١) الإسلام والمسيحية (١٧).

(٢) انظر: البيانات المسيحية الإسلامية: جمع جوليت حداد:
حول الحرية الدينية: (٢/١٣)، (٧/١٣، ١٤)، (٨/١٥، ١٩)، (٩/٤)، (١/٦، ٨، ١٣، ١٨، ٢٥، ٢٦، ٢٨)، (١٣/١٨، ٢٢)، (١٤/٢ ـ ٥، ٨)، (١٥/٥، ٧)، (١٨/١٦، ١٩)، (٢١/٢٤، ٢٦، ٢٧)، (٢٤/٨)، (٢٥/٩)، (٢٧/٨، ٩، ١١)، (٢٨/٦).
وحول الردة عن الدين: (٥/٥)، (٧/١٣، ٣٠)، (٨/١٥، ١٦، ١٨)، (١١/٨، ١٩، ٢٢)، (١٣/٢٧)، (١٤/٦)، (١٥/٥، ٢٠، ٢٤)، (١٦/٢)، (١٨/٧، ٨)، (٢١/٢، ٢١)، (٢٦/١٣)، (٢٨/٦).
حول الأقليات الدينية: (٥/٥)، (٧/١٣، ١٦)، (٨/٦، ١٢)، (١٠/٢١)، (١١/٥)، (١٥/٢٦)، (١٢/١)، (١٣/١٨)، (١٤/٢، ٤)، (١٥/٨، ١٠، ١٤، ٢١)، (٢١/٢، ٧، ٢٢ ـ ٢٨)، (٢٤/٨)، (٢٦/٣، ٣١)، (٢٧/٩).

المبحث الثاني

بواعث التقريب لدى النصارى العرب

لم تبد الكنائس الشرقية على وجه العموم، والعربية منها على وجه الخصوص حماساً أو مبادرة في الدعوة إلى التقريب والحوار مع الإسلام إلا في السنوات الأخيرة التي أعقبت الحرب الأهلية اللبنانية، أي بعد المبادرات الغربية بحوالي أربعين سنة، من مؤتمر «بحمدون» المنعقد عام ١٩٥٤م. كما أنها نأت عن الحوار العقدي، واتجهت نحو حوار التعايش.

والقدر الذي عني بالجوانب العقدية كان مبادراتٍ شخصية شاذة، لا تمثل توجهاً عاماً، كتلك التي صدرت من الأب يوسف درة الحداد، واكتست ثوباً من التزييف والإفك الذي يبعد الآخر ولا يقربه، ولا يهدف فعلاً إلى إقامة الحوار بل إلى إلغائه[١].

ويتساءل الدكتور محمد الشاهد عن تفسير هذه الظاهرة ويجيب: (لماذا تأتي الدعوة إلى الحوار من جانب الكنائس والمؤسسات الدينية النصرانية التي تعيش في أوروبا، بينما لا نجد حماساً شديداً في الدعوة إلى مثل هذا الحوار من جانب الكنائس الشرقية، التي كان ينتظر أن تكون أكثر اهتماماً بالحوار مع المسلمين الذين يحيطون بهم من كل جانب، ويشكلون الأغلبية الساحقة في المجتمعات التي يعيشون فيها؟

لعل السبب في هذه الظاهرة أن الكنائس الشرقية أعلم من غيرها

(١) انظر: حقيقة التقريب لدى النصارى العرب. مبحث (الجدليين من النصارى العرب).

بأحوال المسلمين، وبتمسكهم بعقيدتهم الإسلامية، وعدم جدوى هذه الوسيلة لتنصيرهم. وإن كان لهذا التفسير ما يبرره، إلا أن هناك تفسيراً آخر لعله أقوى وأقرب إلى الصحة، وهو أن الكنائس التي تعيش بين المسلمين، ويتكلم تابعوها العربية التي هي لغتهم الأم، يقرأون مؤلفات المسلمين، ويعرفون حججهم القوية في الدفاع عن دينهم الإسلامي، الحجج المثبتة لصحة الدين الإسلامي، وكذلك الحجج المثبتة لتحريف الأناجيل التي بني دينهم عليها، هذا من شأنه أن يجعل نتيجة الحوار في غير صالحهم، ولعلها تؤدي إلى عكس ما ينتظرونه. ولعل وجود النصارى في المجتمع الإسلامي، كأقلية ضعيفة الشأن في مقابل أغلبية ساحقة من المسلمين لا يكون مناسباً، أو مساعداً على ظهورهم بمظهر الواثق من نفسه، ومن قوة حجته، هذا على عكس الكنائس الغربية التي تدعو إلى الحوار على أرضها، حيث تكون الأغلبية الساحقة لأتباعهم، ولا تشكل المجموعة الإسلامية سوى أقلية ضعيفة الشأن. وثمة سبب آخر يمكن أن يكون تفسيراً لعدم حماس الكنائس الشرقية للدعوة إلى الحوار مع المسلمين، وهو تخوفهم من احتمال أن يسبب دفاعهم عن عقيدتهم، وإبداء حججهم، إثارة فتنة طائفية في المجتمع الذي يعيشون فيه، تكون نتيجتها في غير صالحهم، وغير صالح المجتمع ككل. تلك احتمالات واجتهادات لعل فيها أو في بعضها يكمن شيءٌ من الحقيقة)[1] وخلاصتها كما يلي:

١ ـ إدراك الكنائس الشرقية لتمسك المسلمين بعقيدتهم.

٢ ـ إدراكهم واطلاعهم على قوة الحجة الإسلامية، لمعرفتهم باللغة العربية.

---

(١) التوحيد والنبوة والقرآن في حوار المسيحية والإسلام: د. محمد الشاهد. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع. بيروت ـ لبنان. الطبعة الأولى (١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م). (٦).

٣ ـ عقدة «الأقلية» المنتجة للشعور بالضعف، وعدم التكافؤ.

٤ ـ الخوف من عواقب الحوار، كإثارة الطائفية.

ونضيف سبباً خامساً مهماً يفسر تأخر النصارى العرب عن ركب الحوار والتقارب وهو انخراطهم في الاتجاهات القومية والوطنية التي كانت مزدهرة في الفترة الماضية(١).

١ ـ الباعث القومي والوطني:

وهو مركب امتطاه النصارىٰ العرب بغرض إقصاء فكرة «الجامعة الإسلامية» و«الحكومة الدينية»، والاستعاضة عنها بـ«الرابطة القومية» أو «الوطنية»، وإقامة «الحكومة المدنية العلمانية»، حيث يتساوىٰ جميع أفراد المجتمع على أساس «القومية» و«الوطنية». فلأجل هذا جرت أقلام كثير من كتابهم وأدبائهم بهذه الدعوات الجاهلية، والتقليل من شأن الفروق الدينية، ولو أدىٰ ذلك إلىٰ التحلل من سمت الأديان، ونقض عرىٰ الإيمان. ومن شواهد ذلك لدىٰ أدبائهم:

* قال الشاعر القروي، رشيد سليم الخوري(٢)، بمناسبة عيد الفطر:

هبوا ليَ عيداً يجعل العرب أمةً ... وسيروا بجثماني على دين برهم
فقد مزقت هذي المذاهب شملنا ... وقد حطمتنا بين ناب ومنسم
سلام على كفر يوحد بيننا ... وأهلاً وسهلاً بعده بجهنم

---

(١) انظر: مبحث «النصارى العرب» من هذا البحث (٥٠٠).

(٢) رشيد سليم الخوري (١٣٠٥ ـ ١٤٠٤هـ): أديب وشاعر مهجري. ولد في قرية البربارة بلبنان، وهاجر إلىٰ البرازيل. لقب بشاعر القومية العربية، كما لقب في البرازيل بشاعر الجبل، ثم اشتهر بلقب الشاعر القروي. من آثاره: ديوان شعر يحمل لقبه، الأعاصير، أدب اللامبالاة: أدب الشماتة والعقوق. انظر: تتمة الأعلام (١/١٧٩).

* وقال إسكندر الخوري[1]:

قبل المسيح وأحمد كنا وما زلنا عرب
كانت وما زالت لنا أوطاننا أماً وأب
لا دين يجمعنا سوىٰ دين لمجد والنسب

* وقال حليم دموس[2]:

لك دين وله دين ولي آخر والكل دين محترم
فاحسبوا أدياننا واحدة واجعلوا قبلتكم هذا العلم

* وقال ميشال المغربي[3]:

صنو المسيحية الإسلام في نظري كلاهما مُوجِدُ الأديان مُوجِدُه
فكيف أولِّيه ظهري حين أبصره أخٌ لِي دربُه مثلي ومصعدُه
ماذا يضيرك ما كانت عقيدته ما زال يعبد رباً أنت تعبدُه

---

(١) إسكندر الخوري (١٣٠٧ ـ ١٣٩٣هـ): إسكندر ابن الخوري جريس يعقوب، البيتجالي، أديب، كاهن أرثوذكسي، فلسطيني من بيت جالا. تتلمذ على الشيخ عبد الله البستاني وشغف بالأدب. من آثاره: «الزفرات»، «دقات قلب»، «مشاهد الحياة». انظر: الأعلام (١/ ٣٠٣).

(٢) حليم دَمُّوس (١٣٠٥ ـ ١٣٧٧هـ): حليم بن إبراهيم بن جرجس دموس، من طائفة الروم الأرثوذكس، متأدب، له نظم كثير، في بعضه إجادة. ولد ونشأ في «زحلة» بلبنان، وسافر إلى البرازيل وعاد إلى بلده، ثم دمشق، وتوفي في بيروت. له ديوان باسمه و«المثالث والمثاني» و«يقظة الروح». انظر: الأعلام (٢/ ٢٧٠).

(٣) ميشال المغربي (١٣١٩ ـ ١٣٩٧هـ) (١٩٠١ ـ ١٩٧٧م): ولد في الإسكندرية من عائلة سورية، ثم عاد إلى حمص سنة ١٩١١م. هاجر إلىٰ «تشيلي» عام ١٩٢٣م، ثم البرازيل للتجارة فربح وأثرىٰ. كان شغوفاً بالأدب والشعر، فنظم قصائده في المهجر. ذو نزعة وطنية. عاد إلىٰ وطنه سوريا عام ١٩٥٦م بعد غيبة ٣٣ سنة. وهو من أواخر شعراء المهجر. له ديوان «أمواج وصخور». انظر: تتمة الأعلام (٢/ ١٩٥).

وكان ينطق ضاداً أنت تنطقها   وما تردد من شعر يردده[١]

٢ ـ الباعث الأمني:

يعيش نصارى العرب حالة من الخوف والقلق من المستقبل. ويرى بعضهم أن النصرانية المشرقية في طريقها إلى الاندثار والاضمحلال والذوبان، في خضم البحر المتلاطم من الكثافة السكانية الإسلامية المتنامية. وقد غذّى هذا الشعور في الربع الأخير من القرن العشرين الميلادي وقائع الحرب الأهلية اللبنانية (١٩٧٥ ـ ١٩٩٠)، وتداعياتها السياسية والاجتماعية، التي زلزلت عرش الاستقرار والنفوذ النصراني في معقله في لبنان. كما يغذيه أيضاً «نذير الشؤم» الذي تقرعه أجراس الكنائس الغربية، وينعق به متعصبوها. فقد كتب أحد الدبلوماسيين الفرنسيين المتعصبين: جان بيار فالونيه كتاباً في قرابة ألف صفحة تنضح بالحقد على الإسلام والمسلمين، ينعى فيه الوجود النصراني في المشرق، وسماه: «حياة مسيحيي المشرق وموتهم من البدايات حتى أيامنا» باريس ١٩٩٤م.

ولحداثة الكتاب، واحتفاء بعض نصارى العرب به، نقتطع بعض عبارات التأبين التي تلاها الكاتب الفرنسي على «جثمان» النصرانية المشرقية، لما تنشره من هلع وحذر في نفوس النصارى العرب فتزيد حيرتهم في البحث عن مخرج:

(... إن مسيحيي المشرق هم في صدد الاندثار...

■ هل إن الاستئصال النهائي للمسيحيين سيتخذ شكل مأساة مكمّلة؟ كثيرة السوابق الأليمة التي تمنعنا من استبعاد ذلك. بالرغم من هذا، إن ما هو أقرب إلى الاحتمال أنها ستندثر دون ضجيج، بنزيفٍ مستور وقاسٍ...

---

(١) انظر في هذه الاختيارات: محمد عمارة في ميزان أهل السنّة والجماعة. سليمان الخراشي (٣٦٠ ـ ٣٦٢).

■ إن العودة بالقوة لإسلامٍ متعصب، يعيد إلى الواجهة في المجتمعات الشرق أوسطية معاييرَ التفريق الطائفية، وكل ألوان التمييز التي تتضمنها...

■ عندما تصبح القوى الديموغرافية غير مواتية إلى هذا الحد، بأي شكلٍ يمكن التصدي لفريق الأغلبية المطلقة الذي يود أن تكون هويته هوية البلاد بأجمعها؟ أليس من الفطنة بالأحرى أن يتوقف المسيحي عن التزامه كمسيحي، ويتقيد بالخط العربي الإسلامي المهيمن؟ هكذا عدة آلافٍ من الأقباط ينتقلون بهدوءٍ كل سنةٍ إلى الإسلام، بينما أكثرية من المسيحيين السوريين أو الفلسطينيين ينادون بإصرار مؤثر بالقومية العربية...

■ إن تدهور المسيحيين الشرقيين يبين عجز المجتمع المسلم في احتواء ما لا يماثله...

■ كيف لا نتساءل عن الأسس الدينية التي حددت، منذ أكثر من ألف سنة، الأنظمة الاجتماعية والسياسية للشرق العربي؟ لهي أنظمة ستكون عما قريب إزاء التطور الجاري في سائر أنحاء العالم، الأكثر تخلفاً، والأكثر جموداً على سطح الكرة الأرضية. لأن آسيا وأمريكا اللاتينية وحتى أفريقيا باشرت تحولاً عميقاً. عما قريب، وحده العالم الإسلامي سيظل مغلقاً أذنيه عن روح العصر، ووحدها الدول العربية وإيران ستبقى المربَّع الأخير للدكتاتوريات...

■ إن الجهاد يمارس أيضاً في أرض الإسلام ملحقاً الأذى بالشعوب اللاإسلامية. بعض هذه الشعوب التى لا ترتبط بالتقليد الإبراهيمي، لا تجد بديلاً سوى الارتداد أو الموت. أما الآخرون، المسيحيون، واليهود، فيجدون أنفسهم في منتصف الطريق بين الإيمان والكفر، وعليهم من هذا المنطلق، أن يصانوا بسبب مشاركتهم في الحقيقة، وأن يعاقبوا بسبب مشاركتهم في الضلال. من هنا الجهاد

الداخلي الذي يجب فيه على المسلمين أن يقيموا، وأن يجددوا عند الاقتضاء قانون الخضوع للأقليات غير المسلمة. لقد عرف هذا القانون تحت اسم «الذمة» والكلمتان اللتان تحكمانه هما: الانفصال والإذلال. انفصال، لأنه ينبغي أن يصان المؤمنون من عدوى الضلال. إذلال، لأن الضلال يجب أن يفضح بشكلٍ بارز كي يحث على الارتداد، ويشهد انتصار الحقيقة...[(١)].

■ غروب الحضارة العربية الإسلامية سار في خطٍ متواز مع خنق المجتمع المسيحي، عندما رفض العالم الإسلامي إعطاء المسيحيين مكانهم الصحيح، قضى على نفسه بالعقم والذبول...

■ في الحقيقة، إن دستور الدول الذي اقتبس من النماذج السياسية الغربية، حمل إلى المسيحيين قدراً ضئيلاً من المساواة، إذ لم يعد وضع الأفراد والجماعات محدداً رسمياً وفقاً لاعتباراتٍ دينية. بيد أن ما كسبوه كمواطنين، خسروه كأقليات إثنية[(٢)] وثقافية...

---

(١) في قلب العالم الحر خارج مربع الدكتاتوريات، كما يصفه هذا الفرنسي، وفي مدينة «جلين آيري» بولاية كولورادو الأمريكية، وفي عام ١٩٧٨م وليس في العصور الوسطى يشهد شاهد من أهله في مؤتمر «تنصير العالم الإسلامي» فيقول: (بينما يوافق المنصرون على أن التحول لدينٍ آخر لا يجب، ولا يمكن أن يتم بالقوة، فإنهم ما زالوا يشعرون أيضاً بأننا ينبغي أن «نجبرهم على الدخول». وسوف يجادل المنصرون بأن العالم الذي نعيش فيه بحر كبير من الإقناع المضاد، وهذا أمرٌ أكثر شرعية وأكبر فائدة للجنس البشري). من بحث «الحوار بين النصارى والمسلمين وصلته الوثيقة بالتنصير» دانييل آر بروستر. التنصير (٧٧٠).

(٢) الإثنية: جماعة عرقية: إثنوس («الجماعة الإثنية» كما تعرف في العلوم الاجتماعية، هي التي تعتنق ثقافة تقليدية مشتركة، وشعوراً بالذات المستقلة، وتعد جماعة فرعية من المجتمع العام، ويختلف أعضاء الجماعة السلالية «الإثنية» عن باقي أعضاء المجتمع فيما يتعلق ببعض الخواص الثقافية، وقد=

■ لقد أثيرت مبادئ العلمنة على حساب المسيحيين وحدهم. بغية إجبارهم على تفكيك تنظيمهم الجماعي، بينما الإسلام ينجو من العلمنة متذرعاً بتداخله مع الدولة...

■ إن الأصولية الإسلامية... تمثل بالنسبة إلى المسيحيين تهديداً نوعياً. لقد أغفلت كل الاختبارات، وهي تنوي أن تعيد الأقليات الدينية إلى حرفية نظام اللامساواة الذي توجد أسسه في القرآن، لكنه حُدِّد في القرون الوسطى كأنه توضيح لعلاقات القوة التي أنشأها الغزو الإسلامي...

■ هل سيحتفظ القرن العشرين أيضاً للمسيحيين بمأساة أكبر؟ في الواقع، لقد جرت هذه المأساة تحت أنظارنا دون أن ندركها على حقيقتها، على مدى ستة عشر عاماً، عرض واقع الحال لائحة طويلة من نكبات لبنان... بالنسبة إلى جميع مسيحيي الشرق، وجود بلدٍ عربي حيث الجميع يتمكنون من أن يسيروا مرفوعي الرؤوس، ويعلنوا هويتهم وانتسابهم، ويعيشوا، دون عراقيل، معطيات العصر، كان يؤلف ضماناً وملاذاً.

أما الآن، وقد تلف النسيج الاجتماعي للبنان المسيحي مع استئصال السكان، ورحيل النخبة، وهبوط المستوى الدراسي، وخسارة مصداقية المؤسسات التمثيلية، وضعف المعنويات عامة، فأي مسيحي يمكنه أن يأمل بمستقبل مضمون في الشرق[1]...

= يكون لأفراد هذه الجماعة لغتهم الخاصة، وديانتهم، وبعض العادات المميزة، والأهم من ذلك شعورهم بالاختلاف عن محيطهم من ناحية، وبتوحدهم كجماعة تقليدية من ناحية أخرى. «المترجم») الإسلام والمسيحية. (١٩٩).

(١) ترى هل سيسمح هذا الفرنسي المتعصب، المتباكي على حال النصارى في لبنان ـ ولو نظرياً ـ أن يستقل المسلمون في فرنسا، الذين يبلغ تعدادهم قرابة=

■ في كل مكان، جو من العدوانية يحيط بالمسيحيين عندما لا يتفجر العنف دون إنذار على إثر حادثٍ تافه. إلى ذلك، إن الطوائف المسيحية مرتهنة منذ الآن لعلمية نزوح متزايد، وأن هروب النخبة من شأنه أن يقلل وضع الباقين دافعاً إياهم إلى الرحيل بدورهم.

هلا سيبقى بعدُ مسيحيون في الشرق في الألف الثالث؟ إذا لم نكن متأكدين من اضمحلالهم التام «البعض يبقون مع ذلك عن اقتناع، بالرغم من تيقنهم من حياة أفضل في الغرب» نعتقد أنهم يقتصرون على مجموعة من أفراد يعيشون مجهولين في المدن غير قادرين على مزاولة الحياة الجماعية التي لا بد منها للمحافظة على هويتهم. نظراً لعددهم الضئيل جداً، المعدوم الأهمية، لن يستطيعوا قط إلا أن يتقولبوا وفقاً للقيم المهيمنة، وأن يمتنعوا عن التمرس، بعملهم علانية، كمسيحيين)[1].

إن الغرض من سياق هذه المقتطفات ليس تفنيد مزاعم نصراني حاقد، بل الكشف عن طبيعة المؤثرات الخارجية، والحملات الاستثارية التي يصدِّرها نصارى الغرب لإخوانهم في الشرق، ليجعلوهم في همٍ دائم، وقلق مستمر، وتطلع إلى نصرة الأجنبي وحمايته، فيتخذوا بذلك موطئ قدم، إذا واتتهم فرصة للانقضاض. وهم بذلك يؤكدون ويعمِّقون «الانفصال» و«التقوقع» الذي يعيشه نصارى العرب بين

= أربعة ملايين نسمة بمقاطعة خاصة، (يتمكنون من أن يسيروا مرفوعي الرؤوس، ويعلنوا هويتهم وانتسابهم ويعيشوا دون عراقيل...)؟! لقد قامت الدنيا ولم تقعد في فرنسا حين أصرت طالبتان مسلمتان على ارتداء غطاء الرأس ـ وليس الوجه ـ في إحدى المدارس. فلم الكيل بمكيالين؟

(١) عن: المسيحيون في لبنان والمشرق (رؤى مستقبلية): الأبَاتي: بولس نعمان، د. كمال الصليبي، د. فريد الخازن. دير سيدة النصر. نسيبة ـ غوسطا ـ لبنان، طبعة ١٩٩٦م. (٦١ ـ ٨٥).

المسلمين، ولا يعالجونه، في الوقت الذي يزعمون فيه أنه من آثار تطبيق النظام الإسلامي. لقد خدع الغربيون نصارى الشرق إبان الحروب الصليبية فاستمالوهم إلى جانبهم، فلما تمكنوا أذلُّوهم، ولما دالت دولتهم في المشرق فروا وتركوهم يواجهون تهمة الخيانة والتواطؤ مع العدو. وهم بمثل هذه الكتابات يستزلونهم إلى مواقف مشابهة.

إن الخوف من المستقبل الذي تنتجه شحنات التشاؤم هذه، حملت نصارى العرب على التفكير الجاد، بل والشروع عملياً بالدخول في حوار مع المسلمين، بدلاً من القطيعة والركون الكلي إلى النصارى الغربيين، في محاولة لتهدئة المخاوف، وتحقيق المزيد من المكاسب التي تحققت لهم في هذا القرن.

ففي محاضرة للدكتور كمال الصليبي، أستاذ التاريخ في الجامعة الأمريكية في بيروت، ورئيس المعهد الملكي للدراسات الدينية في عمَّان، ألقاها في دير سيّدة النصر عام ١٩٩٦م في لبنان بعنوان «دعوة المسيحيين في الشرق إلى الانفتاح على الإسلام الحضاري»، يعرب فيها عن مشاعر النصارى العرب، وبواعث تلك المشاعر فيقول:

(المسيحيون في لبنان والبلاد العربية عموماً خائفون ـ أو على الأقل غير مرتاحين ـ بالنسبة إلى ما قد يخبئه لهم المستقبل، وذلك أكثر ما يكون للأسباب الآتية:

١ ـ أعداد المسيحيين في هذه البلاد ـ مطلقاً ونسبياً ـ هي في تضاؤل مستمر. وهذا التقلص في الوجود المسيحي في المنطقة مرشحٌ لأن يزداد حجماً وسرعة مع الوقت.

٢ ـ الدور المسيحي في القرار العربي ـ سياسياً واقتصادياً وحضارياً وفكرياً ـ هو أيضاً في تقلص مستمر، ومرشح لمزيدٍ من التضاؤل، مطلقاً ونسبياً. وفي لبنان الذي بقي حتى الأمس القريب آخر

موقعٍ للقرار المسيحي السياسي في العالم العربي، لم يعد المسيحيون قادرون على الاحتفاظ بالدور القيادي الذي كان لهم من قبل، إلى الحد الذي يريدون ويطمئنون إليه.

٣ ـ صوت العصبية والتطرف في الإسلام ـ وهو الذي يُدويّ حالياً، لسببٍ ما، على حساب الصوت الخافت للإسلام الحضاري المتعقل ـ لا يعطي الوجود المسيحي في العالم العربي ما يطمئن إليه هذا الوجود من الاعتبار، بل هو يبدو أحياناً، وكأنه يهدد استمرار هذا الوجود...

٤ ـ العلاقات والمصالح التي تربط بين العالم العربي والعالم الخارجي، لم تعد محصورة على الوسيط المسيحي المحلي إلى الحد الذي كانت عليه سابقاً.

٥ ـ اهتمام العالم الخارجي بمصير المسيحية والمسيحيين في الشرق لم يعد ملحوظاً وفعالاً إلى الحد الذي كان عليه في الماضي...

٦ ـ مراكز القرار المسيحي في العالم تبدو مهتمة بمحاورة الإسلام واليهودية لضمان المصلحة المسيحية العامة، تاركة للمسيحيين في الشرق الاهتمام بمصلحتهم الخاصة وحل مشاكلهم مع محيطهم الإسلامي إلى حدٍ كبير بأنفسهم)[1].

ثم يتساءل الدكتور الصليبي عما إذا كان ذلك يعني أن المسيحية في هذه المنطقة في طريقها إلى الزوال، وعن العمل المطلوب، ويستعرض عدداً من الحلول المطروحة ويقوم بتفنيدها، كالهجرة، والانعزال الجغرافي، وغيرها، ويخلص إلى رسم العنوان التالي: (حلٌ مستقبلي لا بد منه: يبقى حلٌ واحد لم يجرب بعد، وهو تغيير الخطاب

(١) المسيحيون في لبنان والشرق. «رؤية مستقبلية» (٣٧ ـ ٣٨).

المسيحي، والجهة التي يوجه إليها هذا الخطاب تماشياً مع التغيرات التي حصلت وتحصل في المنطقة وفي العالم...

المخرج على هذا الصعيد هو تنمية انتماء اجتماعي بديلٍ للانتماء الديني، يجمع بين الفريقين، ويلغي أو يقلل من التنافر في العصبية بينهما. ومن مصلحة الفريق الأضعف في المعادلة أن يكون هو المبادر في تنمية الانتماء المدني البديل...

لا بأس أن يحاول العرب المسيحيون عموماً، واللبنانيون منهم خصوصاً توجيه خطابهم السياسي والحضاري إلى محيطهم العربي الإسلامي الذي يشتركون معه في المصير. والذي لهم فيه أصدقاء وحلفاء طبيعيون، وأن يحصروا خطابهم على الشأن الديني في علاقاتهم مع العالم المسيحي الخارج. علماً بأن الخطاب السياسي مع العالم الخارجي لم يعد يلقى ما كان يلقاه سابقاً من آذانٍ صاغية. وإن الاستمرار في مثل هذا الخطاب هو في الواقع مضر في مصلحة المسيحيين في الشرق، لأنه يثير شكوك المسلمين ـ وعن حق ـ بشأن نواياهم)[(١)].

إن الكابوس المخيف الذي يجثم على صدور النصارى العرب هو ما يسمونه «الإسلام السياسي»، أو «الحركات الإسلامية الأصولية»، التي تسعى إلى تطوير نظام اجتماعي سياسي مستمد من الكتاب والسنة، يعيد وضعهم في «قالب» أهل الذمة. لذلك يشنون الحملات الضارية ضد هذا اللون من الاتجاهات ويتعاونون مع الإعلام العالمي في تشويه صورته وإبراز أخطائه.

ففي كتابٍ ألفه وزير لبناني سابق هو الدكتور ألبير منصور، بعنوان: «قدر المسيحيين العرب وخيارهم»، يعلن صراحة هذا العداء

---

(١) المسيحيون في لبنان والمشرق. رؤية مستقبلية (٣٩ ـ ٤١).

المستحكم قائلاً: (الإسلام السياسي تحدٍ مشترك يواجه جميع المسيحيين العرب، لأنه يعمل على قيام دولة دينية إسلامية، مصير المسيحي فيها إلى مصير الغربة. من موقع الضيافة، ضيفٌ عزيز في يوم الرخاء، ومتسامح معه في اليوم السواء، ومشبوه مذموم في يوم الشدة. ضيفٌ غريب في بيته ووطنه، لأن الدولة الدينية الإسلامية تصادر الوطن وتلغيه)(١).

ولذلك يفرق الدكتور كمال الصليبي بين «صوت العصبية والتطرف في الإسلام» الصادر من «دعاة العصبية والتطرف»، وما يسميه «الإسلام الحضاري المتعقل» الذي ينبغي أن يتوجه إليه خطاب الحوار. فيقول: (المسيحيون في جميع هذه البلاد، من هذه الناحية يواجهون الخطر ذاته الذي يواجهه الإسلام الحضاري المتعقل، الذي هو إسلام الأكثرية... وفي ذلك ما يجعل من العرب المسيحيين الحلفاء الطبيعيين للإسلام الحضاري، في مواجهة قوى التخلف في البلاد العربية)(٢).

ونحن لا نعلم المدلولات الدقيقة لمصطلح «التعصب والتطرف» من جهة، و«التحضر والتعقل» من جهة أخرى، لدى الكاتب، ولكننا نعلم قطعاً بوجود «إسلامٍ واحد» محفوظٍ من التغيير والتبديل، هو ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه. فإن كان الدكتور كمال الصليبي يقصد بالتعصب والتطرف قتل الآمنين النصارى القاطنين في بلاد الإسلام، أو العابرين أو المقيمين وفق عهد أو عقد، فنحن نتفق معه على ذلك الوصف، إذ ليس في الإسلام غدرٌ ولا غيلة ولا ظلمٌ ولا عدوان. وإن

---

(١) قدر المسيحيين العرب وخيارهم (٢٣٦). وانظر: مراجعة تركي علي الربيعو وتحليله العميق للكاتب والكتاب في مجلة الاجتهاد (٣٠/ ٢٦٣ ـ ٢٦٧) وما ذكره ألبير منصور من وصف الذم والشبهة في يوم الشدة لأهل ملته لم يقع في التاريخ الإسلامي إلا لوجود براهين وأدلة مادية على حصول تواطؤ وتآمر مع المستعمر والمعتدي. راجع نبذة تاريخية من التمهيد.

(٢) المسيحيون في لبنان والشرق «رؤية مستقبلية» (٤٠).

كان يقصد بذلك استجابة المؤمنين لما يحييهم، من إحياء ما اندرس من معالم الإسلام وشريعته، والعيش وفق تعاليمه السمحة العادلة، ويرى في المناداة بذلك تطرفاً وعصبية فلا، ولا كرامة. ولا يسع أهل الإسلام إقصاء دينهم، وتعطيل شريعتهم، إرضاءً لشرذمة طبع الله على قلوبهم، فأصروا على اتباع الباطل، وبطر الحق. وإننا ندعو أستاذ التاريخ في الجامعة الأمريكية أن يراجع التاريخ بصدقٍ وإنصاف، وسوف يجد من شهادات بني دينه ما ينصف المسلمين أو يكاد، من جنس قول المستشرق الإنكليزي أرنولد: ت. ويلسون[١] (من الحق أن نقول أن غير المسلمين نعموا بوجه الإجمال في ظل الحكم الإسلامي بدرجة من التسامح لا نجد معادلاً لها في أوروبا قبل الأزمنة الحديثة)[٢]. وقول غوبينو: (لا دين يضارع الإسلام في التسامح)[٣].

٣ ـ الباعث الاجتماعي:

عاش النصارى طوال القرون الإسلامية المتعاقبة «ذميين» داخل إطار المجتمع المسلم. لهم حقوق، وعليهم واجبات. ولا ريب أن الإسلام؛ عقيدة، وشريعة، وثقافة، وتاريخاً، ينظر إليهم نظرة دونية، ولا يضعهم على قدم المساواة مع سائر المسلمين. ولكنه في الوقت نفسه يحمي أشخاصهم وأعراضهم وأموالهم، ويفسح لهم مزاولة عباداتهم الخاصة، ولا يكرههم على الدين، كما تقدم[٤].

---

(١) سير أرنولد تالبوت ويلسون (١٨٨٤ ـ ١٩٤٠م) بدأ حياته عسكرياً، والتحق بجيش بريطانية في الهند. ثم عمل في القسم السياسي. وكان مستشاراً سياسياً في الخليج العربي. انظر: الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي. د. مازن المطبقاني (٤٥).

(٢) انظر: تعدد الأديان وأنظمة الحكم. جورج قرم (٢٣٧).

(٣) انظر: تعدد الأديان وأنظمة الحكم. جورج قرم (٢٣٨).

(٤) انظر مبحث: حكم الإسلام في أهل الكتاب من التمهيد.

والنصارى العرب يشيرون إلى تلك الحقبة إشاراتٍ بغيضة، ويعدون الرجوع إليها ضرباً من الإذلال والامتهان، دونه خرط القتاد، ذلك أنها تميّزهم اجتماعياً بأنماطٍ من المعاملة والسلوك في الملبس والمركب والعمل، (فلا زالت الشروط العمرية تخيف الذميين إلى اليوم)[1].

لذلك يعمدون في حوارهم مع المسلمين إلى الحديث باستفاضة عن الجانب الاجتماعي وحقوق المواطنة، والمساواة في كل شيء، وهو ما لا نجده بطبيعة الحال في الحوار الإسلامي ـ النصراني الغربي. إن النصارى العرب الذين وجدوا أنفسهم في عدة حالات ورقة في سوق المقايضات الدولية، يُساوم عليهم من جميع الأطراف، حتى من بني ملتهم، آلوا إلى شبه قناعة بأن الحل الأمثل والأجدى أن يسعوا جاهدين إلى إعادة ترتيب أوضاعهم الداخلية، ومحاورة جيرانهم المسلمين، الذين يعيشون بين ظهرانيهم، لضمان ما يرونه حقوقاً لهم، ودفعاً لما قد يتوقعونه غير ملائم لهم مستقبلاً. وهذا ما عبرت عنه رسالة بطاركة الشرق الكاثوليكَ حين تناولت موضوع الحوار مع المسلمين، وجاء فيها: (في زمن المخاض الحالي الذي يجتاح عالمنا، يبقى أن إحدى المشاكل الكبرى التي يواجهها هي علاقته مع مختلف الفئات الوطنية على اختلاف معتقداتها. إن المسيحيين والمسلمين تشاركوا في «العيش والملح» قروناً طويلة. وهذا ما يلقي على الطرفين مسؤولية متبادلة. فالإسلام يتحمل مسؤولية كبرى في هذا المجال إذ أنه مدعوٌ إلى تطمين المؤمنين المسيحيين الذين يعيشون معه في الوطن الواحد. إن المسلم في الشرق لا يستطيع أن يطور أي مشروع لنظام اجتماعي وسياسي من غير أن يأخذ بالحساب الجماعة المسيحية بشكل

---

(١) سعاد أبو الروس. مجلة الاجتهاد (٣١، ٣٢/ ١٢١).

يعطيها الثقة، لا بأن حقوقها الدينية محفوظة فحسب، بل أيضاً بأنها جزءٌ لا ينفصل عن حياة المجتمع، وكامل العضوية في الجماعة الوطنية، بما فيها من حقوقٍ وواجبات. من جانبهم، يتحملون مسؤولية مماثلة تدعوهم إلى التخلص من العقد الاجتماعية والنفسية التي خلفها لهم التاريخ)(١).

وتأسيساً على ذلك، فقد خصصوا رسالتهم التالية: «معاً أمام الله. في سبيل الإنسان، والمجتمع» للحديث عن «العيش المشترك بين المسلمين والمسيحيين في العالم العربي» جاء فيها: (من حق كل فئة وطنية أن تسهم في بناء المجتمع بجميع مجالات الحياة الوطنية فيه: «أجهزة الدولة والمؤسسات العامة والخاصة والوظائف والمصالح الاقتصادية وغيرها». وهذا يعني ألا يهمش أحد لسبب انتمائه الديني، أو لأي سبب من الأسباب، بل تتاح الفرص لكل مواطن، أياً كان، ومهما كانت عقيدته، لكي يجد موقعه في الحياة العامة بعيداً عن الحدود والحساسيات الطائفية)(٢).

ثم لم تكتف الرسالة بهذه الخطوط العامة بل شرعت في وضع النقاط على الحروف، وتطبيق القاعدة على المثال، في مجال الأسرة، والتربية الدينية في المدارس الحكومية، وصياغة الكتب المدرسية، والمؤسسات الفكرية والإعلامية، لترسيخ مفاهيم الأمن الاجتماعي لطوائف النصارى العرب، والأهم من ذلك كله التحذير من خلط الدين بالسياسة(٣).

إن الباعث الاجتماعي للحوار مع المسلمين لدى النصارى العرب

---

(١) الحضور المسيحي في الشرق. شهادة ورسالة (٤٥).

(٢) معاً أمام الله (٢٢).

(٣) انظر تفصيل ذلك في مبحث النصارى العرب (٥٠٠ ـ ٥٠٧).

باعثٌ أصيل، وهمٌ ماثل دائم، وإن كان في الحقيقة يمثل جزءاً من الباعث الأمني الأكبر؛ وهو الخوف من الاضمحلال البطيء.

ولذلك فهو ليس اجتماعياً صرفاً، بل هو اجتماعي مسيَّس؛ بمعنى أنه لا يكتفي بالمطالبة بالعيش المشترك، والمساواة الاجتماعية فقط، بل لا بد من أن تحميه قوانين الأنظمة الديمقراطية للحكم. يقول تركي الربيعو في مراجعته وتحليله لكتاب «قدر المسيحيين العرب وخيارهم» للوزير اللبناني السابق ألبير منصور: (منذ الصفحات الأولى للكتاب، يصر المؤلف على استبعاد مفهوم العيش الاجتماعي المشترك، فهذا جربناه كما يقول المؤلف، والذاكرة والتاريخ يختزنان الكثير من المآسي في هذا المجال... ما يصر عليه الباحث ومنذ البدء والبداية هو التعايش المشترك السياسي، والذي يقوم على قاعدة المساواة التامة والمطلقة: «المساواة المطلقة كينونةً وشرعاً، لا بالأمان ولا بالرحمة ولا بالضيافة ولا بالذمة ولا بالعهد» ص١١)[١].

٤ ـ باعث القيام بدور الوسيط في الحوار الإسلامي النصراني:

وهو دورٌ ما فتئ نصارى العرب يلوّحون به، ويتباهون بخصوصيتهم وتميزهم في إدارة دفته ـ سوى الأقباط لانفصالهم التاريخي والعقدي العميق عن العالم الغربي ـ فيقول بطاركة الشرق الكاثوليك: (إن المسيحيين في العالم العربي يتطلعون إلى أن يكونوا جسور حوار وتفاهم بين هذين العالمين المتقابلين. فالقرابة الحضارية التي تجمعهم، تؤهلهم أحسن تأهيل ليقوموا بهذا الدور الحضاري)[٢].

بل إن المطران جورج خضر ـ رئيس أساقفة جبل لبنان للروم الأرثذوكس ـ يبدي العتب حين يتجاوز الحوار الإسلامي المسيحي

---

(١) مجلة الاجتهاد (٣٠/ ٢٦٤).

(٢) معاً أمام الله في سبيل الإنسان والمجتمع (٥٣).

حاجز النصارى العرب أو يقفز عليه فيقول: (الحوار لا يكتمل ما لم يجرِ مع مسيحيي الشرق... المسيحيون العرب يحسون بتهميش إذا انحصر الحوار المسيحي ـ الإسلامي بالتلاقي بين المسلمين وأهل الغرب)[١].

وربما كان هذا الدور مطلوباً منهم من قبل المسيحية العالمية، كما أفصح عن ذلك الدكتور كمال الصليبي إذ يقول: (المسيحية العالمية اليوم تجد نفسها مضطرة إلى محاورة الإسلام، لأن الإسلام أصبح له وجود كثيف داخل ديارها، في أوروبا وأمريكا وأستراليا. ونظراً لذلك، فمن الطبيعي أن تشدد المسيحية العالمية على ضرورة قيام حوار مماثل بين المسيحية الشرقية والإسلام. والأجدى بالمسيحية الشرقية أن تكون هي صاحبة الدور الأول في محاورة الإسلام، لكونها هي المسيحية التي رافقت الإسلام تاريخياً، وخَبِرَته عن قرب. ولعل المسيحية العالمية تتوقع من المسيحيين العرب لعب هذا الدور)[٢].

وسواء كان هذا الدور بإيعاز خارجي، أم بقناعة داخلية، أم بهما معاً، فإن النصارى العرب يجدون في ذلك مهمة مميزة تعوضهم عما فقدوه من جراء تراجع الدعوات القومية والوطنية التي كانوا يأوون إلى كنفها.

(١) العلاقات الإسلامية المسيحية، قراءة في الراهن والمستقبل من: العلاقات الإسلامية المسيحية قراءات مرجعية في التاريخ والحاضر والمستقبل (٢١٠ ـ ٢١١)، وانظر: مبحث النصارى العرب: «الأرثوذكس العرب» (٤٣١).

(٢) المسيحيون في لبنان والشرق (٤١).

المبحث الثالث

بواعث التقريب لدى اليهود

سبق الحديث عن مفهوم «التقريب» لدى اليهود بما أغنى عن إعادته هنا. ويمكن أن نميز البواعث التالية في دعوة بعضهم إلى الحوار والتقارب:

١ ـ الباعث السياسي:

ويتمثل لدى يهود الشتات في تحسسهم للنمو الإسلامي المطرد في البلدان الغربية، وآثار ذلك المستقبلية على نفوذ الأقليات اليهودية. يقول الحاخام أندريا ل. ويس: (إنه يوجد الآن أربعة مليون ونصف مليون مسلم بالولايات المتحدة الأمريكية. ولقد تضاعف عدد المساجد والمراكز الإسلامية في هذه البلاد أربعة مرات ـ كذا في الأصل ـ خلال العشر سنوات الأخيرة. وأنه حتى عام ٢٠١٥م أي بعد اثنين وعشرين عاماً من الآن يقدر الخبراء أن عدد المسلمين سوف يتجاوز عدد اليهود، وسوف يمارس تأثيراً متزايداً على الفكر الأمريكي. إن الإسلام اليوم هو ثاني أكثر الأديان انتشاراً على مستوى العالم وعن قريب، سيصبح ثاني أكثر الأديان انتشاراً بالولايات المتحدة...

هل سيتعرض وضع اليهود السياسي والنفسي للهبوط؟...

إنه في عام ١٩٩٣م وليس عام ٢٠١٥م يجب علينا أن نتحرى ماذا يعني لنا نحن اليهود تزايد نمو الإسلام. إنه اليوم وليس بعد اثنين وعشرين عاماً من الآن، يجب أن نبدأ رحلة الحوار والالتحام)(١).

---

(١) شالوم ـ السلام (٥٨ ـ ٥٩).

ويحدد جوناثان د. سرنا الآثار المترتبة على تغير الهوية الدينية الأمريكية من جراء زيادة نسبة المسلمين على حساب اليهود بالنقاط التالية:

■ سوف يقل كثيراً عن الآن ما يتمتع به اليهود الأمريكان من الاعتبار في المنزلة ومن جانب الإعلام...

■ وقد يتعرض كذلك النفوذ السياسي لليهود إلى الهبوط في السنوات القادمة...

■ وقد يقع على إسرائيل الجانب الأكبر من المعاناة من جراء هذه التغيرات. إذ أن انحدار منزلة اليهود الأمريكان، مقترناً بصعود الإسلام بأمريكا، وبنمو الرشد السياسي لطائفة المسلمين الأمريكان، سوف يجعل من الصعب في الأيام القادمة الظفر بموافقة الكونجرس الأمريكي على منح إسرائيل المساعدات الضخمة. وبالفعل تتبع «لجنة العمل السياسي المسلم» سياسات مؤيدة للفلسطينيين. كما تعلم المسلمون الأمريكان من كثرة مراقبة كيفية عمل يهود اللوبي السياسي. ولذلك فهم يعتزمون مضاعفة نشاطاتهم السياسية في الانتخابات القادمة، ويأملون في انتخاب عضوٍ مسلم بالكنجرس الأمريكي بقدوم عام ١٩٩٢م)[١].

هذه بعض المخاوف التي صار يتوقعها اليهود على مستقبلهم السياسي منذ مطلع التسعينيات في الولايات المتحدة الأمريكية، ومن ثم في إسرائيل، من جراء النمو السكاني المبعثر للمسلمين، في أكبر معاقلهم خارج إسرائيل. ومع يقيننا التام بما نبأنا الله من أخبار يهود وصفاتهم؛ أنهم لن يألوا جهداً في الكيد للإسلام وأهله في كل مكان، كما هو ظاهرٌ جلي في التشويه الإعلامي المركز

(١) شالوم ـ السلام (٨٥ ـ ٨٦).

ضد الإسلام والمسلمين، إلا أنهم من إفكهم ليقولون: مرحى للحوار والتقارب مع المسلمين، فيخلص جوناثان د. سرنا إلى القول:

(وعلى الجانب المشرق الآخر، فإن بزوغ الإسلام، واتساع الثوابت في نسيج الديانة الأمريكية يمكن على المدى البعيد أن يوثق العلاقات بين المسلمين واليهود... فضلاً عن أن البيئة الأمريكية المحايدة سوف تساعد على إتاحة مستوى من التعامل الديني المشترك بين اليهود والمسلمين قد لا يتصور حدوثه في أي من البلاد العربية أو في إسرائيل)(١)

هذا نمطٌ من البواعث السياسية تجاه الحوار يحفز يهود الشتات إلى التقارب مع المسلمين. أما في إسرائيل ذاتها حيث يهيمن الفكر الأصولي العنصري فليس ثمَّ مجال لمثل هذه الطروحات، لكن على المستوى الرسمي، وتمشياً مع سياسة التطبيع التي تلف المنطقة، تسعى الدولة العبرية إلى ممارسة نمطٍ من التقارب مع الدول العربية والإسلامية بغية تحقيق أهدافٍ سياسية. فقد زار الحاخام الأكبر لليهود الأشكيناز «إسرائيل لاو» شيخ الأزهر محمد سيد طنطاوي في مكتبة الأزهر في ديسمبر عام ١٩٩٧م. كما شارك الحاخام الأكبر لليهود السفارديم «إلياهو باكشي» في ندوة للحوار بين الأديان، انعقدت في الرباط في مطلع عام ١٩٩٨م، وتلاها تصريحٌ للحاخام اليهودي مناحيم كرومان في فبراير من نفس العام بحصوله على تأشيرة دخول لإيران لتعزيز التفاهم بين اليهود والمسلمين، وتعيين حاخام أكبر لليهود في إيران.

---

(١) المرجع السابق (٨٧ ـ ٨٨).

٢ ـ الباعث الاجتماعي:

وهو باعث يجده اليهود حيث كانوا أقلية في المجتمعات النصرانية. (وقد لعبت الطائفة اليهودية عبر التاريخ دوراً هاماً جداً كزعيمة وناطقة بلسان الأقليات الدينية بأمريكا)[١] كما يقول جوناثان د. سرنا.

ونظراً لكون اليهود يعيشون أوضاعاً مشابهةً من بعض الوجوه للمسلمين في الجوانب الاجتماعية المعيشية، من حيث الالتزام بأحكام فقهية في العبادات والطهارات والملبس والمأكل ونحو ذلك، فإنهم يجدون في الاعتضاد بالمسلمين مصلحة لتحقيق بعض مطالبهم. وقد مثل لها الحاخام أندريا ل. ويس بـ:

■ القضايا الغذائية، المطالبة بالصلاة في المدارس والعمل، وقضايا الأسرة والعدالة الاجتماعية[٢]. وذلك أن القوانين المدنية الغربية لا تضع اعتباراً لمثل هذه المطالب، مما يحفز اليهود على التقارب مع المسلمين لنصرة مشروع قانون اجتماعي معين.

٣ ـ باعث الصد عن سبيل الله:

ولليهود في هذا البال تفنن عجيب، وإفك قديم، يوجب للمؤمن أن يقف منهم موقف الحذر التام، وظن السوء. كيف لا، وهم الذين حكى الله عنهم ما يلي: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [آل عمران].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾ [النساء].

---

(١) شالوم ـ السلام (٨٨).

(٢) انظر: المرجع السابق (٦٢، ٦٣).

ومن شواهد ذلك في قضية التقارب والحوار بين الأديان أن يتوصلوا إلى تحسين صورتهم، واستدراج المسلمين إلى تعطيل النصوص الواردة في ذمهم ـ كما صنعوا مع النصارى ـ ففي حصة التعليم اليهودية التي يعرضها التلفاز الفرنسي صباح كل أحد، تحدث الحاخام «جوزي آيزنبرغ» يوم ٤/ ٢/ ١٤٠٥هـ الموافق ٢٨/ ١٠/ ١٩٨٤م عن الحوار بين اليهودية والإسلام، وكان مما قال وهو يعدد محاسن الحوار: (إن ثمة افتراءات على اليهود في كتب النصارى، وقد ساعد الحوار الطائفتين على التحقق من هذه الافتراءات ورفعها من كتب النصارى... ولعل الحوار مع المسلمين يؤدي إلى حذف الافتراءات المقولة في كتبهم مع اليهود)[١].

ومن ذلك ما سبق عرضه من مقالة اليهودي «روفن فايرستون»: «إبراهيم أهو اليهودي الأول أم المسلم الأول؟» التي أراد من خلالها هز قناعة المسلمين (بأنهم وحدهم الذين لديهم الحقيقة المطلقة الفريدة)[٢] كشرطٍ للمضي قدماً في الحوار.

إن اليهود بما أوتوا من خبث ودهاء، وبما يملكون من تأثيرٍ إعلامي واسع يمكن أن يستغلوا قضية التقريب بين الأديان والحوار مع المسلمين خاصة استغلالاً بشعاً للوصول إلى بعض مقاصدهم الشريرة في الصد عن سبيل الله، وطمس معالم الحق.

وبالجملة فإن المبادرات والمشاركات اليهودية في برامج الحوار تختلف من حيث المنطلقات ـ المعلنة على الأقل ـ عن تلك التي تصدر عن النصارى. فبينما يزف النصارى مشاريعهم التقاربية وسط كوكبة من

---

(١) من تقرير لمكتب رابطة العالم الإسلامي في باريس مؤرخ في ١٢/ ٢/ ١٤٠٥هـ.

(٢) شالوم ـ السلام (١٠٩)، وانظر: مبحث حقيقة التقريب عند اليهود.

شعارات المودة والانسجام، والرغبة في التعرف على الآخر، والتعاون على إرساء القيم الإيمانية والخلقية ونحو ذلك. فإن المعتقدات اليهودية العنصرية تأبى إطلاق هذه الشعارات، ويلمس الباحث بشكل جلي الباعث المصلحي المكشوف. وقد لمس النصارى هذا الباعث في حواراتهم الخاصة مع اليهود، رغم ما يربط الفريقين من خصوصيات وولاءات مشتركة. يقول د. طارق متري ـ مسؤول العلاقات مع المسلمين في مجلس الكنائس العالمي ـ «اليهود يطلقون، ويشاركون في حواراتٍ كثيرة. لكن الذي يتابع الحوارات اليهودية مع المسيحيين، يلاحظ أنها:

- يغلب عليها الحساب السياسي.
- موظفة لخدمة المشروع الصهيوني.
- ابتزاز للمسيحيين.
- ليس فيها حوار حقيقي. فاليهود ـ أنفسهم ـ الذين يعنون بالحوار مع المسيحيين يقولون: إن الهدف من الحوار مع المسيحيين:

أولاً: أن يعترف المسيحيون بالجرائم التي ارتكبوها تاريخياً، وإلى حد الآن.

ثانياً: أن يطهر المسيحيون كتبهم الدينية، ونصوص صلواتهم من كل الإيحاءات المعادية لليهود والسامية.

ثالثاً: أن يعترف المسيحيون أن بين الشعب اليهودي ودولة إسرائيل علاقة خاصة، أي أن الحوار عندهم، لا علاقة له بما يتحدث فيه المسيحيون والمسلمون عن التعارف والتعاون»[1].

---

(١) من مقابلة مسجلة صوتياً، أجراها الباحث معه، في بيروت يوم الاثنين ٨/ ٤/ ١٤١٨هـ ـ ١١/٨/١٩٩٧م.

المبحث الرابع

بواعث التقريب لدى الإسلاميين العصرانيين

تنوعت بواعث التقريب لدى دعاته من الإسلاميين العصرانيين تبعاً للمتغيرات العالمية، واختلال ميزان القوى في غير صالح المسلمين من جهة، وبسبب الجهل وفقدان التأصيل الشرعي من جهة أخرى. حيث يحكم الهوى والمصلحة الموهومة، ويغلب إعجاب كل ذي رأيٍ برأيه. وهم في كثير من الحالات يجارون الطرف المقابل ويمالئونه على غير هدى من الله وبرهان، سيما والدعوة إلى التقريب غربية المولد والمنشأ والتوجيه، ولم تصدر عن اجتهادات علمية إسلامية موثوقة. ومن هذه البواعث:

١ ـ الباعث العالمي:

ويتمثل في الدعوة إلى التقارب مع العالم النصراني الغربي ـ باعتباره الممسك بمقاليد الحضارة المادية المعاصرة ـ والانخراط فيه، وتحقيق التجانس الذي تفرضه حال العالم اليوم من انفتاح بعضه على بعض. كما يصرح الدكتور رضوان السيد تحت عنوان: «الحوار الإسلامي المسيحي والعلاقات المسيحية» قائلاً: (ما نحتاج إليه جميعاً الانخراط في العالم المعاصر، والتعلم منه في مجالات القيم الإنسانية الرحبة، ونمو الذات في الآخر، والتعرف عليها فيه، ومشاركة العالم في آفاقه تأثراً وتأثيراً)[١].

---

(١) مجلة الاجتهاد (٣١، ٣٢/ ٣٣).

وكما يقول الفضل شلق تحت عنوان: «الحوار الذي لم يبدأ»: (إن علينا أن نعترف بالأمر الواقع، ونعمل كي نتجاوزه. ولن يكون هذا التجاوز ممكناً دون الأخذ بثقافة الغرب والانخراط بالعالم...)(١). ولعل الحوار والتقارب خير وسيلة لنقل القيم والثقافات عن طريق النّخَب «المثقفة» لتكوين أرضية مشتركة.

ومن القيم الإنسانية الرحبة في عالم اليوم، كما يراها هؤلاء «القبول بالتعددية». ومن شرطه الدخول في حوار مع الأطراف الأخرى. يقول سعود المولى: (إذا نظرنا إلى المستقبل القريب في عالمنا العربي والإسلامي فإننا نرى أن هذا العالم يسير باتجاه القبول بالتعددية الدينية، وباتجاه البحث عن سبيل حفظ هذا التنوع وحفظ العيش المشترك، وتطوير الصيغة السياسية الملائمة له... إن هذا السير الحتمي باتجاه المستقبل التعددي، والتعايشي، يحتم علينا أن نبدأ منذ الآن في تنكب طريق الحوار، وخوض غماره)(٢).

ومن الشعارات العالمية السائدة إعلامياً، المهتوكة عملياً، الدعوة إلى «السلم العالمي» ونبذ «الحروب». وقد حفلت بعض البيانات الختامية لمؤتمرات التقارب والحوار بهذه الدعوة(٣). وردد أصداءها بعض الإسلاميين العصريين كباعث من بواعث الحوار. يقول د. يوسف الحسن: (لا شك أن السعي نحو السلام بين المسيحية والإسلام هو أحد أصعب المهام التي تواجه الإنسانية. وإنه بدون سلام بين الأديان

---

(١) مجلة الاجتهاد (٣١، ٣٢/ ١١).

(٢) الحوار الإسلامي المسيحي. ضرورة المغامرة (١٧٨).

(٣) انظر: البيانات المسيحية الإسلامية: (٢/ ٥، ١٠)، (٤/ ١)، (٥/ ٣)، (٦/ ٥)، (٧/ ٢٩)، (٩/ ٤)، (١٠/ ٩، ٢١)، (١١/ ٢٠، ٢٨)، (١٣/ ١٩)، (١٦/ ٢، ٤، ١١، ١٢)، (٢١/ ٢٩)، (٢٤/ ٨)، (٢٥/ ١، ٢، ٩، ١٣)، (٢٦/ ٤، ١٥، ١٧، ١٨، ٢٤، ٣١)، (٢٧، ٩)، (٢٨/ ٨، ٩).

ستكون هناك حروب تملأ الكرة الأرضية وتأكل روح الإنسان. ولا سلام بين الأديان بدون حوار صادق ومخلص. إن هذا الحوار ضروري ونافع وممكن)[١].

ومن استزلال شياطين الجن والإنس لبعض الإسلاميين العصريين، التنصل من مقتضيات الإيمان؛ من الحب في الله، والبغض في الله، والمعاداة في الله، ومجاراة أهل الكتاب على القول بأن ما وقع في التاريخ من مجابهات مجرد «عداوات»، وليس نابعاً عن عقيدة إيمانية، سواء في حال الجهاد أو الدفاع، والاعتذار عما سلف، وكأنه جريمة أو عدوان، كل ذلك تأثراً بالشعارات العالمية المطروحة للاستهلاك الشعبي. فالدكتور يوسف القرضاوي يعد من أهداف الحوار الديني بين الإسلام والمسيحية: (تنقية العلاقات من رواسب الروح العدائية التي خلفتها الحروب الصليبية قديماً، والاستعمارية حديثاً، وإشاعة معاني الإخاء والإنسانية والمرحمة، وفتح صفحة جديدة لعلاقات أنقى وأصفى)[٢].

وهو كلام يحمل في طياته تخطئة سلف الأمة الذين بذلوا مهجهم في سبيل الدفاع عن دين الله، وعن بلاد المسلمين، كما أنه خيانة لهم أن نَصِمَ جهودهم، بترسيب الروح العدائية، وكأن الحديث عن حرب البسوس. كما يأسف المسلم أن يَنجَرَّ من ينسب إلى العلم والدعوة إلى استعمال المصطلحات المجملة التي لا تحمل نفحة الإيمان، وشعار الإسلام، بل هي إلى الشعارات الماسونية، أو التعبيرات الصحفية أقرب. ونحو ذلك حين يدافع الدكتور يوسف القرضاوي عن «روجيه

---

(١) الحوار الإسلامي المسيحي. الفرص والتحديات (٣٨).

(٢) أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة: د. يوسف القرضاوي. مكتبة وهبة. القاهرة. الطبعة الأولى (١٤١١هـ - ١٩٩١م). (١٧٦).

جارودي»[١] قائلاً: (إن الرجل ما زال على خطه الأول الذي يعبر عن الإسلام الصحيح، الذي يدين الحضارة الغربية، ويؤيد الشعوب المستضعفة، ويقف في صف الفقراء ضد الطواغيت المستكبرين في الأرض. فالرجل ضد الظلم والطغيان، ومع العدل والإحسان والرحمة، وهي أخلاقيات من جوهر الإسلام الذي هو رسالة أخلاقية بالدرجة الأولى)[٢].

إن هذه التعبيرات الغريبة على اللغة الشرعية المألوفة مثل: «الشعوب المستضعفة»، و«صف الفقراء ضد الطواغيت المستكبرين»، والتعبيرات القيمية المجردة من مضامينها الإسلامية المميزة، لتكشف عن تأثر الإسلاميين العصريين بالبواعث العالمية السائدة، وركوبهم عجلتها شعروا بذلك أم لم يشعروا.

وبالجملة فالقوم مسوقون نحو الحوار والتقارب، محكومون بالقانون العالمي السائد، ويرون في الخروج عن قيمه وأدبياته أمراً مستحيلاً، ومصادمة للأمر الواقع. وقد عد الدكتور الترابي من دواعي الحوار ومبرراته أنه (ضرورة عملية يفرضها الواقع العالمي، القائم على الاتصال، والاعتماد المشترك بين الأمم والشعوب والجماعات والحركات، مما يوجب علينا فهم الآخرين، وتفهم واقعهم، ومعرفة الحقائق للتعامل معها)[٣].

٢ ـ الباعث القومي والوطني:

وهو باعث يرمي إلىٰ إحلال «الرابطة القومية» و«الوطنية» محل «الجامعة الإسلامية» و«الرابطة الدينية». وقد ولد في أجواء الفتن الداخلية في حقبة الاستعمار الأوربي النصراني لممالك المسلمين، في

---

(١) انظر (محاولات روجيه جارودي للتقريب بين الأديان) في الباب الثاني.

(٢) مجلة المجتمع الكويتية العدد (١٢٣٣) وانظر: مجلة البيان اللندنية، الأعداد (١١٢، ١١٧، ١٢٤).

(٣) شؤون الأوسط. عدد (٣٦) كانون الأول ـ ديسمبر ١٩٩٤م. (٩١).

مصر والشام، في النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري. فقد تنمرت بعض طوائف النصارى العرب، وطالبت ـ رغم كونها أقلية ـ بصلاحيات واسعة، تجعلها على قدم المساواة والندية مع الأكثرية الساحقة من المسلمين، واستغلت في ذلك أسلوباً عنيفاً، محتمية بالاستعمار الأوربي، من أهل ملتها، كما جرىٰ في مصر سنة ١٩١١م بين المسلمين والأقباط، منذراً بعواقب وخيمة.

وفي تلك الأجواء نشأت دعوات تجاوز الأطر العامة للوحدة الوطنية بين عناصر الأمة، إلىٰ المناداة بوحدة الأديان، مدركة أن الولاء الديني هو سر التميز، وأساس الانتماء، فأرادت أن توهن عراه، وتحل رابطته، في سبيل صنم «الوطنية». وانبرىٰ من الفريقين كتّاب، وشعراء، وأدباء، رفعوا لواء «القومية»، و«الوطنية»، وخفضوا شأن الدين والاعتقاد، بدعوىٰ أن لا فرق بينها، وأنها متفقة المبدأ والغاية. ومن شواهد ذلك لدىٰ الإسلاميين العصرانيين:

* قال علي الغاياتي[1] مخاطباً:

وما أمة القرآن في مصر أمةً ترىٰ أمةَ الإنجيل أبغض جيلا
فإنا وأنتم إخوة في بلادنا أقمنا على دين السلام طويلا[2]

* وقال إسماعيل صبري[3] مخاطباً القبط، إثر اغتيال زعيمهم بطرس غالي:

---

(١) لم أجد له ترجمة.

(٢) ديوان «وطنيتي». علي الغاياتي (١١٣).

(٣) إسماعيل صبري (١٢٧٠ ـ ١٣٤١هـ): إسماعيل صبري باشا، من شعراء الطبقة الأولىٰ في عصره. من شيوخ الإدارة والقضاء في الديار المصرية. تعلم بالقاهرة، ودرس الحقوق بفرنسا. له ديوان بأسمه.

دين عيسىٰ فيكم، ودين أخيه «أحمدٌ» يأمرانا بالإخاء
لا يكن بعضنا لبعض عدوًّا لعن الله مستبيحي العداء[(١)]

* وقال أحمد شوقي[(٢)]:

أعهدتنا والقبطَ إلا أمةً للأرض واحدةً تروم مراما
نعلي تعاليم المسيح لأجلهم ويوقرون لأجلنا الإسلاما
الدين للديَّان جل جلاله لو شاء ربك وحَّد الأقواما[(٣)]

* وقال أحمد محرَّم[(٤)]:

تفرقنا الأديان والله واحد وكل بني الدنيا إلىٰ آدم انتمىٰ
وساوس ظل الشرق فيها مصفداً فما يملك الشرقي أن يتقدما
بني الشرق لا يصرعكم الدين إنني أرىٰ الغرب لولا الجد والعلم ما سما[(٥)]

---

(١) ديوان إسماعيل صبري (١٨٠).

(٢) أحمد شوقي (١٢٨٥ ـ ١٣٥١هـ): أحمد شوقي بن علي بن أحمد شوقي. أشهر شعراء العصر الأخير. يلقب بأمير الشعراء. أصله كردي، نشأ وأسرته في ظل الخديوي، بعث للدراسة في فرنسا، فدرس الحقوق، واطلع على الأدب الفرنسي. نظم الشعر في معظم أغراضه مديحاً وغزلاً ورثاءً ووصفاً، في الشؤون السياسية والاجتماعية والمدرسية، حتى صار على كل لسان، وعاش منعماً ثرياً. من آثاره: «الشوقيات» و«دول العرب» و«مصرع كليوباترة». وفي شعره غلو وكفريات. انظر: الأعلام (١/ ١٣٦).

(٣) الشوقيات (٣/ ١٤٤). وهذا ليس بمستغربٍ عليه، وهو القائل:

وجه الكنانة ليس يغضب ربكم أنْ تجعلوه كوجهه معبوداً
ولّوا إليه في الدروس وجوهكم وإذا فرغتم واعبدوه هجوداً

الشوقيات (١/ ١١١).

(٤) أحمد مُحرَّم (١٢٩٤ ـ ١٣٦٤هـ): أحمد محرم بن حسن عبد الله، شاعر مصري، حسن الوصف. تركي الأصل أو شركسي. ولد في شهر محرَّم فسمي به. عاش يتكسب بالنشر والكتابة. من آثاره: «ديوان محرّم»، «ديوان الإسلام». انظر: الأعلام (١/ ٢٠٢).

(٥) ديوان أحمد محرّم (٢/ ٩٤).

* وقال حافظ إبراهيم[(١)]:

متىٰ أرىٰ الشرق أدناه وأبعده ... عن مطمع الغرب فيه غير وسنان
لا فرق ما بين بوذي يعيش به ... ومسلم ويهودي ونصراني

* وقال معروف الرصافي[(٢)]:

إذا القوم عمتهم أمور ثلاثة ... لسان وأوطان وبالله إيمان
فأي اعتقاد مانع من أخوة ... بها قال إنجيل كما قال قرآن

وظلت هذه النعرات الجاهلية تجوس خلال الديار، تحاول إخفاء الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، والتسوية بين توحيد أهل الإيمان، وتثليث عباد الصلبان، حتىٰ صارت بذوراً لدعوة التقريب بين الأديان بصورتها الوافدة من الغرب النصراني في النصف الثاني من القرن الرابع عشر، وصارت هذه «الأدبيات» شواهد يرفع بها دعاة التقريب عقائرهم في كل محفل، ليتوصلوا بها إلىٰ تصحيح ما عليه النصارى، والحكم لهم بالإيمان في الدنيا، والنجاة في الآخرة. فليس كثيراً ولا كبيراً حينئذٍ أن يحفز صنم القومية والوطنية بعض متألهيه

---

(١) حافظ إبراهيم (١٢٨٧ ـ ١٣٥١هـ): محمد حافظ بن إبراهيم فهمي المهندس، شاعر مصر القومي. يلقب بشاعر النيل نشأ يتيماً، اشتغل بالمحاماة، ثم بالعسكرية، فألف مع بعض الضباط المصريين جمعية سرية وطنية، أثناء الحملة على السودان، فأعتقله الإنجليز. فلجأ إلىٰ الشيخ محمد عبده، فأعيد إلىٰ الخدمة. ثم تفرغ للكتابة نظماً وشعراً. له ديوان بأسمه، و«ليالي سطيح»، و«التربية الأولية». وفي شعره إبداع. انظر: الأعلام (٦/ ٧٦).

(٢) معروف الرصافي (١٢٩٤ ـ ١٣٦٤هـ): معروف بن عبد الغني الرصافي، البغدادي. شاعر العراق في عصره. ولد ببغداد، وتتلمذ لمحمود شكري الألوسي في علوم العربية وغيرها. من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق. كان جزل الألفاظ في أكثر شعره وفيه مجون وتحلل. له ديوان مطبوع، وكتب منها: «دفع الهجنة»، و«نفح الطيب في الخطابة والخطيب»، و«الأناشيد المدرسية». انظر: الأعلام (٧/ ٢٦٨).

للتقارب مع النصارى العرب، وتمييزهم على سائر بني ملتهم، بوصفهم عرباً أو مواطنين، وإشراكهم في مشروع الحوار الإسلامي النصراني، ووحدة الأديان.

وهذا ما يطالب به دعاة التقريب من الإسلاميين المعاصرين، الذين بعثهم باعث الرحم، للتوجه إلى نصارى العرب بالحوار. يقول سعود المولى: (إن المطلوب في هذا السياق بلورة الوعي المسيحي العربي بأنه شريك في الحوار، وليس ملحقاً بالكنائس العالمية، وبأنه شريك في المشروع النهضوي الحضاري، وبأن المسيحية العربية هي إسلامٌ حضاري وتاريخي، وهي ضحية الغرب الاستعماري، كما هي ضحية النظام العالمي وإفرازاته)[(١)].

وقد توج هذا التوجه تشكيل «فريق العمل العربي للحوار الإسلامي المسيحي» المكون من أعضاء مسلمين ونصارى من لبنان ومصر. وقد عقد عدة مؤتمرات وندوات منها: «المؤتمر العالمي الإسلامي المسيحي حول القدس» في القاهرة في مايو ـ أيار ١٩٩٦م ثم مؤتمر «مسلمون ومسيحيون من أجل القدس» في بيروت في يونيه ١٩٩٦م[(٢)].

والكاتب ينتقد مخالفيه من الإسلاميين، وينفخ في صورة النصرانية العربية ويخلع عليها من الألقاب ما لا تستحق، ويعلق عليها من الآمال في مجال الحوار ما هي أقل وأذل من أن تبلغه: (إن الإسلاميين الحركيين لم يشعروا بخطورة ترسيخ الفرقة بين أهل الأديان. بل انغمسوا في هذا الأمر بحساباتٍ تكتيكية انتهازية ضيقة

(١) الحوار الإسلامي المسيحي. ضرورة المغامرة (٢٢٥).
(٢) انظر في الباب الثاني «المحاولات الجماعية» التعريف بهذا الفريق ومحاولاته.

الأفق... ومن هنا الدور المركزي والكبير للمسيحية العربية، بالمشاركة مع المسلمين في إطلاق هذا الحوار على أسسٍ جديدة، دون المرور عبر الوسيط الغربي)[١].

(إن الأفق المفتوح أمام الحوار الإسلامي المسيحي على المستوى العربي، وهو أفق البحث عن مشروع حضاري عربي إسلامي نهضوي جديد، يطلق الطاقات المجتمعة من عقالها، ويفتح المجال أمام القوى الخلاقة والحية في العالم العربي)[٢].

٣ ـ باعث التصدي للإلحاد والانحلال الخلقي والمادية:

يكاد يكون الحديث عن هذا الأمر فقرة دائمة في البيانات الختامية لمؤتمرات التقارب[٣]، لكونه قدراً مشتركاً بين الأديان. والمدافعون عن فكرة التقريب والحوار يدفعون بهذا الباعث إلى الواجهة الأمامية لتسويغ شرعية هذه الدعوة.

يقول الدكتور يوسف القرضاوي في مستهل تعداده لأهداف الحوار الديني بين الإسلام والنصرانية: (الوقوف في وجه تيار الإلحاد والمادية، الذي يعادي كل الرسالات السماوية، ويسخر من الإيمان بالغيب، ولا يؤمن بألوهية، ولا نبوة، ولا جزاء، ولا قيمٍ روحية. وكذلك تيار الإباحية والانحلال الخلقي، الذي يكاد يدمر خصائص الإنسانية وفضائلها التي كسبتها من هداية النبوات)[٤]. ويقول أيضاً: (لا مانع في الإسلام من أن يقف أتباع الديانات السماوية الذين يتبعون إبراهيم الخليل ﷺ في خندقٍ واحد، وقد يختلفون في بعض الأمور،

(١) الحوار الإسلامي المسيحي. ضرورة المغامرة (١٧٧ ـ ١٧٩).
(٢) الحوار الإسلامي المسيحي. ضرورة المغامرة (٢١٠).
(٣) انظر: البيانات المسيحية الإسلامية جمع جولييت حداد.
(٤) أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة (١٧٥ ـ ١٧٦).

لكن بينهم من الأصول المشتركة ما يجمعهم ضد الذين ينادون بوحدانية الدولار، ووحدة السوق، ويعتبرون أن لا إله إلا المادة)(١).

إن حفاوة دعاة التقريب والحوار من الإسلاميين العصرانيين به، في مقام الحديث عن مثالب الحضارة المادية الحديثة تقدمه وكأنه البديل الكفؤ عن الدعوة إلى الله وهداية البشرية، وكأن الإسلام لا يستقل بكبح جماح السعار المادي، والانفراط الخلقي حتى ترفده النصرانية، ويدخل معها في حوار. يقول محمد مهدي شمس الدين: (يمثل هذا الحوار أولوية كبرى عندنا على مستوى العالم الإسلامي كله وعلى مستوى العالم، في مواجهة انحرافات الحضارة المادية التي تهدد إنسانية الإنسان، ويهدد أسلوبها الافتراسي الاستهلاكي كينونة الإنسان على الأرض...)(٢).

٤ ـ الباعث الدعوي:

يرى بعض الإسلاميين في «الحوار» وسيلة إلى الدعوة، أو دفع الشبهات عن الإسلام. وبصرف النظر عما إذا تم ذلك فعلاً، وعن أسلوب أداء تلك الدعوة وترتيب أولوياتها، فإنا نثبت أدناه تنظيرهم لهذه القضية باعتبارها أحد بواعث الحوار.

فالدكتور حسن الترابي يضع هذا الباعث في أعلى قائمة دواعي

---

(١) مجلة المجتمع الكويتية عدد (١٢٣٣). وانظر: مجلة البيان الأعداد: (١١٢، ١١٧، ١٢٤). ومن الجدير بالذكر أن مصطلحات «وحدانية الدولار ووحدة السوق» من إنتاج روجيه جارودي. انظر كتابه: نحو حرب دينية.
كما أن اليهود والنصارىٰ ليسوا أتباعاً لدين سماوي، ولا لإبراهيم الخليل ﷺ، كما أوهم الدكتور القرضاوي، بل قد رغبوا عن ملة إبراهيم، كما أن إبراهيم ﷺ ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾.

(٢) تأملات في صيغة الحوار الإسلامي المسيحي. مقدمة كتاب: الحوار الإسلامي المسيحي. ضرورة المغامرة (٢٢).

الحوار ومبرراته قائلاً: (إنه ضرورة شرعية لتبليغ الرسالة، وحمل أمانة الدعوة. فالأصل هو التفاعل التبليغي، وعدم جواز السكون)[١]. وهو في بداية الأمر مقابلة لمحاولات النصارى تبليغ دينهم: (بالطبع بدأت الكنيسة بالفعل السعي لهذا الحوار معنا من حيث تراه هي من تبليغها لرسالة النصرانية إلى المسلمين، ذلك أن مبادرة الفاتيكان بالاعتراف بالإسلام[٢]، هي محاولة لخلق قاعدة للحوار يقترب بها من المسلمين. كما أن دعوات مجلس الكنائس العالمي للمسلمين أن يأتوا إلى الحوارات أدت إلى حيرة من جانب المسيحيين، لأن لهم كنيسة منظمة تستطيع إدارة الدعوة، لكن ليس من جهة رسمية تمثل الإسلام حتى يدعوها لبرنامج هم واضعوه. إن ذلك يوجب علينا نحن الإسلاميون المنفعلون ـ كذا بالأصل ـ بهذه القضية، سواء كنا حركات أو أفراداً، اتباع إجراءات منظومة تبادر إلى وضع برنامج لهذا الحوار حتى يؤتي ثمرته في تبليغ أمر الدين. وكيفما قام علينا الآخر يريد أن يبلغنا رسالته، بينما نريده أن يسمع لنا، ونبلغه رسالتنا، ينبغي علينا أن نكون من المبادرين، لأننا أصحاب رسالة تجديد النصرانية. وعيسى ﷺ نفسه كان عليه أن يجدد الدين الموسوي، ويحمي بواطنه بعدما انتهى إلى ظواهر فحسب. وكذلك يقع علينا عبء تجديد المسيحية بالحوار، والرأي، وصياغة المناهج، وتأسيس النظم النموذجية الإسلامية)[٣].

---

(١) شؤون الأوسط. عدد (٣٦) كانون الأول/ديسمبر (١٩٩٤م) (٩١).

(٢) الواقع أن الفاتيكان لم يعترف بـ«الإسلام» بوصفه ديانةً من عند الله، كما أوهم الترابي أو توهم، بل جرت الإشارة إلى «المسلمين» وتحاشت دساتير المجمع الفاتيكاني الثاني وقراراته وبياناته عن قصد وإرادة مدروسة التعبير بلفظ «الإسلام» احترازاً منهم أن يحمل ذلك صفة الاعتراف. راجع حقيقة التقريب عند الكنيسة الكاثوليكية، المبحث الأول من الفصل الثالث من هذا الباب.

(٣) المرجع السابق (٨١).

ثم يتقدم الباعث الدعوي خطوة جديدة: (نحن مطمئنون الآن إلى أن العالم الغربي يتقدم إلى مرحلةٍ تحيط به فيها الحيرة في حياته. فقد كان بالأمس منشغلاً بقضايا المنهج الاقتصادي، وبالصراع الحربي والعصبي والقومي والطبقي، وبقضايا الصراع العسكري والأيديولوجي، وكيفية تأسيسه للسياسات العالمية، إلا إن ذلك انتهى الآن أو كاد، وبدأ الغرب نفسه مشغولاً بقضايا الحياة الجنسية، والجريمة، ومتاع اللهو المسكر، يحاول أن يضيع نفسه فيها. إن هناك قطاعات كثيرة جداً تعيش الآن ذلك الخواء الذي يجعلها تستشعر حاجة الإنسان إلى الإيمان والمعنى، وإدراك المعنى والغاية للحياة. إذا استشعر الغرب الحيرة في حياته فهو بذلك يكون أكثر استعداداً لأن يتلقى من الآخرين أن يهدوا إليه رسالة جديدة تشعر أهله بمعنى الحياة وغاياتها. لذلك ينبغي أن نخطط لحوار شامل يأخذ به كل مجتمعنا الإسلامي ليخاطب كل طبقات مجتمعاتهم، وبذلك نكون قد تمكنا من المخاطبة والحوار والتفاعل مع المجتمع كافة. ودخلنا عليهم الثغور والمداخل العلمية والثقافية والأمنية والدبلوماسية والسياسية والاقتصادية والفنية كافة)[١].

ولعمر الله إنها لمسوغات صحيحة لغاية مشروعة؛ ألا وهي الدعوة إلى الله تعالى، وتبليغ دينه، ولكن: أي إسلام يريد هؤلاء العصرانيون عرضه من خلال مؤتمرات الحوار وندواته؟ أهو الإسلام السلفي النقي القائم على توحيد الله واتباع نبيه ﷺ، الذي لا إسلام بحقٍ سواه؟ أم إسلام مهجن أعيد إنتاجه في معامل التكرير العصرانية فجاء خداجاً مشوهاً ملفقاً، لا يرى فيه الغربي إلا تقرباً إلى النصرانية التي ملَّها ومجها، ولم تعد تهديه في حيرته؟

ويلتحق بالباعث الدعوي، الرغبة في تحسين صورة الإسلام في

(١) شؤون الأوسط. عدد (٣٦) كانون الأول ـ ديسمبر ١٩٩٤ (٩٤).

نظر الغربيين. يقول د. يوسف الحسن: (هناك حاجة ماسة لوضع أسسٍ صحيحة من أجل حوار حقيقي. لأن الإسلام في المرحلة الراهنة، هو موضع حملةٍ ضارية في الغرب، دأبت على خلط الأوراق بين الإرهاب من ناحية، والإيمان والدين من ناحية أخرى. وبالتالي فإن الحوار يجب أن يكون متوازياً، بمعنى أن يساهم الغرب نفسه في إعطاء مساحةٍ من المكان والزمان لعرض الوجه الحقيقي للإسلام)[١].

٥ ـ باعث الرغبة في الحصول على اعتراف من أهل الكتاب:

ويستند هذا الباعث على فكرة مُسِفَّة يرددها بعض رواد الحوار من العصرانيين، مفادها أن الإسلام بحاجة إلى اعترافٍ من أهل الكتاب بانتمائه إلى الأصل الإبراهيمي. ومردها إلى مركب النقص، وفقدان الشعور بالعزة الإيمانية.

- **يقول الدكتور رضوان السيد:**

■ (فهم الإسلام نفسه من اللحظة الأولى باعتباره دعوة عالمية تشكل استمراراً لليهودية والمسيحية اللتين أراد منهما الاعتراف به، أو أنه أراد مزاملتهما على قدم المساواة في نطاق الميراث الإبراهيمي لدعوة الله، ودين الله)[٢].

■ (وبدا من ناحية أخرى توق المسلمين الشديد ليعترف بهم المسيحيون ديناً مستقلاً، كما اعترف بهم الإسلام باعتبارهم أهل الكتاب)[٣].

---

(١) الحوار الإسلامي المسيحي. الفرص والتحديات (٢٣). وسيأتي في الباب الثالث مناقشة لشبهات دعاة التقريب. انظر تحديداً (١٣٥٣ ـ ١٣٥٦).
(٢) مجلة الاجتهاد (٢٨/ ٥).
(٣) مجلة الاجتهاد (٢٨/ ١٠).

▪ (الإسلام كان يواجه تحدياتٍ ضخمة في بدايات عهده. وأهم تلك التحديات محاولته وضع نفسه في سياق التقليد الإبراهيمي، وسياق التقليد الكتابي، وحاجته في المسألتين إلى اعترافٍ من اليهود والمسيحيين)[١].

▪ (عرف الإسلام وعرف المسلمون... كل أنواع المسيحية: السريانية والأرثوذكسية وفرقهما وفروعهما، وعرف أخيراً المسيحيتين المسيطرتين اليوم: الكاثوليكية والبروتستانتية لكن الفرق بين الأوليين والحاضرين بالنسبة إليه، أنه عرف الأوليين وهو في مكانة المسيطر والمتحكم والسَّان والشارع بالمعاني كلها؛ وعرف الحاضرين وهو في أطوار الصراع والاستضعاف. ولكلا الطورين التاريخيين قوانينهما ومقتضياتهما. ففي الطور الأول امتزجت في مواقفه عناصر الدولة والسطوة والثقافة المسيطرة المطمئنة، وفي الطور الثاني تقاطعت في مواقفه عناصر الاكتفاء والتردد والضيق واليأس والغربة. لكن في الطورين كليهما ظل أمرٌ واحد قوي الحضور فيهما: الحاجة إلى الاعتراف؛ طلب ذلك في الطور الأول، واستجداه في الطور الثاني؛ لكنه ما استغنى عنه في الحالتين)[٢].

وهذا كلام يندى له الجبين، ويبعث على الاشمئزاز، ولا يصدر من مسلم فقه دين الله، وامتلأ قلبه بنعمته التي امتن بها على عباده المؤمنين إذ يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣] فمن يشعر بنقصٍ ما، أو حاجةٍ ما، لأمر يطلبه أو يستجديه، لم يكن مؤمناً بهذه الآية العظيمة، ولا فرحاً بها. وثم فرق بيّن واضح بين أن يطالب الإسلام والمسلمون أهل الكتاب

(١) مجلة الاجتهاد (٣٠/ ٤٢).
(٢) مجلة الاجتهاد (٣١، ٣٢/ ١٨).

بالإيمان بدين الحق ورسوله خاتم النبيين، والإقرار بأنه من عند الله فيلزمهم حينئذٍ اتباعه، والانخلاع مما هم عليه مما يخالف دين الإسلام، وبين أن يُصَّور ذلك الطلب بصورة الحاجة إلى اعتراف، أو محاولة استصدار شهادة تزكية، وحسن سيرة وسلوك. إن الكاتب بهذه الصياغة المتكررة يهين دينه حين يصفه بـ «محاولة وضع نفسه في سياق التقليد الإبراهيمي»، و«حاجته إلى الاعتراف من اليهود والمسيحيين»، و«إرادة مزاملتهم على قدم المساواة في نطاق الميراث الإبراهيمي»، و«توق» و«طلب» و«استجداء» المسلمين ذلك!!. وقد أغنى الله عباده المؤمنين عن شهادة المغضوب عليهم والضالين بصدق الانتساب إلى إبراهيم عليه السلام، وشهد بذلك بنفسه لرسوله والمؤمنين فقال: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [آل عمران]، وذلك بعد أن أكذبهم الله تعالى بانتحال إبراهيم عليه السلام فقال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران].

والمقصود أن بعض دعاة الحوار يرى أن في الدخول في الحوار مع أهل الكتاب اعترافاً ضمنياً منهم بانتماء الإسلام إلى سلسلة الديانات الإبراهيمية[1]. وربما طمع في الظفر بفقرة في البيان الختامي تنص صراحة على تصديق نبوة محمد ﷺ، وكلا الأملين خابا، فأهل الكتاب يحاورون الهندوس والبوذيين وسائر الأمم من الوثنيين والملاحدة، فمجرد الاشتراك في الحوار لا يحمل أي دلالة من قبيل ما

(١) وقد صرح الكاتب المذكور بهذا الهدف أثناء زيارتي إياه في مكتبه بمقر مجلة الاجتهاد في بيروت يومي الجمعة والسبت ٢٩، ١٤١٧/٥/٣٠هـ الموافقين ١١، ١٢/ ١٠/ ١٩٩٦م. وضرب لذلك مثالاً بمن يريد أن يركب سيارة سبقه غيره إلى ركوبها، ويرى أنه يستحق مقعداً فيها، ويحاول إقناع الركاب السابقين بأحقيته.

أراد هؤلاء. كما أن أهل الكتاب على مدى العقود الأربعة السابقة التي حاوروا فيها المسلمين لم يتزحزحوا قيد أنملة عن إنكار نبوة محمد ﷺ. فلم الخنوع لهم واللهاث خلفهم من قبل هؤلاء العصرانيين؟ ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩].

٦ ـ باعث التحالف مع النصارى لمجابهة اليهود:

يعلق بعض الإسلاميين آمالاً على الحوار الإسلامي النصراني لتحقيق مكاسب سياسية ضد اليهود بعد أن استولوا على فلسطين، وصاروا على رأس قائمة أعداء الأمة الإسلامية. ويتجلى ذلك في بعض فقرات البيانات الختامية لمؤتمرات التقارب[1] نختار منها أوضحها، وهو ما جاء في بيان قرطبة الصادر عن المؤتمر الإسلامي المسيحي الأول في شعبان عام ١٣٩٤هـ الموافق أيلول/ سبتمبر عام ١٩٧٤م، ونصه:

(٢٢ ـ تأكيد الحقوق الوطنية والإنسانية للشعب الفلسطيني، مع اعتبار منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي الوحيد لهذا الشعب. وتأكيد عروبة القدس، ورفض مشروعات التهويد، والتقسيم والتدويل، وإدانة الاعتداءات التي تقوم بها سلطات الاحتلال الإسرائيلي على الشعوب، والمقدسات الإسلامية والمسيحية، وبخاصة المسجد الأقصى، والمطالبة بإطلاق سراح جميع المعتقلين، لا سيما رجال الدين الإسلامي والمسيحي. وتأييد النضال للشعب الفلسطيني والمطالبة بتحرير جميع الأراضي العربية المحتلة)[2].

---

(١) انظر: البيانات المسيحية الإسلامية. جمع جولييت حداد، ذات الأرقام: (١/ ٥،٦)، (٧/ ١٨، ٣٢)، (٩/ ٥)، (١٠/ ٢٢)، (١٣/ ٣٠، ٣١)، (١٨/ ٢٨)، (٢١/ ٤)، (٢٦/ ٢٦).

(٢) المرجع السابق (٧١).

وقد يصور بعض دعاة التقريب اليهودية خصماً مقابلاً للإسلام والنصرانية، غافلاً عما أثبته القرآن العظيم من موالاةٍ بين الملتين ضد الإسلام كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة].

- **يقول محمد حسين فضل الله:**

(وقد نلاحظ... أن اليهودية في عصرها الجديد، في حركتها الدينية أو السياسية، بدأت تتحرك للتخطيط لإسقاط الدينين معاً، والسيطرة على مواقعهما، وإفراغ مضمونهما من كل معنىً حي يتصل بالقضايا الكبرى المنفتحة على الله والإنسان والحياة كلها، وللعمل على إثارة المشاكل داخل كلٍ منهما بالوسائل المخابراتية والسياسية والثقافية والاقتصادية، في كل ما يمثل الخطر على مصالحها المستقبلية التي تتحرك من أجل السيطرة على العالم)[١].

وقد يفرط بعضهم في الأماني فيتمنى أن يندد النصارى باليهود، أو على الأقل أن يتراجعوا عن بعض ما صدر منهم من بيانات إيجابية في حقهم. يقول صبحي الصالح مخاطباً منتدىً يضم بعض المسلمين والنصارى في لبنان: (ألا ليتنا إذاً نسعى جميعاً ـ يداً واحدة ـ على أن يجرد المجمع المسكوني تصريحاته المتكررة المتعلقة باليهود من كل لفظ أو مدلولٍ يمكن أن يستغله الصهاينة لأغراضهم السياسية)[٢].

لقد تمنى صبحي الصالح على المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني أن يخلي تصريحاته من أي جملةٍ في صالح اليهود، وكان نداؤه هذا في الثالث من حزيران يونيو من عام ١٩٦٥م، آخر أعوام انعقاد المجمع،

(١) في آفاق الحوار الإسلامي المسيحي. المقدمة.
(٢) عهد الندوة اللبنانية (٤٩٢).

وبعده بأقل من خمسة أشهر كان البابا بولس السادس يمهر بيان «علاقة الكنيسة بالأديان غير المسيحية»، تليه توقيعات آباء الكنائس في الثامن والعشرين من تشرين الأول اكتوبر من السنة ذاتها، وفيه يشيد البيان باليهود، ويمنحهم الخلاص، ويبرؤهم مما تعاقب النصارى عليه طوال القرون من تحميل اليهود خطيئة صلب المسيح، ويقدم لهم الاعتذار الحار، والاستنكار البالغ عما لحقهم من آلام واضطهاد، ويدعوهم إلى التلاقي على التراث الروحي المشترك بينهما، والتعاون والتقدير والحوار الأخوي(١).

وبعد ذلك بحوالي ثلاثين عاماً، وعلى مرمى حجر من مقر الندوة اللبنانية التي أطلق فيها الشيخ صبحي الصالح أمانيه، ينسج بطاركة الشرق الكاثوليك ـ وعامتهم من النصارى العرب ـ على منوال المجمع الفاتيكاني الثاني، فيصدرون رسالة إلى رعاياهم عام ١٩٩١م تتضمن نداءً إلى اليهود: (نتوجه إليكم أنتم إخواننا اليهود)، ويكررون ذلك في الرسائل التالية(٢).

ومن حلقات الموالاة بين طائفتي أهل الكتاب، والاعتذار عن الماضي أن الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية اعتذرت لليهود عن سكوتها عما تعرض له اليهود أثناء الحكم النازي لفرنسا، حيث لم يصدر عنها إدانة رسمية. والمعروف أن الكنيسة المذكورة نصحت أتباعها بالتعاون مع الحكومة التي يدعمها الألمان(٣) وذهبت نداءات دعاة التقريب صيحة في واد، ونفخة في رماد.

---

(١) انظر: المجمع الفاتيكاني الثاني (٦٢٩ ـ ٦٣١).

(٢) انظر: الحضور المسيحي في الشرق: شهادة ورسالة (٤٦).

(٣) برنامج «عالم بلا حدود» هيئة الإذاعة البريطانية. ليلة الخميس الموافق (١/٦/١٤١٨هـ ـ ٢/١٠/١٩٩٧م).